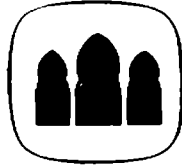




جامعة سيدي محمد بن عبد الله
مَشُورَاتُ كَلِيَّةِ الْأَدَابِ وَاللُّغَوِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِمَكْنَاسَ

عَرَعَمَاكُ نَذْوَةٌ





جامعة سيدي بجزير عبدالله
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس

عزيمالك نذوة



المدير : عبد الحميد لطفي
عميد الكلية

العنوان : كلية الآداب والعلوم الانسانية
ص. ب. : 4009 مكناس / المغرب
الهاتف : (5) 245—29/83—249

ت.د.م.د : 0851—2086

رقم الابداع القانوني
1988/524



أعمال ندوة الحاضرة الاسماعيلية الكبرى

اللجنة المنظمة
لندوة الحاضرة الاسماعيلية الكبرى



عبد الحميد لطفي

عبد السلام مشكوري

عبد الملك الرياحي

عبد الرحمن بن زيدان

علال الحجاج

خالد أعمار

ادريس أبو ادريس

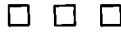
نعيمة قارا

محمد مباشر يازغي



ندوة الحاضرة الاسماعيلية الكبرى

البرنامج



اليوم الأول : الخميس 16 أكتوبر 1986

زوالا :

4 و 00 د : الجلسة الافتتاحية

كلمة معالي وزير التربية الوطنية

كلمة السيد عميد الكلية

كلمة اللجنة المنظمة

وضع الحجر الأساسي للشطر الثاني للكلية

زيارة المعارض

حفل الاستقبال

المحور الأول : المحور الطبيعي والاقتصادي

الجلسة الأولى : برئاسة ذ. عبد اللطيف فضل الله

المقرر ذ. عبد السلام مشكوري

أولا : الجانب الطبيعي

5 و 30 د : مكناس في بيئتها الطبيعية

ذ. ادريس الفاسي (ك.أ.ع.إ. الرباط)

ثانيا : تنظيم المجال والهاياكل الفلاحية في المنطقة الجنوبية الوسطى.

6 و 10 د : المنطقة الجنوبية الوسطى : التهيئة الزراعية في بوادي الأطلس المتوسط

ذ. إدليل عمر وذ. لحسن الجنان (ك.أ.ع.إ. فاس).

6 و 30 د : ملاحظات حول دور مدينة مكناس في تنظيم الجهة الوسطى الجنوبية.

ذ. محمد جرير (ك.أ.ع.إ. — المحمدية)

- 6 و 50 د : السكن القروي في سايس مكناس
 ذ. محمد مباشر اليازمي (ك.أ.ع.إ. مكناس)
 7 و 10 د : استراحة
 7 و 25 د : مناقشة العروض
 8 و 5 د : اختتام الجلسة

اليوم الثاني : الجمعة 17 أكتوبر 1986

صباحا :

الجلسة الثانية برئاسة : ذ. محمد جرير
 المقرر : ذ. محمد مباشر اليازمي

ثالثا : التمدين وتهيئة المجال الحضري

- 9 و 0 د : التطور الحديث لسكان مكناس وظهرها
 ذ. عبد اللطيف فضل الله (ك.أ.ع.إ. الرباط)
 9 و 20 د : بناء حرورية وتكون المجتمع الأوربي
 ذ. رقية بلمقدم (م.ت.ج. مكناس)
 9 و 40 د : تنظيم المجال الصناعي بمكناس
 ذ. عبد السلام مشكوري (ك.أ.ع.إ. — مكناس)
 10 و 00 د : اشكال العمران الذاتي بمدينة مكناس
 ذ. مولاي الحسان والزويت (ك.أ.ع.إ. مكناس)

رابعا : الاقتصاد الحضري

- 10 و 20 د : العلاقات بين القطاعات المنتجة بمكناس
 ذ. محمد بولسفان (ك.أ.ع.إ. فاس)
 10 و 40 د : البنيات التجارية بالمدينة القديمة بمكناس
 ذ. خديجة مبروكي (ك.أ.ع.إ. — فاس)
 11 د : نظرة موجزة عن الصناعة بإقليم مكناس
 ذ. عبد الكريم نشيد (م.ج.ق. — مكناس)
 11 و 20 د : استراحة
 11 و 35 د : الصناعة التقليدية من الحرفية الى التعاونية، مكناس نموذجا (بالفرنسية)
 ذ. محمد عبده (ك.ع.ق.ق.أ. فاس)
 11 و 55 د : الحرف الصغيرة بمكناس من أجل تعاونيات لليد العاملة (بالفرنسية)
 ذ. محمد صلاح الدين (ك.ع.ق.ق.أ. فاس)
 12 و 15 د : مناقشة العروض :
 اختتام الجلسة

المحور الثاني : الجانب التاريخي

الجلسة الثالثة برئاسة : ذ. محمد بنشريفية
المقرر : ذ. ادريس أبو ادريس

أولا : التاريخ القديم

- 3 و 30 د : قبيلة المكنيتيين من خلال النقائش والنصوص الاغريقية واللاتينية.
ذ. محمد مقدون (ك.أ.ع.إ. فاس)
3 و 50 د : علاقة وليي بباديتها في العهد الروماني
ذ. علي واحدي (ك.أ.ع.إ. فاس)
4 و 10 د : التطور الحضاري لوليلي (285 م — 808 م)
ذ. عمار اكراز (محافظ وليلي)
4 و 30 د : الاتحاف كمصدر من مصادر الدراسة الاركيولوجية وتاريخ الفن بمدينة مكناس
ذ. عبد العزيز توري (وزارة الشؤون الثقافية)
4 و 50 د : مناقشة العروض
5 و 15 د : استراحة
الجلسة الرابعة برئاسة : ذ. حسن بنحليمة
المقرر : ذ. ابراهيم القادري بوتشيش

ثانيا : التاريخ الوسيط :

- 5 و 30 د : مدائن مكناس القديمة من الفتح الاسلامي الى نهاية عهد الموحدين
ذ. محمد المنوني (ك.أ.ع.إ. الرباط)
5 و 50 د : علاقة مكناس بالاندلسيين والأندلسيين حتى نهاية العصر المريني.
ذ. محمد بنشريفية (ك.أ.ع.إ. — الرباط)
6 و 10 د : في التاريخ المونوغرافي : نموذج الروض الممتون في اخبار مكناسة الزيتون
ذ. بنسالم حميش (ك.أ.ع.إ. — الرباط)
6 و 30 د : الوجود المغربي في المشرق من خلال «تراجم أعلام من مكناس في مصادر مشرقية».
ذ. حسن الصادقي (ك.أ.ع.إ. الرباط)
6 و 50 د : مناقشة العروض
7 و 30 د : اختتام الجلسة

اليوم الثالث : السبت 18 أكتوبر 1986

صباحا

الجلسة الخامسة برئاسة : ذ. بنسالم حميش
المقرر : ذ. العربي السهلي

ثالثا : التاريخ الحديث

- 9 : التواصل الثقافي بين الحاضرة الاسبانية والزوايا الشراوية
ذ. أحمد بوكاري (ك.أ.ع.إ. مراكش) .
- 9 و 20 د : مساهمة علماء مكناس وفقهاؤها في حل مشاكل المجتمع المغربي مع بداية العصور الحديثة.
- ذ. محمد مزين (ك.أ.ع.إ. فاس)
- 9 و 40 د : رفع الالباس عن وضع الأسرى المسيحيين بمدينة مكناس (نهاية ق. 17 وبداية القرن 18)
- ذ. ادريس أبو ادريس (ك.أ.ع.إ. مكناس)
- 10 د : مناقشة العروض
- 10 و 30 د : استراحة
- الجلسة السادسة برئاسة : ذ. عبد العزيز توري
- المقرر : ذ. بوشتي بوعسرية

رابعا : التاريخ المعاصر

- 10 و 45 د : التدابير العسكرية في مدينة مكناس خلال ق. 19
- ذ. محمد اللحية (ك.أ.ع.إ. أكادير)
- 11 و 05 د : جوانب من مقاومة مدينة مكناس واحوازها للتدخل الفرنسي.
- ذ. محمد البكراوي (ك.أ.ع.إ. فاس)
- 11 و 25 د : الانتفاضات الشعبية بكناس : نموذج أحداث بوفكران 1937.
- ذ. بوشتي بوعسرية (م.ت.ج. مكناس)
- 12 و 45 د : مناقشة العروض :
- 1 و 15 د : اختتام الجلسة :

المحور الثالث : الثقافة والفنون والآداب

الجلسة السابعة برئاسة : ذ. علال الحجام

المقرر : ذ. عبد الرحمان بن زيدان

أولا : الثقافة في مكناس قديما وحديثا

- 3 و 30 د : النشاط الثقافي بمدينة مكناس قديما وحديثا
- ذ. محمد العراشي (محافظ بخزانة الجامع الكبير مكناس) .
- 3 و 50 د : الحركة الثقافية في مكناس خلال القرن. 12 هـ من خلال نماذج وأعلام.
- ذ. علال معكول (ك.أ.ع.إ. — مكناس)

ثانيا : مكناس في الآداب والفنون :

أ — الفن التشكيلي

4 و 10 د : فنان تشكيلي من مكناس : قراءة في أعمال محمد القاسمي
ذ. مليم العروسي (ثانوية محمد الخامس — البيضاء)

ب — صورة مكناس في الادب المغربي والأجنبي

4 و 30 د : مكناس في الادب المغربي

ذ. عباس الجراري (ك.أ.ع.إ. الرباط)

4 و 50 د : المدينة في التخيل الشعري

ذ. بنعيسى بوجمالة (م.ع.أ. — مكناس)

5 و 10 د : على هامش كتاب «في المغرب» لبييرلوتي (بالفرنسية)

ذ. جي دوجا (ك.أ.ع.إ. — مكناس)

5 و 30 د : مناقشة العروض :

6 و 15 د : اختتام الجلسة

صباحا

الجلسة الثامنة برئاسة : ذ. عباس الجراري

المقرر : ذ. محمد الوالي

ثالثا : التصوف والفنون الشعبية

أ — التصوف :

9 د : الجدبة العيساوية والهيسترية

ذ. عبد الله زهويو (مستشفى الأمراض العقلية بيرشيد)

9 و 20 د : بركة الشيخ الكامل

ذ. المليودي شغموم (ك.أ.ع.إ. — مكناس)

9 و 40 د : المأثورات الشعبية في كتب ابن زيدان

ذ. محمد بنعبد الجليل (ك.أ.ع.إ. — مكناس)

10 د : وصف مكناس في شعر الملحن

ذ. أحمد العلوي الديبي (ثانوية النهضة — مكناس)

10 و 20 د : أعلام الموسيقى بمكناس (البوعصامي نموذجاً).

ذ. عبد العزيز بنعبد الجليل (وزارة الشؤون الثقافية)

رابعا : الشعر الأمازيغي

10 و 40 د : شعر الأطلس المتوسط (بالفرنسية)

ذ. مايكل بيرون (ك.أ.ع.إ. الرباط)

11 و 00 د : الشعر الأمازيغي في الأطلس المتوسط (بالفرنسية)
ذ. محمد الطايفي (ك.أ.ع.إ. فاس)

11 و 20 د : مناقشة

12 : اختتام الجلسة

الجلسة التاسعة برئاسة : ذ. محمد الطايفي

المقرر : ذ. محمد الوادي

صباحا : ظواهر لغوية

3 و 30 د : دور المتغير «السائد» في قلب اتجاه القواعد في الأمازيغية (بالفرنسية)

ذ. الجلال السايب (ك.أ.ع.إ. — الرباط)

3 و 50 د : التداخل اللهجي في مكناس

ذ. عبد العزيز العماري (ك.أ.ع.إ. مكناس)

4 و 10 د : مناقشة العروض

4 و 55 د : اختتام الجلسة

بعد الزوال

الجلسة الاحتتامية

التقرير العلمي العام

كلمة المشاركين

كلمة السيد العميد

برنامج الموائد المستديرة

المائدة المستديرة الأولى

الجمعة 17 أكتوبر 1986 في الساعة 10 صباحا

الموضوع : شعر الملحنون في مدينة مكناس

برئاسة : ذ. عبد العزيز بنعيد الجليل

المقرر : ذ. حسن البحراوي

المشاركون :

— ذ. عبد العزيز بنعيد الجليل

— ذ. حسن البحراوي

— ذ. أمين العلوي الديبي

المائدة المستديرة الثانية

الجمعة 17 أكتوبر 1986 في الساعة 10 صباحا

الموضوع : ظواهر لغوية

برئاسة : ذ. ميلود الطائفي

المقرر : ذ. موحى الناجي

المشاركون :

- | | |
|-------------------------|---------------------|
| - ذ. حسين الوزاني | - ذ. ميلود الطائفي |
| - ذ. عبد السلام مشكوري | - ذ. موحى الناجي |
| - ذ. أحمد السعدي | - ذ. فاطمة صدقي |
| - ذ. محمد اليازغي مباشر | - ذ. جميلة الكيلاني |
| - ذ. محمد بناني | - ذ. محمد الوادي |
| | - ذ. الطاهر برادة |

المائدة المستديرة الرابعة

الأحد 19 أكتوبر في الساعة 10 صباحا

الموضوع : المصادر الأجنبية في كتابة تاريخ المغرب
ومدينة مكناس

برئاسة : ذ. محمد صلاح الدين

المقرر : ذ. بوشتي بوعسرية

المشاركون :

- | | |
|-----------------------------|----------------------|
| - ذ. محمد اللحية | - ذ. محمد بوكاري |
| - ذ. محمد مقدون | - ذ. أحمد السعدي |
| - ذ. علي واحدي | - ذ. محمد صلاح الدين |
| - ذ. ادريس أبو ادريس | - ذ. العربي السهلي |
| - ذ. ابراهيم القادري بوتشيش | - ذ. بوشتي بوعسرية |

- (1) انظر ثبت المؤسسات ومختزلاتها في نهاية البرنامج
- (2) تعقد جلسات الموائد المستديرة بمخاض الزباني القاعة 3 واليومي القاعة 4.
- (3) من الممكن أن تكون مائدة ظواهر لغوية على شكل معمل لغوي.

ثبت المؤسسات ومختزلاتها

- ك.أ.ع.إ : كلية الاداب والعلوم الانسانية
م.ع.إ : المدرسة العليا للاساتذة
م.ت.ج.. : المركز التربوي الجهوي
م.ج.ت : المندوبية الجهوية للتخطيط
ك.ع.ق.ق.أ : كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

تقديم

من حسنات ندوة الحاضرة الإسهام عيلية الكبري ،، انها خلفت رصيذا من الدراسات التي تغطي جوانب من تاريخ مكناسة حاضرا وغابرا، وذلك ما يقدمه هذا الكتاب وهو يستوعب مساهمات الندوة، فتنوع موضوعاتها، وتتناول واقع الاقصاد والبيئة بالمنطقة، الى ابحاث عن تاريخ المدينة وأصول السكان، الى الحياة المعرفية ومجتمع مكناسة وادابها وفنونها.

ومن حسن حظ هذه النكابة، أن شارك في عروضاها نخبة من الأساتذة اللامعين، بينهم جاحيون من كليات الآداب بالرباط وفاس ومراكش وأكدير ومكناس، ومن كلية العلوم بفاس.

وبذلك سجلت الندوة إضافة جديدة لتاريخ الحاضرة الإسهام عيلية، فتعزز أعمال كل من ابن غازي وابن زيدان، ثم تكمل محطيات الدراسات الجامعية الحديثمة للمنطقة، مما حقق لهذه المبادرة نجاحا مملها في تجربتها الأولى.

ومن هذه النتيجة فإن «كلية الآداب والعلوم الإنسانية» بمكناس، تسير على حداثتها سنيا - نحو أعمال

.../...

التقاليد الجامعية : بند وثمها الكبرى ، ورجلها
وهي تدخل سنتها الثانية ، فضلا عن الأنشطة
الأخرى للكلية : في محاضرات وندوات وعروض
ومعارض ، إضافة إلى التلقين والتوجيه ،
وكلها أعمال تعبر عن مدى كرم الكلية عمادة
وسعها وأسنادة ، ثم تطلعها لإكمال جامعتها ،
حتى تستوعب شعب التخصص ، وتستوفى
مستويات التعليم العالي ، والله سبحانه - ولي
التوفيق .

الرباط . الأحد 18 رمضان 1407 .
17 ماي 1987

محمد المنوني

كلمة السيد عميد الكلية

الأستاذ عبد الحميد لطفي

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد المرسلين

معالي وزير التربية الوطنية،
سعادة عامل صاحب الجلالة على إقليم مكناس،
السيد باشا مدينة مكناس،
السيد رئيس المجلس البلدي لمدينة مكناس،
السادة النواب المحترمون،
السادة العلماء،
زملائي الأساتذة الأعزاء،
معشر الطلبة والطالبات،
سيداتي وسادتي

يسعدني بادىء ذي بدء أن أتوجه بمجزيل شكري الى السيد وزير التربية الوطنية على تفضله برئاسة حفل افتتاح أشغال ندوة الحاضرة الاسماعيلية الكبرى التي تنظمها كلية الآداب والعلوم الانسانية بمكناس من 16 الى 19 أكتوبر 1986 في هذه السنة السعيدة التي تصادف الذكرى الخامسة والعشرين لتربع صاحب الجلالة والمهابة الحسن الثاني نصره الله وأيده على عرش أسلافه الميامين. وما هذه الالتفاتة الكريمة إلا تفسيراً فعلياً عما يوليه صاحب الجلالة دام له النصر والتأييد من عناية سامية بالبحث العلمي ورجالاته.

كما يسعدني أن أرحب بكل الضيوف الكرام الذين شرفونا بحضورهم المكثف الذي لاشك أنه سيساهم في إذكاء الحماس وتقوية العزائم، لمزيد من البذل والعطاء بهذه الكلية.

كما أنني أعبر عن تشكرااتي الحارة للسادة الأساتذة المشاركين في هذه الندوة الذين صدقوا ما وعدوا به فتحملوا عناء تهييء مداخلاتهم العلمية ولم يكلوا، وتحملوا أتعاب السفر فلم يملوا.

معالي الوزير

إن كليتنا الفتية لتعمل جاهدة على توسيع أنشطتها العلمية والتربوية، وهاهي ذي مجهوداتها تتبلور وتثمر سنة بعد أخرى، فقد تم تخرج الفوج الأول من الأساتذة المساعدين، والفوج الأول من المجازين في نهاية الموسم الجامعي المنصرم، ومنتظر أن تناقش في مدرجات هذه الكلية عدة أطروحات لنيل دبلوم الدراسات العليا ودكتوراه الدولة. كما يتبلور هذا الاهتمام في منشورات الكلية التي بدأت بإصدار العدد الأول من مجلتها في السنة الماضية، ومنتظر أن تصدر عددها الثاني عما قريب، إضافة إلى كتاب بليوغرافي — حول مكناس، مما يدل على حيوية حركة البحث العلمي بكليتنا هذه.

إن هذه المنجزات المختلفة ما كان لتحقق لولا دعم وزارة التربية الوطنية ومساهمة السلطات المحلية والمنتخبين وذلك في إطار العناية المولوية السامية لقطاع التعليم ولولا مجهودات السادة أساتذة الكلية الذين ما فتئوا يبذلون الجهد لنشر العلم والعرفان، والمساهمة في تنشيط الجو الثقافي داخل الكلية على صعيد المدينة والاقليم.

ولا يفوتني، قبل أن أنهى كلمتي أن أتقدم بالشكر الحار إلى سعادة عامل صاحب الجلالة على إقليم مكناس الأستاذ حمودة القايد على العناية الفائقة التي ما فتىء يوليها لكليتنا كما أنتهز الفرصة للتنبؤ بالدعم المستمر الذي لازال يقدمه المجلس البلدي لمدينة مكناس وعلى رأسه الأستاذ المختار المصمودي، كما أود أن أنوه بالتشجيعات والتفاتات رجالات العاصمة الاسماعيلية وكذا أعضاء الجمعية الاسماعيلية للوسط الجنوبي وعلى رأسهم سعادة والي الرباط وسلا على الدعم الكبير الذي قدموه جميعا لمؤسستنا في توفير كل الشروط لانجاح هذه التظاهرة العلمية.

وأخيرا أقدم أصدق الشكرات لكل الذين ساهموا من قريب أو بعيد في إنجاح التهيء العلمي والمادي لهذه الندوة من أساتذة وإداريين وأعوان.

والسلام عليكم ورحمة الله

كلمة اللجنة المنظمة

للأستاذ عبد الملك الرياحي

بسم الله الرحمن الرحيم
معالي وزير التربية،
سعادة عامل صاحب الجلالة على إقليم مكناس،
السيد باشا مدينة مكناس،
السيد رئيس المجلس البلدي،
أيها الاخوة الأساتذة،
سيداتي، سادتي.

في البدء، قر العزم منذ سبعة أشهر خلت على تنظيم ندوة علمية شاملة حول موضوع الحضارة الاسماعيلية الكبرى، إيماناً من كلية الآداب والعلوم الانسانية بمكناس بالدور المنوط بها في خدمة البحث العلمي، وتوسيع الأشعاع الثقافي، تطويراً تجربة ثقافية رائدة استمرت حية وفاعلة منذ افتتاح هذه المؤسسة الجامعية إلى الآن عرفت تنظيم ندوات ومناظرات ومحاضرات ولقاءات ساهم فيها عدد من الباحثين والمفكرين على اختلاف اهتماماتهم وحقولهم المعرفية، وذلك وعياً منها بالعلاقة الجدلية بين البحث العلمي والتنمية الشمولية جهويا ووطنياً.

وحيثما دعيت هذه اللجنة إلى إعداد مشروع مفصل لهذه الندوة، طرحت عدة قضايا محيرة كان من اللازم الاجابة عن تساؤلاتها المخرجة جزئياً، ولعل أهمها يكمن في أمرين اثنين :
أولهما : أن موضوع الندوة وهو «الحضارة الاسماعيلية الكبرى» موضوع يوهم بالتجزئية.
ثانيهما : أن حضور عدة حقول معرفية متجاورة جميعاً في ندوة واحدة قد طرح في البداية تخوفاً لا يمكن إخفاؤه (الآن).

وظلت هذه المحيرة الخلاقة تشغلنا فاتحة سبل ضبط المحاور وتدقيق صياغتها الى أن اتضحت الرؤية كاملة في مرحلة آخرة من مراحل الاستعداد، فأخذ اليقين يحمو آثار شكنا، والاقدم يلغي تخوفنا الخادع.
هكذا اقتنعنا بعد اجتماعات طويلة بأن مدينة مكناس تكتسي أهمية كبرى منذ أقدم العصور، إلا أنه يستعصي على الباحث، مع ذلك، العثور على المادة العلمية القمينة بتطعيم دراسته لها، إذ تظل في الغالب مادة مكتنية سجيئة الرفوف في المكتبات المغربية الخاصة لآتراها عين قاري بأحث إلا نادراً، أو مادة علمية

أجنبية لا يهتدي إليها إلا من جشم نفسه مشاق الرحلة، أو رسائل جامعية لم تر النور مما تسمها بمحدودية الأشعاع، وهذه لعمري معضلة تحم علينا أن نختار الحاضرة الاسماعيلية الكبرى، موضوعا لندوتنا، مع العلم أن ما يصدق على مكناس ليصدق على أهم الحواضر المغربية، مما يستدعي إعادة النظر في تصور البحث العلمي وأسبقياته في هذا الباب. غير أنه إذا كان من الصعب مرحليا القيام بهذه المهمة الشاقة كليا، لأسباب مادية وعلمية، فإن من الواجب السعي وراء تحقيقها جزئيا بدءا من معالجة الموضوع على مستوى هذه الحواضر واحدة واحدة.

وتأسيسا عليه، فإن اختيار الحاضرة الاسماعيلية الكبرى إشكالية رئيسية تدور حولها هذه الندوة، لا يجب أن ينظر اليه من زاوية الاقليمية الضيقة، مادام اختيارا أملتته شروط موضوعية اقتضت البدء من مكونات البنية الثقافية والفكرية الصغرى، حتى إذا سبرت أغوارها، وسوالت المسئلة النخبية الدقيقة، أمكن إذاك النظر الى الكلي الأوسع نظرة أكثر شمولا تسمح بالوصف العلمي المتأني للظواهر المراد تحليلها، ومن تم وجب التنبيه إلى أن للتجزيء ضرورة إجرائية في أفق الاحاطة ليس غير.

وانشغالا بهذا المهم أيضا اتضح البرر الموضوعي لتجاوز حقول معرفية مختلفة وتعايشها علميا في عالم ندوة واحدة كندوتنا، لأن طموح الاحاطة بفضاء الحضارة الاسماعيلية الكبرى لا يمكن أن يتم من خلال محو واحد دون غيره، وإن كان هذا التبرير لا يعفينا من الاعتراف بأن ندوة كهذه، ومهما تكون شموليتها لاستطيع تلبية سائر حاجاتنا المعرفية، غير أن ما شجعنا على المضي بعزم ثابت في إعداد مشروعنا، ونحن نعي مأزقه، هو كون هذه الندوة قادرة بتأكيد على اقتحام دائرة المسئلة : لتكون لنا جميعا شرف بدء حلقة من حلقات الأيام الاسماعيلية كمشروع علمي وثقافي تمنى صادقين أن يظل مفتوحا، حتى تغنيه الطاقات العلمية، والجمعيات الثقافية التي يجمعنا وإياها هدف واحد أساسه خدمة الثقافة والمعرفة في وطننا الشاخي.

واسمحوا لي أيها السادة أن أشكر باسم جميع العاملين بهذه الكلية كل من ساهم في تيسير سبل نجاح هذه الندوة من قريب أو بعيد، لأن ذلك منحنا المزيد من الثقة بالعمل الجماعي الهادف، ووطن النفس للاستعداد الدائم لتنظيم تظاهرات ثقافية أخرى إن شاء الله.

والسلام عليكم ورحمة الله.



السيد وزير التربية الوطنية يلقي خطاب الفتح الندوة



إمارة كاردوة كبرى



إحدى جلسات الندوة



حضور جمع من المثقفين والمهتمين
أثناء جلسة الانفتاح

المجور الطبيعي والاقتصادي

مكناس في بيئتها الطبيعية

الأستاذ ادريس الفاسي
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة محمد الخامس
الرباط

مقدمة

توجد مكناس في منطقة طبيعية شديدة التجانس. وقد وصل هذا التجانس حدا صار معه من اللازم توحيد تسمية الاقليم. فتحولت تسمية سايس التي كانت تخص بعض الجهات المحدودة شمال شرق مكناس وغرب فاس الى كناية عامة تعني مجموع السهول والهضاب الممتدة بين مقدمة الريف شمالا والأطلس المتوسط جنوبا وواديي بهت وسبو في الغرب والشرق على التوالي.

ومدينة مكناس متربعة بالذات فوق الهامش الشمالي الغربي لهذا المجال الواسع. الشيء الذي أكسبها جملة من المميزات الطبيعية التي تدل على حصافة في الاختيار.

فهو أولا، موضع تحمل المياه بنوعها السطحي والجوفي

إذ تلتقي فيه شبكة من الأنهار الدائمة الجريان في جلها، وإن كانت ضعيفة التصريف حاليا، وهي أبو فكران، ويسلان، الشجرة وسيدي علي الحاج، المجذوبة الى هناك بفعل المنخفض الصلصالي الموجود شمال المدينة في قدم كتلة زرهون.

كما أن انتشار المدينة فوق الهضبة الكلسية وإشرافها على حافتها الشمالية يجعلها تستفيد من انبجاس أهم العيون. تكمن أهمية هذه العيون في كونها تجتري مياه الفرشة الجوفية المائلة مع ميل الطبقات الصخرية من الجنوب نحو الشمال والمتجددة بفعل الامطار التي تهم كل الحوض السفحي بالإضافة الى استقبالها لجزء من المياه الغزيرة لفرشة الأطلس المتوسط الغربي.

يضاف الى كل هذا، النظرة الشمالية للحافة المنحدرة تحت المدينة، والتي تجعل منها حافة ظليلة، تقلل من وطأة التبخر وتجعل الميزانية الرابطة بين التهاطل وتبدد المياه ميزانية ايجابية تعطي للجهة رطوبة أعلى من الرطوبة المرتقبة في مثل هذا الوضع العرضي. وهو ما يفسر مغارس الزيتون الممتدة شمال مكناس الباقية دون شك عن تغطية كانت في الماضي أوسع وأكثر يرفع لها الفضل في تسمية مدائن مكناس «مكناسة الزيتون».

وهو ثانيا، موقع تتواجد فيه مختلف الصخور الأساسية، ذات المميزات التكاملية :

تشغل هضبة مكناس النصف الغربي من إقليم سايس، والأوسع كذلك حيث تبلغ مساحته 1500 كلمتر مربع. وهي تعرض على هذا الامتداد بنية يمكن تبسيطها في أنها عبارة عن تراكب ثلاث طبقات صخرية متفاوتة السمك تتمثل في غلاف عام من الاكلاس المتنوعة فوق فرشة من الرمال الصافية الجيدة، يأتي تحتها جوف سحيق من الصلصال. وهي صخور متعددة الفوائد تستعمل في البناء وفي جملة من النشاطات الصناعية.

ثالثا : تحيط بالمدينة أراض زراعية من النوع الممتاز، ورغم توسط الأمطار الفعلية

تلك إذن هي المزايا المعروفة عن المدينة والاقليم من الناحية الطبيعية، مياه ومواد نافعة للصناعة وتربة خصبة، وقد شكل هذا الثلاثي الأسس التي تحكمت في مراحل التعمير الحضري والزراعي على السواء، بمدة متفاوتة، على مدى الفترات التاريخية.

لكنه من المثير للانتباه أن العقود الأخيرة قد أبانت عن بعض مرافق الضعف أو التناقص على الأقل، ذلك أن سمعة الاقليم من حيث غزارة المياه لم تصمد أمام هزة الجفاف التي عرفها المغرب منذ أوائل السبعينات ولمدة خمسة عشر عاما تقريبا. ولا أدل على ذلك من نزوب أكثر من نصف العيون المنتشرة في مجموع الاقليم في تلك الأثناء. يضاف إلى ذلك بعض المشاكل المتعلقة بالمواد الأولية الصناعية كمسألة استهلاك المواد الكاربوناطية مثلا.

فما هي أسرار هذا الغنى الطبيعي ؟

وماهي مواطن الضعف فيه؟

ليس الغرض من هذا العرض الاسهاب في إفشاء الفوائد — فتهي مثل كل الموارد الطبيعية محدودة، خاصة في الأونة الأخيرة حيث اشتد الطلب عليها، بل الهدف بالذات أن نشير الى شبح الخصائص حتى لاتزول النعمة وذلك من حسن التدبير والسياسة.

سنبداً بلمحة سريعة مبسطة عن التطور الجيولوجي، الغرض منها معرفة دواليب التوازنات الطبيعية الضامنة للرخاء حتى يتيسر لنا سبيل التعامل معها، نسوق بعدها بعض نماذج الاستثمار السائدة في الاقليم والتي تستدعي الحذر أو إعادة النظر.

I التطور البالي — جغرافي وانعكاساته على المحيط المكناسي :

1 — موجز عن التطور الجغرافي القديم :

خلال الميوسين، والى حدود 5 مليون سنة قبل الحاضر (ق.ح) تقريبا كانت المنطقة عبارة عن مضيق بحري كبير تتكسر أمواجه على سفوح زهون والحاجب. تركت لنا هذه الحقبة طبقة من الصلصال يتراوح سمكها الهائل تحت مكناس ما بين 600 و 900 متر.

خلال جزء من البليوسين، عرف الاقليم نشرا رمليا، تحقق القدر الأوفر منه في ظروف قارية، الى حدود

3 مليون سنة ق.ح.

أتى بعده نظام بحيري خلف طبقة سطحية من الكلس الصافي. ومن الجدير بالذكر أن هذه البحيرة الواسعة قد تم إفراغها على مراحل وذلك بواسطة ميل للهضبة كلها في اتجاه الشمال جعل مياه البحيرة تتجمع في هامشها الشمالي، قبل أن تجف نهائيا، حوالي 1,8 مليون سنة ق.ح، ذلك كما يفسر سمك الرواسب الكلسية على الخط الواصل بين فاس ومكناس حيث يتعدى 40 مترا.... وهو كذلك ما سمح بتوطين صناعة الاسمنت.

2 - موجز عن بعض الانعكاسات الاستثنائية

أ - تحتاج صناعة الاسمنت الى مقادير هائلة من الكلس، ومن مستلزمات هذه الصناعة أن تكون الصخور الجيرية خالية من الرمل السليسي وكذا من المغنيزيوم الشيء الذي يحرم عليها مثلا اكلاس الأطلس المتوسط رغم ضخامة احتياطيها.

ثم بما أنه يؤخذ على الاكلاس القريبة من فاس، والسميكة محليا طبيعتها الرصاصية، بالنسبة للموجودة منها في الجنوب الغربي، حيث أنها ضعيفة التجانس من ناحي تركيبها الكيماوي ومساميتها، وطبيعتها الالتوائية في جهة الشمال الغربي، فإن مكانم الضاحية الشرقية لمكناس تبدو كأحسن المواقع لاستقرار هذه الصناعة في الاقليم على الاطلاق. وقد أفادت صناعة الاسمنت بكونها من أول المرافق المشغلة بالمدينة.

ب - أما الرمال، فهي رمال صافية يرجع السر في صفائها الى أسباب تطورية. فبما أن جلها نشر قاري لمواد يبدو أنها نزلت من الهضبة الوسطى وأن عملية النشر هاته قد تمت بعد فترة تفسخ طويل وعنيف وتسلط على هذا الموطن الأصلي حيث اندثرت كل المواد الفسوخة تاركة رملا صافيا حباته من الكوارتز الصالح للبناء أكثر من غيره، والذي يمكن استعماله في بعض الصناعات الأخرى كصناعة الزجاج مثلا.

ج - أما تواجد الثلاثي الصخري المتكون من الكلس والرمل والطين، حسب هذا الترتيب والنسق بالذات، فإن له تأثيرا حاسما على الذخيرة المائية الجوفية وطريقة توزيعها في الاقليم وذلك حسب النمط التالي :

علمنا أن الموارد التي تغذي الفرشة نوعان، تشكل المياه المطرية منها امدادا يقاس على أساس تماطل معدله 500 الى 600 مم. أما مياه الأطلس المتوسط فهي أهم وإن كان الصيب الذي يصل الى هضبة مكناس منها (2 م مكعب في الثانية) أقل من نصيب سايس فاس (7 إلى 8 م³/ث) لكن رغم هذا الضعف النسبي، فإن هضبة مكناس، بفضل بنيتها الصخرية، تستطيع أن تستفيد من المخزون المائي بصفة أوفى وأمثلة ذلك أن البنية التي تمر عبرها المياه تتصرف كما لو كانت معملا طبيعيا ضخما لتصفية الماء وبالتالي فهي تسمح بإعادة استعماله أكثر من مرة بدون عناء ولا كلفة. إذ بعد كل استعمال، زراعي منزلي أو صناعي يمر الماء المتسرب في طريقه إلى الفرشة.

أولا : عبر الكلس، الذي يظهره من الشوائب القذرة والجراثومية لكنه يشبعه بالكلس.

ثانيا : عبر الرمال، التي تزيل عنه آليا جزءا كبيرا من مضمونه الجيري.

أخيرا : تبعث القاعدة الطينية الماء الى السطح من جديد على شكل عيون وأنهار، فيكون الماء جاهزا

للاستعمال التام. ويبدو أن هذه العملية قد تتكرر محليا ست مرات !

د — تحول الصخور الى فسخات وأتربة هو من أبداع الأدوار التي تلعبها القاعدة الصخرية في تعاملها الطويل مع الاطار البيومناخي، تبدو الفسخات المتنوعة كحاصل تطور متفاوت ينتمي الى مختلف فترات الزمن الرابع. لا داعي هنا لجرد الرصيد التراي. فأكد أنه نظرا للوحدة النسبية للوضع المناخي في مجموع الاقليم فإن عنصر التغيرات الأساسي بين أصناف الأتربة يعود الى أنواع الصخر الأم.

ومن المثير للانتباه إن المناطق المجاورة التي تتلقى نفس مقادير الأمطار أو تزيد عليها قليلا، كمقدمة الريف مثلا، كانت تبدو جرداء في فترات الجفاف الكثيرة التي توالى على البلاد في الحقبة الأخيرة بالمقارنة مع سهول وهضاب السائيس التي تستطيع أكثر من غيرها أن تتجاوز الأزمة وأن تظهر بوجه مخضر يانع في جل الظروف، السر إذن تراي أكثر مما هو موناخي، وهو في الواقع مرتبط بالتكامل الحاصل بين التركيبية الترايبية الاجمالية أكثر من ارتباطه بالخصائص النوعية لكل تربة على حدة. فلنحاول أن نرى ذلك عن كتب.

تفسخ الكلس، يعطي أتربة طينية سمراء أو طينية رملية حمراء، تغلب إذن الدقة على نسيجها. أما الرمال فتعطي أتربة خشنة محمرة غنية بالحديد. كما تزود الأنهار والجاري الموسمية المتفرقة بالطمي أي بالنسيج المتوسط. انبساط الهضبة وميلها الخفيف في اتجاه الشمال يقضي بتحريك لكل هذه المواد وامتزاج بعضها ببعض الآخر الشيء الذي يخفف من الفوارق الترايبية حسب الصخور معطيا لجل المجال المكناسي، فوق الهضبة، نوعا من التربة السمراء المحمرة المختلطة النسيج. تسمى المادة الناتجة عن هذا التطور بالتربة الكاملة أو المتزنة.

تجلى مزايا التربة الكاملة في شدودها عن العيوب التي تعرفها الأتربة الأخرى لأنها في الواقع وسط بينها.

فهي في فصل الشتاء، ليست كالأتربة الخشنة والرملية منها على الخصوص، التي تسمح بالتسرب التام متعرضة التي تجفيف مبكر. ولا هي كالطينة الصفرة، والدقيقة منها على العموم، التي سرعان ما تحتقن رافضة جزءا كبيرا من المياه ليتبخر ويضيع. بل هي في موقع معتدل يسمح لها بامتصاص كل المياه مع الاحتفاظ بها مكونة ما يسمى بالذخيرة النافعة.

أما في فصل الصيف، فخلافا للرمال التي تصير شتيتة وقابلة للتدريه والأطيان التي تعرف تشققا عميقا يتبعه تجفيف تام للتربة التي تتحول الى كتل شديدة الصلابة تسحق الجذور وتقتل المادة العضوية، فإن التربة الكاملة التي تتوفر على مساميه متوسطة تتمكن مع حلول الفترات الجافة من تصعيد مخزونها المائي الخاص حسب قاعدة التصاعد الشعري، وبصفة جد متزنة مرتبطة بالطلب الذي تحدته الحرارة السطحية ونداء الجذور.

تلك هي عملية التعويض أو الأرتداد التي توجد في كل الأتربة بصفة متفاوتة والتي تبلغ معاملها الأعلى في الأتربة الكاملة. ومن المؤكد أن هذه الميزة تأتي على رأس قائمة الخصائص المرجوة من الأتربة في البلاد الشبه جافة الموسومة بالتضارب العنيف بين فصول السنة وبعاءة الفصل الجاف الذي لا يمكن التنبؤ بطوله ولا بمحدثه. إذ بهذه الطريقة يقع تخزين مياه الفصول السمان لتستفيد منه الفصول العجاف.

II من المشاكل البيئية الطبيعية:

مظاهر الوفرة التي تتحلل بها البيئة الطبيعية في محيط مكناس هي في الواقع غني ظاهري مبني على

حكمة طبيعية. وهي ما نجده في أحسن الظروف في بلاد النطاقات الشبه جافة، الضعيفة الاعتدال، والتي لا يمكن أن نتعامل معها كما لو كانت السهول الشمالية الوسطى للولايات المتحدة مثلا. ذلك أن الخصائص الطبيعي من الوجهة المناخية والنباتية المفروض بالضرورة على هذه النطاقات يوجد في إقليم مكناس مقنعا ومخففا بجملة من المزايا منها ما سبق ذكره والمترتب جلها بالحيز البنيوي العام كوجود الأطلس المتوسط في الجنوب والبنيات الصخرية الاقليمية وطبيعة تفسخ الصخور وتطورها الزمني... تلك هي الهالة والمستر المسدول على التوازنات الطبيعية الدقيقة. فبمجرد ما نسيء التصرف معها، يفلت الأمر من أيدينا وتختل التوازنات. والقاعدة الأساسية في التعامل هي معرفة الطاقات الطبيعية للإقليم والاستفادة منها في حدود ما يمكن أن توفر وحسب ايقاع قدرتها على التجديد حتى لايتلف رأس المال. وأكد أن الطلب على الرصيد الطبيعي، الصعب التجدد، قد اشتد في العقود الأخيرة بفعل عاملين أساسين : ضغط المراكز الحضرية وضغط الزراعة الحديثة ذات الصبغة التسويقية.

1 - قلب المعادلة بين الزراعة والمدين :

لن نتعرض هنا لمسألة الهجرة من الأرياف الى المدن ولا للتساؤل عن المردودية الانتاجية وقدرتها على توفير الكفاف للمجموعات البشرية في الأرياف، وبعد نزوح القوم الى المدينة. هذه إشكاليات يمكن طرحها على صعيد أوسع يهم كل البلاد المتخلفة.

أما من المسائل النوعية التي تهم الاقليم عامة وموارده الطبيعية على وجه الخصوص نجد مثلا ضرورة توفير مواد البناء المأخوذة أساسا من الكلس. المسؤولية المطروحة على هذا النوع من الانتاج جسيمة، ذلك أن عليه أن يواكب الطلب الجهوي وكذلك طلب الأقاليم المجاورة التي لا تتوفر على مواد أولية تكتمل فيها المواصفات اللازمة. ضغط الطلب على وحدات الانتاج هو في الواقع ضغط على كلس مكناس، وما هذا الكلس الأفسرة دقيقة تسليح هضابا بادية الصلابة لكنها في الواقع تغلق شيئا من الرمل وكثيرا من الطين. فهي إذن حزام سلامة موضوع فوق بطن مائع يشرف، مع مدينة مكناس، على الحافات العالية المقابلة لكتلة زرهون والذي يزيد من اختلالها أنها متشكلة في أطيان نفوخة من صنف السمكيت الشديد الادانة والمطاوعة. يبدو إذن أن هذا التطور من شأنه أن يخلق بعض المضاعفات على صيانة المدينة من جهة والحقول المجاورة من جهة أخرى. والمسؤولية في نظرنا ليست موضوعة على عاتق معامل إنتاج مواد البناء، فهي ليست بهذا المستوى من البساطة، بل تتعدها بكثير، إذ هي بالذات المسألة الحضرية المطروحة في بداية هذه الفترة والتي كان من المفروض أن تخضع لاختيارات سابقة.

خلاصة القول أن مظاهر التمدين والتحديث فرضت على الاقليم أن يجري وراء الحاجيات تحت تأثير طلب مستمر. وهو في هذه الحركة لايدل من ثوبه الصخري الثمين فحسب، ولكنه بصفة أشمل وأخطر كذلك يحاول إرضاء الطلبات المائية المتزايدة في كل الميادين.

2 - التوازن المائي في مواجهة الحاجيات الملحة :

سبق أن ذكرنا صبغة التوازن المائي هنا، ومدى علاقته الوثيقة بالبنية الصخرية وكيف أن الساييس يجعل من الماء طاقة متجدد، لأنه يسمح بإعادة استعمالها عدة مرات في طريقه عبر الهضبة منذ تسربه الأول مباشرة بعد خروجه من عيون قدم الأطلس المتوسط واستعمالاته الأولى من طرف المزارعين الى أن يصل الى الهوامش الشمالية، مغديا الروافد اليسرى لنهر سبو.

لكن ارتفاع الطلب في الحواضر الكبرى يفرض الآن ضمان موارد مائية قارة ومتزايدة ومن ذلك خلق منشآت لتلقف المياه من أمهات العيون النابعة في قدم الجبل وفي عالية الساييس كعيون بطيط — أكمگام، وتحولها في أناييب كتيمة لفائدة المستهلك الحضري. فبغض النظر عن مظاهر التنافس بين الاستعمالات الزراعية والحضرية، هناك من ناحية الميزانية المائية الاجمالية لإبطال لعمليات إعادة الاستصلاح الطبيعية التي كانت تجري في الساييس. فتصير الحاجيات المنزلية والصناعية للمدن الكبيرة كنفاس ومكناس تسدد مباشرة بمياه الأطلس المتوسط الجوفية والسطحية. وهي بذلك من جهة تتخطى هضاب الساييس وتحرمها من مياه عاشت عليها منذ أن صارت مجالا قاريا، ومن جهة أخرى ترهن المستقبل العمراني والاقتصادي للأطلس المتوسط الشمالي الغربي. فأكد أنه يصبح لزاما على الجبل في هذه الظروف أن يواصل انزواءه في دوره الدائم، والضروري دون شك، كخزان ماء للسافلة وأن تحجم عن أي اقتطاع للماء فوق الجبل نفسه، من شأنه أن يضر بمصالح الساييس، لكن يجب التذكير بأن الأطلس المتوسط والغربي منه على الخصوص، هو قبل كل شيء خزان ماء وطني. وإن المشاريع الزراعية والتشجير المرتقبة في بعض أجزائه يجب أن تؤخذ بالاعتبار داخل المنظومة المائية بمختلف مقاييسها : المقياس المحلي في الجبل ذاته، والمقياس الجهوي الرابط بين الجبل والسهول التي يشرف عليها المقياس الأكمل الذي يمتد الى سهول الغرب والمغرب الأوسط.

الغرض من هذا التحليل أن نذكر أنه ما دمنا نتعامل مع البيئة الطبيعية، فلا يمكن أن نخضع المشاريع الى التراتبية الادارية التي تميز بين ما هو محلي وما هو فوق ذلك، الآليات الطبيعية مترابطة، وخاصة في بلداننا المتميزة بالشح من هذه الناحية، فأى تدخل في أي إقليم كان يجب أن يراعى المصالح العليا للجميع. نلاحظ من جهة أخرى أن التنافس على الماء لا يطرح بين الأرياف والمدن فحسب ولكن حتى بين مختلف أتماط الاستغلال الزراعي نفسها.

3 — هل هناك مواجهة بين الزراعة العصرية والتقليدية :

ساييس مكناس من المناطق التي عرفت أكبر توسع للاستعمار الزراعي ذي الاستثمارات العالية وقد ضرب المزارع الأجنبي صفحا على الهياكل العقارية ونماذج الاستثمار وتهيئة المجال التي كانت سائدة آنذاك في دفعة واحدة، واحتكر كل الأراضي الهضبية المنبسطة التضاريس لأنها قابلة للتقطع العقاري الكبير والميكنة، ولأنها تتوفر على أترية جيدة تسمح بالزراعة الأحادية المتخصصة والتسويقية، ثم دفع بالأهالي الى الأجراف الوعرة والسفوح القوية، المرافقة للأودية كبعض أجزاء وادي كل وبوفكران وويسلان والشجرة وعالية مكس، على أساس أن الزراعة التقليدية الفقيرة قادرة على أن تتعامل مع تلك الأراضي العنيفة الانحدار، وإن الفائدة المائية المرتبطة نظريا بالأنهار ليست كثيرة هنا. فالأنهار الساييسية المتعمقة هي في الواقع روافد صغيرة قليلة الصبيب. أما المستوطن فوق الهضاب فبإمكانه أن يصل الى الذخيرة المائية الأهم بواسطة المضخات الآلية المنبثة في الاستغلال الحديثة.

هذا هو الوضع الذي ورثناه عن التجربة التي دامت زهاء نصف قرن، والتي يتحكم في المنظر الزراعي للساييس الغربي : فوق الهضاب، مجالات واسعة، جميلة، عصرية، مسقية ومثمرة... وتكاد تكون خالية من السكان في حين نجد كثافات مهمة من سكان الأرياف، تتجمع على السفوح والأجراف التي تأكلها التعرية والمشرقة على أودية تكاد تكون خالية من الماء. ببديهي أن هاته هي الأقوام التي تطعم أفواج النازحين الى المدينة.

خاتمة

يبدو جليا أن اختيار الموقع لاقامة مدينة كمكناس، كما هو الشأن بالنسبة لفاس والمراكز المجاورة الأخرى، قد خضع في العصر الوسط لمعايير مضبوطة منها الاستراتيجي دون شك، ولكن منها كذلك، وربما بقدر أكبر، ما هو بيئي، تم تمييزه واختيار إمكاناته.

يمكن الاعتقاد أن نماذج التحضير والزراعة كما يمكن أن نستشفها من تحليل العلاقات الموجودة بينها وبين البيئة الطبيعية قد وضعت على أساس معرفي موافق لعصره وللممكّنات الطبيعية في آن واحد.

بعد ذلك، وخلال النصف الأول من القرن العشرين على الخصوص قلبت النماذج، وليس في ذلك ضير، لأن الحاجة كانت ماسة للسعي إلى الابتكار والخروج من الجمود. لكن الأنماط الجديدة المفروضة لم تكن بطبيعتها تراعي إلا مصالح الأقلية التي كانت قابضة على زمام الأمور، حيث كانت، في شتى ميادين النشاط البشري من تمدين وتصنيع وزراعة، تُميّز بما يمكن أن نصلّح عليه بالطابع «الافراغي». لذلك كان السلوك الحتمي المؤدي إلى هذا الغرض هو ليس فقط الاستخفاف المطلق بمصالح الأهالي، بل وكذلك عدم الاكتراث للممكّنات الطبيعية نفسها. نتج عن ذلك استغلال «منجمي» للمجال، يشفي المصالح الآنية ولا يقيم أي وزن لمستقبل البلاد.

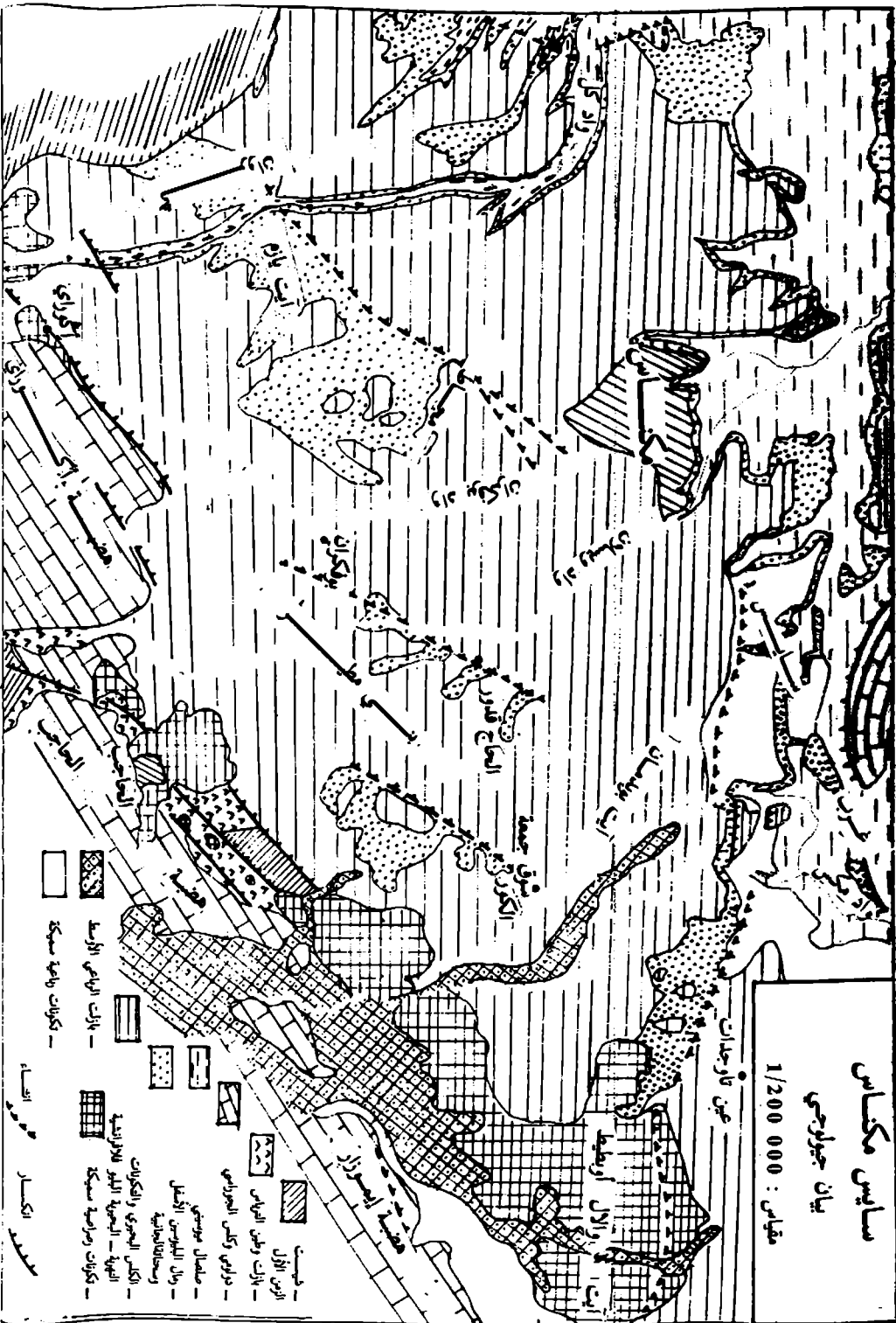
أما في الوقت الراهن، وقد بدأت مضاعفات هذا المسلسل تنبري في الأفق حيث أننا نواجه إمكانية نضوب جزء من المياه واختلال ميزانيتها في الاقليم كما نلاحظ الضغوط الكبيرة على القاعدة الصخرية والرصيد التراخي، فقد آن الأوان لأن نتمعن التفكير مليا في النماذج القائمة على أساس إصلاح ما يمكن إصلاحه على ضوء معرفة عميقة وعلمية بالتوازنات الطبيعية وحرص دائم على ضمان العدالة الاجتماعية والشخصية الحضارية.

سائيس مكنايس

بيان جيولوجي

مقياس : 1/200 000

عين تازة



- جبل
- الارض الأولى
- بازل وفق الهياكل
- دولبي وكلي المرزاني
- عسل بليني
- رمال البوسين الأولى
- رسوبات ليمونية
- الركن الهيمي والكورنت
- التيمية - التيمية البدر اللواندية
- كوزات رمانية سميكة
- كوزات رمانية سميكة

الجهة الوسطى الجنوبية إشكال التهيئة الزراعية في بوادي الأطلس المتوسط

الأستاذان لحسن جنان وعمر إديل
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
فاس

تندرج هذه المداخلة في إطار محاولة فهم المجال القروي المغربي بصفة عامة والنطاق الجبلي بصفة خاصة، وذلك من خلال التركيز على العوامل التي تتحكم في هيكله هذا المجال ومدى تفاعلاتها، وتحديد ميكانزماتها التي تؤدي الى تحولات وتغييرات على مستوى البنيات الاجتماعية والمجالية. هذه التحولات التي أصبحت الميزة الأساسية للعالم القروي خلال السنوات الأخيرة.

ونحن مقتنعون بأن النماذج التي سوف ندرسها لا تغطي كل مجال الأطلس المتوسط الذي يتميز بالشساعة والتنوع، حيث هناك مناطق لا تعرف تهيئة زراعية محدودة إما بفعل ضآلة الموارد أو نظرا لضعف الكثافات السكانية.

بصفة عامة يمكن القول بأن الأطلس المتوسط يشكل مجالا تتدخل في تهيئته الزراعية ثلاثة عناصر أساسية، السكان المحليون الرأسمال الخاص (الأجنبي عن المنطقة في الغالب) والدولة.

إن هذه العناصر تختلف على مستوى الامكانيات والتقنيات المستعملة والأهداف المتوخاة من التهيئة الزراعية، كما أن لها انعكاسات متعددة على الميدان السوسيو مجالي.

وتجدر الإشارة الى أن تدخل الدولة أو الرأسمال الخاص ترافقه دائما تأثيرات على البنيات الزراعية التقليدية.

1 — المجموعات البشرية التقليدية المستقرة

نقصد بها سكان نطاق الدير أساسا. وهي تتميز بمجموعة من الخصائص على رأسها الاستقرار والتجمع على مستوى السكن. هذا مرتبط بمعطيات الديرالبيوجغرافية (توفر المياه، صلاحية التربة والموقع الوسط الذي يحتله هذا النطاق بين الجبل والازغار). كما أن هذه المجموعات قد ورثت تقاليد زراعية واكتسبت تجارب خاصة في مجال استغلال الأرض والتهيئة الزراعية، وذلك من خلال تطبيق أساليب الري وتطوير الغرسة.

إذا، هناك ارتباط وثيق بالأرض لدى السكان ترجمه علاقات إنتاجية خاصة في إطار نظام زراعي تقليدي يجمع بين الزراعة والرعي.

ومن جهة أخرى نلاحظ بأن هياكل الانتاج لازالت تحتفظ بخصائص التنظيم التقليدي للمجتمع القروي مما نتج عنه صمود البنيات السوسيو مجالية الموروثة.

إن النتيجة الرئيسية المترتبة عن غنى التركيبات المجتمعة على مستوى هذه المجالات هي كونها مناطق تحمل كثافات سكانية مرتفعة (غالبا ما تتراوح بين 100 و150 ن/كلم 2) لاتعرفها في جهات الأطلس المتوسط حيث لا يتعدى معدل الكثافة السكانية 27 ن/كلم 2.

غير أن عنصر الكثافة السكانية لا يأخذ بعده الحقيقي إلا بارتباط مع المعطيات السكانية الأخرى التي تجعل هذه المجالات تعرف دينامية ديموغرافية حقيقية غالبا ما لا تعرفها باقي المناطق الجبلية، وتتجلى في نمو طبيعي مرتفع، ينتج عنه تزايد سكاني سريع، يرافقه ضعف تيار الهجرة القروية. ومن خلال الأمثلة التالية يمكن ملاحظة مدى أهمية التزايد السريع الذي تعرفه هذه المجالات.

المنطقة	% بين 1971 — 1980	بين 1971 — 1982
دير صفرو	1,5	2,3
دير الحاجب ايت والال	4,5	3,5
سهل كيكو الأوسط	2,1	3,2

إن تحليل الأساليب المفسرة لكون هذه المجالات تستطيع تحمل هذا الضغط الديموغرافي يكشف على أن سكانها قد عملوا على :

أ — تكثيف الأساليب الزراعية (الاعتناء بالتربة من خلال بناء المدرجات ومد السواقي والتسميد) وتنويع المزروعات (حبوب — قطاني — غراسة) وإدخال مزروعات جديدة ذات قيمة غذائية ومردودية اقتصادية مهمة (بطاطس — لوبيا — بعض أنواع الأشجار المثمرة).

ب — تحسين أساليب تربية الماشية من خلال استعمال العلف والتركيز على عمليات التسمين بهدف التسويق.

ج — اللجوء الى أنشطة غير فلاحية محليا ودون أن يرافق ذلك هجرة قروية مهمة وتجدر الإشارة هنا الى أن طبيعة هذه الأنشطة هي كونها عبارة عن حرف قارة، غالبا ما تشكل النشاط الرئيسي لمن يمتنونها (مثل التجارة والنقل والبناء، والعمل في المحاجر أو صناعة الجير والفحم الخشبي...) بينما نلاحظ بأن تطور الأنشطة غير الفلاحية في المجالات الأخرى هي نتيجة لاحتلال التوازنات كما سنعرض لذلك لاحقا.

إننا نلمس من خلال هذا النموذج قدرة كبيرة على التكيف لدى هذه المجموعات البشرية التقليدية،

مع احتفاظ نسبي على التوازنات المحلية الموروثة، غير أنه يجب التأكيد على أن عنصر ملكية الأرض لم يعد يشكل المقياس الرئيسي في الترابية الاجتماعية، إذ غالبا ما نلمس ضعف التفاوت على مستوى فئات الملاكين، في حين يبدو التفاوت الاجتماعي كبيرا بالمقياس الى القاعدة الاقتصادية العامة.

نستخلص من كل ما سبق، أن الوضع الاجتماعي في هذه المجالات يعتبر أقل خطورة بالمقارنة مع المناطق التي تعرف تدخل الرأسمال الأجنبي الخاص.

2 - مناطق تدخل الرأسمال الأجنبي الخاص

نقصد بالرأسمال الأجنبي الخاص العناصر البشرية أو الشركات التي لاتنتهي عرقيا أو جغرافيا للأطلس المتوسط وغالبا ما يطلق السكان المحليون على هؤلاء العناصر مصطلحا خاصا هو «البراني» أو الأجنبي عن المنطقة تاريخيا يمكن القول بأن الاستعمار الفلاحي تميز في الأطلس المتوسط بمحدودية المساحات التي سيطر عليها نظرا لعدة عوامل، إلا أنه رغم ذلك قد خلق نموذجا للاستغلال الزراعي سوف تنهجه البورجوازية المغربية غداة الاستقلال. إن هذه البورجوازية - الحضرية في غالب الأحيان - والمكونة من فئات اجتماعية متنوعة (موظفون سامون - تجار كبار - أرباب المهن الحرة...) لم تكتفي فقط بتعويض المعمرين على جزء من الأراضي التي كانت بأيديهم بل زيادة على هذا أصبحت تكتسح مجالات أخرى صالحة للزراعة أو بهدف استصلاحها.

أما المجال الجغرافي لهذا النوع من التدخل الرأسمالي فيتركز بالخصوص في محورين :
- على طول الطريق الرئيسية التي تمتد من فاس ومكناس في اتجاه الأطلس المتوسط (فاس/إيموزار/فاس/صفرو/بولان ثم مكناس/الحاجب/أزرو).
- في الدير والمنخفضات الكارستية للكوس ذات النزعة الفلاحية (مياه وتربة غنية).

إن هذا النوع من الاستغلال الزراعي يتحكم فيه منطق رأسمال محض يفرض مجموعة من الشروط منها :

- استغلاليات ذات حجم كبير يتم تشكيلها تدريجيا على حساب ملكيات السكان المحليين.
- استصلاح الأراضي المكتسبة باستعمال وسائل تقنية ضخمة في عمليات الاجتثاث والعدن وتسوية السطح، وتجهيزها للسقي من خلال حفر الآبار ومد القنوات.
- استعمال أساليب زراعية عصرية.
- التعاطي لانتاج مزروعات ذات قيمة اقتصادية مرتفعة (غراسا الورديات على الخصوص) إن هذه الشروط جعلت هذا النوع من الاستغلال موجها كليا من الخارج سواء على مستوى القرار أو التمويل أو التسويق.

وهو بالتالي غير مندمج نهائيا مع الاقتصاد المحلي، باستثناء جزء بسيط من الأجور التي توزع على اليد العاملة المحلية خاصة خلال موسم جني المحصولات وعلى صعيد آخر، نلاحظ بأن الوضعية الجديدة التي يخلقها هذا النوع من الاستغلال الزراعي قد أدت الى الاخلال بعدة توازنات كانت قائمة من قبل في الأوساط التي عرفت هذا النوع من التدخل، وذلك من خلال كونه يزيد من تقليص المراعي ويقف كحاجز إضافي أمام تنقلات القطعان، وكما أنه يفرض إعادة تكيف السكان ومحاولتهم إيجاد محاور وأساليب جديدة للتنقل أو اللجوء الى الاستقرار نهائيا.

غير أن عواقب التدخّل الرأسمالي في مناطق الأطلس المتوسط لا تتوقف عند هذا الحد، إذ هناك مجموعة من النتائج الوخيمة سواء على مستوى السكان أو المجال يمكن إيجازها في :

- فقدان السكان المحليين لأراضيهم وانخفاض معدل الملكية لدى هؤلاء وارتفاع نسبة غير المالكين منهم.
- تحول جزء من النشيطين إلى مأجورين فوق الاستغلاليات الكبيرة.
- ارتفاع الضغط على باقي المجال واستغلاله بطرق غير سليمة من طرف السكان، في محاولة منهم التعويض عن الأراضي المفقودة، وذلك من خلال اجتثاث المنحدرات وحذف نظام الجامة دون تخصيص التربة والاستكلاء (Surpâturage).

وبهذا نلاحظ أن توسع الاستغلاليات الرأسمالية بتفجيرها للسكان المحليين تخلق شروط ازدهارها، وذلك بإفرازها قوة العمل الضرورية لها. وبالتالي فإن هذا النوع من المجالات غالبا ما يعرف تمهيش السكان المحليين، ويجعل منهم مرشحين للهجرة في كل وقت وحين أمام انعدام استقرار وظروف العمل وفقدان القاعدة العقارية الكافية لاستمرار العيش في البادية.

ولتأكيد هذه النتائج نورد مثالين يفسران هذه الوضعية.

1 — سهل تيكركرا بجماعة أركلاون، دائرة أزرو : وهو مجال عرف الاستغلال العصري منذ الاستعمار، مع توسع كبير للفراسة بعد الاستقلال.

إن مقارنة تطور عدد السكان القرويين مع تطور عدد سكان مركز أزرو يظهر أهمية الهجرة القروية في هذه المنطقة ومدى ارتباطها بتطور وتوسع الاستغلال الرأسمالي :

تطور السكان القرويين بجماعة إركلاون

السنوات	عدد السكان	عدد الأسر	تطور عدد سكان
1960	12230	2534	14143
1971	13446	2553	20756
1982	13870	2335	31471

2 — كوص صفرو، وهو عبارة عن منطقة تغزوها حاليا الملكية الحضرية وفيه نلاحظ كذلك تناقص نسبة التزايد السكان من جراء الهجرة القروية.

تطور نسبة التزايد السكاني بكوص صفرو :

1960 — 1971 : 2,1%

1971 — 1982 : 1,6%

إن وزن الظروف الاجتماعية في هذه المجالات يكاد يعادل ضغط الظروف الطبيعية وقساوتها في مناطق أخرى من الأطلس المتوسط على مستوى طرد السكان كما هو الأمر بالنسبة للأطلس المتوسط الشرقي مثلا حيث قل عدد سكان أن العديد من الجماعات سنة 1982 بالمقارنة مع عدد سكانها في 1971 : أليس مرموشة — أدرج — آيت بازة — المرس.

والخلاصة هي أنه إذا كان النوع من الاستغلال والتهيئة إيجابيا من الناحية الاقتصادية فإنه يتميز بالسلبية على المستوى الاجتماعي.

3 — مناطق تدخل الدولة

تدخل الدولة في الأطلس المتوسط بأشكال مختلفة وعلى مستويات عديدة.

أ — أشكال التدخل :

حاولت الدولة أن تطبق في الأطلس المتوسط عدة أشكال من التهيئة منها القطاعية ومنها المندجة. فقد قامت بتهيئة زراعية فقط من خلال عمليات ضم الأراضي واستصلاحها (نموذج دير الحاجب)، كما تدخلت في مناطق أخرى من خلال تجهيزات هيدرورزراعية (منخفض سكورة ومناطق آيت والال) وأخيرا بدأت تدخلات الدولة تتخذ شكل مشاريع مندجة تهدف الى تهيئة زراعية — غابوية ورعوية (مشروع الأطلس المتوسط الأوسط ومشروع كوص لحاجب أو مشاريع التهيئة التي تقوم بها الدولة على هوامش الأطلس المتوسط : العرض في ملوية العليا، ومولاي بوعزة في الهضبة الوسطى).

ب — مستويات التدخل : يمكن التمييز بين مستويين من التدخل : شامل وجزئي ففي حالة التدخل الشامل، فإن عملية الدولة يكون مباشرة وكلية ويشمل عدة عناصر وهو يهدف الى تغيير الهياكل الزراعية التقليدية في مناطق التدخل، وذلك من خلال عمليات ضم الأراضي وإحداث تجهيزات أساسية مع إدخال تقنيات وأساليب زراعية جديدة مثل ما هو الحال في كل من منخفض سكورة ودير الحاجب ومنطقة تمحضيت.

— أما في حالة التدخل الجزئي فإن الدولة تقوم بالتجهيز دون المس بالهياكل الزراعية القائمة ويعتبر نطاق آيت والال نموذجا لهذا النوع من التدخل، إذ عملت الدولة على تطوير زراعة التبغ التي أدخلها الاستعمال الى المنطقة، وذلك من خلال تشجيعها وتوفير التجهيزات الضرورية لها، مما أدى الى تغيير النظم الزراعية، كما أن الدولة عملت على بناء شبكة ري عصرية في 1982، غير أننا نلاحظ بأن زراعة التبغ تعرف تراجعا في المساحات المزروعة حاليا لفائدة أخرى.

ج — نتائج تدخل الدولة

لتقييم تدخل الدولة في مجال الأطلس المتوسط يجب التمييز بين وضعيتين :

— ففي حالة التدخل الشامل والكلية، نلاحظ بأنه غالبا ما ترافقه عراقيل على مستوى التنفيذ وكذلك نفور أو معارضة «صامتة» من طرف المجموعات البشرية المحلية. أو فئات منها، وهذا راجع لتعارض مصالح الأفراد أو الجماعات. ففي مثال مشروع الأطلس المتوسط — منطقة تمحضيت — نجد بأن الدولة قد قامت بمجموعة من العمليات منها تسييج المراعي، تحديد ضغط القطعان على المراعي (تحديد عدد الرؤوس) تخصيص المراعي مع تطوير الزراعة العلفية، بهدف تنظيم دورة رعوية، وأخيرا إحداث التجهيزات الضرورية لهذا

المشروع من طرق، نقط الماء مسالك ومخاضى وورغم كل هذا يبدو أن المشروع يعرف تعثرا كبيرا نظرا للعراقيل التي يخلقها الملاكون الكبار، المعارضون للمشروع، والذين لا يطبقون بنوده خاصة فيما يتعلق بتحديد الضغط على المراعي.

— أما في نموذج التدخل الجزئي فإن الدولة تترك هامشا لتصرف السكان المحليين أنفسهم، على أساس تقاليدهم الزراعية والاجتماعية، وهنا يكون تدخل الدولة عبارة عن دعم للديناميات المحلية وتوجيها لها. ومثال آيت والال يدخل في هذا الاطار أن هذا الطرح لا يعني أن التدخل الشامل والمباشر سلبي، عكس التدخل الجزئي، بل إن الأمر يتعلق أساسا بكون هذه المشاريع لا تأخذ بعين الاعتبار، إلى جانب المؤهلات الطبيعية، المعطيات المحلية المتعلقة بالخصائص التاريخية والبشرية والانتوغرافية بل وحتى التقاليد والاعراف، أي بصفة عامة كل البنات الزراعية القائمة محليا.

4 — خلاصات :

يتأكد من خلال أصناف التهيئة الزراعية السابقة الذكر ما يلي :

1 — أن هناك توازنات اجتماعية واقتصادية نسبية على مستوى المجموعات البشرية التقليدية، ينتج عنها استقرار أو ضعف حركية السكان مع دينامية ديموغرافية هامة.

2 — ويلاحظ اختلال التوازن على مستوى المجالات التي تغزوها الملكية العقارية الخاصة — الأجنبية عن هذه المجالات — ويتجلى هذا الاختلال في تفاقم الفوارق الاجتماعية محليا من جهة، ومن جهة أخرى حدة الهجرة القروية نحو المدن الصغرى التي تشكل مواصل هجرية (relais migratoires) أو نحو العواصم الاقليمية، مع العلم أن هذه المراكز غير مؤهلة لاستقبال الوافدين عليها لعدم توفرها على قاعدة اقتصادية متينة، مما يترتب عنه مشاكل على مستوى السكن والتشغيل والأمن.

إذا، يتضح أن الحل الحقيقي للمشاكل التي تعاني منها المدن، ينبغي البحث في البوادي وخاصة في مواطن اختلال التوازنات (أي النموذج الثاني على الخصوص).

3 — وأخيرا نلاحظ بأن تدخل الدولة حتى الآن، اتسم بالاقصرار على مجالات محدودة وجوانب خاصة، ذلك نظرا لغياب برنامج شمولي واضح لتهيئة المجال الواسع.

ملاحظات حول دور مدينة مكناس في تنظيم الجهة الوسطى الجنوبية

الأستاذ محمد جرير
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة الحسن الثاني
المحمدية

إن أقاليم مكناس، ايفران، خنيفرة والرشيديية التي تكون المنطقة الاقتصادية الوسطى الجنوبية تمثل إحدى المجموعات الجهوية المغربية النادرة التي حافظت على استقرار واستمرارية حدودها التاريخية والادارية.

فبعد الازمة الطويل الذي عرفته هذه الجهة أصبحت اليوم تحظى أكثر فأكثر باهتمام الدولة وذلك في إطار سياسة إدماج المناطق الفقيرة وإلحاقها بركب الجهات الأخرى من الوطن الأكثر تطورا، لكن بالرغم من هذا الاهتمام يبقى الواقع الدائم الذي يطبع هذه الجهة هو واقع مجال جغرافي هامشي يعاني من التخلف الاقتصادي والاجتماعي والذي يرجع السبب الرئيسي فيه كما هو معروف إلى مخلفات السياسة الاستعمارية التي ارتكزت على تنفيذ مخططات مختلفة للسيطرة على المدن التقليدية وخلق مدن جديدة تستجيب لمتطلبات المستعمر الاقتصادية والاستراتيجية، ومن بين النتائج السلبية لهذه السياسة تنشيط الهجرة القروية نحو المدن الكبرى الساحلية التي تمت وتضخمت على حساب مدن المناطق الداخلية.

ولعل الجهة الوسطى الجنوبية هي إحدى المناطق المغربية التي تعطي صورة مصغرة للمجال الوطني في واقعه الموروث عن المرحلة الاستعمارية.

إن تعزيز الوظيفة الجهوية التي ترغب فيها الدولة المغربية — وهو شرط أساسي لكل محاولة إدماج وطني متوازن — يمر حتما عبر مراكز القرار السياسي والاقتصادي التي تخلق تلك الوظيفة وتحددها في المجال ومن المعلوم أن العاصمة الجهوية والشبكة الحضرية التابعة لها هي عادة العوامل الاقتصادية والجغرافية التي تتحمل مسؤولية التنظيم والمراقبة الجهوية لكن إشعاع العاصمة نفسها مرتبط بعدة معطيات منها : حجم المدينة، وظائفها الأساسية، ظروف محيطها الاقليمي والبنيات السوسيو اقتصادية الوطنية.

فبالنسبة للجهة التي تهتمنا نتساءل : ماهو دور مدينة مكناس في تنظيم المجال الذي أنيطت بها مسؤولية الاشراف عليه ؟

يحاول هذا العرض المتواضع أن يجيب على السؤال من خلال ملاحظات متفرقة لايمكنها بأي حال من الأحوال أن ترقى الى مستوى الامام بجميع أطراف هذا الموضوع الواسع والمتشعب.

1 - أهمية الإشعاع التجاري لمدينة مكناس داخل الجهة الوسطى الجنوبية

بعد النشاط التجاري من أهم عناصر القطاع الثلاثي وهو كفيل بمساعدتنا على إظهار أهمية التأثير الاقتصادي لمدينة مكناس على مجالها الجهوي ولو جزئيا.

1. قياس الدور التجاري لمدينة مكناس من خلال تجارة الأسواق الأسبوعية :

تعد تجارة الأسواق الأسبوعية عاملا هاما في تزويد المجال القروي بالمواد الاستهلاكية الضرورية فهي تؤدي الى تنشيط حركات سكانية وتجارية هامة.

إن دور «السوق القطب» الذي كانت تقوم به مكناس في الماضي ما يزال قائما، ويكفي أن نلقي نظرة على خريطة لتوزيع شبكات الأسواق في القسم الشمالي من البلاد لكي نتأكد من ذلك (1).

تتميز هذه الشبكة المكناسية بأهمية عدد أسواقها واكتمال دورتها الأسبوعية التي تشمل جميع أيام الأسبوع وهي بذلك لا تقل أهمية عن باقي الشبكات الأسبوعية المغربية الأخرى. تتكون هذه الشبكة من أسواق منطقة زهون وسايس مكناس وبلاد كروان.

أهمية إشعاع التجار المتقلين المكناسيين :

إن ترتيب الأسواق الأسبوعية في الجهة حسب عدد التجار المتقلين الذين يتحركون أسبوعيا خارج أسواقهم المحلية يبين أهمية مدينة مكناس بالنسبة للمراكز الحضرية الأخرى فهي تحتل المرتبة الأولى ب 3230 حركة أسبوعية تليها خنيفرة ب 1050 ثم أزرو ب 920 والريصاني ب 200 الى 300 حركة أسبوعية، أما المراكز الأخرى كالرشيدية وميدلت وكلميمة فهي تسجل ما بين 50 و 150 حركة أسبوعية تبعا لفصول السنة.

نستنتج من هذه الأرقام ما يلي :

- 50% من مجموع التجار المتقلين المنتمين الى الجهة الوسطى الجنوبية يسكنون مدينة مكناس.

- 70% من هؤلاء التجار المكناسيين يتجولون بين أسواق الجهة خلال الدورة الأسبوعية (2).

اعتمادا على الخريطة رقم 19 ل J.F.Troin (3)، وعلى البحث الذي قمنا به في وادي زيز (4)، يتبين أن معظم أسواق الجهة الوسطى الجنوبية تجذب التجار المتقلين المكناسيين وإن كان عددهم يختلف أهمية حسب الأسواق.

وعموما نلاحظ ما يلي :

- سيطرة التجار المكناسيين سيطرة مطلقة على عدد كبير من أسواق سايس كروان، وزهون (شبكة الأسواق التابعة لمكناس)
- حضور مكثف للمكناسيين في أسواق الحاجب، أزرو وعين تواجيدات (ملا يقل عن 200 الى 300 حركة خلال الأسبوع بالنسبة لكل سوق من الأسواق المذكورة).
- حضور ضعيف في باقي أسواق الجهة إذ تتراوح حركات التجار المتقلين المكناسيين بين 60 و 100 حركة أسبوعية بالنسبة لأسواق أزغار (مريرت - خنيفرة) و 10 الى 50 حركة بالنسبة

لأسواق ملوية العليا (بومية ميدلت — اتزار) وأسواق تافيلالت (الريش — والرشيديّة على الخصوص).

يتضح من هذا أن نفوذ مكناس في هذا الميدان يقل فعالية وأهمية كلما ابتعدنا عن محيطها القريب وهذا ناتج طبعاً عن عامل البعد الجغرافي واستقلالية الأقاليم الأخرى المتمثل في ارتباطها بأسواقها المحلية أو الجهوية القريبة، ومع ذلك يجب أن نسجل أن مكناس تفرض نفوذها النسبي على أسواق جهتها أولاً من خلال حضور تجارها في معظم هذه الأسواق وإن كان عددهم قليلاً في الأسواق النائية (يمثل المكناسيون 2% من مجموع البائعين في سوق الريش و5% في سوق الرشيديّة). وثانياً من خلال التجار المتنقلين المحليين أنفسهم باعتبار أنهم يروجون سلعا تم استيراد معظمها من مدينة مكناس.

وتجدر الإشارة إلى أنه بالرغم من هذا الإشعاع التجاري الذي يمتد على مسافات بعيدة تعرف مكناس مزاحمة كبيرة في بعض الأسواق الواقعة داخل حدودها الإقليمية بل وتخضع بعض هذه الأسواق لنفوذ غير نفوذ مكناس كما هو الحال بالنسبة لسوق اثنين زكوطة الذي يمثل فيه تجار سيدي قاسم 44,4% من مجموع التجار الحاضرين وكذلك ثلثاء ميكاس الذي يسيطر فيه التجار الفاسيون بنسبة 25,1% من مجموع التجار (5).

دور التجار المكناسيين في تجميع المواد القروية الجهوية

بعد أن رأينا حركة التجار من خلال الدرة الأسبوعية للأسواق تقترب الآن من حركة المواد القروية وعملية تجميعها عن طريق الأسواق.

وسوف نقتصر هنا على المواد القروية المهمة من حيث الكم أي القابلة للرواج التجاري على مستوى واسع.

تجارة المواشي

من المعلوم أن الجهة الوسطى الجنوبية تعتبر من أهم المناطق المغربية في ميدان تربية المواشي إذ يصل عدد رؤوس الماشية فيها ما يناهز 2,2 مليون، وفيما يلي الأعداد التي يتم ترويضها سنوياً عبر الأسواق المهمة في الجهة (6).

سوق خنيفرة :	134.000	رأس سنويا
سوق ازرو :	120.000	رأس سنويا
سوق بومية :	100.000	رأس سنويا
سوق الريش :	80.000	رأس سنويا
سوق الريصاني :	30.000	رأس سنويا

تقوم مكناس بتجميع عدد هام من هذه المواشي بطريقة مباشرة من خلال تجارها المترددين على أسواق الجهة وبأخرى غير مباشرة بواسطة تجار المراكز الأخرى الوافدين على سوق مكناس، لكننا مع ذلك نلاحظ على خريطة تجميع المواشي J.F.Troin (7) أن نسبة هامة من المواشي توجه عبر أسواق خنيفرة — مريرت الريش وبومية إلى أسواق استهلاكية خارج الجهة الوسطى الجنوبية نذكر من بينها على الخصوص الرباط — سلا — الدار البيضاء — وجدة ومراكش.

مثال سوق بومية : (8) سوق ماشية هام يقع بحوض ملوية العليا الذي يتوفر على مؤهلات رعوية وزراعية هامة. يتم ترويض حوالي 100.000 رأس من الماشية سنويا في هذا السوق وتتوزع كما يلي :

- 56% نحو تادلة
- 10% نحو أزرو
- 10% نحو ميدلت
- 4% نحو صفرو
- 4% نحو تافيلالت
- 1% نحو خنيفرة
- 1% نحو مكناس
- 9% في بومية
- 5% نحو مناطق أخرى.

يتضح من هذا النسب أن دور مكناس في تجميع الماشية من هذا السوق ضعيف بالمقارنة مع ما تستورده أسواق أخرى كتادلة، أزرو وميدلت.

تجارة الزياتين والتمور

بالنسبة للزيتون نجد أن نفوذ مكناس يمتد بوضوح على السفوح الجنوبية لجبال زرهون فهي تراقب 56,5% من نقط تجميع الزياتين بجماعة كرمة بن سالم و80% بجماعة المغاسيين في حين تترك الرعامة لفاس بالنسبة لجماعة نزالة بني عمار التي يسيطر التجار الفاسيون فيها على 73% من نقط التجميع (9).

بالنسبة لاقليم الرشيدية يبدو نفوذ فاس أقوى بكثير من نفوذ مكناس في تجميع الزياتين والتمور وذلك راجع أساسا الى أهمية العلاقات التقليدية التي تربط التجار الفيلايين بمدينة فاس والى دينامية التجار الفاسيين أنفسهم الذين ينتقلون بشاحناتهم الى مناطق الانتاج لشراء المنتج من الفلاحين مباشرة.

وفيما يلي مثال لتصدير مادة التمور من تافيلالت سنة 1966 (10).

- 3980 طن نحو فاس
- 1360 طن نحو مكناس
- 950 طن نحو الدار البيضاء
- 260 طن نحو وجدة.

— مكناس : مركز جذاب فيما يخص تجارة المواد المحضرة
التجارة بالجملة :

لقد تبين لنا من البحث المباشر الذي قمنا به لدى التجار بالجملة بمدن تافيلالت أن مدينة مكناس تقوم بدور الموزع الرئيسي لعدد كبير من المواد الغذائية والتجهيزية بهذه المنطقة.

فبالنسبة لتجارة السكر مثلا نجد أن : كل الذين يتاجرون في هذه المادة يتعاملون مع مدينة مكناس

بالدرجة الأولى وذلك في إطار التقسيم الإداري للمناطق الاقتصادية، نفس الملاحظة بالنسبة لتجارة الشاي والزيت والدقيق والمواد الغذائية الأخرى ومع ذلك لايفوتنا أن نسجل أهمية منافسة مدينتي الدار البيضاء وفاس لمدينة مكناس في هذا الميدان.

أضف الى ذلك ظهور منافسة من داخل الجهة نفسها ويتعلق الأمر هنا بمدن أزرو — ميدلت والرشيدية التي أصبحت تتوفر على مطاحن ولم تعد تستورد الدقيق من مكناس إلا نادرا.

أما بالنسبة لمواد البناء فنقدم مثال مدينة الرشيدية : 3 تجار بالجملة في مواد البناء يسيطرون على هذا القطاع ويتعاملون كلهم مع مدينة مكناس، وكذلك الشأن بالنسبة لبائعي مواد التجهيز الفلاحي (آلات الضخ — الاسمدة وغيرها)

اقتناء المواد الحضرية من طرف السكان

تنحصر جاذبية مكناس في هذا الميدان داخل حدودها الادارية الضيقة.

أمثلة : بالنسبة لاقتناء مواد التجهيز الشخصي والمنزلي.

منطقة زرهون : (11).

جماعة كرامة بن سالم : 70% من السكان يتوجهون الى مكناس

30% من السكان يتوجهون الى مولاي ادريس

جماعة المغاسين : 70% من السكان يتوجهون الى مكناس

15% من السكان يتوجهون الى فاس

15% من السكان يتوجهون الى مولاي ادريس

جماعة النزالة بني

عمار : 46% من السكان يتوجهون الى مكناس

12% من السكان يتوجهون الى مولاي ادريس

2% من السكان يتوجهون الى سيدي قاسم

مثال : بالنسبة لاقتناء مواد التجهيز الفلاحي :

منطقة ميدلت (12).

جماعة زايدة : 58% من السكان يتوجهون الى مكناس

42% من السكان يتوجهون الى ميدلت

على العموم هذا يدخل في إطار توفيت الوظائف العادية من العاصمة الجهوية الى شبكتها الحضرية التي تقوم بدور إعادة التوزيع على السكان المحليين.

2 — القطاع الثلاثي العمومي : عامل إشعاع هام بالنسبة لمكناس

1. الاشعاع الاداري لمكناس

يعود تاريخه الى ما قبل الاستعمار عندما كانت مكناس عاصمة الدولة العلوية وقد استمر هذا الدور

خلال مرحلة الاستعمار حين تم اختيارها من طرف المستعمر كعاصمة ادارية وعسكرية لمراقبة الأطلس المتوسط — ملوية وتافيلالت.

غداة الاستقلال استمرت مكناس في تحمل مسؤولية القيادة الادارية على المناطق المذكورة أعلاه وذلك بسبب غياب الامكانيات المادية والبشرية لوضع بنية إدارية مستقلة في هذه المناطق، بعد ذلك أصبح اهتمام الدولة بالأقاليم النائية أكثر فعالية نتيجة تفاقم الأوضاع الاقتصادية وتزايد عدد السكان وارتفاع نسبة الهجرة القروية الشيء الذي أدى الى خلق الجهة الاقتصادية الجنوبية الوسطى، وذلك بموجب قانون 16 يناير 1971 ضمن التصميم الخماسي 1968 — 1972 فأصبحت مكناس عاصمة لهذه الجهة وقد تعزز بذلك دورها في ميدان الاشراف الاداري. إلا أنه تم في السنوات الأخيرة توسيع الشبكة الادارية في إطار سياسة اللامركزية مما قلص من أهمية الدور الاداري لمدينة مكناس مع العلم أنها تحتفظ بالرغم من ذلك على سلطة المراقبة الجهوية بالنسبة لعدد من المصالح، كالأمن والضرائب الفلاحية والبريد والقرض الفلاحي والسياحة والجمازك والعدالة.

2. إشعاع مدينة مكناس في ميادين الصحة والتعليم

تتوفر المدينة على تجهيزات تحتية في هذا الميدان تساعدها على القيام بدورها كعاصمة جهوية.

فبالنسبة لميدان الصحة نجد أن مكناس تتوفر على مستشفين كبيرين (مستشفى محمد الخامس ومستشفى مولاي اسماعيل)، كانا في الماضي القريب يتمتعان بجاذبية قوية تمتد على مجموع أقاليم الجهة الاقتصادية إلا أنه في السنوات الأخيرة تقلصت فعاليتهما بسبب ضعف الوسائل والتجهيزات الضرورية كما أن ظهور مستشفيات رئيسية بالأقاليم الأخرى جعلها تستقل نسبيا عن سلطة مدينة مكناس ما عدى في ميدان الأمراض العقلية.

أما بالنسبة للتعليم فإن مكناس تشع على الخصوص بواسطة مؤسساتها في ميادين تكوين الأطر والتعليم العالي فهي تتوفر على مراكز تكوين الأطر التعليمية (المراكز الجهوية — المدرسة العليا للأساتذة) وتكوين المهندسين الفلاحين وضباط الجيش الخ... فضلا عن كليتي الآداب والعلوم الانسانية والعلوم التي تستقطب الطلبة من جميع أقاليم الجهة.

خاتمة

توجد في المغرب رغبة في خلق أقطاب وعواصم للتنمية الجهوية من المدن الكبرى خصوصا وأن المجال الوطني ككل يعاني من عدم التوازن الاقتصادي الذي يتجلى في التفاوت الملحوظ بين المناطق الشمالية الغربية والمناطق الداخلية.

وعلى العموم فإن أقطاب التنمية الجهوية لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تتحمل وحدها مسؤولية التنمية الجهوية في غياب بنيات تحتية أساسية ومدن محلية ترتبط ببوايها وكذلك في غياب تدخل الدولة بإمكانياتها الضخمة وبتقلها السياسي والاداري.

ملاحظات حول السكن القروي

نموذج سايس مكناس

الأستاذ محمد مباشر يازغي
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
مكناس

الهدف من هذه المداخلة هو إبراز السمات الأساسية التي تطبع هذا السكن القروي في منطقتنا، فبإدابة سايس مكناس تتميز بعدة خصوصيات؛ فرغم سهولة طبيعتها ورتابة تضاريسها، فهي تتميز بتنوع زراعتها وتعقد بنياتها الزراعية وتفكك عناصر مجتمعتها. الشيء الذي له أثر بالغ على أشكال السكن في المنطقة. ولا يكفي الوقت لإبراز كل هذه العناصر ومدى تأثيرها على السكن القروي.

I العوامل المتحكمة في تحديد أشكال السكن

1 — العامل التاريخي، وعامل الاستعمار: لعل أهم عامل في تفسير مواقع السكن وبعض أشكاله هو العامل التاريخي: فالمنطقة تميزت بتدخل استعماري قوي وبتركز الاستعمار الفلاحي بصفة خاصة، فمن حيث كثافة استغلاليات المعمرين فإن سايس مكناس يعد أول منطقة قبل الغرب والشاوية، فالاستيلاء على الأراضي تم على حساب السكان المحليين الذين نزعت منهم أراضيهم. وتحولوا إلى بروليتاريا فلاحية في خدمة المعمرين واقتصرت أراضيهم على هوامش الهضبة وقيعان الأودية التي تحترقها، وفي موازاة هذا الوضع تركز السكان والسكن في المواقع الهامشية من الهضبة وفي قيعان الأودية. بينما أصبح سطح الهضبة يتميز بكثافات وبتمركز للسكان في نقط محددة ستعرض لها فيما بعد.

وأدى ظهور الفلاحة العصرية الاستعمارية إلى استقطاب عدد من الوافدين من مناطق بعيدة. مثل زرهون والريف الأوسط والشرقي والأطلس المتوسط وغيرها من المناطق هؤلاء السكان سيستقرون في مواقع مغايرة لتلك التي اختارها «الأهالي».

إن هذا الوضع ستأثر به مرحلة ما بعد الاستقلال وستبقى آثاره قائمة حتى الآن،

2 — حركة السكان. حيث أن المنطقة تتميز بهجرة في اتجاهين :

— هجرة في اتجاه سايس مكناس، وهذا النوع من الهجرة قد أشرنا إليه سابقا في المرحلة الاستعمارية ولا زال مستمرا حتى الآن ويكتسي طابعين — هجرة موسمية في المواسم الزراعية خاصة جنبي الكروم، وهجرة

- شبه دائمة أو مرحلية حيث يستقر السكان الوافدون في القرى العمالية والمراكز المتواجدة في المنطقة.
- هجرة من سايس مكناس إما في اتجاه المدن المجاورة وخاصة مدينة مكناس وهذه الهجرة تشمل فئات مختلفة من السكان (طلبة، موظفون، عمال)، والفئة التي تمهنا هي جزء من العمال والموظفين الذين سيخصصون جزءا من مداخيلهم لتطوير سكنهم الأصلي في البادية.
- الهجرة في اتجاه الخارج. وهذا النوع هو أهم، بسبب أهمية المداخل التي يوفرها والتي ستمكن من تغيير طابع السكن لا من حيث الشكل والهندسة ولا من حيث مواد البناء أيضا.
- 3 – تدخل الدولة : هذا التدخل سيميز بعدم الانسجام بين مختلف المصالح التي تكون مصدر القرارات.

وتجدر الإشارة هنا الى أهمية التصميم الهيكلي للبادية، إذ أن مصالح إدارة السكنى وإعداد التراب الوطني قامتا بإنجاز تصاميم توجيهية للبوادي على غرار ما هو الشأن في المدن من أجل تحديد الأسقفيات والمراكز المؤهلة لكي تلعب دور أقطاب تنمية في البوادي والتي يمكن أن تكون ركائز لتبئة المجال القروي إلا أن توجيهات ومعطيات هذه التصاميم المديرية قلما تأخذ بعين الاعتبار عند اتخاذ القرارات، كما أن وزارة السكنى وإعداد التراب الوطني تقوم بوضع تصاميم تنمية للمراكز القروية وفعلا بالنسبة لسايس مكناس هناك عدة تصاميم قيد الانجاز مثل بوفكران، الحاج قدور وسوق السبت بالإضافة الى تصاميم بعض المراكز مثل سبع عيون وعين تاوجدات وأكوارى.

4 – توزيع الأراضي : إن عملية توزيع الأراضي (أراضي الاستعمار) يمكن أن نعتبرها بداية لاعادة التوازنات على المستوى المحلي واليهيكي للمنطقة إذ مكنت عدة عائلات قروية (3000) من تحقيق الاكتفاء الذاتي العائلي ومكن هذا التوزيع من ظهور عدة نوايا «Noyaux» للسكن القروي على ظهر الهضبة هي مراكز التعاونيات الفلاحية التي تتميز بمرفولوجية خاصة مرتبطة بكيفية تجزئة الأراضي وشكل القطع الموزعة.

5 – مجمع الأراضي، يمكن اعتبار عملية مجمع الأراضي التي عرفها قطاع الحاجب بدياه لعملية تبئة كلية شاملة إذا ما اجترمت أهداف وقواعد هذه العملية. إذ بالإضافة الى الضم فإن العملية تقتضي أيضا تخصيص جزء من الأراضي للتجهيزات والمرات والسكن وهكذا فإن مالا يقل عن 80 هكتار قد خصص للسكن في إطار عملية ضم الأراضي بمشروع الحاجب وستقوم وزارة السكنى وإعداد التراب الوطني بإعداد التصاميم لهذه المراكز السكنية.

6 – تدخل الصندوق الوطني للقرض الفلاحي عن طريق تخصيص قروض لتنمية السكن، فالصندوق الوطني للقرض الفلاحي أصبح يقوم بالدور الذي يقوم به القرض العقاري والفندي في المدن مع الملاحظة أن هذه القروض لا تعني إلا فئة ذات دخل معين.

نستنج مما سبق أن هناك عدة عوامل تحكمت في تحديد أنماط وأشكال السكن بالمنطقة.

II أنواع السكن القروي

إن التصنيف الذي نقترحه يعتمد على ثلاثة معايير أساسية :

- شكل السكن ونقصد به نوعية المساكن المكونة للوحدات السكنية بالبادية.
- تخطيط السكن أي انتظام المساكن داخل الوحدات السكنية.
- الوظيفة الاقتصادية – الاجتماعية. التي تعكس فئة القاطنين.

1 - تصنيف السكن

1. **السكن الأصلي** : وهو السكن الذي أقامه وطوره السكان «الأصليون» بني مطير، كروان، عرب سايس، مجاط... الخ. والذي يتخذ مواضع خاصة في سفوح الأودية أو على هامش الهضبة بالقرب من قدم الأطلس المتوسط أو مقدمة جبال الريف في الشمال ويتميز هذا السكن :

- بالثشت النسبي إذ أن المساكن لاتشكل وحدات أو تجمعات سكنية متراسة وإنما هي منازل متائرة وسط الاستغليات.
- تنوع أشكال المساكن مما يعكس تفاوت المستويات المادية للسكان وقدراتهم على تطوير مساكنهم.

2. **السكن العمالي** : وهو سكن شبيه بمدن الصفيح بالمراكز الحضرية. من حيث الشكل والتكديس ومواد البناء وهو سكن ارتبط أصلا بالضيعات الاستعمارية يقطنه العمال الفلاحيون ويتخذ أيضا مواقع مختلفة على طول الطرقات أو على هامش الضيعات أو بالقرب من مراكز هذه الضيعات (أي يحيط ببيت «المعمر» والمرافق التابعة للضيعات محلات التخزين ومستودعات الأدوات الفلاحية).

وهذا السكن هو في وضعية عقارية تمكنا من أن نقول عنه أنه سكن «سري أو غير قانوني» إذ أن الأرض التي أقيم عليها السكن هي جزء من الضيعة فالمعمر كان يسمح لعماله بإقامة بيوتات بسيطة في بقع معينة، ولما استرجعت أو فوتت الأراضي استرجعت معها مواضع السكن التي تكون جزءا من الرسم العقاري وبالتالي فإن هذه الأراضي الآن هي في ملك شركة التنمية الفلاحية أو شركة تسيير الأراضي الفلاحية أو الخواص الذين يطالبون سكان هذه المراكز بالافراغ للتمكن من كل المساحة الموجودة في الرسم العقاري. وهذه الوضعية العقارية حالت دون تطوير هذا النوع من السكن أو استقرار السكان بصفة نهائية. فهذه المراكز هي مرحلة لهجرة في اتجاه الخارج أو في اتجاه مكناس أو المدن المجاورة مثل تاجدات - سبع عيون - بوفكران.

3. **مراكز التعاونيات الفلاحية** : وهي مراكز حديثة مرتبطة بتوزيع الأراضي المسترجعة - وتوجد بالمنطقة مالا يقل عن 60 تعاونية وتتميز هذه المراكز (بضعف التجهيز) لكونها مراكز غير مكتملة إذ أن جل المتعاونين لازالوا لم يكملوا إنجاز منازلهم كما أن بعض التعاونيات لازالت لم تنته من إنجاز التجهيزات الضرورية.

4. **سكن الضيعات** : وهو في غالبية الأحيان سكن موروث عن المرحلة الاستعمارية وهو سكن أصبح متدهور بسبب انعدام الصيانة.

5. **المراكز الحضرية** : وهذه المراكز في نظري تشكل أقطاب نمو في المنطقة ودراستها تدخل في إطار دراسة للشبكة الحضرية إذ أن هذه المراكز أصبحت ترقى الى مرتبة المدن الصغيرة بسبب التجهيزات والمرافق التي أصبحت تتوفر عليها.

2 - مميزات هذا السكن : وسأكتفي بإعطاء المميزات الأساسية مقتصرين على ميزتين

- الاتجاه نحو التفكك وهذا الاتجاه أصبح سائدا في البوادي المغربية بصفة عامة إذ حتى في المناطق التي يسود بها السكن المتجمع مثل «قصور» تافيلات فإن الاتجاه نحو التفكك وظهور منازل خارج الأسوار أصبح ظاهرة متميزة وهذا يعكس مدى تفكك وتحلل الروابط الاجتماعية.
- الاتجاه نحو تقليد الأنماط السكنية الحضرية سواء من حيث تصميم المنازل أو مواد البناء أو التجهيزات المنزلية وهذا يمر عبر نماذج إما في الوسط الحضري المحلي أو من الخارج، إذ أن المنظور السائد

«مثالية السكن الحضري» وأن تنمية السكن القروي لا يمكن إلا عن طريق تقليد نماذج السكن الحضري ومن ثم فإننا نلاحظ غزو الاشكال السكنية الحضرية للبادية بكل سماتها ومشاكلها.

خاتمة

إن تنوع السكن القروي واتجاهات تطوره الحالية تعكس :

1 — انعدام خطة شمولية ومنظور موحد لتطوير السكن القروي ذلك أن الجهات المعنية بمشاكل السكن والسلطات العمومية كانت دائما تعطي الأولوية للسكن الحضري مهملة في ذات الوقت السكن القروي.

2 — الاعتقاد السائد لدى الجميع من أن تنمية السكن القروي يمر عبر النماذج الحضرية، وقد أبرزت التجربة في بعض القرى النموذجية (قرية وادي بهت) بأن هذا السكن غير وظيفي وما هو إلا تحويل للأطناط الحضرية، بما تتضمنه من سلبيات، في اتجاه البادية.

3 — حتمية إعداد المجال القروي بصفة عامة. إذ أن السكن لا يكون إلا عنصرا من عناصر هذا المجال.

التطور الحديث لسكان مكناس وظهرها

الأستاذ عبد اللطيف فضل الله الجامعي
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة محمد الخامس
الرباط

يغطي إقليم مكناس، وفي حدوده الادارية الحالية، نحو 4000 كم² أي 0,56% من مجموع مساحة البلاد، لكنه يضم زهاء 684 000 نسمة وهو ما يمثل 3% من سكان المغرب. وباستثناء ولايتي الدار البيضاء — المحمدية والرباط — سلا وكذا إقليم طنجة، التي تتميز كلها بتجمع حضري كبير على رقعة مجالية محدودة، فإن إقليم مكناس يأتي على رأس أقاليم البلاد من حيث الكثافة السكانية العامة التي تجاوزت به الآن 170 نسمة بالكلم 2 من جهة، ومن حيث نسبة السكان الحضريين (بغض النظر طبعا عن الأقاليم الصحراوية التي يعيش جل سكانها بالمدن) التي تدنو من 63% فلا تفوقها سوى نسبة إقليم فاس المجاور (68%)، من جهة ثانية. وعلى غرار ما نجد في غالبية مناطق نفوذ المدن الكبرى المغربية، لم يتزعزع في ظل مكناس أي مركز حضري ذي أهمية، وإن كانت قد برزت حولها، خلال العقود الأخيرة على الخصوص، تجمعات سريعة النمو يظهر أنها قد بدأت تقوم بدورها المتواضع في هيكلة المجال بالسايس الغربي.

ومن أجل قياس صحيح لتطور السكان ارتأينا ألا نعتبر هنا سوى السكان المغربية، تاركين جانبا الجماعات اليهودية والأجنبية وذلك نظرا لتلاشيها السريع منذ الاستقلال، فلم تعد تمثل شيئا في حركية السكان وتعميرهم للمجال، مما يدفع الى اعتبارها مجرد «سكان عابرين» يحدث دمجهم مع «السكان القارين» تشويشا كبيرا في عمليات القياس الديمغرافي (1).

واكتفينا في عجالتنا هذه بالنظر الى التطور الحاصل منذ 1960، علما بأن المعطيات الاحصائية السابقة لهذا التاريخ لا تتعلق بنفس الوحدات المجالية بالأرياف، مما لا يبيح مقارنتها بالمعطيات الحديثة. هذا، وسعيا وراء مقارنة دقيقة للحالات بالنسبة لسكان الأرياف والمدن، استرنا حضريا في 1960 و1971 كل المراكز التي كانت كذلك في 1982 فطرحتنا سكانها من مجموع سكان الجماعة الريفية التي توجد بها.

1 — توازن النمو السكاني بين الريف والحضر :

خلال الربع قرن المنصرم، يكون عدد سكان إقليم مكناس قد تضاعف، مارا من 342000 في

1960 الى 684000 حاليا، وذلك بنسبة زيادة سنوية متوسطة تناهز 2,7%، وهي تقريبا نفس النسبة التي ميزت تزايد مجموع المغاربة خلال هذه الفترة. والملاحظ أن وتيرة التزايد كانت في عقد الستينات أقوى بكثير (بنحو 41%) مما جاءت عليه أثناء العقد التالي؛ وهذا تباطؤ يفوق ما سجلته الزيادة السكانية على الصعيد الوطني بين العقدين، إذ أن نسبة الفترة الأولى لم تتجاوز إلا بنحو 10% نسبة الفترة الثانية.

الجدول 1 — وتيرة التزايد السكاني بإقليم مكناس وبالمغرب بين 1960 و1982

المستوى	عدد السكان بالآلاف			% لزيادة الاجمالية			% الزيادة السنوية		
	1960	1971	1982	60 — 71	71 — 82	82 — 82	60 — 71	71 — 82	82 — 82
إقليم مكناس	342	486	624	42,1	28,4	82,5	3,25	2,30	2,77
المغرب	11068	15236	20345	37,6	33,5	83,8	2,95	2,66	2,80

فهل هذا التباطؤ الواضح في نسبة التزايد يعني حدوث نوع من الفطور الديمغرافي عند سكان الاقليم أم هو تعبير عن هبوط في حدة التوافد اليه أو احتدام النزوح منه، أم هو نتيجة لمفعول هذه العوامل كلها؟ هذا إذا سلمنا بصحة نتائج عمليات الاحصاء.

كيف ما كان الحال نجد أن هذا النمو السكاني اختلفت حدته كثيرا بين الوسطين الريفي والحضري، إذ أن هذا الأخير سجل نسبة تزايد سنوية متوسطة هي تقريبا ضعف ما حدث بالأرياف. لكن هذا الفرق يبقى دون ما سجل على الصعيد الوطني حيث جاء أكثر من ثلاث مرات أقوى. وإذا كان الاقليم قد عرف نسبة زيادة أهم على مستوى الأرياف بالمقارنة مع المجال الريفي المغربي ككل (بتفوق 09% بين 1960 و1982) فإن النسبة الوطنية تجاوزت نسبة الاقليم بنحو 45% (خلال نفس الفترة) بالنظر الى تزايد الحضريين. ربما يكون مرجع ذلك الى أن أرياف الاقليم، نظرا لامكانياتها الفلاحية الجيدة، استطاعت أن تشد إليها أبنائها وربما أن تجتذب إليها آخرين، أكثر مما فعلته الأرياف المغربية على العموم، في حين أن المراكز الحضرية بالاقليم، وبالخصوص مكناس، لم تستقبل الوافدين بنفس الحدة التي عرفتها المدن المغربية ككل.

الجدول 2 — نسبة التزايد السنوية لسكان الأرياف والمدن بإقليم مكناس والمغرب :

المستوى	الأرياف			المراكز الحضرية		
	60 — 71	71 — 82	82 — 82	60 — 71	71 — 82	82 — 82
مكناس	1,94	1,64	1,79	4,31	2,73	3,51
المغرب	1,83	1,45	1,64	5,55	4,61	5,08

وإذا كان سكان الاقليم قد زادوا بمعدل 13000 نسمة تقريبا كل سنة بين 1960 و1982 (وهو ما يمثل نحو 3,1% من مجموع الزيادة الحاصلة بالمغرب) فإن تفاوت ايقاع النمو بين الأرياف والمراكز الحضرية جعل نحو 72% من تلك الزيادة تقع بهذه المراكز، مقابل 28% فقط بالوسط الريفي. وهكذا ارتفعت نسبة الحضرين باستمرار، منتقلة من حوالي الثلث في منتصف الأربعينات الى قرابة النصف عند الاستقلال لتدنو من 53% في 1960 وتقفز الى 59% تقريبا في 1971 ثم الى زهاء 63% حاليا.

ونظرا لتفاوت إمكانيات الشغل وأسباب الحياة، فإن وتيرة نمو السكان عرفت اختلافات هامة من مركز حضري لآخر ومن جهة لأخرى داخل المجال الريفي، مع فوارق محسوسة حسب الفترات الزمنية.

الجدول 3 — زيادة السكان بأرياف ومدن إقليم مكناس (بالآلاف) :

الفترة	مجموع الأقاليم		الوسط الحضري		الوسط الريفي	
	الاجمالي	السنوي	الاجمالي	السنوي	الاجمالي	السنوي
1971 — 60	144000	13090	106000	9640	38000	3470
1982 — 71	138000	12550	98000	8910	40000	3600
1982 — 60	282000	12820	204000	9290	78000	3530

2 — اختلافات الضغط الديمغرافي بالمجال الريفي :

يظهر قياس معدل نسب الزيادة السنوية حسب الجماعات الريفية مدى الاختلاف الموجود بين المجموعات البشرية الواقعة شرق وجنوب شرق مكناس، حيث فاقت نسب النمو المعدل العام المسجل بالاقليم (وهو 1,79% بين 1960 و1982)، والمجموعات الأخرى التي عرفت نسب نمو أدنى من ذلك المعدل. ويشهد هذا التفاوت في سرعة النمو على مدى تباين الامكانيات الفلاحية بين هذين المجالين، إذ أن الجماعات الأولى تنتشر أساسا على أراضي سايس الخصبه بينما تمتد الثانية في معظمها على مرتفعات مقدمة الريف أو هضاب الأطلس المتوسط الكلسي ذات الطاقات الانتاجية المحدودة.

وعرف ايقاع النمو تفاوتا كبيرا جدا من فترة لأخرى ومن جماعة لأخرى مع أن المسافة تكون أحيانا قريبة بينهما. فبينما جاء الفرق بين أعلى نسبة تزايد (بوفكران) وأخفض نسبة (عين الجمعة) هو 5 مرات خلال عقد الستينات، صار نحو 22 مرة في العقد التالي.

الجدول 4 - تطور سكان الجماعات الريفية بإقليم مكناس :

الجماعات	السكان			عدد	1960	1971	1982	%	الزيادة	المئوية
	1982	1971	1960							
بوفكران	22185	14196	8853						4,17	82 - 60
عين توجعات	30098	21750	14394						3,00	82 - 60
سبع عيون	23148	18693	*14000						1,96	82 - 60
اثنين المهاية	24220	19334	15263						2,07	82 - 60
الدخيسة	10453	8627	6772						1,76	82 - 60
الدير	19533	16047	13187						1,82	82 - 60
افوراي	15684	12953	11056						1,75	82 - 60
سبت جحجوح	15288	13512	11681						1,13	82 - 60
نزالة بني عمار	13573	12795	10814						0,54	82 - 60
المغاسين	16648	14904	13510						1,01	82 - 60
عين العرمة	13611	12810	11489						0,55	82 - 60
كرمة بنسالم	12236	11973	10558						0,20	82 - 60
عين الجمعة	23343	22860	20721						0,19	82 - 60
المجموع	240020	200454	162299						1,65	82 - 60

(*) بعد إزالة سكان مركز سبع عيون الذين قدر عددهم بنحو 800 إلى 900 نسمة.

كذلك تجدر الإشارة إلى أن هذا الاختلاف في نسب النمو أسفر عن ضغط سكاني جد متباين. فهناك أربع جماعات هي بوفكران وعين توجعات وسبع عيون واثنين المهاية تغطي أدنى من 1/4 المساحة الإجمالية للمنطقة لكن استقبلت أكثر من 5/2 الكتلة السكانية التي زادت بالأقليم بين 1960 و1982

هذا علما بأنها لم تكن تحتوي إلا على أقل من 3/1 سكانه الريفيين في بداية هذه الفترة. وقد زاد نصيب هذه الجماعات الأربع في مجموع الزيادة خلال عقد السبعينات (65%) عن عقد الستينات (56%). بل إن الجماعتين الأوليين اللتين لا تزيد حصتهما من مساحة الاقليم عن 13% ومن سكانه الريفيين عن 14% في 1960، وقع بهما 38% من الزيادة الاجمالية الحاصلة بين 1960 و1982.

ودون أن ندخل في تفاصيل التعمير الريفي بالمنطقة، الشيء الذي يتطلب دراسة خاصة مدققة، يمكن تصنيف هذه الجماعات الى ثلاث كتل كبرى تطابق تقريبا ثلاثة مجالات جغرافية متميزة، وإن كانت بعض الجماعات تمتد على أكثر من مجال.

فهناك مجال السوايس الذي عرف نسبة زيادة متوسطة تدنو من 3% سنويا بين 1960 و1982، وهي الفترة التي تكاثر سكانه فيها بحوالي 51.000 نسمة (أي 65% من مجموع الزيادة الحاصلة بأرياف الاقليم)، ليقطنه حاليا 122.000 نسمة على الأقل، يتزايدون سنويا بها بين 3000 و3500 شخص وله كثافة متوسطة تربو على 110 في الكم 2.

ثم يليه أهمية، على مستوى سرعة النمو، مجال الجماعات الجنوبية والجنوبية الشرقية، المنتشرة على الأطراف الجنوبية للسوايس والهوامش الشمالية لهضاب الأطلس الكلسي. فنسبة التزايد ظلت تحوم حول 1,5% بين 1960 و1982، مما أكنسبه حوالي 15000 نسمة (19% من الزيادة الاقليمية) وهو يقطنه حاليا نحو 54000 نسمة ينمون بنحو 800 الى 900 شخص سنويا، وبكثافة 32 في المتوسط.

أما الجماعات الممتدة على مقدمة الريف، أساسا، التي يصل سكانها حاليا الى 80.000 نسمة تقريبا، بكثافة متوسطة تناهز 64، فهي التي سجلت أدنى نسبة للتزايد بالمنطقة بمعدل سنوي لم يتجاوز 0,8% بين 1960 و1982، مما جعل الزيادة الفعلية لا تتعدى 12000 ساكن. بل نزل هذا المعدل الى أقل من 0,5% في عقد السبعينات وقطع إلى أدنى من ذلك فيما بعد، الشيء الذي يجعل عدد السكان حاليا في شبه ركود إن لم يكن قد دخل في طور التقلص المطلق.

الجدول 5 — تطور كثافة سكان الأرياف بإقليم مكناس :

الجماعة	1960	1971	1982
الثنين المهايية	85	108	135
بوفكران	47	76	118
الدخيسة	69	88	107
كرمة بنسالم	82	93	95
المفاسيين	76	83	93

عين توجعات	43	65	90
سبع عيون	49	66	82
نزالة بني عمار	50	59	63
عين العرمة	48	54	57
عين الجمعة	43	47	49
أثوراي	26	31	37
الدير	23	28	34
سبت جحجوح	17	20	23
المجموع	40	50	60

3 - تباين التطور السكاني حسب المراكز الحضرية :

لقد صاحب هذه التفاوتات الكبيرة في الحيوية الديمغرافية التي ميزت الأرياف تفاوتات مماثلة في سرعة وكيفية نمو المراكز الحضرية بالمنطقة. والملاحظ، وبصفة عامة، أن المجالات الريفية ذات الضغط السكاني القوي هي التي شهدت بذلك أهم «انفجار حضري» عن طريق توسع المراكز الموجودة بها، أو ظهور مراكز جديدة أو بفعلهما معا.

يلزم التذكير أنه على نقيض نسب الزيادة السكانية بالأرياف التي كانت بهذا الاقيم أعلى بعض الشيء من المتوسط الوطني، فإن نسب تكاثر سكان المراكز الحضرية جاء أدنى بكثير من معدل التكاثر الذي سجلته المدن المغربية ككل (2).

كذلك أتت الفوارق في سرعة التزايد بين المراكز أقل تباينا مما حدث في الأرياف، إذ أن أقصى بون بين أعلى وخفض نسب سجلت كان هو 4,6 مرات بين 1960 و1982 مقابل 8 مرات على مستوى الجماعات، وإن كان ذلك الفارق قد تقلص نسبيا بين عقدي الستينات (5,6 مرات) والسبعينات (5,5 مرات مقابل 22 مرة بالجماعات الريفية).

وتجدر الإشارة الى أن متوسط التزايد السنوي كان أضعف شيئا ما بمدينة مكناس، بالمقارنة مع مجموع المراكز التي تدور في فلكها، باعتبار فترة 1960 - 1982، لكن العاصمة الإقليمية سجلت سرعة تكاثر أهم (بنحو 27%) خلال العقد الأول، مقابل تفوق أقوى بكثير (بنحو 63%) للمراكز المحيطة أثناء العقد الثاني. أما إذا الحقنا مركزي تولال ودوار السوسمي مكناس، بحكم أنهما في الواقع مجرد تمدن تم على الأطراف الغربية والشرقية للمدينة، أصبحت نسبة زيادة مكناس (3,53%) تتجاوز بعض الشيء زيادة المراكز

الأخرى الباقية (3,43%) بين 1960 و1982، مع ملاحظة أن هذه المراكز حافظت على نفس وتيرة النمو طيلة العقدين معا، بينما نزلت النسبة بمكناس الكبرى بشكل واضح (4,43% في العقد الأول فقط و2,63% في الثاني).

الجدول 6 — تطور سكان المراكز الحضرية بإقليم مكناس :

المراكز	عدد السكان			%	الزيادة	السنتوية
	1960	1971	1982			
	82 — 60	82 — 71	71 — 60			
الحاج قدور	927	1148	1508	1,96	2,51	2,24
بوفكران	1088	1440	1925	2,58	2,67	2,63
عين الجمعة	977	1715	2182	5,25	2,21	3,72
سبع عيون	883	1112	3646	2,12	11,40	6,66
أفوراى	1898	3045	4930	4,39	4,48	4,43
عين توجعات	2113	4137	7734	6,30	5,90	6,10
تولال	3653	5631	8134	4,01	3,40	3,51
دور السوسي	1864	2743	8148	3,57	10,40	6,93
مولاي ادريس زرهون	8114	9189	11126	1,14	1,75	1,45
الحاجب	7722	12581	16720	4,54	2,62	3,57
مكناس (2)	150470	243000	318000	4,45	2,48	3,46
مكناس (7)	155987	251374	334282	4,43	2,63	3,53
المجموع	179709	285741	384093	4,31	2,73	3,51

• تقدير

- (1) : بدون دوار السوسي وتولال.
(2) : مع إضافة دوار السوسي وتولال.

بالنظر الى المراكز الحضرية العشرة المحيطة بمكناس نجد أنها، تبعا لكونها تميزت بنسبة تزايد سكاني أقوى من العاصمة الاقليمية، قد احتضنت 12,7% من مجموع الزيادة البشرية الحاصلة خلال الستينات، وتقريبا ضعف ذلك (23,7%) خلال السبعينات. وقد استأثرت أربعة من هذه التجمعات (الحاجب ودوار السوسي، عين توجدات وتولال) بنحو 70% من مجموع تلك الزيادة التي حدثت بين 1960 و1982. ونلاحظ أيضا أن ستة منها عرفت احتداما متواصلا لسرعة التزايد منذ 1960، وأحيانا بشكل مهول، كما هو حال سبع عيون ودوار السوسي، في حين سجلت الأربعة الباقية تباطؤا محسوسا في نموها خلال السبعينات، خاصة أفوراي وعين الجمعة.

الجدول 7 - توزيع الزيادة السكانية حسب المراكز الحضرية :

المراكز	الحصة	في مجموع	الزيادة (%)
	60 — 71	71 — 82	60 — 82
الحاجب	36,0	17,7	24,4
دوار السوسي	6,5	23,2	17,1
عين توجدات	15,0	15,6	15,4
تولال	14,7	10,7	12,2
مولاي ادريس	7,9	8,3	8,2
افوراي	8,5	8,1	8,0
سبع عيون	1,7	10,8	7,5
عين الجمعة	5,5	2,0	3,3
بوفكران	2,6	2,1	2,3
الحاج قدرور	1,6	1,5	1,6
المجموع	100	100	100
مجموع الزيادة المطلقة	13502	23352	36854

وعلى أساس ايقاع تطورها الديمغرافي الذي حدث بين 1960 و 1982، يمكن التمييز بين ثلاثة أصناف من المراكز : صنف شهد تزايدا هاما ومتواصلا، فاق بكثير المعدل العام الذي سجلته مجموع المراكز (3,78%) يشمل دوار السوسي وسبع عيون وعين توجدرات ونسبيا أيضا أفوراي صنف مناقض لم يعرف سوى نمو بطيء نزل عن ذلك المعدل العام، وأحيانا بكثير، يجمع الحاج قدور وبوفكران ومولاي ادريس، وأخيرا صنف وسط تميز بزيادة ما ثلث المعدل العام، يضم الحاجب وتولال وعين الجمعة.

ومما يمكن الإشارة اليه أن «موازن القوى» بين هذه المراكز قد تغيرت كثيرا خلال العقود الثلاثة الأخيرة. فالنصف الأول الذي لم يكن يضم سوى 23% من سكان مجموع مراكز الاقليم (دون مكناس بطبيعة الحال) في 1960، قد أصبح يشتمل على 37% منهم بعدما حصل به 48% من الزيادة السكانية الاجمالية التي عرفتها كل المراكز. هذا في حين أن الصنف الثاني الذي كان يقطنه نحو 35% من سكان 1960 لم يعد يجمع سوى 22% منهم، بينما حافظ الصنف الثالث على نفس الوزن تقريبا خلال هذه الفترة بحصة 12% في الزيادة الاجمالية.

الجدول ٤ - تطور الوزن السكاني بين المراكز الحضرية حول مكناس (%) :

المراكز	1960	1971	1982
الحاجب	26,4	29,4	25,3
مولاي ادريس	27,8	21,5	16,8
دوار السوسي	6,4	6,4	12,3
تولال	12,5	13,2	12,3
عين توجدرات	7,2	9,7	11,8
أفوراي	6,5	7,1	7,5
سبع عيون	3,0	2,6	5,5
عين الجمعة	3,3	4,0	3,3
بوفكران	3,7	3,4	2,9
الحاج قدور	3,2	2,7	2,3
المجموع	100	100	100

ورغم قلة المراكز الحضرية بمكناس فإنها تتنوع كثيرا من حيث قدم نشأتها وكيفية تطورها. وقد أدى التطور السريع والمتذبذب للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بالأقليم، وكذا بمجموع البلاد منذ دخول الاستعمار، الى خلق حركات سكنية جد نشيطة تعمل في اتجاهات متعددة ومختلفة أسفرت عن تعزيز المكانة الديمغرافية لبعض المراكز وإضعاف مكانة مراكز أخرى، وكذا عن بروز تجمعات حضرية جديدة وركود تجمعات قديمة.

هكذا نرى أن مولاي ادريس، واحدة من أقدم المدن المغربية هي التي سجلت أضعف نسبة لتزايد السكان بالأقليم، شأنها في ذلك شأن العديد من المدن العتيقة الصغرى التي خانها موقعها الجغرافي المنعزل عن تيارات النشاط الجديدة (دمنات — دبدو أمزميز، عين اللوح...). بينما يكون أحدث تجمع، أي دوار السوسي، هو الذي عرف أقوى وتيرة للنمو. وتركز حول قصبات عسكرية قديمة تجمعات متفاوتة الأهمية والنشاط: فتوال وأقواري والحاجب، في ظروف جد متباينة شهدت إيقاع تكاثر سكاني متقارب. بينما اختلفت كثيرا مصائر مراكز التعمير الفلاحي، الرسمية وغير الرسمية، التي أقامها، المعمرون الفرنسيون بالسايس الغربي، حيث أن «نحاج» عين توجيدات وسبع عيون يقابله ركود عين الجمعة و«فشل» بوفكران والحاج قدور.

ولاشك أن الفلاحة والأدارة والمواصلات والقرب أو البعد عن عاصمة الاقليم... تمثل عوامل رئيسية تؤثر بقوة في السلوك والتطور السكاني لهذه المراكز. فتوسع توال ودوار السوسي لايمكن أن يعزى بالأساس إلا الى الأوضاع العقارية العسيرة وأزمة السكنى التي ميزت مكناس، كسائر المدن المغربية الأخرى مع نهاية الستينات أو بداية السبعينات، محدثة انسكاب التمدن على الهوامش المباشرة للمدينة، فبرزت أحياء ضخمة في ظروف جد وجيزة، شيدت في جو من العشوائية والفوضى التامة والمضاربة الفاحشة، فاستقطبت أعدادا كبيرة من البشر ليس فقط من الجماعة الريفية التي تقع بها ولكن أيضا من داخل المدينة وآفاق أخرى (3).

أما نمو الحاجب وأقواري، فلا شك أنه، الى جانب موقع الوصل بين السايس والأطلس المتوسط، قد لعب فيه العامل الاداري دورا رئيسيا (بحكم أن الأول مركز دائرة والثاني مركز جماعة)، لما يتولد عن ذلك من تحسن نسبي في التجهيزات الاجتماعية ومن تكاثر وتنوع التجارة والخدمات، مما يساعد على تثبيت السكان المحليين واجتذاب بعض الآخرين، خاصة من الناحية نفسها.

ولا يمكن أيضا فهم ترعرع مركز سبع عيون وخاصة عين تواجيدات إلا على ضوء التطورات التي حدثت في الانتاج الفلاحي المحلي وما نتج عنه من نمو سكاني هائل بالمنطقة. إلا أن البعد النسبي عن مكناس وثانويا موقع الوصل بين السايس والأطلس المتوسط من جهة، وتعزيز الادارة وما يخلقه ذلك من حركية اجتماعية واقتصادية من جهة أخرى، كلهما عوامل ساهمت بقليل أو كثير في الانفجار السكاني الذي عرفه هذان المركزان. لكن ذلك لم يكن مصير الحاج قدور وبوفكران، رغم الكثافة السكانية العالية التي تميز مجاهما. وربما يرجع هذا لتقاربهما الكبير مما يحدث تنافسا بينهما، ولكن أساسا لوقوع جماعة بوفكران على أبواب مكناس، مما يدفع السكان الريفيين الذين «ينزعون الى التحضر» الى قصد العاصمة مباشرة أو الاستقرار على أطرافها، خاصة في إحدى تلك الأحياء الهامشية التي نمت في كل اتجاه.

أخيرا، إذا نحن اعتبرنا أن كل مركز قد حافظ على نفس نسبة التزايد السنوية التي عرفها بين 1971

و1982 (وإن كان من المحتمل جدا أن تكون قد ارتفعت في المراكز المندفعة وتقلصت في المراكز الراكدة)، وجدنا أن المراكز المحيطة بمكناس تضم حاليا نحو 80 000 نسمة، أي 18 الى 19% من مجموع حضري الاقليم. وتكون خمسة من هذه التجمعات تشمل ما يعادل أو يتجاوز 10.000 ساكن، بينما يصل اثنان الى حوالي 6000 وتبقى الأخرى دون 2500، مع احتمال ظهور تجمعات جديدة. وهكذا تكون مراكز حديثة العهد، ظهرت منذ عقدين على الأكثر، قد أصبحت في مصاف مدن قديمة عبرت قرونا من التاريخ.

الجدول 9 — تقدير عدد سكان المراكز الحضرية في 1986

الحاجب	19 000 :	- أفراي	6.000 :
دوار السوسي	:	- سبع عيون	5500 :
مولاي ادريس	12 000 :	- عين الجمعة	2400 :
عين توجعات	10 000 :	- بوفكران	2100 :
تولال	10 000 :	- الحاج قدور	1600 :

ويمكن تقدير سكان مكناس حاليا بنحو 350.000 نسمة، وبذلك تأتي في الرتبة الخامسة بين المدن الكبرى المغربية. وإذا كانت المدينة قد حافظت على هذه الرتبة منذ أزيد من نصف قرن، وعرفت نمو سكانيا وتوسعا اقتصاديا هامين في الثلاثينات والأربعينات، بفعل اجتذاب أعداد غفيرة من المغاربة، ولكن أيضا من جراء تركز قوي للجالية الأوروبية والجماعة اليهودية، فإن حركتها الديمغرافية راحت تتمهل نسبيا خلال العقود الثلاثة الأخيرة بالمقارنة مع المدن الكبرى الأخرى.

فإذا أخذنا المدن التي تجاوز سكانها 100 000 حسب إحصاء 1982، ونظرنا الى ايقاع تزايدها السكاني منذ 1960، وجدنا أن مكناس هي التي سجلت أدنى نسبة للتكاثر، لانقل عنها سوى مراكش. فنسب زيادة سكان خريبكة والمحمدية والرباط وسلا قد تجاوزت نسبة مكناس بنحو 50 الى 60%، كما أن نسب زيادة القنيطرة وأسفي وتطوان ووجدة وطنجة تعدتها بنحو 20 الى 36%، وحتى فاس زادت عليها بزهاء 10%.

كما هو الشأن بالنسبة لجميع المدن الكبرى المغربية سجلت وتيرة النمو هبوطا هاما بين عقدي الستينات والسبعينات، بلغت حدته 40% لكن يلاحظ أن مكناس ظلت دائما في الرتبة 11 من حيث نسبة التزايد في كلا العقدين.

وهنا قد اعتبرنا مكناس الكبرى، أي بإضافة تولال ودوار السوسي. أما إذا أزلنا سكان هذين التجمعين الهامشين، فإن نسبة الزيادة السنوية ستنزل الى 2,48% خلال السبعينات ومن ثم الى 3,46 بين 1960 و1982.

وما لاشك فيه أن هذا التطور السكاني هو بالدرجة الأولى نتيجة للسلوك الديمغرافي وما يحصل عنه من زيادة طبيعية. لكن مفعول الحركات الهجرة، من توافد ونزوح، أثر بشكل محسوس في ذلك. وحسب

منشور لمركز الأبحاث والدراسات الديمغرافية، صدر أخيراً (٤)، تكون مكناس قد استقبلت بين 1975 و1982 حوالي 38.000 نسمة أتوها من جميع اصقاع الوطن، بينما تكون هي قد أرسلت خلال نفس الفترة زهاء 14000 نسمة لمختلف المدن الكبرى فقط (الدار البيضاء، الرباط — سلا، فاس، مراكش، طنجة، تطوان، اسفي، القنيطرة، وجدة، خريبكة، وأكادير) أما الوافدون عليها فنحو 5/2 أتوا من الأرياف و5/3 من المدن، من بينهم 5/2 من المدن الكبرى. أي أن ميزانها الهجري كان سلبيا مع هذه المدن، إذ بعثت إليها 14000 نسمة ولم تأخذ منها سوى 10 000. وتأتي على رأس هذه المدن الباعثة للسكان الدار البيضاء، المحمدية والرباط، سلا (42% من المجموع)، فاس (21%)، القنيطرة (10%)، والباقي وفد أساسا من مراكز الاقليم، والغرب وبلاد زمور وزيان والمغرب الشرقي.

أما الوافدون من الأرياف، فقد أتوا بالدرجة الأولى من الاقليم نفسه (33% من المجموع) ومن أقاليم فاس وتازة وتاونات (26%) الغرب (11%) وزمور (7%).

وبالنسبة للنازحين فإن عدد من هجر مكناس خلال فترة 1975 — 1982، يمثل 77% من مجموع من غادروا الاقليم، مقابل 31% بارحوا المراكز الأخرى ونحو 10% خرجوا من الأرياف. وقد توجه المكناسيون الذين قصدوا المدن الكبرى بالأساس نحو الرباط — سلا (34,4%) والدار البيضاء — المحمدية (23,8%) وفاس (15,2%) وبصفة ثانوية نحو القنيطرة (6,1%) وطنجة (4,4%) ومراكش (3,6%) واسفي (3,5%) ووجدة (3,2%).

الجدول 10 — نسبة التزايد السكاني في المدن المغربية الكبرى :

المدن	عدد السكان المقاربة			بالالاف	%	التزايد السنوية	
	1960	1971	1982			71 — 82	60 — 82
المدن	38	73	127	6,20	5,16	82 — 71	82 — 60
خريبكة	32	69	104	7,32	3,74	71 — 60	60 — 52
المحمدية	256	514	830	6,53	4,45	71 — 60	60 — 48
الرباط سلا	101	177	288	5,18	4,54	71 — 60	60 — 86
طنجة	91	169	255	5,84	3,81	71 — 60	60 — 82
وجدة	778	1441	2107	5,77	3,41	71 — 60	60 — 63
الدار البيضاء	77	126	196	4,61	4,04	71 — 60	60 — 33
اسفي							

تطوان	78	135	198	5,03	3,57	4,30
القنيطرة	75	135	187	5,51	2,98	4,24
فاس	198	321	465	4,50	3,41	3,96
مكناس	150	243	326	4,45	2,71	3,58
مراكش	222	329	437	3,62	2,62	3,12

الخلاصة :

لم تكن الغاية من هذه النظرة العاجلة الى تطور السكان بمدينة مكناس وظهيرها لا دراسة الظاهرة ولا تحليلها، بسبب غياب جل العناصر لذلك، بل فقط رصد الخطوط العريضة والاتجاهات الكبرى التي تميز هذا التطور.

فقد ظهر لنا أولاً أن المنطقة تعرف نوعاً من التوازن في تطور سكانها، بين الريف والحضر، بحيث أن المجال الأول يشهد حيوية ديمغرافية تماثل، بل تتجاوز، تلك التي تميز المجال الثاني. فالوزن السكاني للأرياف قد تعزز نسبياً بين عقدي الستينات والسبعينات، من 26,5 الى 28,7% في مجموع سكان الاقليم. وهذه ظاهرة قليلاً ما نجدتها في المناطق المغربية الأخرى. فهل حقاً هذا مؤشر توازن إقليمي أم مبعثه فقط «تأزم» الأوضاع بمكناس وبعض المراكز المحيطة بها ؟

كذلك رأينا أن نسبة الزيادة السكانية، في الأرياف والمدن على حد سواء، عرفت تمهلاً خلال عقد السبعينات بالمقارنة مع العقد السابق. فهل يرجع ذلك الى عوامل داخلية أم أن حدة النزوح صارت أقوى تجاه مناطق أخرى من البلاد ؟

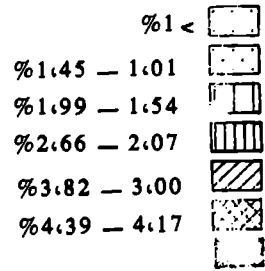
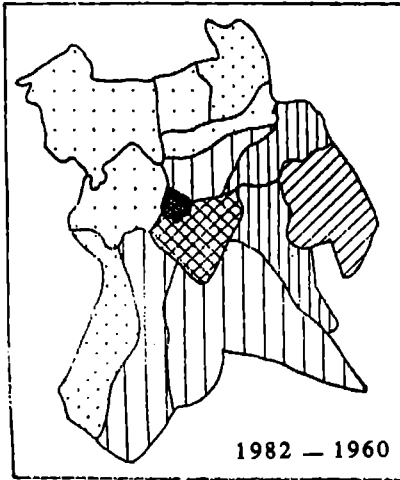
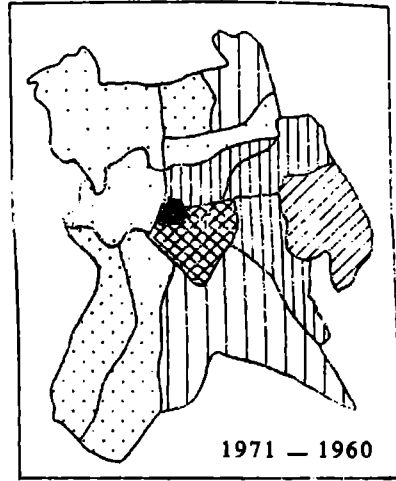
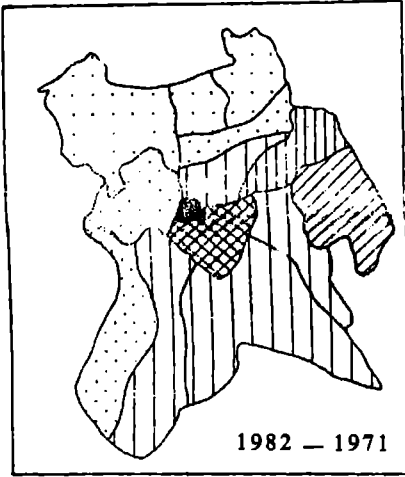
وسجلنا أيضاً ذلك السلوك السكاني المتذبذب والمتفاوت بين المراكز الحضرية. فهل ذلك مؤثر على التقلبات والتحولات التي تحدث في الاقتصاد المحلي أم على زيادة تأثير عوامل خارجية ؟

ثم ماهي درجة حساسية المنطقة للتمدين ؟ فهناك بالاقليم تجمعات بشرية ريفية تفوق 2000 وأحياناً 3000 نسمة. بعضها قديم، بدأت تتجهز على الأقل من الناحية التجارية. فكيف يتم تطورها واندماجها في الاقليم أولاً، وفي مجموعة المراكز ثانياً ؟ هل مراكز المنطقة تؤلف شبكة حضرية أم لا ؟

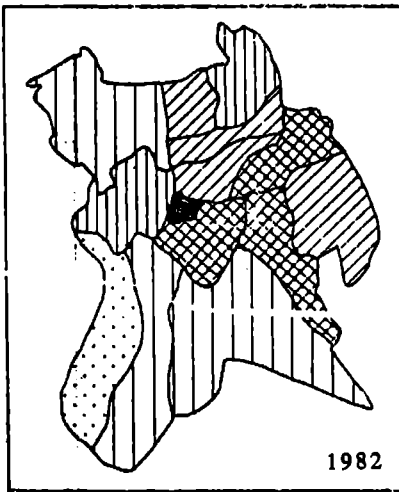
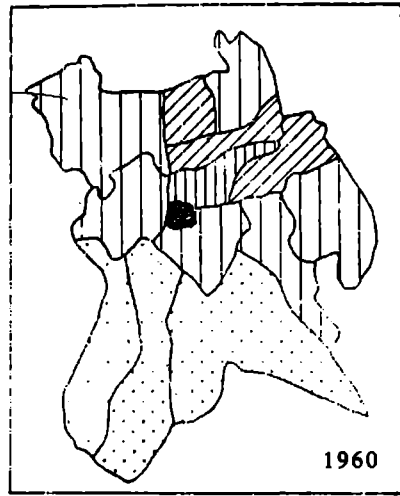
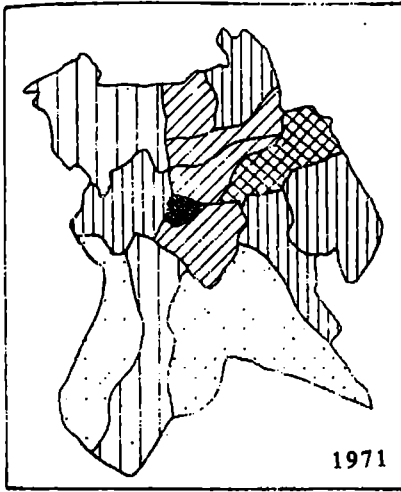
هذه مجرد بعض التساؤلات التي ترسم معالم دراسات وأبحاث هي وحدها كفيلاً بالاجابة عنها.

الهوامش

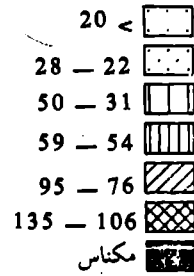
- (1) لقد تراجع عدد الاجانب واليهود بالاقليم من حوالي 40.000 في بداية الخمسينيات إلى 26.000 في 1960 ثم إلى نحو 6000 في 1971 لينزل دون 2000 في 1982، وبذلك مرت نسبتهم في مجموع السكان من 7,1% في 1960 إلى 1,2% في 1971 إلى 0,3% فقط في 1982.
- (2) كان هذا التجاوز بنسبة 09% بين 1960 و 1971 ثم ارتفع إلى 14% في العقد التالي. اما في المجال الحضري فإن نسبة تزايد سكان مراكز الاقليم التي كانت تمثل 78% من المعدل الوطني خلال الستينات لم تعد تمثل سوى 59% خلال السبعينات (ارجع إلى الجدول : 2).
- (3) تكاد لم تنج أية مدينة كبيرة أو متوسطة من بلاء وعلوى التمدين الذائقي الهامشي الذي انتج تجمعات «حضرية» اخطوطية واسعة جدا ومن اشهر هذه التجمعات، نذكر على سبيل المثال : حي بن ديبان بطنجة، والقرية والأحياء الشمالية الشرقية بسلا القيش والعرب بالرهاط وتمازة، الجنانات وسيدي إبراهيم ومون فلوري وعوينات الحجاج وبنسودة بفاس، الدشيرة وبنسريا ووتراست وتكوين والجرف بأكادير، زكزل ببيركان الخ...
- (4) Analyses et tendances démographiques au Maroc. C.E.R.E.D. 1986.



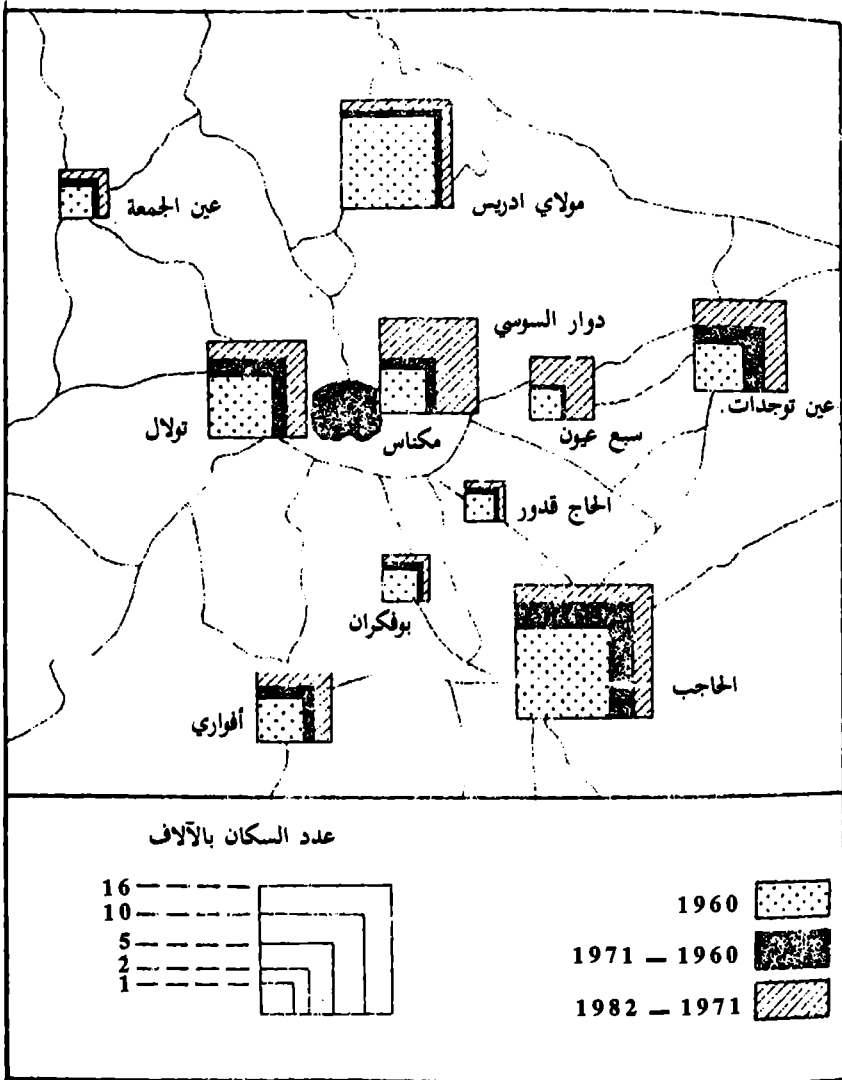
الخريطة 1 — نسبة التزايد السنوي
لسكان الأرياف بإقليم مكناس



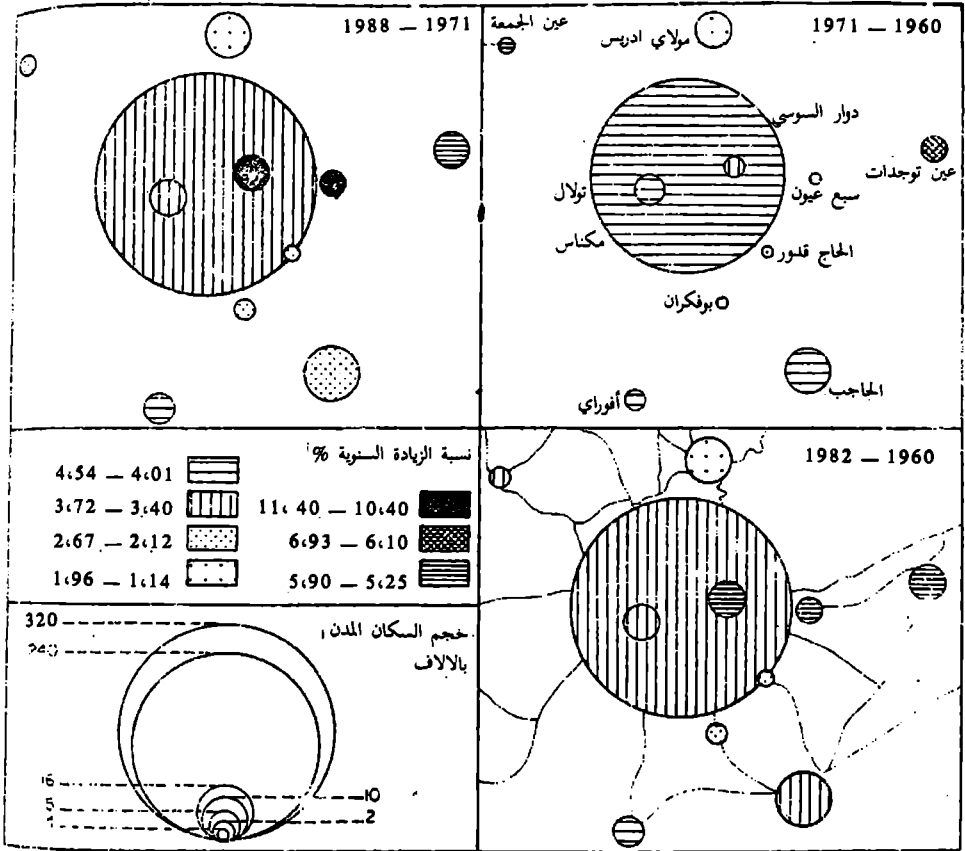
متوسط عدد السكان بالكم



الخريطة 2 - تطور كثافة السكان
بأرياف إقليم مكناس



الخريطة 3 - تطور عدد سكان المراكز الحضرية حول مكناس



الخريطة 4 - وتيرة الزيادة السكانية بمدن إقليم مكناس

ظروف بناء حمرية وتكوين المجتمع الأوربي

الأستاذة رقية بلمقدم
المركز التربوي الجهوي
مكناس

مقدمة :

شرعت السلطات الفرنسية بالمغرب بعد توقيع عقد الحماية بينها وبين مولاي حفيظ 30 مارس 1912، في تطبيق مخططها الرامي الى تحويله لمستوطنة تخدم الاقتصاد الرأسمالي الفرنسي، وعهدت بتحقيق ذلك لمقيميها العاميين في المغرب وفي مقدمتهم «Louis Hubert Lyautey» ليوطي (أبريل 1912 أكتوبر 1925)، الذي بذل جهودا كبيرة في جميع الميادين لتثبيت دعائم الوجود الفرنسي بالمغرب عسكريا واقتصاديا واجتماعيا... ومن أجل ذلك قررت الادارة الاستعمارية بالرباط، تطبيق مشروع تمدين شمل أهم المدن المغربية وخاصة العواصم منها، وبناء أحياء جديدة عصرية مستقلة عن المدينة الأصلية — تكون مقرا للجاليات الأوربية النازحة عرفت بالمدن الجديدة Les villes nouvelles.

كانت مكناس من بين المدن التي شملها مشروع الاقامة العامة بالرباط لاعتبارات متعددة، طبيعية واقتصادية وبشرية.... فأقيمت مدينة جديدة على هضبة حمرية نتجت عنها تبدلات عميقة مست شروط العيش والعلاقات الاجتماعية والسياسية والنشاطات الاقتصادية لسكان مكناس.

1) السياسة المعمارية الفرنسية بالمغرب :

يدخل بناء حمرية في إطار سياسة ليوطي المعمارية الهادفة إلى تأمين سكن ذي مستوى رفيع للأوربيين (1)، والقائمة على مبدأ الفصل والتمييز بين الأوربيين والمغاربة، وتلك أيديولوجيته التي كیفها وحاول تيريرها — تغطية للنوايا الحقيقية للاستعمار — بحجة الحفاظ على التراث القومي والشخصية المغربية، ولتحقيق هذا المخطط أحاط ليوطي نفسه بمجموعة من التقنوقراطيين والمهندسين المعماريين الذين كانوا يشاركونه أهدافه وقيمه (2)، والذين قدموا المغرب متحدوهم آمال تحقيق أحلام وطموحات عمجروا عن تحقيقها في فرنسا، وفي مقدمة هؤلاء هنرى بروست (3) Henry Prost الذي وصل الى المغرب في شهر دجنبر 1913، واستقبله ليوطي وخاطبه بما معناه : «عليك أن تطبق القواعد الأكثر عصرية في التمدن» وهذا تأكيد منه على الفصل التام بين الأحياء الأصلية ومثيلاتها الأجنبية، ورغم تباين الآراء (4) حول مراحل التخطيط الحضري الفرنسي بالمغرب، فهناك اتفاق على أن المرحلة الأولى تشمل مجموعة : «ليوطي — بروست»، فقد قام بروست فيما بين 1914 — 1922 بوضع تصاميم هندسية للعواصم المغربية، مراكش، مكناس، فاس والرباط تساير

أيدولوجية ليوطي التي تبناها، وتعكس الذوق الجمالي الذي امتاز به كل منهما (بروسط. ليوطي).^(١١) تطلب تشييد المدن الجديدة عناصر متعددة أهمها إيجاد الأرض التي بنيت فوقها، وكان هذا أول مشكل واجه السلطات الفرنسية، التي سرعان ما وجدت له الحل المناسب، وفي هذا الإطار يطرح تساؤل : ماهي الأساليب التي استعملها الفرنسيون ومكنتهم من الحصول على الأراضي الشاسعة التي أقاموا عليها مدنهم ؟ إن الاجابة عن هذا التساؤل تفرض البحث في الوضعية العقارية لهذه الأرض قبل الاستيلاء عليها من جهة^(١٢)، ومن جهة ثانية في القوانين والظواهر التي تم سنها وإصدارها في المراحل الأولى من تاريخ الحماية بالمغرب^(١٣). لقد كان هم النظام الجديد هو البحث عن وسائل وسبل لتملك الأرض، ومساعدة الوافدين الأوربيين على ذلك بشكل نهائي وقانوني ولم يتحرج من العبث بالقوانين وإعطائها تفسيرات مختلفة لاضفاء الطابع القانوني على الأرض التي تم الاستيلاء عليها في المدن والوادي على السواء، ومن ذلك مثلا ظهور نزع ملكية الأرض من أجل المصلحة العامة، الصادر بتاريخ 31 - 8 - 1914.

كذلك تجرأ الفرنسيون على أراضي الأحباس، رغم التزامهم باحترامها في البند الأول من عقد الحماية : «فهذا النظام سيحافظ على الحالة الدينية وعلى احترام السلطان ونفذه التقليدي ونفذه الديانة الاسلامية والمؤسسات الدينية وبالأخص منها الأحباس...»^(١٤) فأهمية الأحباس المادية دفعت الاقامة العامة بالرباط الى الهمينة عليها خارقة بذلك ما سبق أن تعهدت باحترامه، فأستت وزارة الأوقاف بمقتضى ظهير 16 جمادى الثانية 1332 الموافق 12 ماي 1914 ووضعت الوزارة تحت مراقبة الادارة الشريفة التي طغت على وزارة الأحباس التي أصبحت مقيدة بإرادة هاته الادارة حتى في اتصالاتها العادية مع فروعها ونظاراتها المحلية^(١٥) وامتدت هاته المراقبة الى جلسات المجلس الحسبي الأعلى^(١٦) التي كان يحضرها مراقب الأحباس، وبعض كبار الموظفين الفرنسيين وعلى رأسهم ليوطي الذي كان يلقي خطبته في الجلسة الافتتاحية، مركزا على أهمية الأحباس وما حدث فيها من تطور «إن أحباس الولاية الشريفة قد صارت في القطر المغربي لها أهمية عظيم ومرتبة حقيقة بالاعتبار^(١٧) وحدد مهمتها في الأعمال الدينية فقط : «كما أني أراكم فرحين مسرورين بما شاهدتموه وأطلعتم عليه في هذا المجلس من تحسين حالة الحبس، هذا التحسين العظيم الذي سيتسنى معه لجانبه أن يقوم استقبالا بجميع الوظائف الدينية والمشروعات الاسلامية^(١٨). وقد تجرأ ليوطي في خطاب له يوم 20 غشت 1917 أمام المجلس الأعلى للأحباس، فهنا الموظفين المغاربة في الأحباس على نجاحهم الكبير في جميع الأموال، ولاحظ أن «القوانين الحديثة والمضبوطة قد أدت الى ترويج أملاك الأحباس التي لم تعد موقوفة حيث أصبح يستفيد منها المستوطنون الذين استقروا في البلد...»^(١٩).

ولما كانت أراضي الأحباس الشاسعة، لا تشتري ولا تباع ولا تعوض بمقتضى ظواهر سلطانية منها ظهور سلطاني أصدره المولى عبد الرحمن : «يعلم من كتابنا هذا أسماء الله وأعر أمره... أننا منعنا المعاضات كلها في أصول الأحباس كلا وبعضا داخل مكناسة الزيتون وخارجها وكذا الجزاء في الأصول والماء وقطعنا ذلك على كل أحد كائنا من كان فلا يعوض أحد شيئا منها ولا يجزيه، ومن فعل شيئا من ذلك يفسخ ونعاقبه أشد العقوبة فإن لفظ المحبس كلفظ الشارع لا يبدل ولا يغير.... ومن بدل أو غير فالله حسبي ووسائله وولي الانتقام منه... صدر به أمرنا المعتر بالله في 10 جمادى الأولى 1248 هـ»^(٢٠) لذلك عملت الاقامة العامة على إصدار ظواهر سلطانية تفسخ ما جاء في الظهير السابق، كظهير 21 يونيو 1913 الذي يسمح بعقد المعاضات في أراضي الأحباس وظهير 21 ماي الذي يقطن هاته المعاضات، كان نصيب مكناس من هاته الظواهر وفيرا، فهي من بين المدن التي شملها تحطيط «بروسط، ليوطي»، لكونها عاصمة

أقليم احتل مركز الصدارة في السياسة الاستيطانية الفرنسية، لمؤهلاته الطبيعية والاستراتيجية، التي اجتذبت الكثير من المهاجرين الأوربيين... «أما وضعية مكناس... فهي لقرتها الشديد من الريف والأطلس المتوسطي وممر تازة — من أجل تسهيل المراقبة الإدارية والعسكرية — أصبحت مركزا عسكريا هاما... زيادة على وجودها وسط مزدرع خصب (15). كما أن الأرض التي وقع عليها الاختيار لتبنى فوقها المدينة الجديدة كانت أراضي محبسة.

(2) — بناء المدينة الجديدة — حمرية :

1 — وضعية حمرية :

عرفت حمرية ببلاد حفص أو بأبي حفص قبل أن يملكها المولى اسماعيل (1672 — 1727) بالمعاوضة مع مالكها محمد بن ادريس الحسيني المنوني أواخر ذي القعدة 1096 (نص المعاوضة يوجد في الملحق1)، ثم غرس بها حوالي 100 ألف شجرة/من الزيتون تم حبسها على الحرمين الشريفين (16) ثم جدد المولى محمد بن عبد الله 1757 — 1790 تحبيسها بعد أن أصلح ما حل بها من خراب نتيجة الفتن التي سادت المدينة إثر وفاة المولى اسماعيل : « اقتضى نظره السديد ورأيه الموفق الرشيد أن يخرج عن بعض ما يحبس من ماله رجاء ثواب الله ونواله، وهو جميع الغابة من الزيتون المسماة بعسرية... وخروج عنها لوجه الله تعالى (كذا) فجعلها حبسا في سبيله... » (17) ويرجع تاريخ هذا الظهير الى 28 ذي القعدة 1184 هـ الموافق لـ 1770 م. وقد كانت مستفادات زيتون حمرية المحبسة تصرف في مجالات متعددة حسب ظهير التحبيس (انظر نصه في الملحق2) الذي جعل نصفه حبسا على الحرمين الشريفين تخصص المدينة المنورة بالثلثين ومكة المكرمة بالثلث، بينما حبس النصف الآخر على المسجد الأعظم يخرج منه كل سنة نحو : «... مائة مثقال واحدة وستة وثلاثون دراهم يبعث الجميع لسجل ماسة، أما المائة فتصرف في مهمات (كذا) روضة سيدنا مولاي علي الشريف ولطلبة يقرأون الحزب ودلائل الخيرات وهناك كل يوم في كل عام وللمؤذنين وقيم الروضة وطعام المولد النبوي... وأما الستة والثلاثون مثقالا فتصرف لطلبة يقرأون الحزب والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم على قبر والده مولانا الامام وعلى قبور أعمامه الذين معها في روضة سيدي أبي زكري... » (18) كما يخرج من النصف المذكور المخصص للمسجد الأعظم : «رطلا من الزيت في كل يوم لضريح ولي الله تعالى (كذا) لسيدي أبي يعزى ورطلا منه كل يوم لمولانا ادريس الأصغر... » (19) وبما جاء في هذا الظهير أن تحبيس زيتون حمرية حبسا مؤبدا ووقفا مخلدا لا يتعقبه فسخ ولا يتناول أي محكمه فسخ (20) وجاء في ظهير آخر صادر في 2 جمادى الأولى 1193 هـ الموافق 1779 تأكيد للتحبيس الوارد في الظهير السابق.

وبقيت وضعية حمرية على ما أمر به السلطان سيدي محمد بن عبد الله حبسا تصرف مداخله حسب ما جاء في الظهائر التي وردنا، الى أن دخل الجنرال موانني مكناس في 8 يونيو 1911 مصحوبا ببعض أعضاء مخزن مولاي حفيظ، وفي مقدمتهم بنعيسى بن عبد الكريم البخاري، الذي نصب باشا على مدينة مكناس، وتقرر بناء مدينة جديدة لضروريات دفاعية وإدارية ونفعية... فوقع الاختيار على هضبة حمرية المحبسة — لموقعها — لتبنى فوقها هاته المدينة.

(3) — تطور أعمال البناء بحمرية :

ارتبطت أعمال البناء وتطوره بوجود الجالية الأوربية، كما ارتبط تطور هاته الجالية كما وكيفا بتقدم هذا البناء وتوفر السكن.

لم يكن بمكناس يوم أن احتلتها القوات الفرنسية إلا خمسة أوريين، ارتفع عددهم في شهر يناير 1914 الى 150 أو 550 نسمة حسب المصادر (21)، سكن هؤلاء بأحياء شعبية، وبعد تزايد عددهم كما سنوضح أصبح لزاما بناء أحياء جديدة لهم...

وضع بروست Prost تصميم المدينة الجديدة، «وكان الشروع في تسطير طرقها في شهر غشت سنة ست عشر وتسعمائة وألف ومسيحية» (22) وأسندت مهمة إنجاز اللكولونيل بويمرو Poeymirau القائد العسكري العام بمكناس — مما يؤكد أهمية المدينة العسكرية — الذي كان يشارك ليوطي في سياسته ببناء مدن جديدة بعيدا عن الأهالي، فعمل على تنفيذ المشروع باتفاق مع بلدية المدينة، «وشرع في البناء بها بالفعل في محرم فاتح سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وألف» (23) رغما عن وضعيتها القانونية، بعد أن نجحوا في استصدار ظهائر (يوسفية) تجعل أرض حمرية قابلة للمعاوضة والبيع» وصدر الأمر العالي بتعويض أرضها معاوضة نقدية لمن يريد البناء بها من الأجانب والأهالي عام خمس وثلاثين وثلاثمائة وألف موافقه شهر جويليت سنة سبع عشر وتسعمائة وألف» (24) كما تجعل منها مناطق معدة للبناء وتكثير العمران بعد السماح بتجزئتها : «يعلم من كتابنا أسماء الله وأعز أمره أنه بناء على ما يلزم لتسهيل نمو العمران وانتشاره بمدينة مكناس، أصدرنا أمرنا الشريف بما يأتي : الفصل الأول قد أذنا في تجزئة مساحة الأرض المعروفة بحمرية هناك، المحكوم بملكية جميعها بجائني الأحباس الكبرى المكناسية وأحباس الحرمين الشريفين، الفصل الثاني صادق جانينا الشريف على ما وقع من تعيين بعض الأجزاء لمن توفرت فيهم الشروط المبينة في كناش تجزئة قسمتين منها تعرف إحداهما بحومة محج — أ — وهي المعدة للسكنى والتجارة بالتفصيل والأخرى بحمرية وهي المعدة للصناعات والتجارة بالجملة. الفصل الثالث كلفنا خديمنا وزير الأوقاف بتنفيذ مقتضيات ظهيرنا الشريف هذا... وحرر برباط الفتح في سادس رجب الفد الحرام عام 1336، وقد سجل هذا الظهير الشريف في الوزارة الكبرى بتاريخ 8 رجب الموافق لـ 20 أبريل سنة 1918 (25)».

إن السماح والموافقة على تجزئة أرض حمرية — كما يبدو من الظهير السابق لتشييد البناءات عليها وفق شروط محددة لاتتوفر إلا للأجانب ولذوي اليسار والحظوة من المغاربة — رغم كونها محبسة تحميها أديا، لايفرسه إلا ضغط السلطات الفرنسية على السلطان الذي أصبح عاجزا أمام الاقامة العامة عن ابداء أي رأي أو معارضة، خاصة وأن الأمر يخص الجالية الفرنسية وليس الأهالي.

ووالي السلطان المولى يوسف بن الحسن (1912 — 1927) إصدار الظهائر المتعلقة بالمعاوضات النقدية في أرض حمرية التي جزأها الفرنسيون.

وقد تهاقت الادارة الفرنسية المدنية منها والعسكرية، وكذا الشركات والجمعيات والخواص على اقتناء الأرض مقابل تعويضات نقدية بسيطة تتراوح بين 1،50 سنتيم سنة 1918 و10 سنتيمات سنة 1928 للمتر المربع، وهذا التعويض النقدي هو أقل بكثير مما يبعث به الأراضي التي أقيمت عليها المدن الجديدة في باقي المدن الأخرى، لأن أرض حمرية بمكناس كانت محبسة، فلم تعرف تلك المضاربات العقارية، وذلك الربح الذي حصل عليه الخواص يبيعهم لما كانوا يملكونه من أراضي للأجانب في المدن المغربية الأخرى، ولكن

الأحوال تغيرت فيما بعد : «وكان ثمن المتر المربع إذ ذاك فرنكا واحدا وخمسا وسبعين سنتيما، ولما كثرت الرغبة وتهاقت الأجانب والأهالي على الشراء، ولاحت لوائح الاستعمار بلغ ثمن المتر المربع سبعين فرنكا» (26).

نماذج من المعاوضات

يبدو من نصوص المعارضات الواردة في الحوالة الحيسية رقم 8 بنظارة أوقات مكناش أن الجزء الأكبر من هاته المعاوضات تم في الفترة ما بين 1920 و 1930 وهي المرحلة التي عرف فيها المعمار بالمدينة الجديدة أقصى توسع له، وقد فازت إدارة البلدية بالنصيب الأوفر من هاته المعاوضات تليها شركة سكة حديد طنجة فاس (انظر الملحق 3).

نماذج من المستفيدين من المعاوضات التي تمت في أرض حمرية

اسم المستفيد	مهنته	مساحة الأرض التي عوضت	رقمها	تاريخ المعاوضة
إدارة العلوم والمعارف	-	2 م 7983	559	ذي القعدة 1336 هـ - 1918 م
إدارة البريد الخزفي والتلغراف	-	2 م 1688	30 و 31	7 محرم 1337 هـ
شركة الدخان	-	2 م 2415,38	61	8 ربيع الثاني 1337 هـ
شركة سكة حديد طنجة فاس	-	147	6,5	26 شعبان 1337 هـ
شركة البناءات	-	883,16	326	1 رجب 1341 - 18 يوليوز 1923
الشركة العقارية والمالية الشريفة	-CIFIC-	2 م 5250	لا رقم لها	15 جمادى الثاني 1348 - 7 نونبر 1929
الجمعية النصرانية	-	2 م 8696	لا رقم لها	13 رجب 1338 - 17 أبريل 1920
جمعية أشغال الأطلس	-	2 م 10016	لا رقم لها	9 ذي القعدة 1338 هـ
جمعية البنك الجزائري التونسي	-	2 م 2689,31	لا رقم لها	29 صفر 1340 هـ
السيد مبر Maire	تاجر	2 م 1400	58,57	21 جمادى الأولى 1337 هـ
السيد فورنو Fournau	تاجر	2 م 815,10	-	5 شعبان 1338 هـ
موشي وحاييم	تاجران	2 م 921	97	5 ربيع الثاني 1339 هـ
السيد بانبون Pagnon	فلاح (معمّر)	-	47 و 48	18 صفر 1339 هـ
السيد ماص	-	2 م 704	221	فاتح محرم 1339 هـ
كرينيط	طبيب	2 م 488,20	317	شوال 1339 - 2 يوليوز 1921
مانظرا	مهندس	2 م 497	266	11 ربيع الأول 1340 هـ
دوفور	طبيب	2 م 918	102	3 جمادى الثانية 1340 هـ
السيد فارين	مهندس	2 م 4595	344	23 ذي الحجة 1339 هـ
لقبطان برغواتري	ضابط	2 م 895,42	-	23 شوال 1337 هـ
الكومندان نيقل	ضابط	2 م 830,16	322	فاتح رجب 1341 هـ
حان ماريز	بناء	-	-	25 ربيع الأول 1341 هـ
البرتغالي	-	-	-	-
السيد كرونيل	ميكانيكي	2 م 2114	128	8 وشوال الأبرك 1344 هـ
أدريس بن الجيلالي	؟	2 م 792	37	22 شوال الأبرك 1337 هـ
محمد بن محمد بناني	-	-	-	-
محمد بن محمد بناني	-	2 م 670	18	15 محرم الحرام 1338 هـ
محمد المختار الفيلاي	-	2 م 600	17	21 ذي الحجة 1337 هـ

« مصدر هذه النماذج الحالة الحيسية رقم 8 من ص. 400 الى 790.

كما يبدو من هذه الأمثلة أن المعاضات شملت إدارات وشركات وجمعيات وخواص من مهندسين وأطباء وضباط ومحامين ومعمرين وتجار وغيرهم، وكان نصيب المغاربة منهم ضئيل جدا. انطلق البناء اعتمادا على تصميم Henri Prost الذي قسم حمرة الى مناطق وقطاعات متخصصة، وهذا ما تؤكدُه ظواهر التجزئة والمعارضات الخاصة بها : « تجزئة قسمتين منها تعرف إحداهما بمحج — أ — وهي المعدة للسكنى والتجارة بالتفصيل والأخرى بحمرية وهي المعدة للصناعات والتجارة بالجملة... » (27). وقد مر بناء حمرة — المدينة الجديدة بمراحل تمتد أولها من 1918 الى 1921، وقع التركيز فيها على تلبية الحاجيات الملحة كالأمن، والنقل، والتطبيب، والتعليم، واختارت المصالح البلدية المنطقة التي أطلق عليها Camp Pouban وحاولت أن تجعل منه حيا جميلا وأنيقا صالحا لأن يتوسط المدينة، خصصت مساكنه الأولى للضباط وعائلاتهم ولم يلبث أن توسع شرقا مكونا الحي العسكري.

دشنت نهاية أعمال هاته المرحلة من قبل المقيم العام المرشان ليوطي في 15 ماي 1921 (28) في حفل رسمي أقيم بقصر بناني — الموجود بالمدينة القديمة حضره الموظفون السامون بإدارة الإقامة بالرباط وبالإدارة الإقليمية بمكناس، كالجنرال Poeymirau وكذلك أكبر المعمرين بإقليم مكناس E.Pagnon، وترددت في الكلمات التي ألقاها المسؤولون الفرنسيون كالقائد العسكري للاقليم ورئيس البلدية والمقيم العام، عبارات الاعتزاز بهذا الانجاز الرائع الذي حقق حلم الأوربيين في مكناس، وركز هؤلاء المسؤولون على أهمية مكناس واعتبروها الروح العسكرية للمغرب L'Arme militaire du Maroc، كما اعتبروها امتدادا طبيعيا للوطن الفرنسي لما يزرخ به إقليمها من موارد طبيعية جد هامة.

إن أهمية مدينة مكناس لدى المسؤولين الفرنسيين لم تقف عند حد تدشينها رسميا باعتبارها أول مدينة جديدة بالمغرب، تحظى بهذا الاهتمام ولكن الأمر أخذ باهتمام أكبر الشخصيات الفرنسية، وفي مقدمتهم الرئيس الفرنسي ألكسندر ملليروان A.Mellirand الذي زار مدينة مكناس في شهر أبريل 1922 وأعجب بما أنجز فيها من منشآت عمرانية (29).

كانت المرحلة الأولى قصيرة ولهذا لم تظهر معالم معظم المنشآت التي وضعت لبناتها إلا في المرحلة التالية 1921 — 1930 مرحلة التوسع الحقيقي لحمرة، تميزت بظهور عدد من المؤسسات العمومية تجمع في هندستها بين الطابعين المعماريين المغربي والأوربي Neo-arabe من بينها وحتى حدود 1927.

- مقر بلدية الاقليم L'Hotel de la région
- بنك الدولة La Banque d'Etat du Maroc
- محطتي القطار التابعتين لشركة خطوط السكة الحديدية (طنجة فاس)
- مجمع التبغ La monopole des tabacs
- مكتب بريد المدينة الجديدة L'actuel bureau de poste de la ville nouvelle
- ثانوية بوا يميرو Lycée Poeymirau

وبموازاة هذه المنشآت العمومية تم بناء مجموعة سكنية خاصة ومشاركة أقدمها حافظ على الطابع المغربي من أشهرها عمارة ماص (30)، كما منحت سنة 1922 أراضي في حمرة لمرحى الحرب (31). وقدمت قروض عقارية طويلة الأمد لقدماء المحاربين وبعض العائلات المتعددة الأفراد حتى يتمكنوا من بناء سكنهم العائلي، وهذا أدى الى ظهور مساكن عشوائية لا تتوفر حتى أدنى ذوق جمالي زرعت بين أحياء المدينة بدون أي انسجام، مما دفع مصلحة الفنون الجميلة والهندسة المعمارية — المكونة من مهندسين شباب

طموحين — الى التدخل ووضع قانون للبناء، كما ظهرت مجموعة من الفيلات الأنيقة. (عبد المومن — وطريق زرهون).

الشيء الذي نتج عنه تنوع في منظر المدينة الجديدة. ساهمت في هذا البناء الشركة المغربية العمومية ثم حلت محلها شركة البناءات المغربية حوالي 1922، وبدخول سنة 1929 ظهرت شركة خاصة C.I.F.C. (32) تبنت تصاميم هندسية معمارية أكثر عصرية من المباني السابقة ظهرت في المرحلة التالية.

وحوالي 1930 برزت مباني جديدة هامة منها :

— المكاتب المركزية لشركة خطوط السكة الحديدية طنجة فاس.

— المؤسسة الخيرية قطرة الحليب La goûte de lait.

— المحكمة La justice de paix.

— عمارة الغرف التجارية والفلاحية.

— المعهد الموسيقي البلدي.

عرفت هذه المرحلة الهامة من تعمير المدينة الجديدة نشأة وتطور الصناعات العصرية خاصة منها المرتبطة بالبناء وبقطاع السكة الحديدية... فنشأ بذلك الحى الصناعي... رمز نجاح التغلغل الأوربي — الى المنطقة الشرقية من وسط المدينة.

أما المرحلة الثالثة 1931 — 1940 فقد غلب على بناياتها الطابع العصري تجلى في قصر البلدية، ومركز البريد، وقصر العدالة التي تصدرت المدينة بشكل جميل وأنيق، كما شيدت بشمال وشرق المدينة ثلاث مجموعات معمارية :

— جناح مستشفى من 450 سرير

— ثانوية للذكور مع داخلي للتعليم التقني تسع 1200 تلميذ.

— مجزرة تحتوي على مخزن ومستودع للتبريد.

وفي هاته الفترة تم تشييد مجموعات فندقية فندق Majestic-Exelsior, Volubilis, Touring Moderne Continental، غير أن أحسنها وأكثرها جمالا فندق Trans-atlantique الذي أصبح قبلة الوافدين لموقعه المقابل للمدينة القديمة، والمشرف على مناظر طبيعية في غاية الجمال.

كذلك بنيت مجموعة من الدور العسكرية — على يمين الطريق المتجه نحو الحاجب بعد أن تمكنت ادارة الهندسة العسكرية من الحصول على أرض مساحتها «24 هكتاراً (33) و88 آراً و33 سنتي آراً» بالمعاوضة النقدية مع نظار الأوقاف بمكناس بتاريخ 12 مارس 1932. وانطلاقاً من بداية المرحلة الرابعة 1941 — 1952 أسس المكتب الشريفي للسكنى الذي ركز مشاريعه العمرانية في بناء العمارات الكبيرة للأوربيين ومنح تشجيعات مادية كبيرة خاصة المشاريع السكنية بمكناس التي رصد لها اعتمادات هامة (34).

وبنهاية هاته المرحلة — 1952 — كانت معظم معالم مدينة جديدة ذات طابع أوربي قد شيدت على هضبة حمرية.

الخلاصة أن الفرنسيين تمكنوا من أن يقيموا فوق هضبة حمرية المحيصة، ذات الزياتين، مدينة عصرية

بكل مقوماتها وخصوصياتها الغربية، تجلّى ذلك في أنواع النشاطات التي مارستها... في نوعية ساكنتها في تصاميم بناياتها وشوارعها الفسيحة وفي الأسماء التي أطلقت عليها والتي تخلد شخصيات ومدنا أوربية وفرنسية تاريخية وسياسة وعسكرية... فنجد شارع جان دارك Jules Ferry, Jeanne d'Arc جول فيري جان جوريس ودوكول De Gaule Jean jourés وليوطى Lyautey وكورو Gouroud وبويمير Poeymirau ومواني Moinier وباريس Paris ومرسيليا Marseille ولم يلبث هذا الكيان أن رصدوا له إمكانات مادية ضخمة إذ استقطب كل النشاطات الاقتصادية والإدارية والسياسية، وكان ذلك على حساب المدينة الأصلية، التي أصبحت تعرف منذئذ بالمدينة القديمة — التي همشت ومنع أهلها من الدخول الى حمرة منعا كليا إلا في الحالات النادرة، وبذلك نجح الفرنسيون في أن يخلقوا مجتمعا أوربيا ترك بصماته واضحة في تاريخ المغرب المعاصر.

III — تكوين المجتمع الأوربي :

تمتعت مكناس وإقليمها بمؤهلات جغرافية (طبيعة، بشرية واقتصادية) واستراتيجية هامة، جعلته مقر أكبر القواعد العسكرية الفرنسيين (Caillaut-Poeymirau وعاضمة للمعمرين، كما جعلت منها منطقة جذب للوافدين الأجانب (35) وفي مقدمتهم الفرنسيون الذين كان عددهم يتزايد باطراد خاصة بعد بناء «حمرة»، وقد ارتبط استقرارهم بمكناس ونموهم بتوفير الهدوء السياسي بالاقليم وبتطور المعمار في المدينة الجديدة بشكل يوفر لهم العمل والسكن المرغوب.

ففي سنة 1911 — وهي سنة احتلال مدينة مكناس من طرف مواني Moinier لم يكن بها سوى 5 أوربيين، وتطور هذا العدد ليصل في شهر يناير 1914 إلى حوالي 550 حسب المصادر من بينهم 350 فرنسيا. (36) استقر هؤلاء السكان — قبل بناء المدينة الجديدة داخل الأحياء المغربية «باب تيزيمي» و«جامع الزيتونة» و«قاع وردة» و«في روى مزيل» أول حي أوربي بمكناس، ومنه انتقلوا الى الضفة الأخرى للوادي (بوعماير أبوو فكران) بعد انطلاق أعمال البناء بحمرة التي أصبحت فيما بعد قبلة الوافدين من الأوربيين ومعظمهم ينتمي إما الى الطبقة العاملة أو الى البرجوازية الصغيرة تحوهم الرغبة في تحسين أوضاعهم الاجتماعية والمادية، فتطورت ساكنتها وتشكل بذلك المجتمع الأوربي، بكل خصوصياته العصرية التي تميزه عن المجتمع المكناسي التقليدي المعاصر داخل الأسوار، ويتضح هذا التطور من خلال الجدول الآتي : (37).

السكان	1921	1926	1931	1936	1956
عدد السكان بمكناس	37 592	29 930	54 156	74 702	178 000
السكان المغاربة	28 207	18 682	36 466	52 871	130 000
السكان اليهود	6 763	6 325	7 745	9 521	15 000
الأوربيون	2 622	4 923	99 945	12 310	15 000

بتحليل الاحصائيات السابقة نلاحظ تقدما متواصلا في الساكنة الأوربية بنسب مختلفة، وذلك لارتباط هذا التقدم بعوامل داخلية وأخرى خارجية. وقد عرف تطور الجالية الأوربية أكبر نسبة له فاقت الضعف في الفترة ما بين 1921 — 1926 وهي المرحلة التي سلك فيها المقيم العام تيودور ستيغ (أكتوبر 1925 — يناير 1929) Theodore Steeg سياسة الإدارة المباشرة، وتشجيع هجرة الفرنسيين الى المغرب بتقديم شتى المغريات المتمثلة في العديد من الامتيازات، وقد جعل هذا التقدم من مكناس مدينة لها مكانتها بين المدن المغربية من حيث تعدد تعداد الجالية الأوربية الساكنة بها. ويمكن أن تلمس واقع الساكنة الأوربية بمكناس بمقارنتها مع مثيلاتها في المدن الأخرى وبإتي عناصر السكان : (38).

النسبة المئوية لعناصر السكان في بعض المدن
(1931 — 1942)

المدينة	نسبة السكان المغربية	نسبة اليهود	نسبة الأوربيين
الدار البيضاء	52%	12.3%	36.5%
الرباط	50.6%	7.6%	41.8%
فاس	80%	7.3%	12.7%
مكناس	63.9%	13.7%	22.4%
وجدة	43.8%	6.2%	50.0%
القنيطرة	60.9%	2.4%	36.7%
الصويرة	55.4%	37.4%	7.2%
الجديدة	73.9%	15.9%	10.2%
الحمدية	75.4%	1.7%	22.7%

يتضح مما سبق الأهمية العددية للجالية الأوربية المستقرة بحميرة غير أن هاته الأهمية لا تقتصر على النسبة العددية فقط بل أيضا في الدور الذي لعبته هاته الجالية في حياة المدينة على كافة المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فكونوا بذلك مجتمعا نشيطا خصوصا بهم بجانب المجتمع الكناسي الذي ظل متمسكا بسبل عيشه التقليدية، ضم هذا المجتمع جالية هامة من المتوسطيين خاصة من الاسبانيين والاطاليين والبرتغاليين وكان الاسبان أكثر عددا خاصة فيما بين 1936 — 1939 بعد قدوم الفارين من النظام الفرنكواي ومنهم من تمكن من الحصول على الجنسية الفرنسية، وأغلبهم من الحرفيين المهرة : (خياطون ميكانيكيون، حلاقون صانعو الأثاث وتباعون وحدادون... إلخ) ومارس الاطاليون والبرتغاليون نفس النشاط غير أن الاطاليين تخصصوا في شؤون البناء. إلا أن العناصر الغالبة في هذا المجتمع كانت من الفرنسيين القادمين من فرنسا أو من الجزائر وتونس ويمثل الضباط والمعمرين ورجال المال والتجار والأطباء والمهندسون والتقنيون والعمال المهرة والموظفون والقضاة والبوليس فيهم العنصر السائد (39) وبذلك كون الأوربيون مجتمعا تراتبيا يكون فيه الفرنسيون الفئة المحظوظة التي تقود وتسيطر على النشاطات العصرية الكبرى من فلاحة وتجارة وصناعة وبنوك... وقد اجتذب مجتمع حميرة الجديد عناصر من اليهود التي استقرت في أحياء خاصة كمعادتها.

إذ يبدو من كل ما تقدم، أن الأوربيين بمكناس، كونوا مجتمعا عصريا قائما بذاته تربطه علاقات استغلالية بالمجتمع الكناسي التقليدي، الذي يزودها بالأيدي العاملة الرخيصة بصفة دائمة أو مؤقتة، التي تكاثرت بقدوم النازحين من البادية، خاصة أولئك الذين نزعت منهم الأرض وتعطل عدد من الحرفيين.

خاتمة :

إن سياسة التعمير — التي حققت الكثير من أحلام الفرنسيين مسؤولين ومهندسين — خلقت مدينتين وبالتالي مجتمعين : مجتمع جديد عصري مرتبط بالنظام الرأسمالي، ومجتمع مرتبط بهياكل تقليدية سلطته المدينة الجديدة كل مقوماته السياسية والاقتصادية والانسانية.

مجتمع أقلية متميزة وممتازة وقائدة، وموجهة لكل النشاطات، ومجتمع أغلبية مسلووبة، يعيش أغلب فئاتها في ظروف أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها سيئة.

هذا التناقض ما بين المجتمعين الأوربي العصري والمكناسي التقليدي كان وراء الصراع الخفي بينهما والذي برز على مسرح التطورات السياسية التي عرفها المغرب طيلة فترة الحماية والتي ميزت تاريخه خلال القرن 20.

الهوامش

- (1) للمزيد من الاطلاع أنظر :
Paul Louzinet, L'urbanisme et l'aménagement des villes au Maroc.
 مقال منشور في «المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع» عدد 7 يوليوز 1945 ص. 26 — 28.
Jean Dethier, Soixante ans d'urbanisme au Maroc.
 مقال منشور في «المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع» العدد 118 — 119 مزدوح «يوليوز دجنبر 1970 ص 5 — 56.
- (2) مقال حول بناء الهيكل الحضري الاستعماري، وهو فصل من كتاب «إيجانط أبولفود» Janet L.Abu Lughod.
 «الرباط أو الميز العنصري في مجال العمران بالمغرب.»
- Rabat, Urban apartheid in Morocco.Princeton.**
 1980 ص 150 — 173، ترجم المقال د. امحمد بن عبود وجواد المهدي ونشر بمجلة البحث العلمي العدد 34 1404 هـ 1984 م ص 80.
- (3) للمزيد من التفاصيل عن هذا المهندس يجب الرجوع الى المجلة الفرنسية التي أصدرت عدداً خاصاً عن هنري بروسط.
Henri Prost, l'urbanisation-Urbanisme-Revue Française n :88.
- (4) البحث العلمي، مرجع سابق.. **Jean Dethier, Paul Louzinet.** مصدر سابق.
 (5) المرجع السابق
 (6) للتوضيح راجع :
 — الاستيطان والحماية بالمغرب 1863 — 1894 مصطفى بوشعرا ج 1 المطبعة الملكية بالرباط 1984 ص. 330.
- أحداث بوفكران بمكناس فاتح وثاني شتنبر 1937 الاستاذ بوشتي بوعسرية، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا
 نوقشت بكلية الآداب بالرباط في 20 — 6 — 1986 ج 1 ص.82.
- (7) الجريدة الرسمية الأعداد من سنة 1913 — 1920.
 (8) معاهدة الحماية البند الأول، المغرب الأقصى — حزب الاستقلال — مكتب المستندات والأنباء القاهرة، أكتوبر 1951 ص.62.
- (9) محمد حسن الوزاني، مذكرات حياة وجهاد «3 الرباط 1984 ص. 150 — 151.
- (10) مجلس أسس من طرف السلطان مولاي يوسف، يضم شخصيات متعددة للقيام بالمحاسبات المرتبطة بالأوقاف ولتقديم الآراء والمقترحات التي تهمها، «يجمع مرتين في السنة، لكن السلطات الفرنسية وققت جلساته من 1917.
- (11) وزارة عموم الأوقاف، تقرير مجلس الأحباس عن نتائج أعمال الوزارة الوقفية، المنعقد بالرباط من 22 الى 25 شوال 1335 هـ موافق 11 الى 14 غشت 1917. من خطاب ليوطي — ص. 8.
- (12) نفس المصدر ص.9
- (13) خطاب ليوطي يوم 20 غشت 1917 أمام المجلس الأعلى للأحباس مجلة البحث العلمي، مرجع سابق ص. 102.
- (14) الحوالة الحبسية رقم 8 الجزء الأول من حوالة كبرى مكناس ص.303 رقم:227.
- (15) ألبير عياش : المغرب والاستعمار، حصيلة السيطرة الفرنسية، ترجمة عبد القادر الشاوي، ونور الدين سعودي، مراجعة ادريس بنسعيد وعبد الأحد السبتى، الدار البيضاء أبريل 1985 ص.316.

- (16) عبد الرحمن بن زيدان : «إتحاف أعلام الناس بجمال أخيار حاضرة مكناس» الطبعة الأولى 1347 هـ الرباط الجزء الأول ص. 172 — 174.
- (17) الحوالة الحبسية رقم 7. الجزء الثاني من حوالة الأحباس الكبرى بمكناس والأحمدية، ص. 255 — 256 — 257 «ظهير تحبب حمرية».
- (18) المصدر السابق
- (19) المصدر السابق
- (20) المصدر السابق.
- (21) الأستاذ بوشتي بوعسرية، مرجع سابق من ص. 37 — 48.
- (22) عبد الرحمن بن زيدان، مصدر سابق ص. 221.
- (23) نفس المصدر
- (24) نفس المصدر
- (25) نسخ لنصوص ظهائر شريفة يوسفية بتاريخ 8 ربيع الأول 1336 موافق 20 أبريل 1918، تتوفر عليها.
- (26) عبد الرحمن بن زيدان، مصدر سابق ص. 221 — 222.
- (27) راجع الحوالة الحبسية رقم 8 مصدر سابق.
- (28) للمزيد من التفاصيل عن حفل تدشين حمرية. انظر 195.
- Meknès, Fès — Hebdomadaire 7ème année n°195 du dimanche 22 mai 1921.
«La fête inaugurale de la ville nouvelle».
- (29) انظر تفاصيل هذه الزيارة، المصدر السابق.
8ème année n°242 du 16 Avril 1922.
«Le Président de la république de Meknès».
- (30) انظر المعاوضة بالحوالة الحبسية رقم 8 مصدر سابق ص. 551.
- (31) الحوالة الحبسية — مصدر سابق.
- (32) Compagnie immobilière financière chérifienne C.I.F.C.
- لعبت الشركة دورا هاما في مجال التعمير بمكناس — الحوالة الحبسية مصدر سابق ص. 738.
- (33) الحوالة الحبسية، مصدر سابق. ص. 755
- (34) Notre Maroc;Revue gaston gaufil.
- «L'architecture à Meknès» Avril 1951. p.43-47.
- (35) للمزيد من المعلومات أنظر : بوشتي بوعسرية، مرجع سابق ص. 103.
- (36) المرجع السابق ص. 38
- (37) المرجع السابق ص. 39 — 48
- (38) المرجع السابق ص. 43
- (39) ألبير عياش — مرجع سابق ص. 290.

محتويات الملحق

- 1 - ظهير معاوضة حمرية من طرف المولى اسماعيل وما تم من شأنها، وهو مأخوذ من كتاب «إنحاف أعلام الناس، بجمال أخبار حاضرة مكناس» لعبد الرحمن بن زيدان الجزء الأول ص. 172 - 175.
- 2 - ظهير تحبيس حمرية من طرف سيدي محمد بن عبد الله، مصدره الحوالة الحبسية رقم 7 الجزء الثاني من حوالة الأحباس الكبرى بمكناس والأحمدية، ص. 55 - 257.
- 3 - نسخة من ظهير يشمل الأمر بمعاوضة قطع من أرض حمرية لصالح إدارة البلدية وهو يشير في أبدية إلى الأذن بتجزئة حمرية، وتعيين بعض أجزائها لمن توفرت فيهم الشروط..

«في جهة الشمال من المدينة على مسافة ثمانية كيلو ميتر وبمقرية منها قصبه المنزه يسكنها مثل سابقها فريق من العلويين.

ومنها أنه لما تملك أرض حموية التي كانت تسمى قبل بابي حفص بالمعاوضة الشرعية من مالكمها حسبا وقفت عليه في نسخة مسجلة ثابتة نص ظهور تقديم النائب في عقدها بعد الافتتاح من عبد الله تعالى أمير المؤمنين، المتوكل على رب العالمين، المجاهد في سبيله ناصر الدين مولانا إسماعيل بن مولانا الشريف الحسيني، ونص الطابع : اليمن والاقبال اليمن والاقبال إيمان والاقبال إسماعيل بن الشريف الحسيني رعاه الله، أيد الله تعالى بعزيم نصره وأوامره، وظفر عساكره وخلد في الصالحات مآثره، وأسعد بمنه موارده ومصادره، آمين أمين أمين قدمنا بحول الله وقوته خديم جانبنا العالي، والنجد الذي أحرز من اشتراط النباهة والنجابة المقدم والتالي، القائد الأوجه، الأثير الأنبه، الأحفل الأرضي، الحازم الأحظي، القائد علي بن يعقوب اليوسفي المكناسي دارا وصل الله لإنجاده وأحرس على المسالك الحميدة والمساعي الجميلة لإصداره وإيراده، لحيازة الأراضي التي لنا بحوز حضرتنا العلية بالله مكناسة وبيان حدودها وتعيينها وإخراجها من يد من كانت وعلى عقد المعاوضة ما يظهر لها منها بغيرها التي له على ملك أناس المتصلة بأراضينا المجاورة لحضرتنا المذكورة وعلى الصلاح في ذلك والسداد تقديما أمضاه بعلائه وكساه رائق هلاله لعلنا بأنه أهل لما إليه قدمناه. وأحق بما أسديناه إليه وأوليناه. والله يصل توفيقه. ويجعل السداد والنجح رفيقه و يمنه والسلام وفي يوم الأحد رابع وعشرين المحرم الحرام فاتح سنة ثلاثين وتسعين وألف عرفنا الله خيره وبركاته ونص المعاوضة : الحمد لله انقعدت المعاوضة ببركة الله تعالى بين الشريف الأوجه الخير الأنزه الأحظي الأتقى السيد محمد دعي بسيدي حم بن ادريس بن وجود الحسيني المنوني وبين القائد الحاج علي بن يعقوب المذكور أعلاه النائب عن ذكر أعلاه بحكم ما ذكر أعلاه في جميع الأرض المعروفة بأبي حفص المشتملة على سقي وبعل التي على ملك الشريف المذكور الكائنة خارج باب القورجة أحد أبواب مدينة مكناس يحدها سهب الطبال والطريق المرور عليها لفاس وتتصل بساقية خنفر وبطريق عين الشلوقي وفي جميع الأرض التي للجانب العالي البعل الكائنة ببراكة خارج باب البراديين من المدينة المذكورة يحدها الأرض المعروفة ليوسف النحال قبلة ومقطع الرياح غربا ويحدها أرض سيدي علي بن قاسم الشريف المنوني من الجهتين والطريق الآتية من قبور الطوال وتتصل بأرض عزوز التي على ملك الشريف المذكور أولا وذلك بأن أخرج الشريف المذكور نفس ملكيته عن أرض أبي حفص التي كانت له عوضا عن أرض براكه التي صارت له بسبب المعاوضة المذكورة كما أخرج القائد المذكور نفس ملكية المنوب عنه عن أرض براكه التي صارت للشريف عوضا عن الأرض التي صارت للجانب العالي المعروفة بأبي حفص المشتملة على سقي وبعل معاوضة صحيحة تامة تلة بتلة على سنة المسلمين في معاوضتهم ومرجع دركهم وتملك كل واحد ما صار له عوضا عما صار عنه تملكها تاما على السنة في ذلك والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى صحيحا كما يجب من ناب عن نفسه فمن نفسه ومن ناب عن غيره فعنه عرفا قدره شهد به عليها بحال كمال الاشهاد وعرفهما أواخر القعدة من عام سنة وتسعين وألف الحوفية والطريق الآتية من قبور الطوال صح به شهد عليهما بما ذكر أواخر صفر اثنين ومائة

وَأَلَفَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ لَطْفَ اللَّهِ بِهِ وَعَبَدَ السَّلَامَ بْنَ مُحَمَّدٍ.

غرسها (1) كلها بأشجار الزيتون حتى تمت فيها مائة ألف شجرة من الزيتون ثم حبسها على الحرمين الشريفين ثم لما تولى على مكناس ما تولى بعده رحمه الله من الهرج والمرج وشبت نيران الفتن بين أولاده وتمكن عيث العبيد على البلاد والعباد ومد الفساد والخراب في الأرض أطنا به. كان ممن امتدت إليه اليد بالحرق والقطع هذه الغابة. حتى تلفت من شجرها كمية ذات بال ولما تمهدت البلاد. وانقادت العباد. لسيدي محمد بن عبد الله واستتب الأمن وخضعت له الرقاب وانكسرت راية أهل الزيغ والفساد قام على ساق في رفق ما أنتجته تلك الفتن من الفتق فكان من جملة ما تلافاه بهمته الفعالة إحياء ما اندثر من تلك الأشجار بإعادة غرس ما قلع وحرق منها حتى رجعت لشبابها ثم بعد ذلك فصل في التحسيس فجعل النصف حسبا على الحرمين الشريفين تخصص المدينة المنورة على منورها أفضل الصلاة وأزكى التسليم بالثلثين ومكة المشرفة بالثلث والنصف الآخر للمسجد الأعظم بمكناس يخرج منه كل سنة نحو الخمسمائة فرنك يوجه منها خمسة وثلاثين فرنكا ونصف الفرنك تقريبا لجد العائلة المالكة مولانا علي الشريف دفين سجلماسة تصرف في مهمات الروضة والطلبة الذين يقرأون الحزب ودلائل الخيرات والمؤذنين وقيم الروضة وطعام ليلة المولد النبوي ومنها ثلاثة عشرة فرنكا تقريبا توزع على الطلبة الموظفين لقراءة الحزب والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم على قبر والده المحبس الثاني وأعمامه بروضة أبي زكرياء الصبان نفع الله وبه وقد كان لهذا القدر التافه الآن إذ ذاك شأن وبال كما يخرج من النصف المذكور كل يوم رطل زيت لضريح سيدي أبي يعزى ورطل لضريح مولانا ادريس الأزهر بأبي فاس رضي الله عنهم جميعا وعنا بهم آمين.

ومنها أي الآثار الاسماعيلية جر الماء من بوفكران زيتون حمرية في ساقية وسط جدار ضخم لازالت بقاياها جهة باب القرمود وسيدي الشريف الوادي لهذا العهد.

ومنها بناؤه الجدار المحيط بغابة حمرية ولازال بعضه قائما الى الآن.»

الجزء الثاني من حوالة الأحباس الكبرى بمكناس والأحمدية

تحميس حمرية ص. 255، 256، 257 والنصف للحرمين الشريفين

«الحمد لله لما كان مولانا الامام حسنة الليالي والأيام أيد الله أوامره وخلد في الصالحات ذكره ومآثره حبس جميع زيتون حمرية المعروفة للجناب العلي بالله حوز مكناسة الزيتون حرسها الله على الحرمين الشريفين وغيرها وعين مصارف مستفادها في كل عام من طلبية ومساجد وغيرها حسبا هو مبين بسرته بل بالورقة يسرته وكانت الغلة تختلف بالجماء والنقص وربما لم يبق مستفادها للحرمين الشريفين شرفهما الله إلا القدر اليسير أو لم يبق شيء اقتضي نظره — كذا — أيده الله أن تقسم بنصفين ويمتاز لكل من الحرمين الشريفين والحبس المنسوب للجامع الأعظم شطرها وتعود منافع كل حبس على ما قدره عليه وأشهد بما ذكر أيده الله الفقهاء الأربع الكاتب البارع السيد الحاج محمد سكيرج والسيد أحمد بن قاسم بن ابراهيم به عرف والسيد الحاج علي بن يوسف والسيد أحمد السوسبي أمام جامع مدرسة الصهرنج من القصبة السعيدة حسبا أدوا بذلك شهادتهم لدى الفقيه الأجل العالم الأفضل الخطيب البليغ الأكمل قاضي الجماعة بمدينة مكناس وهو أعزه الله تعالى وحرسها فتوجه القاضي المذكور والناظر الأرشد الحاج الطيب بن الناظر السيد بلقاسم المسطاسي وخدم سيدنا الأنصح القائد محمد وعزيز المطيري وجماعة من أهل مكناسة فهم من الأمناء السيد الحاج العياشي بن السيد محمد حميش والحاج سعيد بن الصغير والحاج العباس بن حليلة والفلاحين وشيخي البصر وهما السيد محمد الغماري والحاج محمد بن العربي أجانا نحو الزيتون المذكور وقسموه بنصفين نصف شرقي جنوبي وهو الاعلا — كذا — بحده الطريق الظاهرة من أبي العمائر إلى أن خرج عن السور الى الجنان الجديد وذهب مع حده على الاستقامة الى السور المحيط بجميع حمرية والآخر تحده الطريق المذكورة يسارا ذهبت الى ناحية الشمال قسمة تعديل واستقامة ثم اتفق الجميع منهم على أن عينوا للحرمين الشريفين القسمة العليا وحازها القايد محمد المذكور ليصرف مستفادها فيما عينه مولانا المنصور بالله وذلك الثلثان الاثنان لأهل المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام والثلث الواحد لأهل مكة المعظمة وعينوا لجانب الجامع الأعظم القسمة السفلى وحازها الناظر الحاج الطيب المذكور بجانب الحبس المذكور ليعرف مستفادها في مصالحه ويخرج منه أيضا رطلا من الزيت في كل يوم لضريح ولي الله تعالى سيدي أبي يعزى ورطلا في كل يوم لمولانا ادريس الأصغر بحضرة فاس القرويين ومائة مثقال وستة وثلاثين مثقالا لطلبة سيدنا ومولانا علي الشريف ومولاي أبي زكري حسبا ذلك مفصل بالورقة بسرته وكما أمر مولانا المنصور بالله لزيتون حبس الجامع الأعظم الخارج عن سور حمرية أن يخرج له الماء لسقيه من ساقية حمرية يأخذ ما يكفيه منه ولا يقطع عنه وألحقه بالحبس في تكمة تقبل الله من سيدنا نصره الله وأجزل دخره وضاعف من مآثره الحميدة أجره، فمن أشهده الفقيه المسجل عليه بالمذكور فيه عنه وهو أكرمه الله بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر الخديم والناظر والأمناء وأرباب البصر المذكورين بالمذكور فيه عنهم عارفين قدره وهم بأكمله وعرفهم قيد به شهادته مسعولة منه وفي ثاني جمادى الأولى عام ثلاثة وتسعين ومائة وألف ألحق نحوه لا صحح به فلان وفلان.

الحمد لله أدينا فثبت واعلم به عبد الله سبحانه وتعالى.»

«الحمد لله رسمين اثنين من قطعة كاغد أخذت بالأمر المولوي المطاع أيده الله وأمره وظفر جنوده
«الحمد لله رسمين اثنين من قطعة كاغد أخذت بالأمر المولوي المطاع أيده الله وأمره وظفر جنوده
المباركة عساكره آمين والأعلام بالقبول عقب الثاني بخط من يجب نص الأول الحمد لله ولي التوفيق المنعم
على عباده بالهداية لأقوم طريق الذي جعل الخلافة سراجا لايطغى مصباحه وضياء تبلج عن الفجر الصادق
صباحه وقطبا عليه مداره هذا العالم وصلاحه ونورا لايفتر ذكاه وقده وشهابا زنده واختار لتقليد إمامتها
العظمى من أهله لورثة مقامها الأسمى والصلاة على سيدنا ونبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم المعجزات
الباهرة...»

أما بعد فإن الله تعالى... واختار لصلاح هذا المغرب من سعد به الحاضر والبادي والشاهد والغائب
مولانا الامام الهاشمي الهمام المنتخب من عشرة النبي عليه السلام... أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب
العالمين... الأسعد أبو عبد الله سيدي محمد بن مولانا عبد الله بن اسماعيل الحسنسي... وبارك لنا في عمر
هذا النجل.. لما ولاه الله أمر عباده وبسط يده في أرضه وبلاده واستقر ملكه الشاخي... وجند جنودا جهادية
لايجمعها ديوان حافظ ولا بعدها لسان لافظ حتى عاد ولله الحمد يجر أعنة الخيل وراه كالسيول والمدمات
تملاً وملأت قلوب أعداء الله الكفرة من ذلك رعيا وصاروا يطلبون المسالمة بعدا وقربا، واجتمعت له تبارك
إليه الجيوش... جعل أيده الله هم نفسه الشريفة الكريمة في اكتشاف المناقب والمفاخر العظيمة وصرف نظره
الأمامي المقرون بالبركة في جميع ما يحتاج اليه الثغور وتستوجبه المصلحة الجهادية من الأمور في تجديد ما
اندثر من المعامر وتشديد ما تركه الأوائل للإسلام من المآثر فجاهد في الله حق جهاده واستخلص من أيدي
الكفار رقاب عباد الله وحضور بلاده...

شهر أيده الله لادامة ذكره المعاهد وشرف المدارس والمساجد الى غير ذلك من المآثر الحسان الدالة
على علو مهمته و معاليه في كل زمان وحين أشرقت هذه المعاهد وشمل أمره المطاع فيه أمور المملكة والديانة
والمساجد اقتضى نظره السديد ورأيه الموفق الرشيد أن يخرج عن بعض ما يحبه من ماله رجاء ثواب الله ونواله
وهو جميع الغابة من الزيتون المسماة بحميرة نظره حضرته العلية مدينة مكناسة الزيتون أمنها الله بوجوده من
جميع الفتن وخرج عنها لوجه الله تعالى وجعلها حيسا في سبيله يصرف مستفاد غلتها في مصالح ماهو من
المساجد داخل قصبته الشريفة بالحضرة المذكورة وبالأروى وبقصبه هدراش وببريمة ومصالح ماهو من المساجد
داخل المدينة محتاج وغير ذلك مما عينه أيده الله من وجوده البر في غير هذا وما يفضل عن ذلك يبعث لمكة
والمدينة زادها الله شرفا، ويقسم أثلاثا ثلثه الواحد لمكة وثلثاه الاثنان للمدينة المشرفة وذلك عند تمام كل عام
من رجب الآتي مواليا لتاريخه حيسا مؤبدا ووقفا مخلدا لا يتعقبه فسخ ولا يتناول الى محكمة نسخ ومن بدل أو
غير ماهو عليه فالله سائله يوم يقف بين يديه وشهد على اشهاد مولانا أيده الله بما فيه عنه بفصل التقسيم
بواسطة وهو بمقعد ملكه وكروسي سلطانه وبأشرف الأحوال في الثامن والعشرين في ذي القعدة الحرام عام أربعة
وثمانين ومائة وألف... عبد القادر بن محمد الحسنسي السجلماسي... محمد بن الحسن بناني ونصف الثاني
أسفله.

«الحمد لله من جملة مصارف غلة الزيتون المحبس أعلاه معالم يذكر هناك مائة مثقال واحدة وستة وثلاثين مثقالا دراهم يبعث الجميع لسجل ماسة حرسها الله تعالى أما المائة فتصرف في مهمات روضة سيدنا مولاي علي الشريف ولطلبة يقرأون الحزب ودلائل الخيرات هنالك كل يوم في كل عام وللمؤذنين وقيم الروضة وطعام المولد النبوي على جري العادة بقسط ذلك تقسيطا حسنا وأما الستة والثلاثون مثقالا فتصرف لطلبة يقرأون الحزب والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم على قبر والده مولانا الامام أطال الله بقاءه وعلى قبور أعمامه الذين معها في روضة سيدي أبي زكري ثلاثون أوقية عن كل شهر وعند تمام كل سنة يصرف مثل العديتين للموضعين المذكورين على ممر الأعوام والله تعالى يتقبل من مولانا نصره الله عمله وقيده أمنهما ما بذكره.

ذي الحجة عام التاريخ أعلاه (28 ذي القعدة 1184 هـ) عبد القادر بن محمد الحسيني السجل ماسي ..محمد بن العربي بن علي القسطيني الحسيني.

لشهر له وحيك فسخة ورمي زلزاله وخطاه من حب سروله الله تعالى عنه بما يذكر منه الخليل فسخة رمير انبيى مسجلين وخطاه من به
 سروله الله تعالى عنه بما يذكر منه (الاول الخليل فسخة ورمي زلزاله وخطاه وحيك فسخة نصحه الخليل وحيك فسخة نصحه ثلاثه تملكت تلك نطق والامتنان
 عن الاول منها وخطاه من حب سروله الله تقطع عنه الكان وانك كيه يذخر الله الاول محتر على ثلاثة بصور وصراخر له فسخة
 كغير شرب وخطاه من حب سروله الله تقطع عنه الكان وانك كيه يذخر الله الاول محتر على ثلاثة بصور وصراخر له فسخة
 وانتشاره بمرئيه ملكه من اهرنا امرنا انك شربى بايات البطل (الاول مزافنا في جزئيه مساحه (الرف المعرويه وبتة حريته مساحه
 المحكوم ملكية جميعها بجانبه (الاول من الكبري المتكافئة واحبا من ارضى من الكبري يعيب البطل الثاني كما وى جانبنا الشربى من
 ما وقع من تعيين بعض اجزاء مساحته الالرف المذكورة لم تدرت مع الكبري الكبري الكبري الكبري الكبري الكبري الكبري الكبري
 نقر احراما بمجموع حج A وسى المعرفه للسكنى والتجارة بالتعصيف والاعزى بحريته وسى المعرفه للصناعات والتجارة
 بالجله اما المعرفه التى تقع في اجزاء المذكورة من خلفه الجسبي المذكورين وسى من عينت لهم بنوعى على جانبنا الشربى
 للاذ يناب البطل **الاول** فسخة ورمي زلزاله وخطاه من حب سروله الله تقطع عنه الكان وانك كيه يذخر الله الاول محتر على ثلاثة بصور وصراخر له فسخة
 انصارا ليهما بمساحات المعرفه التى تقع في اجزاء المذكورة والشائع وحريته بالاقية وسادس رجب ابره والارام على 1326 من اجل
 سزلا نظيره في الوزارة للكبرى بتاريخه لارب السواى ابريل سنة 1918 م به نص الامضاء محررانى ومرفعه الله استغنى استغنى استغنى
 استغنى انصه لكان كغير شربى سلطانى مله منيف اعطاه نزي وزيد بالماسه عهده الخليل وحزى وطول له من سيزك حشوره الله وبعه
 وسلم يرس برامسى له وتلميذ مرموز خريط (الرفى ناكل (احباسه الكبرى والخرميه الشربى يعيب ملكه من اهرنا امرنا انك شربى
 بنان وبك الله وملك ملك حريته الله ويعرفه من اهل كملنا الشربى خريط وزيد (الرفى انطاب اعمدا لقيام بالجله 1561 والبلديت
 سناك براسه اداره الشربى الخريطه من معا المعروضه معا وسبع وسبب نفعه من ارضه حريته المحبسة وذلك من حسب
 لتفصيل الجسبي كدمراد سما عهده من نفعه من **339** وال **399** حمله مربع مساحتها مياتم 76950 مسوره نفعه من **48**
 ال **367** حمله مربع مساحته مياتم 1000 على نفعه من **395** حمله مربع مساحته مياتم 48000 نفعته من **400** حمله
 حمله مربع مساحتها **8538** ثلاثون نفعته من **500** حمله مربع مساحته مياتم 55405 حمله مياتم المذكورة **500**
 ثلاثمائة ارض ولربيع وعشرون مائة وثلاثون مسوره وبقيت من ارضه الرابع من ارضه الموزع بخرميه سنة 1911 المعرفه
 من جانب سزلا (احباسه وسى الاعمال منه بحسب الرضاية عن البلديت بمساحه
 بجانب الجسب المذكورين (نفعه المكارم الاربع نفعه احرامه المنصرة
 الاراخرى المعرفه بقدر مربع مساحتها 72000 وانك انت المرفوعه **505**
348 حمله مربع مساحتها 700 مياتم مياتم الاربع سنين **630** مسوره ولربعا وستايت وقصود يفض منها **3690** حمله مياتم
 استغنى عليه مياتم انطاب المذكورة فمات كلى وسرى نفعه مستغنى من مياتم ارضه منقصة وجمسة وسبع مياتم وسبع مياتم
 وثلاثون وثلاثين مياتم مربع مياتم حساب برنق **7** المياتم ارضه مياتم ارضه مياتم وثمانون مياتم وثمانون مياتم
 برنق وجمسة وسبع مياتم مياتم **482533** حمله مياتم اعطاه من ارضه المياتم الجسبي بقدر المعروضه مع **10** ارضه البلديت والاعمال
 سناك بمساحته عليه مياتم اطلاق والسبب نفعه المكارم بالانفرا المذكورين من الوجه المسطور وايضا بجانب الجسب الاربع
 من مياتم من حريته (نفعه الاربع المكارم ان ان قوه نالبا يعين في امر مياتم بجانبهم ارضه بلربيع من ارضه المعروضه بجانب
 الجسب والشائع مياتم سزلا على 1326 مياتم سزلا الكتاب الشربى ببنيفه وزارة عموم (الرفى انطاب **1563** حمله مياتم
 15163

تنظيم المجال الصناعي بمكناس

الأستاذ عبد السلام مشكوري

كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
مكناس

إن واقع التمددين في المجتمعات الصناعية أو تلك التي هي في طور التصنيع يفرض تخطيط وإعداد مسألة توطين الصناعة في المجال الحضري وذلك لتحقيق الأهداف التالية :

- الاندماج الوظيفي الأمثل لهذا النشاط في النسيج الحضري.
- تفادي أخطار التلوث الصناعي (الأجواء - المياه السطحية والجوفية).
- تشجيع الاستثمارات الصناعية على اعتبار أن تهيئة مجال صناعي يوفر على الخواص كلفة تجهيز المجال الصناعي، الشيء الذي يسمح لهم نظريا بتركيز استثمارهم في القطاع الانتاجي.

في ظل هذه الحثيات العامة، ماهو وضع وخصائص المجال الصناعي في مكناس ؟ وماهي آفاق تنظيم هذا المجال ؟

إن مدينة مكناس وبالرغم من تواضع مستوى تصنيعها، تعاني من إشكالية المجال الصناعي، حيث يتميز هذا الأخير بالعشوائية والتناثر. فالمقاولات تظهر على جوانب كل المحاور الطرقية المؤدية الى المدينة فهي متواجدة على جوانب طريق فاس، طريق الرباط، طريق سيدي قاسم، طريق أكوراي، وطريق الحاجب. هذا بالإضافة الى وجود العديد من المقاولات منصهرة في أحياء متعددة بالمدينة بشطريها القديمة والجديدة.

وترتبط حالة التناثر والعشوائية المميزة للمجال الصناعي بمكناس بالظروف التاريخية التي أفرزت نشأة وتطور الصناعة، حيث يرجع هذا التناثر وأسبابه الى فترة الحماية بالمغرب.

فبالرغم من كون التمددين خلال هذه الفترة، وخصوصا ما يتعلق منه بالمدن الجديدة أو الأوربية كان خاضعا لتخطيطات معقنة تعيد إنتاج نموذج المدينة الأوربية وبالتالي تعتمد على تقنية التطبيق Zoning. فإن المدن المغربية بصفة عامة، والحالة التي تعيننا اليوم أي مكناس لم تحظ بتخصيص مجال مهياً وكافي لاحتضان الصناعات.

وقد كان هذا التوجه متلائما تماما مع المكانة الهامشية التي كانت مخصصة للصناعة في السياسة الاقتصادية للنظام الاستعماري، حيث كان من المفروض أن يبقى المغرب بلدا مصدرا للمواد الخام والفلاحية

ومستوردا للمنتوجات الصناعية لذلك فإن التخطيط الحضري لمدينة مكناس، أعد حيا صناعيا صغير المساحة تصل الى 168 هكتاراً وهو ما يمثل 4,3% فقط من المجال الحضري لسنة 1973. وبالإضافة الى صفر رقعة هذا الحي، فإن مجاله خصص لاستعمالات غير صناعية كالنقل الذي يستهلك مساحة 88 هكتاراً وهو ما يمثل 52% من مساحة الحي الكلية، والمستودعات التي تستهلك 17 هكتاراً أي 10% والسكن بـ 15 هكتاراً أي 8,9%.

إن هذا التصميم الأصلي للتطبيق وتوزيع الأنشطة، والذي لا يمنح للصناعة سوى مكانة هزيلة سيصاب بمخلخلة وعجز كبيرين، بعد أن عرف مسلسل التصنيع طفرة نوعية وغير متوقعة، أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية. فكما هو معلوم خلقت ظروف الحرب العالمية محفزات ظرفية قوية حولت بعضاً من توجهات السياسة الاقتصادية للنظام الاستعماري بالمغرب وعرف بسببها النشاط الصناعي نمواً سريعاً وبالتالي طلباً متزايداً على المجال لم يكن باستطاعة المنطقة الصناعية المنشأة في العشرينات والثلاثينات أن تغطيها *.

في ظل هذه الظروف، ونتيجة لعجز الحي الصناعي المهيأ عن تلبية حاجيات المقاولات الناشئة، بدأت هذه الأخيرة تستوطن على محاور الطرق البرية في هوامش المدينة، وقد تحكمت في اختيارها بالأساس توفر المجال الشاسع والكلفة المنخفضة للأرض أو سهولة الارتباط بشبكة الطرق البرية وأخيراً قرب أحياء عمالية ذات كثافات مرتفعة، بحيث أنها همشت تماماً اعتبار الاندماج السليم والأمثل في النسيج الحضري.

إذن فخلاصة القول أن الوضع الحالي والذي هو في مجمله إرث من الفترة الاستعمارية يتميز :

- 1 — بتواجد حي صناعي مهياً ولكنه صغير المساحة، ومستعمل في أغلبه لأغراض غير صناعية.
 - 2 — تواجد عدة نطاقات عشوائية على محاور الطرق البرية.
 - 3 — تناثر عدد آخر من المقاولات الصغيرة والمتوسطة في عدة أحياء بالمدينة.
- وحتى ندقق عملية التحليل يجب أن نتفحص مميزات كل نطاق من حيث :

— موقعه بالنسبة للمدينة ؟

— توزيع الأنشطة بداخله ؟ وكذا المجال الشاغر المتوفر به ؟

— مدى إمكاناته وقابليته لاستقبال الصناعات ؟ ونوعية الصناعات التي تلائم كل نطاق ؟

إن الاجابة عن هذه التساؤلات تستوجب استخدام معايير متمحورة حول النقاط التالية :

— التجهيزات القاعدية (كهرباء — ماء — شبكة تصريف المياه... الخ)

— النقل وإمكانات الارتباط بالشبكة الطرقية وبالأحياء السكنية.

— التلوث الجوي والمائي.

— مشاكل التمددين العامة.

وهذه المعايير تارة تكون ذات مفعول تراكمي أو متكامل وتارة أخرى تكون متنافية أو متناقضة،

* يكفي في هذا الاطار أن نشير إلى أن استهلاك المجال من طرف إحدى المقاولات الناشئة في الخمسينات يضعف مساحة الحي الصناعي بأكمله 360 هـ — 168 هـ.

لذلك فاعتبارها يجب أن يكون شموليا وتركيبيا. نقترح إذن دراسة أوضاع كل نطاق على حدة.

1) النطاقات الصناعية

أ - الحي الصناعي :

يقع الحي الصناعي في الجنوب الشرقي للمدينة ويمتد بموازة الطريق الرئيسية رقم 1 والسكة الحديدية المتجهة نحو فاس. وتبلغ المساحة الكلية للحي 168 هكتارا أي 4,3% من المحيط الحضري لسنة 1973. ويحتضن الحي 38 مقالة صناعية وهو ما يمثل 40% من مجموع المقاولات المتواجدة بمكناس. وهو بذلك أهم وأقدم مجال لتراكم الصناعات المحلية. وبالرغم من هذا التركيز المجالي للصناعة في هذا الحي، فإنها لا تشغل سوى 10,7% من مساحته الكلية، وترجع هذه الوضعية الى أهمية الاستعمالات الغير الصناعية كما يظهر من خلال الجدول التالي :

المساحة المستعملة في 1977	%	مجال محتفظ به لنفس الاستعمال
	%	
صناعة	10,7	20 هكتارا
السكة الحديدية - والنقل البري -	52	
المستودعات	10,1	
الخدمات	8,3	1 هكتار
السكن	8,9	5 هكتار
المجموع	90,4	26 هكتارا أي 15% من المجموع.

يتضح إذن من خلال توزيع المساحات على مختلف الاستعمالات أن المساحة الشاغرة ضئيلة جدا (26 هكتارا) مما يجعل إمكانية مساهمة الحي في تلبية الحاجيات المجالية للصناعة هزيلة وثانوية وبالاضافة الى ذلك فإن إمكانية التوسع الأفقي غير واردة نظرا لأن الحي محاط بأحياء سكنية وعسكرية من كل الجهات. في ظل هذه الظروف تبقى الامكانية الوحيدة لاجتداد مساحات جديدة توظف لاحتضان الصناعة متمثلة في تحويل بعض أنشطة الخدمات وبالخصوص المستودعات في الحي الصناعي الى مناطق أخرى. فالصناعة وبالخصوص المقاولات الصغيرة والمتوسطة التي تعاني من نقص المجال المهيأ ستكون المستفيدة من هذا

الاجراء في حين أن المستودعات في حالة انتقالها الى طريق الحاجب لن تتضرر إلا إذا كانت تستخدم بكثافة السكة الحديدية.

وعلى المقاولات التي تطمح في الاستقرار بالحي الصناعي أن تتوفر على شروط محددة حتى تكون مؤهلة للاندماج السليم والأمثل في النسيج الحضري المحيط بها. فعليها أن لا تكون ملوثة حتى لا تؤدي السكن المجاور والمتداخل مع الأنشطة. وعليها أيضا أن تكون مشغلة ليد عاملة وفيرة وذلك حتى يتم استغلال الموقع المركزي للحي بالنسبة لمناطق السكن ذات الكثافة المرتفعة.

وفي هذا الاطار تعتبر فروع الصناعات الميكانيكية والكهربائية والألبسة الجاهزة والأحذية من الأنشطة المرغوب في استيطانها بالحي.

ب - منطقة طريق أغوراي :

في غرب المدينة على طول طريق أغوراي نشأت في الأربعينات منطقة صناعية عفوية، وتجمع حاليا ستة مقاولات، إثنان منها تنتميات الى عائلة المقاولات الكبرى، وتمتد هذه المقاولات على مساحة 14 هكتارا، كما أن إمكانيات توسع الحي نحو الغرب لاتقف في وجهها أية عراقيل ظاهرة إن هذا الحي المرتبط بشكل جيد مع شبكة الطرق البرية قريب من جهة ثانية من أحياء تمرکز اليد العاملة ولكن موقعه بالنسبة للرياح التي تهب على المدينة يعتبر حجر عثرة في وجه تطوره واتساعه.

ج - منطقة سيدي اسعيد :

وتضم هذه المنطقة مجمعا صناعيا هاما على مستوى التشغيل والانتاج حيث يضم معاصر للزيوت ومعامل للتصبير ومطحنة صناعية. وتتميز هذه المنطقة أيضا بموقعها السيء بالنسبة للرياح التي تهب على المدينة وهي بذلك غير ملائمة لاحتضان الصناعات المستقبلية خصوصا إذا كانت ملوثة وقد أصبح هذا المشكل أكثر حدة بعد أن نشأت وتطورت أحياء سكنية هامة تحيط حاليا بالوحدات الصناعية القائمة.

د - طريق الحاجب :

في جنوب المدينة وعلى طول طريق الحاجب في الكلم 6 نشأت منطقة جديدة وهامة حدد التخطيط المديرى مساحتها ب 180 هكتارا، وقد استقبلت هذه المنطقة جل الانجازات الصناعية التي انطلقت في السبعينات والثمانينات وتحتل هذه الصناعات حاليا مساحة تصل الى 25 هكتارا وتبقى مساحة تقدر ب 160 هكتارا قابلة لاستقبال المقاولات الجديدة.

إن موقع هذه المنطقة بالنسبة للرياح الهابة على المدينة وبعدها النسبي عن المناطق السكنية يلغى خطر التلوث الصناعي. وبذلك فهي مؤهلة لاستقبال الصناعات الملوثة الغير المرغوب فيها في باقي المناطق الصناعية الأخرى بالمدينة.

إلا أن هذا الحي يشككي من انعدام التجهيزات القاعدية الضرورية لقيام الصناعة والمتمثلة في غياب شبكة طرق داخلية وشبكة مد المياه وشبكة تصريف المياه المستعملة. وعلى مستوى آخر يطرح بعد المنطقة عن الأحياء السكنية مشكلة نقل المشتغلين بالمقاولات الصناعية.

كما أن موقع الحي يمنح إمكانية ربطه بالسكة الحديدية في حالة احتضانه لصناعات ثقيلة.

وقد وقع اختيار دراسة التخطيط المديرى على هذا المجال لكي يصبح المنطقة الصناعية الجديدة
بمكناس.

د - منطقة دوار السوسي : لاكاديم

بعد اجتياز وادي ويسلام على هامش طريق فاس، تمتد منطقة معمل الاسمنت لاكاديم، وهي أهم
مجال مخصص للصناعة، بالنظر للمساحة التي يشغلها هذا النشاط وبالنظر أيضا للمساحة القابلة لهذا
الاستعمال حسب التخطيط المديرى والمقدرة ب 340 هكتارا. وتعتبر مقاوله لاكاديم المستعمل الوحيد لحد
الآن لهذا المجال، فهي تمتد على مساحة 360 هكتارا تمثل مساحة المعمل والمجال التابع له والمتمثل في سكن
العمال والأطر والمقالم. وبالرغم من كون المنطقة مجهزة بخطط للسكة الحديدية، فهي تتطلب استثمارات مهمة
في ميدان التجهيزات القاعدية. تتعلق أساسا بتوفير شبكة للطرق البرية وأعمال توصيل المياه وتصريف المياه
المستعملة.

وكما هو الشأن بالنسبة لمنطقة طريق الحاجب، فإن هذه المنطقة ذات موقع جيد بالنسبة (للرياح الهابة
على المدينة) للمقاييس البيئية حيث أن أخطار التلوث الجوي ضئيلة رغم أن حي دوار السوسي المجاور والذي
يتطور بسرعة كبيرة (في سنة 1971 كان يضم 3000 ساكنا) يعاني من مشاكل التلوث (دخان ومفتتات
لاكاديم)، الشيء الذي يعني بأن نشأة معامل ملوثة جديدة ستكون معرقله لتطور هذا الحي.

هـ - باقي مواطن الصناعة بمكناس :

إن منطقة طريق مولاي ادريس لا تمثل منطقة حقيقية للتراكم الصناعي لأنها تقتصر على ثلاث
مقاولات عشوائية ومتناثرة في مجال ريفي شاسع، ويرجع السبب الرئيسي لاستيطانها في قرب المقالم التي
تزودها بالمادة الأولية وهي عبارة من معامل لصنع الاجور، الأول في الكلم 2 والثاني في الكلم 4 والثالث على
ضفاف وادي بوفكران. إن طريق مولاي ادريس ذات الطابع السياحي الواضح، حسب الدراسات التقنية،
غير لائقة لاستقبال صناعات جديدة خصوصا وأنها تتطلب استثمارات هامة في ميدان التجهيزات
القاعدية. ومن الملاحظ أيضا أن هناك مجموعة هامة من المقاولات متناثرة في أحياء متعددة من المدينة، وهذه
المقاولات في أغلبها من النوع الصغير والمتوسط، فنجد أهمها في حي المنزه على جانب طريق فاس حيث تمتح
التجهيزات الكبيرة (هكتار أو أكثر) المخصصة للفيلات مجالا يجذب بعض المقاولات الصناعية (شيربون
P.W.F) كما أن مقاولات مواد البناء تستوطن في أحياء مختلفة وبالخصوص على جوانب طريق فاس وعلى
جانب وادي بوفكران.

كما أن المقاولات الصغيرة والمتوسطة لصناعة الألبسة ونسيج الزراني تستوطن في أحياء مختلفة مندججة
مع السكن والخدمات، فهي من جهة لا تستهلك مجالا كبيرا، ومن جهة ثانية تحتاج الى يد عاملة وفيرة،
لذلك فهي تندمج مع الأحياء العادية للسكن والتجارة.

كما أن المقاولات السرية، تعمق التوطن المتناثر، لأنها هي بدورها تبحث بشكل ممنهج عن توطين
خارج المناطق الصناعية المهيأة.

كما أن التوطن المتناثر للمخابز ومعامل النجارة التي تبحث عن توطن قريب من زبائنها تساهم في
تناثر (المقاولات الصغيرة والمتوسطة) في المجال الصناعي.

أشكال العمران الذاتي بمدينة مكناس

الأستاذ والزويت مولاي الحسنان
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
مكناس

بما لاشك فيه أنه إذا كانت أحياء الصفيح التي يعود تاريخ ظهورها الى الحقبة الاستعمارية قد أثارت اهتمام كثير من الباحثين الذين قدموا منوغرافيات مهمة حول هذا الموضوع، بل وحاولوا وضع إطار نظري لمعالجته (1)، وإذا كان أيضا هذا الشكل من العمران قد تم الاعتراف به من لدن الدولة كعنصر مجالي ينبغي تنظيمه وإعادة هيكلته، وأخيرا إذا كان هذا النوع من العمران في الوقت الراهن لا يشكل المحرك الرئيسي للتوسع العشوائي للمدن، فإن ما تجدر الاشارة اليه هو أن الحاضرة الاسماعيلية في توسعها قد أفرزت حالة جديدة من العمران المقاوم على أرض خالية من كل تجهيز ضروري، والذي اصطلحنا عليه هنا بمفهوم العمران الذاتي.

وهكذا فإذا كان هذا الشكل من العمران الذي يلغي مفعول كل تخطيط حضري (2) يثير كثيرا من التساؤلات سواء من حيث موقعه بالنسبة للمدينة الذي يجعله محط جدلية يمكن تلخيصها في مفهومي الادراج أو عدم الادراج (3) Inclusion/Exclusion أو من حيث طابعه التطوري أفقيا وعموديا (Aspect évolutif) ذلك أن هذه الدواوير ؟ الاحياء ؟ المراكز ؟ التي لم تكن لتثير أي تخوف عند ظهورها (4) لم تلبث أن تحولت الى تجمعات سكنية هائلة ترتفع الكثافات السكانية في بعضها الى حد يتحول فيه الحديث من الانفجار الحضري الى ما يصطلح عليه بالاعتقاد الحضري (5) Implosion urbaine/Explosion urbaine أو من حيث وظائفه كماوى (refuge) لبعض الأنشطة الحضرية وكموصل (relais) هجري أو من حيث علاقته مع الوسط الريفي، درجة اندماجه في البيئة الحضرية، هزلة الامكانيات التي يوفرها للسكان، فإن أهم ما تجدر الاشارة اليه قبل التعريف بهذا الشكل من العمران الناتج عن تضخم المدينة والذي كثيرا ما منعت كأخطر أشكال التوسع العشوائي للمدن (6)، هو التساؤل : 1 — عن كيفية التنظيم المجالي لهذه الأرياض وذلك للنظر فيما إذا كان هذا الشكل الذي وصف بأنه طوعي Spontané يوحى بالتماذج المتبعة في أحياء الصفيح أم أن المتريين Squatters استوحوه من واقعهم المعاش، إما في الأرياف أو الحواضر، ومن ثم المشاكل المترتبة عن هذا التنظيم.

2 — إذا كانت هذه الأشكال (العمران الذاتي) إنما تعبر قبل كل شيء عن أزمة السكن داخل المدينة بسبب ارتفاع أثمان العقار وقلة الأراضي المفتعلة، وإذا كانت هذه المجالات البيحضرية قد وفرت وفي

ظروف معينة المساحات اللازمة للإيواء عدة آلاف من الأسر، فما هي الامكانيات الحالية التي تقدمها هذه المجالات لاحتضان الاعداد البشرية الهائلة التي تنصب تبعا داخل المدينة ؟

I - التعريف بالعمران الذاتي :

كثيرة هي المصطلحات المستعملة للدلالة على هذا الشكل من العمران منها : السكن المستتر *Clandestin*، السكن الثوري *Révolutionnaire* (7)، سكن طوعي *Spontané* ، ومفردات أخرى كـ *Autoconstruit-autoproduct* ... فإذا كانت هذه المفاهيم في مجملها تشير ضمنا الى الظروف التي تم فيها هذا العمران (غياب السلطة، التستر عن القانون)، إلا أنها لا تعترف بها صراحة كعناصر تشكل جزءا من الواقع الحضري. ولذلك وبالنظر إلى الحيز المجالي المهم الذي أصبح هذا الشكل العمراني يشغله (رغم ضعف هذه الظاهرة نسبيا بمكناس بالمقارنة مع أوضاع مدن مغربية أخرى كالرباط مثلا، فإنه يأوي سنة 1982 أكثر من 20 ألف نسمة)، وبالنظر كذلك إلى العلاقات العضوية بين هذه الأجزاء والمدينة والتي تتضح من خلال التناقض اليومي للسكان (أما للتعليم أو الشغل وغيرها من المآرب الأخرى)، وبالنظر كذلك إلى النمو المضطرد للمدينة التي تضاعف عدد سكانها أكثر من عشر مرات في زهاء نصف قرن تقريبا (1930 - 30 ألف نسمة، في 1982 أصبح عدد السكان بمدينة مكناس : 319783 نسمة) والتي من المنتظر أن يتجاوز عدد سكانها سنة 1990 أكثر من نصف مليون نسمة (8)، ومن ثم تطاؤها على ماحولها فإن كثيرا من هذه الدواوير كما تسميها العامة (رغم ما يكتنف هذا المفهوم من غموض لارتباطه بالعالم الريفي الأمر الذي يجعل من اللجوء إلى تواجد بعض التجهيزات الضرورية أو التنظيم المجالي كمؤشرات لقياس مدى اندماج هذه الأجزاء في المجتمع الحضري أمرا مشكوكا فيه (9))، قد تم ذوبانها داخل إطار المدينة (برج مشقوق، سيدي بوزكري) بينما لا تبعد الأرياض الأخرى من الأحياء الحضرية المعترف بها إلا ببعض العشرات من الامتار (حمايزة، تولال، دوار السوسني) بعيد من مركز المدينة الجديدة، قريب جدا من الأحياء الأخرى (Plaisance).

تجنبنا إذن للالتباسات التي تشوب المصطلحات السالفة، ونظرا للعوامل التي تم ذكرها فإنه قد تم اللجوء، للتعبير عن هذه الأجسام، إلى استعمال مفهوم أكثر مرونة ألا وهو العمران الذاتي *auto-urbanisation* تمييزا له عن البناء الذاتي *auto-construction* لضيق معناه، وتمييزا له كذلك عن الأشكال الغير المشروعة الأخرى والتي تختلف عنه في نوع بنائها، قانونها العقاري وفي الظروف التاريخية المصاحبة لظهورها.

وهكذا فإن مفهوم العمران الذاتي يدل على كل سكن صلب، تم تشييده بكيفية غير شرعية، على أراض تم اقتناؤها بكيفية قانونية، وبواسطة الادخار الفردي *Epargne Personnelle*.
والجدير بالذكر أنه إذا كان هذا التعريف صالحا لضبط هذا الشكل العمراني داخل الحدود الرسمية للدائرة الحضرية إلا أنه يفقد صلاحيته العملية خاصة فيما يتعلق بكيفية التشييد بالنسبة لتلك الأجسام الموجودة في المناطق الانتقالية التي جعلتها هذه الحدود الرسمية التي لا تستند إلى معايير دقيقة للتعريف بالمدينة تحوم داخل المجالات الريفية (الحدود الادارية تتبع نهر ويسلام كما أنها تمر بمحاذاة مركز تولال).

ومهما يكن فإن أشكال العمران الذاتي توحى بتلك التجمعات السكنية التي لا تختلف كثيرا عن البنايات الحضرية المشروعة، وهي بالتالي إذ تشير إلى إمكانية توفر دخل مرتفع عما هو عليه الحال في أحياء

الصفحة (مع تحفظ نسبي كما أبدى ذلك الأستاذ الناصري الذي يرى أن السكن وإن هو مؤشر مهم لتكوين فكرة عن الجانب الاقتصادي إلا أن دأب بعض السكان العيش في هذه الأحياء (الصفحة) يجعلهم يفضلون البقاء هناك رغم تحسن أوضاعهم المادية لأنهم ألفوا العيش هكذا (10)، إلا أنها تظهر مع ذلك أنها لم تخضع لأي تصميم شمولي مسبق.

II - الضغط الديمغرافي وأثره على السكن : (داخل المجالات البيحضرية)

من الواضح أنه إذا كانت الأزمة العقارية داخل إطار المدينة أحد العوامل التي أدت إلى بلورة هذا الشكل من العمران إلا أن الضغط الديمغرافي على هذه المجالات أدى إلى نقل أحياء المضاربة العقارية إليها الأمر الذي انعكست آثاره على أئمة الأرض وبالتالي على مستوى السكن.

هكذا إذن، فعلى الرغم من اختلاف درجة تطور ساكنة هذه الأرياض إلا أنها خلال العقدتين الأخيرين، تضاعفت عدة مرات عما كانت عليه، فدوار السوسني الذي سنورده كمثال هنا انتقل من 1500 نسمة سنة 1971 إلى أكثر من 8150 نسمة سنة 1982 أي بمتوسط تزايد سنوي يفوق 40%.

والجدير بالذكر أن هذا التزايد السكاني السريع أدى إلى تزايد التهافت على الأرض التي ارتفعت أئمتها على الشكل التالي :

السنة	ثمان المتر المربع من الأرض الغير المجهزة (الدرهم)
1959	2.00 — 0,75
1970	8.00
1978	200.00
1983	500.00
1986	600.00

وبموازاة هذا التزايد المضطرب لأئمة العقار، عرفت المساحات المتداولة تناقصا كبيرا حيث أنها كانت تتراوح قبل السبعينات بين 250 م² و 1500 م²، وأصبحت حاليا تنحصر بين 40 م² و 300 م².

وبالإضافة إلى ذلك ينبغي الإشارة كذلك إلى التحول الذي طرأ على طرق تداول الأرض التي كانت تجمع سابقا بين المشتري والمالك مباشرة في حين أصبح التعاقد اليوم لا يتم إلا بواسطة الوسطاء (ظهور الوكالات العقارية).

وهكذا يتضح إذن أن هذه المجالات التي حلت جانبا من أزمة السكن لذوي الموارد المحدودة أضحت هي الأخرى وبانتقال عدوى المضاربة العقارية إليها مناطق طرد للوافدين الجدد الذين لا يتوفرون على إمكانيات مالية هامة.

III - تنظيم مجالات هذه الأرياض :

بالرغم من صعوبة التعميم على أحوال هذه الأرياض بسبب تباين مراحل إنتاجها وبسبب اختلاف اهتمامات ساكنتها إلا أن قراءة ولو سريعة لمرفولوجيتها تظهر تواجد صنفين من التنظيم.

أ — دواوير حيث المباني تشكل كتلا متواصلة لايفرق بينها سوى أزقة صغيرة وهي الدواوير الأكثر تأثرا بنفوذ المدينة بسبب القرب منها. وعادة ما تتوسطها ساحة تذكرونا بأهمية التنظيم الجماعي للمجال. (تولال).

ب — دواوير حيث استغلال المجال يذكرنا ببعض مدن الصفيح. فالمباني هنا تتناثر في شكل فوضوي تاركة أحيانا بينها مساحات شاغرة مما يدل على عدم وجود تماسك اجتماعي قوي. فهذه الدواوير هي التي خلقت حديثا وتعرف تطورا سريعا. وهي تتميز بانعدام وجود ساحة وسطى ذلك أن الجماعة ليست هي التي خلقت المجال بل العكس (بوزكري — دوار السوسي).

ومن الملاحظ أنه إذا كان تنظيم النقل الحديث إحدى العضلات الأساسية التي تعرقل تطور المدن العتيقة، فإن ما تجدر الإشارة إليه هو أن هذه الدواوير تنعدم فيها شبكة الطرق اللهم ما قامت به الدولة مؤخرا من تنظيم بعض المسالك التي تركزت حولها المحلات التجارية والمهنية ولعل أهم ما يفسر هذه الظاهرة، شعور السكان وهم أساسا ذوو مواد محدودة، بعدم احتياجهم لتخصيص مجالات للنقل الحديث. وهكذا إذن فمفهوم الحاجيات Besoins سابق لادراك شمولي لمجالات هذه الأشكال العمرانية التي تأتي ساكنة بيحضرية اليوم لكنها حضرية مستقبلا.

إن أشكال العمران الذاتي لم تعد سكتنا مستترا كما تنعتها بذلك الدوائر الرسمية بل إنها أصبحت واقعا حيا داخل المجالات الحضرية. وهي إذ ترمز إلى إحدى سمات تخلف السياسة العمرانية في كثير من بلدان العالم الثالث إلا أنها في نفس الوقت تعبر عن مجهود السكان ومحاولتهم لتخطي أزمة السكن الذي لم يعد في مجتمعتنا الراهن وسيلة عمل بقدر ما أصبح غاية، لذلك فعلى الدولة أن تقوم بهيكله هذا الشكل من العمران وتيسير اندماجه داخل الوسط الحضري وضبط نموه خاصة وأنه يوفر ظروفًا سكنية أفضل من تلك التي تتيحها أحياء التنك.

الهوامش

- (1) Naciri Med : Note de présentation méthodologique. Colloque de géo maghrébin M.U.H.E. Rabat 73.
- (2) Benhima Dr : Les problèmes d'urbanisation posés par le développement de agglomérations — in B.E.S.M n° 94 — 95. Rt 1962. p. 163 — 192.
- (3) F. Navez Bouchanine — Modèles de fait et modèles de référence dans l'habitat d'un quartier clandestin cas de Douar Soussi Meknès in B.E.S.M. n° 158Rt1986.
- (4) Le ministère de l'Intérieur le sous-habitat au Maroc. C.ERF. Rt 1970.
- (5) Ynes Laconte l'implosion urbaine ? Maspéro volume XXXI 1983 Paris
- (6) Benhima Dr. Opt. ci.
- (7) B. Hourcade F. Khosrokhavar. L'habitat révolutionnaire à Téhéran, 1977 — 81 Maspéro XXXI 1983 Paris.
- (8) Royaume du Maroc. Schéma directeur de Meknès. Démographie — économie et image socio — économique — juin 1979.
- (9) M. Sebti l'habitat des douars de Marakech un héritage compromis annales de géo. N° 521 Armandcolins Paris 1985.
- (10) Les formes d'habitat sous-intégrés. Essai Méthodologique. Juillet 1970. in Bulletin SM. U.H.Paris.

العلاقات بين القطاعات المنتجة بمكناس

الأستاذ محمد بولسغان

كلية الآداب والعلوم الانسانية

جامعة سيدي محمد بن عبد الله

فاس

الهدف الأساسي لهذا العرض هو فتح نقاش حول إشكالية التنمية بمكناس وإقليمها خاصة وأن المخطط يريد أن يجعل من هذا المجال قطباً للتنمية الاقتصادية (1).

سنختصر تحليلنا على موضوع الادماج ما بين الأنشطة المنتجة وذلك لأن الادماج يعتبر من أهم التأثيرات الناتجة عن سياسة تنمية الأقطاب.

ويرتبط مفهوم الادماج بمعنى علاقات التكامل التي تربط بين الأنشطة الاقتصادية. يمكن أن تتخذ هذه العلاقات طابعا تقنيا (ابتداء من مادة أولية أو مادة وسيطة) أو طابعا اقتصاديا (جلب نشاط من طرف نشاط منتج آخر لا يستعمل نفس المادة الأولية) وهذا ما يعبر عنه بـ «الصناعة تجلب الصناعة» (2).

سنحاول خلال هذا العرض إبراز نوع العلاقات التي تربط ما بين الأنشطة المتمركزة بالمدينة والأنشطة المتمركزة بالأقليم من جهة التي تربط ما بين الصناعات المتواجدة داخل المجال الحضري من جهة أخرى.

نظرا لبنية الأنشطة الصناعية المتمركزة بمكناس (أنظر الجدول أسفله) سوف نركز اهتمامنا على قطاعي الغذاء والنسيج اللذان يشغلان ما يقرب من ثلثي اليد العاملة الصناعية بالمدينة.

الأنشطة الصناعية بمكناس (1980)

القطاعات	نسبة اليد العاملة القارة %
صناعات فلاحية وغذائية	34
نسيج، ألبسة وجلد	30
خشب وورق	11
مواد البناء	14
ميكانيك	10
كيمياة	1
المجموع	100

المصدر : وزارة التجارة والصناعة

1) العلاقات بين الفلاحة والصناعة .

أ - تزويد الصناعة بالمواد الأولية الفلاحية

يتم تزويد الصناعات الفلاحية والغذائية المتمركزة بمكناس بالمواد الأولية أساسا عن طريق وكلاء الشراء والوسطاء بالنسبة للمواد الجهوية والوطنية وعن طريق المؤسسات العمومية بالنسبة للمواد المستوردة من الخارج (القمح الطري، الزيوت النباتية).

فأشكال الادماج بين النشاط الفلاحي والصناعي غير متطورة بالمنطقة رغم أهمية الادماج من حيث تنظيم الانتاج واستقرار الأئمنة خاصة وإن إنتاج المادة الأولية يعرف تقلبات من سنة لأخرى مما يجعل مصانع التحويل غير قادرة على تخطيط عملها.

يتم الادماج حسب ثلاث تنظيمات :

- الادماج التام بين الفلاحة والصناعة

- الادماج بواسطة عقود الانتاج

- الادماج التعاوني

- يهم الادماج التام بين الأنشطة الفلاحية والأنشطة الصناعية قطاع الخمر سواء على مستوى شركات الدولة «سوجيتا» و«صوديا» أو على مستوى الخواص. فالشركة تملك في نفس الوقت الأراضي الزراعية لانتاج المادة الأولية ومعامل التحويل بل تتوفر حتى على مؤسسات لتسويق منتوجاتها. وبذلك يهم الادماج كافة النسق من المزرعة الى المستهلك.

وقد كان هذا الشكل من الادماج يقوم به شركة «نورا» قبل استرجاع أراضيها من طرف شركة «سوجيتا».

- يطبق الادماج بواسطة عقود الانتاج بصفة متقطعة من طرف بعض الشركات التي تفضل عملية الكراء.

- أما الادماج التعاوني فيخص قطاع الحليب (كومالي) وبصفة شكلية قطاع الخمر التابع «لسوجيتا» و«صوديا» بحيث أنهما ورثتا النظام التعاوني الخاص بمعامل التخمر عن المعمرين.

ب - تزويد الفلاحة بالمواد الصناعية الضرورية للانتاج الفلاحي رغم الأهمية الفلاحية لاقليم مكناس فلم تظهر به حتى الآن صناعة الآلات والأدوات الفلاحية أو صناعة الأسمدة، الأدوية ومبيدات الحشرات.

تتوفر المدينة فقط على وحدات لتعليب الأسمدة (فرتيما) ومعامل صغيرة لأصلاح الآلات الفلاحية.

2) العلاقات ما بين الصناعات

أ - علاقات التكامل داخل نفس القطاع

- الصناعات الفلاحية والغذائية

توفر الصناعات الغذائية مواد للاستهلاك المباشر أو للاستعمال من طرف صناعات أخرى. فالمطاحن توفر الدقيق لمعامل العجائن الغذائية وللمخابز. وهذه الأخيرة عبارة عن خدمة أكثر منها صناعة.

كما نلاحظ بأن بعض المواد تصدر على شكل مواد وسيطة حيث يتم تعليبها بالخارج (المصبرات،
الخمور).
- النسيج والملابس.

رغم وجود معمل للنسيج فإن معامل خياطة الملابس (3) تعتمد على استيراد الثوب ثم تصنيعه وإعادة تصديره. ويتم استيراد الثوب تحت نظام «الاستيراد المؤقت» حيث يعفى هذا النوع من الاستيراد من حقوق الجمرك على أساس إعادة تصدير الكمية المستوردة بصفة كلية.

فتمركز هذا النوع من النشاط الصناعي مرتبط بضعف كلفة اليد العاملة المحلية وبسياسة إعادة توزيع المجال الانتاجي للنسيج المتبعة من طرف الشركات الأوربية.

ب - توفير مواد تجهيزية للصناعات

تفتقر مكناس لصناعات تجهيزية ولانتاج المواد الوسيطة. تتوفر للمدينة فقط على بعض المعامل الصغيرة لاصلاح الآلات وتوفير بعض قطع الغيار.
كما أن معمل «سمورا» يعمل على تزويد الصناعات المحلية ببعض الغازات الصناعية.

الخاتمة :

نلاحظ أن علاقات التكامل ما بين الأنشطة المنتجة بمكناس والاقليم مازالت لم تصل بعد الى مستوى عال من التعقيد حتى يمكن أن نتحدث عن وجود قطب للتنمية.

فبالنسبة لكل نسق انتاجي لا نجد في الغالب إلا عنصرا واحدا دون العناصر الأخرى.

يمكن تجاوز هذه الوضعية عن طريق تنمية الأنسقة الانتاجية التي تتجاوب مع مؤهلات المنطقة ومع العناصر الانتاجية المتمركزة بها. ومن بين هذه الأنسقة نسق الفلاحة والغذاء ونسق النسيج والألبسة.

إن عملية تطوير هذه الأنسقة بواسطة إنشاء العناصر الانتاجية المفقودة وتشجيع التقدم العلمي والتقني لكافية بالمساعدة على تحقيق التنمية الجهوية وتكوين قطب حقيقي. لكن يجب الأخذ بعين الاعتبار الأدماج على الصعيد الوطني (الصناعات التجهيزية) بل وحتى على الصعيدين المغاربي والعربي (البتروال والغاز الطبيعي بالنسبة لنسق النسيج الاصطناعي).

الهوامش

(1) Ministère du plan, plan de développement économique et social 1978/1980
vol. 1, p. 218.

(2) P. Georges, Précis de géographie économique, PUF, PARIS, 1964, P. 89.

(3) أهمها معمل «سيكوم» الذي كان في سنة 1980 يشغل 10% من اليد العاملة.

إحصاء الحرف والحرفيين بإقليم مكناس

عبد الكريم نشيد

مندوب جهوي لوزارة التخطيط
مكناس

تبعاً للتوجيهات السامية التي أصدرها صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده بمناسبة عيد الشباب المجيد بتاريخ 8 يوليوز 1985 لاختيار إقليم مكناس كمنطلق لعملية نموذجية لتنظيم الحرف والحرفيين، بغية الرفع من مستواهم والنهوض بالقطاعات الاقتصادية لبلادنا وجعلها تسير متطلبات النمو، فقد أجرى إحصاء شامل لجل القطاعات الحرفية المتواجدة بالإقليم خلال شهري غشت وشتبر 1985 بهدف الحصول على أقصى ما يمكن من المعطيات التي كانت مجهولة إلى حين إجراء عملية الإحصاء.

وقد تم فعلاً تهيء هذه العملية وفق منهجية مضبوطة تهدف إلى :

- (1) المعرفة الدقيقة لمجموع الحرفيين وتوزيعهم حسب الحرف.
- (2) الألام بأهم مميزاتهم الديموغرافية والاقتصادية والثقافية.
- (3) كشف حاجياتهم من اليد العاملة حسب مستويات تخصص هاته اليد العاملة وذلك للاطلاع على الامكانيات المتواجدة فيما يخص طاقة استيعاب الحرف للمتخرجين من مراكز التكوين المهني.
- (4) أخذ نظرة ولو موجزة حول بعض المميزات المرتبطة بالمؤسسات الحرفية من حيث تجهيزاتها الآلية ووصف محلات العمل ومواقعها بالإضافة إلى بعض الخاصيات الأخرى كوضعيتها الجبائية وتوفرها للسجل التجاري والمسطرة التي أتبعها عند إنشائها.
- (5) حصر بعض المشاكل التي تعرقل السير العادي لهذه المؤسسات حسب وجهة نظر أربابها.

هذا وعلى ضوء النتائج الأولية للإحصاء يمكن تلخيص الوضعية فيما يلي :

– يبلغ العدد الاجمالي للحرفيين ما مجموعه 13 584 فرداً بما فيهم أرباب المهن واليد العاملة معهم، موزعين على 105 حرفة.

أما مجموع المؤسسات فيساوي 8771 منها 863 غير مصنفة ويبلغ عدد المعلمين والمتكونون من المشغلين والمستقلين والشركاء، 7414.

هذا وإذا ما قورنت نتائج بحث الحرفيين بنتائج الإحصاء العام للسكان والسكنى لسنة 1982 يتجلى أن مجموع الحرفيين الذين تم بحثهم يمثل حوالي 8,7% من مجموع السكان، النشيطين المشتغلين بالإقليم.

I المشتغلون

(1) توزيع الحرفيين حسب الجنس :

أبرز إحصاء الحرفيين أن أغليبيتهم مكونة من الذكور بحيث كان توزيعهم حسب الجنس كالتالي :

— 10 624 من الذكور أي ما يمثل 78,21% من المجموع الاجمالي.

— 2960 من الاناث أي ما يمثل 21,79% من المجموع الاجمالي. وإذا ما أخذنا نتائج الاحصاء العام لسنة 1982 في هذا الميدان نجد على أن 81.00% من السكان النشيطين المشتغلين على صعيد الاقليم من الذكور، في حين أن نسبة الذكور العاملين بالحرف تبلغ 78,21% ويستخلص من هاتين النسبتين أن الحرف تميل الى تشغيل العنصر النسوي أكثر مما هو مسجل على مستوى مجموعة النشيطين. فالحرف تشغل 21,79% من الاناث في حين لم يسجل إلا 18,92% عند السكان النشيطين.

ونلاحظ أن العنصر النسوي يتعاطى بكثرة الى حرف الطرز ونسج الزرابي والحلاقة والخياطة التقليدية والخياطة العصرية وصناعة السفيفة وغزل الصوف والطبخ والحياكة (تريكو) وصناعة المضام.

النسبة	العدد	الحرف التي تشغل بها الاناث
51,08	1512	الطرز
17,06	505	نسج الزرابي
31,86	943	حرف أخرى
100	2960	المجموع

وبالمقارنة مع الذكور في الحرف فإن الطرز ونسج الزرابي وصناعة السفيفة وغزل الصوف والطبخ والحياكة وصناعة المضام تعد من الحرف التي يكاد ينفرد بها العنصر النسوي دون الرجال. تشغل هذه الأنشطة 2363 من الاناث بينما لا يصل عدد الذكور بها إلا الى 93 فردا أي أن الاناث يمثلن 96,21% من عدد العاملين بهذه الحرف.

(2) توزيع الحرفيين حسب السن

تصل نسبة الحرفيين الذين تقل أعمارهم عن 15 سنة الى 5,31% ويعملون بالأنشطة الآتية :

— نسج الزرابي حيث أن عدد الأطفال الذين تقل أعمارهم عن 15 سنة يبلغ 211 أي ما يفوق 29,22% من الفئة التي يقل عمرها عن 15 سنة بمجموع الحرف. وإذا ما قورن هذ العدد بمجموع العاملين بقطاع نسج الزرابي فإنه يمثل نسبة 41,53%.

— الخياطة التقليدية : يبلغ عدد العاملين بهذا النشاط الذي تقل أعمارهم عن 15 سنة 159 طفلا أي ما يناهز 22,02% من فئة أقل من 15 سنة. أما من حيث مكائهم داخل هذا النشاط فإنهم يمثلون 8,40% من العاملين بالخياطة التقليدية.

— الطرز : سجل بهذه الحرفة 71 من الأفراد الذين لا يتجاوز سنهم 15 سنة، أي 9,83% ويمثلون 4,65% من مجموع العاملين بقطاع الطرز.

تبلغ نسبة الحرفيين الذين تتراوح أعمارهم بين 15 و 50 سنة 80,62%، أما الحرفيون الذين

يتواجدون من فئة 20 — 40 سنة فإنهم يمثلون نسبة 53,86%. وبخصوص الحرفيين الذين تجاوزوا سن 60 فإن عددهم يصل الى 719 شخصا أي 5,29% من مجموع الحرفيين الذين تم إحصاؤهم. ومن بين الحرف التي يرتفع فيها عدد العاملين الذين تجاوزت أعمارهم 60 سنة نذكر :

- صناعة الخزف بحيث أن 100% من العاملين بها تجاوزوا سن 60.
- حرفة العواوين وتضم 40,68% من الحرفيين تجاوزوا سن 60.
- حرفة السمارين التي يشغل بها 33,33% من الحرفيين داخل هذه الفئة، ونفس النسبة بخصوص صناعة السروج.
- صناعة المكتسات وتضم 25% من العاملين الذين تجاوزوا سن 60 سنة.

فئة الأعمار	العدد	النسبة
أقل من 10 سنوات	159	1,17
من 10 إلى 15 سنة	563	4,14
من 15 إلى 20 سنة	1870	13,77
من 20 إلى 25 سنة	2368	17,43
من 25 إلى 30 سنة	2291	16,87
من 30 إلى 40 سنة	2658	19,57
من 40 إلى 50 سنة	1765	12,99
من 50 إلى 60 سنة	1191	8,77
60 سنة وأكثر	719	5,29
المجموع	13584	100,00

وإذا ما قارنا نتائج إحصاء الحرفيين بنتائج الإحصاء العام لسنة 1982 نستخلص ما يلي :

إن الحرف التي تشغل الأطفال الذين تقل أعمارهم عن 10 سنوات تبلغ نسبتهم 1,17% داخل الحرف، بينما لا تتعدى 0,5% حسب إحصاء 1982. وهذا الفارق قد يرجع الى تواجد المتعلمين داخل الحرف التي وصلها البحث.

إن تراكم النسب الى غاية 40 سنة يظهر بأن الحرفيين يمثلون 72,95% في حين لاتصل نسبة هذه الفئة «ما أقل من 40 سنة» إلا الى 65,9% داخل مجموع السكان النشيطين، الشيء الذي يبرز أن الحرفيين أقل سنا بالمقارنة معهم نسبيا.

تبلغ نسبة العاملين الذين تجاوزوا سن 50 17,7% من مجموع السكان النشيطين المشتغلين و15,06% عند الحرفيين.

3) توزيع الحرفيين حسب وسط الإقامة

يبلغ عدد الحرفيين المزدادين بالوسط الحضري 9570 أي ما يمثل 70,45% من المجموع الاجمالي. أما الحرفيون المزدادون بالوسط القروي فيصل عددهم الى 3896 أي ما يناهز 28,68%. يبقى 118 حرفي غير مصرح بإمكان ازدياده وتمثل هذه الفئة 0,87% من مجموع الحرفيين.

4) توزيع الحرفيين حسب المستوى الدراسي :

المستوى	لاشيء	يعرف القراءة والكتابة	حاصل على شهادة	خريج مؤسسة غير مصرح	المجموع
العدد	5426	4881	2902	319	13584
النسبة	39,95	35,93	21,36	2,35	100,00

يتجلى من معطيات إحصاء سنة 1982 أن نسبة الأمية داخل الاقليم تبلغ 54,1% من مجموع السكان الذين تفوق أعمارهم 10 سنوات، أما عند الحرفيين فإنها لا تتعدى 40% الشيء الذي توضحه معطيات الجدول أعلاه .

ويمكن أن نستخلص من هذا الجدول كذلك هزالة عدد الحرفيين الحاصلين على شهادة التكوين المهني وهذا راجع الى عاملين :

1) ضآلة المسجلين بمركز التكوين المهني بالمقارنة مع تلاميذ التعليم الثانوي العام وذلك خلال فترة 1960 — 1980 .

2) كون خريجي مؤسسات التكوين المهني يعملون مع المقاولات والمؤسسات العمومية والشبه العمومية خلال السنوات الماضية .

ومن بين الحرف التي تميل الى تشغيل أعلى نسبة من خريجي مراكز التكوين المهني ندرج الجدول

الآتي :

الحرف	% للعاملين المتخرجين من مركز التكوين المهني
الترصيص	10,37
الحلاقة	7,84
النقش على الخشب	7,23
اصلاح الراديو والتلفزة	6,77
الحيطة العصرية	5,20

5,07	الكهرباء العامة
4,64	الخرازة
3,00	ميكانيك السيارات
3,01	المطالة
2,09	الطرز
1,90	البناء

5) توزيع الحرفيين حسب الحالة في الحرفة :

يتضح من خلال النتائج المتوصل اليها في هذا المجال أن أعلى نسبة من الحرفيين يشكلها المستأجرون ب 20,12% من العاملين في مجموع الحرف، أما المشغلون فيكونون نسبة 16,30%، وبواسطة هذه الأرقام يمكن أن نستخلص أن كل مشغل لا يوفر العمل إلا لـ 1,23 مستأجر في المعدل.

أما ترتيب الحرف حسب أهمية المستأجرين داخلها فإنه يحظى بما يلي :

71,50%	- حرفة الطبع
50,39%	- الخبازة
43,55%	- الفرانجية
35,76%	- الخياطة التقليدية
32,60%	- الكهرباء العامة
29,65%	- الزلايحية
26,47%	- كهرباء السيارات
20,11%	- ميكانيك السيارات
18,86%	- النجارة

ونشير الى أن «المستقل ذو محل» الذي يشكل نسبة 18,6% كمعدل عام بالنسبة لمجموع

الحرفيين يطغى على الحرف الآتية :

الحرف	نسبة مستقل ذو محل داخل الحرفة %
الخرازة	60,82
إصلاح الراديو والتلفزة	53,64
الحلاقة	46,58
اللباطة	42,42
إصلاح الدراجات العادية	38,63
التصوير	35,91
الخياطة العصرية	28,31

22,90	النجارة
22,29	إصلاح الدرجات النارية
20,90	إصلاح العجلات
20,28	الكهرباء العامة
13,10	الخياطة التقليدية
18,68	النسبة المتوسطة لجميع الحرف

وفيما يتعلق بفعلة «مستقل يعمل بمنزله» والتي تمثل 16,06% فإنها تتكاثر وسط بعض الحرف التي تتميز بكونها تشغل أعلى نسب من الاناث من جهة وكونها ذات طابع تقليدي من جهة أخرى. ويمكن تلخيص هذه الحرف في الجدول الآتي :

الحرف	نسبة مستقل يعمل بمنزله داخل الحرفة %
صناعة المضام	88,88
غزل الصوف	88,88
صناعة الغرايبيل	86,95
الطرز	82,19
الخياكة (اتريكو)	81,03
صناعة السفيفة	79,36
صناعة المكسبات	62,50

يمثل عدد المتعلمين الذين تم إحصاءهم 8,52% من المجموع الاجمالي، وتلعب هذه المجموعة دورا مهما بالنسبة لبعض الحرف وخصوصا التقليدية منها بحيث تعد من الروافد المهمة التي تمد كل قطاع بما يحتاجه من اليد العاملة المؤهلة. وفيما يتعلق بالحرف التي يتواجد بها عدد كبير من المتعلمين نذكر : نسج الزرابي بـ 42,91% وكهرباء السيارات بـ 23,53% ونقش الخشب بـ 15,66% وميكانيك السيارات بـ 13,43% والخياطة التقليدية بـ 13,21% وحتى يتم تكوين فكرة واضحة حول توزيع الحرفيين حسب الحالة في الحرفة ندلي بالجدول التالي :

الحالة في الحرفة	العدد	النسبة المئوية
مشغل	2214	16,30
مستقل ذو محل	2538	18,68
مستقل يعمل بمنزله	2182	16,06
مستأجر	2733	20,12

3,53	480	شريك
5,29	718	مساعد عائلي
8,52	1 158	متعلم
11,21	1 522	آخر
0,29	39	غير مصرح
100.00	13 584	المجموع

6) ترتيب الحرف :

حتى تتمكن من ترتيب الحرف على ضوء المعلومات التي تتوفر عليها يمكننا أن نستعين بالمؤشرات

الآتية :

- مجموع المشغلين
 - عدد المشغلين
 - عدد المستأجرين
 - عدد المشغلين والمستقلين ذوي محلات
 - عدد المتعلمين
 - أهمية كل حرفة حسب حجم مناصب الشغل المتوفرة أو حسب حاجياتها من اليد العاملة.
- واستنادا الى هذه المؤشرات توصلنا الى الترتيب الآتي :

- 1 - الخياطة التقليدية
- 2 - الطرز
- 3 - النجارة
- 4 - الخياطة العصرية
- 5 - البناء
- 6 - الحلاقة

هذا وإذا ما أضفنا بالتتابع ميكانيك السيارات نسج الزرابي - الجزيرة - اسكافي - خباز - التلحم - الفرن - إصلاح الراديو والتلفزة - الصباغة - إصلاح الدراجات النارية - الزلايجي - المصور - الكهرباء العامة - كهرباء السيارات - الترخيص نحل الى 21 حرفة يعمل بها 79,35% من مجموع الحرفيين، في حين أن 84 حرفة المتبقية لا تشغل إلا 20,65%.

7) توزيع الحرفيين حسب الأقدمية في الحرفة

من خلال معرفتنا لمدة ممارسة حرفة ما، يمكننا أن نبرز المهن الجديدة أو الحديثة العهد وبالنسبة للحرف التقليدية فإن مدة الممارسة ترمز الى تمكن نسبة معينة من كسب تأهيل يضمن لها استقرارا نسبيا داخل الحرفة بغض النظر عن العوامل الأخرى.

الأقدمية في الحرفة	أقل من سنة	1 - 3 سنوات	3 - 6 سنوات	6 - 9 سنوات	9 - 12 سنة	12 - 15 سنة	15 سنة فأكثر	المجموع
العدد	42	1870	2399	1875	1515	1078	4805	13584
النسبة	0,31	13,77	17,66	13,80	11,15	7,94	35,37	100,00

مما يثير الانتباه أن نسبة المشتغلين الجدد الذين لم يزلوا الحرفة إلا لمدة قصيرة لم تتجاوز سنة كاملة لا تتعدى 0,3% أو 3% في الألف.

وإذا ما أضفنا إليها المشتغلين لمدة تقل عن 3 سنوات فإن النسبة تصبح 14% من الحرفيين الذين لهم أقدمية تقل عن 3 سنوات. وتوجد هاته المجموعة المتكونة من الوافدين الجدد بالحرف الآتية :

- خرط الحديد بـ 30,76%
- خطاط بـ 14,29%
- إصلاح النظارات بـ 33,33%
- كهرباء السيارات بـ 27,21%
- إصلاح المطاحن التقليدية بـ 18,60%
- إصلاح العجلات بـ 14,54%
- المطبعة بـ 28,94%
- إصلاح الآلات الكهربائية بـ 12,50%

وتصل نسبة المشتغلين لمدة تزيد عن 15 سنة الى 35,37% ونجدهم يعملون بالخصوص داخل المهن التقليدية كصناعة الأعمدة الخشبية للمكنسات وغزل الصوف والدباغة والدراسة.

II المؤسسات

(1) توزيع المؤسسات حسب الأفراد العاملين بها

عدد الأفراد	1	2	3	4	5	6	7 وأكثر	المجموع
العدد	6242	1396	601	268	138	46	80	8771
النسبة	71,17	15,92	6,85	3,06	1,57	0,52	0,91	100,00

يوضح لنا الجدول أعلاه توزيع المؤسسات حسب عدد الأشخاص العاملين بها وهكذا نجد أن 71,17% من المؤسسات لا يشتغل بها إلا فرد واحد، وإذا ما أضفنا إليها نسبة المؤسسات التي لا تتوفر إلا على شخصين، فإن هذه النسبة تصبح 87,09%، وهذا ما يظهر صفر حجم معظم المؤسسات.

في حين تبقى نسبة المؤسسات التي تشغل 7 أفراد وأكثر ضئيلة جدا ذلك أنها لا تتجاوز 9%. ويخصوص الحرف التي لا تشغل إلا فردا أو فردين فانها تم بعض الحرف التقليدية وكذا تلك التي تمارس من طرف الاناث ونذكر على سبيل المثال : الطرز — البناء — الصباغة — إصلاح الراديو — الخرازة.

أما المهن التي يوجد بها 7 أفراد فأكثر أي التي تميل الى تشغيل عدد كبير من الحرفيين نسبيا، فهي الخيازة — نسج الزرابي — الخياطة التقليدية — ميكانيك السيارات — التلحيم — النجارة — الخياطة العصرية.

(2) توزيع المؤسسات حسب نوع البناء

نوع البناء	الصلب	الطين	خيمة	براقة	نوع آخر	غير مصرح	المجموع
العدد	5819	986	20	583	500	863	8771
النسبة	66,34	11,24	0,23	6,65	5,70	9,84	100,00

تمكنا المعطيات المدرجة في الجدول أعلاه من تكوين فكرة ولو تقريبية حول إحدى العوامل التي تخص ظروف عمل الحرفيين بالمؤسسات المهنية، وهكذا يتضح أن 66,34% من المؤسسات مبنية بالصلب وهذه نسبة لا بأس بها. وبالنسبة للحرف التي تمارس في محلات غير ملائمة نذكر :

— 8,69% من محلات الجزارة مبنية بالطين و 3,09% في براكاة أو خيمة أي أن 11,78% من المؤسسات التي تمارس هذه المهنة تعمل في محلات غير ملائمة صحيا.

— 8,69% من مؤسسات الحلوى مبنية بالطين كذلك.

— 16,32% من محلات الخبازة مبنية بالطين أو عاملة في براكاة و 20,26% بقطاع الفرانزية.

أما الحرف التي يحتمل ألا تتلاءم محلاتها مع شروط السلامة نذكر :

— الحدادة العامة حيث تصل نسبة المحلات المبنية بالطين أو البراريك إلى 31,34%.

— إصلاح الدراجات العادية 23,33% من محلاتها تدخل في هذا الصنف.

— النجارة ب 18,47% فالتلحيم بنسبة 18,36%.

(3) توزيع المؤسسات حسب التزويد بالماء والكهرباء

يبلغ عدد المؤسسات المزودة بالكهرباء والماء معا 2479 مؤسسة أي ما يمثل 28,26%. أما

المؤسسات المزودة بالكهرباء فقط فإنها تصل الى 3066 في حين أن المحلات المتوفرة على الماء لاتتعدى 124 محلا.

هذا وعلى صعيد جميع الحرف نجد أن 37,22% من المحلات المبنية بالطين غير مزودة لا بالماء ولا بالكهرباء أما البراريك الغير مزودة فتبلغ نسبتها 97,60% من مجموع البراريك وتمثل نسبة المحلات الغير مزودة 51,32% من المحلات في قطاع الطبخ و 22,07% في قطاع الجزارة و 18,5% في قطاع الحيازة.

4) توزيع المؤسسات حسب استعمالها للالات

يكتسي استعمال الآلة أهمية بالغة للتعرف على المستوى التقني للمؤسسات، هذا ولقد بلغ عدد المؤسسات المستعملة للآلة 2538 أي ما يمثل 28,94% من مجموع المؤسسات.

وهناك علاقة قوية بين استعمال الآلة وبين عدد الأشخاص العاملين بالمؤسسات ذلك أن نسبة استعمال الآلة داخل المؤسسات التي لايتعدى العاملون بها فردا واحدا لاتتجاوز 24,38% في حين أن هذه النسبة تصل الى 51,25% داخل المؤسسات المستعملة لسبعة أفراد وأكثر.

5) توزيع المؤسسات حسب موقع المحل

موقع المحل	شقة	غرفة في مسكن	محل في الطابق السفلي	مرأب	حالة أخرى	المجموع
العدد	566	2365	567	1419	3854	8771
النسبة	6,46	26,96	6,46	16,18	43,94	100,00

يمكن أن نستخلص من الجدول أن 33,42% من المؤسسات تعمل في شقة أو في غرفة منزلية. وأن المقارنة بين هذه النسب ونسب المؤسسات التي تنتمي لبعض القطاعات التي تكثر فيها فئة «مستقل ذو محل» والتي هي من اختصاصات النساء كالخياطة ونسج الزرابي وغزل الصوف تمكننا من أخذ نظرة حول المؤسسات التي تزاوّل عملها داخل محلات سكنية.

كما نجد حرفا تزاوّل بالمحلات السكنية وينسب مهمة كالتجارة وإصلاح الدراجات النارية والتلحيم.

6) توزيع المؤسسات حسب صفة الحيازة.

- يمكن ترتيب المؤسسات حسب صفة الحيازة على النحو الآتي :
- مكثري : 4931 أي 56,22% من مجموع المؤسسات.
 - ملاك : 1850 أي 21,09% من مجموع المؤسسات.
 - حالة أخرى 1127 أي 12,85% من مجموع المؤسسات.

- غير مصرح 863 أي 9,84% من مجموع المؤسسات.

هذا وعلى مستوى مجموع الحرف، تمثل نسبة مكترى 68,20% من المحلات المبنية بالصلب. أما الوحدات الحرفية العاملة في محلات من ملكها فتمثل 22,73% من مجموع الوحدات العاملة في محلات «صلب».

7) توزيع المؤسسات حسب التصريح :

من بين الاجراءات التي يجب على المؤسسات اتخاذها التصريح عند إنشائها، ولقد تبين من خلال نتائج الاحصاء وجود ارتباط بين القيام بإجراءات التصريح وحجم المؤسسة، وذلك أن نسبة المؤسسات التي لم تصرح لا تمثل إلا 32,50% لدى المؤسسات المشغلة لسبعة أفراد فأكثر بينما تناهز 69,38% لدى المؤسسات التي لا يوجد بها إلا فرد واحد.

وبصفة عامة يصل عدد المؤسسات التي صرحت وقت فتحها الى 2179 أي ما يمثل 24,84% من مجموع المؤسسات مقابل 5729 مؤسسة لم تصرح وذلك بنسبة تبلغ 65,32%. وبخصوص نسبة المؤسسات التي لم تصرح داخل بعض الحرف فإننا نجد مرتفعة بالحرف التقليدية وكذا بالمهن التي يتكاثر بها «مستقل يعمل بمنزله» والتي هي من اختصاص النساء ونذكر على سبيل المثال :

- الطرز التي سجل بها 1318 وحدة بدون تصريح.

- الخياطة التقليدية حيث سجلت 701 وحدة لم تصرح.

- صناعة السفيفة حيث وصل عدد المؤسسات التي لم تصرح 112.

هذا ومن بين الحرف التقليدية التي سجلت نسبا مرتفعة فيما يخص عدم تصريح مؤسساتها عند انشائها نذكر :

- الدرزة : 95,34% من المحلات لم تصرح.

- الحدادة التقليدية : 81,81% لم تقم بأي إجراء في هذا القبيل.

- الخرازة : 70,24% من المؤسسات لم تصرح.

8) توزيع المؤسسات حسب أداء الضرائب :

33,76% من المؤسسات فقط هي التي تؤدي الضرائب، أما الباقي والمتمثل في 66,24% فهي لا تؤدي الضرائب. ونلاحظ أن ارتفاع نسبة عدم أداء الضرائب يتواجد بالمؤسسات المهنية التي تشرف عليها الأناث. وهكذا فمن بين 2302 مؤسسة هناك 2025 محلا غير خاضع للضرائب أي ما يعادل 87,97%.

وقد تبين كذلك وجود علاقة بين أداء الضرائب والحالة في الحرفة بحيث أن 66,46% من المشغلين يؤدون الضرائب و 41,07% من مستقل ذو محل، أما المستقل العامل بمنزله فإن نسبة الذين يؤدون الضرائب لا تتعدى 2,2% وهكذا نجد على أن الطرز على سبيل المثال لا تبلغ بها نسبة المؤسسات التي تؤدي الضرائب إلا 1,40% من مجموع مؤسسات الطرز.

ومن بين المؤشرات التي توضح الجانب التنظيمي لدى المؤسسات توفرهم على السجل التجاري، وقد

لحظ أن 11,25% فقط من المؤسسات التي تم إحصاؤها تتوفر على سجل تجاري.

9) توزيع المؤسسات حسب الاحتياج الى اليد العاملة :

من بين أهداف الاحصاء التوصل الى معرفة المؤسسات التي ترغب في تشغيل خريجي مراكز التكوين المهني، ولقد أبرزت النتائج ضالة نسبة المؤسسات التي صرحت أنها في حاجة الى اليد العاملة ذلك أنها لا تمثل سوى 9,10% من المجموع.

توزيع المؤسسات حسب عدد العمال الذين تحتاج اليهم

عدد الأفراد	1	2	3	4	5	6 وأكثر	المجموع
العدد	338	207	62	62	25	105	799
النسبة	42,30	25,1	7,76	7,76	3,13	13,14	100,00

10) توزيع المؤسسات حسب نوعية المشاكل التي تعترضها :

إن ترتيب المشاكل حسب أهميتها ونوعيتها وحسب ما جاء في تصريحات أرباب المهن يعطينا ما يلي :

يأتي مشكل قلة الطلب على رأس القائمة ذلك أن 71,35% من المؤسسات اشتكت منه.

– يليه الامكانيات المحدودة بـ 51,07%

– ثم الاحتياج الى القروض بـ 34,30% فعدم ملاءمة المحل بـ 24,45% وضيق المحل بـ 22,52%.

أما بالنسبة للحرف فإن نسبة المؤسسات التي تعاني من مشكل قلة الطلب في الخياطة التقليدية تصل الى 76,75% و 76,13% فيما يتعلق بالطرز و 74,27% في قطاع النجارة. وبخصوص نفس المشكل هناك 73,24% من المؤسسات المشغلة لشخص واحد والمشتكية من قلة الطلب.

أما أقل نسبة فتلقت سجلت داخل المؤسسات المشغلة لسبعة أفراد وأكثر حيث لم تتعدى 53,75%.

وأخيرا يمكننا أن نستخلص من نتائج الاحصاء المعرفة الدقيقة لجل الحرف التي تمارس داخل إقليم مكناس وحصر عدد الحرفيين بها وذلك قصد تنظيمها والقضاء على الفوضى التي يعرفها سير بعض الحرف وبالرغم من النتائج الأولية المحصل عليها، لا بد من دراسة كل حرفة على حدة دراسة تشمل جميع الجوانب وذلك بمواجهتها لعوامل أخرى حتى يتم الادلاء بمقترحات وجيدة وسليمة.

L'Artisanat de la corporation à la coopérative : le cas de Meknès

*Mohamed ABDOUH
Faculté de Droit — Fès*

I. Problèmes de définition de l'artisanat et orientations méthodologiques:

1: L'artisanat, doit-on remarquer est une notion floue et polysémique.

Floue d'abord, car son usage est insensible aux différences dues au temps et à l'espace: les mutations dans la réalité que cette notion doit normalement représenter n'ont pas l'air de déranger. Polysémique, la notion d'artisanat est basée sur des critères hétéroclites. Ainsi, la terminologie utilisée actuellement entretient la confusion et révèle un véritable désarroi: il est question d'artisanat «traditionnel», «d'artisanat moderne», «d'artisanat industriel» et le dernier-né de ces doublés est du genre «secteur informel» ou «secteur non structuré». On a beau tenter d'affiner les critères et les concepts, l'artisanat comme réalité économique et sociale semble insaisissable, et le phénomène de définitions tautologiques semble universel. En Allemagne Fédérale par exemple, on définit l'artisanat par «les modes et la manière artisanaux».

2. Dans ce labyrinthe, la référence au couple forces productives — rapports de production relève certainement d'une orientation méthodologique essentielle. Elle n'élimine pas pour autant tous les écueils. La complexité actuelle des formes de production et d'emploi dans les villes du «Tiers-Monde» est telle qu'elle exige d'interroger constamment les catégories économiques, par une approche concrète, sur leur capacité à rendre compte de cette réalité mouvante.

Qu'on n'attende pas de nous d'ajouter, à une liste déjà longue mais combien inefficace, une autre définition qui viserait à classer l'artisanat de façon définitive (1). Néanmoins ce travail s'est inspiré de quelques prémisses et propositions méthodologiques que nous explicitons comme suit:

— En premier lieu, une étude de l'artisanat doit mettre l'accent sur la logique de fonctionnement des unités et notamment sur le mobile de l'activité dans un environnement daté. Ces éléments éclairent à leur tour la nature de l'organisation du procès de travail, les types de stratégies impliquées etc..

— En second lieu, l'identification des statuts de l'artisanat et des artisans est à déterminer à partir d'une double approche: si l'analyse concrète doit s'attacher à montrer le contenu réel des catégories économiques de maître-artisan, compagnon, apprenti, aide-familial, l'approche historique doit par contre aider à comprendre le mouvement qui pourrait produire de nouveaux statuts ou introduire des changements dans les anciens.

Ces deux approches doivent par conséquent être croisées pour repérer les caractéristiques essentielles de la situation actuelle de l'artisanat et leur donner une signification.

II. L'ère de la corporation: «l'âge d'or» de l'artisanat marocain

Des nombreux indicateurs du dynamisme de l'artisanat urbain, on pourrait retenir l'importance des effectifs et de la production artisanaux d'une part et d'autre part les rôles et place de l'organisation corporative.

1. Importance de l'artisanat marocain au XIX^e siècle

L'artisanat urbain de production était encore important au début du XIX^e s. même s'il a connu une relative décadence depuis le XIV^e s. Une appréciation portant sur ses effectifs serait prétentieuse tant les témoignages datant de l'époque sont contradictoires et non synchronisés. On doit en effet rappeler que le premier recensement général et quelque peu systématique portant sur les effectifs et la production artisanaux ne date que du début du XX^e s. (2). Encore que les résultats de cette enquête sont discutables aussi bien du point de vue de la définition de l'artisanat sur laquelle se base l'auteur que de la méthode administrative et musclée, privilégiée pour recueillir les données. Malgré ces réserves, ce recensement garde une certaine valeur indicative.

D'un autre côté, on doit préciser que les références de ce travail concernent généralement le XIX^e s. C'est à dire une période où même si les vestiges de l'artisanat précapitaliste sont présents, se profile déjà le processus de désagrégation dont l'image se précise à la fin du siècle.

Quoiqu'il en soit, on peut affirmer avec J.L. Miège (3), référence obligée pour ceux qui s'intéressent à l'histoire économique et sociale du Maroc au XIX^e s. que «le rôle de l'artisanat dans la vie économique du Maroc demeurerait au XIX^e s. fort important». Nous allons être amenés par conséquent à présenter quelques indices statistiques de ce rôle de l'artisanat urbain, lesquels indices montrent qu'aussi bien en production qu'en effectifs, l'artisanat reste de loin la principale activité urbaine. C'est ce qui ressort des indications ponctuelles suivantes.

A Fès, R. LETOURNEAU estime l'effectif total pour les différentes branches de l'artisanat à 10.000 personnes. Mais si on retient comme hypothèse que chaque artisan fait vivre quatre personnes, c'est là moitié de la population de Fès qui est ainsi concernée (4). Cependant, ces chiffres concernent déjà une période de relatif déclin de l'artisanat. Du temps des Almohades, Fès comptait 372 meules à grain intramuros, 467 foundouks, 9082 boutiques, 2 kissariats, 3064 métiers à tisser, 47 fabriques de savon, 86 tanneries, 116 teintureries, 12 fonderies, 135 fours à pain, 11 verreries, 188 ateliers de poterie. (5) Si Fès constitue l'exemple le plus édifiant de l'importance de l'artisanat, elle restait comparable à des villes comme Marrakech, Rabat, Salé et Tétouan. Même dans des centres de moindre importance tel que Meknès, Mogador, Taza etc..., la «population artisanale» ne représentait pas moins du tiers de la population urbaine (6).

Sur l'importance des différentes branches de l'artisanat, nous disposons d'indications assez précises. Ainsi dans l'éventail de ces activités, c'est l'artisanat du textile et du cuir, c'est-à-dire l'artisanat vestimentaire et ses annexes qui occupent une place de choix. Pour ce qui est du textile, L. L'AFRICAIN aurait recensé à Fès 520 ateliers et 20.000 ouvriers (7).

Jusqu'au début du XIX^e s. l'artisanat textile avait pour base la laine et la soie, mais au delà de cette période le coton, sans être absent auparavant, prendra une importance relative croissante. Ramon Fernandez de la Reguera aurait

recensé à Rabat en 1863, 156 ateliers et boutiques de cotonnades, 18 ateliers de Haïks et de tissus de coton. (8) Une partie même de la production de cotonnades et de fibres de coton provenant de Fès et de Tétouan est exportée en particulier sur TLEMCEM (9). Il faut mentionner aussi l'importance de la fabrication des tapis et du tissage de la soie particulièrement à Rabat et à Fès (10).

Quant à l'artisanat du cuir, à savoir principalement la tannerie et la babouche, il était dans de nombreuses villes de par son importance économique et sociale à la tête de l'ensemble des activités artisanales. Ces métiers avaient connu une grande prospérité à Fès, à Marrakech et à Rabat notablement. LE TOURNEAU estimait au XIX^{ème} s. à 1500 le nombre de personnes travaillant dans la cordonnerie et 800 tanneurs, ceci toujours à Fès. Il s'agit sûrement d'une sous-estimation par comparaison avec d'autres témoignages concernant des villes marocaines de moindre importance. D'après BEAUNIER, il existait en 1865 à Rabat-Salé 250 babouchiers, qui produisaient 147.500 pièces et qui employaient 2025 personnes. D'après les mêmes documents, les tanneries sont au nombre de 40 produisant 80.000 pièces et employant 400 personnes (11).

Sans aller plus loin dans l'énumération de ces indices ponctuels — fort nombreux par ailleurs — il faut conclure à l'existence dans le Maroc précapitaliste d'un artisanat urbain très diversifié. Ceci à tel point que ces variétés de l'artisanat urbain ont posé un véritable problème de classification en catégories homogènes (12).

De cette diversification des activités artisanales, on pourrait inférer que l'artisanat urbain intervenait de façon décisive dans la couverture des besoins aussi bien essentiels que ceux qu'on pourrait qualifier de luxueux, qu'il s'agisse de la ville ou de la campagne. Cette diversification constituait aussi l'expression d'une division sociale du travail déjà avancée. A mentionner cependant que cette division n'était pas approfondie par une division technique. En effet, les instruments de travail utilisés n'ont pas connu de changement notable et encore moins de révolution depuis des siècles. Mais s'agit-il d'un trait distinctif de l'artisanat marocain? Il semble bien que non, si on se réfère au cas de l'artisanat en Europe avant l'âge de la fabrique. Dans cet ordre d'idées, R. Mantoux a beaucoup insisté sur la simplicité de l'outillage utilisé dans l'artisanat textile anglais (13). Citons aussi à titre d'exemple le cas de la France, et spécialement la cordonnerie dont le procès de travail n'a pas connu de changement depuis des siècles. C'est du moins ce qui ressort du passage suivant: «Des précurseurs de la chaussure aux ouvriers du XVII^{ème} siècle, l'outillage et les procédés d'exécution varient peu: alène, tranchet, formes et marteau pour l'essentiel de l'outillage; couture au fil enduit de poix, teinture noire à la noix de galle ou cirage pour l'exécution».

On retrouve pratiquement les mêmes instruments dans l'artisanat du cuir au Maroc, avec une adaptation aux données locales. Ces données concernent non seulement les matières premières tels les produits tannants mais aussi les goûts et de façon générale les types de clientèle, ce qui explique la différenciation parfois très poussée du produit de l'artisanat marocain. En prenant une nouvelle fois l'exemple de la babouche, on peut se référer utilement à R. LECLERC (14) qui recense pas moins de 10 catégories de babouches dont la qualité, les couleurs et les formes s'adaptent parfaitement à la clientèle considérée du point de vue des sexes et de l'origine géographique et sociale. Cette différenciation des produits de l'artisanat marocain, son adaptation aux exigences et goûts permet de penser que la babouche avait atteint un degré de perfection appréciable. C'est

cette habileté de l'artisan marocain, son ingéniosité, élément qui contrebalançait quelque peu la simplicité de l'outillage, qui fait écrire à R. LETOURNEAU que « les techniques fassies étaient parvenues à leur point de perfection » (15).

Concernant toujours l'artisanat du cuir, il y avait non seulement division de travail entre tanneurs et babouchiers mais aussi une spécialisation interne à la tannerie. En 1855, par exemple, parmi les 40 tanneries de Rabat-Salé, 20 traitant exclusivement les peaux de bœufs alors que les 20 restantes se sont spécialisées dans le tannage des peaux de moutons et de chèvres. Même phénomène à Fès où d'ailleurs la spécialisation par type de peaux se confondait avec une spécialisation spatiale: A. GERNIZ, on se consacrait au tannage des cuirs forts (bœuf) tandis que le tannage des peaux de moutons et de chèvres se faisait à SEUW-WARA et à Aïn Azliten. Aussi peut-on conclure que stagnation technique ne signifie nullement statu-quo économique. Il est vrai que nous nous sommes limités ici aux deux branches du textile et du cuir mais cela se justifie par leur poids relatifs prépondérant (16).

La répartition des effectifs par rapport aux ateliers peut fournir l'occasion d'une dernière remarque sur le dynamisme de l'artisanat. Si la taille des ateliers semble être modeste en règle générale, il n'en reste pas moins qu'il existait dans la baboucherie des ateliers employant jusqu'à 15 personnes et rarement moins de 5. (17) De même, dans l'artisanat du textile il était fréquent qu'un tisserand possédât jusqu'à 10 métiers, ce qui représentait un effectif de 20 à 25 personnes dans ces ateliers (18).

L'étude des éléments qui précèdent nous a permis de constater le caractère dynamique de l'artisanat urbain et partant, sa capacité de constituer un ressort sensible de l'intensification des échanges ville-campagne. Ces éléments relevant des forces productives dans l'artisanat seront mieux saisis à partir de l'étude de la forme d'organisation sociale.

2) Organisation sociale et Institutionnelle de l'artisanat urbain

L'analyse des formes d'organisation de l'artisanat qui concernent non seulement la hiérarchie intérieure à la corporation mais les rapports de cette dernière avec le Makhzen est nécessaire à plus d'un titre.

Cet ensemble de rapports peut d'abord nous éclairer sur le dynamisme des formes de production et d'échange avec la campagne, et en conséquence de comprendre un aspect important des rôles et place de la ville dans la formation économique et sociale marocaine.

Par ailleurs, l'analyse de l'organisation corporative avec ses multiples réseaux de solidarité, les différents statuts des principaux agents et leur fonction économique et sociale, sera indispensable pour avoir des repères historiques par rapport au processus de désagrégation qui va suivre.

Pour ce faire, partons des perceptions courantes de l'organisation de l'artisanat marocain. Les artisans marocains étaient-ils organisés en corporations? Cette interrogation peut étonner mais elle a été formulée par certains auteurs (19) qui mettent en doute l'existence même de l'organisation corporative dans les pays musulmans. Pour ces auteurs, l'artisanat dans les pays européens est présenté comme un modèle de référence auquel est confronté, trait par trait, l'artisanat marocain. Le résultat est parait-il « qu'une corporation professionnelle

musulmane même si on en admet l'existence, (souligné par nous, A.M.) ne peut correspondre pleinement à ce qu'ont été les corporations de l'Europe chrétienne à leur belle époque (20)».

La même thèse est présentée mais apparemment de façon plus nuancée par L. MASSIGNON (21). Ce dernier tout en reconnaissant l'existence de la forme corporative, insiste sur les traits qui la singularisent par rapport au modèle européen.

Ainsi les corporations marocaines étaient muselées par le Makhzen et de ce fait, n'ont pu se fédérer en communes et acquérir des franchises municipales, comme ce fut le cas en Europe. La manifestation de la dépendance des corporations vis-à-vis du Makhzen se concrétise par les pouvoirs exorbitants attribués au mohtassib. Ce dernier concentre des pouvoirs politiques, économiques et religieux, et de ce fait intervient même dans la définition des conditions d'adhésion aux corporations et dans l'élaboration des modalités techniques d'exercice du métier.

Cette mainmise du Makhzen sur les corporations explique alors, selon ce point de vue le poids des charges publiques: touiza et corvées au profit du sultan et de sa cour, des travaux à perte pour les habous et enfin les charges coutumières.

Le deuxième trait particulier des corporations marocaines serait leur caractère démocratique et populaire. Il s'agit ici d'éléments qui concernent la hiérarchie interne à la corporation et en particulier des rapports entre maîtres-artisans et compagnons. On se réfère toujours ici à la corporation européenne et à la scission entre jurandes (maîtrise et compagnonnage) Et R. LETOURNEAU de renchérir: (22) «En somme, on n'est pas ici en présence de deux classes sociales distinctes, mais d'une seule, celle des artisans, qu'ils soient ouvriers ou patrons».

Les éléments précédents fondent les points de vue qui minimisent le rôle de l'artisanat urbain au Maroc. Or il nous semble que ces points de vue sont loin de refléter la réalité des groupements des artisans au double niveau de leurs rapports avec le Makhzen et des rapports de production qui leurs sont internes.

Avant d'aller plus loin, il peut être nécessaire de mentionner brièvement l'intérêt et l'enjeu d'un tel débat par rapport à notre préoccupation. La corporation a été en effet souvent présentée comme une forme d'entrave au développement des forces productives dans la période de transition au capitalisme. Mais cela ne doit pas cacher qu'à leur belle époque, les corporations avaient permis un progrès sensible des forces productives dans l'artisanat. La corporation était donc dans ce contexte la pièce maîtresse du système artisanal tant au niveau technique, socio-économique, qu'au niveau idéologique.

Après ce rappel, il nous paraît logique de nous interroger sur le prétendu caractère spécifique des groupements des artisans marocains.

— **La docilité présumée des corporations vis-à-vis du Makhzen:** Les études concluant à la passivité des corporations ne paraissent pas fondées car elles présentent les rapports corporation — makhzen comme étant linéaires et n'impliquant qu'une influence du Makhzen sur les corporations. Or, même dans le cas d'apparente passivité, la question est de savoir s'il s'agit d'une domination absolue du makhzen sur les corporations ou, au contraire, d'un appui de ces dernières sur le pouvoir central qui agit dans le sens de leurs intérêts.

En tout état de cause, et à contrario, on peut présenter des cas historiques où les corporations se sont révoltées contre le makhzen lorsque sa politique n'était pas en connivence avec leurs intérêts profonds. C'est dans ce sens que J. BOURILLY écrit (23): «à maintes reprises, au cours de l'histoire, les artisans de Fès, se sont appuyés sur leurs clients berbères dans leurs conflits avec les sultans, notamment My Ismaïl et My Slimane». Il est important à cet égard de s'interroger sur la base économique d'une telle alliance entre artisans et tribus.

Plus précisément, on pourrait citer le cas suivant à travers lequel on peut montrer l'esprit d'autonomie, voire la turbulence des corporations: lorsqu'en 1842, le Sultan interdit le commerce avec l'orient par l'Algérie, la réaction des corporations et en particulier celle de l'artisanat du cuir à Fès fut immédiate et violente. De même, la révolte des cordonniers de Marrakech peut fournir un exemple prenant en flagrant délit la thèse de la docilité parfaite des corporations.

Enfin, la mainmise du pouvoir central sur les corporations était souvent illustrée par l'importance des attributions du Mohtassib. Or ce dernier délègue une grande partie de son pouvoir sur les corporations aux Oumana. Eclairer le statut de l'Amin serait donc à propos pour comprendre les rapports Makhzen — corporations. L'Amin est-il un auxiliaire du mohtassib et du pacha, chargé de percevoir les amendes et de répartir au sein de la corporation les charges publiques, ou au contraire un représentant des artisans auprès de l'État ? Rappelons d'abord que l'Amin est élu par la corporation sur la double base de sa compétence technique et de sa situation sociale. R. LECLERC le décrit comme «un vieillard aisé, connaissant bien son métier, scrupuleux, et reconnu par tous comme remplissant les conditions d'impartialité indispensables». Certes, la nomination définitive de l'Amin et soumise à l'approbation préalable du mohtassib et par suite, du pacha, mais la corporation a le droit de réclamer son changement lorsqu'elle juge qu'il ne remplit pas fidèlement son mandat. Aussi peut-on conclure que l'Amin est bien moins un agent du Makhzen que le représentant de la corporation. Ce qui de ce fait contredit la thèse répandue de la soumission totale des corporations au pouvoir central.

Qu'en est-il maintenant du prétendu caractère démocratique et populaire des corporations au Maroc ?

— **Les rapports de production au sein de la corporation.** Ces rapports sont-ils spécifiques aux corporations marocaines? La triologie maître-artisan, compagnon, apprenti repose-t-elle sur d'autres types de rapports que ceux ayant existé au sein de la corporation européenne ? Certes cette hiérarchie tripartite est insérée pour le cas Marocain dans des relations paternalistes. Cependant elle n'en définit pas moins des rapports d'exploitation au détriment du compagnon et de l'apprenti. En effet, les relations entre les maîtres-artisans et les compagnons bien que personnelles et directes, peuvent être identifiées comme «des rapports d'exploitation avec une tonalité familiale». La base de ces rapports étant l'extorsion d'un surtravail au profit du maître-artisan. Le compagnon, quant à lui, perçoit un revenu correspondant au travail nécessaire à sa subsistance.

Toute autre est la question de l'expression politique et sociale de tels rapports d'exploitation et notamment le niveau de conscience de cette exploitation de la part des agents sociaux concernés. Or s'il paraît vrai que les conflits entre maître-artisans et compagnons étaient moins déclarés dans le cas du Maroc, il ne faut pas pour autant en déduire une harmonie absolue au sein de la corporation.

De leur côté, les apprentis font l'objet d'une double dépendance, tant technique que sociale: Durant la période d'apprentissage, période de formation-production, l'apprenti, du maître-artisan et du compagnon. La dépendance vis-à-vis de ce dernier est une dépendance technique. Qu'il s'agisse de la corporation marocaine ou des corporations en Europe, on peut affirmer que l'apprenti dépend directement et personnellement du maître-artisan. Il lui doit fidélité, obéissance aveugle aussi bien dans l'exercice des tâches en rapport avec le métier que pour l'exécution de certains travaux domestiques. Dans ces conditions, l'apprentissage est à la base du renouvellement du métier. Les apprentis bien qu'appelés à bénéficier d'une mobilité sociale en tant que futurs maître-artisans, sont en situation conflictuelle avec les maître-artisans du fait de l'allongement de la période d'apprentissage décidé par ces derniers. Or le statut de l'apprenti pendant cette période peut faire l'objet d'une double appréciation. Pour le maître-artisan, c'est une période de production. L'apprenti se considère comme étant dépossédé en partie ou en totalité du produit de son travail. Aussi doit-on comprendre que le recrutement des apprentis au sein de la famille du maître-artisan a pour effet d'atténuer les conflits qui pourraient naître du fait du statut des apprentis.

Avec ces derniers développements, on a pu se rendre compte que la spécificité de la corporation marocaine était exagérée. Alors qu'on serait tenté de partager la conclusion à laquelle aboutit LECLERC qui écrit : «En somme, cette organisation (la corporation marocaine) est analogue à ce qui existait en France avant la révolution». Et de fait ces corporations marocaines, étaient nombreuses dans les principales villes du Maroc précolonial : elles seraient au XIXème siècle au nombre de 4800 à Marrakech, 4000 à Fès, 1000 à Meknès et autant à Salé etc... Comme celles du Moyen-Age latin les corporations avaient avant tout le souci de défendre et d'organiser le métier. Elles se préoccupaient d'établir le juste prix, le juste «salaire», Le respect de la qualité du produit, une surveillance «malthusienne» de l'offre et de la demande, telle que le chômage a pu être écarté. La structure corporative permettait aussi l'exercice d'une solidarité effective entre maître-artisans, ce qui se faisait par l'existence d'une caisse de secours mutuelle, par l'engagement de la responsabilité collective en ce qui concerne les malfaçons et les fraudes etc...

Bénéficiant de monopoles de fait ou de droit, ces corporations tendaient à s'entourer de garanties juridiques pour préserver leurs privilèges. En Europe, le développement des «métiers libres» à partir du XVIIIème siècle va constituer une première menace au système corporatif et à l'économie artisanale stagnante qu'elle est devenue. Au Maroc, c'est la pénétration commerciale européenne du XIXème s. qui va déclencher l'affaiblissement du système corporatif.

III. Déclin des corporations et échec de l'entreprise coopérative artisanale.

Avec la colonisation vont se préciser les forces centrifuges dont l'action entraîna l'éclatement de la corporation artisanale. La crise de l'institution corporative qui en résulte peut être approchée à partir de la nette régression des effectifs des maître-artisans dans l'ensemble des villes marocaines «traditionnelles». Le cas de Meknès, donc typique, est éloquent.

Tableau n° 1 : Effectifs des maîtres-artisans à Meknès en 1923 et 1954

CORPORATIONS/ANNEES	1923	1954
Tisserands	118	75
Menuisiers	71	69
Tanneurs	29	14
Potiers	27	31
Forgerons	29	21
Cordonniers	70	44
Nattiers	08	19
Joailliers	31	11
Mozaïstes	17	06
Teinturiers	07	10
Fabriquants de Tamis	07	03
TOTAL	414	303

Sources : L. Massignon: «Enquête sur les corporations...» op.cité.

L. Golvin: «Aspects de l'Artisanat en Afrique du Nord» PUF. 1957 Paris.

Les données qui précèdent, bien que parlant d'elles-mêmes, appellent les remarques suivantes:

— La baisse des effectifs des maîtres-artisans est une caractéristique quasi-générale aux corporations. Sur 11 corporations 8 ont vu leurs effectifs diminuer. De même, l'effectif total a régressé de près 21,5 % entre 1923 et 1954. Or, il faut rappeler que cette baisse intervient alors que le volume des besoins en marchandises de même valeur d'usage que ceux de l'artisanat, n'a cessé d'augmenter durant cette période. L'augmentation des besoins de consommation de ces produits avait notamment pour ressort la croissance démographique, la monétarisation de l'économie, l'urbanisation etc... Facteurs qui jouèrent donc en faveur de la demande de consommation des marchandises de l'industrie en l'absence de modernisation de l'artisanat.

— Les corporations artisanales n'étaient évidemment pas concernées au même degré par la réduction de leurs effectifs. Et il peut être intéressant de déceler la physionomie de l'artisanat à la veille de l'indépendance. En effet les professions qui œuvraient à satisfaire les besoins fondamentaux et qui jouaient dans la période précoloniale un rôle de premier plan, sont les mieux placées dans le processus de régression. C'est notamment le cas des tisserands, tanneurs,

forgerons et cordonniers dont les effectifs ont regressé respectivement de 37 %, 52 %, 28 %, et 37 %.

III. Origines du mouvement coopératif dans l'artisanat.

Le Maroc précolonial, villes et campagnes, connaissait parfaitement l'existence des diverses formes d'entraide. Certaines d'entre elles étaient certes provisoires et ponctuelles: Touiza, Ouziâa, Agadir, Muzaraka, Muzaka... Mais d'autres fonctionnaient durablement sur la base de véritables règles coopératives. Citons, à titre d'exemple, les cas probants de la gestion, par la Jamaâ, des terres collectives de même que l'exploitation de ruchers dans le cadre d'une coopérative créée dès le début du XIX^{ème} s. dans la région de Taroudant.

Dans l'artisanat, cependant, c'est dans le contexte colonial que l'entreprise coopérative allait prendre forme. Le Dahir du 8 juin 1938 règlemente et étend la formule coopérative à l'artisanat alors qu'elle était déjà proposée, dès 1918, pour organiser les paysans. Dans les deux cas, les promoteurs de la modernisation de l'«économie indigène» visaient à déclencher un «choc psycho-technique» par le moyen d'actions incitatives ou par le recours à la contrainte pure et simple. La coopérative devrait être la pièce maîtresse de ce dispositif, l'artisan-coopérateur pourrait, du moins théoriquement, bénéficier de l'aide technique (ateliers-pilotes) et financière de l'état.

A l'issue de la période coloniale, la coopérative artisanale peut-être considérée comme une sorte d'avorton au regard du nombre des coopérateurs et de la place qu'elle occupe dans le mouvement coopératif au Maroc.

Tableau n° 2: Activité des coopératives artisanales (1951-1955)

Exercice	Nombre de coopératives	Nombre de coopérateurs	Chiffre d'affaire (en millions de F)
1951	18	1335	36,1
1952	20	2131	108,2
1953	21	2691	128
1954-55	23	2800	130

Source du tableau n° 2: Abdelaziz Belal: «L'Investissement au Maroc de 1912 à 1964». Editions Maghrébines Casablanca 1980 p.105

Force est donc de constater le faible impact de la coopérative artisanale dont l'attrait n'a pas séduit plus de 1,4 % de l'ensemble des artisans alors que le nombre des coopératives artisanales n'a représenté que 23 % de l'ensemble des coopératives marocaines en 1951-1952.

Comment expliquer l'échec de cette tentative de transplantation de la coopérative au lieu et place d'une corporation moribonde?

Considérons brièvement, d'abord, l'explication de type «sociologique» qui désigne la rationalité de «l'économie indigène» et «l'égoïsme» irréductible de l'artisan comme co-responsable de l'inhibition du mouvement coopératif. Cette pseudo-explication ignore non seulement l'existence, déjà soulignée, dans le tissu social marocain d'avant la colonisation de riches expériences coopératives, mais dénie aussi à la pratique du travail collectif les fonctions d'éducation et de formation des coopérateurs dont profiterait le mouvement coopératif pour prendre plus de vigueur. C'est donc dans d'autres directions qu'il faut chercher les raisons de l'échec de la coopération.

Les premiers éléments d'explication sont à rattacher aux contradictions de l'action de modernisation de l'artisanat. En effet, la création de coopératives, était présentée comme le moyen le plus percutant permettant d'endiguer le processus de prolétarianisation des paysans et des artisans et donc de circonscrire voire éteindre les foyers d'agitation sociale. En somme, les maîtres à penser de l'expérience de modernisation voulaient arriver à concilier, dans un même mouvement harmonieux, l'essor de «l'indigène» et l'expansion de la France.

Par conséquent, on peut conclure que le projet social de la modernisation ne pouvait être réalisé dans le cadre de la colonisation. Sa réalisation heurtait de front les intérêts immédiats des milieux coloniaux qui le jugèrent finalement inoportun et potentiellement dangereux et dont la pression expliquait la modestie du soutien tant financier que technique dont les artisans ont effectivement bénéficié. Dans ce contexte, les ateliers-pilotes n'ont pas fait tâche d'huile et les crédits, très sélectifs n'ont touchés que 0,5 % des effectifs artisanaux et avaient même tendance à décroître en volume au début des années cinquante:

Tableau n° 3: Montant des crédits à l'artisanat

ANNEES	MONTANT (en million de F)
1950-51	82
51-52	34
52-53	68
53-54	50

Source: A. EL KHYARI. «Artisanat et Capitalisme» op.cité p: 440

Correlativement, la coopérative était perçue par les artisans comme une structure de contrôle politique et policier. L'omniprésence de l'état colonial à tous les niveaux de fonctionnement des coopératives n'était pas de nature à démentir une telle vision. Un tel héritage constitue d'ailleurs, un handicap majeur au développement du mouvement coopératif actuel. Rappelons à cet égard que si dans les pays du tiers-monde, la création des coopératives est avant tout une entreprise administrative, en Europe, la coopérative de production, de consommation et d'approvisionnement est née de l'initiative des paysans, des artisans et des ouvriers dans le contexte du début du siècle dernier.

III.2: Les caractéristiques du mouvement coopératif dans l'artisanat à Meknès.

Dans la période post-coloniale, la reconversion de l'artisanat par la promotion de la coopération semble de même trébucher.

Tableau n° 4 : Evolution des coopératives artisanales au Maroc de 1955 à 1983

ANNEES	NOMBRE DE COOPERATIVES	NOMBRE DE D'ADHERANTS
1955	23	2800
1962	60	3000
1972	113	—
1974	121	6000
1977	165	7000
1979	205	11227
1983*	225	12706

Sources : • A. EL KHYARI «Artisanat et capitalisme» op.cité p.495

* S.D.A.R. •Région centre-nord 1985 p.145

En effet, la coopération a réalisé peu de progrès eu égard à l'ambition des plans de développement. Celui de 1960-1964, en particulier, insistait sur la nécessité d'étendre le secteur coopératif en cherchant la participation volontaire des artisans. L'état, selon le planificateur, devrait encourager le mouvement par des moyens d'incitation tels l'octroi de crédits, la création d'usines pilotes, l'encadrement humain et la prise en charge de la formation professionnelle. C'est de même le cas des autres plans qui depuis le début des années soixante-dix faisaient de la promotion de la coopération un objectif prioritaire.

Etriqué, le secteur coopératif manque de dynamisme et ne se maintient que par la volonté de l'administration comme tendent à le montrer les indicateurs suivants : en 1979 le bénéfice total des coopératives artisanales était de 8.534.633 DH ce qui, compte tenu du nombre d'adhérents, implique un bénéfice annuel individuel de 750 DH.

Dans ces conditions, beaucoup de coopératives ont une existence purement fictive. Pour d'autres les subventions et l'aide de l'état, dont le montant parfois est supérieur à celui du capital social, constituent la principale raison d'être. Ainsi le total des subventions au secteur coopératif de l'artisanat est passé de 1.060.000 DH durant la période 1973-77 à 4000.000 DH en 1978 soit donc une augmentation de 277 % alors que le nombre de coopératives bénéficiaires a diminué passant de 105 à 67 ce qui dénote une plus grande rigueur dans

la sélection des coopératives à soutenir.

L'étude du secteur coopératif dans l'artisanat à Meknès permet de mieux préciser nos idées dans la mesure où sa physionomie confirme les traits du mouvement coopératif national.

Effectivement, la coopérative a peu d'impact sur les artisans à Meknès. Entre 1977 et 1982, le nombre de coopérateurs, très réduit, est passé de 215 à 229, ce qui est dérisoire compte tenu des effectifs des artisans. Durant la même période une seule coopérative a vu le jour ce qui porte le nombre à 8. Le poids relatif de la coopération selon les branches d'activités artisanales durant la même période se présente de la façon suivante:

Tableau n° 5: Effectif des Coopérateurs par Profession

Professions	Effectifs des coopérateurs	
	1977	1982
Menuiserie	56	33
Tannerie	44	51
Maroquinerie	09	04
Cordonnerie	14	26
Tissage	42	33
Tissage de tapis	22	48
Tailleurs	28	34
TOTAL	215	228

Sources du tableau n° 5 : Schéma directeur de la ville de Meknès p: 46
- Etudes de la Banque Populaire

Aussi, si le secteur coopératif couvre en moyenne 9 % de l'ensemble des artisans, cette couverture est inégalement répartie selon les branches et les professions. Dans le secteur artisanal du cuir, cette proportion des coopérateurs ne dépasse pas actuellement 3,5 % des maîtres-artisans; dans la confection, autre branche de premier plan dans l'artisanat à Meknès, 2,5 % seulement des maîtres-artisans sont coopérateurs.

Enfin dans le tissage du tapis, par contre, le «développement du mouvement coopératif» cache de fait l'existence de véritables sociétés de capitaux. Dès lors, comment expliquer l'anémie qui entrave la vie normale du secteur coopératif dans l'artisanat ?

Une première raison a trait à l'insuffisance des moyens permettant de sti-

muler les mouvements de constitution et de consolidation des coopératives. C'est notamment le cas des crédits accordés à l'artisanat de Meknès dont le montant, fort modeste, a tendance à baisser en valeur absolue depuis 1976.

D'autres éléments explicatifs de la « mauvaise santé » des coopératives de l'artisanat, concernent la déficience du système de formation professionnelle, de même que la lourdeur et l'inefficacité de l'encadrement administratif des artisans.

S'il ne s'agit nullement de dénier aux facteurs précédents une certaine valeur explicative de la situation actuelle des coopératives, on doit remarquer néanmoins, leur incapacité à éclairer suffisamment le paradoxe de la crise de ces coopératives dans une situation de véritable prolifération de petites activités urbaines ne bénéficiant, quant à elles, d'aucune forme d'encouragement.

IV. De la léthargie des coopératives à la prolifération des petits métiers.

Les villes du Tiers-Monde connaissent en effet, un indéniable foisonnement de ces petites activités dont il s'agit de présenter ici quelques caractéristiques impliquant de nouvelles formes et modalités de mobilisation de travail.

Au Maroc la classification des professions et le regroupement des activités en branches, largement inspirés de modèles externes, présentent plusieurs équivoques et ne mettent nullement en valeur cette nouvelle réalité de l'emploi urbain. On pourrait cependant, approximativement il est vrai, en suivant quelques groupes de professions, dégager quelques tendances. Il s'agit en l'occurrence des grands groupes professionnels 6 et 7 (24) dont la part dans la population active totale a évolué comme suit:

1960	23,2 %
1971	27,5 %
1982	36 %

La réalité socio-économique de ces groupes dont les effectifs sont en nette augmentation pendant cette période se caractérise par une dégradation des conditions de l'emploi en rapport surtout avec la nature d'une industrie peu employante (25) ce qui explique, en partie, la faible progression du salariat par rapport à la population active totale. Cette part de 35 % en 1960, de 37 % en 1971 n'a pas dépassé 40,5 % d'après le dernier recensement.

L'approche concrète des aspects de l'emploi urbain évoqués, et particulièrement celui des conditions de mobilisation du travail dans les petites activités, et dans l'espace économique de Meknès, peut être l'occasion d'éclairer les tendances actuelles en matière d'emploi urbain.

IV.1. Meknès : Théâtre d'un remarquable accroissement numérique des petites activités

Le recensement des petits métiers à Meknès, effectué en 1985 par les services du Ministère du Plan, rend possible l'établissement d'un premier bilan. Certes, la comparaison avec les données statistiques antérieures n'est pas aisée

pour de multiples raisons; ce qui donne donc aux résultats de tout rapprochement, une valeur indicative. Toutefois, même avec l'intégration d'une marge d'incertitude «raisonnable», on serait loin d'expliquer l'accroissement net des effectifs des petits métiers, et encore moins la création assez récente de nouvelles unités dans la plupart des secteurs d'activité.

Ainsi dans les branches du cuir et du textile à Meknès, les effectifs d'emploi (toutes catégories) ont augmenté de 133 % entre 1977 et 1985.

Tableau n° 6 : Effectifs des petits métiers à Meknès dans les branches cuir et textile en 1977 et 1985

Années Branches	1977	1985	Accroissement (en % de 1977)
Textile (confection)	2200	5359	143 %
Cuir	315	517	64 %
Total	2515	5876	133 %

Sources du tableau n° 6 — Schéma Directeur de l'aménagement urbain de Meknès. Délégation du Ministère de l'Habitat.

Recensement des artisans de Meknès. Délégation du Ministère du Plan 1985.

Cette augmentation dans les effectifs d'emploi ne comprend pas celle des associés et aides-familiaux qu'on a dû défalquer des données de 1985 pour homogénéiser les bases de cette comparaison. Un autre indicateur de cet accroissement des petits métiers peut être fourni par l'évolution du nombre des chefs d'unité pendant la même période et pour les mêmes branches, indice révélateur du mouvement de création de nouvelles unités et parfois de nouveaux ateliers.

Tableau n° 7 : Effectifs des chefs d'unité en 1977 et en 1985 dans les branches cuir et textile à Meknès

Années Branches	1977	1985	Accroissement (en % de 1977)
Textile	800	3219	302 %
Cuir	232	357	53,8 %
TOTAL	1032	3534	242 %

Le mouvement de création de nouvelles unités qui ressort nettement du tableau précédent, peut être confirmé en outre par des enquêtes ponctuelles et précises. Ainsi les services du Ministère de l'Habitat à Meknès ont localisé, en

1985, dans trois quartiers ou bidonvilles ouverts sur l'exode rural, 106 petites unités de production et de commerce. Il est utile de noter que 17 % de l'ensemble de ces unités (50 % à Ain Chbik) sont intégrées au logement, ce qui peut avoir un grand intérêt dans un environnement de crise de l'emploi.

La prolifération, assez récente, de petits métiers à Meknès, ne fait donc aucun doute. Comment l'expliquer? Plus précisément, peut-on mettre ce phénomène en corrélation avec l'apparition de nouvelles causes déterminantes? Car l'explication par les lacunes du processus d'industrialisation, par l'ampleur et les caractéristiques de l'exode rural, est essentielle certes mais néglige, à notre sens, des facteurs de génération de nouvelles unités, facteurs qui jouent à «l'intérieur» même des petits métiers.

IV.2. L'apprentissage sur le tas: nouvelles fonctions, nouvelles conditions

La réalité socio-économique de l'apprentissage sur le tas, dans les petits métiers, connaît d'importants changements. Changements qui intéressent, aussi bien le contenu de l'apprentissage que les conditions des apprentis, et interviennent à la suite d'un recours massif par les chefs d'unités au travail des enfants.

— Dynamique de l'absorption des apprentis par les petites unités de production à Meknès

Avec la crise des corporations, la dévalorisation des métiers artisanaux qui en a résulté, on assistait à une véritable chute de la demande de formation en apprentissage sur le tas à tel point que le recensement de 1947 révélait un taux d'apprentis par patron de 0,13 dans le textile; 0,36 dans le cuir et 0,19 dans l'ensemble des branches recensées c'est-à-dire à peine 19 apprentis pour 100 «patrons».

Etant donné que l'apprentissage était à la base même de la reproduction des unités de l'artisanat, la réduction des effectifs des apprentis, devenait un facteur d'aggravation de la crise des corporations d'autant plus qu'il avait pour corollaire une détérioration de la qualité de la force de travail.

Or, c'est manifestement à un tournant décisif qu'on va assister déjà à partir des années soixante mais surtout à partir de la décennie soixante-dix.

Dans cette nouvelle situation, caractérisée par l'augmentation du nombre des apprentis, on peut même établir une corrélation positive entre extension de la petite production marchande urbaine et élasticité de la demande d'accès à la « formation » en apprentissage sur le tas. Les données suivantes sur la structure de l'emploi dans les petits métiers à Meknès sont significatives à cet égard:

Tableau n° 8 : Taux d'apprentis par rapport aux ouvriers-artisans par année et par branche d'activité (en %)

Année Branches	1942	1979	1985
Textile	18,7 %	100 %	88,6 %
Cuir	58 %	70,8 %	127 %

Sources du tableau n° 8 — L. Golvin: L'artisanat en Afrique du Nord. op.cité. p.45
— «Création emploi et amélioration des revenus»
Enquête artisanat — Impôts 1979 p.12
— Recensement des métiers à Meknès 1985. op.cité.

La convergence, sur le plan statistique entre le phénomène de création de nouvelles unités et l'importance relative des apprentis dans la structure de la main d'œuvre, doit être en outre éclairée par l'analyse des changements intervenus dans le contenu de l'apprentissage et dans les conditions dans lesquelles il se déroule.

L'apprentissage sur le tas est-il actuellement un processus de formation-qualification des apprentis ?

Certes la pratique de l'apprentissage sur le tas est par essence conflictuelle. En effet, autant par son objet, par ses méthodes que par sa durée, cette pratique se caractérise par une grande hétérogénéité des formes et par une confusion au niveau de l'objet d'apprentissage. Cependant, ces problèmes sont aggravés par l'apparition de nouvelles conditions. Dans le système corporatif, le maître-artisan qui était en même temps formateur et éducateur, avait la responsabilité d'inculquer à l'apprenti les « secrets du métier ». L'objet de la formation porte donc non seulement sur l'aspect technique mais intègre normalement les autres fonctions (de type commercial et autres). S'il n'y a pas de méthode pédagogique à proprement parler l'apprenti doit pour acquérir progressivement les qualifications requises, observer et exécuter. Enfin, le recours à de nouveaux apprentis, de la famille du maître-artisan en général, était limité par les besoins urgents des maîtres en main-d'œuvre qualifiée, de sorte que l'emploi des formés est déjà assuré. Dans ce système, qu'il ne faut pas non plus magnifier, il existait néanmoins des conflits dus notamment aux appréciations divergentes sur la durée « normale » d'apprentissage. Ces conflits étaient toutefois contenus par les relations familiales de l'apprenti avec le chef de l'unité artisanale.

Toute autre est la situation actuelle des apprentis dont le statut se détermine en rapport étroit avec l'importante déperdition scolaire, la croissance démographique et l'exode rural. Dans ces nouvelles conditions, largement défavorables à l'apprenti, il existe une déviation dans les fonctions d'apprentissage dont les implications sont négatives au double niveau de la qualité de la formation et du devenir même des apprentis.

Commençons par considérer la durée de la période d'apprentissage. Du fait, comme nous l'avons remarqué, que l'apprentissage sur le tas ne s'inscrit nullement dans le cadre d'un programme préétabli, sa durée varie à l'intérieur d'une fourchette pouvant facilement dépasser 10 ans. On peut toutefois distinguer actuellement quelques « étapes » significatives.

Il faut remarquer d'abord, de façon liminaire, que la recherche d'un formateur n'est pas une tâche facile en raison même de la concurrence entre les candidats à la mise en apprentissage. C'est évidemment l'affaire de la famille dont les membres influents sont sollicités pour valoriser leur relations. Lorsque la mise en apprentissage intervient après un échec scolaire, elle est en quelque sorte punitive.

Une fois le « mâalem » formateur trouvé, commence alors immédiatement une étape préparatoire à la formation technique à proprement parler: Il s'agit en

gros des premiers mois dans l'atelier. Cette étape est celle de l'initiation à la discipline du travail. C'est pourquoi l'appréciation du «Mâalem» porte non sur les capacités techniques de l'apprenti mais plutôt sur son «sérieux», sur sa docilité et sur son assiduité. L'apprenti «aide» en remplissant des tâches de course, de nettoyage de l'atelier voire même des tâches purement domestiques.

Après cette période d'essai, l'apprenti accède aux «petites bricoles» dont le contenu dépend évidemment de chaque métier. L'apprenti se familiarise avec quelques tâches secondaires et pourrait même exécuter des techniques simples mais dans des limites et restrictions qu'impose rigoureusement le «mâalem» qui ne voudrait prendre aucun risque de détérioration du matériel. Dans les ateliers où la machine a déjà pris place et où les apprentis sont nombreux, se dessine nettement une tendance à la spécialisation des apprentis, véritable antithèse du mode artisanal d'apprentissage. Ce n'est qu'au delà de cette étape que l'apprentissage peut signifier maîtrise du métier.

Encore qu'il faut remarquer l'absence de toute planification ou volontariat dans la transmission des techniques et des tours de main. Dans la plupart des cas l'apprenti doit s'ingénier à «voler le métier» plutôt qu'attendre indéfiniment que le «mâalem» veuille bien lui transmettre ses connaissances techniques. C'est enfin durant cette période qu'existe réellement les possibilités de conflits ouverts sur les problèmes de rémunération, de responsabilité technique etc.. L'issue de ces conflits dépend des possibilités d'emploi dans les autres ateliers et... des possibilités de création d'une nouvelle unité, là aussi, c'est l'affaire de la famille. Il faut enfin remarquer que la qualité de la formation dans le cadre de l'apprentissage sur le tas ressent non seulement le poids de la présence pléthorique des apprentis et donc de l'impossibilité, dans les conditions du petit atelier, de transmission totale des techniques, mais aussi, fait nouveau, de la dégradation de la relation formation scolaire — maîtrise des techniques nouvelles par les «Mâalem». En 1985, les «mâalem» de la branche cuir à Meknès par exemple, restent analphabètes dans leur majorité absolue (56,6 %).

— Modalités et conditions de travail dans les petits métiers

La mobilisation du travail au sein des petites activités urbaines se déroule dans des conditions pénibles et désavantageuses pour l'ensemble des catégories de force de travail et en particulier pour les «apprentis». Tout un chacun peut se rendre compte en effet de l'exiguïté des ateliers, du manque d'hygiène et de lumière...

D'autres aspects, moins visibles en quelques sorte, concernent la nature des relations de travail, et en particulier celles qui portent sur les conditions d'achat et d'usage de la force de travail au sein de ces ateliers. Pour ce qui est des apprentis, il peut paraître impropre de parler de rémunérations et encore moins de salaires puisqu'ils sont théoriquement en période de formation. Dans la plupart des cas pourtant et du fait des changements dans le contenu de l'apprentissage, cette formation n'est que la couverture légale à un salariat déguisé et même à un travail gratuit. La législation marocaine portant sur le travail des enfants, au demeurant assez timide, est fort peu respectée (26).

Les apprentis doivent, en général, se contenter du pourboire du client et du petit pécule donné en signe de gratification par le «mâalem» pour marquer son contentement. Ce n'est que lorsque la qualification de l'apprenti est avérée, que le chef d'unité accorde une rémunération.

Le niveau des salaires des apprentis, dans ce contexte subit constamment la pression de la hausse de la demande d'entrée en apprentissage particulièrement dans les professions mécanisées et jugées de surcroît lucratives. Mesurée par son rapport avec le salaire de l'ouvrier-artisan, dans quelques professions, la rémunération de l'apprenti et de l'aide familial se présente comme suit:

Tableau n° 9 : «salaire» des apprentis et des aides familiaux en pourcentage des salaires des ouvriers-artisans:

Professions	«Salaire» de l'apprenti en % du sal. de l'ouvrier	«Sal.» des aides familiaux en % du sal. de l'ouvrier
Maroquinerie	43 %	—
Tapis et tissage	44 %	—
Vannerie	45 %	—
Dinanderie	50 %	28,75 %
Bijouterie	44 %	16,6 %
Poterie	42 %	7,8 %

Sources du tableau n° 9 — A partir d'une série d'études menées par la Banque Populaire sur l'artisanat en 1977-79

Il faut remarquer que le salaire de l'ouvrier-artisan pris comme référence se situe, à son tour, à un niveau très modeste. A la fin des années soixante-dix le salaire de l'ouvrier-artisan dépassait à peine celui du smigard et restait inférieur à celui de l'ouvrier qualifié de la Promotion Nationale.

En valeur absolue, la rémunération des apprentis peut donc varier de 2 à 3 Dirhams par jour (cas par exemple des petites filles dans la profession du tissage et tapis) à une dizaine de dirhams dans les professions où l'apprenti est déjà en mesure de valoriser une formation professionnelle acquise au compte-goutte.

Le niveau des rémunérations n'a toutefois de signification que par rapport à la durée d'usage de la force de travail. Or, la plupart des ateliers vivent au rythme des saisons; de telle sorte que si pendant une partie de l'année des capacités de travail dont dispose le «patron» sont mises en veilleuse ou tout simplement exclues, durant les saisons où la demande devient pressante ces mêmes ateliers revivent à des cadences effrénées. Dans ces conditions la journée de travail s'allonge, très loin du maximum légal (8 h).

A la lumière des éléments précédents on doit nuancer l'idée selon laquelle le «secteur informel» participe activement aux mouvements d'accumulation et de formation. En fait, il y a lieu de conclure à la formation et au développement d'un véritable phénomène de polarisation d'unités, polarisation dont l'étude commence en premier lieu, par remettre en cause «le secteur informel» en tant que catégorie économique pertinente.

NOTES

- (1) Nous ne comptons pas nous étendre sur ces problèmes de définitions et aux difficultés qui y sont liées. Au lecteur intéressé de voir sur ces aspects notamment:
 — M. DURANT: «Quelques aspects internationaux de l'artisanat» in Economie et humanisme n° 246 Mars-Avril 1979, p.39 et suivantes.
 — J. DUCLAIN: «le monde des métiers en pleine mutation» in Economie et humanisme n° 191, Janv-Fév. 1970.
 — J. ROBERT: L'artisanat et le secteur des métiers dans la France contemporaine, Librairie A. Colin 1966
 — M. ANVOLAT: «L'artisanat dans le système économique» in Economie et Humanisme n° 246, Mars-Avril 1979
 — Pour le cas du Maroc, voir:
 — A. EL KHYARI: «Capitalisme et artisanat au Maroc: 1850-1980», Thèse de Doctorat d'Etat en Sciences Economiques, Casablanca, 1983, p.4, et suivantes.
- (2) L. MASSIGNON: «Enquête sur les corporations musulmanes d'artisans et de commerçants au Maroc», Revue du monde musulman, tome 58, 1924.
- (3) J.L. MIEGE: «Notes sur l'artisanat marocain en 1870», BESM, n° 59 3ème trimestre 1953, p.91
- (4) R. LETOURNEAU: La vie quotidienne à Fès en 1900, Lib. Hachette 1965p.99
- (5) D'après A. EL KHYARI Artisanat et capitalisme, op.cité, p.36
- (6) A. AYACHE, Le Maroc: Bilan d'une colonisation, Editions sociales, 1956, Paris, p.43
- (7) R. LETOURNEAU, Fès avant le protectorat, Publication de l'institut des hautes études marocaines SMLE, 1949.
- (8) J.L. MIEGE: «Documents inédits sur l'artisanat de Rabat et Salé au milieu du 19ème s.», BESM, vol. 23, 1959, n° 82, 2ème trim. p.179, 180
- (9) Du même auteur: «Coton et cotonnades au Maroc au milieu du 19ème s.» Hespéris (3-4) 1959, p.222
- (10) En fait, bien que la production de tapis était fort importante, une partie seulement prenait la forme marchande. Ceci probablement par la concurrence de l'artisanat rural qui produisait plusieurs variétés de tapis.
- (11) J.L. MIEGE: «Documents inédits sur l'artisanat de Rabat-Salé au milieu du XIXème s.» op.cité p.179
- (12) A titre d'exemple, des tentatives de classification sur la base de critères différents sont édictées à considérer. Cellas faites par LETOURNEAU in Fès avant le protectorat op.cité.
 — P. RICARD: «Les métiers manuels à Fès», Hesperis tome IV 1924.
 A. JOLY: «Les industries à Tétouan» ce dernier envisage tour à tour une classification selon la nature, selon les affinités et selon l'importance des secteurs artisanaux.
- (13) R. MANTOUX: La révolution industrielle au XVIIIème s, Ed. Genin Paris 1973.
- (14) R. LECLERC: Le Commerce et l'industrie à Fès, Publication du comité du Maroc, Paris 1905 p.189 et suivantes.
- (15) LETOURNEAU: La vie quotidienne à Fès en 1900, op.cité, p.88
- (16) LETOURNEAU estime que parmi les 10.000 personnes travaillant dans l'artisanat à Fès, 60 % c'est à dire 6000 personnes se consacrent aux deux branches étudiées.
- (17) J.L. MIEGE: «Notes sur l'artisanat marocain», op.cité, p.91
- (18) LETOURNEAU: Fès en 1900, op.cité, p.83-84,
- (19) Voir par exemple C. CAHEN: «Les peuples musulmans dans le monde médiéval» éd. d'Amérique et d'orient, A. Maisonneuve, Damas, 1977.
- (20) C.CAHEN: «Les peuples musulmans dans le monde médiéval», op.cité, p.319
- (21) MASSIGNON: «Enquête sur les corporations d'artisans et de commerçants» op.cité p.99 et suivantes.
- (22) R. LETOURNEAU, Fès avant le protectorat op.cité.
- (24) Ces groupes représentent «les ouvriers et les manœuvres non-agricoles» (6) et «personnes ne pouvant être classées selon la profession» (7). Le contenu professionnel de ces rubriques est évidemment flou en raison de l'hétérogénéité des professions, allant des ouvriers qualifiés et spécialisés de l'industrie aux manœuvres du secteur artisanal, voire même aux chômeurs acceptant n'importe quel emploi.
- (25) Pour une étude plus détaillée de cet aspect, se reporter à :
 — Robert Escaliar: Citadins et espace urbain au Maroc, C.N.R.S. 1981
 — Jamal Eddine TEBAA: «la processus contradictoire de la prolétarianisation au Maroc: évolution et formes» in Revue juridique, politique et économique: du Maroc n° 13/14 1983, Rabat.
- (26) Sur ces aspects se reporter à l'étude de Mr. Amal-Jalal
 1979 بعض الجوانب القانونية لرعاية الطفل بالمغرب» المجلة المغربية للقانون والسياسة والاقتصاد — النصف الأول من سنة 1979 بالرباط.
- et auss; «le travail des enfants au Maroc» in les temps modernes n° 390, Janvier 1979.

Les petits métiers à Meknès : pour les coopératives de production et de main d'œuvre

*Mohamed Salahdine
Faculté de Droit — Fès*

Les petits métiers suscitent un intérêt croissant dans la plupart des pays du Tiers Monde au sommet de la pyramide administrative comme chez les chercheurs. Et une énorme littérature existe maintenant sur ce sujet.

Outre les travaux devenus classiques du Bureau International du Travail on peut dénombrer un chiffre bien honorable concernant la problématique des petites activités urbaines. Et pour cause, les petits métiers connaissent une véritable prolifération et un foisonnement certain dans les villes. On semble même découvrir que ces petites activités sont une composante durable et structurelle de l'économie urbaine et qu'elles offrent une échappatoire d'importance aux effets de l'exode rural en absorbant une bonne partie de la main d'œuvre à la recherche d'un emploi.

Pourvoyeuses de bras, ces micro-unités seraient génératrices de revenus et fourniraient à une fraction croissante de la population des vivres. Elles constitueraient même une réserve de qualification pour le secteur moderne en dispensant une formation sur le tas dans des relations sociales paternalistes et complexes.

Pourtant, pas plus tard que hier (1970), ces petites activités étaient négligées, méconnues et sacrifiées au profit de l'étude exclusive des grandes entreprises industrielles modernes.

L'infirmité de la logique dualiste (secteur moderne/secteur traditionnel) et d'une certaine conception du développement (*) qui inspiraient la réflexion économique ne sont certainement pas étrangères à cette nouvelle optique.

La modernisation de l'économie n'a pas répondu aux espoirs de ses promoteurs. Elle n'a pas abouti à la polarisation capital/travail, mais elle a donné naissance à des phénomènes économiques et sociaux complexes. Le secteur dit moderne n'a pas connu une évolution telle qu'il soit capable de resorber une main d'œuvre provenant de la campagne. L'augmentation de la population et le rythme de croissance de l'exode rural sont en effet sans commune mesure avec le développement industriel et le chômage visible ne suit pas l'évolution des flux migratoires campagnes/villes.

(*) Selon cette conception la croissance économique devrait être atteinte à travers le transfert des technologies et des modèles d'organisation et de gestion de la production plutôt hiérarchiques que participatifs. Le développement ici est également conçu comme un processus d'industrialisation et d'urbanisation poussant les hommes à migrer, à se déplacer, à abandonner leur terrain pour venir s'agglutiner dans les villes et se clochardiser.

Une question s'imposait par elle-même: Comment de nouveaux arrivants de la campagne peuvent-ils subsister et survivre dans les villes sans exercer un travail salarié, stable et déclaré.

D'où la découverte d'un secteur mal connu, informel et non structuré dont il s'agit de comprendre la genèse et les mécanismes fondamentaux de production et de reproduction.

Ce secteur était d'ailleurs devenu trop visible pour être ignoré plus longtemps.

Même si nous ne disposons pas de données statistiques précises à l'échelle nationale, la prédominance des établissements de petites tailles et l'explosion de petits métiers sont des faits majeurs dans l'économie marocaine.

A Casablanca, Fès, Marrakech et Meknès on ne peut pas être frappé par le nombre élevé de petits métiers qui se multiplient. Artisans, tâcherons, horlogers, réparateurs de voitures, marchands de brochettes, guides, cireurs, gardiens de parking... grouillent et s'agitent dans les rues étroites des villes. Payés à la tâche, à la pièce ou en nature et ne bénéficiant d'aucune couverture sociale, ils marchandent tout haut avec les pauvres et les riches; échangent des paroles, des objets et des biens et s'approprient la rue. Le trottoir est leur univers.

Le choix de la ville de Meknès comme terrain d'expérimentation pour cerner les problèmes de l'artisan et les petits métiers est un choix judicieux.

C'est une ville principalement urbaine où l'exode rural est fort élevé. La population de la Province de Meknès a connu un rythme de croissance très important. Elle est passée de 419.934 habitants en 1970 à 555.642 habitants en 1971 et à 626.868 habitants en 1982, se répartissant comme suit:

386.085 habitants en milieu urbain et 240.783 habitants en milieu rural, soit 65 % en milieu urbain et 35 % seulement en milieu rural. En somme, un degré d'urbanisation exceptionnel puisque Meknès est l'une des rares provinces où la population urbaine dépasse la population rurale avec une densité de population de 170 habitants par Km², alors que la moyenne nationale ne dépasse pas 27,8 habitants par km².

Meknès est également une zone suffisamment large et diversifiée pour que s'y rencontrent plusieurs cas de figures de petits métiers et des potentialités importantes d'emploi.

Nous disposons donc maintenant de données essentielles sur les petits métiers à Meknès que le recensement a bien délimités.

On le sait, on compte dans cette ville 105 métiers employant 13.584 personnes (patrons et main d'œuvre compris), dont 78,21 % sont de sexe masculin. Les tailleurs traditionnels viennent nettement en tête avec 1.893 emplois, soit 13,94 % du total, suivis de la broderie occupant 1.528 personnes, (11,25 %); enfin il faut compter 700 à 900 travaillant soit comme menuisiers, tailleurs modernes, coiffeurs ou dans la construction.

Les femmes sont principalement des brodeuses ou tisseuses de tapis, respectivement 51 et 17 % du total de l'effectif.

Cela dit, l'ancienneté dans le métier est une donnée confirmée, puisque

68,26 % des artisans exercent leur activité depuis au moins 6 ans; plus précisément: 35,37 % depuis 15 ans, 7,94 % depuis 12 ans, 11,15 % depuis 9 ans et 13,8 % depuis moins de 5 ans.

Enfin le recensement des petits métiers révèle que 70,45 % sont nés en ville et 28,68 % sont issus du monde rural (*).

En somme, une information précieuse sur les caractéristiques socio-économiques des petits métiers à Meknès, même si, à mon sens, la notion de petits métiers doit inclure les activités informelles, non localisées et les activités de service.

La saisie du phénomène «petits métiers» ne peut se contenter, par commodité, du dénombrement exclusif des petites unités visibles ayant pignon sur rue, disposant d'un local, payant l'impôt ou ayant une qualification reconnue. L'analyse en profondeur et avec autant de précisions sur les activités les plus informelles et les plus refractaires au cadre classique de l'économie politique est tout aussi urgente.

Sans doute la tâche n'est pas aisée quand on cherche à recueillir des informations précises sur des activités de production ou de service non localisées comme les gardiens de parking, les cireurs, les guides clandestins, les marchands ambulants, les colporteurs, les maçons, les vitriers, les employés de maison, etc.

Mais négliger l'informel de l'informel au nom de la difficulté méthodologique ou au nom du coût matériel élevé que cela nécessiterait, c'est une manière d'aborder la problématique des petits métiers de façon partielle et insatisfaisante parce que ce sont ces « marginaux »-là qui posent le plus de problèmes sur le plan social et politique et ce sont ces activités-là qui sont créatrices d'emploi.

Cela dit et au delà de cette observation essentielle dont les implications quant aux résultats du recensement sont notoires, il faut entreprendre maintenant un travail en profondeur pour repérer les grands problèmes des différents métiers et proposer des recommandations réalistes et intelligentes pour améliorer le statut social des agents économiques exerçant ces activités.

Manifestement les petits métiers répondent à un besoin social certain. Ils s'avèrent capables de satisfaire les besoins du consommateur local en vêtements, en habits comme en logements ou en nourriture à des prix généralement fort modestes.

Se situant à proximité des clients et matières premières, ils permettent d'économiser sur les frais généraux et les frais de transport et sont de plus en mesure de fournir un emploi aux travailleurs saisonniers ou temporaires.

Loin de disparaître les petits métiers urbains se développent, se multiplient et s'épanouissent. Et plusieurs facteurs concourent à leur expansion.

L'exode rural s'effectue à une fréquence sans commune mesure avec la création d'emplois industriels (une industrie fondée sur des investissements capitalistiques n'est pas en mesure d'absorber une main d'œuvre aussi importante).

(*) Voir Recensement des petits métiers à Meknès, Délégation du plan, Meknès

Certes, le chômage, les déperditions scolaires et de faibles barrières à l'entrée accusent ce rythme de croissance mais sans doute la poussée démographique, la diminution du niveau de né en milieu rural et la désagrégation des formes de production et d'échange traditionnels sont les causes principales de cette offre débordante de bras en milieu urbain.

La crise des finances publiques, qu'il s'agisse du budget de l'Etat ou du budget des entreprises publiques, et la régression de l'emploi dans les administrations expliquent également leur éclosion. Résultat les petites activités constituent désormais une composante structurelle de l'économie urbaine et répondent à des besoins réels de la population.

Toutefois, les petits métiers connaissent de nombreux problèmes, notamment des problèmes de marketing, de gestion, de comptabilité, d'approvisionnement en matières premières et de financement pour répondre aux dépenses courantes et renouveler leurs équipements. Ils n'ont pas non plus les moyens de fournir des salaires décentes et des conditions de travail équivalents à ce que peut offrir une grande entreprise. Ce qui se traduit à terme par la perte des travailleurs compétents et qualifiés.

Alors, comment pallier à ces différents problèmes? Comment améliorer le statut de ces artisans et quelle est la formule capable de susciter un intérêt durable auprès de ces agents économiques? **La coopérative**, le système coopératif peut être à mon sens un outil judicieux permettant à ces petits producteurs de résoudre des problèmes techniques et financiers, de surmonter les désavantages de la petite dimension et contribuer à réduire le chômage urbain et le sous-emploi. Il peut permettre un meilleur accès au financement, à certaines prestations industrielles et des possibilités non négligeables de formation professionnelle.

Il faut donc dépasser le débat traditionnel en matière de développement économique qui se réduisait à deux thèmes fondamentaux: La privatisation ou l'attachement au secteur public. Le privé ou le public?

La coopérative, forme d'association fondée sur la coordination des fonctions et non sur la subordination et où l'individualité économique des participants est respectée, peut offrir des réponses adéquates aux enjeux économiques actuels et notamment à la crise de l'emploi. L'effort collectif et l'utilisation en commun des moyens de travail valoriserait certainement la production et offrirait aux coopérateurs la possibilité d'augmenter leurs revenus. D'autant plus que le Maroc a une tradition communautaire encore vivace dont il faut tirer avantage et profit.

La coopérative, forme d'association fondée sur la coordination des fonctions et non sur la subordination et où l'individualité économique des participants est respectée, peut offrir des réponses adéquates aux enjeux économiques actuels et notamment à la crise de l'emploi. L'effort collectif et l'utilisation en commun des moyens de travail valoriserait certainement la production et offrirait aux coopérateurs la possibilité d'augmenter leurs revenus. D'autant plus que le Maroc a une tradition communautaire encore vivace dont il faut tirer avantage et profit.

Cela dit, il faut faire observer que la coopérative n'est pas une société commerciale, elle n'a pas pour but de réaliser des bénéfices. «Les excédents des recettes ne sont pas répartis comme dans une société de capitaux mais ris-

tournés proportionnellement aux opérations effectuées par chacun des sociétaires avec l'organisme social».

Le capital ici est un serviteur et non le maître.

Dans les coopératives, les associés s'engagent personnellement et solidairement, ils ne peuvent céder leur part sans le consentement de tous, alors que dans les sociétés de capitaux la personnalité des associés est indifférente.

En revanche, les sociétés commerciales fonctionnent librement, alors que les coopératives sont soumises à une tutelle administrative (présence de l'administration aux réunions, homologation des décisions les plus importantes etc.)

Mais dans la coopérative la notion de service remplace celle de profit et tous les membres obtiennent les mêmes pouvoirs. Et lors de la dissolution d'une coopérative l'excédent d'actif est dévolu à une ou plusieurs coopératives ou à des œuvres d'intérêt général. Enfin le montant remboursé aux sociétaires ne peut en aucun cas dépasser la valeur nominale.

Toutefois, il faut souligner que le système coopératif n'est pas une troisième voie ou une voie intermédiaire entre le capitalisme et le socialisme.

Les économies contemporaines sont intégrées dans un espace international qui impose sa logique de production et de reproduction à l'essentiel des activités économiques, même si le système coopératif peut jouer un rôle d'amortisseur de la crise comme il peut être porteur d'innovations économiques et sociales. N'empêche que l'expérience historique révèle que plusieurs groupes sociaux menacés par des transformations techniques brutales n'ont pu sauvegarder et vitaliser leurs formes de production que grâce à l'associationnisme et au mouvement coopératif.

En effet, les règles qui régissent les coopératives sont porteuses de progrès économique et social:

- La règle d'égalité: un homme, une voix
- La règle des réserves impartageables
- La règle de répartition de l'excédent proportionnellement aux activités des adhérents

et enfin le principe de la liberté d'entrée et de sortie.

En effet, les règles qui régissent les coopératives sont porteuses de progrès économique et social:

- La règle d'égalité: un homme, une voix
- La règle des réserves impartageables
- La règle de répartition de l'excédent proportionnellement aux activités des adhérents et enfin le principe de la liberté d'entrée et de sortie

Au Maroc, le phénomène coopératif est récent et fort modeste, mais a tendance à progresser et à s'affirmer d'autorité.

En 1960 on ne comptait qu'une centaine, en 1975 1.225, en 1983 quelques 3.000 organismes coopératifs et en 1984 3.266 coopératives. Ces chiffres ne tiennent pas compte des sociétés coopératives régies en dehors de l'Office du Développement de la Coopération (O.D.CO.)

Les premières créations se limitaient au secteur agricole et artisanal et aujourd'hui le mouvement coopératif touche en sus à d'autres secteurs: l'habitat,

la pêche, le commerce de détail, les mines, la forêt et la consommation. Mais les premiers secteurs sont largement prédominants. Plus précisément sur 3.266 coopératives en 1984:

- 2.699 sont des coopératives agricoles,
- 347 des coopératives artisanales,
- 148 des coopératives d'habitat,
- 25 des coopératives de pêche,
- 22 des coopératives de consommation,
- 14 des coopératives de mines et
- 10 des coopératives de commerce de détail.

Les coopératives artisanales qui nous préoccupent ici, sont apparues en 1938 sous l'impulsion des autorités coloniales, mais elles ont connu un net essor depuis 1973 suite à de multiples encouragements prodigués par l'Etat:

- octroi de subventions
- facilités de crédits et
- mise à la disposition des coopératives d'un local dans les ensembles artisanaux et d'un directeur payé par l'Etat pour assurer gestion et organisation.

En 1974, on comptait 107 coopératives artisanales,
En 1975 131,
En 1976 145,
En 1977 170,
En 1979 204,
En 1980 225, et
En 1984 347.

En somme une progression lente mais soutenue.

Mais les activités de ces coopératives artisanales ont connu un rythme de croissance fort intéressant puisqu'elles ont atteint 3 Mds de centimes en 1975, 4 Mds en 1976 et 20 Mds en 1980, soit une augmentation de 116 %/1979. Quant aux excédents générés par l'activité coopérative, ils ont dépassé 8 MLs DH en 1979 et 12 MLs en 1980, soit une augmentation de 42 %/1979.

Le nombre des adhérents a également connu une hausse :

- 7.000 en 1977
- 11.027 en 1979 et
- 12.706 en 1980.

Le concours de l'Etat sous forme de subvention doit être souligné.

L'Etat a accordé aux coopératives artisanales entre 70 et 100 MLs de centimes par an entre 1973 et 1980.

Le Plan Quinquennal 1980-1985 prévoit quelques 500 MLs centimes de subventions:

- 50 MLs en 1980,
- 110 MLs en 1982,
- 110 MLs en 1983,
- 110 MLs en 1984 et
- 120 MLs en 1985

Au niveau fiscal les coopératives artisanales bénéficient de certaines exonérations.

Quand on examine les avantages accordés aux coopératives par la loi n° 24-83, on décèle aisément que les entreprises non organisées en coopératives paient en plus :

- Une taxe participative de 0,5 % de la valeur du capital lors de la création de l'entité ou de l'augmentation de son capital
- La patente après les cinq premières années d'exercice
- La taxe urbaine et
- L'impôt sur les bénéfices professionnels.

Enfin, les Banques Populaires accordent des avantages particuliers aux artisans coopérateurs et notamment des crédits à 4 % d'intérêt.

Par ailleurs, le Ministère de l'Artisanat et des Affaires Sociales met à la disposition des coopératives des centres de formation professionnelle, du matériel et des locaux ainsi que des ensembles artisanaux pour exercer leurs activités ou faire des expositions de leurs produits.

Les coopératives bénéficient en sus de cycles de formation en comptabilité, en organisation administrative comme en gestion dispensés par l'O.D.CO. (Office du Développement de la Coopération).

Cependant, il y a lieu de remarquer que les coopératives artisanales sont principalement des coopératives de production (55 %), d'approvisionnement (40 %) et subsidiairement de commercialisation (5 %).

D'autre part, sur un effectif global de 221 coopératives en 1983:

- 32 sont des coopératives de cuir avec 2.786 adhérents,
- 42 des coopératives de textile avec 2.826 adhérents,
- 37 des coopératives de tapis avec 1.310 adhérents,
- 12 des coopératives de céramique et de marbre avec 181 adhérents, et
- 98 autres avec 4.189 adhérents,

soit au total 11.292 adhérents employant plus de 4.612 personnes:

- 1.597 dans le secteur cuir,
- 1.277 dans le secteur textile avec 987 femmes,
- 1.138 dans le secteur tapis, principalement des femmes,
- 67 dans le secteur céramique et marbre et
- 533 dans d'autres coopératives.

La place de la région économique Centre Sud est modeste. En 1983, sur 221 coopératives artisanales actives, 19 seulement se trouvent dans cette région et 11 à Meknès, alors qu'au Nord Ouest il existe 66 coopératives artisanales et 41 au Sud. Pour la seule région de Tensift on en compte 34.

Cette structure se retrouve également quand on examine le nombre des adhérents. Sur 11.292, la région économique Centre Sud intervient à peine pour 542, soit 5 % de l'effectif total, comme le révèle le tableau suivant:

Centre	Centre Sud	Centre Nord	Tensift	Nord Ouest	Sud	Oriental	TOTAL
917	542	1.975	2.645	2.585	1.904	724	11.292

En 1984-85 le nombre de coopératives artisanales s'élève à 357 et 17.576 adhérents. A Meknès on compte à peine 13 coopératives, soit 3,5 % du total et 353 adhérents, soit 2 % de l'effectif global. Sur ces 13 coopératives à Meknès 3 sont inactives (Cf. tableau).

Il faut donc assainir la situation des coopératives artisanales à Meknès, impulser ce secteur et lancer des projets coopératifs expérimentaux et pilotes, d'autant plus qu'on dispose d'une connaissance minutieuse, à la suite du recensement, du secteur artisanal.

Au total le mouvement coopératif s'affirme progressivement, mais plusieurs problèmes demeurent:

1. La plupart des coopératives artisanales sont de simples appendices de la Direction de l'Artisanat et de l'administration. En effet, l'Etat doit favoriser le mouvement coopératif par un statut fiscal favorable, par la création d'organismes conseils et un système de formation professionnelle, mais sans se substituer aux coopérateurs, sans transformer les coopératives en assistés.

2. Le développement de l'esprit coopératif est également un préalable à toute action coopérative. Le mouvement coopératif est né suite à des impératifs économiques et non d'une volonté réelle des concernés. Il n'y pas eu un travail préalable de formation et d'éducation et on a pas suivi le précepte connu : « former des coopérateurs avant des coopératives. »

L'action formation /éducation coopérative est encore minime.

3. Les textes qui régissent les coopératives artisanales datent du Dahir de juin 1938. Un dahir dépassé et qui ne correspond plus à la situation actuelle du secteur artisanal. L'Etat a été amené d'ailleurs à promulguer un cadre juridique unique régissant l'ensemble du mouvement coopératif, la loi n° 24-83 promulguée le 20 février 1985.

Ce texte constitue manifestement un pas qualitatif important et favorisera certainement l'éclosion du mouvement coopératif.

Il autorise en effet les coopératives à exercer leurs actions dans toutes les branches de l'activité humaine (art.3), définit avec précision l'entreprise coopérative, en rappelle les principes fondamentaux, l'organisation et la structure, souligne les avantages accordés aux coopératives et prévoit des sanctions à l'encontre de ceux qui portent atteinte au label coopératif.

Cependant, cette loi n'est pas encore entrée en vigueur et ce, dans l'attente de la promulgation des décrets d'application et des décrets approuvant les statuts-types proposés par les différents secteurs coopératifs.

4. Les coopératives artisanales sont unifonctionnelles, elles sont soit de production, soit d'approvisionnement ou de commercialisation. Il est souhaitable qu'elles soient multifonctionnelles contrôlant l'ensemble de la filière production jusqu'à la distribution et la commercialisation.

5. Le problème de l'approvisionnement en matières premières reste posé. Même si la CONAPEAU et la CONATEX ont tenté d'en réduire l'ampleur. L'instabilité des prix des matières premières importées (peinture pour potiers, mimosa pour les tanneurs, etc.) constitue toujours un handicap sérieux pour le développement de ce secteur.

6. Il serait souhaitable que l'Etat accorde des licences d'importation de matières premières aux coopératives pour qu'elles soient plus compétitives sur le marché interne et international. Contingenter l'importation en provenance du Sud-Est asiatique de produits similaires à ceux produits par les artisans locaux et vendus à des prix défiant toute concurrence est une mesure urgente à entreprendre dans les plus brefs délais car il y va du maintien de tout le secteur artisanal.

7. Enfin, malgré les subventions de l'Etat, les statistiques révèlent que les coopératives artisanales disposent de fonds propres faibles avec une moyenne par adhérent de 1.760 DH. Et encore ce chiffre n'est qu'une moyenne puisque les fonds de la coopérative de fabrication de cuir est de 150 DH, ceux de la coopérative Badr (broderie) sont de 248 DH.

Enfin, pour résoudre les problèmes de financement des coopératives artisanales il serait important de mettre en place un système de collecte d'épargne sous forme coopérative qui soit greffé aux Banques Populaires.

Cette épargne serait constituée par les dépôts effectués par les coopératives au titre de la réserve légale et servirait de garantie aux emprunts que celles-ci contracteraient auprès de ces banques pour assurer les investissements nécessaires à leur développement.

Créer un fonds national inter-sectoriel d'aide et de garantie aux coopératives dont la rentabilité à terme est prouvée est également une idée à retenir. Le financement de ce fond pourrait être assuré par :

- Une dotation de l'Etat au titre de son budget d'investissement et
- par un pourcentage fixé par la loi des excédents nets des coopératives.

En effet, les montants distribués par les Banques Populaires sont faibles et ne correspondent pas aux besoins réels des coopératives artisanales. En 1982, par exemple, les BP n'ont accordé que 124.767 DH aux coopératives artisanales de Meknès. Quand on rapporte cette somme au nombre des artisans producteurs nous obtenons un chiffre ne dépassant pas 500 DH par artisan. En somme, un montant très faible, voire ridicule. Une révision de l'accomplissement des formalités d'action et de remboursement de crédit est donc nécessaire.

Par ailleurs, les métiers dits marginaux posent d'autres types de problèmes qu'il faut également analyser avec autant d'attention, sinon plus. Réprimer les agents économiques qui exercent ces activités n'est pas une solution judicieuse. Rafler les vendeurs ambulants, confisquer des marchandises ou outils des entrepreneurs de construction d'habitat clandestin par exemple ne peut stopper un mouvement rampant de désordre et d'incohérence urbains...

Adopter une stratégie du laisser-faire, intervenir le moins possible, c'est favoriser l'extension incontrôlée du tissu urbain. De toute façon dans la pratique, les pouvoirs publics interviennent et laissent faire. Cette attitude contradictoire révèle l'embarras de l'Etat, mais elle n'est pas irrationnelle. Politiquement, c'est contrôler des poches de résistance virtuelles, économiquement, c'est faire des économies considérables d'investissement en infrastructure ou en services.

N'empêche que ce comportement traduit l'absence d'une politique adéquate en matière d'emploi. L'Etat doit œuvrer en faveur de l'émancipation de l'ensemble des activités génératrices de bas revenus. Les coopératives de main

d'œuvre peuvent à mon sens constituer une solution viable et peu coûteuse pour réduire le chômage parmi les couches sociales les plus défavorisées. C'est une formule capable de susciter un intérêt durable auprès de ceux qui sont sans qualification ou sous-employés.

Les coopératives de main-d'œuvre ne diffèrent pas outre mesure des autres formes coopératives en matière de formation, assistance technique, comptabilité ou gestion mais elles ne nécessitent pas de qualification professionnelle particulière. Un minimum d'apprentissage et un effort physique suffisent. De plus les sociétaires ici n'apportent au départ que leur travail et leur compétence. Le capital, du moins au début, ne joue qu'un rôle mineur.

On pourrait nous rétorquer que la promotion nationale est une formule toute aussi intéressante. Sans doute, mais le mode d'organisation de la PN ne favorise pas chez les travailleurs employés le sens de la responsabilité. Leur participation au travail est fictive ce qui se répercute sur la qualité et la productivité du travail.

Sans parler du fait que la PN risque de développer chez les travailleurs une mentalité d'assistés.

Le groupement volontaire par affinité de travailleurs dans des coopératives de main-d'œuvre réduirait certainement ces lacunes, mais à condition que des gérants qualifiés et dynamiques soient mis à la disposition de ces coopératives pour les impulser et les encadrer. A condition aussi que les coopératives de main d'œuvre soient associées à la réalisation d'une partie des travaux lancés par les pouvoirs publics.

Les coopératives de main d'œuvre peuvent ainsi devenir de véritables lieux de promotion individuelle et collective de petits groupements de personnes sans qualification et à la recherche d'un emploi stable et rémunérateur...

Au total la formule coopérative apparaît comme bien adaptée aux petites et moyennes entreprises artisanales comme au secteur dit informel. Elle peut atténuer les contraintes sociales et économiques qui pèsent sur le développement économique du Maroc.

Les caractéristiques essentielles des coopératives artisanales au Maroc

Année	Nbre coop.	Nombre d'adhé- rents	Capital	Chiffres d'affaires	Excédent	Subventions		Crédits	
						bénéfici- aires	montant	bénéfici- aires	montant
1981	250	13.159	20.000	175.135	12.581	—	—	3.287	18.109.304
1982	285	14.879	23.813	142.004	17.745	25	70 ML cent.	3.803	19.073.000
1983	320	18.000	24.862	281.283	18.725	66	99 ML cent.	4.625	27.792.000
1984	357	17.578	27.552	229.818	19.850	27	24 ML cent.	6.332	47.574.000

Situation des coopératives artisanales à Meknès en 1982

Nombre de coopératives	9
Nombre d'adhérents	289

Achats à des tiers	5.242.094 DH
Ventes à des non adhérents	5.892.311 DH
Excédents réalisés	163.917 DH (dans 8 coopératives)
Perte réalisée	126.185 DH (dans 1 coopérative)
Capital social	653.230 DH
Réserves légales	151.050 DH
Crédits accordés	124.767 DH (à 4 coopératives)

Coopératives artisanales de la Province de Meknès — 1984/1985

Nom de la coopérative	Date de création	Nombre d'adhér.	Capital	Observations
La Menuiserie	1957	63	20.537.00	Non active
Al Ismaïlla	1982	8	11.000.00	
La Tannerie	1951	44	186.812.00	
Chaussures Modernes	1954	17	29.200.00	
Poterie	1977	25	189.800.00	Non active
La Couture moderne	1974	34	12.350.00	
Tisserand	1957	32	11.500.00	Non active
Badr	1982	34	8.450.00	
Al Andaloussi	1980	9	9.000.00	
Mosaïque	1966	28	93.652.00	
Tapis				
Fabrication	1975	8	1.200.00	
Cuir	1986	36	25.650.00	
Carpatim				
L'Africaine				
TOTAL	—	353	630.251.00	

المجلد الثاني

قبيلة المكنيتيين من خلال النقائش والنصوص الاغريقية واللاتينية

الأستاذ محمد مقدون

كلية الآداب والعلوم الانسانية

جامعة سيدي محمد بن عبد الله

فاس

لم تتحدث المصادر الاغريقية واللاتينية عن قبيلة المكنيتيين إلا ابتداء من القرن الميلادي الأول وبشكل عرضي ومقتضب (1)، بالرغم من أنها أثرت على مجرى الأحداث السياسية والدبلوماسية والعسكرية التي شهدتها موريطانيا الطنجية خلال النصف الأخير من القرن الميلادي الثاني وبالضبط في عهدي «ماركوس أوريليوس» (161 — 180 م) و«كومودوس» (180 — 192 م). وحتى الدراسات الحديثة التي تناولت تاريخ القبائل المغربية القديمة لم تولها ما تستحق من الاهتمام وتتخذها كموضوع رئيسي لها (2). إن تاريخ قبيلة المكنيتيين لم ير النور بعد ولم يكتب له لحد الآن أن يدون وينشر. وما بحثنا هذا إلا مساهمة في تسليط بعض الأضواء الباهتة على أهم جوانبه ومحاولة منا لحصر وجمع كل ما يتعلق بها من نقائش ونصوص اغريقية ولاتينية.

فماهي هذه المصادر؟ وماهو أصل المكنيتيين؟ وماهي نوعية العلاقات التي كانت تربطهم بجيرانهم البكواتيين والسلطات الرومانية بوليلي؟

1 - مصادر التاريخ المكنيتي

نتوفر في الوقت الراهن على مجموعة قليلة منها تتألف من نقائش ومصادر أدبية أو نصوص مكتوبة.

1.1 - المصادر الأدبية

تتحصر المصادر الأدبية بالأساس فيما دونه «بطولمايوس» و«ديون كاسيوس» وما نعتز عليه من إشارات في دليل «انطونينوس» والنصوص اللاتينية القديمة التي حققها ونشرها كل من «فريك» و«ريس».

1.1.1 - نص «بطولمايوس» (3)

«يستوطن الميتاكونيتيون مناطق في الولاية قريبة جدا من البوغاز، والسوكوسيون تلك التي تحاذي البحر الايبيري وتمتد شمال الأراضي التي يسيطر عليها الروميون. وانطلاقا من بلاد الميتاكونيتيين نجد على التوالي في اتجاه الجنوب: الماسيكيين والوربيكيين والسالنسيين والكونيين والبكواتيين ثم المكنيتيين. (4).

استقينا هذا النص من المؤلف «وصف الأرض» الذي كتبه بالاغريقية العالم الجغرافي «بطوليموس» حوالي سنة 140 م، معتمدا فيه على المعلومات الواردة عند مجموعة من الكتاب عاشوا خلال القرن الميلادي الأول.

تتناول هذه الوثيقة الحديث عن الكيفية التي تتوزع بها القبائل في الولاية (أي موريطانيا الطنجية) من الشمال الى الجنوب، لكن دون أن نعرف بالدقة أماكن استقرارها والمراكز الحضرية التي تجاورها.

2.1.1 — نص «ديون كاسيوس» (5).

«تقع هذه السلسلة الجبلية (أي الأطلس) في الجانب الغربي من بلاد المكثيين بالقرب من المحيط وهي تفوق علوا كل الجبال الأخرى فتغطيها الثلوج بصفة دائمة وتتحول جزئيا خلال فصل الصيف الى مياه غزيرة تتسبب في الفيضانات التي يشهدها نهر النيل... وليس هناك أي داع للاستغراب إذا كنت قد اكتشفت ما كان يجمله قدماء الاغريق ألا وهو استقرار المكثيين بالقرب من موريطانيا الجنوبية وإمكانية وصول العديد من أفراد القوات المرابطة في هذه الولاية الى سلسلة الأطلس...» (6).

ورد هذا النص في الكتاب الخامس والسبعين من المؤلف «تاريخ رومة» الذي حرره بالاغريقية «ديون كاسيوس» ما بين سنة 193 م التي تميزت بشروعه في التفرغ للتأليف وسنة 216 م التي رافق خلالها الامبراطور «كراكلا» في سفره الى الشرق. ومن المعلوم أن مهامه السياسية والادارية والعسكرية لم تسمح له قبل وبعد هذه الحقبة الزمنية من التعاطي للكتابة، إلا أنها ساعدته على اقتناء معلومات عديدة من الوثائق الرسمية؛ ونشير في هذا الصدد الى أن الأباطرة السيفيريين وضعوا رهن إشارته مصادر متنوعة استعان بها في صياغة مصنفه الضخم عن تاريخ رومة من سنة تأسيسها الى سنة 229 م، ومن المحتمل جدا أنه اطلع خلال مقامه بإفريقيا على وثائق محلية كثيرة واستقى مباشرة من الأهالي أخبارا مهمة تتعلق بأهم القبائل التي كانت تستقر بالموريطانيتين وعلاقتها بالسلطات الرومانية. (7) ومن المرجح كذلك أن الامبراطور «سبتيموس سيفيروس» الذي يفخر بأصله الافريقي قد شجعه على جمع أقصى ما يمكن من المعلومات عن بلدان الشمال الافريقي لتستأثر شؤونها باهتمام الكتاب اللاتينيين وتأخذ نصيبها الأوفر من التدوين التاريخي وتخبرنا بأن عملية بحثه عن المصادر الضرورية تطلبت عدة سنوات، إلا أننا نجهل لحد الان المصادر التي استعملها. ومن الأكيد أنه عمل على تنويعها واستغلالها بكيفية دقيقة وجديدة.

أما النص الذي يعنينا فيستفاد منه من جهة أن نهر النيل ينبع من سلسلة الأطلس ومن جهة أخرى أن مواطن المكثيين يوجد بالقرب من موريطانيا الجنوبية.

3.1.1 — نص «دليل انطونينوس» (8).

«ابتداء من تنگي تمتد موريطانيا أي البلاد التي تستوطنها شعوب متبربرة هي البكواتيون والمكثيون» (9) نجهل لحد الآن الشخص أو مجموعة الأشخاص الذين تكلفوا بمهمة تحريره في عهد الامبراطور «كراكلا» (221 — 217 م)، إلا أن المعلومات التي يتضمنها تمتاز بالدقة وتتعلق أساسا بشبكة الطرق التي تشمل أهم الولايات الرومانية.

4.1.1 — نص «Liber Generationis»

جمع العالم «أ.ريس» العديد من النصوص القديمة المتعلقة بشعوب المعمور (Liber Generationis)

ضمن كتابه الذي نشره تحت عنوان «Geographi latini minores».

ونقدم فيما يلي النص اللاتيني الأصلي الذي يشير الى الشعب المكنيتي :

«Gentes autem quae linguas suas

habent hae sunt... Mauri Bacuates et Massenas, Gaetuli. Afri qui et Barbares, Mazices, Garamantes» (10).

يستفاد من هذا النص أن شعوبا عديدة كانت تستوطن بلدان الشمال الافريقي من بينها البكواتيون والماسينيون (Massenas) وبالطبع فإن هذه الكلمة اللاتينية الأخيرة تذكرنا بعبارة الماكينيتيس (Macenites).

5.1.1 — نص «بوليوس هونوريوس»

عاش هذا الكاتب خلال القرن الميلادي الخامس، وقد وضع مؤلفا بعنوان «وصف الكون» لم تصلنا منه سوى شذرات تولى نشرها العالم «أ.ريس» في مصنفه.

«Geographi latini minores»

وما يهمننا منها هو النص التالي الذي يلمح إلى قبيلة المكنيتيين :

«Fluvius Malva nascitur sub
insulas Fortunatas circuiens extremam
partem Mauretaniae, intercludens inter
Barbares et Bacuates, vergit in mare
quod appellatur Columnae Herculis...
Quinquegentiani gens, Bures gens,
Mazices gens, Musueni gens, Artennites
gens, Barbares gens, Salamaggenites gens,
Bacuates gens, Massyli gens, Abenna gens...» (11).

من جملة القبائل التي استوطنت موريطانيا الغربية يذكر «بوليوس هونوريوس» قبيلة السلامكنيتيين. ومن الواضح أن الجزء الثاني من هذه العبارة يشبه الى حد بعيد لفظة المكنيتيين.

نستنتج من كل ما سبق عرضه أن المصادر الأدبية للتاريخ المكنيتي قليلة جدا وقد دونها ما بين القرن الميلادي الثاني والقرن الميلادي الخامس كتاب لايشك كثيرا في نزاهتهم الفكرية وسلامة منهجهم العلمي.

فيما يخص الموضوع الذي يعيننا لم تتوفر لدينا لحد الان سوى النصوص الخمسة المقتضبة التي تمت الاشارة اليها، الشيء الذي يدعونا الى الاستعانة بمصادر ذات طابع أثري

2.1 — المصادر الأثرية

نعني بها النقائش اللاتينية وخاصة النقيشتين اللتين تم اكتشافهما في ويلي خلال النصف الأول من القرن العشرين وتعلقان بالبكواتيين والمكنيتيين معا.

1.2.1 – النقيشة الأولى

عثر عليها في سنة 1952 بالحلي الغربي لوليلي وهي الان معروضة ضمن النقائش التي تصطف وتنتصب على جانب الطريق المؤدية الى الآثار. وقد قرأ نصها وترجمه العديد من النقوشيين ونشر في أهم المجالات والمؤلفات التاريخية والأثرية (12) ونقدم فيما يلي محتوى هذا النص باللاتينية وترجمته العربية :

«Pro salute Imperatoris Caesaris/
M (arci) Aureli Antonini/Aug (usti) Armeniaci,
Medici, Parthici,/Germanici max (imi),/
Epidius quadratus,/proc (urator) eius,
Conlocut (us) Cum Ucmetio, prin/cipe
gentium **Ma/cennitum et Baqua/tium**».

«تحية للامبراطور قيصر ماركوس أوريليوس انطونينوس المقدس والمنتصر الأكبر في الحروب الأرمينية والميدية والجرمانية. ايبيديوس كوادراتوس والي الامبراطور (على موريطانيا الطنجية) اجتمع باوكميتيو امير قبيلتي المكنتيين والبكواتيين وتحادث معه».

هناك ثلاثة معطيات تساعدنا على تأريخ هذه النقيشة :

– الاشارة الى الامبراطور «ماركوس اوريليوس»

– ايراد لقبه «الجرماني» وعدم ذكر لقبه «السرماطي»

– الحديث عن حاكم موريطانيا الطنجية «ايبيديوس كوادراتوس».

نعلم أن الامبراطور «ماركوس اوريليوس» حكم بمفرده ما بين سنة 169 م وسنة 176 م وأنه حمل لأول مرة لقب «الجرماني» في خريف سنة 173 م ليتخلص منه في نهاية نفس السنة؛ إلا أنه سرعان ما عاد اليه في ربيع سنة 175 م. وفي صيف هذه السنة حمل لقباً ثانياً هو «السرماطي» وربما تم ذلك في شهر غشت (13).

ونعلم كذلك أن «ايبيديوس كوادراتوس» حكم موريطانيا الطنجية في سنة 173 م أو سنة 175 م (14). بحكم كل هذه الاعتبارات ونحو النقيشة من لقب «السرماطي» يمكن أن تؤرخ بخريف سنة 173 م أو ربيع سنة 175 م.

2.2.1. النقيشة الثانية

لقد تم العثور عليها بغرب الفوروم في أواخر القرن الماضي ويعود الفضل في هذا الاكتشاف الى «هنري دو لامرتينيير» الذي تولى التعريف بمحتوى نصها وأفادنا بانها لم توجد قطعة واحدة، بل على شكل جزئين منفصلين (15) :

ونعرض فيما يلي نصها الأصلي باللاتينية وترجمته بالعربية :

«Genio Imp (eratoris)/M (arci) Aureli Antonini.
Aug (usti),/P (ublius) Aelius Crispinus proc (urator),
Conlocutus cum/... 0 princ(ipe) gentium...».

«إلى الامبراطور العبقريّة والمقدّس أوريليوس انطونينوس، بوليبيوس كريسسينوس والي الامبراطور (على موريطنيا الطنجية) اجتمع ب.... أمير القبائل... وتحادث معه».

بالمقارنة مع مضمون النقيشة الأولى، فإن معظم النقوشيين يقرؤون جزءها الأخير كالتالي :

Conlocutus cum (Ucmeti)o, princ(ipe) gentium
(Macennitum et Baquatium)

«اجتمع ب أوكميتيو أمير فيلتي المكنيتين والبكواتيين».

لتأريخ هذه النقيشة، يجب اعتبار المعطيات التالية :

- حكم «ماركوس أوريليوس بمفرده ما بين سنة 169 م وسنة 176 م وبلاشتراك مع «لوكيوس فيروس» ما بين سنة 161 م وسنة 169 م ومع «كومودوس» ما بين سنة 177 م وسنة 180 م.

- الثابت أن «بوليبيوس ايليوس كريسسينوس» حكم موريطنيا الطنجية ما بين سنة 169 م، وسنة 176 م في حين أن «ايبيديوس كوادراتوس» حكم نفس الولاية في سنة 173 م أو في سنة 175 م (16).

- لم يرد في هذه النقيشة ذكر «للقيبي» «الجرماني» و«السرماطي».

نستنتج من كل هذه المعلومات أن النقيشة يمكن تأريخها إما بالفترة المتراوحة ما بين سنة 169 م وبداية خريف سنة 173 م وإما بالفترة المتراوحة ما بين نهاية سنة 173 م ونهاية شتاء سنة 175 م (17).

نستخلص من هذه التوضيحات المتعلقة بالمصادر الأثرية أن النقيشين الأولى والثانية تؤرخان بالفترة المتراوحة ما بين خريف سنة 173 م ونهاية ربيع سنة 175 م. أي خلال المدة التي تميزت بغارات المورين على ولاية بيتيكا بشبه الجزيرة الايبيرية (ما بين سنة 172 م وسنة 173 م أو ما بين نهاية سنة 173 م وبداية سنة 176 م) (18).

2 - أصل المكنيتين وجوانب من تاريخهم

تمدنا المصادر الآتفة الذكر بمعلومات مهمة حول التسمية التي عرف بها المكنيتيون والمناطق التي استقروا بها في موريطنيا الطنجية والعلاقات التي كانت تربطهم بميرانهم البكواتيين والسلطات الرومانية المقيمة بوليبي.

1.2 - إشكالية التسمية

ما بين القرن الميلادي الأول والقرن الميلادي الخامس، اطلق الكتاب القدماء أربعة أسماء على المكنيتيين : الماكانيتيون، الماكنيتيون والماسينيون، والسلاماكنيتيون.

1.1.2 - الماكانيتيون

لم يرد هذا النوع من التسمية إلا في نص «بطوليمائوس» :

«... εἰτα Βακουαται, υφ' οὗς Μακανίται ...»

وتكتب هذه اللفظة الأغرقيية بشكل آخر : Μακανίται

الملاحظ أن النصف الأول لهذه التسمية Μακ α هو الذي يميزها ويجعلها تختلف عن التسميات

الأخرى وأنها تتكون من الحروف الصوامت الرئيسية : م.ك.ن.ت.

2.1.2 — الماكينيتيون

ذكر هذا الاسم عند ديون كاسيوس $Μακκεννιτιδαι$ = بلاد الماكينيتيين $Μακκεννιται$ (Bacavates et Macenites Barbari morantur...).

وفي النقيشتين الأولى والثانية ((Macennitum))

ويوضح تحليل هذه العبارة أنها هي كذلك تتركب بالأساس من الحروف الصوامت م، ك، ن، ت، إلا أنها تنفرد بكون جزئها الأول يضم مقطعين $Μακ$ و $κε$ عوض المقطعين $Μα$ و $α$ المشار إليها سابقاً، مما يعني أنها لا تختلف عن التسمية الأولى إلا بالحركة $ε$ أو $α$ المصاحبة للحرف الصامت $κ$.

3.1.2 — الماسينيون

جاءت هذه التسمية في نص «Liber Generationis» بالضيغة اللفظية اللاتينية التالية :

...Mauri Bacuates et Massenas

حدث تغيير كبير في نسخ تسمية الماكينيتيين الى حد أننا نتساءل هل فعلاً عرف الماكينيتيون باسم «Massenas» أم لا ؟ المقطع الأول لهذه الكلمة هو $Ma (= Μα)$ المعروف، إلا أن مقطعيها الثاني هو ss عوض $αα$ أو $κε (= ce)$ ومقطعيها الثالث هو na عوض $νι$ أو $ννι (= nni, na)$. ومع ذلك، فإن اشتغالها على الحروف الصوامت الثلاثة، م، س ($s = c = x = k$)، ن، وورودها ملتقصة بلفظة «البكواتيين» وفي سياق الحديث عن القبائل والشعوب الأفريقية المعاصرة لها كالجيتوليين والماسيكيين والكرمنتيين، كل هذا يدل على أن الماسينيين ماهم في الحقيقة إلا الماكينيتيون.

4.1.2 — السلاماكينيتيون

نجد هذه التسمية في نص «يوليوس هونوريوس».

«Salamaggenites gens, Bacuates gens ...»

إذا استثنينا عبارة «Sala» التي أضيفت بلا شك خطأ كعنصر من عناصر هذه التسمية، (19)، فإن التركيب اللغوي للفظ «Maggenites» وذكرها الى جانب قبيلة البكواتيين معطيان كافيان للدلالة على أن السلاماكينيتيين هم في الواقع الماكينيتيون.

يتبين من كل هذا التحليل للأسماء التي حملها الماكينيتيون في عهد الرومان أنها تعني شعباً واحداً وتشتق من صيغة لغوية أصلية واحدة تقوم بنيتها على أربع دعائم تنحصر أساساً في الحروف الصامتة م،ك،ن،ت.

2.2 — موطن قبيلة الماكينيتيين

حول هذا الموضوع، تتوفر على المعطيات التالية :

— كل الوثائق المتوفرة لدينا (نقاش ونصوص اغريقية ولاتينية) تثبت أن الماكينيتيين يستقرون بموريطانيا الطنجية وبالضبط بالقرب من البكواتيين. (20).

— في سياق حديثه عن القبائل التي تضمها موريطانيا الطنجية من الشمال الى الجنوب يورد

«بطولمايوس» المكنتيين مباشرة بعد البكواتيين :

«يستوطن الميثاكونيتيون مناطق في الولاية قريبة جدا من البوغاز... وانطلاقا من بلاد الميثاكونيتيين نجد على التوالي في اتجاه الجنوب : الماسيكيين... والبكواتيين ثم المكنتيين» (21).

– استفاد من نص «ديون كاسيوس» المشار اليه في القسم الأول من هذا البحث أن موطن المكنتيين يقع من جهة غرب الأطلس وغير بعيد عن المحيط ومن جهة أخرى في موريطانيا الطنجية.
– ورد عند «يوليوس هونوريوس» أن المكنتيين يعرفون بالسلاماكنيتيين أي المكنتيين الذين يتحكمون في الأراضي الداخلية القريبة من المجرى الأعلى لنهر سلا أو سلات (نهر أبي رقرق حاليا).
– يرى معظم الباحثين أن البكواتيين يستقرون في الأجزاء الشمالية والشمالية الغربية من الأطلس المتوسط الكائنة جنوب ويلي وشمال بلاد المكنتيين وشرق موطن البافاريين (22).

معنى كل هذا أن الأراضي المكنتية تشمل الجزء الشرقي للهضبة الوسطى وكل المناطق في الأطلس المتوسط الأوسط والجنوبي الواقعة شرق المحور «أزرو – خنيفرة» والمشرقة على وادي ملوية.

3.2 – علاقات المكنتيين بالبكواتيين والسلطات الرومانية بولبي

نستمد أهم المعلومات المتعلقة بها من النقيشتين الأولى والثانية المشار اليهما في القسم الأول من هذا البحث.

1.3.2 – علاقات المكنتيين بالبكواتيين

في مجموعة من المصادر المتوفرة لدينا لحد الآن، يرد اسم المكنتيين دائما بجانب اسم البكواتيين، إما قبله أو بعده، (23) لكن لا يكفي هذا للتعرف على نوعية العلاقات القائمة بين الشعبين. الواقع أن حكم الجوار يقضي أن تكون هذه الروابط من حين لآخر متوترة أو سلمية.

لقد أشار «بلينيوس الشيخ» (23 – 79 م) في مؤلفه «التاريخ الطبيعي» الى الأوطولوليين... في حين أن بطولمايوس» ذكر في سنة 140 م بدلا منهم البكواتيين والمكنتيين،

مما يعني أن هذين الشعبين كانا قبل هذه السنة خارج موريطانيا الطنجية أو على الأقل لم يتمكنوا بعد من القضاء على قوة الأوطولوليين والتأثير على مجرى الأحداث في هذه البلاد. ويقوى الاحتمال الأول إذا ما أخذنا بعين الاعتبار المعطى التاريخي التالي :

ما بين سنة 117 م وسنة 122 م، أغار البكواتيون على مدينة كرتينايا (Cartennae) بموريطانيا القيصرية، إلا أنهم فشلوا في مسعاهم هذا فأمر الامبراطور «هادريانوس» بترحيلهم وإرغامهم على الإقامة بالقرب من المكنتيين والأوطولوليين بهدف الحد من شوكة هؤلاء وتهديدهم المستمر لولبي وسلا.

وبالفعل استقر البكواتيون بالقرب من الأطلس المتوسط ومن المحتمل أنهم دخلوا في صراع مع جيرانهم الموريين والرومان، خصوصا وأن الأحوال السياسية في موريطانيا الطنجية خلال القرن الميلادي الثاني كانت جد متأزمة. فقد اجتاحتها الاضطرابات ما بين سنة 144 م وسنة 152 م وأغار الموريون على ولاية بيتيكا مرتين : ما بين سنة 172 م وسنة 173 م وما بين نهاية سنة 173 م وبداية سنة 176 م. والراجح أن بناء الأسوار حول مدينة سلا في سنة 144 م وولبي في سنة 169/168 م له علاقة وثيقة بكل هذه الأزمات ومن المؤكد أن البكواتيين خاضوا ضد جيرانهم المكنتيين عدة حروب ما بين سنة 122 م وأواخر القرن

الميلادي الثاني. إذا كانوا قد انتصروا في العديد منها تحت زعامة أميرهم «ايليوس توكودا»، فإن ورود اسم المكنيتين قبل اسمهم في النقشيتين المشار اليهما أنفا يثبت خضوعهم لهؤلاء خلال السبعينات من القرن الميلادي الثاني ويدل أيضا على أن الأمير «أوكميتيو» مكنيتي الأصل.

2.3.2 — علاقات المكنيتين بالسلطات الرومانية في ويلي

لأنعلم عن طبيعتها لحد الآن إلا ما جاء في النقشيتين اللتين تحملان رقمي 3 و 13 عند «فريزول» ورقمي 348 و 384 عند كاسكو (24). ومفاده أن حاكمي موريطانيا الطنجية «بوليبوس ايبيوس كريسيبنوس» و«ايبيديوس كوادراتوس» اجتمعا ب «أوكميتيو» أمير قبيلتي المكنيتين والبكواتيين وتحدّثا معه، الأول ما بين سنة 169 م وسنة 176 م والثاني في سنة 173 م أو سنة 175 م.

تعني هذه المعطيات أن مصالح الرومان في موريطانيا الطنجية كانت مهددة من قبل التحالف المكنيتي — البكواتي (25). لذا عملوا لاحتالة على حله أو على الأقل أبطال مفعوله عن طريق التفاوض وعقد معاهدات السلم مع أقوى وأخطر المجموعات القبلية المورية المجاورة لويلي وسلا ومراكز حضرية أخرى.

خاتمة عامة

بهذا القدر وهذا الشكل تصور لنا النقائش والنصوص الاغريقية واللاتينية المتوفرة لدينا لحد الآن بعض الجوانب من تاريخ قبيلة المكنيتين التي عاشت ما بين القرن الميلادي الأول والقرن الميلادي الخامس بجوار قبيلة البكواتيين وبالقرب من الأطلس المتوسط وويلي. هل يحق لنا أن نجزم بأن وجودها في هذه المناطق من موريطانيا الغربية قد استمر الى ما بعد الفتح الاسلامي وأنها نفس القبيلة «مكناسة» التي تحدث عنها في القرن الميلادي الرابع عشر المؤرخ الكبير ابن خلدون. ستبقى هذه القضية معلقة الى حين ظهور المزيد من الوثائق.

الهوامش

- (1) ورد الكلام عنها في كتاب «وصف الأرض» الذي ألفه «بطوليمائوس» حوالي سنة 140 ومن المعلوم أن استقى أهم معلوماته من «ماران الصوري» (Marin de Tyr) الذي عاش حتى نهاية القرن الميلادي الأول. انظر في هذا الشأن. Roget, Maroc, p. 12;
- (2) تذكر من بين هذه الدراسات الحديثة :
Carcopino, Maroc antique, pp. 258-275; Frézouls, Baquates, pp. 65-116;
Desanges, Catalogue. pp.33-34; Rebuffat, Baniures, pp. 451-463; Romanelli, Iscrizioni dei Baquati, pp. 1347-1366.
Ptol, IV, 1. 5
- (3) اعتمدنا في هذه الترجمة العربية على الترجمة الفرنسية لـ «رويفا» : Rebuffat, op. cit pp. 460-461 :
DC, LXXV, 13
- (4) اعتمدنا في هذه الترجمة العربية على الترجمة الفرنسية التي وردت عند كركوينو : Carcopino, op.cit, p. 262
نشير في هذا الصدد الى أنه تقلد منصب البروقنصل في هذه البلاد.
- (5) Itin. Ant, I,1 p.2
- (6) اعتمدنا في هذه الترجمة العربية على النص اللاتينية الأصلي وترجمته الفرنسية التي وردت عند كركوينو : Carcopino, op. cit.p.260:
- (7) «(A Tingi Mauretania) id est ubi Bacavates et Macenites Barbari morantur ». «A partir de Tingi, la Maurétanie, c'est à dire le pays où habitent des barbares, les Banquates et les Macenites ».
- (8) Riese, GLM, pp. 166-167.
- (9) Ibid, pp. 53-54.
- (10) IAM-Lat, n°384, pp. 244-245 : لمزيد من المعلومات عن هذه النقيشة، انظر :
Frézouls, op.cit, p. 67, n°3
- (11) IAM-Lat. n° 384, p. 245, Frézouls, op.cit, p. 78.
- (12) IAM-LAT, n° 348, pp. 231-214 : انظر بشأن هذه النقيشة الثانية :
- (13) حول حكم «بوليبوس ايليوس كريسبينوس»، انظر :
Pflaum, carrières pp.494-495, n°182, Thomasson, Die Statthalter, t.II, pp.259,310
- (14) يورخ «فريزول» هذه النقيشة بالفترة المتراوحة ما بين سنة 169 وسنة 176 أو سنة 175 اعتادا على خلوها من لقب «الجرماني» واسم «كومودوس» الذي حكم بالاشتراك مع أبيه ما بين سنة 177 وسنة 180.
أما «كاسكوا» فيؤرخها بالفترة المتراوحة ما بين سنة 169 وسنة 180.
- (15) لمزيد من التفاصيل حول هذا الحدث، انظر :
Thouvenot, Incursions,
- (16) Desanges, op.cit, p. 28, n°11
- (17) انظر في هذا الشأن : القسم الأول من هذا البحث.
- (18) Desanges, op.cit, p.28, n°11
- (19) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر :
Carcopino, op.cit, pp. 258-262, Frézouls, op.cit pp : 95-98, Desanges, op.cit p.30; Rebuffat, op.cit, pp.459-463.
- (20) نجد هذين الأسمين مجتمعين في الوثائق التالية :
- (21) Ptol, IV, 1,5; Itin : Ant, I,1 p.2; Riese, op.cit pp.166-167; Ibid. pp. 53-54.
- (22) IMA-LAT n° 348 : p.213, n° 384 : pp. 244-245. Frézouls, op.cit, n°3 : p.67 n°13 : p.73.
- (23) هذا التحالف لم يعمل الرومان على انشائه ولم يكن انشاؤه في صالحه انظر في هذا الشأن : Frézouls, op.cit p.105.

علاقة ويلي بباديتها في العهد الروماني

الأستاذ علي واحدي

كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
فاس

مقدمة :

إن الحديث عن بادية ويلي يدخل في إطار العلاقة بين المدن والبوادي وهو موضوع شغل بال الباحثين منذ مطلع هذا القرن، وألف عنه الكثير في السنوات الأخيرة سواء عن الفترات التاريخية القديمة أو الفترات اللاحقة، وعقدت في هذا الشأن ندوات على الصعيد الوطني (1) أو العالمي (2) وأهم هذا الموضوع كثير من الباحثين الأوربيين (3). يرى بعضهم أن المدن عبارة عن مراكز استهلاكية وطفيلية وأنها تعيش على منتجات البوادي (4)، بينما يعتبرها البعض الآخر مراكز إشعاع حضاري ومناطق إنتاج وتبادل تجاري (5).

وموضوعنا يتناول الحديث عن بادية ويلي وتحديد مجال نفوذها انطلاقاً من الأبحاث الأثرية الجديدة في نقطة أولى بينما نخصص النقطة الثانية للحديث عن علاقاتها مع باديتها هذه.

1 — تحديد بادية ويلي انطلاقاً من المراكز الأثرية المكتشفة :

دلت الأبحاث الأثرية التي أجريت منذ مطلع هذا القرن بمنطقة ويلي، ان هذه المدينة تتحكم في العهد الروماني في مجال فسيح، قدر فز يزول مساحته بحوالي 150 كلم² وحدده بمثلث يبدأ من فج زكوطة فبلاد الكعدة تم توكولوسيدا (6).

غير أننا إذا ألقينا نظرة على الخريطة التي أثبت فيها لوكي (خريطة رقم 1) أهم المواقع الأثرية والضيعات الفلاحية بمنطقة ويلي (7) تبين لنا مدى اتساع هذا المجال، إذ لا ينحصر فقط في المثلث المذكور بل يتعداه بكثير. ويمكن أن ندعم هذا الرأي بوسائل حماية ويلي المتمثلة في لجوء الرومانيين إلى إنشاء سلسلة من المعسكرات حول هذه المدينة لمراقبة أهم الممرات والطرق المؤدية من ويلي إليها. اكتشفت لحد الآن ثلاثة معسكرات هامة هي : معسكر توكولوسيدا على بعد 5 كيلو مترات جنوب المدينة، ومعسكر سيدي موسى بوفوري في الغرب على بعد حوالي 30 كيلو متراً، ويقع فوق تل من التلال القريبة من عين الجمعة (كروان) (8)، وأخيراً معسكر عين الشكور بالشمال. يساعد موقع هذه المعسكرات على الاتصال فيما بينهما وبالتالي

مع ويلي بواسطة العديد من مراكز المراقبة «Tours de guet» (14 تقريبا). وعلى هذا الأساس يكون مجال ويلي أكثر اتساعا مما تصوره فريزول ويمتد من باب تيسرة (قرب سيدي قاسم) الى توكولوسيدا ومن وادي الردم الى السفوح الشرقية للجبال المطلة على المدينة حتى وادي بني مرعاز.

فهذا الجهاز العسكري يتمثل على شكل مثلث زواياه الثلاث أي زكوطة وسيدي موسى بوفرى وتوكولوسيدا تقوم به معسكرات أو مراكز للحراسة، وتحيط به داخل المثلث وخارجه ضيعات فلاحية ومغارس الأشجار يكاد عددها — كما سنرى بعد — يصل للمائتين.

يمكن تقسيم هذا المجال الفلاحي الى مجالين متباينين :

1.1 — السفوح الجبلية : يمثلها جبل زهون وجبل عبد الكريم وجبل المركب وجبل سهب الحدادة وجبل بوقنفود وكلها كتل قليلة الارتفاع وتساعد على انتشار أشجار الزيتون بكثرة وكذا الغابة حيث تنتشر تربية المواشي.

كل هذه المنتجات الجبلية من غلال الأشجار والمواشي تنقل الى ويلي قبل استهلاكها كالزيتون مثلا.

ولا ننسى ماكانت تقدمه جبال المنطقة من أحجار الكلس للبناء حيث اكتشفت عدة محاجر. إن دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى ارتباط ويلي بهذا الجزء من باديتها التي تزودها بكل ما من شأنه أن يجعلها مدينة هامة في تلك الفترة.

2.1 — السهول :

أسفرت التحريات التي أجراها لوكي في ضواحي ويلي على اكتشاف أزيد من 64 مركزا أثريا منها 20 ضيعة فلاحية، قدر لوكي مساحتها بحوالي 3900 هكتار (9). وكشفت عملية المسح الأثري التي تجرى بالمنطقة منذ سنة 1982 عن أزيد من مائتي مركز منها حوالي 176 ضيعة فلاحية (10). إلا أن المشكلة المطروحة الآن هي تقدير مساحة هذه الضيعات لمعرفة المجال الذي كانت تتحكم فيه ويلي في الفترة التي تهننا، وهي مسألة تتطلب كثيرا من الجهد والبحث. واكتشفت ببادية ويلي ضمن المراكز المذكورة حوالي 13 معصرة للزيتون تضاف الى الثلاث المكتشفة منذ عهد لوكي ليصل العدد الى 16 معصرة، وهي ظاهرة جديدة تثبت أن صناعة الزيت لم تكن وقفا على مدينة ويلي وحدها، بل كان سكان البوادي يقومون بتحويل جزء من منتجاتهم وبالتالي فلم يعد الحضريون يحتكرون صناعة وتسويق هذا المنتج الحيوي.

ومن المشاكل التي تجدر معالجتها هي ملكية الأراضي الفلاحية. بعد أن تطرقنا للمجال الذي تتحكم فيه ويلي، علينا أن نحاول معرفة من كان يملك أراضيه ؟ سكان ويلي أم سكان البوادي المجاورة لها ؟

إن سكوت المصادر المكتوبة عن كثير من هذه التساؤلات يجعل الخوض في هذا الموضوع أمرا عسيراً، ومع ذلك فسنحاول البحث في بعضها بقدر ما تسعفنا به المصادر الأثرية التي اعتمدناها في البحث.

نقتصر هنا على نوعين من المصادر الأثرية فيما يخص ملكية الأراضي الفلاحية :

— البقايا الأثرية التي تظهر تحويل منتجات البوادي داخل ويلي ونكتفي بذكر معاصر الزيتون وعددها

57 معصرة المكتشفة لحد الآن (11)، نضيف إليها العديد من مطاحن الحبوب (12)، فوجودها يدل بما لا يدع

بجلا للشك على مدى ارتباط وليي بباديتها ارتباطا وثيقا.
- النقائش : وتناول هنا نقيشتين تناولتا الملكية في موريطانيا الطنجية ويتعلق الأمر بنقيشة ماركوس فاليريوس سيفيروس M.Valerius Severus الموجودة بوليلي والنقيشة الثانية فتم سكان سلا الذين أقاموا تمثالا للماركوس سولبيكيوس فيليكس، حاكم مدينتهم : (Marcus sulpicius Felix) وتناول ما يهم موضوعنا من النقيشتين :

+ نقيشة ماركوس فاليريوس سيفيروس :

...immunitatem/annorum x, incolas, bona civium bel/lo interfectorum quorum
here/des non extabant suis impetra/...

فيعد الإشارة الى اسم صاحب النقيشة وذكر أهم المناصب السياسية التي تقلدها والمهمة التي من أجلها يقيم مجلس الوليليين تمثالا له، نمر الى العبارات التي تمهنا بالدرجة الأولى وهي :

(الاعفاء من أداء الضرائب لمدة عشر سنوات والتحكم في الأجانب «Incolae» وحق التصرف في ممتلكات المواطنين الذين قتلوا في الحرب ولم يخلفوا ورثة...) (13).

إن كلمة «ممتلكات» كلمة عامة يمكنها أن تشمل أملاك هؤلاء المواطنين داخل المدينة (وليلي) كالمنازل والمتاجر وما إلى ذلك، أو ممتلكاتهم خارج المدينة أي بالبادية كالضيعات الفلاحية ومغارس الزيتون، فلا شك أن بعضا من هؤلاء يمتلكون أراضي فلاحية في منطقة وليلي، ويقتلهم في حركة ايدمون Aedemon تصبح هذه الأراضي ملكا للوليليين الذين انحازوا إلى جانب الرومان حفظا على مصالحهم، وإن صح هذا التأويل تكون بعض الضيعات في ملكية الحضريين. وهذا ما نستفيدة من نقيشة سلا.

+ نقيشة ماركوس سولبيكيوس فيليكس :

اكتشفت هذه النقيشة خلال الحفريات التي أشرف عليها جول بورليي Jules Borély بأطلال شالة في الفترة المتراوحة ما بين شهري نوفمبر 1929 وماي 1930 (14). والاكتشاف في الحقيقة عبارة عن نصب تذكاري به ثلاث نقائش تتعلق كلها بالحاكم المذكور، على أثر انتهاء مأموريته بسلا.

وسنركز كلامنا على النقيشة الموجودة في الجانب الأيمن من النصب التذكاري، وهي مكونة من 32 سطرا (15). وسنأخذ منها ما يهم الموضوع الذي نحن بصدد مناقشته، فبعد الاشارة بمحصال حاكم سلا فنقتطف هذه الفقرة :

mo/deratum, verecundum, mitem, pudicum, ordinis reverentem, populi amentem, sui diligentem, ita liberam copaim silvarum/18 et agrorum praebuisse ut pro tutela operantium frequens excubarit, ita in carteraomni elegantia vitae (a) equabilem egisse/19.

(ملحوظة 18 و 19 هي أرقام سطور النقيشة).

ونحاول ترجمة السطرين 18 و 19 من النقيشة :

«... صديق الشعب، مشغول بأداء واجبه، لذا مهد لنا الطريق للوصول الى غاباتنا وحقولنا بتشديد

الحراسة، مما أمن حياة العمال...».

هذا النص يبين بدوره، وبصرح العبارة أن سكان سلا كانت لهم ممتلكات في البوادي المجاورة لهم، وقد عمل حاكم المدينة على تأمين الطريق المؤدية الى الحقول والغابات، ويدل هذا أيضا على عدم وجود الاستقرار وأن خطرا ما يهدد الحضريين مما استدعى اللجوء الى الحرس لحماية العمال أثناء ممارسة أشغالهم الفلاحية والغابوية، ونستنتج منها أيضا الصراع بين الحضريين وسكان البوادي. والنقيشة مؤرخة بتاريخ 28 أكتوبر 144 م على عهد قنصلية كل من Statilius Maximus, Lollivs Avitus في ظل حكم الامبراطور انطونينوس (138 — 161 م).

نستنتج من النقيشتين المشار إليهما مدى ارتباط المدينة بالبادية وندعم هذا الرأي بكون أغلب المنازل الريفية مزودة بمعاصر الزيتون ومطاحن الحبوب والحمامات ومرافق أخرى كالاستطبالات ومآوي العريبات. فكيف نفسر هذه الظاهرة إن لم يكن أبواب تلك المنازل — رومانيين كانوا أو مترومنين — يملكون ضيعات فلاحية ومغارس الزيتون في البوادي المجاورة ؟

وإذا كان القدماء لم يعيروا اهتماما لمناطق انتشار زراعة الحبوب والزيتون وخاصة في موريطانيا الطنجية، فقد اكتفى بعضهم بذكر ما كان لموريطانيا من دور في تلبية حاجيات رومة في مادة القمح، وهذا ما نستفيد منه مما أورده فلافيوس بوسيفوس «Flavius Joseph» على لسان أكريبيا Agrippa قائلا بأن موريطانيا : «بإمكانها تموين الشعبين في العاصمة (أي رومة) لمدة ثمانية أشهر «مضيفا أن» إفريقيا كانت خزانة لرومة في مادة الحبوب» (16). ونظرا لما تزخر به ويلي من كثرة مطاحن الحبوب يؤكد أهمية منطقتها في هذا المادة.

بعد أن حددنا مناطق نفوذ ويلي المتمثل في خريطة سيدي قاسم الطبوغرافية، يمكن القول بأن لها نفوذا أوسع وصل الى مناطق بعيدة خلف «الليمس» أي هضبة سايس وإن كان المسح الأثري لم يتم بعد في هذه المنطقة لاثبات أو نفي هذا، وكل ما نعرفه أن ويلي كانت تحصل على الصخور البازلتية من الأطلس المتوسط، فكل الارحية المخصصة لطحن الحبوب مصنوعة من هذه المادة. ونعلم أن هذا النوع من الصخور منعدم بجبال زهور (الكلس، المارن، الحجر الرملي) ومنتقل للحديث عن نوعية هذه العلاقات..

2 — نوعية العلاقات بين ويلي وباديتها :

كثير الحديث في السنين الأخيرة عن المدن والبوادي وما تطرحه علاقاتها من تضارب آراء الباحثين، فمن قائل أن المدن مراكز طفيلية تبتلع خيرات البوادي (17). ومن مردد أنها مراكز إنتاج وإشعاع حضاري (18)، وتبين من أعمال الندوة المنعقدة أيام 11 و 12 وماي 1985 بايكس بفرنسا حول مصادر الثروات التي تصرف في المدينة القديمة (19)، أن مصادر الثروات التي تنفق في المدن القديمة متنوعة، فهي فلاحية (20) وصناعية (21) ومعدنية (22) وحرفية (23) وتجارية على الخصوص (24).

اعتمد الباحثون في إثبات أصل هذه الثروات على التأويلات الاقتصادية والاجتماعية في العهد الروماني (40 — 285 م).

يساعد موقع ويلي في سفوح جبال زهور وفي ملتقى الطرق التجارية المؤدية من الشمال الى الجنوب

ومن الشرق الى الغرب على ازدهارها في الميدان الاقتصادي. وقد ثبت ارتباطها بباديتها وبقية جهات موريطانيا الطنجية بل وبقية العالم الروماني من خلال البقايا الأثرية. وتتجلى هذه العلاقات مع البادية في العلاقات السياسية مع القبائل (البكواتيين والمكنيتيين) والعلاقات الاقتصادية. وقد تعمدنا عدم التطرق للمسالك والطرق التي تربط وليلي وبقية جهات موريطانيا (25).

1.2 - العلاقات السياسية بين وليلي وباديتها :

كانت وليلي في الفترة التي تهمنا مركزا حضريا هاما، جلب اليه أنظار الأهالي والأجانب على السواء. وقد ساعدت الحفريات على اكتشاف عدد لا يستهان به من النقائش تبين علاقات وليلي بالقبائل المجاورة لها وعلى الخصوص قبائل البكواتيين والمكنيتيين. ولن نستعرض كل النقائش المعروفة لحد الآن عن هذا الموضوع (15 نقيشة تقريبا). كما أننا لن نتناول النقائش التي أوردها زميلنا محمد مقدون في عرضه، بل نكتفي بالتعرض لثلاث نقائش تتراوح في تأريخها ما بين سنة 140 م وسنة 280 م.

1.1.2 - علاقات وليلي بالقبائل المجاورة لها :

بدأ الصراع بين البكواتيين والرومان منذ عهد هادريانوس Hadrianus وهذا ما تثبته نقيشة عثر عليها في Tenae بموريطانيا القيصرية، ويتبين منها أن البكواتيين عقدوا معاهدة هدنة مع الرومان، ويرجع فريزول تاريخها الى حوالي 117 - 122 م (26).

والغريب أن هذه القبيلة وقعت معاهدة مع حكام وليلي سنة 140 م وهذا ما نستفيده من إحدى النقائش التي عثر عليها بهذا المركز حوالي سنة 1931 (27). والنقيشة عبارة عن نصب تذكاري أقيم على شرف الامبراطور هاريانوس الذي «قهر البكواتيين على حد تعبير كركوينو» (28).

وما يهمننا هنا أن هذه القبيلة تواجدت في نواحي وليلي، وعقد المعاهدة مع حكام وليلي دليل على عدم وجود الاستقرار بالمنطقة، ووقع المعاهدة من الجانب البكواتي أميرهم أيلوس توكودا Aelius Tuccuda.

والنقيشة الثانية : (29) اكتشفت بوليبي سنة 1919 وتشير الى عقد معاهدة صلح بين رومان وليلي وأمير البكواتيين يوليونفوس ابن يوليوماتيف Julio-Nuffus وتؤرخ النقيشة بيوم 24 أكتوبر 277 م أي في عهد الامبراطور بروبيس Probus (276 - 282 م).

والنقيشة الثالثة : (30) وقعت بين الوليليين والبكواتيين ووقعها عن الجانب البكواتي يوليوس ميرزيل Mirzil أخ نفوسي المشار اليه في النقيشة السابقة، ويرجع النقوشيون تأريخ هذه المعاهدة ليوم 13 أبريل 280 م.

استعرضنا هذه النقائش لنبين أن الرومانيين في وليلي لاقوا معارضة شديدة من طرف القبائل البربرية المجاورة وعلى الخصوص البكواتيين والمكنيتيين بالنسبة لوليبي، والاطلوليين Autololes بالنسبة لسلا في العهد الروماني. هذا يعارض الفكرة السائدة عن السلام الروماني Pax Romana الذي يتحدث عنه كثيرا. فالعلاقة بين وليلي الرومانية كانت جد متوترة مع القبائل المجاورة وهذا ما تدل عليه النقائش 15 المكتشفة داخل هذا المركز. فالبكواتيين خلقوا كثيرا من المتاعب لرومان وليلي خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين وعلى الخصوص منذ عهد دريانوس 117 م حتى نهاية القرن الثالث 280 م. ولعل انسحاب الرومان من وليلي نهائيا سنة 285 م بأمر من الامبراطور ديوقليتيا نوس «Diocletien» كان تحت ضغط القبائل التي

كانت تتحكم في هضبة سايس وجبال الأطلس المتوسط، وإن كانت المصادر لا تذكر شيئا منها. مع ذلك يلاحظ من خلال النقائش أن أثر الرومنة توغلت داخل قبيلة البكواتيين.

2.1.2 - رومنة القبائل المجاورة لوليلي :

نلاحظ من خلال استعراض بعض النقائش التي تحدثت عن أمراء البكواتيين أن هؤلاء حملوا أسماء رومانية. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أنهم أصبحوا مواطنين رومانيين. ونكتفي بالإشارة إلى أسماء الأميرين المشار إليهما في النقائش المسالفتين وهما Aelius Tuccada ويوليوس Nuffusi وأخيه يوليوس ميرزبل ليتبين لنا أن أيلوس ويوليوس هي أسماء رومانية إذ كما نعلم أن الاسم الروماني يتكون من ثلاثة أسماء هي الاسم الشخصي Praenomen والاسم العائلي Nomen واللقب Cognomen. وغالبا ما يحمل الشخص اسم سيده.

وهكذا نلاحظ أن الأثر الروماني يظهر على الأقل في التسمية. ونستطيع بذلك تفسير العلاقات الاقتصادية مع هذه القبائل التي كانت صلة وصل بين وليلي ومنتجات الأطلس المتوسط كالأخشاب والمعادن وأحجار البازالت.

2.2 - العلاقات الاقتصادية :

رأينا أن وليلي ترتبط بباديتها ارتباطا وثيقا بحيث تنقل منتجات البادية لتحول داخل المدينة وبذلك أصبحت وليلي وفي الفترة التي تعيننا أهم مركز «صناعي» ونجاري في موريطانيا الطنجية.

1.2.2 - علاقة وليلي بباديتها

- وليلي كمركز صناعي :

اكتشفت بوليلي لحد الآن حوالي 57 معصرة للزيتون مما يبين أن انسان المنطقة اعتنى بغراسة الزيتون خصوصا إذا علمنا أن للزيت في تلك الفترة استعمالات عديدة. فبالإضافة إلى استعمالها للتغذية فإنها تستعمل كإداة للغسل والتنظيف في الحمامات زيادة على التجميل والتطبيب وكونها مصدرا للنور. ولا يتسنى هنا أن نعطي الكثير من التفاصيل عن هذا الميدان (31). بل نحاول تسليط الضوء على أهمية غراسة الزيتون في المنطقة، وما كثرة المعاصر إلا تأييد لذلك، فإذا حاولنا أن نقارن بين عدد معاصر الزيتون الموجودة حاليا في مختلف المراكز الأثرية لموريطانيا الطنجية لاحظنا أن وليلي تأتي في المرتبة الأولى (57 معصرة داخل المدينة و16 خارجها = 73) مقابل 50 معصرة موزعة على الشكل الآتي : 4 في ضواحي سلا، 7 في بناسا وناحيتها، و16 في نواحي ليكسوس، 15 في منطقة طنجة (32). نستنتج إذن أن وليلي ومنطقتها كانت من أهم المناطق الزيتية في موريطانيا الطنجية مما يجعل إمكانية بيع الزيت وتصديره إلى مختلف جهات الولاية الرومانية.

وجدت بوليلي مواد أخرى تدل على ارتباطها بالبادية أهمها المطاحن والمعاجن وأفران الخبز وحرفة البناء (الأحجار). ولا داعي للدخول في التفاصيل. هذه الحرف تتطلب كلها مواد من البادية، فالخشب تنقل إلى المطاحن وما كثرتها وتوزيعها جنبا إلى جنب مع المعاجن إلا دليل على ذلك. والأحجار التي بنيت بها وليلي كلها هي أحجار الكلس والحجر الرملي المنقولة من المحاجر الكثيرة المنتشرة بضاحية المدينة والتي يفوق عددها 40.

- وليلي كمركز تجاري :

إذا كانت وليلي تقدم خدمات إدارية وسياسية فإنها من الناحية الاقتصادية تعتبر من المدن الداخلية، الهامة، فموقعها في منطقة فلاحية جعلها سوقا كبرى تتجمع فيها منتجات البادية لتسوق، أو تحول الى مواد قابلة للاستهلاك، ففيها إذن يلتقي فلاحو المنطقة بالتجار والصناع. ولا شك أن لها علاقات ولو كانت محدودة مع باقي جهات موريطانيا الطنجية.

تدل الأبحاث الأثرية على كون وليلي أكبر مدينة داخلية على الاطلاق في موريطانيا الطنجية، فإذا اعتبرنا منطقة نفوذها فإنها تحكمت في مجال فسيح تعاملت معه في علاقات تجارية متبادلة، بل تعدته الى جهات أخرى كالأطلس مثلا.

فكثرة الدكاكين والمحلات التجارية والحرفية والصناعية تدل دون شك على ما كانت تتمتع به وليلي من دور تجاري في المنطقة. وما يثير الانتباه أن الدكاكين داخل الأحياء مفتوحة على الشوارع الرئيسية للمدينة. إن ظاهرة كثرة الدكاكين على طول الديكومنوس ماكيمسوس Decumamus Maximus فسرها البعض بأزمة اقتصادية منسّت بعض الأسر الغنية مما اضطرها إلى اللجوء إلى كراء الدكاكين الموجودة على الشوارع (33). في حين يرى فيها البعض الآخر ارتفاع الطلب وكثرة الاستهلاك الداعيين إلى التكاثر من إنشاء الدكاكين (34). فهل يسوغ أن نطبق هذه المسألة على وليلي خصوصا خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين فترة ازدهارها ؟

والسؤال الذي يفرض علينا بالحاح هو ماذا كان يباع في هذه الدكاكين ؟ لانتحى طرق الحفريات التي اتبعت منذ مطلع هذا القرن إذ كان المنقبون في بداية الأمر يهتمون بالكشف عن الآثار التاريخية (إظهار الأسوار والبنائيات)، ولم يكونوا يعيرون أي اهتمام للخزف والبقايا — الخشنة في نظرهم — التي تساعد على معرفة أنواع الأدوات الموجودة بالمحلات التجارية. فكانوا يأخذون النقود والتحف الفنية، مما صعب علينا الآن معرفة ما كان يعرض في مختلف هذه الدكاكين. أيا ما كان الحال فوليلي باعتبارها مركزا تجاريا هاما فيصح التحدث عن أنواع متعددة من السلع التي كانت تتقاطر عليها من مختلف جهات الامبراطورية وهذا ما تدل عليه اللقى الأثرية، وأسماء المهاجرين من جميع جهات البحر المتوسط.

سبق أن تحدثنا عن قبائل البكواتيين وما كانت تخلقه من مصاعب لرومان وليلي، ورأينا أن الرومنة تسربت إليهم فيما يخص التسمية، مما يجعل إمكانية قيام نشاط تجاري معهم. فكيف نستطيع الحديث عن علاقات تجارية مع قبائل لم تكن خاضعة لنفوذ الرومان، قبائل كانت تعيش خلف الليمس، بسايس وجبال الأطلس المتوسط ؟

2.2.2 - علاقات وليلي بباقي جهات موريطانيا الطنجية :

إن موقع وليلي جعلها تستقطب الأنظار، والمؤكد أنها ربطت علاقات مع الجنوب — الأطلس — والغرب والشمال.

- مع الأطلس :

تقع جبال الأطلس كما هو معلوم خارج نفوذ السلطة الرومانية، ويجمع جل الباحثين أن توكولوسيدا هي أقصى نقطة رومانية في الجنوب. ومع ذلك فيسوغ لنا أن نتحدث عن علاقات تجارية ربطت وليلي

بمناطق خارجة عن نفوذها نحوها قبائل البكواتيين والمكنيتيين. والواقع أن خضوع القبيلتين لأمير واحد «Vemetio» يجعل الجوار بينهما ثابتا، إذ لا يعقل أن يكون أوكميتيو أميرا على قبيلتين متباعدتين، يرى كركوينو أن الماكنيت يقطنون جنوب البكواتيين فجعل موطنهم بالأطلس المتوسط (35). وإذا كان كذلك أفلا يحق لنا أن نتحدث عن ثبوت علاقات بين وليلي وهذه القبائل؟ خصوصا أن القرائن تدل على وجود أحجار البازالت التي تصنع منها أرحية طعن الحبوب داخل وليلي. فهل كان الوليليون يتجهون إلى الأطلس المتوسط لجلب الأحجار المشار إليها في أوقات السلم مع البكواتيين والمكنيتيين؟ أم كان هؤلاء صلة وصل بين وليلي ومواد الأطلس؟ المهم أن أحجار البازالت شاهدة على أنها نقلت من الأطلس المتوسط وهذا ما يدل على ثبوت العلاقات الاقتصادية مع القبائل التي أخذت تقلد الرومانيين في أسمائهم.

- علاقات وليلي التجارية بباقي الجهات

وجدت وليلي متنفسا في اتجاه الغرب والشمال خصوصا وأنها تعلم أنها تتصل بهذه المناطق بشبكة للمواصلات تحدث عنها القدماء وعلى الخصوص دليل أنطونان Itinéraire d'Antonin (35). وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار المدن الساحلية موانئ لتصدير منتجات وليلي - الفلاحة والمعدنية - واستيراد المواد المصنوعة من الولايات الرومانية الأخرى أو من العاصمة رومة. فوليلي إذن كانت مكان تجميع وتوزيع المواد الفلاحية الموجودة في البادية مباشرة أو بعد تحويلها. وقد أشرنا إلى كونها تأتي في المرتبة الأولى بالنسبة لإنتاج الزيوت بناء على عدد المعاصر الموجودة بها، ولعل فائض الإنتاج كان يوزع على باقي مدن موريطانيا الطنجية.

وإذا كنا نجد في وليلي لقى أثرية بيتيكية «Bétique» أي من اسبانيا وغالية «Gaule» وإيطالية ومن موريطانيا القيصرية وإفريقيا البروقنطية (تونس الحالية) فهذا يدل على أنها استقطبت العديد من التجار من مختلف جهات الامبراطورية. ولا شك أنها تقوم مرة أخرى بعملية توزيع في الاتجاه المعاكس أي توزيع منتجات مستجلبة في مختلف مناطق نفوذها وحتى في أوساط القبائل التي كانت تتعامل معها.

ختاما، نلاحظ أن وليلي كانت أكبر مدينة داخلية، تعاملت تجاريا وسياسيا مع منطقتها، وأنها لم تكن مجرد مركز استهلاك يعيش على حساب منتجات البادية وإنما كانت مدينة منتجة وموزعة لسلع تجلبها من مختلف جهات الامبراطورية. وهكذا يتضح أنها لم تكن معزولة عن العالم رغم كونها مدينة داخلية. وقد ربطت علاقات تجارية مع مختلف الولايات الرومانية القريبة والبعيدة وان اختلفت كمية المبادلات ونوعيتها تبعاً لذلك.

الهوامش

- (1) ندوة «العلاقة بين البوادي والمدن» المنعقدة بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، أيام 13 — 14 — 15 دجنبر 1984 شارك في هذه الندوة عدد من الباحثين في مختلف التخصصات من المغرب والجزائر وتونس.
- (2) « Villes et campagnes, dans l'Empire romain », actes du Colloque organisé à Aix-en provence par l'U.E.R. d'Histoire, les 16 et 17 mai, 1980, textes réunis par P.A. février et philippe Leveau.
- (3) Leveau (PH), Caesarea de Maurétanie et son territoire, contribution à l'étude derapports ville — campagne dans l'empire romain, thèse, de doctorat d'Etat soutenue à l'Université de provence (Aix Marseille I), en 1979, éd. de l'Ecole Française de Rome, 1983.
- (4) Goudineau (ch), réponse à Leveau dan son article, la ville antique, « ville de consommation » ? parasitisme social et économie antique, dans Etudes Rurales 1983, pp. 275-289.
— Max weber, if article de Bruchns cité ci haut.
— Finly, l'économie antique, trad. française de Max Peter Higgs, éd. de minuit, Paris 1975.
- (5) — Février, leveau, villes et campagnes dans l'Empire romain, actes du colloque organisé à Aix-en-Provence, Mai, 1980 (Introduction).
— Février (P.A.), Préface du colloque organisé à Aix-en-Provence les 11 et 12 mai 1984 sur l'origine des richesses dépensées dans la ville antique Aix-en-Provence, 1985, pp. 9 — 17.
— Leveau, la ville antique, « ville de consommation » ? Parasitisme social et économie antique, dans Etudes Rurales, 1983, pp. 275-289.
— Leveau, la ville antique etl'organisation de l'espace rural : villa, ville, village, in ESC, 1983, pp. 920 — 942.
- (6) Frézouls (E), Rome et la Mauritanie Tingitame : un constat d'échec ? in Ant. Africaines, t. 16, 1980, p. 91.
- (7) Luquet (A), contribution à l'Aclas archéologique du Maroc : Région de Volubilis, BAM, V, 1964, fig 1 pp. 291 — 300.
- (8) أجرى الكولونيل براديز Baradez حضريات بالمعسكر سنتي 1951 و1952، وأجريت حضريات أخرى برئاسة موريس لونوار في ربيع 1983 بمشاركة محمد مقدون وعلي واحدي. والمعسكر عبارة عن مربع تقارب مساحته الهكتار.
- (9) Luquet (A), Blé et meunerie à Volubilis, BAM VI, 1966, pp. 301 — 31
- (10) هي نتائج أولية عبر عنها الأستاذان روني روييفا رئيس البعثة (الجانب الفرنسي) والأستاذ عمر أكراز (الجانب المغربي) في مناقشة شفوية أجريتها معهما بوليالي يوم فاتح نوفمبر 1985، بعد انتهاء عملية المسح الأثري بضواحي هذه المدينة بحضور زميلي محمد مقدون فلجميع اعبر عن شكري الجزيل.
- (11) Akerraz, Lenoir, les Huileries de volubilis, in BAM, XIV 1981 — 1982, pp. 63-101 + XIX Planches.
- (12) Luquet, opert, pp. 301 — 316
- (13) اعتمدنا ترجمة محمد مقدون، ثورة ايدمون، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ القديم، نوقشت بتاريخ 1985/6/27 بكلية الآداب والعلوم الانسانية — فاس، نسخة على الآلة الكتابة ص. 241 — 242.
- (14) Carcopino (J), le Maroc antique, Callimard, 10 ed. 1947, pp. 200 — 201.
- (15) انظر النص الكامل للنقيشة
Ibid, p. 211 — 212.

- (16) Flavius, Bell. Jud. on Antitud, II, 16,4.
 (17) Goudineau, Actes sur l'origine des richesses dépensées dans la ville antique, pp. 283-284.
 — Finluy, économie antique, trad. française de Max Peter Higgs, éd. de Minuit, Paris 1975, pp. 255-275.
 (18) Leveau, « Ville antique », ville de consommation, pp. 275-289.
 (19) Actes du colloque organisé à Aix en provence par l'U.E.R. d'histoire, les 11 et 12 mai 1984 sur « L'origine des richesses dépensées dans la ville antique », présentés et réunis par Philippe Leveau, Université de Provence, 1985.
 (20) Le Dinachet, Fortunes hellénistiques et grand commerce d'après les documents épigraphiques, Actescité, pp. 39-45.
 (21) Morel (J.P) la manufacture, moyen d'enrichissement dans l'Italie romaine, op cit, pp. 87-111.
 Mangin, Artisanat et commerce, op cit. pp. 113-131.
 (22) Domergue (L), l'exploitation des mines d'argent de carthago Nova, son impact sur la structure sociale de la cité et sur les dépenses locales à la fin de la République et au début du haut empire, op cit pp. 197-217.
 (23) Garnsey (Peter), les travailleurs du batiment de sardes et l'économie urbaine du Bas-empire, Actes...pp. 147-160.
 (24) Le Dinachet, op cit.

انظر النص الكامل للنقيشة في :

- (25) للمزيد من التفاصيل أنظر بحثنا حول : مكانة وليمي الاقتصادية في عهد الرومان. رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ القديم نسخة على الآلة الكتابة ص. 169 — 179). نوقشت بكلية الآداب بفاس بتاريخ 1986/7/3.
 (26) Frezouls (E), les baquates et la province romaine de Tingitane BAM II, 1957, p. 66 cf CIL, VIII, 9663
 النقيشة محفوظة في متحف الجزائر.
 (27) Ibid, p. 67.
 (28) Carcopino, le Maroc antique, p. 266-267, cf Frézouls, op. cit, p. 67, IAM n° 376.
 (29) Frézouls, op. cit n° 11, pp 71-72, cf aussi ILA n° 610, et IAM n° 361 (Gascon), carcopino op cit, p a 268-269.
 (30) Frézouls, op. cit, p. 70-71 (n° 10), Carcopino, op cit. p 269, IAM, n° 360.
 (31) Akkerraz, Lenoir, op. cit 106 — 88
 انظر أيضا علي واحدي ص
 (32) Akerraz, Lenoir, op cit, p. 95 note 75.
 (33) Etienne (R) le quartier nord-est de volubilis, CNRS, Paris 1960, p. 94.
 — Claval (M) et livêque (p), villes et structures urbaines dans l'occident romain. A. Colin, V, Paris 1979, 166.
 (34) Andreau (J) histoire des séismes et histoire économique, le tremblement de terre de pompéi (62 ap.J.C.), dans Annales ESC, Mars-Avril, 1973, XXVIII, p. 388.
 (35) It. Ant, 9, 1-2, cf Eugennat, « Les voies romaines du Maroc dans l'itinéraire d'Antonin ». coll.Latonus vol. LVIII, 1962, pp. 595-610.

الاتحاف كمصدر من مصادر الدراسة الآركيولوجية وتاريخ الفن بمدينة مكناس

الأستاذ عبد العزيز توري
المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث
الرباط

مقدمة :

تعتبر مكناس إحدى العواصم الثلاث للإمبراطورية المغربية الإسلامية، ومع ذلك فإن هذه المدينة، على عكس شبيبتها مراكش وفاس، لم تزل بعد حقها من اهتمام الباحثين في أمور تاريخ المدن المغربية الإسلامية سواء منها الجانب المدني المحض وتطور جوانبه المتعددة والمختلفة، التي قد تأتينا بتمييزات خاصة بهذه الحاضرة، أو الجانب المعماري والفني.

وفي هذا الباب على وجه الخصوص، تبقى الدراسات قليلة جدا، بل شبه منعدمة مع أن المادة وافرة، ومثيرة للانتباه.

ففي كل ناحية من المدينة بنايات وأسوار شامخة، ومساجد عتيقة وعديدة، ومنازل وقصور خاصة وبخزنية صامدة، ناهيك عن مستلزمات التنظيم والعيش المدني من قنوات للمياه، وسقايات وحوانيت وأسواق ودراريز ومطاحن مائية وغير ذلك مما يدخل في التشييد المعماري المتخصص.

كل ذلك يسترعي الانتباه، ويجلب الأبصار، ويغذي الفضول، والنقاش، لكن إذا نحن حاولنا الوقوف عما كتب ونشر من دراسات أثرية أو دراسات تناولت جوانب من الفنون، كبيرها وصغيرها، تماشيا مع الحقب والأزمنة، فإن بحثنا لن يطول كثيرا، بحيث أن عدد هذه المحاولات لا يفوق اليوم العشرة مقالة أو دراسة⁽¹⁾.

مجموع هذه الدراسات كما يتبين، مكتوب باللغة الفرنسية، فالنص العربي لا يوجد له هنا على الإطلاق، اللهم فيما يخص استعماله واعتماده كمصدر أو كمرجع تاريخي تستفي منه الدراسة الأثرية مادتها التاريخية، لتوجه بحثها في دروب المحاولة التي تقوم بها للوقوف عن العهد أو الفترة التي رأت بناء المعلم أو صياغة هياكله.

معنى ما سبق أن المجال لازال واسعا ومفتوحا أمام الجهود الهادفة الى الكشف عن كنوز التراث الكناسي الغني والمتعدد الأوجه.

وأهمية الآثار والفنون الكناسية تجد ثقلها، في كون مكناس أول حاضرة، همها التشييد العمراني العلوي، بل هي أول منشأة مدنية علوية، وذلك يعني أن أصول الفنون والانجازات المعمارية، ذات الروح والطابع العلويين، توجد أساسا في المنجزات الكناسية، وفي فنونها كبرها وصغيرها.

على أن أهمية مكناس، لاتقف عند هذا الحد، بل تتعداه الى كل ما يهم ظهور مكناس المدينة، وتطورها مع تعاقب الحقب والعهود. فالنصوص التاريخية، وإن تشابكت في عدد من معلوماتها، تشير الى ما قامت به الدول المتعاقبة من عمليات إنشاء وتعمير، لكن المعلومات الخطية هذه لاتفيدها في تفصيل هياكل هذه المنجزات، ويبقى على البحث والتحري الأركيولوجي أن يستخرج هذه الهياكل للتحقق منها قصد الاقرار بها أو نفيها، تقوية للمعرفة التاريخية والحضارية.

لقد كان بودنا والحالة هذه، أن نتقدم أمام حضوركم الكريم بدراسة اركيولوجية حقها، تتناول جوانب مما سبق ذكره، فنكون في نفس الوقت قد ساهمنا في إعادة الاهتمام الأركيولوجي لهذه المدينة وفي التعريف بجانب من التراث المادي للحضارة الاسماعيلية إلا أن انشغالات كثيرة وحواجز لم تكن في الحسبان، حالت دون قيامنا بهذا المجهود، وهو الذي يتطلب، كما يعلم الجميع، وقتا ليس بالقصير، وحضورا مستمرا بعين المكان.

والموضوع الذي نتقدم به اليوم، وإن لم يكن اركيولوجيا بالمعنى الصحيح، فهو له ارتباط وثيق بالبحث الأركيولوجي.

فالوثيقة التاريخية، فيما يخص الأركيولوجيا التاريخية — عكس اركيولوجية عهود ما قبل التاريخ — وثيقة الصلة بالمجهود الميداني، يستعين هذا المجهود بها، ولا يمكنه النزوح عنها أبدا وإن كان توازن التصحيح يميل في أكثر حينه جانب التحري الأركيولوجي.

ورغم ما سبق، فإن النص التاريخي الموروث عن السلف، لم يستغل في مسألة البحث في الآثار والفنون الاسلامية بكيفية علمية وتفسيرية إلا نادرا، ذلك أن معظم الآثاريين لم يروا في كتب الأخبار سوى السند لوقوفهم على تواريخ الانشاء أو الترميم أو إعادته أو ما شابه ذلك من العمليات التي يعتبرها الآثاري هامة في بحثه، الشيء الذي زاغ بهم في أكثر الحالات عن الطريق المؤدي الى أن يولوا اهتماما لما يتضمنه النص من وصف مركز للمنشآت ومرافقها.

وإذا نظرنا إلى كتب الأخبار من وجهة نظر أركيولوجية وجدناها في الحقيقة تنقسم الى قسمين :
أولا — مجموعة يستقي منها الآثاري ما يضيء طريق بحثه خاصة إذا اهتم مؤلفوها بسرد الأخبار مفصلة عن الانشاء والتعمير، حتى تصل ف بعض الأحيان الى مستوى الدليل العماري أو المدني (2).

ثانيا — مجموعة لم يقف مؤلفوها عند سرد الخبر وتقديمه معززا بتواريخ وأحداث، وإنما نظروا إلى الانجاز فوصفوه بقدر الامكان، وقدموا ما تضمنه من زخرفة أو نقش أو كتابة. وهذا النوع هو الذي لم يستغل بما فيه الكفاية.

ومؤلف ابن زيدان «إنحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس» وهو موضوع هذه

المدخل، يجمع ما بين الأمرين : فهو بالدرجة الأولى كتاب أخبار، جمع فيه صاحبه من المعلومات التاريخية والأحداث الشيء الكثير، لكنه في نفس الوقت دليل ثمين لباحث الآثار الكناسية، (3) حتى أن ابن زيدان في بعض مما استطرده، يقوم بشيء مما يقوم به الأركيولوجي أو دارس الفنون نفسه.

وانطلاقاً مما سبق، تمكننا القراءة المتمعة لما يحويه هذا الكتاب من معلومات، من تصنيف هذه الأخيرة حسب محاور ثلاثة :

— المحور الأول : سرد مجموعة أخبار لا يزيغ بها صاحب الاتحاف عن منحنى من سبقه من المؤلفين التقليديين، فهو يروي كل ما استطاع اجتهاده أن يجمعه من معلومات، استقاها طبعاً من مصادر شتى يذكرها كل مرة ويستقصي منها ما يعزز قوله.

ومن أمثلة ما نشير إليه قوله في تآكرارات :

«وقوله (أي الادريسي في نزهة المشتاق) ولم يكن في أيام ملثم الخ الذي ينصرف إليه هذا الوصف عند الاطلاق هو يوسف بن تاشفين فرد تلك الدولة الكامل أعظم أمراء المرابطين... وأيامه كانت في النصف الأخير من القرن الخامس وحينئذ يكون هذا مقتضياً لكون تآكرارات كانت موجودة زمن يوسف بن تاشفين وذلك موافق لما قدمناه عن ياقوت الحموي من أن يوسف هو المختط لمكناس الحادثة أي تآكرارات ولكن قدمنا تصريح ابن غازي من أئمة مكناسة بأن تآكرارات إنما اختطت بعد ظهور الموحدين وذلك إنما كان بعد موت يوسف بستينين وعليه فيحمل الملثم في عبارته على من اختطت تآكرارات في أيامه من أمراء بنييه» (ج 1، ص 61).

هذا المحور يفيد دارس الآثار من وجهتين :

وجهة ضيقة وهي التي توقف فضوله عند حد الاطار الزمني — الحدئي، وهذا أمر لا يوليه الأركيولوجي أكثر من درجته الاخبارية.

وجهة أكثر تعمقاً بحيث تثير فضوله إثارة النص لمسألة تأسيس المدينة المتكلم عنها : أوقع ذلك فعلاً في زمن يوسف ؟ فتكون تآكرارات من منشآت ابن تاشفين المدنية، وهي ما لم نقف عليه إلى يومنا هذا — والقضية هنا أكثر من أن تستدعي تأكيداً على وافر أهميتها في عين من له اهتمام بقضايا الآثار المدنية المغربية بالمعنى العام (القسم الغربي للعالم الإسلامي) — أم أن تآكرارات هي من إنجاز من تولى الأمر بعده ؟ أم أنها موحدية التأسيس ؟

كل هذه التساؤلات بإمكانها أن تتحول الى فرضيات في منهج وتصميم الباحث الأركيولوجي يهدف من وراء طرحها إلى إعطاء عمليات حفره وتحريه وتحليل مادته هدفاً واضحاً ألا وهو التحقق منها جزماً أو نفيًا.

يتعزز هذا الجانب بمثال ثان ينساق بنا في بعض أمور الأركيولوجيا المغربية الاسلامية الراهنة التي يثيرها الاتحاف. يروي «الاتحاف» ما نصه :

«قال في الروض : قيل : وبم تكن مكناسة في القديم ممدنة، وكانت حواثر كثيرة مفرقة وهي تاورا، وبنوعطوش، وبنوبرنوس، وبنوشاوش، وبنوموسي، وهذه كلها على الضفة الغربية من وادي فلفل المذكور، إلا

تاورا فإنها بصفته الغربية والشرقية... قلت... ويعني بكونها أي مكانسة ليست بمدينة، أنها لم تكن مجتمعة الديار ولا عامة المنافع ولا منضمة الشمل بسور حافظ» (ج.1 ص. 50)

فالمثير للانتباه هنا هو وصف أصل المدينة المكناسية من كونها لم تكن مجتمعة الأطراف، بل كانت متعددة الحواثر أي الأجزاء أو الأحياء، وكانت إحدى نواتها وهي تاورا مشيدة على ضفتي وادي فلفل، أو وادي أبي العمائر كما هو معروف؛ وهذه الإشارة، تفرغ مادة جديدة في ملف دراسة أصل المدن المغربية العتيقة، معزة جانب تلك التي كانت أصلا مكونة من ريدين أو عدوتين، والتي لنا في فاس بعدوتها أشهر مثال.

وفي هذا الباب نشير الى أن التحري والمسح الأركيولوجي بمنطقة غمارة من شمال المملكة، توصل الى الوقوف على موقع مدينة تكيكساس، إحدى مدن القرن العاشر الميلادي التي كانت مقر حاكم من حكام أموي الأندلس على المغرب، وهي مدينة شاطئية كانت مكونة كذلك من قسمين أو عدوتين يفصل بينهما متسع هو اليوم طريق يمر منها الذهاب الى السطحية، ويحيط بالمجموع سور لم يزل منه سوى بعض الأبقاض من الناحية الشمالية، ويعزز هذا التحصين خندق عميق من الجهة الغربية يصل عمقه الى 12 مترا تقريبا (4)، فيكون وصف تاورا التي يجعلها ابن زيدان «شرقا، عن يمين الذهاب لزهون، الخارج من باب البرادعيين» (ص.57)، ثالث مدينة مكونة من قسمين يفصل بينهما عامل طبيعي هو في الحالة التي تمنا، كما في حالة فاس، مجرى مائي.

لكن تاورا تنفصل عن مثيلتها السالفتي الذكر بكونها لم تكن محاطة بسور. (5).

من ناحية أخيرة في هذا المحور الاخباري، يثير نص الاتحاف مسألة هامة أخرى، لم يجزم فيها البحث الأركيولوجي بعد، بحيث يبقى كل ما قيل بشأنها من قبيل الفرضيات، يتعلق الأمر بقضية تشييد المساجد المعلقة، وهي التي لعبت دورا أساسيا في الحياة الربدية بالمدن العتيقة المغربية، وذلك لا فيما يعود للجانب الديني فحسب ولكن كذلك فيما يخص تنظيم حياة الأحياء وحماتها.

إن ما أوصل اليه البحث بهذا الصدد هو أن ظهور هذا النوع من التشييد المعماري الديني، كان في عهد المرابطين وأن ازدهاره كان خاصة في عهد ورثتهم الموحديين (6) وجزمت مجموع الدراسات التي اهتمت بالموضوع، أن الجهود اللاحقة لم تعرف مثل هذه المساجد، لكن نص الاتحاف يأتي بعكس ذلك، حيث يقول :

«وأما برج ليلة... فهدم... سنة خمس وتسعين أو أربع وتسعين وزيد موضعه في المدينة حين هدم جميع سورها وزيد ما وراه غربا في المدينة وبقي موضع هذا البرج الى سنة إحدى وعشرين، وبنى في موضعه الوزير أبو زكرياء يحيى المعروف بالمريني سقاية نفيسة ومسجدا فوق صاباط على ممر بين الباب الجديد وباب البرادعيين».... (ج.1، ص. 92).

وما يشير اليه هذا المقتطف بالحرف هو أن تشييد مثل هذه المساجد بقي قائما بمكناس على الأقل الى بداية القرن الثامن عشر الميلادي (7).

ومع كل ما سبق فإن معلومات «الاتحاف» بخصوص هذا المحور الأول، لا تعدو أن تكون معلومات

من درجة ثانية، حيث أنها إنما استقت مادتها من مصادر سابقة، استقصت منها واستنسخت حرفاً أو تعليقا ما يعزز مراهاها، وإن كان ذلك مشفوعاً بمناقشات واستطرادات تظهر مدى تطلع ابن زيدان الى التحقق هو نفسه مما وقف عليه.

لكن نص الاتحاف يأتينا كذلك بما عاينه مؤلفه من أعمال أو ما وقف عليه بعدما تم تشييده قبيل اهتمامه بإلقاء فضوله عليه، فهو يروي ما مر في عهود من عاصره من ملوك الدولة العلوية من أحداث الانشاء والتعمير (8)، وفي هذه الحالة يصبح نص الاتحاف مصدراً أولياً إذعائياً صاحبه تأسيس المعلم مباشرة أو شهد عقود حياته الأولى.

المحور الثاني : وفيه نجد صاحب الاتحاف، في سرد حديثه وتعليقاته عما يأتي به من أخبار، يشير الى مواقع المنشآت والبنائات المعمارية وسط المدينة. لكن هذه الإشارة إما أنها تكون بصريح العبارة، بحيث يوضح عبارات مركزة موضع ما يتناوله حديثه، وإما أنها تكون بالتأكيد عن اسمها العالق بها في أيامه فيكون الاسم هو الدال على موقع المسمى.

ومن أمثلة التوضيح الأول ما نصه :

«أما المسجد (الذي بناه الوزير السابق الذكر)، فلا زال أثره قائم الاطلاع ممتلئاً بالأزبال والقذرات، موقعه على يمين الخارج من باب البرادعيين بمقربة من قبور الشهداء وكان به أثر سقاية وقنوات....» (ج.1، ص. 94).

أما ما يتعلق بالصنف الثاني فمثاله قوله :

«... وأما الحمام البالي فإنه لازال قائم العين الى الحين الحالي إلا أنه لا يعرف اليوم بهذا الوصف، وهو المعروف بحمام مولاي عبد الله بن احمد... وإما الحمام الجديد فإنه مازال قائم العين معروف الاسم الى الآن وأما الحمام الصغير فإنه لم أقف على تعيين مسماه الآن، إلا أن الغالب على الظن أنه حمام التوتة إذ هو أصغر حمام يوجد في البلد مع ظهور قدمه» (ج.1، ص. 112).

واستناداً لهذه الاشارات، الصريح منها والموميء به، يتمكن البحث الأركيولوجي من التفتيش بشيء من السهولة، بل ويصل الى تحديد مكان البناية التي يريد الوقوف عليها.

على أن هذه الفقرة من الاتحاف، المتعلقة بالحمامات الثلاث، تثير فضولاً عميقاً لدى الدارس الأثاري المهم بهذا النوع من البنائات العمومية. ذلك أن هذه الحمامات، على ما أورده ابن غازي في روضه واستنسخه منه ابن زيدان (9)، كانت قائمة الذات أيام الموحدين، ومعلون أن الحمامات المغربية العتيقة لم تدرس بعد، ولم يتجه صوبها فضول ولا اهتمام الدارسين، فلا نعرف مما درس منها سوى العدد القليل جداً (10).

المحور الثالث : وفيه يظهر ابن زيدان على غير عهد من سبقه من المؤرخين، بحيث يتعد عن طرقهم المتعارفة عندهم، والجاري بها العمل عند أكثرهم. ففي عدة أماكن من اتحافه، وخاصة عند تناوله معالم بنائية عظيمة، يرى فيها شأناً وأنفة، يقوم ابن زيدان بوصف دقيق لمرافق المعلن ومحتوياته، وصفاً ملماً لشتى جوانبه، متحريراً الدقة والوضوح على خط سواء. مثال ذلك وصفه للمسجد الأعظم ومنه نقتطف ما يلي :

«... وطول مسجدنا المكناسي من جدار الخراب الى العنزة 20، 39 م، وعرضه من الجدار الشرقي

إلى الجدار الغربي 40،95 م، وطول صحنه 21،14، وعرضه 17،41 م، وعرض الجناح الأيمن 15،22 م، وعرض الجناح الأيسر 11،14 م، وعرض كل ربع من أرباع مناره 5،50 م، وسعة كل جدار منها 1،70 م، وعدد درجها 113 درجة، علو كل درجة 20 سنتم... وطول محراب مسجد هذه الصومعة متران اثنان و80 سنتيما وعرضه متر واحد و70 سنتيما» (ج.1، ص.103 — 105. ج.).

إن ابن زيدان بعمله هذا، يقوم بنفس ما يقوم به الباحث الأركيولوجي المعاصر، الذي يدرس معلمة من المعالم، سواء كانت كاملة الجوانب أو ناقصتها، فالقيام بأخذ مقاييسها مرحلة ضرورية في مثل هذه الدراسات، وهي تتوخى التدقيق فيما تقف عليه من أرقام، لأن فواصل أو أجزاء الأمتار — على ما قد تشير من تساؤلات قد تصل عند من لا يرى فيها فائدة إلى حد الانتقاد — توفقه عند حقيقة وطبيعة المنشآت، وهي التي تعيد كل منشأة إلى فترتها، أو كل جزء من المعلمة إلى العقد الذي شهد تأسيسه، الشيء الذي يحدد بكل أمانة تطور البناء وتحولاته وهو أمر يدخل دون نقاش في انشغالات الباحث الأثري (11).

ومما يركي انسياق ابن زيدان في درب العمل الأركيولوجي، محاولته للالتيان بمقارنات، ومعلومات لم يكن ليأتي بها لولا أنه اهتم بالأبحاث الأثرية الحارية في عهده، والتي استهوت وأثرت فيه لا محالة.

ومما يؤكد ذلك ما نصه :

«... وفيه (المسجد الأعظم) 143 قوسا و من الأساطين 100 أسطوانة و 34 اسطوانة وهذا العدد غير شامل للأساطين المعلقة بالجدران.

(فائدة) أول من أحدث الأساطين للظلال وهي بجانب مسقفة تظل الناس وتكنهم من الشمس والمطر عبد الملك بن مروان وذلك عام 80 م.

وفي المسجد من الصفوف المصطفة المتباعدة الأكناف البالغة في محاسن الأوصاف، تسعة. الصف الأول منها عديم النظير في اتساع العرض، إذ عرضه ستة أمتار وأربعة وثمانون سنتيما، وهذا القدر لم أر ما يحاكيه في عرض صفوف غيره من المساجد. نعم، عرض الأول من جامع المنصور بمراكش يزيد عليه بواحد وأربعين سنتيما، إذ عرضه سبعة أمتار وخمسة وعشرون سنتيما وطوله خمسة وسبعون مترا، أما عرض صفوف جامع بني أمية بدمشق الشام فيفوق الجميع إذ عرض كل بلاط من البلاطات الثلاث نحو التسعة أمتار» (ج.1، ص. 102 — 103).

والطريف في عمل ابن زيدان، أنه يهتم كذلك بالمواد التي تحويها المباني فيصفها وصفا يجعله يقوم ببعض من أعمال دارس ومؤرخ الفن — من ذلك مثلا ما نصه :

«... وفي هذا المسجد العظيم المقدار ثريات ثلاثة من الصفر مكتوب بالدائرة الأولى من كبرها أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، يأيتها الناس اتقوا ربكم واخشوا إله السورة وفي دائرتها الثانية بعد الاستعادة والبسمة والصلاة عليه صلى الله عليه وسلم يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا إله السورة، وفي دائرتها السفلى صنعت الغيرة بمدينة فاس حرسها الله لجامع مكناسة شرفه الله بذكره وكان الفراغ من عملها في العشرين من شهر ذي القعدة عام 604 هـ» (ج.1، ص. 102).

ثم إن ابن زيدان، أغنى مؤلفه كذلك بمجموعة من النصوص المنقوشة على الخشب أو الحدران

النجسية، أو الرخامات التذكارية. فهو بهذا العمل يوفر لنا سجلا أميناً مجرد فيه كل ما يمكنه اجتهاده من الوقوف عليه وضبطه.

على أنه لا يكتفي في كثير من الحالات بتخصيص هذه النصوص الهامة بالنسبة لتاريخ المدينة العام، بالذكر، وإنما يصف خطها المكتوبة به نسخيا كان أو كوفيا، والاطر الحافظ لها، وبذلك يكون قد أطل على جانب، وإن كان صغيرا، من جوانب علم النقائش.

Epigraphie-Paléographie



خاتمة :

لقد حاولنا في هذه المساهمة المتواضعة جلب الاهتمام الى أهمية نص الانحاف بخصوص المهتم بقضايا الآثار والفنون المكناسية، الشاهدة على عرق هذه الحاضرة ودورها من بين أمهات الحواضر المغربية. وإن كنا قد عرجنا على ما استرعى انتباهنا من كون عمل ابن زيدان يلج في غير ما مرة ميادين الدراسة الأثرية والفن وتاريخه، فإن ذلك حقا مثير. لكننا لا نستغرب لسلوك صاحب الانحاف، وهو العارف لما كان يقوم به باحثو الحماية في حينه. من دراسة للآثار والفنون. فهو يشير بصريح العبارة الى أبحاث شاتلان بوليلي (ص 37)، وأبحاث تيسو عن موريطانيا الطنجية، وكلها إشارات تبين مدى اطلاع ابن زيدان واهتمامه بما استجد في وقته من أمور البحث والتحصيل.

وأخيرا فإن ابن زيدان يعترف بأن للآثار دور فعال في علم التاريخ، لذلك اعتمد الكلام عن المخلفات بالتفصيل الذي دللنا عليه ببعض المقتطفات المختصرة. واعترافه هذا هو في ما نصه «ومن طرق استمداده أيضا (أي التاريخ) الآثار القديمة والبناءات الضخمة العظيمة... والاطلال... مع ما اكتشفه علماء الفن من الآثار العجيبة الهائلة ذات البال...» (ج.1، ص. 15 — 17).

الهوامش

- (1) أهم هذه الدراسات هي :
 - SALADIN H. (1915); «les portes des Meknès» **Bulletin Archéologique du comité des travaux historiques et scientifiques**, pp. 242-268
 - TERRASSE H. (1937), **Villes impériales du Maroc**, Arthaud. Grenoble, (s,d), «la mosquée de lalla Aouda à Méknès», ext. du **IV^{ème} congrès de la Fédération des Sociétés Savantes de l'Afrique du Nord**, ed **Société Historique Algérienne**, pp. 1-17.
 - BARRUDAND M. (1976), **L'architecture de la Qasba de Moulay Ismail à Méknès**, E.T.A.M. VI, 2 vol.
 à partir d'exemples de Meknès, **BAMXI**, pp. 115-154-(1978)- Structures et décors des charpentes alaouites (1980) «La spécificité de La ville impériale de Moulay Ismail à Meknès, **BAM.XIII**, sous-presses.
- هذا وقد قامت السيدة أنيس الحيمر (A.Himeur)، وكانت محافظة متحف الجامعي بمكناس، بدراسة لمنازل المدينة العتيقة وذلك في إطار دراسة جامعية ناقشتها مؤخرًا، لكننا لا نتوفر إلى حد الآن لا على نسخة من هذا العمل ولا حتى على عنوانه.
- (2) من ذلك مثلًا «كتاب جني زهرة الاس»، الذي استعمله طيراس لجامع القرويين بفاس، انظر :
 H.Terrasse, la mosquée al-Qaouiyin à Fès, Paris, 1968
- (3) حقا إن هذا المؤلف ليس وثيقة عايشت الأحداث — أحداث المنجزات والتعديلات المتعددة — التي شهدتها مكناس فيما قبل نهاية القرن 19 وبداية 20، بحيث يمكن اعتباره أصليا بالنسبة لهذه الجهود، لكنه مع ذلك، وإن اعتمد النصوص السابقة له في كل ما جاء به عن تاريخ المدينة الأولى وعن تطورها إلى عهد تأليف صاحبه له، فإنه يناقش هذه الآراء، ويزيد فيما يخص الجانب المادي المعماري منها، وصفا وتعميقا.
- (4) انظر :
 A.Bazzana, P.Cressier, R,El-Hraiki, L.Er-Rbati, Y, Montmessin, A. Touri «Première prospection d'archéologie médiévale et islamique dans le nord du Maroc» **BAM XV** , pp. 367-450.
- (5) يصف الأديسي تاورا بقوله :
 «وكانت مدينة تاورا متحضرة جامعة عامرة وأسواقها كثيرة والصناعات بها نافقة، والنعم والفواكه لاتفنى بها حاجة أي لكثرتها ورخصها والماء يأتيها من جنوبها من نهر فينقسم في أعلاها ويمر ما انقسم هناك من المياه فيخترق جميع أزقتها وشوارها وأكثر دورها» (انظر الاتحاف، ج 1، ص. 59).
- وهذا الوصف يكاد ينطبق على مدينة فاس.
- (6) راجع :
 A.Touri, les oratoires de quartier de Fès : essai d'une typologie, thèse : dacty, Paris, 1980 pp. 249-256.
- (7) وهو ما يؤكد عليه ابن زيدان بقوله :
 «... هذا البرج المذكور كان في دولة سيدنا الجد المولى اسماعيل لأنه هو الذي هدم سور المدينة وزاد ما وراءه غربا في المدينة فيكون المراد بسنة خمس في عبارة التقييد المذكور سنة خمس وتسعين بعد الألف»... (نفس الصفحة). وهذه السنة توافق سنة 1683 — 1684 م. أما عبارة «سنة إحدى وعشرين» فتعني 1121 هـ الموافقة لـ 1709 — 1710 م.
- (8) وهو ما نجده بتفصيل ما بين الصفحة 212 والصفحة 231 من الجزء الأول.

(9) «قال في الروض : وكان بهذه المدينة في أيام الموحدين ثلاث حمامات : البالي والجديد والصغير...» إنحاف، ج 1، ص. 111.

(10) من هذه الدراسات تلك التي قام بها هنري طيراس لثلاث حمامات مرينية، انظر :
H.Terrasse, «Trois bains mérinides du Maroc»: Mélanges William Marçais Paris, Maisonneuve, 1950, pp. 311-320.

(11) نشير هذا الجانب لجلب الانتباه الى أن طرق البناء والزخرفة والتنسيق، اختلفت باختلاف العصور، وتطورت تحت تأثير عوامل التحولات الداخلية والاحتكاك بالبلاد الأجنبية، فكل فترة اختلفت بخصوصيات، واضحة في بعض من جوانبها، ضعيفة الوضوح في البعض الآخر، بحيث يستدعي الوقوف عليها ملاحظة وعمنا أكبر وأدق. وهذا ما يؤدي اليه، في كل عمل اركيولوجي، الحرص على ضبط الجزئيات وعدم اعتبارها غير مفيدة.
ولا يقف التدقيق هنا عند حد الحجم أو المقاييس، وإنما يتعداه كلما تيسر فعل ذلك الى التحليل المخبري الدقيق لمادة البناء أو الصياغة، وهذا أمر أساسي كذلك فيما يخص الأعمال المهمة بالترميم، وعدم احترام مبادئه يؤدي في أغلب الحالات إلى تشويه المادة المرمة وإتلاف طابعها، وهي أشياء نعيشها للأسف الشديد، في أغلب حالات الترميم ببلادنا.



توضيح

المصادر والمراجع الواردة بالهامش تذكر وضعيتها عند الاحالة الأولى : المطبعة أو الناشر وبلد ذلك وتاريخه إن كان، ولا يتكرر ذلك في الاحالات التالية.

مدائن مكناسة القديمة من العصر الادريسي إلى أواخر عصر الموحدين

الأستاذ محمد المنوي

كلية الآداب والعلوم الانسانية

جامعة محمد الخامس

الرباط

مدخل

1 يصعد الزباني (1) بالبدايات الأولى لتأسيس مكناسة الى تاريخ ما قبل الاسم، ثم يحدد مؤلف فرنسي (2) هذه الفترة بالقرن 4 ق.م.

وفي العصر الاسلامي بدأ اسمها—كمدينة — يبرز مع مطالع القرن 9/3، فيأتي ذكرها بين المناطق التي اضطلع بولايتها الأمير الادريسي أحمد بن الامام الادريسي الثاني، وقد وردت في المصدر المعني (3) باسم «مدينة مكناسة». ثم جاء ذكرها باسم «مكناسة الزيتون» عند ابن حزم (4) المتوفى عام 1064/456، فأفاد بهذا أن إضافة المدينة للزيتون كانت معروفة منذ النصف الأول من القرن 11/5، وقد تكون هذه الاضافة تنظر إلى أن إحدى الجهات القريبة من مكناسة كانت تحمل اسم «وادي الزيتون» (5)، فسميت المدينة بمكناسة الزيتون حتى تتميز عن مكناسة تازا، ومكناسة الأندلس (6).

وقبل تأسيس «تاكثرت» كان اسم مكناسة يطلق على مجموعة — غير مسورة — من المدن الصغيرة والقرى تتفاوت في حجمها، وتقع عند الشمال الغربي لمكناسة الحالية، فتسمى بمكناسة أو مكناسة الزيتون، ومرات بمدائن مكناسة (7) أو حوائر (8) أو قرى مكناسة (9)، ومع مر الزمن بلغ عدد هذه المدائن والقرى 14 مركزا، وقبل القرن 12/6 كان المعروف منها لا يتعدى اثنتين : «ورزيفة» و«عوسجة».

مكناسة القديمة أيام الادارسة وزناتة :

(1) وأول ذكر لـ «ورزيفة» كان خلال العصر الادريسي الأول، عن طريق نقش اسمها على خمسة نقود ادريسية، في تواريخ 224، 226، 234، 240، 247 هـ، بموافقه سنوات 838، 840، 848، 854، 861 (10).

وهو واقع يشير الى أن ورزيفة كان بها معمل للنقود في هذا العصر، وقد يتبع ذلك أن تكون هي المركز الاداري لمنطقة مكناسة الادريسية. وفي عصر مغراوة — خلال القرن 11/5 — يذكرها البكري (11)

باسم «مدينة ورزيفة»، ويصفها بأنها آهلة، كثيرة المياه والثمار والخير... ويعقب بالاشارة الى غارة عليها — من عام 35/324 — 936 — قام بها القائد الفاطمي مسور الفتى، فقتل أهلها وسبى نساءها. وهي إشارة تؤكد المركزية الادارية لهذه المدينة، على أنه قد يكون من مخلفات المعركة تراجع أهمية ورزيفة كقاعدة ادارية، ومع هذا استمر عمرانها بعد ذلك، وكانت — حسب ابن غازي (12) — آخر ما خرب من حواثر مكناسة.

(2) ويبدو أن الذي خلف مركزية ورزيفة، هي مدينة «عوسجة»، وكان موقعها بجوار سابقتها مما يلي وادي ويسلن (13)، وهي المدينة الثانية التي كانت مذكورة قبل القرن 12/6.

وقد صارت — بدورها — قاعدة للأمير الادريسي حمزة بن علي بن عمر بن المولى ادريس الثاني، فيذكره البكري (14) : «ومدينته التي كانت تدعى ببني عوسجة»، ويشير الى بابها.

ثم صارت المدينة ذاتها مركزا لأمر مكناس الزناتي : المهدي بن يوسف سنة 1063/455، وفي تعبير ابن زرع (15) «... فتجهز المهدي وخرج في جيشه من مدينة عوسجة...».

وبعد هذا يحتفي ذكر «عوسجة» كمدينة، ويستمر اسمها تتميز به بعض مواضع من ورزيفة (16)، وقد اندمجت فيها سابقتها، كما سيندلج في ورزيفة كل من مدينتي بني مروان وبني غفجوم (17)، فهي أربعة مدن تستوعبها ورزيفة، وقد تكون هي التي يشير لها الزياتي (18) : «مدينة ورزيفة بمكناس كانوا أربعة مدن خرجوا».

مكناسة القديمة أيام المرابطين والموحدين :

وإلى هنا نتبين أن ورزيفة وعوسجة هما المدينتان المذكورتان قبل القرن 12/6، وخلال النصف الأول من نفس القرن يرقى الادريسي (19) بمدائن مكناسة وقراها إلى سبعة أسماء :

— مدينة بني زياد

— مدينة بني تاورة

— مدينة القصر

— مدينة بني عطوش

— بني برنوس

— قصر أبي موسى

— السوق القديمة

وبعد الادريسي يستعرض كتاب «الاستبصار» (20) أكثر هذه المدائن ومعها سواها، وقد كان جميعها قائما في عصره عام 1191/587، وهكذا يقول عن مدينة مكناس :

— «وفيها — اليوم — تسع خطب : في الحصن خطبة.

— وفي المدينة المسماة السوق القديم : خطبة.

— وفي تاورا : خطبة

— وفي أولاد عطوش : خطبة

- وفي أولاد برنوس : خطبة
- وفي بني موسى : خطبة
- وفي بني زياد
- وفي بني ورزيفة
- وفي بني مروان».

ويضيف ابن غازي (21) لهذه اللائحة وسابقتها أربعة أسماء :

- بني شلوش
- وبني غفجوم
- وقرية الأندلس
- وبني عبدوس.

وهنا تنتهي إضافة ابن غازي لفقرتي الأديسي وكتاب الاستبصار، وقد تداخلت الفقرتان بالنسبة لأسماء عدد من المدن، على أن «الاستبصار» ذكر حارة بني موسى باسمها، بدل تسميتها — غلطا — عند الأديسي بقصر أبي موسى...

ويتبين من المصادر الثلاثة أن عدد المدائن والقرى التي كانت معروفة بمكناسة القديمة يبلغ 13، فإذا أضيف لها «عوسجة» يصير المجموع 14 مركزا، دون أن يدخل في العد الحصن الذي صدر «الاستبصار» بذكره، اعتبارا بأن هذا هو نفس مكناسة تكثرت (22)، وليست من موضوع بحثنا.

وقد استمرت هذه المدائن والقرى مزدهرة، الى أن أخذ عمرانها يتراجع من صدر المائة 13/7، قال ابن غازي (23) بعد ما ذكر مدائن مكناسة وقراها :

«ومثت هذه البلاد وعمرت، ولم تزل في نمو وقوة حتى انتهت مجابها الى مئين من الآلاف، ثم اختلت بحور العمال، وأخذت في النقص من سنة كائنه العقاب، وكانت كائنه العقاب في صفر من سنة تسع وستائة، ثم تفاقم الأمر عند قيام بني مرين على الموحدين، وأتت الفتنة على الحوائر المذكورة كلها ودرت، ولم يبق منها إلا الصوامع والجدران العتيقة، وآخر ماخرب منها ودرت ورزيفة، بعدما كانت هذه الحوائر شاركت المدينة المذكورة — بعد بنائها — في كثرة العمارة».

وفي فقرة أخرى لنفس المصدر (24) : «... ثم بعد ذلك استخلص بنو مرين بلاد المغرب كلها واستقلوا بالأمر، وصلحت أحوال مدينة مكناس، ولم تعد العمارة بعد ذلك — والله أعلم — لحوادثها، بل صارت كلها جنات وغرس الناس على ردمها، وقد بقي من ذلك لهذا العهد صومعة بني موسى (25)، وصومعة بني زياد، ومسجد السور القديم وصومعته، وحمام بني مروان : في عرصة يقال لها — اليوم — عرصة الحمام، وسقطت صومعة تاورا لنحو ستين سنة».

وهكذا صار وضع مدائن مكناسة القديمة في عصر ابن غازي (26)، وبعده لم يبق من تلك الحارات إلا مواقعها، في ساحة تمتد — نحو 5 كلم — عند الشمال الغربي لمكناسة الحالية، كما لم يبق — الآن — مذكورا من الأسماء القديمة سوى تاورا وبني موسى وورزيفة.

وإن استمرار هذه الأسماء من شأنه أن يقيد — ولو الى حد — في تعيين مواقع الحارات الثلاث،

وبواسطتها يمكن أن نعرف — على وجه التقريب — مواقع بقية الحارات التي تتركب منها مكناسة القديمة. وذلك ما يحاوله العرض التالي مع إضافات للتعريف ببعض المواقع :

فهن بني زياد : يأتي في وثيقة : «... فدان العقبة ببني زياد من بني موسى (27)».

وفي وثيقة أخرى : «... كافة الجنان السقي الكائن ببني زياد بسيدي أبي علي منصور (28)»، وهذا مدفنه ببني موسى.

وعن قرية الأندلس يقول ابن غازي (29) : «وهناك قرية كان يقال لها قرية الأندلس كانت من عمل بني زياد... وهذه القرية — والله تعالى أعلم — هي المسماة في هذه الأعصر «تلاجدوت»، وبها جرى المثل السائر : **دار الكرامة يا تلاجدوت**».

و«تلاجدوت» اندثرت، ولم يستمر اسمها إلا في بعض الوثائق، فتحدد مكانها بأنه أسفل المشهد المنسوب لسيدي عبد العزيز مجاورا له (30)، وهذا ضريحه معروف ببني موسى قريبا من «جنان العريفة»، حيث لا يزال قائم الاسم والعين.

أما «دار الكرامة» في فقرة ابن غازي : فيمكن أنها كانت مؤسسة موحدة تكريمية، شبيهة دار الضيافة المعروفة ب «دار الكرامة» في مدينة تامرا كشت أيام الموحدين (31).

القصر : يذكر عنه الأدريسي (32) : «وبين تاورة وبني زياد مدينتان صغيرتان : إحداهما القصر وهي مدينة صغيرة في الطريق من تاكررت إلى السوق القديمة على رميتي سهم، وهذه المدينة بناها أمير من أمراء الملمثين، وجعل لها سورا حصينا، وبني بها قصرا حسنا، ولم تكن بها أسواق كثيرة ولا طائل تجارات، وإنما كان ذلك الأمير يسكنها مع جلة بني عمه».

ويقول ابن غازي (33) عن هذا القصر : «وكان واليها (مدائن مكناسة) يسكن قصرا أدركه القدماء خربا يعرف بقصر ترزكين، ولعل جيمه معقودة، وهو على روبة من الأرض : شرقا من بني زياد، وغربا من وادي فلفل وجوفا (شمالا) من المدينة الآن».

وعن مدينة بني عطوش : يعقب الأدريسي (34) على فقرة «القصر» : «والمدينة الأخرى في شرقي المدينة : تعرف ببني عطوش».

وأسفل من هذه — حسب نفس المصدر (35) — كان موقع بني برونوس، وهو اسم بقي معروفا إلى صدر القرن 17/11، فيأتي ذكر الجنان السقي الكائن ببني برونوس، في وثيقة (36) تحمل تاريخ أول ذي القعدة 1619/1029.

ويحدد ابن غازي (37) موقع السوق القديم بأنه — على أرض مرتفعة — بإزاء قصر ترزكين سابق الذكر، ويسميه بسوق الغبار (38)، ثم يضيف أن مسجده وصومعته لا يزالان قائمين إلى فترة تأليف الروض الهتون.

وفي تعليق لابن زيدان (39) على فقرة ابن غازي : «وأما سوق الغبار الذي وصفه فلا يعرف له — اليوم — اسم ولا رسم، نعم ما وصفه ابن غازي به يكاد ينطبق على الخلل المعروف بذراع اللوز الكائن

خارج باب البرادعيين...» ومن الجدير بالذكر أن هذا السوق امتد ذكره الى بعض الوثائق القديمة في هذه الفقرة : «... وزيتونتان بفدان المنزه قرب السوق القديم» (40).

وسيكون السوق القديم سادس المدن أو القرى التي وقع التعريف بمواقعها، كما تبينا عند صدر هذا العرض أماكن كل من تاورة وبنى موسى وورزيغة، وقد اندمج في هذه الأخيرة — حسب عرض سابق — حارات عوسجة وبنى مروان (41) وبنى غفجوم، فهي 12 مدينة قديمة صارت مراكزها معروفة على وجه التقريب.

ويبقى — بعد هذا — حارتا بنى شلوش وبنى عبدوس، ولا أتیین الآن مواقعهما.

وعن أحجام هذه المدن والقرى : يتبين أنها متفاوتة في أوضاعها بين مستوى المدينة الصغيرة أو القرية.

فالبكري يسمى كلا من ورزيغة وعوسجة بالمدينة (42)، والادريسي (43) يصف بالمدينة كلا من بنى زياد وبنى تاورة، ويعقب بمدينتين صغيرتين : مدينة القصر، ومدينة بنى عطوش، ويقول عن بنى زياد : «ولم يكن في أيام المثلث — بعد تآكررت — أعمار قطرا من بنى زياد».

وكتاب الاستبصار (44) يخطط السوق القديم بوسم المدينة بينا ياقوت (45) يذكر — مع تآكررت — مدينة ثانية ويجعل صاحب الروض المعطار (46) مكناسة الزيتون أربع مدن، يقصد تآكررت وثلاثة معها.

وإن وصف ابن غازي (47) لتاورة يضعها في صف المدن العامرة.

وأخيرا : فإن الزباني (48) يذكر أن ورزيغة كانت تستوعب أربع مدن.

على أن هناك مداشر — مذكورة — ضمن بعض الحارات، فتعرف منها — الآن أربعة :

— ومدشر ابن عبد الملك بالرداية (49).

— ومدشر أبي علي بن منصور في بنى موسى (50).

— ومدشر ابن الصباغ بورزيغة (51).

— ومدشر أولاد ابن أبي العافية بعوسجة (52).

السكان :

نتنقل — الآن — إلى التركيب السكاني للمنطقة على ندرة المصادر المساعدة، مع الاستفادة — أحيانا — مع الاستنتاجات الطبوغرافية. ومن الواضح أن سكان مكناسة القديمة يرجعون — أصالة — إلى قبيل مكناسة : السكان الأولين بالمنطقة، وبينهم القبائل الذين استمرت أسماءهم عالقة بالمدن أو القرى : بنو ورزيغة، بنو عوسجة، بنو تاورة، إلى آخر اللائحة. ومع مر الزمن تنضاف لهم عناصر وافدة، ومنهم زناتة، مغراوة حكام مكناسة القديمة أمهد دولتهم.

ومن بين قبائل صنهاجة الصحراء بنو زياد وبنو موسى (53)، فيبدو أنهم وفدوا مع المرابطين، وعمروا مدينتي بنى زياد وبنى موسى.

هذا فضلا عن فريق صنهاجة المرابطين، وقد تبينا — سلفا - أن والي مكناسة كان يسكن معه في

قصر الولاية جلة بني عمه، يعني ومن عدا هؤلاء الجلة يستقرون خارجا عن قصر الولاية.

وفي تاورة كانت فرقة من السودان المسمين — هنالك — عبيد الحرمة، ويتحلون — رجالا ونساء — حرفة الغناء (54) الذي قد يكون من غط أهازيج الصحراء : منتبهم الذي جاءوا منه أيام المرابطين... ومن حارات المنطقة واحدة لبني شلوش (55)، وهؤلاء نسبهم في مضغرة من البربر (56) وقد استمرت فرقة منهم معدودة من أهل مكناسة، (57) فيرد ذكرها في اللائحة الاسماعيلية لسكان مكناسة، وانتقلت فرقة منهم الى فاس. فكانت مناسبة لتتويه ابن الأحمر بها في بيوتات فاس الكبرى (58).

ومن سكان مكناسة القديمة من غير الأمازيغيين: بعض الأشراف الأدارسة الحسينيين، وبينهم واليها الأمير أحمد بن ادريس الثاني ثم الأمير الادريسي حمزة بن علي بن عمر بن ادريس الثاني، وقد تبينا — سلفا — أنه ومعه أسرته — سكنوا في مدينة عوسجة.

وعن سكان ورزيغة يقول ابن غازي (59) : «يذكر أن أصل أهلها روم» يقصد من بقايا الروم البيزنطيين حكام المغرب قبل الفتح الإسلامي.

وإلى هذه الأصناف كان للأندلسيين سكنى في بعض جهات مكناسة القديمة، فيقول ابن غازي (60) وهو يذكر بني زياد : «وهنالك قرية كان يقال لها «قرية الأندلس» كانت من عمل بني زياد، سكنها — على قديم الزمان — قوم أندلسيين وتناسلوا بها، وأقاموا دهرًا لم تتغير ألسنتهم ولا أشكالهم، إلا من كان منهم كثير الامتزاج بأهل البلد فإنه تغير لسانه».

وقال البكري (61) عن مدينة أخرى : «ومن ورزيغة إلى مدينة أغيجي، ومعنى أغيجي حجارة يابسة، لأنها مبنية بالحجر بغير طين، وهي اليوم خالية، وكان القول الذين بنوها وسكنوها من رضية الأندلس أيضا، أجلهم البربر عنها إلى وليلي، فهم بها بقية يسيرة».

ومن الجدير بالملاحظة أنه استمر في ورزيغة وتاورة أسماء لها دلالة أندلسية، انطلاقا من المر — بورزيغة — المعروف ب «زنيقة بني مروان». فهل يكون هذا اللقب يشير الى حديقة كانت تحمل هذا الاسم، نظير واقع «رياض بني مروان» في قرطبة، وهو اسم ورد عند كل من الحميدي (62) والضيبي (63). وعن ورزيغة — مرة أخرى — يرد في وثيقة (64) : «... وجميع الربع الواحد شائعا بموضع الفار بغدير الشريشي بجوار الوادي».

وفي وثيقة ثانية (65) : «... جميع غابة الزيتون السقي بغدير الشريشي». وكانت كلمة الغدير في الأندلس تستعمل — حيناً — للدلالة على الحومة، فيأتي عند ابن الأبار «... بحومة غدير أبي الفيض» (66). وفي تعبير آخر : «أبو إسحاق المؤدب الامام بغدير ابن الشماس من أهل قرطبة (67)».

— وعند ابن بشكوال : «... وكان سكناه بقرطبة بغدير ثعلبية بدور بني ادريس» (68) وفي فقرة أخرى : «... وقدم قرطبة وسكن بغدير ثعلبية» (69). ومرة ثالثة : «... وكان سكناه بغدير ثعلبية (70)». وقد ورد بالوثيقة التي تعلق عليها اسم «موضع الفار»، وكأنه ينظر الى اسم فارّه، أو فأرو، أو فارّه : «ثلاثة أسماء لثلاثة مواضع أندلسية : جبل فارّه : عند الحصن الذي يشرف على مدينة مالقة (71)».

وبالأندلس مرسى فأرو قريبا من شتتمرية الغرب (72).

والى الشمال من تطيلة مدينة فارة، فيقول عنها ياقوت (73) : «فارة بالراء المشددة والهاء بلفظ قولهم امرأة فارة، أي هاربة : مدينة في شرقي الأندلس من أعمال تطيلة».

ومن أواسط القرن 15/9 الى ما بعده، يذكر في بعض الوثائق (74) موضع في ورزيفة يحمل اسم «الشلوكني» أو عين الشلوكني، بالشين المعجمة والكاف المعقودة، ولا يبعد أن تكون التسمية تنظر — مع شيء من التحريف — الى حصن شلوقة بقرب سرقسطة، ذكره ياقوت (75)، ثم جاء في «الذخيرة السنية» : «... وفيها ملك العدو قرمونة، والقلعة، والقلية، وشلوقة...» والكلمة بالشين المعجمة في الوثائق، وذلك يبعد نسبتها الى كلب الصيد الذي سينه مهمة.

وبعد ورزيفة يوجد في «تاورة» موضع يعرف «بالمترب» و«بباب المترب» أو «عودة باب المترب»، ولا يزال ذكره حيا في الاستعمال الدارج، وهو اسم كان معروفا بالأندلس، فيترجم ابن بشكوال (77) لقاض أندلسي توفي عام 1059/451 : «وولي قضاء طلبيرة فحمدت سيرته، وشكرت طريقته، وكان يختلف الى غلة له بحومة المترب يعمرها بالعمل ليتعيش منها».

فهذه خمسة أسماء اندلسية صارت أعلاما على مواضع من مدائن مكناسة، لتشير إلى سكان أندلسيين استوطنوا المواقع المعنية، وكان من عادة الأندلسيين النازحين أن يحملوا معهم أسماء أماكنهم ليستعملوا في مهجرهم الجديد، وفي مدينة فاس نماذج عديدة من هذه الظاهرة.

لغة السكان

فليضف هؤلاء الأندلسيون إلى أندلسي أغيفي وبني زياد، ولنتذكر تسجيل ابن غازي عن هؤلاء الآخرين أنهم لم تتغير ألسنتهم إلا من كان منهم كثير الامتزاج بأهل البلد، ولنتذكر — مرة أخرى — سكنى بعض الأشراف الأدارسة بورزيفة وعوسجة.

ومن هذا كله يستنتج أنه كان بالمنطقة لغة عربية الى جانب لهجة أو لهجات السكان الآخرين.

ويتجاوب مع هذا التعريب الجزئي استخدام تسميات معربة لعدد من مدائن مكناسة، وأيضا : الأسماء العربية لأقسام من «تاورة»، هذا فضلا عن عربية النقوش بالنقود الادريسية، مما قد يلمح إلى تعريب الادارة.

إحصاء السكان :

أما إحصاء السكان فلا نملك عنه إلا عددا تقريبا عن سكان ورزيفة وعوسجة وليس لدينا عن ذلك سوى مصدر متأخر هو ابن أبي زرع (78)، فيشير الى غارة القائد الفاطمي ميسور الفتى على المدينتين، ويحدد عدد القتلى من خصوص الرجال بما يزيد على سبعة آلاف، وسوى هذا ترد عموميات لا تحديد فيها فيذكر الادريسي (79) عن مدينتي بني زياد وتاورة أنهما عامرتان ويشير ابن غازي (80) الى وفرة عدد سكان تاورة.

دول المنطقة :

نتبين من إشارات سابقة أن مكناسة القديمة مر بها — قبل المرابطين دول الادارسة والفاطميين

والمروانيين، وزناتة مغراوة، ونضيف — الآن يفرن (81) ، وزناتة بني توالى حكام قلعة مهدي في منطقة زيان (82)، قال ابن أبي زرع (83) «وفي سنة اثنين وخمسين (وأربعمائة) دخل المهدي بن كلاتووين توالى مدائن مكناسة».

وفي تعبير ابن الخطيب (84) عند دولة أبي بكر بن عمر اللمتوني :

«... وتحرك الى بلاد المغرب ففتح بلاد فازاز ولواتة ومدائن مكناسة وجاناته، وملك هذه البلاد — يومئذ — المهدي بن يوسف بن توالى».

الحكام ومقرهم :

يعرف من ولاة المنطقة أسماء أحمد بن ادريس الثاني. ثم حمزة بن علي بن عمر بن ادريس الثاني.

وفي دولة مغراوة : يوسف الجزنائي، ت 20/412 — 1022 (85). وابنه المهدي بن يوسف. ثم الخير بن خزر الزناتي (86).

وفي عام 467 ولى يوسف بن تاشفين سيدي بن أبي بكر مدائن مكناسة وبلاد مكلاتة وبلاد فازاز، ومن هنا نعرف — من فقرة ابن أبي زرع — (87) مدى امتداد ولاية مكناسة المرابطية.

وأخيرا : نشير إلى الحسن بن عشرة (88) والى المنطقة خلال أيام المرابطين. أما مقر الولاية فكان أيام الأدارسة في ورزيفة، وأيام مغراوة في عوسجة، وأسس والى المرابطين مدينة «القصر» سالفة الذكر، حيث يسكنها هو ومن إليه.

ومن قضاة المنطقة أبو الأصبح عيسى بن سهل بن عبد الله الأسدي القرطبي. ت 1093/486، وهو مؤلف «الاعلام بنوازل الحكام»، ويقول عنه عياض (89) : «ولي قضاء طنجة وكناسة، ثم رجع الى الأندلس فولى قضاء غرناطة الى أن دخلها المرابطون».

ابن الملجوم : يوسف بن عيسى بن علي الأزدي الزهراني الفاسي، ت 1099/492، قال ابن القاضي (90) : «ولي قضاء مدينة القرويين من فاس المحروسة في أيام زناتة، ثم صرفه عنها يوسف بن تاشفين في ولايته المغرب، وولاه قضاء مكناسة الزيتون».

محمد بن عيسى بن القاسم الصدي التظلي، ت. 34/529 — 1135، قال ابن الأبار (91) : «استكتبه ابن الملجوم في قضاء مكناسة واستخلفه ابن الملجوم عيسى بن يوسف بن عيسى الأزدي الزهراني الفاسي، ت 1148/543.

قال ابن عبد الملك (92) : «استقضى بمكناسة الزيتون ثم بفاس، ثم صرف وأريد على معاودة القضاء فامتنع...».

الاقتصاد والحضارة :

ونتقل الآن إلى اقتصاد المنطقة وتحضرها، فنشير — أولا — إلى الرخاء الذي عرفته ورزيفة خلال القرن 11/5، فكانت كثيرة الثمار والخير، يباع فيها ألف حبة إجاص بربع درهم (93).

ثم ينوه الادريسي (94) ببني زياد : أسواق عامرة، وحمامات وديار حسنة، والمياه تخرق أزقتها، وعن بني زياد وسواها يقول ابن غازي (95) : «وكان ببني زياد حمام وبني مروان حمام يعمران، وكان ببني موسى حمام تعطل قبلهما.» ثم يذكر الادريسي (96) : «وكانت مدينة تاورة متحضرة جامعة عامة وأسواقها كثيرة، والصناعات بها نافقة، والنعم والفواكه لا تقضى بها حاجة، والماء يأتيها من جنوبها من نهر كبير فينقسم في أعلاها، ويمر ما انقسم هناك — من المياه — فيخترق جميع أزقتها وشوارعها وأكثر دورها» وبعد الادريسي فإن ابن غازي (97) يتوسع أكثر — في التعريف باقتصاد وحضارة تاورة في هذه الفقرة : «يشقها وادي فلغل : (وادي أبي العمائر)، ديارها على ضفتيه شرقا وغربا، والغراسات بها — ويسائر الحوائر — متصلة بالديار. وتاورة أرجاء كثيرة، كان أكثرها يحتوي على أربعة أحجار، وكان من جملتها بيت واحد للزغابشة يحتوي على خمسة أحجار.

وكان فيها حمامان اثنان : أحدهما منسوب للزغابشة، والثاني للمختص ؟ يعرف بحمام أبي الخيار، بإزائه عين كبيرة تنسب — كذلك — لأبي الخيار (98) مأوها عذب معين صاف، تسقى به طائفة كبيرة من أملاك تاورا ومن أملاك من تحتها.

وعلى خلاف الحارات : فإن «الروض المhton» يبرز أحياء هذه واحدا واحدا : «وكانت حارة تاورا تنقسم أقساما : «قسم يقال له بنو عيسى، ديارهم بالضفة الغربية من الوادي...»

وقسم بالضفة المذكورة قبلة من بني عيسى، يقال له بنو يونس، ويسمى — أيضا — هذا القسم تاورا الفوقية، وبهذا القسم كان المسجد الجامع.

وبين هذين القسمين موضع عال جدا يعرف بالجهنمية. وقسم بالضفة المذكورة يقال له فاس الصغيرة، كأنها سميت بذلك لاختراق الماء خلالها، كمدينة فاس.

وبالضفة الشرقية من الوادي قسم يقال له الجنان الصغير. وقسم يسمى بني أبي نواس.

وقسم يسمى حارة بني زغبوش، وحارة الزغابشة». وبحارة الزغابشة — فيما يظهر — كانت «دار النارنج» التي شادها الجند الأكبر لبني زغبوش : حماد بن محمد القبي، يذكر أنه بناها في أسرع زمان، وكان بها مجلس عال محكم البناء، واستمرت الدار قائمة يسكنها عقبه إلى أوائل القرن 13/7 (99).

والآن ينتهي بنا المطاف إلى «بني عطوش»، وهي — حسب الادريسي (100) — ديار متصلة، وعمارات في بساتين لهم هناك، ولهم أشجار وغللات وزيتون كثير، وشجر تين وأعناب وفواكه جمّة، وكل ذلك بها ممكن رخيص.

ويقول المصدر ذاته (101) عن بني برونوس : «وهي منازل وديار لهم، وبها مزارع وكروم وعمارات وشجر زيتون كثيرة، وفواكههم موجودة تباع بالثمن اليسير.

وكانت مدينة السوق القديم بها سوق يعمر يوم كل خميس، ويجتمع اليه جميع قبائل بني مكناس، وهي سوق نافقة لما جلب اليها، ويقصد اليها من بعيد وقريب (102).

ومن ملاح ثروة المنطقة عموماً فقرة من «الخلل المشوية (103)» تقول :

«وفي سنة ستة وستين وأربعمائة فتح الأمير يوسف بن تاشفين مدينة مكناس، واستنزل منها الخير الكثير من خزائن الزناتي».

فهذا الخير الكثير في خزائن الزناتي ماهو إلا من ثروة السكان، اغتصب منها حاكم مكناسة بالضرائب المنوعة وأثرى بها خزائنه.

ومن المؤشرات الاقتصادية الباقية : اسم «باب جمال»، ولا يزال استعماله حيا في حارة تاورة، وتشير كلمة «جمال» — في اللسان الدارج — إلى العامل الذي يقوم بحمل الأثقال — سلعا وما إليها — من بلد إلى بلد.

ونخاتمة الارتسامات الاقتصادية، ارتسامة لابن غازي 104 عن مكناسة القديمة أيام ازدهارها.
«انتتهت مجايها إلى معين من الألف»

وارتسامة أخرى تلاحظ أن ازدهار المنطقة كان عصره الذهبي في أيام المرابطين، وهكذا يسجل المؤرخ الأول لمكناسة (105) : «وكانت هذه المواضع كلها في غاية من الخصب وكثرة المياه والأشجار، وكان أهلها آمنين مطمئنين، في عيش رغد ونعمة تامة، منذ ملك أمراء المسلمين بنو تاشفين».

وتأتي هذه الملاحظة آخر الملاحم البارزة لاقتصاد مكناسة القديمة وتحضرها، ونعقب بالإشارة إلى أن ابن غازي توسع في تبرير تلك الملاحم عند ذكر تاورة أكثر من غيرها، ومرد ذلك — فيما يظهر — إلى أن المصدر الذي أفاد منه «الروض المتون» كان مؤلفه من أبناء تاورة، فكانت معلوماته من موطنه متوفرة بصفة أفضل.

ومن هنا لا يبعد أن تكون بعض مدائن مكناسة القديمة عرفت حضارة تضاهي أو تقارب تمدن تاورة، غير أن المصدر المشار له خلا من ذكر ذلك.

الحياة الثقافية

خلال أيام المرابطين والموحدين لمعت في «تاورة» أسرة علمية تنتسب إلى بيت بني حماد من قبيل بني زغبوش العيساويين، فيحتفظ ابن غازي بالتعريف بستة أسماء منهم :

1 — محمد بن حماد ابن زغبوش، كان فقيها قرأ بقرطبة وبغيرها، وصحب جلة من أهل زمانه (106).

2 — ابنه الأول : عبد الله بن محمد بن حماد، قرأ في صغره بمدينة فاس، ومنها التحق بالموحدين،

وقرأ بعد ذلك على رجال الحضرة : (مراكش) ومعهم، حسب تعبير ابن غازي الذي يضيف : «وكانت له عناية بتأليف الامام المهدي، وبما أملاه خليفته أبو محمد عبد المومن، وله في إثبات هذه الهداية موضوع استخرجه — بالاستقراء — من الكتاب العزيز...

وكان قد استقضاه أمير المؤمنين أبو يعقوب بن عبد المومن ابن علي مدينة شاطبة وجزيرة شقر، ومن ذلك الوقت استقر بشرق الأندلس بعض ذريته، ولما أسن رغب في إبطان بلده، فأسعت رغبته واستوطن داره بتاورا، إلى أن مات — في سن الثمانين — عام 594 هـ (107) 97 — 1198 م .

3 — أحمد : الابن الثاني لمحمد بن حماد ابن زغبوش، كان — حسب ابن غازي — فقيها حافظا لكتاب الله تعالى، كثير التلاوة له، متدينا، ماهرا — مع ذلك — في معرفة الهيئة والتعديل (108).
4 — ابن الأثير : علي بن أحمد بن محمد بن حماد قاضي مكناسة (109).
5 — القاسم بن عبد الله بن محمد بن حماد، ولي القضاء بجهات المغرب وبجهات غرناطة، ثم انقبض عن ذلك واقتصر على الفلاحة ببلده تاورا، انتقل إليها سنة 1200/597 — 01، وأقام بتاورا حتى مات رحمه الله (110).

6 — ابنة أبو الخطاب : سهل بن القاسم، وهو مؤلف «التقييد في أخبار مكناسة» حيث أفاد منه ابن غازي، فيذكر أنه ولد بوادي عاش (بالأندلس)، وارتحل به أبوه الى تاورا، ثم ارتحل هو — بعد موت أبيه هناك — إلى الأندلس اخر سنة 1220/616، فولي بالأندلس قضاء أماكن كثيرة : مرة في رندة، ومرة في أستجة، ومرة في غيرهما، وولي — مرة — قضاء طنجة، ثم قدم — اخرًا — مسددا بمرسية. (111).
وإلى هذه الأسماء الستة للزغابشة الذين احتفظ بهم ابن غازي، نشير الى ثلاثة أعلام من نفس الأسرة جاء التنويه بهم في المصدرين التاليين :

7 — بدءا من عبد الله بن حماد، قال ابن الأبار (112) : «من أهل مكناسة، يعرف بابن زغبوج، ويكنى أبا محمد، دخل الأندلس وسكن شاطبة، وخلف علي بنت القاضي أبي عبد الله بن سعادة بعد وفاة أبي محمد بن عاشر الفقيه سنة 567، وولد له منها ابنه محمد، وكان من أهل المعرفة والنباهة، ولا أعلم له رواية».

وقد يكون هذا هو نفس عبد الله بن محمد بن حماد سابق الذكر عند رقم 2.

8 أبو عبد الرحمن : عبد الله بن القاسم ابن زغبوش، أشار له ابن عبد الملك (113) بين الأخذين على أبي الحسن بن خيرة البنسي، ثم أثبت له قطعة شعرية حماسية، في التذييل على بيتي أبي الفرج ابن الجوزي في اكتحاله يوم عاشوراء (114).

9 — أبو مروان ابن زغبوش، حسب إشارة عرضية عند نفس المصدر (115).

فهذه تسعة أسماء من تاورة احتفظ بمعظمها أبو الخطاب ابن زغبوش في «تقييده في أخبار مكناسة» غير أنه لاتوجد معلومات عن النشاط الثقافي في بقية مدائن مكناسة وحاراتها.

10 — ولا يستثنى من ذلك سوى اسم واحد من بني زياد، وهو أبو العباس بن علي الزيادي المكناسي، ذكره ابن عبد الملك (116) بين أشياخ محمد بن عبد الله بن مالك.

والى هذه الأسماء العشرة تأتي لائحة الذين اتصلوا بالمهدي ابن تومرت عند مروره بمكناسة عام 1120/514، وذلك ما يقدمه البيدق (117) في هذه الفقرة :

«ثم سار (ابن تومرت) الى السوق القديم، ونزلنا به بمسجد أبي تميم عند الحسن بن عشرة، وكان طلبة مكناس ياتونه الذين منهم :

11 — أبو بكر بن حرزوز

- 12 — وأخوه أحمد
 14 — وأخوه علي
 16 — وعبد الرحمن بن مجاهد
 18 — ومروان
 20 — والحاج حمو
 22 — ومحمد بن زغبوش
 13 — وأحمد الزرهوني
 15 — وبكار بن اسماعيل
 17 — وعبد الرحمن بن عريوش
 19 — والحاج منصور
 21 — ويحيى بن كنداف

فكانوا يأخذون عنه العلم ويذاكرونه فيما عندهم من العلم والفهم، فكان المعصوم يبين لهم ما جهلوه، ويذكر لهم ما لم يذكروه» (118)

23 — وهذه ستة أسماء من الوافدين، انطلاقاً من أبي إسحاق إبراهيم بن أبي الفضل بن صواب الحجري الشاطبي العالم الطبيب، قال عنه ابن الأبار (119) : «... واستقرء آخر عمره بمدينة فاس في نحو ست وخمسمائة (12 — 1113) ، وتوفي بمكناسة الزيتون وهو ابن إحدى وثمانين سنة».

24 — أبو القاسم ابن الأبرش : خلف بن يوسف فرتون الشنتريني، ت 1138/532، جاء ذكره عند ترجمة أبي إسحاق ابن قرقول، فيذكر ابن الأبار (120) بين أشياخه : «... ومكناسة من المغرب : أبا القاسم ابن الأبرش».

يضاف للأسمين ثلاث قضاة ونائب القاضي، وأربعتهم سبق ذكرهم ضمن لائحة حكام مكناسة القديمة :

- 25 — أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي
 26 — يوسف بن عيسى ابن الملجوم
 27 — محمد بن عيسى الصديقي
 28 — عيسى بن يوسف ابن الملجوم.

والى هذه اللوائح يتساءل عن موقع التصوف بمكناسة القديمة، وقد كانت منطقتها تحتضن موضع سكنى الشيخ أبي يعزى في جبل أبروجان بزيان، حيث لا يزال بقيد الحياة أيام مدائن مكناسة، فقد كان مولده نحو 50/442 — 1051، وعمر نحو 130، الى أن توفي — بعدها — عام 1177/572.

ويضيف الشعراي (122) لإشعاع صوفيته : «انتهت اليه تربية الصادقين بالمغرب، وتخرج بصحبته جماعة من أكابر مشايخها، وأعلام زهادها».

ثم يبرز ابن غازي مدى ارتباط موقعه بمكناسة : «ولو لم يكن مرز مفاخر مدينة مكناسة إلا اشتغال عملها على مدفن ولي الله تعالى الجمع عليه، شيخ المشايخ سيدي أبي يعزى : لكان كافياً». ومن المتوقع أن يكون من مكناسة مجموعة من أصحابه الأخذين عنه في حياته، غير أن المعروف منهم — الآن — لا يتجاوز ثلاثة :

29 — أبو عصفور : يعلى بن وين يوفن، يقول عنه ابن الزيات (124) : تلميذ أبي يعزى، أصله من مكناسة، نزل حارة الجذماء خارج حضرة مراكش، وبها مات عام ثلاثة وثمانين وخمسمائة (87 — 1188)، وكان عبداً صالحاً»

وبه ترقى الشيخ سيدي يوسف بن علي (125) دفن الحي الذي يحمل اسمه قبلة مدينة مراكش، وهو

الذي يتندي به عد الرجال السبعة بالمدينة ذاتها.

30 — أبو تميم عبد الواحد الأسود حسب ابن الزيات (126)، أو أبو تميم عبد الرحمن الهزميري حسب ابن قنفذ (127)، الذي يضيف : «وكان حافظا للمسائل».

وفي تعبير ابن الزيات : «تلميذ أبي يعزى، انفرد بموضع على أميال من مكناسة، وبنى فيه مسجدا، فلما مات دفن في رحبة ذلك المسجد، وكان عبدا صالحا».

والى هذا المسجد كان بمدائن مكناسة مسجد أبي تميم، وبهذا الاسم جاء ذكره عند البيدق، حيث يجد موقعه بمدينة السوق القديم، وقد تبينا — سلفا — أن ابن تومرت وأصحابه كان نزولهم عند مرورهم بمكناسة عام 514 هـ/1120.

ومن هنا يتبين أن أبا تميم كان له استقرار بمكناسة قبل أن ينتقل عنها إلى خارجها، ويؤكد هذا خبر يسنده ابن الزيات (128) الى علي بن عبد الكريم، فيقول هذا خلاله : «... فرجعت الى مكناسة وأخبرت بأبي تميم، فذهبت اليه أزوره...».

31 — أبو علي يعزى بن الشيخ أبي يعزى، له إقامة بمكناسة حسب إشارة عند ابن الزيات (129).

32 — وهذه أربعة أسماء لم تذكر مشيختها، ابتداء من شيخ صوفي كثير السياحة في طلب الصالحين، أورده ابن الزيات (130) غفلا من اسمه وشيخه ووفاته، ونسبه الى مكناسة.

33 — عبد الرحمن المكناسي، حلاه ابن عبد الكريم (131) بالشيخ الصوفي الحاج.

34 — ابراهيم ابن الصباغ المكناسي، روى عنه ابن عبد الكريم (132) — ثلاث مرات — أخبار بعض الصلحاء الذين ترجمهم.

35 — منية بنت ميمون الدكالي، أصلها — حسب ابن الزيات (133) — من مكناسة، ونزلت بالجانب الشرقي من مراكش وبه توفيت عام 98/595 — 1199.

فهؤلاء 35 اسما — مثقفين ثقافة متنوعة — ممن مروا بمدائن مكناسة، وقد يكون بينهم من سكن تكرارت بعد تأسيسها.

نذيل — أخيرا — بهذه الفقرة : في الطريق الى «بني موسى» — إزاء باب البرادعيين — يقع الحي الذي يعرف باسم «سيدي بابا»، فيتساءل هل كان مكانه من بقايا مدائن مكناسة القديمة، ولبيان الواقع نوضح أن هذا الاسم كان علما لصلاح عاش بمكناسة الجديدة الى منتصف القرن 13/19، فيلقاه — بالمدينة ذاتها — الوزير محمد بن ادريس العمروي الفاسي، ويسجل اسمه في آخر «كناشته» (134) مسميا له بسيدي بابا التواتي.

كما لقيه محمد التاودي السقاط الفاسي، وأشار الى أن سكناه كانت بأعلى فندق داخل المدينة (135).

والغالب أن الصالح المنوه به لما توفي دفن في مقبرة هذه الجهة، فصارت المنطقة تعرف باسم «سيدي بابا».

ملحق 1

عن قلعة مهدي بن توالي

تقع قلعة مهدي جنوب مكناسة على بعد نحو 150 ك.م، وكما تبينا سلفا (136)، صارت مدائن مكناسة بأخرة تابعة لهذه القلعة، وذلك ما يبرر الحاق التعريف بها بهذه الدراسة.

وقد لمع اسمها كمركز لامارة بني توالي عند النصف الأول من القرن 11/5، ومن هذا التاريخ اشتهر ذكرها بين الجغرافيين والمؤرخين، فعرف بها الادريسي (137)، والزهرى (138)، والاستبصار (139)، وابن الخطيب (140)، وأشار لها مؤلف مفاخر البربر، (141) والحميري (142)، وابن خلدون (143)، وقفز اسمها الى إحدى مؤلفات مادة الميقات، فذكرها أبو علي المراكشي في «جامع المبادي والغايات (144)» ضمن جدول أطوال البلاد، وقد كان ابن الخطيب توسع — أكثر — في التعريف بقلعة مهدي وإمارتها، فلذلك نتخير قطعة «إعمال الاعلام» (145) لنقدمها فيما يلي :

«... وأما بنوالي — وهم بنو يخفش الزناتيون (146) — فأول من ملك منهم بالمغرب توالي بن شوصح بن نعم الخلف، وكان محل ملكه بلاد فازاز التي تنسب اليها الخيل الفازازية (147)، ومعدن عوام (148)، والقلعة (149)، ومدائن مكناسة.

وكان اسم توالي يوسف، وكان قيامه سنة أربعمائة، ووفاته سنة اثنتي عشر وأربعمائة (150)، وولي بعده ولده مهدي بن توالي، فبنى القلعة وحصنها واتخذ لها سورا عظيما، وسميت به قلعة مهدي الى الآن (151)، ولم يزل ملكا عظيما على بلاد فازاز ومدائن مكناس (152) الى أن قدم المرابطون المغرب، ونازله منهم أبو بكر بن عمر، واستامن اليه سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، ثم نكث عليه وقتل جماعة من رجال لمتونة، فبعث اليه الأمير أبو بكر المذكور جيشا حاصر القلعة سبعة أعوام الى سنة ثمان وخمسين، ثم خرج عنها صلحا وتوجه الى فاس فظفر به صاحبها معنصر بن المعتز (153) فقلته».

ملحق 2

وهو تكملة للملحق 1

يعرف — الآن — أربعة أعلام ينتسبون لبني يجفش من زناة فازاز :
— الفقيه العالم أبو زكرياء اليجفشي من قلعة مهدي بن توالي نزيل الاسكندرية، حسب تعبير
«مفاخر البربر (154)».

— القاسم بن جعفر اليجفشي : أبو محمد، روى عن أبي عمر ميمون بن ياسين اللمتوني (155).
— منصور بن مخلوف بن عيسى المجاجي ؟ من بني يجفش : أبو علي، روى عن أبي داود الهشامي
(156).

— يعلى بن ناصر اليجفشي : أبو الحسن، روى عن أبي عمر ميمون بن ياسين اللمتوني (157).
استمر بمكناسة (تكررت) ذكر أسرة ابن توالي من القرن 8 الى صدر ق 12 / «14 — 18»،
فيترجم الحضرمي (158)، ثم ابن القاضي (159) للعالم الصالح أبي عثمان سعيد بن توالي، كان حيا عام 763 /
«61 — 1362»، ثم يستمر ذكر أبي عثمان بن توالي مع جامع يضاف الى اسمه، وكان موقعه في حي باب
عيسى شرق المدينة، فيذكر باسم «جامع سيدي سعيد بن توالي»، حسب حوالة المساجد الصغار (160)
بمكناسة، حيث ترد بها هذه الفقرة مؤرخة بعام 1125 / 1713».

«... ناظر المسجدين : جامع سيدي سعيد بن تواله، وجامع سيدي بوزيتونة، الكائنين بباب
عيسى، وهو أبو عبد الله محمد بن العربي بن مومو...».

ملحق 3

معلومات أخرى عن قلعة مهدي

عرف أحمد بن قاسم المنصوري (161) بجبل أروكو قبلة من «خنيفرة» على بعد نحو 20 كم، ثم عقب قائلاً : «عن يمين المستقبل منه جبل آخر يدعى عميرة، وهو أقل ماء من الأول، به ربوة تدعى الكارة، هي القلعة البربرية القديمة التي تسمى قلعة فازازت، وكان المتولى بها مهدي بن تولى اليجفوشي الزناتي، وهذه القلعة هي التي حاصرها يوسف بن تاشفين مدة تسع سنين، ولم تخضع لسلطته، ولا رضخت لسلطته، وما خضعت إلا صلحا بعد اللتي واللتيا سنة 465.

وعهدي باطلال هذه القلعة قائمة الى حدود سنة 1328 قبل مفارقتنا لزيان، وجبل عميرة هذا مثل على.... يسمى أدخسال، وبه القصة الاسماعيلية العظيمة...».

ومن الجدير بالملاحظة أن القلعة بعد انضمامها للمرابطين استمرت السكنى بها، فكانت منفى أحد أبناء المعتمد بن عباد : «عبد الله الرشيد»، قال بان الأبار (162) : «ولما نقل بنو عباد الى المغرب أسكن الرشيد منهم بقلعة مهدي، وكان هنالك الى أن توفي في حدود الثلاثين وخمسمائة».

يضاف لهذه الفقرة إشارة سابقة — ص. 24 — عن ذكر «جامع المبادي والغايات» لقلعة مهدي «ضمن جدول أطوال البلاد، مع العلم بأن مؤلفه أبا علي المراكشي عاش الى عام 686 (163) 1288/87.

الهوامش

- (1) الترجمة الكبرى، مطبعة فضالة — المحمدية 1387 — 1967 : ص 79.
- (2) ابن زيدان في «إتحاف أعلام الناس»، المطبعة الوطنية بالرباط 1347 — 1929 : 1 — 21.
- (3) ابن أبي زرع في «روض القرطاس»، دار المنصور للطباعة والوراقة — الرباط 1973 : ص. 51.
- ابن القاضي في «جذوة الاقتباس»، نفس المطبعة والتاريخ : ص. 203.
- (4) «جمهرة أنساب العرب»، دار المعارف بمصر 1962 : ص. 52، وقد غابت هذه الاشارة عن الذين عرفوا بمكناس.
- (5) ابن الأبار : «الحلة السرياء»، مطابع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة 63 — 1964 : 1 — 55.
- (6) يذكر الأمير شكيب أرسلان أن الاسم الأصلي لهذه المدينة هو مكينسة **Mequenza** ، «الحلل السندسية»، المطبعة الرحمانية بمصر 1355 — 1936 : 2 — 256، ومن هنا قد تكون أسرة «المكيني» بالرباط أندلسية الأصل.
- (7) «روض القرطاس»، ص. 82 — 99، 106، 119، 142.
- ابن الخطيب في «إعمال الأعلام» : القسم الثالث، دار الكتاب بالدار البيضاء 1964 : ص 169 — 232
- (8) ابن غازي في «الروض المتون»، المطبعة الملكية بالرباط 1384 — 1964 : ص. 8 وغيرها، وانظر في مادة الجوائز «إتحاف إعلام الناس» 56/1 — 57.
- (9) «الروض المتون»، ص. 32.
- (10) «نقد 224 : عند هنري لافواي» فهرس النقود الاسلامية في متحف الأنواط بمكتبة باريس الوطنية : بالفرنسية في ثلاثة أجزاء، ط. باريس 1887 — 1891، والقصد الى الجزء الثاني الخاص بالأندلس وشمال افريقيا ص. 388.
- والنقود الخمسة كلها : عند دنيل أوسطاس في «كتاب الجامع في الدراهم الأدرسية والدراهم المعاصرة لها» : بالفرنسية، مطبعة المنشورات التقنية لشمال افريقية بالرباط 1970 — 1971 : ص. 237 — 238.
- (11) «المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب»، الجزائر 1857 : ص. 155.
- (12) «الروض المتون»، ص. 29.
- (13) موقع مدينة عوسجة جاء ذكره خلال كتابة بداخل اللوحة الأولى لسفر «جذوة الاقتباس» لابن القاضي ط. ف : رقم 3511 زمن مطبوعات الخزانة الحسينية بالرباط.
- (14) «المغرب»، ص. 131 — 132.
- (15) «روض القرطاس»، ص. 140.
- (16) في وثيقة قديمة : «فدان العوسجة جوار أرض الغماري»، حوالة المساجد الصغار بمكناس : رقم 4، ص. 148.
- (17) في «الروض المتون» ص. 9 : «ولوزيعة حارتان قريتان منها : بنو مروان وبنو غفجوم».
- (18) «الترجمة الكبرى» ص. 477.
- (19) «نزهة المشتاق»، مطبعة بريل في ليدن بإشراف المعهد الجامعي الشرقي لتابولي : ص. 244 — 245.
- (20) دار النشر المغربية الدار البيضاء 1985 : ص. 188، وقد قابل هذا المصدر أغلب المدائن بذكر الخطبة إزاءها، والقصد الى خطبة الجمعة للاشارة الى وجود المسجد الجامع بالمدينة المعنية، فضلا عن بعض المساجد الصغار، مما يلوح الى العمارة بالسكان.
- (21) «الروض المتون»، ص. 8، 9، 10، 32.
- (22) في تعبير قطعة مخطوطة من «الاستصار»، يذكر مكانة الجديدة هكذا : «والحصن المدن منها يسمى «تأخمرت»، وقد جاءت هذه الفقرة في المنشور — ص. 187 — مصحفة هكذا : «والحصون، المدن منها تأخمرت».
- (23) «الروض المتون»، ص. 28 — 29.
- (24) ص. 33.
- (25) صارت تعرف «بصومعة شانة» دون أن يعرف وجه هذه التسمية، وفي وثيقة مؤرخة في أواخر ربيع الثاني 1041 —

- 1631 جاء ذكرها : «... كافة غابة الزيتون السقي الكائنة على مقربة من سيدي أبي علي منصور — نفعنا الله به — بصومعة شانة» : «حوالة أحباس كبرى مكناس» رقم 5، ص. 180.
- وفي وثيقة أخرى : «... المعروفة بغابة قشيم الكائنة ببني زياد القريبة من صومعة شانة» : المصدر ص. 179.
- وفي وثيقة ثالثة : «... بحارة سيدي علي بن منصور — نفعنا الله به — المعروف بجنان ابن العافية قديما، المجاور للصومعة ثمة» : المصدر ص. 186 وتحمل هذه الوثيقة تاريخ أواسط رجب 1136 — 1724، مما يشير الى أن صومعة بني موسى استمرت قائمة حتى هذا التاريخ.
- (26) توفي ابن غازي عام 919 — 1513.
- (27) «حوالة أحباس كبرى مكناس» رقم 5 ص. 167.
- (28) «المصدر» ص. 177
- (29) «الروض المختون» ص. 10.
- (30) «الحوالة الأحمديّة» بمكناس رقم 3، ص. 246، وص. 48، وما في «إتحاف أعلام الناس» 55/1 عن تلاجدوت سبق قلم، منشأة، تحريف في نسخة المؤلف من كتاب «الاستبصار» فسميت فيه تكثرت بتلاجدوت.
- (31) القلقشندي في «صبح الأعشى» المطبعة الأميرية بالقاهرة 1333 — 1915 : 5 — 162، وفي تعبير ابن عذاري وهو يذكر مقتل أشياخ الخلط بتامراكتش : «فادخلوا لدار الكرامة برسم الاكرام والانعام»، «البيان الموحدى»، دار كريمة للطباعة — تطوان 1960 ص. 409، ونشير هنا الى أثر بناء قديم — بالجهة ذاتها — يعرف «بالفنيديق»، وقد أشار له في «إتحاف أعلام الناس» 1 — 93.
- (32) «نزهة المشتاق» ص. 245، والغالب أن هذا القصر هو الذي يسميه ياقوت «بالحصن»، حسب «معجم البلدان» مطبعة السعادة بمصر 1323 — 1906 : 8 — 133.
- (33) «الروض المختون» ص. 13.
- (34) «نزهة المشتاق» ص. 245.
- (35) ص. 245
- (36) «حوالة أحباس كبرى مكناس» رقم 5 ص. 284.
- (37) «الروض المختون» ص. 14، 15، 33.
- (38) «سوق الغبار يشار به الى أسواق الأرياق بالبوادي، ويرسم ابن الخطيب صورة له في مقدمة المجلس الثاني من «معيار الاختبار» مطبعة ألكدال — مغرب 1397 — 1977 : ص. 69 — 70.
- (39) «إتحاف أعلام الناس» 1 — 93.
- (40) «حوالة المساجد الصغار» بمكناس رقم 4 ص. 155.
- (41) لاتزال بعض ملاحق بني مروان معروفة بورزيعة عند الموضع المعروف بحجر الذيب، حيث تحمل اسم «زنيقة بني مروان».
- (42) «المغرب» ص. 155، 132.
- (43) «نزهة المشتاق» ص. 244 — 245.
- (44) ص. 188.
- (45) «معجم البلدان» 8 — 133.
- (46) دار القلم للطباعة — لبنان 1975 : ص. 544.
- (47) «الروض المختون» ص. 11 — 12 — 29.
- (48) «التزجانة الكبرى» ص. 477.
- (49) «حوالة أحباس كبرى مكناس رقم 5 ص. 169 : في وثيقة ترجع الى عام 1115 هـ.
- (50) «المصدر» ص. 185.
- (51) «المصدر» ص. 284 : في وثيقة بتاريخ أول ذي القعدة 1029 هـ.
- (52) مصدر التعليق رقم 13.

- (53) يعدد ابن أزي زرع فروع صنهاجة الصحراء، ويذكر بينها بني زياد وبني موسى، حسب «روض القرطاس» ص. 120.
- (54) «الروض المتهون» ص. 31.
- (55) «المصدر» ص. 8.
- (56) ابن الأحرر في «بيوتات فاس الكبرى»، دار المنصور للطباعة والوراقة بالرباط 1972 : ص. 36 : البيت 25.
- (57) «المنزعة اللطيف في التلميح لمفاخر مولاي اسماعيل ابن الشريف «من تأليف المؤرخ ابن زيدان مخطوط خ.س 12155.
- (58) ص. 36 : البيت 25، وتحصيف هذا الاسم العائلي الى بني شليش في «بيوتات فاس الصغرى»، لابي زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي، المطبعة الحجرية الفاسية، دون تاريخ ص. 4 م. 2.
- بقي أن نتساءل هنا عن نسب قبيلة بني عطوش، وفي هذا الصدد نشير، الى قائد موحدي يحمل اسم «أبي محمد بن عطوش الكوفي»، حسب «البيان الموحدى» ص. 149، فهل لهذا الاسم ارتباط ببني عطوش من مكناسة مدائن مكناس، فيرجع نسبهم الى قبيل طومية ؟.
- (59) «الروض المتهون» ص. 8 — 9.
- (60) «المصدر» ص. 10.
- (61) «المغرب» ص. 155.
- (62) «جذوة المقتبس»، مطبعة السعادة بمصر دون تاريخ : ص. 347.
- (63) «بغية المتمس»، ط. مدريد 1884 : ص. 478.
- (64) «حوالة المساجد الصغار» رقم 4، ص. 63 — 64.
- (65) «المصدر» ص. 160.
- (66) «التكملة» ط. الجزائر : ص. 212.
- (67) «المصدر» : ص. 233.
- (68) «الصلة»، نشر العطار 1374 — 1955 : ص. 457.
- (69) «المصدر» ص. 86.
- (70) «المصدر» ص. 295.
- (71) ابن الخطيب في «الأحاطة»، مطابع الشركة المصرية للطباعة والنشر بالقاهرة 1393 — 1973 — 1398 — 1978 : 1 — 506، 242/3.
- (72) «الحلل السندينية للأمير شبيب أرسلان : 100/2.
- (73) «معجم البلدان» 328/6.
- (74) الوثائق الراجعة لأواسط ق 9 هـ : وارد عند محمد المنوني : في «وثائق ونصوص...»، المطبعة الملكية الرباط 1976/1396 : ص. 66، 69، 101، 106، أما الوثائق بعد أواسط ق. 9 فمتعددة ومتداولة.
- (75) «معجم البلدان» 288/5.
- (76) دار المنصور للطباعة والوراقة — الرباط 1972 : ص. 79، يضاف لهذا المصدر وسابقه فقرة البيان «الموحدى» ص. 118 : «وفي سنة ثمان وسبعين وخمسائة وقعت بالأندلس أحداث قبيحة، فمن ذلك أن خيل النصارى من جهة شنتين والأشبونة وصلوا الى قرية شلوقة».
- (77) «الصلة» ص. 60 — 61، ويبدو أن اسم «الترب» انتقل الى ناحية فاس، فيذكر القادري : «... بموضع قرب فاس يقال له الترب «نشر المثاني» دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر 1978/1398 : 160/1، ثم جاء ذكر «الترب» عند نفس المؤلف في «التقاط الدرر» دار الأفاق الجديدة — بيروت 1983/1403 : ص. 55.
- (78) «روض القرطاس» ص. 99.
- (79) «نزهة المشتاق» ص. 244.
- (80) «الروض المتهون» ص. 31.

- (81) في «روض القرطاس» ص. 101 عند سنة 366 هـ : «وفيهما دخل يعلى بن يدو اليفرني مدينة مكناسة الزيتون بالسيف».
- (82) يحدد احمد بن قاسم المنصوري موقعها... «في زيان جبل عميرة به ريوه تدعى «الكارة»، وهي القلعة البربرية التي تسمى قلعة فازازت، وكان المتولى بها مهدي بن تولى... وكانت قائمة الى حدود 1328»، «كفاء العنبر» : مصورة منه على الشريط خ. ع 946 : لوحة 16، وانظر الملحق 3.
- (83) «روض القرطاس»، ص. 119.
- (84) «أعمال الاعلام» ص. 231 — 232.
- (85) ابن عذارى في «البيان المغرب»، دار الثقافة — بيروت. دون تاريخ 255/1.
- (86) «المصدر 27/4، 28.
- «الخلل الموشية»، مطبعة النجاح الجديدة — الدار البيضاء 1979/1399 : ص. 28.
- «بيوتات فاس الكبرى» ص. 30 : باسم الحيران الزناتي.
- (87) «روض القرطاس» ص. 42.
- (88) هذا يؤخذ من «أخبار المهدي ابن تومرت»، دار المنصور — الرباط 1971 : ص. 25.
- ملاحظة : خلت عدة نقط من هذا العرض عن ذكر المصدر، اعتمادا على ذكر مصدرها، خلال عروض سابقة.
- (89) «المدارك»، مطابع الشويخ — تطوان 1983/1403 : 183/8، ونقله ابن فرحون في «الديباج» مطبعة المعاهد بمصر 1351 هـ : ص. 182.
- (90) «جذوة الاقباس» رقم 636. وأصله في «الذيل والتكملة» س 8 عند رقم 224.
- (91) «التكملة»، ط. مدريد 1886 : الترجمة رقم 576.
- «المعجم في أصحاب القاضي الامام ابن علي الصدي»، ط. مدريد 1885 : الترجمة رقم 104.
- (92) «الذيل والتكملة» س. 8، مطبعة المعارف الجديدة — الرباط 1984 : الترجمة رقم 50.
- مع إشارة في «بيوتات فاس الكبرى» ص. 15.
- ثم عند ترجمته من «جذوة الاقباس» رقم 570.
- (93) البكري في «المغرب» ص. 155.
- (94) «نزهة المشتاق» ص. 244.
- (95) «الروض المتون» ص. 12.
- (96) «نزهة المشتاق» ص. 244 — 245.
- (97) «الروض المتون» ص. 11 — 12.
- (98) لاتزال هذه العين قائمة بتاورة...
- (99) «الروض المتون» ص. 29.
- (100) «نزهة المشتاق» ص. 245.
- (101) ص. 245.
- (102) «المصدر» ص. 245.
- (103) «الخلل الموشية» ص.
- (104) «الروض المتون» ص. 28.
- (105) «المصدر» ص. 12.
- (106) «المصدر» ص. 29.
- (107) «المصدر» ص. 29 — 31.
- (108) «المصدر» ص. 52.
- (109) «المصدر» ص. 52.
- (110) «المصدر» ص. 31.

- (111) «المصدر» ص. 31 — 32 .
- (112) «التكملة ط. مدريد» رقم 1486، ويرسم ابن الأبار حرفه الأخير بالجيم.
- (113) «الذيل والتكملة» س. 5، مطابع سميا — بيروت 1965 : ص. 161
- (114) «المصدر» س. 8 ص. 468.
- (115) «المصدر» س. 1، مطابع دار الكتب — بيروت دون تاريخ ص. 378.
- (116) «المصدر» س 8 ص. 311.
- (117) «أخبار المهدي ابن تومرت» ص. 25.
- (118) يحتم البيدق هذه الفقرة قائلا : «أقام بها (مكناسة) المعصوم، ثم ارتحل منها في ساعة سعد وسلامة»، ومن هنا مع سياق هذا المصدر في خبر إقامة ابن تومرت بمكناسة، يتساءل عن مستند ابن خلدون في قوله عن المنوه به : «... واستمر على طريقه الى فاس ثم الى مكناسة ونهى عن بعض المناكر، فأوقع به الشرار من الغوغاء، وأوجعوه ضربا» : «العبر» دار الكتاب اللبناني 1959 : 467/6 — 68.
- (119) «التكملة، ط. الجزائر رقم 363، وتصحف فيها الحجري بالحجري، والتصويب من «جنوة الاقتباس» رقم 11، وفيها ابن صواف بالفاء بدل ابن صواب في طبعة التكملة.
- (120) نفس «المصدر» والطبعة عند ص. 186، وترجمة أبي القاسم ابن الأبرش واسمه كاملا : عند ابن بشكوال في «الصلة» رقم 403، والضبي في «البغية» رقم 722.
- (121) ترجمته عند ابن الزيات في «التشوف» مطبعة النجاح الجديدة — الدار البيضاء 1984/1404 : رقم 77، مع تصدير الترجمة بتعليق واف عن مصادر ومراجع حياة أبي يعزى.
- (122) «لواقح الأنوار في طبقات السادة الأخيار» المطبعة الأزهرية بمصر 1925/1343 : 117/1 .
- (123) «الروض المhton» ص. 68.
- (124) «التشوف» رقم 115.
- (125) «المصدر» ص. 312.
- (126) «المصدر» رقم 117.
- (127) «انس الفقير»، مطبعة أكذال، الرباط 1965 : ص. 31.
- (128) «التشوف» رقم 117.
- (129) «المصدر» رقم 85.
- (130) «المصدر» رقم 67.
- (131) «المستفاد في مناقب العباد، بمدينة فاس وما يليها من البلاد» بمقطعة منه مصورة من مخطوطة خاصة في فككيك.
- (132) «المصدر».
- (133) «التشوف» رقم 160.
- (134) كانت هذه الكناشة في المكتبة الأحمدية بفاس.
- (135) كتاب «حرق العوائد...» مخطوط. ع.ك. 52 ص. 126 — 127
- (136) عند فقرة دول المنطقة.
- (137) «نزهة المشتاق».
- (138) «كتاب الجغرافية» Damas 1968 : ص. 192.
- (139) ص. 187.
- (140) «إعمال الإعلام» ص. 168 — 170
- (141) المطبعة الجديدة بالرباط 1934/1352 : ص. 47
- (142) «الروض المعطار» ص. 600 — 605.
- (143) «العبر» 678/6.
- (144) مصور مكتبة أحمد الثالث باستانبول رقم 3343، معهد تاريخ العلوم العربية والاسلامية، فرانكفوت، جمهورية ألمانيا

الاتحادية، 1984/1405 : ص. 156.

(145) ص. 168 — 170.

(146) ورد اسم بني يخفش بالخاء عند ابن الخطيب وجاء بالجيم المسقولة في «الذيل والتكملة»: السفر 8 ص 260، 378، 425، ثم في «مفاخر البير» ص. 47، ويبدو أن رسم الكلمة بالجيم قريب من الصواب، وتكون الجيم معقودة.

(147) في «الاستبصار» ص. 187 عند ذكر جبل قازاز: «ويخيل هذا الجبل من أعتق الخيول لصبرها وخدمتها، وهي مدورة القدود، حسن الخلق والأخلاق».

(148) يمكن أن معدن عوام هو الذي قال عنه عبد الواحد المراكشي: «وبالقرب من مكناسة الزيتون — على ثلاث مراحل منها — حصن يدعى وركناس، فيه معدن فضة»، «المعجب»، مطبعة الثقافة — سلا 1938/1357 : ص. 224، ويبدو أن حصن معدن عوام صار — في عصر الموحدين — هو المركز الإداري لمنطقة قازاز، وذلك ما يفسره تعيين قاض له على حدة، سماه ونوه بذكره مؤلفو «التكملة» ط مدريد 868، و«الذيل والتكملة» س 6 : 364، و«صلة الصلة»: القسم المخطوط، ومن جهة أخرى فإن عبد الملك يذكر رئيس أهل المعدن، ويسجل له مكرمة أرجية سخية نحو أحد علماء القرويين: «الذيل والتكملة» س 1 ص. 240...

ولاكتمال المعلومات عن معدن عوام نحيل على الحسن الوزان القاسي في «وصف إفريقيا»: الترجمة العربية دار الغرب الإسلامي — بيروت 1983 : 203/1 — 204. ثم على أحمد بن قاسم المنصوري في «كفاء العنبر» لوحة 23 — 24.

(149) هي قلعة مهدي التي نعلق عليها.

(150) نفس التاريخ مذكور عند ابن عذاري في «البيان» 255/1.

(151) سبق التعريف بموقعها عند التعليق 82، وانظر الملحق 3.

(152) يفصل ابن الخطيب امتداد حكمه: «ففتح (أبو بكر بن عمر) بلاد قازاز ونواته ومدائن مكناسة وجاناته، وملكت هذه البلاد — يومئذ — بيد المهدي بن يوسف بن تولى» «إعمال الإعلام» ص 231 — 232.

(153) اسم والد معنصر هو المعز لا المعتز.

(154) البقية المخطوطة خ. ع. د 1020 : ورقة 34/أ.

(155) «الذيل والتكملة» س 8 ص. 260.

(156) «المصدر» س 8 ص 378.

(157) «المصدر» س 8 ص 425.

(158) «السلسل العذب والمنهل الأملح...» مخطوط خ. س. 4354.

(159) «درة الحجال...» المكتبة العتيقة بتونس ودار التراث بالقاهرة دون تاريخ : رقم 1378.

(160) رقم 4 ص 167.

(161) «كفاء العنبر» لوحة 16

(162) «الحلة السبواء» 68/2.

(163) اشار لهذا التاريخ في «جامع الميادي والغايات» ص 73.

علاقة مكناس بالأندلس والأندلسيين حتى نهاية العصر المريني

الأستاذ محمد بنشريفة

كلية الآداب والعلوم الانسانية

جامعة محمد الخامس

الرباط

حديثي عن علاقة مكناس بالأندلس والأندلسيين يأتي بعد هذا الحديث العامر بالمعلومات من الأستاذ الجليل مؤرخ المغرب ومؤرخ مكناس محمد المنوني، ولذلك فإنه لم يترك مقالا لقائل في هذا المجال، ومع ذلك فسوف أدلي بدلوي مضيغ بعض الاشارات والافادات في الموضوع.

وأول ما أبدأ به هو هذا النص الذي قرأه مرتين — منذ قليل — وهو النص المتعلق بقرية تلكدوت أو تلجدوت، ولا أعرف النطق الصحيح في مثل هذه الكلمات البربرية ولا ماهو اشتقاقها في الحقيقة. هذا النص الذي يشير الى هذه المجموعة التي قد تكون أول مجموعة أندلسية استقرت بمكناسة الزيتون، وكونت عنصرا بشريا مهما من عناصر سكانها الأقدمين، هذه المجموعة لانعرف كيف ولا متى انتقلت من الأندلس الى القرية المذكورة التي تحدث عنها ابن غازي، ولكن المفترض أنهم من الربيضين الذين انتشروا في مختلف البلدان ومختلف السواحل البربرية كما يشير إلى ذلك نص من النصوص البلدانية، ومن المعروف أنهم وصلوا الى غاية الاسكندرية، وأنهم كونوا إمارة في جزيرة اقبطش (كريت) فالمفترض أن هذه المجموعة التي سكنت بقرية بني زياد من هؤلاء الربيضين، وأنها مثل المجموعة الأخرى التي أشار اليها أيضا الأستاذ المنوني، والتي نص على أنهم ليسوا من ريض الأندلس، مايمكن أن نستنتجه من النص على صفه وقصره أن هؤلاء الأندلسيين الأوائل كان لهم دور تحضير المنطقة وتطوير الفلاحة بها، وهذا ما ينطق به النص الذي يشير الى نقطة أو الى فقرة لم يقرأها الأستاذ المنوني وهي التي تقول على أنه كانت لهم بالقرية المذكورة كمات بعل في أرض رملية حمراء، ومن المعروف أن الأندلسيين اشتهروا بحذقهم لأساليب هذه الفلاحة، فلاحه الكروم. ويذكر ابن غازي أن هذا العنب البعلي كان في غاية من الطيب، ويقول في وصفه : «هو عنب أبيض شديد الحلاوة ولا سيما الأنثى منه، ويذكر أنه من قوته لا يستحيل حمرا إلا عند اعتدال الزمان ومن غلوهم فيه أنهم يقولون فيه إنه يستصبح بخمره» بمعنى يستضاء به، ولعل هذا مايفسر لنا كذلك وجود عدد من أنواع الفواكه ذات الأسماء الأندلسية التي ظلت معروفة حتى زمن ابن غازي مثل الرمان السفري وهذا ما يزال معروفا بهذا الاسم إلى اليوم وقد جلبه من الشام إلى الأندلس سفر صاحب عبد الرحمان الداخول ورسوله إلى الشام، ومن هذه

الفواكه الأندلسية الاسم التين الشعري وهو، قال ابن غازي - سحر اشبيلية ومنها اشبيلي واسمه دال على أنه من اشبيلية بصيغة عامية، وكذلك التين المعروف بذو النقاد والذي ورد في روض ابن غازي بذو النقاد بدون دال، ولعل ذلك من التطور الذي طرأ على الكلمة، وهذه كلها فواكه نعرفها في أسمائها بالمصادر الأندلسية.

يشير النص الى مثل كان سائرا في القرن التاسع، وقد وجدتني أختلف مع الأستاذ المنوني في فهمه وفهم دلالاته، فالذي فهمته أنه يضرب في البخل والاقتصاد الذي اشتهر به الأندلسيون المتحضرون وهذا من المميزات التي عددها ابن سعيد العماري العنسي الأندلسي المشهور بتحليله لطبائع الأندلسيين وعوائلهم ونظمهم، المثل المذكور لم يعد مسموعا اليوم، فقد شاع بعده فيما أتصور المثل الآتي :

«دار الخير أجا تعشى وأجي تبات».

ومن الطريف كذلك في النص الذي ذكره ابن غازي حول هذه القرية الأندلسية هذا التطور اللغوي لهذه المجموعة، فمن محافظة على اللسان الى تغيير في المخالطة الى رطانة تامة في البربرية في الأخير مهما يكن الأمر فإن أندلسي تلكدوت هم - فيما نعرف - أول اندلسيين عرفتهم مكناسة القديمة.

وفي عهد المرابطين الذين اشتهرت مكناسة بتعلقها بدولتهم ووفائها لهم حتى إنها صمدت في وجه الموحدنين سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام فيما تقول الرسالة الشفوية التي يذكرها ابن غازي، في هذا العهد نجد مكناسة رغم بعدها النسبي عن العاصمة مراكش تغدو حصنا حصينا يطمئن اليه المرابطون ويتحزرون فيه على بعض المنفيين والمعتقلين السياسيين فقد حمل اليها كما هو معروف المعتمد بن عباد ملك اشبيلية، ثم عبد الله بن بورقين ملك غرناطة بعده، وقد مكث كل منهما بمكناسة أشهراً تحت الإقامة الاجبارية، وكان الثاني عبد الله بورقين يحسب أنها ستكون إقامة دائمة له، قال في مذكراته : «ثم نقلنا الى مكناسة الزيتون وتلقانا الأمير سير وأنسنا وأخبرنا أن مقامنا عنده الى أن يرد السلطان من الأندلس، وأرسل إلينا مائة دينار، وعند حلولنا بها أيقنا بالمقام فيها»، وقد نفهم من ذلك أن الأمر سير كان يومئذ واليا على مكناس وعلى كل حال فإن ما تيقنه الأمير عبد الله لم يحصل، ذلك أنه يقول بعد ما سبق ما يلي : «ثم إنه وافانا من عند السلطان ويقصد يوسف بن تاشفين - ثلاثمائة دينار وأنا بمكناسة وخاطبني بكتاب يعدني بكل جميل، ويقول لي لا أنسك ما بقيت، فسرني ذلك أحسن الله جزاءه، فلقد كان أرفق بي بعد الله من كل أحده، وأعلمني أنه إذا ورد مراكش - وهذه صيغة الكتابة التي كتبها عبد الله كما هي مسموعة في بعض جهات مراكش - أكون معه حيثما كان، فعلمت أني منتقل عن مكناسة».

وقد كانت مكناسة في عهد الموحدين منفي لبعض المخالفين من الأندلسيين وموطن المنعم عليهم بالاقطاعات جزاء لهم على خدماتهم فقد نفى اليها الكاتب الاندلسي أبو القاسم خير بن ادريس الرندي في عهد عبد المؤمن وذلك بسبب قوله : «إن الخلافة لا ينبغي أن يتولاها إلا قرشي». وظل بها مدة غير قصيرة الى أن عفى عنه عبد المؤمن، وأرسل اليها كذلك الشاعر المتأمر بالأندلس ابراهيم بن هاشمك، فعندما قدم على الخليفة عبد المؤمن معلنا طاعته وجاهه وأهله وأولاده وحاشيته الى مكناس، وأقطعه إقطاعا مهما واستمر مقامه بها الى أن هلك، ويذكر المؤرخون أنه ابتلى بفالج غريب، فكان يدخل الحمام الحار فيشكو حره بأعلى صراخه فيخرج فيشكو البرد كذلك ولابد أن أولاد ابن هاشمك وأولاد حاشيته ظلوا بالمدينة وتناسلوا بها ولكننا لانجد لهم ذكرا في المصادر الباقية. ويبدو أن الشاعر الرصافي الأندلسي الذي كان على صلة بابن هاشمك ووزيره أبي جعفر الواقشي زار ابن هاشمك في مكناس، ونقرأ في ديوانه قصيدة يبدو أنها في مدحه

يعدد فيها ذكريات ابن هاشمك في الأندلس ويشير الى اتخاذه مكناسة وطنا إذ يقول :

بجلبتهم مكناسة ففدت بعز تلك الحلى معسولة نلب
غادوا مكناسة الزيتون كوطن أحسن بمنظرها المرني على العجب
ولا

وفي العشر الثانية من القرن السابع الهجري وفد على الموحدين أحد النبلاء القشتاليين لاجئا ومظهرا الاسلام، وهو أبو زكريا يحيى بن كونسلي المعروف بابن أخت الفونش (ألفونضو) حدثنا عن ابن غازي فقال : وقد استوطن مكناسة مظهرا لدين الاسلام، وكان يسكن بها في دار كبيرة بشرقي الجامع الأعظم مقابلة لأحد أبوابه تنسب لعلي بن أبي بكر أحد حفاظ الموحدين، كان قد ولي العمل بها، وكان أبو زكرياء هذا قائد فرسان يتصرف في ردة شرار البربر الرحالين، وكان في زري الموحدين فاعلا للخير محبا في أهله، وقد أسهم هذا القائد في عمران مكناس ونشر الأمن بها على عهد الموحدين، وأنشأ بها حماما كبيرا حفيلا، وهذا كلام ابن غازي جاء في غاية الاتقان، قال ابن غازي : «وله في أحداث هذا الحمام مناقب اشهرت عنه من إرضائه أصحاب الديار التي اشتراها لذلك في أثمانها وغير ذلك» وفي هذا الحمام يقول ابن جابر مؤرخ مكناسة في أرجوزته المشهورة : «وإنما الحمام كان الفونضو ذاك الذي إذ دام كان العيش له» ولقد عرف تاريخ المغرب حالات متعددة من أمثال ابن أخت الفونضو، هذا في عهد المرابطين والموحدين والمرينيين، ومن أشهرها حالة الريتر الأبي الذي كان قائدا في جيش المرابطين، والريتر الابن الذي انضم الى الموحدين، وأصبح من كبار رجال دولتها، كما أن اللجوء السياسي كان ظاهرة معروفة في عهد الموحدين، وفي تاريخ ابن صاحب الصلا أخبار عن هؤلاء اللاجئين الى المغرب من الممالك المسيحية وعلى رأسهم فرناندودي لازا الذي سرد ابن صاحب الصلا خبر لجوئه الى مدينة مراکش التي ظل بها الى أن توفي، أما يحيى بن كونسلي لبي هذا فلم نقف له على ذكر في المراجع وما إليه من مصادر عربية، ولعله مذكور في المدونات الاسبانية، ومن أعلام الأندلس الذين أوتهم مدينة مكناس أحمد بن عمر الأنصاري الخزرجي القرطبي عرف بالمكناسي لتزوله بها، يقول ابن عبد الملك . «واستقراره بالسكنى فيها بعد فصوله عن الأندلس، خرج من بلدة قرطبة فارا من الفتنة ثم استوطن مكناسة، ومع أنه كان محدثا راوية يرغب الناس في الأخذ عنه لصحة روايته وعلو سنده، ويستجرونه من مختلف البلاد فإنه كان يأكل من كديده. يقول ابن صاحب الصلا : «كانت له بضاعة يديرها في صناعة البز، فيتعيش بما يفيء الله عليه فيها من ربح توفي عام 616 هـ» ومن هؤلاء الاعلام الأندلسيين الذين طرحت بهم الغربة الى مكناسة الزيتون أيضا الرواية المسند أبو محمد عبد الله غلام الرئيس أبي عثمان سعيد بن حكم القرشي صاحب جزيرة مينورقة من الجزائر الشرقية المعروفة اليوم بجزر البليار، فعندما مات أبو عثمان سعيد بن حكم، خلفه ولده، وسقطت مينورقة في يد الكطلانيين، هاجر هذا السيد الذي كان يخدم الرئيس أبا عثمان واستقر به المقام في الأخير في مدينة مكناسة، ونجد الرحالة العبدري يتحدث عنه ويرغب في الأخذ عنه، ومن هؤلاء أيضا الذي أشار اليه الأستاذ الجليل سيدي محمد المنوني أبو القاسم بن الأبرش، خلف ابن يوسف وكان نحويا كبيرا، فقد درس في مكناسة زما وأخذ عنه ناس بها.

ولا أقصد في هذه العجالة طبعاً الى الاحاطة بأعلام الأندلسيين الذين حلوا بمكناس وبعضهم توفي بها، ومعنى ذلك أنهم كان لهم نسل كبير بها وبقيّة حتى نهاية العصر المريني، ولكنني أشير الى بعض ما ذكره ابن غازي في الروض المتهون مثل أبي العباس أحمد البيطري وأصله من بطرنة بشرق الأندلس، وأبي زيد عبد الرحمان القرموني من قرمونة بالقرب من اشبيلية والقاضي أبي عبد الله الغرناطي وأبي عبد الله القوري نسبة الى قورة، وهي بلدة قريبة من اشبيلية وباسحاق ابراهيم الحجري نسبة الى حجر عين وهو من شاطبة وكان

طيبيا وهو الذي يمدحه الشاعر الأندلسي المعروف ابن خفاجة بقصيدة موجودة في ديوانه ومنه أيضا القاضي أبو العباس أحمد الشريشي، وكذلك الولي الصالح سيدي أحمد بن عاشر، قال ابن غازي : «ومسجده مكناسة معروف ومنها انتقل الى سلا على أن أخطر أندلسي عرفته مكناس هو أبو المطرف أحمد بن عمير الخزومي الشقري الذي تولى القضاء بها في فترة دقيقة وعصيبة؛ وأبو المطرف هذا شخصية علمية وأدبية وسياسية كبيرة يمكن القول بأنه كان أكبر كاتب في عصره في المشرق وفي المغرب على السواء وكانت له أدوار سياسية في الأندلس وفي المغرب، فقد تولى الكتابة للسادة الموحدية بالأندلس في بلنسية ومرسية ولن خلفوهم عليها كزيان بن مردميش وعزيز بن خطار، ثم وفد على الموحدية في مراكش، فأستندوا اليه القضاء في هيلانة ثم في العدوتين الرباط وسلا، وأخيرا في مكناسة الزيتون، قبل أن ينتقل الى سبتة ومنها الى الحفصيين حيث قضى أيامه الأخيرة، وكان مقربا من المستنصر الحفصي، ربهنا الآن أن نشير الى الفترة التي قضاها في مكناس على إثر وشايات من خصومه الى السعيد الموحدية، وكان هذا النقل عامل تحول في اتجاهه السياسي، إذ أنه فقد الأمل في دولة الموحدية بالمغرب، وأصبح يتطلع الى آفاق الحفصيين في افريقيا منتظرا سنوح الفرصة لهذا الكاتب المشهور، ومن جملة ما يقصه علينا هنا بأسلوبه الطريف، وأنا في هذا الحديث لا أتحدث حديث طيب في مدينة مكناسة، وهو يقص علينا هنا بأسلوبه الطريف، وأنا في هذا الحديث لا أتحدث حديث المؤرخ وإنما أتحدث كذلك حديث الاديب فلا بأس أن أقرأ عليكم بعض الفقرات من كلام ابن عمير الخزومي يقول مجيبا صديقه أبا الحسن بن فتران قاضي فاس يومئذ : والحال علي ما يسره لولا بقية من الرمد آلت جريا ولم تبق في الكتابة أريا وقيل لاحيلة في طرده إلا بجوده، وحسبت أن الأمر قريب وأن المجتهد مصيب وإذ عنت لعالم لايدري إلا بقاء وقائم لايجسن إلا لقاء فإذا الدم يسيل والجسد يستحيل وهمة الحديد لايدخلها تسهيل ونعمته في الحفن منها الخفيف والثقيل ومرت لي ساعة كلها فظاظلة وفضاعة وأنا الآن في ورطة احتماة وثأطة مدت بماء والله يرزقنا... الخ.

و- وصف مكناس ويتحدث عنها في بعض شعره كما يقول : «ثم طوحت لي (متحدثا عن بعض الأندلسيين الذين جاءوا الى هذه المدينة) وبه الطوائف وأئس من خير القليب الماتح والماتح، ومرت لي الأقدار هذا المغرب وعينه حمئة ... الى آخر الفترة الموحدية والواحد تعترية فيه من الخطوب مائة، بعد أن شارف هناك نظرة العود وجاوز حضرة الجود بدا له أن يتبطن بعد الخيم ويتنقل في هذا الاقليم، وصل في هذا البلد، فلولا درية بعضها من بعض وبقية من حسب خالص وكرم محض جادته سماؤها والأرض هامة والألف جامدة لكان أضيع من مغن وسط وأضيق مجالا من حية في سفظ، ونعم ما قيل في ناس مكناسة بيض الظبا والظبا محمرة عادية وساحة الأنس أصبحت عافية لولا بنو العافية» (وبنو العافية الذين يشير اليهم هو البيت الكبير المعروف بمكناسة الذين ينتسبون الى الأمير موصل بن أبي العافية كما هو معروف)، يهنا أن نشير الى أن هذا القاضي الذي أقام بمكناسة في تلك الحقبة التي أصبح المرينيون يسيطون فيها نفوذهم على الاقليم بدأت بمنازة حتى إنه قامت ثورة في مدينة مكناسة تزعمها عامل البلد فيما تقوله بعض المصادر وهو أبو الحسن علي بن العافية وقتل عامل الموحدية وأمر ابن عميرة أو ندب نفسه لكتابة البيعة الى الحفصيين من تونس، ويشير الى هذه البيعة كما تعرفون موجودة في البيان المغرب لابن عذاري في قسم الموحدية بنصها الثابت ومما جاء في هذه البيعة : ومكناسة هي التي ولجت في هذا الباب (يعني باب الولاء للحفصيين) وأسرجت وليل الخطوب مرخي الجلباب، ورأت فرجة الفرصة فصنت أي أسرع، وقيد إليها في يد القهر وانزهها من عوادي الدهر فاقتصت (يشير الى ما فعله الموحدون في أثناء حصارهم لمكناسة قبل أن تستسلم لهم في ذلك الحصار الطويل المشهور، وعلم أنه لا يصلح بعد التقصير عذره ولا تقبل بعد الفتح هجرة (يقصد أنها كانت سبافة)

هنا أشير الى أن ابن عميرة لم يكن يفرق في الحقيقة بين الحفصيين والموحدين، فالحفصيون هم فرع من الموحدين فليس معنى هذا وإنما كان يغلب فرعا من الأسرة على فرع آخر، وبطبيعة الحال فقد كان الحفصيون في هذه الحقبة في الأوج وفي الصعود، بينما كان الفرع الموحدى في الانحدار، وبعد هذه الحقبة أو الأزمة التي مرت به بأن السعيد الموحدى خدم أو جاء الى مكناسة جالبا اليها بحمله وبرجله فتراجع أهل مكناسة وأخرجوا الى السعيد من خارج الأسوار الأطفال ومعهم المتصوف المعروف ابن حزوزة مستشفعين به وضارعين في أن يسمح لهم، وكتبت بيعة جديدة بقلم الكاتب المكناسي المعروف ابن عبدون الذي كان معاصرا لابن عميرة.

نختم هذه السلسلة من أسماء الأندلسيين الذين سكنوا مكناسة ولماذا سردت هذه الأسماء؟ لأن في الحقيقة لهذه الكمية — ونحن لم نخصها كلها — دلالة في أن يكون هنالك عالم مشهور أو كاتب كبير في مادة كالتحو مثل ابن الأبرش ليحرك الحركة العلمية والثقافية في مدينة صغيرة كمكناس يومئذ، نختم هذه السلسلة من أسماء الأندلسيين الذين سكنوا مكناسة أو زاروها الى نهاية العصر المرابطي ابن الخطيب فقد زار كما هو معروف مكناس وكتب عنها كتابة ممتعة وقال فيها شعرا جميلا، ووصف أحوالها العمرانية والاجتماعية في عصره وتحدث عن علمائها، وتبادل وإياهم الرسائل والاشعار كرسالة القاضي ابن أبي رمانة، وشعره الى الأديب جنان، ونقرأ كل هذا في كتابة نفاضة الجرار وفي مقامته البلدانية التي أطرى فيها مدينة مكناس.

هذه لمحات قصيرة عن الهجرات الأندلسية الى مكناس، وتم في مقابل ذلك هجرات مكناسية الى الأندلس، فقد هاجرت مجموعات من أولاد مكناس التي تنسب الى هذه المدينة الى الأندلس، واستقرت فيما يعرف بالغر الأعلى وكان لهم الفضل في المحافظة على الاسلام في شمال الأندلس الذي يعرف في اصطلاحهم بالجوف أي الشمال، وأسسوا هنالك الموقع المعروف في كتب التراجم مكناسة الجوف تمييزا لهم عن مكناسة الزيتون وعن مكناسة تارة، وينسب الى مكناسة الجوف هذه بعض الأعلام وكان من هؤلاء المكناسيين قادة وزعماء مذكورون في العهد الأموي ومنهم الحضرة أسرة بني الأفطس أصحاب مملكة بطليوس في عهد الطوائف الذين رثاهم ابن عبدون في قصيدته المعروفة :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الاشباح والصور

وما يزال موقع مكناسة موجودا على الخريطة الاسبانية الى اليوم عندنا بعض الاعلام المكناسيين الأندلسيين لانستطيع أن نقطع بأنهم ينتسبون الى مكناسة الجوف أو الى مكناسة الزيتون مثل المقرئ محمد بن فرج المكناسي الشاطبي شيخ القراء بهذه المدينة وحفيده محمد بن عبد الرحمان بن محمد بن فرج المكناسي الذي له برنامج أسماء التعريف وأضمنه أسماء شيوخه، ومثل الكاتب البارع أبي محمد عبد الرحمان بن محمد السلمي المكناسي الذي قرأ بمرسية وكانت عارفا بضرورب الآداب واللغات ذاكرنا أيام العرب ورجالها وفرسانها كاتبا بارع الكتابة جيد النظم حلو الأغراض في الجد والهزل، ينشئ الرسائل اللزومية دون نقل، وبلغ في التزام اللزوم مبلغ عجز فيه غيره وله رسائل جليلة منها القهقرية تقرأ بالرجوع الى القهقرى، والمفاخرة بين السيف والقلم وبين العدة وبلاد الأندلس، ولكن هناك أعلاما آخرين نعلم بالقطع أنهم من مكناسة الزيتون، عاشوا في الأندلس مثل علي بن حمود المكناسي الذي جمع بين الجهاد في الأندلس والحج الى الديار المقدسة حيث أصبح إمام الحرم الشريف الى أن توفي سنة 573، ومثل أبي بكر بن عتيق بن علي المكناسي المعروف بالفصيح، تفقه بالخلافية في العراق ولاة الموحدون القضاء في الجزيرة الخضراء ومثل أبي عبد الله محمد

بن عبد الله الركلاوي المكناسي الذي رحل الى الأندلس ودرس بأشبيلية على القاضي أبي بكر بن العربي، وثمة أسرتان كانت لهما الحظوة عند الموحدين أولهما : الأسرة التي أشار اليها الأستاذ المنوني وهي أسرة بني زنبوش أو الزغابشة الذين بادروا بالانضمام الى الموحدين، فكانت لهم الحظوة على أيامهم، وانتقل كثير منهم الى الإقامة بالأندلس واستقروا بها وكان لهم ذكر فيها، وقد ذكر عبد الملك في التفضيل والتكملة جماعة من هؤلاء سواء منهم الذين استقروا بالأندلس أو الذين كانوا يتولون مناصب ووظائف في عهد الموحدين بالمغرب.

والأسرة الثانية — قبل أن أختم — هي أسرة بني عطوش، هؤلاء أيضا يبدو أن بعضهم انتقل الى شرق الأندلس وأقاموا فيها، إذ نجد في التكملة لابن الأبار ذكرا لبريخ بيلنسية يعرف بريخ بني عطوش هذا ما أمكنني الآن أن أذكره من خلال هذا العرض الذي ربما سيكون أكثر حجما وأعمق تحليلا عندما يقدم للطبع.

في التاريخ المنوغرافي نموذج الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون

الأستاذ. بنسالم حميش
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة محمد الخامس
الرباط

من نافلة القول التذكير بأهمية الدراسات المنوغرافية أو القطاعية في بناء التركيبات الجامعة وفي تقدم العلوم على اختلاف أصنافها ومراتبها. ذلك أن تقصي أحوال الأجزاء وأخبارها هو الشرط الأكيد أو المر الضروري لمعرفة الكليات والاحاطة بها علما.

على ضوء هذه المقدمة يمكننا النظر الى النموذج الذي سنعرض له وتحليله كنموذج يقدم المدينة — وهي بالمناسبة مدينة مكناس — كخليه أو ميكروكزم من شأنه أن يعكس التاريخ الكلي ويتفاعل معه.

صاحب الرقيقة هو بن غازي العثماني، المكناسي المولود سنة 814 هـ/1437 م والفاسي الاقبار سنة 919 هـ/1513 م. وهو ينتمي الى أسرة منحدره من قبيلة كتامة الهبطية. وقد عاصر بن غازي هذا نهاية المرينيين وقيام الوطاسيين كولاة تم كسلطين مع محمد الشيخ ومحمد البرتغالي. (وتولى هذا الأخير السلطة في السنة التي توفي فيها بن غازي).

هناك شكوك حول نسبة هذه الرقيقة الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون الى بن غازي، أولا لأن هذا المؤلف لم يعود الناس على الكتابة البسيطة المستهله، ثانيا لأن هناك في الصفحة 12 من النص إشارة الى ابن زغبوش كواضع لتقيد ضائع يقول بن غازي أنه نقل عنه، ثالثا لأن بن غازي أصلا فقيه وليس مؤرخا... المهم في تصورنا ليس هو صحة انتساب هذه الرقيقة الى مؤلف بعينه، بل إنه مضمونها وإفاداتها التاريخية. لذا لن نتوقف عند ترجمة ابن غازي اللهم إلا مذكرين بعلم الرجل الفقهي وبروزه في الملكية والخليلية وفي المعارف الاسلامية عامة، بحيث أنه بعد رحيله عن مكناس مدينة مولده الى فاس على إثره مشادة بينه وبين والي مكناس الوطاسي سنة 891 هـ كانت له، بالإضافة الى مهمة التدريس بالقرويين، رئاسة الهيئة العلمية التي أضفت عليه لقب شيخ الجماعة... كما أن مترجميه: ابن عسكر (في دوحه الناشئ) وأحمد بابا (في نيل الإبتهاج) والكثاني (في سلوة الأنفاس)، يذكرون أنه شارك في عدة عمليات عسكرية ضد النصاري على الساحل الأطلسي، آخرها في ثغر أصيلا...

بعد هذا الاستطراد، نأتي الى الرقيقة (بغض النظر عن هوية صاحبها) فنلاحظ أن أهم الاحالات فيها هي الى نفاضة الجراب لابن الخطيب وكتاب العبير ... لابن خلدون والتقييد الصانع لابن زغبوش وأرجوزة نزهة الناظر لابن جابر. أما الافادات في منها فيمكن تقسيمها على النحو التالي :

أولا : جغرافيا وسكانيا :

قبل الفتح الاسلامي كانت مكناسة دار مجوس ونصارى، ويقصد بهم المؤلف الرومان، وحاضرنا إذ داك وليلي بأرض خيبر من ناحية جبل زرهون. وأما المدينة في حد ذاتها فلم تكن في القديم إلا مجموعة من الحوائر المتفرقة وهي تاورا وبنو عطوش وبنوبرنوس وبنو شلوش وبنو موسى. وأهم هذه الحوائر تاورا لأنها أولا تقع مع الحوائر الأخرى على الضفة الغربية من واد فلل أو بوعمائر وكذلك على ضفته الشرقية، كما أنها، ثانيا، أقرب الحوائر الى المدينة القديمة (القائمة الآن) من جهة باب البراديين... ومن الحوائر المهمة أيضا بنوزياد وورزيعة.

أما سكان هذه الحوائر فغالبيتهم أصلا من قبيل مكناسة الزناتيين (وفخذ منهم بتازة) إلا سكان ورزيعة فأصلهم من الروح (1) وسكان قرية الأندلس قرب حارة بني زياد وهم أندلسيون وافدون.

وأما في موضوع الغراسات فإن بن غازي يأتي ببعض التفاصيل المهمة حول نوعية وقيمة الفواكه الصيفية والخريفية والورد والمزارع ومسارح الزيتون، وهي كلها تتعشربفضل مياه بوعمائر وعميون وما كان منه محولا في شكل جداول وسواقي (كما في حارة بني زياد البعيدة عن الوادي). ومن جملة الافادات الجيدة في هذا الباب ما يذكره المؤلف عن مخمور مكناسة التي كان يستخرج أجوادها من عنب المترووي بحارة بني زياد المذكورة. ومما يقول بن غازي عن هذا العنب : «وهو عنب أبيض شديد الحلاوة ولا سيما الأنثى منه ويذكر أنه من وقته لا يستحيل خمرا إلا عند اعتدال الزمان. ومن غلوهم فيه أنهم يقولون أنه يستصبح بخمره (ص 4). ولا تقول الرقيقة شيئا عن مصير هذا الخمر من حيث التسويق والاستهلاك....»

غير أن هذه الغراسات جميعها تعرض للتلف بحكم القلاقل والتقلبات السياسية. وهذا المعنى يكتب ابن غازي : «وقاد باد زيتون مكناسة لهذا العهد (النصف الثاني للقرن التاسع) إلا قليلا بما توالي عليها من الفتن والبقاء لله وحده. (ص.3).

ثانيا — على الصعيد السياسي والاجتماعي

سياسيا : تأتي الرقيقة بإفادات حول مواقف مكناسة من الدول التي أتت الى المدينة راغبة فيها :

1 — مع الادارسة : لم تكن هناك إلا وليلة التي تسكنها قبيلة أوربة، ونعلم الدور الذي لعبته هذه القبيلة في نصره ادريس الأول وقيام الادارسة ابتداء من 172 هـ.

2 — مع المرابطين : بدأت المدينة تنشأ، بحيث أن الادريسي في نزهة المشتاق يقول بأنه لم ير أعمر منها. ويسجل بن غازي من جهته : «وكانت هذه الحوائر كلها في غاية من الخصب وكثرة المياه والأشجار. وكان أهلها آمنين مطمئنين في عيش رغيد ونعمة تامة منذ ملك أمراء المسلمين بنو تاشفين بلاد المغرب وأحمد الله تعالى بسيفهم نار الفتنة البربرية فانقطعت مطامع رؤوس النفاق من بربر المغرب (ص 5). وهذه الجملة الأخيرة تفيد أن فتح المرابطين تلك الحوائر لم يتم إلا بالحرب وخذ السيف... والجدير بالاشارة أن

إجراء تحصين تلك الحوائر لم يبدأ إلا مع المرابطين إبان ظهور الخطر الموحدى، إذ بنى المرابطون على غرب وادي بوعمائر حصن تاجدارت (أى المحلة أو المجتمع بلسان البربر) وبرج ليلة الذي لاندرى أين كان موقعه بالذات...

3 — مع الموحدين : وهنا لا بد من وقفة، أبدت مكناسة بزعامة وليها المرابطى يدر بن ولجوط مقاومة شديدة جريئة لحصار الموحدين الذى دام أربع سنوات على أقل تقدير. ولم ينته إلا بسبب تدهور أحوال المخاصرين واضطرار الناس الى أكل خسيس الحيوان وكذلك بسبب لجوء الموحدين الى الخديعة واستعانتهم بقبائل زهون الطامعة فى التحلل من المغارم.

لنسرذ باختصار لوحتين مأساويتين فى قصة غزو الموحدين لمدينة مكناس، وذلك للتأكيد على ثابتين فى تاريخ المغرب الوسيط، وهما من جهة أن مؤدى التعارض المذهبى كان فى الغالب الأعم التفكير المتبادل، ومن جهة أخرى أن الوجه الآخر لممارسة السياسة كان هو الموت.

اللوحه الأولى : «وكان أهل الحصن وأهل الحوائر يجتمعون الى تلك السوق (سوق الغبار) يوم كل أحد، فبينما هم يوم أحد قد اجتمعوا وكملوا بالسوق المذكورة وهى بأرض مرتفعة إذ أشرفوا على خيل مقبلة اليهم فى زى المرابطين : اللثم والعقائير القرمزية والمهاميز التاشفينية والسيوف المحلاة والعمام ذوات الدؤابات. فلما رأى القول هذا الزى قالوا : تقوية السلطان جاءتنا وسارعوا للقائهم فرحين بهم وهبطوا عن آخرهم. فلما خرجوا عن منع الحصن والسوق حسر الفرسان اللثم ونادوا : أبابايا المهدي وكان ذلك شعارهم وأحالوا السيوف عليهم ولم ينبج واحد منهم فيما ذكر وكانوا آلافاً رحمهم الله. ومازال الناس لهذا العهد يتحدثون أن المقابر التى عند باب مسجد السوق القديم هى مقابر شهداء، فلعلهم هم والله تعالى أعلم. وكان الموحدون حينئذ يسمون الناس المحسمين ويقاتلونهم قتال كفر وكان الناس يسمونهم حوارج. ولم تزل الغارات تشن عليهم فيقتل الرجال ويسبى النساء والذرية وتستباح الأموال، والتضييق يتوالى والمكائد تدبر والحيل تدار حتى ضاق ذرع الناس بكثرة الوقائع عليهم» (ص 6).

اللوحه الثانية : «ومن الأخبار التى كانت مشتهرة عند أهل الوطن أنه كان بأحواز تاورا شجرة كبيرة من النشم الأسود المسمى بالنفصاص بأشمام الصادين زابين وربما يكتبه المتفاصحون التفصاص بقاف وصادين. فبينما الناس قد انبسطوا لتدبير أشغالهم ومعايشهم إذ فاجأتهم الخيل وأحاطت بهم فلجأوا الى تلك النشمة وظنوا النجاة فيها، فتعلق بها منهم خلق كثير وضم الموحدون الحطب لتلك الشجرة وأضرموا النيران حولها فسقط كل من كان فيها واحترقوا عن آخرهم واحترقت النشمة، وبقيت منها مدة من الزمان وكانت عند أهل الأوطان من جملة مواظ تلك الفتنة» (ص 6 — 7).

والجدير بالإشارة أن صاحب الروض الهمتون يذكر تاريخ دخول الموحدين الى مكناسة بعد حصارها الطويل — وذكر التواريخ من خصال المؤلف الحميدة — وهذا التاريخ هو 545 هـ.

4 — مع المرينيين : كان فتح مكناسة أسهل لأسباب أهمها فى استخلاصنا.

أم إن ذلك الفتح تم بدءاً، كما ينقل بن غازي عن ابن خلدون، بواسطة أمر بمبايعة السلطان الحفصى بتونس. وجهه أمير المرينيين إلى أهل مكناسة، مصطنعاً بهذا استمرار المشروعية المحسمة فى الحفصيين ورتاء الموحدين الشرعيين.

(ب) إن مكناسة، كما يسجل ابن غازي «اختلت بمجور العمال وأخذت في النقص من سنة كائنة العقاب وكانت في صفر من سنة تسع وستائة» (ص 12)

(ج) إن بني مرين، وهذا ما لم يذكره ابن غازي، بالإضافة إلى القرابة الزناتية التي تربطهم بقبيل مكناسة، لم يأتوا ببدعة عقديّة، كما فعل الموحدون الأوائل.

(د) إن ثورة علي ابن العافية على عامل الموحدين بمكناسة، وإن فشلت نسبياً، ساهمت في تمديد المدينة لتمكين بني مرين منها.

أخيراً لا بد من ملاحظة تؤكد ما قد نسميه بالطابع اللاتراكمي أو «التسالي» في تاريخ التعمير المغربي، وهي أن مع قيام المرينيين : «أنت، كما يسجل صاحب الرقيقة بالحرف، الفتنة على الحوائر المذكورة كلها، ولم يبق منها إلا الصوامع والحدارات العتيقة، وآخر ما خرب منها وذثر ورزيفة بعدما كانت هذه الحوائر شاركت المدينة المذكورة بعد بنائها في كثرة العمارة، والبقاء لله وحده» (ص 12).

- (اجتماعياً، هناك طي الروض الهتون إشارات واضحة إلى واقع التمايز المجتمعي الذي يظهر في عمقه وحدته المأساوية أيام الفجائع والحصارات وتمثل على ذلك بإشارتين دالتين فقط :

أولهما هي أن العامل المرابطي يدر بن ولجوط السالف الذكر لما أقام حصن تاجدارت (وهي المدينة القديمة اليوم أو جزء منها) فإنه لم ينقل إليه حسب تسجيل ابن غازي إلا «وجه الناس وأغنياءهم، ولم يترك من الأقوات شيئاً إلا نقله إليها وترك جمهور الناس في مواضعهم» (ص 6)، أي عرضة لغارات المحاصرين، كما أتى في اللوحين السابقتين.

ثانيهما إشارة مهمة جداً حول ما يمكن تسميته في تاريخ الغصب بداء القشاشين ودواء الترك. ذلك أن الموحدين لما دخلوا مكناسة وأعملوا في سكانها العزل السيف لمدة يوم كامل : «بقيت المدينة خالية إلا من فل الموت قتلاً وجوعاً، وتفرق ذلك الفل وانتثر عقد نظام الناس وجلا بعضهم واشتغل بعضهم بطلب المعاش وتعلقوا بالحرف والصنائع. وتملك الموحدون البلاد والأموال وصار الناس عمالاً في أملاكهم يؤخذ منهم نصف الفواكه الصيفية والحريفية وثلاث غلة الزيتون. وكانت العادة إذا بدا صلاح الغلات يباع حظ المخزن منها حارة فحارة. وكان المشترون لها قوماً لاخلق لهم، يقال لهم القشاشون. فتستطيل أيديهم على حظوظ الرعية ويضيقون عليهم حتى يبيعوا منهم حظوظهم بثمن بخس أو يشتروا منهم حظ المخزن غالباً. فكان الناس من ذلك في جهد عظيم ومحنة شديدة لا يتجرأ أحدهم أن يقطف من ملكه حبة واحدة. ثم قوطعوا بعد ذلك على الفواكه وخفف عليهم في شركة الزيتون. وكان السبب في المقاطعة والتخفيف فرار الناس عنها بسبب الجور وتركها حتى تبورت، فصلحت بسبب المقاطعة أحوال الناس ونمت أموالهم وامتدوا في الأحياء والغراسات....» (ص 10).

بالإضافة إلى هذه الإشارات المفيدة، هناك في الروض الهتون أخبار عن أهم الخدمات والأعمال ذات النفع العمومي والتي تمت بصفة خاصة مع الموحدين والمرينيين، وهي على الأجمال جوامع وسقايات وحمامات ومدارس تعليمية وقضائية وقناطر وأبواب.... فمنها ما تدمر وقامت فوق الغراسات والعرصات، ومنها ما زال ماثلاً ويعرفه المكناسيون اليوم اسماً وموقعا، فلا حاجة إلى ذكره وتعدادده....

ينتهي الروض الهتون بالإشارة إلى محنة مكناسة وعذابات سكانها إبان انهيار المرينيين مع السعيد بن

عبد العزيز (أي أبي السعيد الثالث) وتسلط الثائر الشيخ اللحياني الورتاجني وقائده أيوب بن يعقوب على المدينة لمدة عشرين عاماً، أي طيلة العقدين الثالث والرابع للقرن التاسع، وذلك إلى حين خلاص مكناسة على يد الأمير أبي زكرياء الوطاسي. وهنا تنتهي الافادات السياسية عن مدينة مكناس في الروض المhton ويبدأ الأخبار عن الأسر المكناسية ومنها أسرة الزغابشة وعن رجالات المدينة في ميدان الفقه والعلم والقضاء.

رجاؤنا في آخر هذا العرض السريع للروض المhton في أخبار مكناسة الزيتون أن تنضاف هذه الرقيقة إلى مجمل الكتابات الشاردة الأخرى في مصنف حول تاريخ مكناس العام، وذلك حتى تتعمق معرفتنا التاريخية بالحاضرة الاسماعيلية الكبرى وتيسر أسباب العمل فيها ولصالحها حاضراً.

الوجود المغربي في المشرق من خلال تراجم أعلام مكناس في مصادر مشرقية

الأستاذ حسن الصادقي
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة محمد الخامس
الرباط

بسم الله الرحمن الرحيم
السيد الرئيس، أيها الحضور الكريم
باديء ذي بدء أتقدم بالشكر الى الذين سهروا على إعداد وتنظيم هذا اللقاء في رحاب هاته الكلية.
وماذا يمكن للمرء أن يقول في مثل هذا اللقاء، إلا أن يعترف لهاته الحاضرة ولرجالها بالتقدير والاعجاب.

وإذا كانت مكناسة حاضرة معنا ومثلة في حضور أبنائها بيننا ومثلة كذلك في شخص شيخنا الفقيه العالم الرحالة الأستاذ محمد المنوني أبقاه الله وأبقى جميع شيوخ العلم ذخرا للباحثين والمثقفين، فإنها ممثلة كذلك في أعلامها الذين نبغوا في مختلف العصور ومن مختلف الميادين كابن غازي وابن القاضي والمولى اسماعيل وابن زيدان وغيرهم من الاعلام الذين تواجدوا في المغرب والمشرق.

إذ خلال تناولي بالبحث في موضوع التراجم المغربية الدفينة في العصرين الوسيط والحديث استرعى انتباهي وجود لأعلام من مكناسة رحلوا الى المشرق وغيره من أقطار العالم الاسلامي واستقروا بصفة نهائية هناك.

ويعتبر الكشف عن هؤلاء الاعلام من بين غايات هاته الدراسة نظرا لما تسمح لنا به نصوص تراجمهم من عرض الجديد في حياة هؤلاء الاعلام بقي مغمورا في بطون الكتب.

كذلك هناك غايات أخرى تجلّي فيما يمكن استخراجه من هاته النصوص من معطيات متنوعة ثقافية واجتماعية واقتصادية ودينية...

(*) رسالة ليل د.د.ع في التاريخ — كلية الآداب بالرباط تحت إشراف الأستاذين محمد زبير ومحمد المنوني نصوصها مرقونة.

هاته النصوص التي استخرجناها إذن هي نماذج لما أسعفنا البحث وعمئنا عليه، وإلا فإن التراجم لأعلام يمكنس أكثر من هذا العدد الذي استخرجناه.

تواجد المغاربة بشكل أو بآخر في عدد من أقطار العالم الاسلامي ومثل ذلك أحد وجوه العلاقات بين المغرب الأقصى وباقي الأقطار الاسلامية الأخرى بصفة عامة والمشرقية منها بصفة خاصة، وكان لهذا التواجد أسباب ونتائج.

وطبيعي أن يتجه الباحث أولاً نحو المصادر التي ترشده الى هذا التواجد وتوضح بعض صورته ودوافعه وما ترتب عنه، وتعطيه بعض الاجابات عن تساؤلاته.

وكما هو معلوم فالمصادر متنوعة ومتعددة خاصة كتب الحوليات والرحلات، لكن خروجاً عن التقليد المتبع في استخدام مثل هاته المصادر، ارتأيت أن أعتمد بالأساس على نوع آخر من المصادر ويتمثل في كتب التراجم المؤلفة خارج المغرب، المشرقية منها بالخصوص وهذا ليس من مبدأ خالف تعرف، ولكن محاولة مني لفت انتباه الباحثين والمثقفين الى ضرورة الاهتمام بكتب التراجم وقراءتها من جديد، فعلى أي أساس تم اختياري لهذا النوع من المصادر ؟

التراجم والتاريخ

قبل محاوره هذا السؤال، لا بد من الإشارة أولاً الى مدى الارتباط الموجود بين التراجم والتاريخ، وهذا ما جعل من التراجم نوعاً آخر من التاريخ أطلق عليه اسم «كتب تواريخ الرجال». وساهمت بصفة خاصة في كتابة التاريخ الاسلامي منذ بدايته (وبذلك أصبح التاريخ في أذهان كثير من المسلمين مرادفاً تقريباً للتراجم وسير الرجال) (1) ولا يجب إغفال ما لكتب التراجم من أهمية في مجال البحث التاريخي. إذ أنها تشكل وثائق حية لعصر ما لما تتضمنه من معلومات متنوعة. ودراستها تعطينا قابلية معرفة التاريخ السياسي والاجتماعي والثقافي والديني لمنطقة من المناطق أو بلد من البلدان (لأن كتب التراجم لا تخلو من استطرادات تتعلق بجوانب من حياة البلاد الداخلية) (2) وهذا ما جعل البعض يقول : «إن الترجمة قد تلخص فترة كاملة» (3) وليس بمقدور المثقف عامة والمؤرخ خاصة، الاستغناء عن كتب التراجم بأية حال من الأحوال، إذ أن الوثائق والنصوص لا يخلو منها ذكر علم من الأعلام، ومفتاح حل بعض الغموض الذي تتضمنه النصوص يتمثل في كتب التراجم «لأن الكشف عن الأعلام التي يكثر ورودها في النصوص والوثائق يزيد هذه النصوص والوثائق وضوحاً ويقربها من الأفهام» (4).

وبعد فعلى أي أساس جاء هذا التبرير لكتب التراجم وما هو الدافع الذي جعلني أعتمد عليها بالذات ؟

للإجابة على ذلك يجب التذكير بالمكانة والأهمية التي تكتسبها كتب التراجم المشرقية في الدراسات التاريخية.

مكانة كتب التراجم المشرقية :

بعد الاطلاع على كتب التراجم المشرقية وقراءتها وجدنا أن أهميتها تتجلى في النقاط التالية :

(1) إنها تعتبر من المصادر الدفينة لتاريخ المغرب لأنها ألقت خارجه.

2) أنها تمكن الباحث المغربي من استخراج تراجم مغربية دفيئة وشبه مجهولة خاصة تراجم الذين وجدوا بالشرق واستقروا به وعاصروا مؤلفي كتب التراجم.

3) أنها تضم إفادات وتمدنا بمعلومات عن الجانب الثقافي والاجتماعي والديني والاقتصادي والعمراي... الخ. فهي تحتفظ لنا بأسماء الكتب التي ألفها المغاربة في المشرق والعلوم والآداب التي درسوها أو درّسوها وأسماء الشيوخ والتلاميذ والمدارس والزوايا والمدن التي استقروا بها وزاروها والطرق التي سلكوها...

4) إنها تعطينا بعض الاجابات عن العلاقات بين المغرب والمشرق بل والعالم الاسلامي ككل، نوعيتها، ودوافعها، نتائجها. وهذا على سبيل المثال لا الحصر إذ أن كل باحث يجد ما ينشده في نصوص هاته التراجم.

وانطلاقا من هاته الأهمية وجهت اهتمامي إلى هذا النوع من المصادر وتمكنت من الخروج بنصوص تراجم تهم المغرب الأقصى، وكان من بينها أعلام من مكناس وجدوا في المشرق في العصر الوسيط والعصر الحديث.

نصوص تراجم أعلام مكناس في المشرق : (5)

يتمكن الباحث في كتب التراجم المشرقية من استخراج نصوص تراجم لاعلام من مكناس خاصة والمغرب عامة.

والجدير بالملاحظة أن بعض النصوص لاتعطينا المعلومات الجغرافية الكافية. خاصة مكان ولادة المترجم له. بينما تحدد مكان الوفاة بل وحتى مكان الدفن لأنها تكون بالمشرق.

وفيما يخص أعلام مكناس نجد :

- إما إشارات الى مكان الولادة بمكناسة الزيتون.

- أو إشارات الى نسبة المترجم له إلى مكناس.

والنصوص التي استخرجناها هي للآتية أسماؤهم :

- علي بن عبد الله المكناسي ت 571 هـ.

- محمد بن عبد الله المكناسي ت 592 هـ

- منصور بن حمزة الجاحص المكناسي بعد 595 هـ

- أبو عبد الله محمد المكناسي ت 656 هـ

- محمد بن علي المكناسي ت 657 هـ

- عبد الملك بن علي المكناسي ت 771 هـ

- محمد بن عبد الرحمن المكناسي ق 9 هـ

- يحيى بن يوسف المكناسي ق 9 هـ

- عبد الرحمن بن أحمد المكناسي ت 1085 هـ

- حسن بن أحمد المكناسي ت 1101 هـ

- محمد بن أحمد المزطاري المكناسي ت 1107 هـ.

ماهي الحصيلة التي يمكن الخروج بها من خلال قراءتنا لنصوص هاته التراجم ؟

إن القارئ لنصوص التراجم المغربية والمكناسية منها، ليخرج بانطباع أولي هو الوجود الفعلي والواضح لشخصيات مغربية في عدة أقطار من العالم الاسلامي عامة والمشرق خاصة.

والحديث عن هذا الوجود يدعو بالضرورة التي التساؤل عن أسبابه ودوافعه إذ لا يذكر وجود مغاربة في المشرق دون أن يتبادر الى الذهن البحث عن أسباب وجودهم.

وقبل طرح هاته الأسباب والدوافع يجب الاشارة إلى أن الحدود الطبيعية والسياسية لم تمنع حركة التنقل بين مختلف أقطار العالم الاسلامي سواء بالقوافل البرية أو بالمراكب البحرية ورغم طول مدة الرحلة ومخاطرها.

I — أسباب ودوافع الوجود المكناسي، والمغربي عامة في المشرق :

يمكن استنتاج هاته الأسباب بالبحث في نصوص التراجم، وحتى تكتمل الصورة طعمت تراجم المكناسيين، بأمثلة من تراجم غيرهم من المغاربة الذين تواجدوا في المشرق.

وعليه فقد لا يختلف اثنان حول هاته الأسباب، مع ملاحظة أنها مرتبطة ببعضها البعض، ومتداخلة فيما بينها. ويمكن أن نجمل هاته الأسباب والدوافع في العوامل التالية :

1) العامل الديني :

كانت بلاد الحجاز والأماكن المقدسة، ولا تزال، المقصد الأول لكل مسلم تشد اليها الرحال من كل حذب وصوب، لاداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وبعد أداء مناسك الحج والزيارة، كان الحاج حسب رغبته وقدراته، يقصد المزارات الدينية الأخرى كالمسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين، وقبور الأنبياء والصحابة والاولياء في الشام ومصر وغيرها.

ومن خلال قراءة نصوص تراجم أعلام مكناسي يتبين لنا بوضوح أثر العامل الديني كدافع للرحلة، حيث كان المكناسيون، والمغاربة على العموم، يقبلون على الذهاب الى الأماكن المقدسة والمجاورة بها حتى إن البعض أدركته المنية في تلك الديار ودفن فيها (أنظر الجدول رقم : 1).

جدول 1 : جدول الاشارات المستخرجة من نصوص التراجم عن الأسباب الدينية :

الترجمة	الاشارة للسبب	ضبط في المصدر
محمد بن علي بن عطية المكناسي	سافر وساح وجاور بمكة دفعات	التقي الفاسي : العقد الثمين 159 : 2
علي بن عبد الله المكناسي	حج. وجاور و أم بالحرم توفي بمكة 573 هـ	نفس المصدر : 6 : 181
يحيى بن يوسف المكناسي	حج وزار المدينة وأقام بالبلاد الشامية سنتين	السخاوي الضوء اللامع 265: 10

المحبي خلاصة الأثر 2 : 346	حج سنة 1043 هـ وجاور بمكة ثم رحل إلى اليمن لزيارة من بها من الأولياء	أبيد الرحمن بن أحمد المكناسي
المجبري : عجائب الآثار 173 : 1	قدم مصر سنة 1074... وحج	نور الدين حسن بن أحمد المكناسي
المراي : سلك الدرر 4 : 34	رحل من دمشق إلى مكة المشرفة وتوفي بها ت (1107)	محمد المزطاري المكناسي
ابن حجر : الدرر الكامنة 451 : 2	قدم من بلاده إلى الحج	علي الرحمان السجلماسي
ابن حجر : الدرر الكامنة 152 : 3	رحل من بلاده للحج	ابن الحفيد علي بن عتيق الفاسي
المجبري : عجائب الآثار 348 : 2	ورد مصر حاجا	علي بن العربي السقاط الفاسي

(2) العامل الثقافي :

يعتبر هذا العامل من الأهمية بمكان، فقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم على طلب العلم والرحلة في سبيله حسب الحديث «اطلبوا العلم ولو في الصين».

ومن الملاحظ أن العامل الثقافي مرتبط بالعامل الديني فمع أن موسم الحج أولاً وقبل كل شيء موسم ديني، إلا أنه يعتبر كذلك ملتقى ثقافيا إسلاميا يجمع نخبة طيبة من العلماء، وإن جاز التعبير. فهو جامعة ثقافية إسلامية موسمية. يتسنى فيها للحجاج، الحضور العضوي في هذا الملتقى. ولا يقتصر هذا الحضور على النخبة المثقفة فقط بل يشمل حتى غير المثقفين الذين أتوا برسم الحج، إذ أن حلقات الوعظ والإرشاد والحديث وجلسات العلم والأدب كانت تعقد في رحاب المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف، يحضرها كل من يرغب في التفقه في دينه، وكل من يريد الاستزادة ولقاء فطاحل العلماء.

كما أن المرء يتمكن في هذا الموسم من الحصول على أخبار الكثير من البلاد الإسلامية، فهذا المحبي مثلا يقول : «فلحنا من الله علي وله المنة والمنحة التي لايشوبها كدر المحنة بالمجاورة في بيته المعظم والالتقاط من بحار أهليه الدر المنظم تلقيت من الأفواه تراجم لأناس بسيرة» (6).

هذا ولا يجب إغفال النقاط التالية :

- (1) إن طرق التدريس المعروفة، حتمت على طلاب العلم الرحلة لحضور حلقات الدروس والسماع من رواة العلم وكتابة من يعلي عليهم وطلب الاجازة منهم.
- (2) إن مدارس الشرق سلكت عامل جذب لطلاب العلم وأساتذته، إما للدراسة أو التدريس.
- (3) إن مقدار العالم لايعرف إلا بعدد الشيوخ الذين التقى بهم وأخذ عنهم أو أخذوا عنه أو تبادل الاجازة معهم «إذ تحتل فكرة ضرورة الأخذ عن الشيخ مباشرة والجلوس إليه أهمية كبرى في التعليم الاسلامي» (7).
- (4) إن الراغب في طلب العلم يجد المكان الذي يأوي إليه في المسجد والمدرسة والزاوية والرباط، بل

وحتى في دور شيوخ العلم.

وقد ذكر أبو عبد الله ابن مليخ في رحلته الحجازية أن بالجامع الأزهر خمس رواقات للغرباء من حملة القرآن ومن يتعاطى العلم من أهل المشارق والمغرب تجري لهم الأوقات من كل الأوقات. (8).

ونجد هاته الأروقة كذلك في القدس ودمشق، الى جانب الأوقاف التي حبست على طلاب العلم من المغاربة.

وأوضح مثال للدافع الثقافي أن الأديب الشاعر حسين بن قاسم الدرعي يصرح لمعاصرة القاضي عبد الكريم الطبراني حينما سأله عن سبب تقربه وقدمه إلى دمشق، قائلا «كان في نفسي مشاهدة أفاضل الديار الدمشقية والتعبد بالجامع الأموي حتى بلغني الله الأمل» (9).

ولم يتقاعس الشيخ محمد بن أحمد المزطاري المكناسي عن الرحلة إلى دمشق لتعليم بعض شيوخها، ونشر الطريقة الشاذلية (10).

ومن خلال الألقاب العلمية التي حملها أعلام مكناس يظهر أثر العامل الثقافي كدافع لرحلتهم إلى المشرق لطلب العلم ولتعليمه.

3) العامل الاقتصادي :

ارتبطت التجارة الموسمية بفترة الحج خاصة، حيث كان التجار وبعض الحجاج يحملون معهم البضائع والسلع المغربية التي يكون عليها إقبال في البلاد التي يمرون بها، ويحلبون في أيابهم السلع المتنوعة التي تزخر بها أسواق الشرق.

وكانت التجارة في موسم الحج شيئا طبيعيا وضروريا للحجاج أو لطالب العلم أو للمسافر عامة، إذ لا بد من الحصول على موارد مالية لتغطية نفقات الرحلة والاقامة مع العلم أن مدة الرحلة قد تتجاوز الفترة المحددة لها، وعليه فالبضائع كانت تسمح للمسافر الحصول على نقود البلاد التي يمر بها إذا لم تكن له ذخيرة من النقود الذهبية أو الفضية.

فهذا أبو سالم العياشي يكتب رسالة إلى صديقه ابن العباس أحمد بن سعيد الذي عزم على الرحلة إلى الحج. ومن خلالها نرى أن التجارة تداخلت مع الرغبة في الحج، كما أنها تزودنا ببعض المعلومات من البضائع المتاجرة فيها.

ومما جاء في هاته الرسالة :

«إذا أخذت في تجهيز أمرك فاشتر شيئا من الجلد الأحمر فإنه نافق أملك وستصل الى قرى لإعبأون بالذهب ولا يعرفون له قدرا ولا يستخرج الانسان من عندهم ما يحتاج اليه من زاد وعلف ودواب وتبن وحطب إلا بما يسميه الحجاج العطرية، وانفع ذلك القرنفل مع شيء من الكحل والسواك والزعفران والجاوي والمشط وشيء من الابروالكاغد والجنواي والصغار والألواح فلا نخل نفسك من كل ذلك ما يطلب من بلد لا يطلب في غيره... (11).

ويضيف العياشي قائلا : «فإن وجدت التبر الجيد فهو أولى لك من المطبوع... واشتر من هناك من

فنجح ما تحتاج إليه إلى بوسمغون من علف... فإذا وصلتهم إلى بسكرة... بع هناك ما بقي عندك من الجلد الأحمر واشتر ما تحتاج إليه من جلود البقر... وحيثما وجدتم السمن رخيصا في تلك النواحي فاشتره... وكل ما وجدتم من الأبل الرخيصة من بسكرة إلى طرابلس فاشتروها واشتروا من جربة ما تحتاجون إليه من زبيب وزيت وأكثرها من شراء الثياب من هناك... واجعل زادك أربع أنواع دقيقا ومحمصا وبشماطا وبسياسة وهي الزميت... وإن وجدت شيئا من الروز ومن الشعرية فاشتره... وخذ معك من اطرابلس شيئا من الخل والبصل والحوامض... (12).

مما يؤكد أن التجارة كانت ضرورية للحاج.

وكان التجار يستغلون فرصة خروج ركب الحاج المغربي ليجهزوا حمالمهم ودوابهم وليرفقوا هذا الركب في الطريق.

وليس معنى هذا أن التجارة مع المشرق كانت محدودة بموسم الحج، بل إن قوافل التجار كانت لاتتوقف طيلة السنة إذا سمحت بذلك الظروف واستتب الأمن.

وإذا كانت نصوص تراجم المكناسيين بخيلة علينا بالمعلومات التي تتعلق بالتجارة والتجار، فإن في نصوص تراجم بقية المغاربة مايشير إلى دور العامل الاقتصادي كحافز للرحلة إلى المشرق والأقطار الإسلامية الأخرى. وهذا يتمثل في ظهور أسر مغربية اشتغلت بالتجارة وكونت لها مركزا مرموقا في البلاد التي استقرت فيها (13).

وحسب مخطوطة مشرقية استخرجت أكثر من ستة عشر أسرة مغربية اهتمت بالتجارة تنتمي إلى مدن فاس وسلا ومراكش ومنطقة سوس (14).

(انظر الجدول (2) بيوتات مغربية اشتغلت بالتجارة في المشرق).

جدول (2) :

بيوتات مغربية اشتغلت بالتجارة في المشرق — مخطوط تحفة المحبين للانصاري. ك 1221

الترجمة	نص الاشارة	ضبط في المصدر
بيت حلاية الفاسي	قدموا المدينة المنورة تجارا من الهند في حدود سنة 1115 هـ وكانوا يتعاطون البيع والشراء والتجارة.	ص : 116
بيت رمضان الفاسي	أصلهم الحواجة رمضان... قدم المدينة المنورة سنة 1070 هـ وكان رجلا كاملا يتعاطى التجارة.	ص : 152
بيت الحاج عبد السلام السلاوي	قدم المدينة المنورة سنة 1170 هـ وهو صاحب أموال عظيمة ويتعاطى البيع والشراء ويسافر إلى جدة المصورة للتجار.	ص : 182
بيت الحاج عمر القبطي الفاسي	قدم المدينة المنورة في سنة 1120 هـ... وكان يتعاطى التجارة وبيع القماش.	ص : 239
بيت الحاج علي المنفي الفاسي	قدم المدينة المنورة سنة 1120 هـ وكان... صاحب ثروة عظيمة وسافر إلى الهند لأجل التجارة	ص : 251
بيت الحاج محمد الأبار الفاسي	قدم المدينة المنورة في حدود سنة 1138 هـ وكان صاحب ثروة يتعاطى التجارة	ص : 47

ص : 115	قدم المدينة المنورة في سنة 1141... وكان يتعاطى البيع والشراء والتجارة	بيت الحاج عبد السلام الحريشي الفاسي
ص : 140	(قدم سنة 1158) يتعاطى أنواع التجارة	علي الدفاق السلاوي
ص : 224	قدم المدينة المنورة وكان رجلا مباركا، عاقلا وكان يتعاطى بيع القماش في دكانه في الحدة	بيت الحاج محمد ميارة الفاسي
ص : 260	قدم المدينة المنورة سنة 1140... وكان صاحب ثروة عظيمة	بيت الحاج عزي المشاط الفاسي
ص : 261	سافر الى الديار المصرية مرارا لأجل التجارة	ولده محمد المشاط الفاسي
ص : 102	قدم المدينة المنورة في سنة 1146 وكان... يتعاطى التجارة	بيت الحاج أحمد جيوش الفاسي
ص : 228	قدم المدينة المنورة سنة 1140 هـ... وكان يتعاطى بيع القماش في الدكان وصارت له ثروة عظيمة	الحاج محمد الفزواني المراكشي
ص : 228	صار محتسبا وصار يتعاطى البيع والشراء	ولده عبد الرحمن
ص : 173	قدم المدينة المنورة في سنة 1160 هـ... وكان صاحب ثروة	الحاج محمد السقاط الفاسي
ص : 206	قدم المدينة المنورة في سنة 1120 وكان رجلا كاملا عاقلا صاحب ثروة بسبب تعاطى البيع والشراء... والتجارة ملازما للمسجد الشريف	الحاج احمد الطالب السوسي
ص : 207	اشتغل بالبيع والشراء	ولده عباس الطالب السوسي
ص : 220	درس بالمسجد الشريف المنيف، ويشتغل مع ذلك بالبيع والشراء في الحبوب... وصارت له ثروة	بيت ابن عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الفاسي

4) العامل السياسي

لا يمكن أن يغرب عن بالنا ما للظروف السياسية الداخلية والخارجية، من أثر في تواجده شخصيات مغربية في المشرق والأندلس، بل وحتى في البلاد المسيحية عبر العصور. وتمكن، حسب النصوص التي بين أيدينا، من حصر وتوضيح أثر هذا العامل في هذا التواجد كآآتي :

عوامل داخلية :

- 1 - الفرار السياسي
- 2 - هجرة الأقليات الدينية

عوامل خارجية :

- 3 - القرصنة الأوربية
- 4 - السفارة ومرافقة ركب الحاج المغربي.

1 - الفرار السياسي

وهو سفر قسري وتعتبر النصوص عن ذلك بإشارات دالة مثل : فرار، تغريب، إخراج، انتزاع، لجوء.

وقد ارتبط هذا الفرار أو التهرب بالأحوال السياسية الداخلية المتقلبة من دسائس وحروب ومؤامرات داخل الأسرة الواحدة أو بين أسرة حاكمة وأخرى تتطلع الى الحكم، يؤدي هذا طبعاً الى غالب ومغلوب والى اضطهاد وتقتيل الخصوم فيفر من ينجو منهم بنفسه أو يغربون ويحملون على مغادرة البلاد.

فهذا مثلاً أبو عبد الله محمد السلاوي «ورد تلمسان فاراً من بني مرين... وتوفي سنة 737 قتلته المرينيون عند فتحهم لتلمسان وكذلك عبد الحليم بن عمر المريني الذي «ملك سجلماسة سنة 763 ثم نازعه عبد المؤمن ففر إلى بلاد التكرور فقدم مع الركب إلى مصر فأكرمه يلبغا وأعانه على الحج» (16).

وأما عمر بن عثمان المريني «ترك من الأولاد عبد الحليم وعلياً وعبد المؤمن فاخرجهم أبو عثمان بن أبي الحسن إلى الأندلس» (17).

في حين نجد أن عبد الملك السعدي وأخيه أحمد المنصور «فرا الى تلمسان خوفاً على أنفسهما ولما تولى محمد المتوكل على الملك سار عبد الملك إلى اصطنبول» هذا على سبيل المثال لا الحصر.

2 - هجرة الأقليات الدينية المغربية

كانت الأقليات الدينية عبر العصور تتعرض الى عنف وغضب العامة أو السلطات الحاكمة لسبب من الأسباب، وطبعياً أن يؤدي ذلك الى خروج بعض أفراد هاته الأقليات وهجرتها إلى أقطار أخرى بحثاً عن مكان أمين.

ولنا حالة ذكرتها كتب التراجم المشرقية وهي حالة الطبيب المغربي ابن سمعون أبي الحجاج يوسف بن يحيى البتي نزيل حلب والمتوفي بها سنة 623 هـ. فقد ذكر القفطي إنه «لما أزم اليهود والنصارى في تلك البلاد بالاسلام أو الجلاء كتم دينه وتحيل عند إمكانه من الحركة والانتقال الى الاقليم المصري وتم له ذلك فارتحل بماله ووصل إلى مصر واجتمع بموسى بن ميمون القرطبي رئيس اليهود بمصر.... وخرج من مصر الى الشام ونزل حلب» (18).

3 - القرصنة الأوربية :

بتطرقنا إلى القرصنة الأوربية سنرى أن الوجود المغربي لم يقتصر على البلاد الاسلامية، بل تعدى ذلك الى تواجدهم في البلاد المسيحية.

ويعتبر تواجدهم هذا مرتبط بالظرفية السياسية العالمية من غزو صليبي أوربي وحركة قرصنة بحرية على شواطئ البلاد الاسلامية وخاصة المتوسطية منها والتي نشطت في العصور الحديثة.

وكان من نتائج ذلك وقوع الخطف والأسر في صفوف المسلمين وكثيراً من حوادث القرصنة كانت موجّهة ضد مراكب الحجاج، حيث كانوا يحملون قسراً الى بلاد لم يكونوا بقاصديها. وكان مصيرهم الاسترقاق والبيع والعمل في تجديف المراكب أو التنصير.

وليست لدينا المعلومات الكافية عن أسماء أو عدد المغاربة من ضحايا القرصنة الأوربية وكل ما تحتفظ لنا به النصوص هو تواريخ وقوع حوادث الاختطاف وبعض أسماء المغاربة الذين تمكنوا من الفرار أو ممن كانت لهم مكانة علمية أو اجتماعية وتمت فديتهم.

وعن القرصنة الأوربية نقدم الأمثلة التالية :

(1) محمد بن عبد الرحمن الكرسبوطي الفاسي كان حيا سنة 764 هـ «أسر في بحر الزقاق وناله مشقة الى أن خلص» (19).

(2) أحمد ابن القاضي المكناسي «الذين ركب السفين من ثغر تطاوين فاعترضتهم أساطيل العدو في بحر الزقاق فاسرتم» (20). ويقول ابن القاضي عن هاته الحادثة «حيث أسرت في حالة رحلتي لمصر... في يوم الخميس الرابع عشر من شعبان سنة أربع وتسعين» (21) وبقي في الأسر الى أن افتداه مخدومه أحمد المنصور السعدي سنة 945 هـ.

(3) الرحالة الحسن الوزان الفاسي المعروف بليون الافريقي سقط في أسر القراصنة سنة 926 هـ وأجبر على الرحلة إلى إيطاليا والاقامة بروما والتنصر بها الى أواخر حياته حيث تمكن من الرحيل الى تونس التي توفي بها بعد 957 هـ (1550 م) وبعد أن رجع الى الاسلام.

(4) محمد الطيب التافلاقي رحل الى مصر طلبا للعلم «ثم سافر لزيارة والدته في البحر فأسره الفرنج وذهبوا به الى مالطة مركز الكفر ثم نجاه الله تعالى بعد سنتين وأيام» (22).

4) السفارات :

أدى وقوع أسرى مغاربة في يد القرصنة المسيحية الى ضرورة النظر في وضعية هؤلاء الأسرى، وبالتالي تدخل الحكام المغاربة لافتكاكهم.

وهكذا نشطت حركة السفارات بين المغرب والبلاد المسيحية وتحملي لنا هذا النشاط فيما سجله السفراء من ارتسامات عن رحلاتهم ومنها :

رحلة الوزير في افتكاك الأمير محمد بن عبد الوهاب الوزير الفسائي ت 1119 هـ/1707 م وهي رحلته الى اسبانيا سفيرا للمولى اسماعيل الى كارلوس الثاني عام 1102 هـ/1690 م.

نتيجة الاجتهاد في المهادة والجهاد لأحمد بن المهدي الغزال ت 1191 هـ/1778 م بين السلطان محمد الثالث وكارلوس الثالث الاسباني عام 1179 هـ/1766 م.

رحلة الأكسير في فكاك الأسير محمد بن عثمان المكناسي. في عهد السلطان محمد الثالث. فهل اقتصرت السفارات على البلاد المسيحية فقط ؟

لا بد من التذكير بأن الحكام المغاربة أولو اهتمامهم للوجود المغربي أينما كان وكيف ماكان. ماذا كانت سفاراتهم الى البلاد المسيحية هي من أجل فك الأسرى فإنهم من جهة أخرى وجهوا رسلهم ووفودهم الرسمية الى البلاد المشرقية من باب الاهتمام بالوجود المغربي بهاته الأفطار الاسلامية.

ومن الملاحظ أن هاته السفارات تنشط في موسم الحج إذ «كثيرا ما كانت مهمة هذه السفارات حمل الهدايا الملكية الى سلاطين مصر مع رسائل... في شأن هدايا البقاع المقدسة وفي التوصية بالحجاج» (23) وكانت هاته السفارات كذلك «وليدة التقاليد التي انبعثت في العهد المريني لربط العلاقات — على الصعيد الحكومي — بين المغرب والمشرق» (24). فهذا مثلا أبو الحسن علي بن أبي سعيد عثمان المريني «صادق الملك الناصر وهاداه... وكان وصول كتابه الى القاهرة بالتغزية عن الناصر مع كاتبه ابن أي مدين

في شعبان سنة 745 هـ» (25).

كما كان بعض المغاربة يرحلون الى المشرق بحكم المهام التي يكلفون بها ضمن وفد الحجاج المغاربة فهذا عبد الله بن محمد الهرغي «قاضي الركب المغربي حج سنة 747 هـ، ودخل دمشق» (26). وكان الركب المغربي يضم الرؤساء والقواد والجند لحراسته والأطباء ويصعبه حتى العامة من أدلاء وخدم وغيرهم ممن لا تذكرهم النصوص بتوضيح.

وهذا السفير أحمد بن محمد المري السبتي ت 749 «كانت له عند سلطان المغرب حظوة ومكانة واستعمله في السفارة بينه وبين الملك» (27).

وقد سارت البعول التي أعقبت المرينيين على نفس تقليدهم. فكانت البعثات تتجه نحو المشرق بين الفينة والأخرى.

وهكذا رحل أبو الحسن التمگروني ت 1003 هـ/1594 م سفيرا للمنصور السعدي الى الاتراك وسجل ارتساماته في كتابه «النفحة المسكية في السفارة التركية».

وأما محمد بن عثمان المكناسي ت 1213 هـ/1790 م فرحل بأمر السلطان سيدي محمد بن عبد الله الى القسطنطينة والحجاز. وقدم للسلطان عبد الحميد خان هدية ملكية كما حمل هدايا الى الحرمين الشريفين ودخل الشام ومصر وقبرص وقد دامت رحلته 3 سنوات (1200 هـ — 1202 هـ) ودون مشاهداته في رحلته «إحراز المعلي والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب».

5) العامل السياحي :

وجد مر بين المغاربة من كان يحب التجوال والسفير والسياحة في بلاد الله. وباستقراء نصوص التراجم التي بين أيدينا نميز في هاته السياحة بين وجهين :

1 — السياحة العلمية :

وهي سياحة من أجل السياحة، رغبة في مشاهدة أقطار المعمور وارتياح البلدان وحب المغامرة والتجوال.

وهي سياحة علمية كذلك، لأنها ذات نتائج عملية تمثلت في ما كتبه هؤلاء الرحالة من مؤلفات وصفوا فيها البلدان التي زاروها ومروا بها. ونتائج هاته الرحلات ساهمت في بلورة المعرفة الجغرافية عند المسلمين على العموم والمغاربة على الخصوص، حيث كان منهم أشهر الرحالة المسلمين الذين جابوا الأفق كابن بطوطة والشريف الإدريسي والحسن الوزان.

والملاحظ أن منطلق بعض الرحلات السياحية منطلق ديني في الأول وذلك للاعتبارات التالية :

1) إن أول وجهة يقصدها هذا النوع من السياح المغاربة هي الديار المقدسة وبعد أداء مناسك الحج يشرع السائح في تطبيق برنامج رحلته السياحية معرجا على الشام والعراق مارا باليمن في اتجاه الهند والصين زائرا الديار المقدسة مرة أخرى قبل أن يدخل ديار مصر في طريق عودته الى المغرب، أو ينطلق من الشام

ليدخل بلاد الروم والبلاد المسيحية كذلك.

(2) إن الشروع في بدء الرحلة السياحية يكون مزامنا لخروج ركب الحاج المغربي وأغلب الرحالة كانوا يرافقون هذا الركب.

وليس معنى هذا أن أغلب الرحلات السياحية زامت فترة الحج، إذ يحدث أن يكون منطلق هاته الرحلات مرتبط بالذهاب في سفارات عن ملوك المغرب الى معاصرين في المشرق أو السودان أو البلاد المسيحية، وعندها كان هؤلاء السفراء يجمعون بين السفارة والسياحة ويستغلون وجودهم بهاته الأقطار ليتجولوا ويشاهدوا ما يستحق مشاهدته وليسجلوا في مذكراتهم ما شاهدوه.

وعليه فقد تجتمع عدة أسباب لرحلة سياحية ما، كرحلة ابن بطوطة مثلا التي كانت رحلة عامة «حجازية، سياحية، اكتشافية، سفارية، علمية (28)». وانتقل للحديث عن الوجه الثاني للسياحة وهو ما يمكن أن نطلق عليه :

2 - السياحة الصوفية

وهي السياحة التي كان فيها لاعلام مكناسة حضور قوي. ولكن قد يتساءل سائل لماذا هاته الصفة، ولماذا ميزت السياحة الصوفية عن سابقتها ولماذا لم أدرجها في العامل الديني ؟

يمكن الخروج بالاجابة عن هاته التساؤلات إذا ما نظرنا الى الاعتبارات التالية :

أ - إن نصوص التراجم تشير الى كون هذا النوع من السياحة اختص به أقطاب التصوف والمجاهدين.

ب - إن هاته السياحة اصطبغت بصيغة الكرامات الصوفية التي كانت لهذا القطب أو ذاك.

ج - إن وسائل الرحلة والتنقل ومدة الرحلة ليست في مستطاع الشخص العادي، من حيث أنها وسائل غير عادية، ومن حيث السرعة في التنقل.

د - إن من بين أهداف السياحة الصوفية : تأسيس الزوايا، نشر الطريقة الصوفية، الاكثار من الاتباع والمريدين، ومجاهدة النفس والعدو.

هـ - إن من بين طرقها التربية الصوفية من تعليم الطريقة والسلوك الصوفي وتلقين الذكر والأوراد والإرشاد.

وحتى نتعرف على هذا النوع فقد جادت علينا كتب التراجم بنصوص وافية، متضمنة إشارات معبرة، لاقطاب اشتهروا بالسياحة الصوفية ونخص بالذكر منهم قطبين مكناسيين هما :

(1) عبد الرحمن الأدريسي المكناسي

(2) محمد المرطاري المكناسي

القطب الأول : هو السيد عبد الرحمان الأدريسي المكناسي .

ازداد بمكناسة الزيتون عام 1023 هـ ورحل الى المشرق ودخل الحجاز ومصر والشام واليمن وانتقل الى

بلاد الروم والهند واستقر بمكة وتوفي بها عام 1035 هـ.

وهو خاتم الأولياء في عصره وله الكرامات الخارقة (29). وتنقلاته وأسفاره وتدخل في إطار السياحة المصطفية بالكرامة الصوفية ومنها أن الشيخ عبد الرحمن الكناسي قال لأحد أصحابه وكان هذا الأخير متوجها إلى الهند «إذا رأيتني في الهند فلا تكلمني فلما وصل الهند توجه إلى دهلي جهاد آباد سرير السلطان فجلس يوما بباب داره فإذا بالسيد مقبل وعليه سلهامة سوداء فعرفه وقال لبعض أصحابه هذا السيد عبد الرحمن وركض ليقبل يديه فشززه بعينه فتذكر كلامه فرجع وأغشى عليه وحصل له حال عظيم فلما أفاق لم يره» (30). وقد كان الشيخ عبد الرحمن الكناسي سواحا جاب العديد من الأقطار الإسلامية وصار له أتباع ومريدون «فكانت النذور تأتي إليه من المغرب والهند والشام ومصر (31).

القطب الثاني : هو الشيخ محمد المزطاري الكناسي :

الشيخ المرشد الصوفي القطب أخذ الطريقة الشاذلية عن شيخه القطب سيدي قاسم ابن أحمد القرشي السفياي المدعو بابن بلوشة ورحل إلى المشرق وتوفي بمكة المكرمة سنة 1107 هـ.

كان الشيخ المزطاري سواحا جوابا في بلاد الله، وله تسع حجج واشتهر في الحرمين الشريفين وبلاد الشام وحلب وحمّاء والقدس الشريف وخليل الرحمان وكل بلاد دخلها تهرع إليه الخلق ويأخذون عنه ويعطيهم الإذن في طريقته وسلوكه وله في جميع هذه البلاد المذكورة زوايا عامرة (32).

ويصرح المزطاري الكناسي بسبب قدومه إلى دمشق وهدفه، قائلا لأحد تلامذته «جئت من المغرب لأعمر ديارك» (33).

وأضيف إلى هذين القطبين أمثلة أخرى عن السياحة الصوفية لاعلام مغاربة منهم :

- القطب الشيخ أبو الحسن الشاذلي علي بن عبد الله بن عبد الجبار ت 656 : «صاحب السياحات الكثيرة والمنازلات الجليلة» (34).

- الشيخ الصالح الصوفي أحمد بن علي الجزولي السوسي ت 1197 : «غلب عليه الجذب فساح وذهب إلى الروم مجاهدا وأصيب بجراحات في بدنه» (35).

- الشيخ احمد زروق البرنسي الفاسي : الذي غلب عليه التصوف «فتجرد وساح... وصار له أتباع ومحبون» (36).

6) العامل الطبيعي :

مما لا شك فيه أن لهذا العامل دوره من قريب أو بعيد في رحلة المغاربة إلى الأقطار الشرقية، بل والأقطار الأوربية كذلك.

إذ لا يخفى أن فترات القحوط والمجاعات والأوبئة كانت تصيب المغرب من حين لآخر. وكان هذا يؤدي إلى نتائج على صعيد الهجرة :

- وهكذا نجد من جهة أن من كانت لهم الامكانيات لمواجهة القحوط والمجاعات يستطيع البقاء أو الهجرة حسب اختياره إلى بلاد لم تصبها القحوط.

- ومن جهة أخرى نجد أن البعض لم يستطع تحمل السنوات العجاف خاصة في العصر الحديث، فكان يلجأ الى مناطق الاحتلال البرتغالي بأصيلة وأزمور وأسفي طالبا الجواز الى البرتغال، ولو على حساب حريته ودينه.

وتطور الأمر الى أن يعرض البعض أنفسهم كرقيق، فكان منهم من يبيع أحد أفراد أسرته الى التجار البرتغال الذين نشطوا في هاته التجارة واستغلوا الظروف العصيبة التي كانت تلم المغرب وحسب مصادر برتغالية فقد كان يباع بأزمور وحدها حوالي ألف شخص في اليوم وكان الاقبال شديدا على صغار ابسن وخاصة الفتيات. وكانت المراكب البرتغالية تخرج محملة بمن باعوا أنفسهم أو باعتمهم أسرهم (37). الى البرتغال أو الى مستعمرات العالم الجديد.

وطبيعي أن يكون لهاته الهجرة نتائج على صعيد النمو الديموغرافي وكذلك على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

بعد أن تطرقنا الى النقطة الأولى التي أوحى لنا بها نصوص التراجم وهي البحث في أسباب الوجود المغربي في المشرق والتي اتضح من خلال عرضها أنها أسباب متداخلة ومرتبطة ببعضها البعض. فهل هاته النقطة هي كل ما يمكن استخراجه من النصوص ؟

وإذا ما قلنا أن المغاربة توجهوا الى المشرق رغبة في الحج أو العلم أو الاتراء أو البحث عن مأوى أمين. فهل يعني ذلك أن دورهم كان دورا سلبيا وأنهم استفادوا بدون أن يفيدوا ؟ وأنهم اقتصرنا على قضاء مصالحهم الدينية والديوية فقط ؟

للإجابة على هاته التساؤلات لا بد من استكمال الصورة التي وضعناها لهذا التواجد المغربي، وذلك بالتطرق الى حصيلته ونتائجه بالنسبة للمشرق والمغرب.

II — حصيلة الوجود المغربي عامة والمكناسي خاصة في المشرق :

باستقراءنا لنصوص التراجم نخرج بإشارات عن هاته الحصيلة. وفي هذا الاطار لا بد من إبداء الملاحظات والانطباعات التالية :

أ — إن دور المغاربة على العموم في المشرق، كان دورا ايجابيا وفعالاً.

ب — إن تأثير وجودهم مس جميع المناحي الثقافية والاجتماعية والروحية والاقتصادية. فقد كان المغاربة من مختلف الفئات أدياء وفقهاء وعلماء ومتصوفة وأطباء وتجار ... الخ وكل واحد أثر من قريب أو بعيد في المجال الذي يعنيه.

ج — إن حصيلة الوجود المكناسي تبرز جليا في ميادين دون أخرى، إذ كان حضورهم واضحا في المجال الفكري والمجال الروحي.

د — شيء واحد لم تسعفنا النصوص الى الإصاقه بالمكناسيين، أو أنه لم يكن من بين اهتمامهم ألا وهو الاشتغال بالتجارة فالظاهر أن هذا ميدان اختص به جيرانهم من أهل فاس كما سبقت الإشارة الى ذلك.

ومن البديهي أن تطغى الناحية الثقافية في كل نص ترجمة باعتبار أن جل المغاربة كانوا من أهل العلم

وطلبته. الذي يظهر أن التأثير المغربي سيكون واضحاً في هذا الميدان. ولن يتأتى لنا معرفة ذلك إلا بالحديث عن دور المثقف المغربي في هذا المجال وهل كان دوره دوراً سلبياً أم إيجابياً ؟

دور المثقف المغربي عامة والمكتاسي خاصة في المجتمع المغربي :

كان للمثقف المغربي على العموم تأثير واضح في الناحية الفكرية. فإذا كان بعض المغاربة قد رحلوا في سبيل العلم فليس معنى هذا أنهم يأخذون ولا يعطون، بل إن تواضع العلماء المغاربة جعلهم يشدون الرحال إلى المشرق للاستزادة من العلم كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وللقاء العلماء والتحدث معهم وتبادل الاجازة معهم. وليفيدوا ويستفيدوا وقد نالوا المكانة المرموقة بين أقرانهم وشهد لهم بذلك شيوخ العلم من المشاركة.

فهذا أبو طاهر التليقي حافظ زمانه وشيخ المدرسة العادلية بالاسكندرية يقول عن معاصره يحيى بن القاسم الفاسي «يحيى هذا كان من أزكى خلق الله كثير الحفظ للشعر... علقت عنه فوائده» (38) ويقول كذلك عن عبد الله الجزولي «سمع علي... وعلقت أنا عنه فوائده أيضاً» (39).

وحسب نصوص التراجم يمكن أن نفرق داخل فئة المثقفين بين :

طلاب العلم وبين شيوخه وأساتذه.

وإذا كنا نستثني المجموعة الأولى فلأنها استفادت أكثر مما أفادت فإن المجموعة الثانية والتي تحدثنا عنها هي التي سنركز على نصوصها مستخرجين ما يمكن استخراجه من إشارات ومعطيات تدل على تأثيرها واسهامها في الحياة الثقافية والفكرية.

حصوله الوجود المغربي في المغرب :
1 - دور المتكف المغربي في الميدان الثقافي :

الترجمة	الإشارة	ضبط في المصدر
أحمد بن الخطيبه الفاسي (ت 560 هـ) ابراهيم بن زادة السجلماسي محمد بن ابراهيم السبي (ت 695 هـ)	إمام صالح عارف... قرأ عليه شجاع بن محمد وموسى بن عبد الباقي... كان رأساً في القراءات السبع ونسخ بخطه كثيرا من كتب الأدب وغيرها. كان من العلماء المتقدمين في علم النحو واللغة، أديبا فاضلا وله شعر. نزيل قوص... من العلماء العاملين، الفقهاء، الفضلاء الأدياء. كتب بخطه سبويه. وشرح ابن أبي الربيع للايضاح واختصره في مجلد، وكتب شرح المحصول للقرافي وكتبا كثيرة، وكان يعرف الهندسة والهيئة وعلوما غيرها. ووقف كتبه بجزائه الجامع. واشتغل عليه بقوص طلبتها في النحو وغيره . ادخل شرح ابن الربيع الى مصر. نزيل القدس إمام مقرئ أقرأ بالقدس... حج وجاور فأقرأ بالمدينة ومكة قرأ عليه أبو عبد الله محمد... المقدسي وشيخنا محمد بن صالح شيخ المدينة. كان إماما متقنا ذكيا واسع العلم كثير المحفوظ بصيرا بالقراءات وعللها مشهورها وشاذها خبيرا باللغة مليح الكتابة. انتهت اليه رئاسة الاقراء بمدينة حلب وأخذ عنه خلق كثير. كان حسنا كاسمه خيرا متواضعا ... أخذ عنه الكبار مثل أبي حيان واليعمرى والذهبي والسبكي وغيرهم.	بن الجزري ط القراء 1 : 71 القفطي : أنباء الراوة 1 : 167 الصفدي : الوافي بالوفيات 6 : 2
محمد بن ابراهيم القصري السبي (ت : 723) محمد بن حسن الفاسي (حلب) الحسن بن عبد الكرم الفماري (ت : 712 هـ)	ابن الجزري ط القراء 2 : 47 ابن الجزري ط القراء 2 : 123 ابن حجر : الدرر الكامنة 2 : 102	
علي ابن الصياد الفاسي عبد الرحمن ابن الحفيد السجلماسي محمد بن سليمان المراكشي محمد بن أحمد الفاسي محمد بن سليمان الجزولي محمد بن موسى الفماري 827 مكة محمد بن محمد العبدري الفاسي	دخل صفد فأقام بها وأقرأ الآداب كان ماهرا في الأصول والفقه والتفسير. كان فاضلا كثيرا لاستحضار للعربية واللغة... عاد الى حلب قاضيا للمالكية. (نزيل الاسكندرية) أم بمسجد قدام وحدث وكتب في الاجازات . نزيل مكة وشيخ الاقراء على الاطلاق. دخل مكة وتصدى للتدريس بها مع الاثناء وأخذ عنه الأماثل . ولي مشيخة رباط الموفق بمكة والنظر في مصالحه سنين كثيرة. خطيب سبنة وإمامها... من علومه القراءات والحديث والفقه والنحو حدث بمكة والمدينة، سمع منه أعيان من بها .	ابن حجر : الدرر الكامنة 2 : 152 ابن حجر : الدرر الكامنة 2 : 451 ابن حجر : الدرر الكامنة 4 : 67 السخاوي : الضوء اللامع 9 : 207 السخاوي : الضوء اللامع 7 : 258 النفسي الفاسي : ت : 832 العقد الثمين 2 : 376 العقد الثمين 2 : 337

المصدر	الإشارة	الترجمة
الانصاري تحفة المحبين	قدم المدينة المنورة سنة 1134 وكان رجلا صالحا مباركا يعلم الصبيان القرآن. قدم المدينة المنورة سنة 1142... وكان عالما فاضلا خصوصا في علم العربية لأنظير له فيها. وله فيها تأليف كثيرة وتصانيف كبيرة وقد حضرنا دروسه واستفدنا منه كثيرا... ورحل الى مصر وحلب والشام والروم وبلغ من الجميع ما يروم... قدم المدينة المنورة سنة 1175 كان رجلا عاملا فاضلا ملازما للمسجد الشريف ومعمره بالتدريس في جميع العلوم. اشتغل بطلب العلم الشريف ودرس بالمسجد الشريف.	محمد العياشي محمد بن الطيب الفاسي محمد بن عبد الله الفاسي بإيد محمد
الغبي خلاصة الأثر 1 : 44 الغبي خلاصة الأثر 1 : 97 الغبي خلاصة الأثر 1 : 236 الغبي خلاصة الأثر 2 : 102 الغبي خلاصة الأثر 4 : 204	من أكابر الأفاضل جامع للفنون والعلوم الرياضية. مفتي المالكية بدمشق. درس بالمدرسة الشراييشية لأنها مشروطة للمالكية ولي تدريس الغزالية. مفتي المالكية (بدمشق) كان إماما بزاوية المغاربة كان له مكتب يعلم فيه الأطفال — حدث بالجامع الأموي أخذ عليه جماعة. من أدباء المغرب — أقرأ بالحرم الشريف وأملى أدبا و شعرا. الأديب الشاعر — قطن بمدينة العلا في طرق المدينة من الشام وأحبه أهلها وجعلوه ثم إماما وحظيا ومعلما لأطفالهم ومفتيا ثم على مذهب مالك. الامام المحدث. جاور بمكة والمدينة سنين عديدة وهو مكب على التصنيف والأقراء فوض اليه النظر في أمور الحرمين مدة... اشتغل مدة إقامته (بدمشق) بتأليف كتاب الجمع بين الكتب الخمسة والموطأ. اخترع كرة عظيمة فاقت الكرة القديمة والأسطراب، كان في الحكمة والمنطق... الأستاذ... وكان يتقن فنون الرياضة ويعرف أنواع الحساب والمقابلة أخذ عنه بمكة والمدينة والروم خلق. له فهرست... سماها صلة الخلف بموصول السلف.	إبراهيم بن محمد السوسي (ت : 1077 مكة) أبو بكر بن مسعود المراكشي (ت : 1032 دمشق) أبو القاسم السوسي (ت : 1039 دمشق) أحمد السجلماسي (ت : 1085 مصر) حسين بن قاسم الدرعي (ت : 1011 جدة) محمد بن سليمان الروداني (ت : 1037 دمشق)
المرادي سلك الدرر 4 : 09 المرادي سلك الدرر 4 : 30 المرادي سلك الدرر 4 : 61 المرادي سلك الدرر 4 : 91 المرادي سلك الدرر 4 : 102 المرادي سلك الدرر 4 : 122	العالم الفاضل الناسك الصوفي قدم دمشق وتوطن بالمدرسة السماطية اشتغل بقراءة الفتوحات المكية للشيخ الأستاذ محي الدين العربي الشيخ الفاضل العالم العابد الزاهد، نزل المدينة المنورة قرأ في الروضة المطهرة مسند الامام أحمد وكان هو المعبد له. درس بالحرم الشريف النبوي وانتفعت به الطلبة كان ذا قدم راسخ في العبادة والدين. قدم دمشق.. ثم ارتحل الى حلب واستوطنها وراج أمره وعلا صيته. كان يدعى معرفة الكيمياء وله معرفة بالطب وغيره. الامام المتحدث المسند اللغوي درس بالحرم الشريف النبوي وانتفعت به الطلبة وأخذ عنه بالشام ومصر خلق كثير، له تأليف حسنة ورحلة. مفتي القدس الشريف — علامة العصر الفائق على أقرانه من كبير وصغير. الامام العالم العامل الصوفي، درب بالحرم الشريف النبوي وانتفع به خلق كثيرين.	قاسم بن سعيد الدكالي (ت : 1120 دمشق) محمد بن عبد الله الفاسي (ت : 1141 المدينة) محمد بن عبد الكريم الفاسي (ت : 1985 دمشق) محمد بن محمد الشري الفاسي (ت : 1170 المدينة) محمد بن محمد الطيب التافلاتي (ت : 1191 القدس) محمد الملاق الفاسي (ت : 1158 المدينة)

وحسب هاته الاشارات المستخرجة من نصوص التراجم يمكن ملاحظة الآتي ذكره :

1 — أن جل المثقفين المغاربة استقروا لمدة طويلة، وبعضهم استقر بصفة نهائية بالأقطار المشرقية.

2 — أنهم ساهموا بشكل فعال في تنشيط الحركة أينما حلوا وارتحلوا.

3 — أنهم حصلوا على مراتب علمية وتقلدوا مناصب دينية ودينية.

4 — أن المشاركة اعترفوا لهم بالفضل وقدرتهم حق قدرهم وحلوهم بأوصاف ذات دلالات مثل :

الامام الصالح العارف، الامام المقرئ، الفقيه الفاضل، الأديب الفاضل، الأديب الشاعر، الامام المحدث، المفتي، المدرس.. الخ وغيرها من الألقاب العلمية التي الصقت بالمثقفين المغاربة عن جدارة واستحقاق وباعتراف أقرانهم.

نشاط المغاربة في الميدان الفكري :

يمكن القول أنه نشاط متعدد ومتنوع :

1 — التربية والتعليم :

تقلد المغاربة عدة مناصب في هذا الميدان بدءا من التعليم الأولي أي تعليم الصبيان القرآن الى التعليم العالي أي التدريس في المدارس التي اشتهرت بها العواصم الثقافية الاسلامية في دمشق والقدس والقاهرة، وكذلك في المساجد والزوايا. فهذا محمد العياشي «كان رجلا صالحا يعلم الصبيان القرآن» (40) وأما حسين الدرعي فقد دخل مدينة العلا وأحبه أهلها «وجعلوه معلما لأطفالهم» (41)، وأما محمد بن سليمان الجزولي فدخل مكة «وتصدى للتدريس بها» (42). ونجد أن أبا بكر بن مسعود المراكشي (43) «درس بالمدرسة الشراييشية... وولى تدريس الغزالية». محمد بن عبد الله الفاسي «درس بالحرم الشريف النبوي وانتفعت به الطلبة، وكذلك محمد بن محمد الشرقي الفاسي «درس بالحرم الشريف النبوي» والأمثلة كثيرة عن دور المغاربة في ميدان التربية والتعليم.

2 — القراء والحديث والفقه واللغة والنحو والآداب :

اشتغل المغاربة بهاته العلوم انطلاقا من اهتمامهم بالعلوم النقلية وتضلعمهم فيها. وهذا مكنهم من الحصول على مناصب جليلة في هذا الميدان. ومن كانت لهم مساهمة في ذلك نجد : (*)

أحمد بن الحطيئة الفاسي : كان رأسا في القراءات السبع

محمد بن ابراهيم السبتي : إمام مقرئ بالقدس... وبالمدينة ومكة...

محمد بن حسن الفاسي : كان إماما... بصيرا بالقراءات وعللها ومشهورها وشاذها... وانتهت

إليه رئاسة الأقرء بمدينة حلب خبيرا باللغة.

محمد بن أحمد الفاسي : شيخ القراء على الاطلاق

محمد بن محمد العبدري : حدث بمكة والمدينة

محمد بن محمد الشرقي : الامام المحدث

أبو قاسم السوسي : حدث بالجامع الأموي

عبد الرحمن ابن الحفيد : كان فاضلا كثير الاستحضار للعربية واللغة.

(*) انظر الجدول السابق للتعرف على المصدر.

3 - الطب والصيدلة والكيمياء والهندسة والحساب... الخ.

- ولم تقتصر مشاركتهم على الميادين المتعلقة بالعلوم النقلية، بل شملت مشاركتهم كذلك ميدان العلوم العقلية والتجريبية والرياضية مثل :
- محمد بن عبد الكريم الفاسي: «كان يدعي معرفة الكيمياء وله معرفة بالطب».
 - محمد بن سليمان الروداني: «كان يتقن فنون الرياضة... ويعرف أنواع الحساب والمقابلة».
 - محمد بن ابراهيم السبتي: «كان يعرف الهندسة والهيئة وعلوما غيرهما».
 - محمد الشريف الادريسي: كان فاضلا عالما بقوى الأدوية المفردة ومنافعها ومنابتها.

4 - نسخ الكتب وتأليفها :

- برع المغاربة في ميدان استنساخ الكتب وتأليفها وتصنيفها ووجدنا منهم :
- ابن الخطيطة اللحمي الفاسي : نسخ بخطه كثيرا من كتب الأدب وغيرها.
 - ابن ابراهيم السبتي : كتب بخطه سيبويه وشرح ابن أبي الربيع واختصره في مجلد وكتب شرح المحصول للقرافي وكتبا كثيرة ووقف كتبه بخزانة الجامع.
 - محمد بن حسن الفاسي : كان مليح الكتابة... محمد بن الطيب الفاسي : كان عالما بالعربية «وله فيها تأليف كثيرة وتصانيف كبيرة».
 - محمد بن سليمان الروداني : «جاور بمكة... وهو مكب على التصنيف اشغل مدة إقامته (بدمشق) بتأليف كتاب الجمع بين الكتب الخمسة والموطأ».
 - محمد بن الشرقي الفاسي : «له تأليف حسنة... ورحلة».
- وقد حصل المغاربة على عدة مناصب عليا، كانوا أهلا لها بفضل تكوينهم وثقافتهم المتنوعة والسمة الطيبة التي كانت لهم في البلاد التي استقروا بها. ومن هاته المناصب :
- إمامة المالكية والخطابية :

تقلد المغاربة هاته المناصب بحكم أنهم مالكيون. وبحكم وجود جالية مغربية كبيرة في المشرق.

- القضاء والفتيا :

شغل المغاربة منصب القضاء والفتيا للمذهب المالكي نظرا لما كانوا يتحلون به من صفات النزاهة والعلم.

وبالبحث في نصوص التراجم نجد أن البعض منهم كان يجمع بين عدة مناصب كما هو حال حسين بن قاسم الدرعي الذي «قطن مدينة العلاء... وأحبه أهلها وجعلوه لهم إماما وخطيبا ومعلما لأطفالهم ومفتيا لهم على مذهب مالك» (46).

وكذلك أبو القاسم السوسي «مفتي المالكية بدمشق... كان إماما بزواوية المغاربة... وله مكتب يعلم فيه الأطفال.. وحدث بالجامع الأموي» (47).

ظروف عيش المغاربة في المشرق :

سبقت الإشارة الى أن المغاربة اتخذوا من المشرق موطنًا ومستقرا لهم وهذا ما يجعل الباحث يتساءل عن السر في ذلك ؟

(٥) انظر الجدول السابق للتعرف على المصدر.

الواقع وإن كنا لانستبعد في هذا المجال ما للأوضاع الداخلية للمغرب عامة (اضطرابات سياسية، قحوط، مجاعات، أوبئة ... الخ). من أثر كعامل دافع للاستقرار، فإن هناك عوامل أخرى يجب مراعاتها منها :

- سهولة اندماج المغربي في المجتمع المشرقي الغريب اليه بحكم الدين واللغة بل وحتى العادات.

- تشابه الظروف الطبيعية في المغرب والمشرق.

- إمكانية حصول هؤلاء المثقفين على مناصب علمية كل حسب مجال تخصصه.

- وجود عناية ورعاية بالمثقف عامة أين حل وارتحل. وعليه فإن الظروف كانت مناسبة لاستقرار وعيش هؤلاء المغاربة، وقد سبق القول الى أن طلاب العلم كانوا يجدون المأوى المناسب في الأماكن الموقوفة عليهم وفي المساجد والمدارس والزوايا ودور شيوخ العلم الذين كانوا يستضيفونهم.

غير أن المغاربة سعوا الى الحصول على موارد عيش شبه قارة. فاشتغل البعض بالتعليم والتدريس مقابل أجور من التلاميذ أو الحكام وامتن آخرون حرفة استنساخ الكتب أو الانكباب على تأليفها. كما اعتمد بعضهم على الهبات والنذور والصلات في حين اشتغل البعض بالتجارة أو تولى مناصب في القضاء والافتاء أو الامامة والخطابة.

مكانة أعلام مكناسة في المشرق : (انظر الجدول).

لم يخرج المثقف المكناسي عن الاطر الذي حددناه انفا للمثقف المغربي عامة.

وتجدر الإشارة الى أن بعض نصوص تراجم المكناسيين تبخل علينا أحيانا بالمعطيات، ولا نجد بها إلا إشارات قليلة، ومع ذلك فهي تسمح بعرض الخطوط الكبرى لمكانة هؤلاء الاعلام في المشرق.

وباستقراء نصوص التراجم نخرج بمحصيلة من الألقاب العلمية والأوصاف التي حلى بها كتاب التراجم، أعلام مكناس وانطلاقاً منها يتضح لنا دورهم ومكانتهم. وكذا تأثيرهم في الميادين المختلفة التي كان لهم فيها قصب السبق، وخاصة الميدانين الفكري والروحي والميدان الاجتماعي.

وحتى تتضح لنا هاته الصورة لأبأس من عرض هاته الألقاب والأوصاف وهي تبين لنا درجة ومكانة أعلام مكناس العلمية والاجتماعية.

- الفقيه الامام العالم العامل الزاهد الورع.

- الفقيه الزاهد - الشيخ الصالح

- الشيخ الامام العالم الكبير.

- الفقيه الزاهد - الفقيه الأجل

- الأديب الأريب - الشاعر الصالح

- السيد العارف بالله قطب زمانه.

وهناك صفات أخلاقية مثل :

- خير، دمت الأخلاق، كثير الوقار.

- فيه ايثار وصدق.

نشاط أعلام مكناس في المشرق (انظر الجدول)

من خلال الألقاب العلمية والصفات التي حملها واتسم بها أعلام مكناس نخرج بالانطباعات التالية :

- 1 - إن أعلام مكناس اتصفوا بالصلاح والزهد والورع والصدق.
 - 2 - إنهم وصلوا الى درجات علمية وروحية عالية : إمام، فقيه، شيخ قطب صوفي.
 - 3 - وتبعاً لذلك يمكن تحديد نوع نشاطهم وميدان تأثيرهم انطلاقاً من نوعية ثقافتهم وتكوينهم الذي غلبت عليه الثقافة الدينية المرتبطة بالعلوم النقلية من فقه وقراءات وحديث ولغة وأدب. وعليه فقد تقلدوا المناصب التي لها صلة بهاته الميادين مثل :
 - إمامة المالكية بالحرم الشريف والمسجد الحرام.
 - مشيخة الاقراء.
- كما كانت لهم مشاركات متعددة في الميدان الفكري عامة :
- لذا نجد أن حسن بن أحمد المكناسي «كانت له مشاركة في سائر العلوم» (48) ولا شك في أن يحيى بن يوسف المكناسي الذي حج وزار المدينة و«أقام بالبلاد الشامية سنين» (49) كانت له هو الآخر مشاركة وإلا لما أطال مدة رحلته. في حين أجاز محمد بن عبد الرحمن المكناسي بعض علماء المشرق «وأجاز لابن شيخنا وغيره» (50) كما صرح بذلك السخاوي.
- وأما ابراهيم بن يحيى بن أبي الحفاظ المكناسي فساهم في ميدان التأليف بكتابه «فضائل بيت المقدس وفضائل الشام» (51).

بعض أعلام مكناس في المشرق، معطيات عن مكانة ونشاط أعلام مكناس في المشرق

الترجمة	تاريخ ومكة الوفاة	ضبط في المصدر
محمد بن عبد الله بن الفتوح المكناسي	592 هـ مكة	التقى الفاسي «العقد الثمين» ج 2 74 - 75
محمد بن علي بن عطية حيا المكناسي	حيا 657 هـ	ج 2 : 159
علي بن عبد الله المكناسي	571 هـ مكة	ج 6 : 181 182
عبد الملك بن علي المكناسي	771 هـ مكة	5 : 511
منصور بن حمزة المكناسي	حيا 595 هـ	6 : 284
أبو عبد الله محمد المكناسي	656 هـ	العلمي محمد المقدسي المدسي المستقصى في فضائل المسجد الأقصى ص 513

البرجة	تاريخ ومكان الوفاة	معطيات عن مكانة ونشاط أعلام مكناس	المصدر
محمد بن عبد الرحمن المكناسي	ق 9 هـ	- أجاز لابن شيخنا وغيره.	السخاوي الضوء اللامع 46 : 8
يحيى بن يوسف المكناسي	ق 9	- ولد ببلاد مكناسة الزيتون سنة 788 هـ. قدم القاهرة في أعوام بضع عشر وثمانمائة بعد جولته في فاس وأعمالها ودخل الأندلس وإفريقية وحج وزار المدينة وأقام بالبلاد الشامية سنين. - السيد العارف بالله قطب زمانه.	265 : 10
عبد الرحمن بن أحمد المكناسي	1085 مكة	- ولد بمكناسة الزيتون... في سنة 1023 هـ. - رحل في ابتدائه من المغرب فدخل مصر والشام وبلاد الروم واجتمع بالسلطان مراد... وحج سنة 1043 هـ وجاور بمكة. رحل الى اليمن لنهارة من بها من الأولياء رجع الى مكة وتدير بها - كانت النذور تأتي اليه من المغرب والهند والشام ومصر - كان يحب العلماء ويكرهم ويحسن للفقراء ويتفقدهم بالنفقة والكسوة. - كان يحث من يجمع به على ملازمة ما يناسبه من صنوف الخير من تلاوة القرآن وصلاة على النبي صلعم، وكثرة استغفار وأوراد حسان. وبعض من رأي فيه علامة خير على اعتقاد الصوفية والتصديق بكلامهم وعلمهم وأحوالهم - ولقنتي رضي الله عنه الذكر لا إله إلا الله محمد رسول الله وآلستني الحزقة الشريفة. كانت له الكرامات العظيمة.	المحيي : خلاصة الأثر ج 2 346 - 349
حسين بن أحمد المكناسي	1101 هـ مصر	ولد سنة 1052 قرأ على محمد بن أحمد القاسمي تهنل مكناس.	الجبرتي : عجائب الآثار 173 : 1
محمد الزطاري المكناسي	1107 هـ مكة	قدم مصر سنة 1074... حج واجتمع على السيد عبد الرحمن المحجوب المكناسي - كانت له مشاركة في سائر العلوم. الشيخ الإمام العارف بالله... الصوفي وقطب الواصلين وأستاذ الأساتذة تولى القطبانية خمسة وعشرين عاما الى أن توفي.	المرادي : سلك الدرر 4 : 34 - 33

الفرجة	ت. م. الوفاة	مكانة ونشاط أعلام مكناس	المصدر
محمد المزطاري المكناسي (تابع)	1107 هـ مكة	قدم دمشق... سنة 1096 هـ وأخذ عنه بها الطريق الشيخ محمد العجلوني... كان يقول له : جئت من المغرب لأعمر ديارك. من ذلك الوقت اشتهرت الطريقة الشاذلية بدمشق وكثر أتباعها والآخذون لها. كان... منار هدى وإرشاد وله كرامات كثيرة وخوارق شهيرة.	المرادي : سلك الدرر ج 4 : 33 - 34

أقطاب التصوف من أهل مكناس في المشرق في العصر الحديث :

سبقت الإشارة عند الحديث عن دوافع الوجود المغربي في المشرق الى عامل السياحة الصوفية وأنه ارتبط بأقطاب التصوف المغاربة ومنهم أبو الحسن الشاذلي وأحمد البدوي وعبد الرحيم الرضي القناني وعلي ابن ميمون الغماري.
أما فيما يتعلق بأعلام مكناس فنجد :

(1) عبد الرحمن الادريسي المكناسي.

(2) محمد المزطاري المكناسي.

وحتى تتكون لنا فكرة عن هذين القطبين لأبأس من وضعها داخل إطار اللوحة التالية :

محمد المزطاري المكناسي	عبد الرحمان الادريسي المكناسي	
الشيخ الامام العارف بالله المسك المرشد الصوفي قطب الواصلين وأستاذ الأساتذة وشيخ الطائفة.	السيد العارف بالله تعالى قطب زمانه، كان من أكابر الأولياء في عصره.	لقابه ودرجته في التصوف
القرن 12 هـ تولى القطبانية لمدة 25 سنة.	القرن 11 هـ تولى القطبانية لمدة 42 سنة.	الفترة ومدة القطبانية
له كرامات كثيرة وخوارق شهيرة.	له الكشف الصريح والأحوال الباهرة والكرامات العظيمة.	أحواله

	مصر — الشام — بلاد الروم — الحجاز — اليمن — الهند تونس — مصر — الشام — الحجاز.	مناطق إشعاعه
السياسة الصوفية، نشر الطريقة الشاذلية، الاكثار من الأتباع والآخذين للطريقة، تلقين الذكر. كان جبلا من جبال المعارف منار هدى وإرشاد. قبوه ظاهر يزار.	السياحة الصوفية لنشر الطريقة وتأسيس الروايا — التربية الصوفية، الحث على اعتقاد الصوفية، ملازمة صنوف الخير من تلاوة قرآن وتصلية استغفار وأوراد حسان وتلقين الذكر. كان يحب العلماء ويحسن للفقراء ويتفقدتهم بالتفقة والكسوة. تدير بمكة وصار مرجعا لأهلها والواردين إليها كان مقبول الكلمة عند جميع الناس، كان كثير الشفاعات.	نشاطه مكانته أو تأثيره

خلاصة :

إذا كانت نصوص التراجم تشير الى الاستقرار النهائي للمغاربة بصفة عامة والمكناسيين بصفة خاصة، في الأقطار المشرقية فإن ذلك يجعلنا نفكر ثانية في ظاهرة الهجرة المغربية الى المشرق.

وإذا كنا قد أعطينا بعض الاجابات المستخلصة من النصوص حول هاته الهجرة ومسبباتها وبعض نتائجها الايجابية بالنسبة للمشرق فما هي نتائجها بالنسبة للمغرب ؟

للاجابة على هذا لسؤال نشير الى بعض سليات هاته الهجرة. يتحدث العالم اليوم عن هجرة الأدمغة والضرر الذي يلحق بأوطانها، والاستفادة التي تجنيها البلدان التي تستقر فيها هاته الأدمغة ولا بأس هنا من ملاحظة أن هاته الظاهرة عرفها المغرب عبر العصور.

وإذا كا من بين المغاربة الذين هاجروا الى المشرق. فئات متعددة المستويات والتكوين والثقافة فيهم الطبيب والصيدلي والعالم الكيميائي والرياضي والفلكي... الخ.

علوم الطب والصيدلة : علي بن يقظان السبتي — أبو الحجاج بن سمعون السبتي — الشريف الادريسي — محمد بن الكرم الفاسي.

علوم الرياضة : ابراهيم بن محمد السوسي — محمد بن سليمان الورداني.

الكيمياء : محمد بن سليمان الورداني — محمد بن عبد الكرم الفاسي.

الهندسة : محمد بن ابراهيم السبتي.

ولا شك أنهم كانوا سيساهمون في نهضة علمية وثقافية لو لم يهاجروا الى المشرق الذي استفاد من ذلك.

والسلام عليكم ورحمة الله

الهوامش

- (1) روزنتال علم التاريخ عند المسلمين — ترجمة صالح أحمد العلي بغداد 1963 ص : 142
- (2) بروفنسال، مؤرخو الشرفاء — ت. عبد القادر الخلافي الرباط 1397 — 1977 ص : 55
- (3) Reinhard M : L'Enseignement de l'histoire. Paris 1967 P : 144.
- (4) أجد الطرابلسي، نظرية تاريخية في حركة التأليف عند العرب ج : 1 ص : 118.
- (5) انظر نصوص هاته التراجم في الملحق.
- (6) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ج : 1 ص : 03
- (7) محمد عبد الرحيم غنيمه — تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى بتطوان 1953 ص : 212
- (8) انس الشاري والسارب... ت. محمد القاسي فاس 1388 — 1968 ص : 48
- (9) المحيي : خلاصة الأثر ج : 2 : 102
- (10) المرادي : سلك الدرر 4 : 33
- (11) أبو سالم العياشي : التعريف والايجاز، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط — كا 43 — ص : 304
- (12) أبو سالم العياشي نفس المصدر 304 — 305
- (13) مثل عائلة الشرايبي، والكوهن.
- (14) انظر الجبرتي : عجائب الآثار ج 1 : 138
- (15) الانصاري تحفة المحبين والأحباب فيما للمدنيين من الأنساب مخطوطة الخزانة العامة كا : 1221.
- (16) عبد الحميد حاجيات الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بن زيان مجلة الأصالة ع.26، 1395 — 1975 الجزائر ص : 140
- (17) ابن حجر الدرر الكامنة .
- (18) ابن حجر نفس المصدر ج : 3 : 251
- (19) أخبار العلماء بأخبار الحكماء تصحيح محمد أمين الخانجي مطبعة السعادة مصر 1326 ص : 257
- (20) ابن حجر الدرر الكامنة 4 : 118
- (21) القشتالي مناهل الصفا ص 153
- (22) ابن القاضي المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، تحقيق محمد رزوق د.دع 1398، 1978 مرقون ص.261
- (23) المرادي سلك الدرر 4 : 103
- (24) محمد المنوني وقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين الرباط 1399 — 1979 ص : 130
- (25) محمد المنوني وقات : مرجع سابق ص : 130
- (26) ابن حجر الدرر الكامنة 157
- (27) نفس المصدر السابق ج 2 : 403
- (28) نفس المصدر 1 : 311
- (29) محمد القاسي : الرحلات السفارية المغربية مجلة البنية العدد 6 أكتوبر 1962 الرباص ص : 14
- (30) والمحيي : خلاصة الأثر 2 : 249
- (31) نفس المصدر 2 : 346
- (32) حسن خواجه ذيل بثائر أهل الايمان الطاهر المعموري تونس 1975 ص : 280
- (33) المرادي مصدر سابق 4 : 33
- (34) السيوطي : حسن المحاضرة ص : 247
- (35) الحيوتي عجائب الآثار 2 : 267
- (36) السخاوي الضوء اللامع 1 : 267
- (37) انظر المجامع والأروبة B.Resenberger et H.Tribi. Famines et épidémies au Maroc in Revue Hesperis tamuda vol, XIV Fase unique Rabat.
- (38) معجم السفر — مخطوط الخزانة العامة الرباط ك : 230 ص : 445.
- (39) نفس المصدر ص : 164

- (40) الأنصاري تحفة المحبين مخطوط
 (41) المحيي خلاصة الأثر 2 : 102
 (42) السخاوي الضوء اللامع 7 : 258
 (43) المحيي خلاصة الأثر 1 : 97
 (44) انظر الجدول السابق للتعرف على المصدر
 (45) انظر الجدول السابق للتعرف على مصدر الترجمة
 (46) المحيي خلاصة الأثر 2 : 102
 (47) نفس المصدر 1 : 145⁷
 (48) و(49) انظر الجدول لمعرفة المصدر
 (50) انظر الجدول لمعرفة المصدر
 (51) المكناسي هذا من رجال القرن السابع الهجري وكتابه هذا يوجد مخطوطا بجامعة توبنجن بألمانيا.

المصادر:

اعتمدت على بعض المصادر المخطوطة والمطبوعة منها :

1) المصادر المخطوطة :

- 1 - السلفي : أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد الاصفهاني المتوفى بالاسكندرية سنة 576 هـ.
 - معجم السفر : ترجم السلفي في معجمه هذا لأعلام من مختلف الأقطار الاسلامية، وكان من بينهم مغاربة التقوا به في مدرسته العادلية بالاسكندرية وقد قمت باستخراج التراجم والأخبار المتعلقة بالمغرب ودرستها (1). هذا المعجم مازال مخطوطا وتوجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط.
 2 - الشلي : محمد بن أبي بكر بن احمد الحضرمي باعلوى. المتوفى بمكة سنة 1093 هـ. عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر. ترجم الشلي لشخصيات مغربية من بينها استاذة محمد بن سليمان الروداني يوجد ملتقط من هذا المخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
 3 - الأنصاري عبد الرحمان بن عبد الكريم المدني : المتوفى بالمدينة سنة 1197 هـ.
 - تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب (2). من بين محتوياته تعريف بالبيوتات المغربية التي استقرت بالمدينة المنورة من أهل العلم والتجارة. مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
 2) بعض المصادر المطبوعة : (مرتبة حسب وفاة أصحابها)
 1 - القفطي : جمال الدين علي بن يوسف الثيباني المصري المتوفى سنة 646 هـ. إنباه الرواه علي أبناء النحاة.

(1) تراجم مغربية دفينة في العصرين الوسيط والحديث إشراف أ. محمد زبير ومحمد المنوني كلية الاداب الرباط.
 (2) نشر بتونس.

- 2 - القفطي : إخبار العلماء بأخبار الحكماء.
- 3 - ابن أبي أصيبعة : أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي المتوفى سنة 668 هـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء.
- 4 - الصفدي : صلاح الدين خليل بن ايك توفى سنة 764 هـ. الوافي بالوفيات.
- 5 - الفاسي : تقي الدين محمد بن أحمد المكي توفى سنة 832 هـ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين.
- 6 - ابن الجزري : محمد بن محمد بن محمد الدشقي توفى سنة 833 هـ غاية النهاية في طبقات القراء.
- 7 - ابن حجر : أحمد بن علي العسقلاني القاهري توفى سنة 852 هـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.
- 8 - السخاوي محمد : بن عبد الرحمان توفى سنة 902 هـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع.
- 9 - ابن الحنبلي : رضي الدين محمد بن ابراهيم الحلبي توفى سنة 971 هـ در الحبيب في أعيان حلب.
- 10 - العلمي : محمد بن محمد المقدسي حيا سنة 969 هـ المستقصى في فضائل المسجد الأقصى.
- 11 - البوريني : بدر الدين الحسن بن محمد الصفوري توفى 1024 هـ تراجم الأعيان من أبناء الزمان.
- 12 - النجم الغزي : محمد بن محمد 1061 هـ الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة.
- 13 - المحبي : محمد أمين بن فضل الله الدمشقي توفى سنة 1111 هـ خلاصة الأثر في أعيان القرن الثاني عشر.
- 14 - المرادي : محمد خليل توفى سنة 1206 هـ سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر.
- 15 - الجبرتي : عبد الرحمان توفى سنة 1241 هـ عجائب الآثار في التراجم والأخبار.

ملاحظات :

- 1 - هذه بعض المصادر المشرقية المعتمدة التي استخرجت منها نصوص التراجم المغربية والمكناسية منها، وقد وضعت جردا لباقي المصادر مع تقديم موسع لها في دراسة جامعية..
- 2 - كما أشرت الى بعض المراجع العربية والأجنبية في حينها. انظر الهوامش.

محمد بن عبد الله بن الفتوح بن محمد المكناسي المحاصر (المجاصي) جمال الدين أبو عبد الله.

إمام المالكية بالحرم الشريف.

هكذا نسبة الميورقي في تعاليقه. وذكر أنه تولى مقام المالكية بمكة، سنة ثمان وثمانين وخمسمائة. وذكر أنه وقف في هذا العام «المقرب» لابن أبي زمين المالكي بست مجلدات، على المالكية والشافعية والحنفية الذين يكونون بمكة وجعل مقره بخزانة المالكية بمكة، ولم يذكر الميورقي وفاته.

ووجدتها على حجر قبره بالمعلاة عند حائط قبر الشولي بخط عبد الرحمن ابن أبي حرمي، وترجمه بالفقيه الامام العالم العامل الزاهد الورع. وذكر كنيته ولقبه كما ذكرنا وكذلك نسبه، إلا أنه لم يذكر محمد بن فتوح.

وأرخ وفاته يوم الخميس العاشر من جمادى الأولى سنة اثنين وتسعين وخمسمائة. (ت : 592).

التقي الفاسي العقد الثمين

ج 2 : 74 — 75

القاهرة 1381 — 962

يحيى بن يوسف المكناسي :

يحيى بن يوسف بن علي بن محمد المغربي المالكي. ولد ببلاد مكناسة الزيتون في شوال سنة ثمان وثمانين وسبعمائة. وقدم القاهرة في أعوام بضع عشرة وثمانمائة بعد جولاته في فاس وأعمالها، ودخل الأندلس وافريقية، وحج وزار المدينة وأقام بالبلاد الشامية سنين، وتردد الى كثير ونعم الرجل. قاله المقرئ في عقوده، وساق عنه عن أبي محمد الفاسي في كرمات الآل حكاية ذكرتها في الارتقاء ولم يؤرخ وفاته.

الضوء ج 10 : 265

علي بن عبد الله بن حمود الفاسي، أبو الحسن المكناسي :

علي بن عبد الله بن حمود الفاسي، أبو الحسن المكناسي، إمام المالكية بالحرم الشريف حج سنة اثني عشرة وأخذ عن أبي بكر الطرطوشي سنن أبي داود وصحيح مسلم أخذه عن ابن طرخان — وجامع أبي عيسى بن المبارك، ودخل الأندلس مرابطا ثم حج ثانيا وجاور وأم بالحرم. وأصله من مكناسة الزيتون ذكره ابن الأبار في تكملة الصلة لابن بشكوال وقال : كان زاهدا وربما محسنا الى الغرباء، توفي بمكة سنة ثلاثة وسبعين وخمسمائة، عن سبع وثمانين سنة انتهى.

وألقيت حجرا بالمعلاة مكتوب فيه : إن هذا قبر أبي الحسن علي بن حمود المكناسي وأنه توفي ليلة الاثنين في العشر الأوسط من جمادى الآخرة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة وترجم فيه : بالفقيه الزاهد إمام المالكية بالحرم الشريف.

وإنما ذكرنا هذا لأن ما في حجر قبره من تاريخ وفاته يخالف ما ذكره ابن الأبار فيها. والصواب ما في الحجر والله أعلم.
ولا يقال إنهما اثنان لأن في الحجر نسب إلى جده وهو حمود وابن الأبار أكمل نسبه، ووجدت بخط شيخنا ابن سكر : إن ابن أبي الصيف اليمني نزىل مكة قرأ سنن أبي داود علي ابن الحسن علي بن خلف بن معروف التلمساني، عن أبي الحسن هذا، عن الطرطوشي بسنده المشهور.

التقي الفاسي، العقد الثمين

ج 6 : 181 — 182

عبد الملك بن علي الصنهاجي المكناسي :

عبد الملك بن علي الصنهاجي المكناسي توفي في شهر شوال سنة إحدى وسبعين وسبعمائة بمكة. ودفن بالمعلاة، ومن حجر قبره لخصت هذا وترجم فيه : بالشيخ الصالح.

التقي الفاسي — العقد الثمين

01 : 5

أبو عبد الله محمد المكناسي :

الشيخ الإمام العالم الكبير ذو الكرامات الظاهرة والأحوال الخارقة أبو عبد الله محمد المكناسي البصري هذا الشيخ من الأولياء العظام وظهرت له كرامات في بلاد المغرب ومصر والشام وقصد بالندور من كل قطر، وكان يقرأ القرآن حتى قيل له : الناس أكثروا فيك من كثرة قراءة القرآن فما تقرأ في اليوم والليلة قال أنا لأضبط ولكن ثم من ضبط أني قرأت في اليوم والليلة مائة وثلاثين ختمه ذكره ابن خلكان في تاريخه، ورد إلى زيارة بيت المقدس من المغرب وأراد العودة، فأدركته المنية فمات به في عاشر شوال إلى ست وخمسين وستمائة ودفن بجبانة ماملا وقبره يزار.

نصر الدين محمد بن محمد المقدسي

مخطوطة المستقصي في فضائل المسجد الأقصى

نشر ضمن كتاب فضائل بين المقدس

في المخطوطات ص. 513 — 514

عبد الرحمن الادريسي المكناسي :

السيد عبد الرحمان بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمان بن أحمد الادريسي المكناسي الحسيني نزىل مكة السيد العارف بالله تعالى قطب زمانه كان من كبار الأولياء له الكشف الصريح والأحوال الباهرة وهو الذي يقول فيه الأديب محمد بن الدراء الدمشقي في أيام مجاورته بمكة المشرفة.

في ظل حمى السيد عبد الرحمن * خيم لتفوز بالرضي والغفران
وأحفظ نجواك عنده والإعلان * كي تنشق عرف عرفات الاحسان
ولد بمكناسة الزيتون من أرض المغرب الأقصى في سنة ثلاث وعشرين وألف ورحل في ابتدائه من المغرب فدخل مصر والشام وبلاد الروم واجتمع بالسلطان مراد ووقع له كرامات خارقة وحج سنة ثلاث

وأربعين وألف وجاور بمكة ثم رحل الى اليمن لزيارة من بها من الأولياء فاجتمع بكثير من أكابر المشايخ منهم السيد عبد الرحمن بن عقيل صاحب المخا ثم رجع الى مكة وتدير بها وصار مرجعا لأهلها. والواردين اليها وكان في الكرم غاية لاتدرك وكان يعمل الولايم العظيمة للخاص والعام وكانت النور تأتي اليه من المغرب والهند والشام ومصر ويصرفها للفقراء وكان مقبول الكلمة عند جميع الناس وإذا جاءه المدين المفلس ليشفع له عند دائه فمجرد أنه يكلمه في ذلك يمثل أمره بطيب النفس وربما أبراه من دينه وإذا جار أحد من السادة على عبد أو أمة ودخل عليه اشتراه منه بأغلى ثمن واعتقه حتى اعتقد أرقاء كثيرا ووقف عليهم دورا وكان حسن العشرة إذا اجتمع به أحد لم يرد مفارقتة كثير المشافعات وكان يحب العلماء ويكرمهم ويحسن للفقراء ويتفقدهم بالنفقة والكسوة العظيمة وكان يدعو الله تعالى بحاله ومقاله وكان لايلبس الأثوبا واحدا صيفا وشتاء. وقلنسوة على رأسه ويلبس سروالا وكان يبحث من يجمع به على ملازمه ما يناسبه من صنوف الخير من تلاوة القرآن وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وكثرة استغفاره وأورام حسان ويخص من رأى فيه علامة الخير على اعتقاد الصوفية والتصديق بكلامهم وعلامهم وأحوالهم وخصوصا الشيخ الأكبر فإنه كان يعظمه كثيرا ويأمر بتعظيمه حكى لي الأخ الفاضل الكامل الشيخ مصطفى بن فتح الله قال دخلت عليه في بيته بمكة مع الشيخ عارف حسين بن محمد بافضل وكنت لم أدخل عليه قبل ذلك وكان لايحضر بيالي ذكر الصوفية ولا أحوالهم فحين اجتماعي به قال لي ما تقول في الصوفية فسكت لعدم معرفتي بشيء من ذلك فذكر الامام الغزالي وما وقع للفاضي عياض بسبب إنكاره عنه وحرقة كتاب الأحياء قصة طويلة عجيبة.

ثم ذكر الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي وأحواله ومؤلفاته وأطال في وصفه وأنه الختم الأُمِّي وأمرني أمرا جاز ما باعتقاد الصوفية ومطالعة كتبهم والتسليم لهم والتصديق بعلمهم وأحوالهم قال فكأنما طبع الله كلامه في قلبي فمن ذلك الوقت والله الحمد ملقت اعتقادا ومحبة فهم وإن لم أكن على سننهم وأرجو من الله سبحانه أن يحشرني معهم في حزبهم ولقنتني رضي الله عنه الذكر لا إله إلا الله محمد رسول الله وألبسني الخزقة الشريفة وكان يدعو لي كثيرا وكانت له الكرامات العظيمة منها ما حكاها السيد الجليل عمر بن سالم سيخان باعلوى أنه سافر معه الى اليمن وكان معهما الشيخ الفاضل عبد الله بن محمد الطاهر العباسي المكي فهاج عليهم البحر وكادوا يشرفون على الهلاك فقالوا له يا سيدي انظر الى ما نحن فيه من الحال ادع الله أن يفرج عنا فقال للبحر أسكن بإذن الله فسكن من حينه ووقف الريح فقال للريس سر على بركة الله تعالى فقال يا سيدي كيف أسافر بلا ريح فقال له سر يأتي الله بالريح فسار فأتتهم ريح طيبة وصلوا فيها إلى مقصودهم وزال عنهم ما كانوا يجدونه من الخوف ببركته ومنها أيضا ما أخبر به السيد المذكور أنه لما ذهب نفع الله تعالى به الى زهارة سيدي الشيخ أحمد بن علوان بمدينة بغرس اتى الشيخ خادمه في المنام قبل وصول السيد بليلة وقال له في غد يصبح عليك رجل صفته كذا وكذا فافعل له ضيافة عظيمة وبالغ في تعظيمه وإكرام نزله ومثوان فإنه من أكابر أهل الله فامتثل الخادم أمر الشيخ وفعل ما أمره به وانتظر في الوقت الذي ذكره له فلم يجده فذهب خارج البلد لعله يجده فلم ير له أثرا ولا خيرا فرجع وقد يمس من وصوله ودخل مقام الشيخ فوجده فيه بصفته وكانت الأبواب مصكوكة

خلاصة الأثر 2 : 346 — 348
المحيي خلاصة الأثر من 2 : 346 — 347
المحيي : خلاصة الأثر 2 : 348.

فتحت له ومفاتيحها بيد الخادم فعرفه وقبل يديه وذكر له ما أمره به الشيخ وذهب به الى مكان الضيافة وبالغ في إكرامه ومنها ما حكاها السيد المذكور أنه كان بيندر الخا وكان رجلا من أصحابه متوجهين الى الهند فاتيا اليه يودعانه ويطلبان منه الدعاء فقال لأحدهما تحل لك مشقة كبيرة في البحر ولكن عاقبتا سليمة، فكان كما قال وقال للآخر إذا رأيتني في الهند فلا تكلمني فلما وصل الى الهند توجه الى دلهي جهان آباد سرير السلطان فجلس يوما على باب داره فإذا بالسيد مقبل وعليه سلهامة سوداء فعرفه وقال لبعض أصحابه هذا السيد عبد الرحمن وركض ليقبل يديه فشززه بعينه فتذكر كلامه فرجع وأغشي عليه وحصل له حال عظيم فلما أفاق لم يره نفع الله به وبالجملة هو خاتم الأولياء في عصره وقد تقدم ذكر ولادته وأما وفاته فقد كانت نهار الأربعاء سابع عشر ذي القعدة سنة خمس وثمانين وألف ودفن بزاوية السيد سالم شيخان اشتراها من أولاده وأوصى أن يدفن فيها رحمة الله تعالى.

المهي خلاصة الأثر ج 2 : 346 — 348

محمد المزطاري الكناسي :

محمد بن أحمد المزطاري المغربي الكناسي الشاذلي المالكي الشيخ الامام العارف بالله المسلك المرشد الصوفي الواصلين وأستاذ الأساتذة وشيخ الطائفة أخذ الطريق الشاذلية عن شيخه صاحب الكرامات والأحوال من شهدت بقطيانيته فحول الرجال القطب الفوث الفرد الرباني سيدي قاسم بن أحمد القرشي السفيناني المدعو بابن بلوشة نور الله مرقده (حكى) تلميذ المترجم الشهاب أحمد بن ابراهيم الحبالى الاسكندري أنه ما غفل في وقت من الأوقات الخمسة عن تسعين ألف لا الله إلا الله قط في مدة إقامته معه وكانت المدة المذكورة ثمانية عشر عاما وأنه تولى القطبانية خمسة وعشرين عاما الى أن توفي وقدم دمشق في غرة جمادى الأولى سنة ستة وتسعين وألف وأخذ عنه بها الطريق الشيخ محمد بن خليل العجلوني وكتب له بذلك إجازة مطولة وكان يقول له جئت من المغرب لاعمر ديارك، وأخذ أيضا عن المترجم الشيخ عبد الرزاق ابن عبد الرحمن السفرجلاني ومن ذلك الوقت اشتهرت الطريقة الشاذلية بدمشق وكثر اتباعها والأخذون لها وكان صاحب الترجمة جبلا من جبال المعارف منار هدى وإرشاد وله كرامات كثيرة وخوارق شهيرة لا تسعها الأفهام ولا يطيقها نطق الأقالام.

ثم إنه رحل من دمشق الى مكة المشرفة وتوفي بها في محرم الحرام ليلة الجمعة سنة سبع ومائة وألف عن ثلاث وستين سنة ودفن بباب المعلى بقرب ضريح السيدة خديجة الكبرى وقبره ظاهر يزار رحمه الله تعالى.

المراي سلك الدرر ج : 4 : 33 — 34

حسن بن أحمد الكناسي :

ومات الامام العلامة نور الدين حسن بن أحمد بن العباس بن أبي سعيد الكناسي.

ولد بها سنة ألف واثنتين وخمسين (1052) وقرأ على محمد بن أحمد الفاسي نزيل مكناس وحضر دروس سيدي عبد القادر الفاسي وكثيرين، وقدم مصر سنة أربع وسبعين وألف حضر درس الشيراملسي ومنصور الطوخي وأحمد البشبيشي ويحيى الشهاوي، وحج واجتمع على السيد الرحمن المحجوب

المكناسي وكانت له مشاركة في سائر العلوم.
مات بمصر سنة إحدى ومائة وألف.

الجبرتي عجائب الآثار ج 1 ص - 173

منصور بن حمزة بن عبد الله المجاصي المكناسي :

منصور بن حمزة بن عبد الله المجاصي أبو علي المكناسي إمام المالكية بالحرم الشريف. سيع من أبي عبد الله بن أبي الصيف : صحيح مسلم وجدت سماعه عليه لمجلدات من صحيح البخاري، وجامع الترمذي، ولقد سمع ذلك كله والسماع في سنة خمس وتسعين وخمسمائة بالحرم الشريف وهو بخط أحمد بن أبي بكر الطبري، ترجمه الفقيه الأجل إمام المالكية بالمسجد الحرام. وما عرفت عن حاله سوى هذا.

العقد الثمين 6 : 284

محمد بن عبد الرحمن الحسن المكناسي :

محمد بن عبد الرحمن بن يوسف الكمال أبو البركات بن أبي تريد الحسن المكناسي السكندري أجاز لابن شيخنا وغيره في سنة سبعة عشرة وأرخه المقرئ في عقود في سنة اثنين وعشرين وقال أنه ذكر أن أباه صافحه قال : صافحني أبو الحسن علي الخطاب وعمره مائة وثمانين، صافحني أبو عبد الله الصقلي، صافحني أبو عبد الله معمر وكان عمره أربعمائة سنة، صافحني النبي صلى الله عليه وسلم. انتهى وهو شيء لا يعتمد الحفاظ للاثبات.

السخاوي الضوء اللامع

46 : 08

ت ق : 9

محمد بن علي بن عطية المكناسي أبو عبد الله :

ذكره القطب الحلبي في تاريخ مصر، فيما أخبرني به عنه شيخنا ابن صديق بقراءتي عليه وقال : قال شيخنا القطب القسطلاني : هذا ابن عطية سافر وساح وجاور بمكة دفعات، ودخل الشام والحجاز واليمن، وكان فيه صدق وإيثار. انتهى.

أخبرني إبراهيم بن محمد الدمشقي، فيما قرأت عليه بالحرم الشريف أن الحافظ قطب الديت أبو بكر محمد بن أحمد بن علي القسطلاني من لفظه في صفر سنة خمس وثمانين وستائة بالسنة الكاملة من القاهرة. قال : أخبرني الشيخ أبو عبد الله محمد بن علي بن عطية المكناسي بالحرم الشريف في سنة سبع وخمسين وستائة قال : كنت حاضرا عند الشيخ العارف فخر الدين الفارسي بقراءة مصر فأنشد فقر بين يديه :

وما صدعني أنه لي مبعوض
ولا أن قتلني من الهوى صف مراده
ولكن رأي أن الدنو يزيدني
غراما فاحين مهجتي ببعاده
فصاح عليه صيحة منكرة وقال : لا وأنشد الشيخ :
يمثله فكـري وإن غاب شخصه
فما هو إلا غائب مثل حاضر
وتشغلني ذكره عن ذكر غيره
فما سواه أن يمر بخاطري

التقي الفاسي (العقد الثمين)

ج 2 : 159 - 160

التواصل الثقافي

بين الحضارة الاسماعيلية والزاوية الشرقاوية

الأستاذ أحمد بوكاري
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة القاضي عياض
مراكش

تمهيد :

اظهرت بعض الدراسات التاريخية في الآونة الأخيرة مدى شمولية الاسهامات الفكرية لمختلف مناطق المغرب⁽¹⁾ وان فكرة هيمنة المدد السلطانية على حركة التاريخ - كمجتمع وفكر - ليست مقصودة لهدف علمي خالص، بل تتجاوز ذلك الى ترسيخ قناعة مقنعة، تريد أن تسلب التاريخ الوطني وحدته وتكامله.

من خلال العمل الذي أنجزته في موضوع «الزاوية الشرقاوية»⁽²⁾ والذي أبرزت فيه بعض أدوارها واسهاماتها على المستوى المحلي أو الوطني، تبين فعلا أن لحدود للتواصل والترابط بين جهات البلاد وعلى مختلف المستويات، وهي الخلاصة التي يمكن استنتاجها من العديد من المؤلفات ذات الطابع الفكري أو الروحي الصوفي مثل كتب الطبقات والتراجم أو الفهارس...

سأحاول من خلال هذه المساهمة، إبراز بعض جوانب هذا التواصل من خلال نموذج مكناس كعاصمة للمغرب في العهد الاسماعيلي (1084 - 1139 = 1672 - 1727) وزاوية أبي الجعد (الزاوية الشرقاوية) المحجج الروحي لقبائل تادلا وما جاورها من بلاد الشاوية ومنطقة الدير الأطلسي، مع التركيز على شخصية محمد الصالح الشرقاوي، شيخ الزاوية المعاصر للسلطان العلوي مولاي اسماعيل، بل إن هذا الشيخ توفي في نفس السنة التي توفي فيها مولاي اسماعيل (1139 هـ = 27 - 1728 م).

ترجع أهمية تادلا - موطن الزاوية - الى الدور العام الذي لعبته عبر مختلف أطوار التاريخ المغربي، باعتبارها ممرا تجاريا وبشريا بين شمال البلاد وجنوبها، وهو ما ترك آثاره على الخريطة البشرية للمنطقة الى الآن... كما كانت لها أهميتها خلال الفترات السياسية العvisية... والمتمثلة في ضعف السلطة المركزية أو الصراع على الحكم بين الشمال (فاس) والجنوب (مراكش) كما هو الشأن خلال النصف الأول من القرن 10 هـ/16 م بين السعديين والوطاسيين... لقد اهتمت الكتابات الأجنبية وبهذه المنطقة الجبلية بصفة خاصة،

مستهدفة من وراء ذلك إبراز حالة عدم الاستقرار كحالة مزمنة في البناء السياسي المغربي والحالة هذه أن واقع هذه القبائل وغيرها يجب أن يربط بظروفها من الناحية الجغرافية والاقتصادية والتي لها ارتباط وثيق بعدم استقرار مصادر عيشها تبعا لعدم استقرار خريطة المغرب البشرية خلال عصور طويلة، بالإضافة الى عامل المناخ الحاسم.

في هذه المداخلة، ساهمت بجوانب أخرى أكثر رسوخا وصدورا... وتتعلق بالجانب الفكري الروحي والذي مثلت فيه الزاوية الشراوية بالمنطقة نموذج أو عنصر الاستمرار.... ذلك أن منطقة تادلا لم تكن فقط معبرا جغرافيا وبشريا فحسب، ولكن تمثل نقطة ربط وصلة بين مختلف التيارات الفكرية السائدة في شمال البلاد وجنوبها، ولعبت فيها زوايا المنطقة دورا حاسما، سيما زاوية الصومعة ببني ملال الحالية (3)، والزاوية الدلائية في اتجاه الشمال عبر طريق فاس (4)، ويأتي تأسيس الزاوية الشراوية في موقع متوسط بينهما، كتأكيد على أهمية هذه المنطقة والتي قال عنها صاحب اليتيمة :

«إن أكثر بلاد الله أولياء تادلة في الغالب، وأن الأولياء يفرون إليها من أوطانهم كما تفر الابل الى بلد الرعي.....» (5).

أهمية الزاوية الشراوية في العهد الاسماعيلي :

من المعلوم أن تأسيس الزاوية الشراوية يعود الى نفس الفترة التاريخية التي تم فيها تجديد هيكل البلاد السياسي على يد الاشراف السعديين خلال النصف الأول من القرن 10 هـ — 16 م. وإن مؤسس هاته الزاوية هو الشيخ الصوفي : أبو عبيد الله محمد بن أبي القاسم المشهور بـ «الشرقي» والذي تنسب اليه السلالة والزاوية الشراوية التي يوجد مقرها بأبي الجعد قريبا من قصبة تادلا (6) عاصر الشيخ الشرقي فترة التأسيس والتدعيم للحكم السعدي وتوفي قبيل وفاة أحمد المنصور الذهبي ببضع سنوات (توفي الشرقي سنة 1010 هـ).

ويتزامن تأسيس حكم الأسرة العلوية الشريفة، باستعادة الزاوية الشراوية السابق إشعاعها الديني والعلمي بعد فترة من الاضطراب تقترن زمنيا باضطراب أحوال المغرب خلال النصف الأول من القرن 11 هـ — 17 م وإذا كان للمسلطان مولاي اسماعيل الفضل في استقرار الأوضاع بالمغرب، فقد كان لشخصيته أي عبد الله محمد الصالح الشراوي شيخ الزاوية آنذاك الفضل في إعادة تعمير الزاوية واستئناف أنشطتها المختلفة وترجع أهمية هذه الشخصية الصوفية الى ما يأتي :

— جاء في كتاب الزهة للأفراني ما يفيد الاقرار الصريح والاعتراف الواضح بدور شيخ الزاوية محمد الصالح في تأليف الأفراني لهذا الكتاب الهام في إطار مساعدات الزاوية لأهل العلم ورعايتها لهم... كما نستنتج شهرة هذا الشيخ لا كفقيه وصوفي فقط بل وأيضا كأديب له باع وملكة في لغة القوم (8).

تجمع المصادر على أن الزاوية في عهد هذا الشيخ اكتسبت شهرة وإشعاعا على المستوى الصوفي والعلمي بصفة خاصة، وأنها ساهمت بقسط وافر في إشاعة التعاليم والثقافة الاسلامية في وسط كان في أمس الحاجة الى ذلك بسبب بعده عن مراكز الثقافة التقليدية.

تؤكد نفس المصادر على المكانة الهامة التي أصبحت تحتلها الزاوية على المستوى الوطني، وهو ما

انعكس على العلاقات الطيبة والوطيدة بين شيخ الزاوية والسلطان مولاي اسماعيل والتي ترددت أصدائها — كما سنرى — من خلال علاقات الزاوية بأعلام ورجالات الحضرة الاسماعيلية سواء تعلق الأمر بعلاقات الزاوية وشيخها بكبار العلماء والفقهاء أو رجالات التصوف.

* ملاح من التواصل الديني والثقافي بين الزاوية والحاضرة الاسماعيلية :

أ — في ميدان التصوف :

تعددت مصادر تصوف الشيخ محمد الشرقي مؤسس الزاوية... بيد أن من أبرز شيوخه أبي عبد الله محمد بن عمر المختاري (9) عالم فاس زمن السلطان مولاي عبد الله الغالب السعدي وقد أخذ ابن عمر التصوف على شخصية مكناسية لها أهميتها البارزة في تاريخ التصوف المغربي وأعني به الشيخ محمد بن عيسى الفهدي المتوفي 940 هـ (10). وهذا أخذ بدوره عن الشيخ أحمد الحارثي المكناسي المتوفي 910 هـ (11).

بيد أن روابط الزاوية الصوفية بالمراكز الشمالية خاصة مكناس لم تقتصر على الأخذ بل وأيضا العطاء والتفاعل... ذلك أن الشيخ الصوفي الكبير سيدي أحمد ابن خضراء المكناسي (المتوفي 1075)، والذي يعتبر من أعلام الملامية بالمغرب (12)، تتلمذ وسلك طريق القوم على يد أحد أبناء الزاوية البارزين هو الشيخ سيدي عبد السلام بن الشيخ محمد الشرقي، فيكون قد أخذ عن الشيخ الشرقي بواسطة.

وإذا أردنا أن نوسع الاطار الجغرافي في نحو أحواز مكناس، نجد أن الشيخ سيدي قاسم السفياي والمعروف ب «ابن للوشة» والذي هو أحد أعلام التصوف في الغرب، قد تتلمذ على أحد أبناء الزاوية وهو الشيخ محمد الغزواني ابن الشيخ محمد الشرقي (13).

وتجتم هذه اللائحة بذكر علم آخر وهو سيدي علي بن محمد المدعو «حمدوش» دفن زهون، والذي سلك بدوره طريق التصوف على يد الشيخ سيدي محمد الخفيان بن المفضل أحد حفدة الشيخ الشرقي

ب — في الميدان الثقافي :

وأقصد ماله علاقة بالعلوم الشرعية تميزا لها عن علم الحقيقة (التصوف)، بيد أن الزاوية المغربية — ومنها الزاوية الشرقاوية — جمعت بين مهام عديدة متكاملة ومنسجمة، فبالإضافة الى التربية الروحية، اهتمت الزاوية بنشر وبت تعاليم الدين الاسلامي الحنيف فقامت بدور الجامع والمدرسة العلمية سيما في المناطق النائية... وقد أكد شيخ الزاوية الشرقاوية محمد الصالح على أهمية علم الشريعة باعتباره القاعدة الصلبة التي يجب أن يقام عليها كل بناء صوفي فمن أقواله ينصح تلامذته ومريديه : «وعليكم بالعلم، فالعلم زينة الفقر وعماده وفراشه وغطاؤه ووساده. وفقر (أي تصوف) بلا علم فضيحة ومكر وخديعة... فهو ظلمة بلا سراج...».

وتحفل مصادر الزاوية بأسماء العديد من الشخصيات العلمية الصوفية والتي جمعها بالزاوية وأشياخها روابط شتى... وسأقتصر على البعض من أعلام الحضرة الاسماعيلية.

1 — الفقيه أحمد بن فروح التازي.

من كبار تلامذة العلامة سيدي سعيد بن أبي القاسم العميري بمكناس زمن السلطان مولاي اسماعيل

ومن مكناسة انتقل في مهمة علمية الى قسبة تادلا، وهناك بدأت علاقاته العلمية والصوفية بالزاوية وشيخها عماد الصالح (15).

2 - أحمد بن عبد القادر التستائوي (16) :

من كبار علماء وأدباء ومتصوفة العهد الاسماعيلي، استقر بمكناس إلا أنه كان كثير التردد على الزاوية وشيخها ومن المساهمين في تعمير حلقات العلم والدرس بها، وهو العمل الذي وأصله من بعده أخوه محمد العياشي التستائوي في عهد الشيخ محمد المعطي الشرقاوي (17) صاحب التأليف الصوفية الخالدة والمعروفة بمصنفات «ذخيرة المحتاج» (18).

3 - عبد القادر بن شقرون المكناسي

فقيه وأديب ولغوي، إلا أنه اشتهر بثقافته الطبية، عاش زمن السلطان مولاي اسماعيل وهو من الشخصيات المقربة اليه، قضى وقتا ليس باليسير في رحاب الزاوية الشرقاوية، مساهما في تعزيز وتنوع المواد العلمية المدرسة بالزاوية وهو ما نستفيدة من النص التالي :

«فأخذت في تدريس علم النحو لبلوغ القصد ومن التصريف كمال التصرف في الأمور ومن الطب النافع الانتفاع وانشرح الصدور... فمكثت عنده (أي عند الشيخ محمد الصالح) تلك المدة المباركة التي لا يأتي بها زمان، ولا يعادها وقت ولا أوان».

ويطلب من شيخ الزاوية كتب ابن شقرون أرجوزته الطبية الهامة ومن الصدق أن يظل تاريخ وفاة ابن شقرون مجهولا إلا أن تم الكشف عنه بواسطة أحد مصادر مؤلفات الزاوية وأعني به كتاب يتيمة العقود الوسطى (19).

لقد عرف عن الشيخ محمد الصالح شغفه بالعلم وتعلقه بالعلماء، وأنه بدل في سبيل جلب الأثر العلمية للزاوية جهدا كبيرا، بل إنه وضع أسس تقاليد علمية بالزاوية، من ذلك : حفل الختم، وعقد ندوات علمية على مستوى منطقة تادلا برمتها، يستدعى لها كبار علماء العصر... فلا عجب إن كان من بين هؤلاء عالم الحاضرة الاسماعيلية الشيخ العالم الحسن بن رحال المعداني التادلي، الذي كان يدعى ب «صاعقة العلوم والتدريس». جاء في كتاب اليتيمة.

«فاجتمع عليه خلق كثير من طلبة العلم من أهل الصومعة وقشتالة ونواحي تادلة من الجبل والوطا :» (20).

مما سبق، يمكن استنتاج ما يلي :

إن التعريف ببعض جوانب التواصل الثقافي بين زاوية من زوايا المغرب، وبين حاضرة البلاد مكناس الاسماعيلية يقصد منه :

« التأكيد على أهمية الزوايا ودورها في التاريخ الوطني ليس فقط ممن خلال اشعاعها الفكري والروحي وتفاعلها مع محيطها الخاص والضييق، لكن أيضا ربط هذا المجال الجهوي بمختلف التيارات الفكرية داخل البلاد في إطار تدعيم المشروع السياسي.

« إبراز شمولية الاسهامات الفكرية والثقافية لمختلف مناطق البلاد؛ والتي كان من نتائجها بلورة نوع من الثقافة الموحدة على مستوى اللغة والممارسات الشرعية والصوفية؛ هذه الوحدة التي لا تتأثر في عمقها بحالات الاضطراب وعدم الاستقرار السياسي باعتبارها عارضة من العوارض.

« إن علاقات عواصم المملكة بمختلف نواحي البلاد، لم تكن علاقات سلبية، كما حاولت أن تركز ذلك الكتابات الأجنبية، بل علاقات تفاعل شملت مختلف المجالات بشريا، اقتصاديا، سياسيا وثقافيا... وهي الجوانب التي يجب أن تهتم بها الكتابات التراثية في محاولة جادة ومستمرة للبحث عن عناصر وعوامل التلاحم داخل المجتمع المغربي عبر مختلف أطوار التاريخ — وليس العكس — هذا التاريخ الذي أثبت استمراره وعراقته وحضوره وحيويته عبر الأحقاب والعصور.

الهوامش

- (1) د. محمد حجي: الحركة الفكرية في عهد السعديين (جزءان) في حين أن كتاب الأستاذ محمد الأخضر حول «الحياة الأدبية في المغرب على عهد العلويين (1977) لم يغط إلا جوانب محدودة من هذا النشاط وهو ما سوف يتم تجاوزه بفضل الأبحاث الجامعية التي تم إنجازها أو التي في طور الإنجاز.
- (2) أحمد بوكاري: الزاوية الشراوية — زاوية أبي الجمعد — إشعاعها الديني والعلمي (البيضاء 1985).
- (3) الزاوية الشراوية: ج 1، ص: 159 — 162.
- (4) ذ. محمد حجي: الزاوية الدلائية دورها الديني والعلمي والسياسي (الرباط 1964).
- الزاوية الشراوية ص: 162 — 166.
- (5) محمد بن عبد الكريم العبدوني: -يتيمة العقود الوسطى... مخطوط خاص، ص. 139.
- (6) الزاوية الشراوية: ص: 67 — 80.
- (7) الزاوية الشراوية: 103 — 108.
- (8) محمد الصغير الأفراني: نزهة الحادي... (هوراس) 310 — 311.
- (9) ابن عسكر الشفشاوني: دوحة الناشر 83.
- (10) ابن عسكر الشاوني: 75 — 76.
- (11) ابن عسكر الشاوني: 74 — 75.
- (12) الأفراني: صفوة من انتشر، 157 وأيضاً الزاوية الشراوية 152.
- (13) الزاوية الشراوية: 153 وحول شخصية محمد الغزواني الشراوية. نفسه 97، 98، 99.
- (14) الزاوية الشراوية: 153 — 154.
- (15) الزاوية الشراوية: 199 — 200.
- (16) الزاوية الشراوية: 200 — 201.
- (17) الزاوية الشراوية: 108 — 110.
- (18) الزاوية الشراوية: 260 — 273 حيث أفردت قسماً خاصاً للتعريف بهذه المؤلفات الهامة.
- (19) الزاوية الشراوية: 205 — 208.
- (20) الزاوية الشراوية: 209 — 210 وكذلك 220.

مساهمة علماء مكناس وفقهاؤها في حل مشاكل المجتمع المغربي عبر كتب النوازل الفقهية خلال بداية العصر الحديث

الأستاذ محمد مزين
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
فاس

حضرة السادة

لابد وأن معالجة موضوع من هذا النوع من طرف باحث في التاريخ تثير عددا من التساؤلات...
تساؤلات عن علاقة التاريخ بالفقه... لأن الموضوع يظهر وكأنه مرتبط بأقوال الفقهاء وإنتاجهم : فمن
سائل عن الارتباط بين التاريخ والفقه، ومن سائل آخر عن الجدوى في اعتماد هذه الكتب لكتابة التاريخ
خصوصا عندما نعلم المفهوم التقليدي للتاريخ أي التاريخ الكرونولوجي...

: وإجابة على هذين السؤالين وعلى غيرهما من الأسئلة الداهية في نفس السياق والقاصدة نفس
المعنى... أرى أنه يكون من المفيد - في إطار هذه المقدمة السريعة - إعطاء بعض الأوليات عن تلك
المسألة :

1 - أولا يجب أن أثير انتباه السادة الحاضرين وبالأخص السادة الذين ليس لهم اتصال
بالتاريخ - بحكم مهنتهم أو اهتمامهم - على أن استعمال كتب الفقه وبالأخص كتب النوازل الفقهية في
كتابة التاريخ اهتمام قديم، ذلك أن مؤرخي الفترة التي نتحدث عنها اليوم (بداية العصور الحديثة) اعتمدوا
مثل هذه الكتب في تحديد مجموعة من الظواهر بل في معرفة بعض الأحداث :

- فتاوى الفقهاء المتعلقة بظروف خروج المسلمين من الأندلس بعد سقوطها نهائيا عام 1492 م
اعتمدت كأساس لتحديد بعض الظواهر المتعلقة بهذا الحدث (نوازل متعلقة بالموضوع في المعيار ذكرها
صاحب النزهة وكذلك المقرئ)...

- والفتاوى المتعلقة بظروف معركة وادي المخازن وكذلك تلك المتعلقة باسترجاع الثغور المحتلة...

- ثم الفتاوى المتعلقة بهجمات القبائل المجاورة لفاس على المدينة (الخيانية وغيرهم)...

- ثم الفتاوى المتعلقة بقضية العياشي والمجاهدين بغير سلا...

- ثم فتاوى اجتماعية تاريخية كقضية الاسلاميين أو البلديين وقضايا اليهود... وموقف الدولة من كنائسهم...

- وفتاوى اقتصادية تتعلق بملكية الأرض والضرائب عليها...

كل هذه الفتاوى ذكرت من طرف المؤرخين القدامى... واعتمدت كأساس لمعرفة أحداث فترة زمنية...

وقد استمر المؤرخون (الرواة منهم والمحدثين) يستعملون مثل هذه الكتب في إنتاجهم : فهذا الزباني يعتمد فتاوى فقهاء عصره، وذلك الناصري وبعده ابن زيدان... كلهم اعتبروا كتب النوازل كمصادر للتاريخ...

ثم بعدهم المستشرقون من «هدي روجي ادريس» إلى «براشفيك» إلى «جاك بيرك»... ثم المغاربة...

2 - وترتبط الملاحظة الثانية - في إطار هذه المقدمة - بطريقة استعمال مثل هذه المصادر من طرف المؤرخين، ذلك أن طريقة استعمال تلك النوازل اختلفت اختلافاً بينا من باحث لآخر.

- فمنهم من اطلع على مثل هذه الكتب وحاول أن يصطاد منها ما تحويه من أحداث مضبوطة زماً ومكاناً، وتلك هي الطريقة التقليدية.

- ومنهم من حاول استخلاص ظواهر محددة كالتنظيم الإداري من نوازل الأفضية أو غيرها كبرانشفيك وهدي روجي ادريس أو توزيع الأراضي أو تطور المذهب... وغير ذلك من الظواهر التنظيمية...

- ومنهم أخيراً من اعتمدها كأساس لتحديد التطور الفكري والعقلاني للمجتمع المغربي مثل جاك بيرك الذي ينطلق من النوازل كظاهرة فكرية تتحدث عن ذلك التاريخ النبوي الذي وصفه «لوسيان فيفر» واتباعه من أمثال «بروديل» صاحب تاريخ «المدى الطويل»، ذلك التاريخ الذي يختلف عن تاريخ الأحداث اليومية أو السنوية المضبوطة أو تاريخ المراحل القصيرة... فمثل هذا النوع من المؤرخين يسعون قبل كل شيء إلى تتبع التاريخ النبوي... وذلك ما حاول جاك بيرك وغيره من المؤرخين من ذلك الصنف تتبعه في كتب النوازل : تطور نوعية المعاش واستغلال الأراضي وتطور عقلية المغاربة وبالتالي موقفهم من قضايا مختلفة كالأوليات والجهاد... وغيرها من المواضيع.

وذلك ما أريد أن أحاوله اليوم أمامكم متخذاً تاريخ مدينة مكناس في مرحلة أواخر القرون الوسطى وبداية الحديثة كمثال من جهة، وكتب النوازل المعاصرة لنفس الفترة كأساس من جهة ثانية.

وقد حاولت جمع التساؤلات التي أريد الإجابة عليها اليوم فيما يلي :

أولاً : ماهي الخطوط العريضة لتاريخ مدينة مكناس خلال هذه المرحلة ؟

ثانياً : ماهي مكانة مدينة مكناس في كتب نوازل العصر ؟

ثالثاً : ماهي أهم القضايا الاجتماعية الواردة في كتب النوازل المعاصرة والتي تهم مدينة مكناس ؟

أولاً : الخطوط العريضة لتاريخ مدينة مكناس خلال القرنين العاشر والحادي عشرة :

ذكرت مدينة مكناس في كتب تاريخ هذه المرحلة عدة مرات حيث نالت المدينة حظها من كل ظواهر العصر :

1 - من ظاهرة المد المسيحي وحركة الجهاد :

أ - على إثر تنظيم أحمد الوطاسي لحملة عسكرية ضد البرتغاليين الذين كانوا على وشك احتلال ثغر أزموور.

ب - على إثر معركة المهديّة (1515)، والمهديّة لاتبعد كثيراً عن مدينة مكناس...

2 - ذكرت المدينة في إطار التصوف التي عرفها العصر :

جاء ذكر مدينة مكناس في كتب التراجم حيث ذكر صاحب الدوحة ابن عسكرة، وكذلك صاحب الجدوة، عددا من الأولياء المكناسيين من أمثال : سيدي بنعيسى الفهري أو المجاورين لمدينة مكناس : ابن الخياط... أبو الرواين... ونعرف أهمية هذه الظاهرة - ظاهرة الأولياء - بالنسبة للمغرب كله في هذه الفترة ، وبالنسبة لتاريخ مدينة مكناس خاصة.

3 - ذكرت كذلك في إطار ظاهرة الهجرة التي عرفها المغرب آنذاك هجرة الأندلسيين، هجرة

القبائل المحاورة...

4 - ذكرت بمناسبة صعود دولة جديدة الى الحكم : دولة الاشراف السعديين، حيث جاء في

كتاب المؤرخ المجهول وكتاب اليفراني ذكر لموقف علماء مكناس من الحركة السعدية : أبو الرواين وحرزوز وغيرهما.

5 - ذكرت في مرتبة متقدمة في ظواهر البيعة لولاية العهد لابناء المنصور، حيث عين زيدان

عاملا لايه على المدينة...

6 - ذكرت خلال القرن الحادي عشر عندما قرر المولى اسماعيل تشييد عاصمة ملكه بها، ونالت

بذلك حظوة كبيرة.

إذن عايش سكان المدينة أشهر أحداث العصر... فتأثروا بها وكانت لهم مواقف منها، وكذلك كانت

لثقافتها مواقف من تلك الأحداث. فهل ظهر ذلك في كتب النوازل ؟

ثانيا : ماهي مكانة مدينة مكناس في كتب نوازل العصر ؟

كانت بداية العصور الحديثة غنية بالأحداث وبالقضايا الشائكة الصعبة وكانت الفترة فترة اضطرابات

وتراجع وعن بالنسبة للمغرب كله... عصر الغزو الايبيري للسواحل، عصر فقدان الأندلس، عصر

الخوارق... عصر تراجع في الانتاج الفكري (خصوصا النصف الثاني للقرن 15 وبداية السادس عشر)

عصر الشك... عصر نهاية ألف سنة على الهجرة النبوية... عصر ذلك المجتمع الذي وصفه الهبطي في

ألفيته. تلك هي الظرفية التي أفرزتها الأحداث والتي ستختلف بدورها إنتاجا فكريا رديئا ما عدا في الفقه، وحتى على مستوى الفقه — كما سنرى — فالمواضيع المتناولة مواضيع بسيطة في جملتها مثل مسائل الأئمة التي يعرفها كل من تشهد بلا إله إلا الله... وكانت مشاكل سكان المغرب في أغلبها متشابهة...

وكثير اتصال العامة بالفقهاء وكثير المفتون والمصلحون بالمدن المغربية وبواديها... وكثر عددهم بمدينة مكناس (أشهرهم ثمانية سنذكرهم بعد قليل) وهذا يجزنا الى أن نطرح سؤالا عن الآثار التي خلفها هؤلاء الفقهاء والمفتون من مكناس أو من غيرها. ولنطرح السؤال أولا عن مدينة مكناس :

1 — هل توجد كتب نوازل لعلماء مدينة مكناس ؟

خلال العصر الذي نحن بصدده لا يمكن أن يكون الجواب إلا بالنفي لماذا ؟ لأنه لا تكون هناك كتب نوازل خاصة بمدينة معينة إلا إذا توفر لهذه المدينة شرطان أساسيان :

أولهما أن يكون للمدينة أقطاب للفتوى يقصدها الفقهاء والطلبة والعامة لاستفتائهم... وكل الفقهاء الذين كانوا يمارسون مهنة الخطبة والفتوى بالمدينة مكناسة آنذاك — رغم ما عرفوا به من اختصاص ومن مستوى لائق — لم يصلوا بعد الى مستوى يسمح لهم بأن يكونوا أقطابا، وحتى إذا احسوا في أنفسهم هذه المقدرة فهم يهاجرون الى فاس. نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر :

□ عبد الرحمان بن علي الوقاد المتوفى بعد عام 934 هـ/1528 م، وهو من أسرة أندلسية كانت قد استقرت بمدينة فاس ثم هاجر بعض أفرادها الى مدينة مكناس منهم والد عبد الرحمان — وقد اشتهر بالضراعة في النوازل وأحكام القضاء.

شارك في المناظرة الكبرى حول مشكل البلديين وناصر أحقيتهم في العمل بالأسواق.

□ وأحمد بن العربي الغماري المتوفى بعد عام 959 هـ/1552 م، من قبيلة كومية الزناتية، التي استقر بعض أفرادها بمكناس، وقد اشتهر بتمكنه في الفقه والتوثيق حيث تولى القضاء والفتيا بمدينة مكناس.

□ الحسن بن أحمد حرزوز المتوفى عام 981 هـ/1553 م الذي درس بالمغرب والمشرق اشتهر بالتدريس والخطابة والفتيا. وقد اتخذ موقفه المشهور ضد السعديين وضد محمد الشيخ.

□ محمد بن عبد الرحمان بصري المتوفى عام 991 هـ/1581 م الذي خلف حرزوز في الخطابة والتدريس، كان حسب المصادر متضلعا في الفقه....

□ محمد بن محمد الغماري المتوفى عام 1002 هـ/1593 م الذي قالت عنه كتب التراجم أنه فقيه كان يستظهر مختصرا خليل ويستحضر اجتهادات الأئمة في الأحكام والنوازل.

□ أحمد بن محمد العربي الغماري المتوفى عام 1063 هـ/1653 م الذي عرف بتمكنه في الفقه وأصوله، وحسن استنباطه للأحكام وعدله بين المتقاضين طوال أيام ولايته.

□ وأخيرا محمد بن أحمد بن عزوز المتوفى عام 1066 هـ/1656 م الفقيه النوازلي الذي رحل الى المشرق وأدرسته الوفاة بتونس.

كل هؤلاء إذن مارسوا الخطبة والفتوى، لكنهم لم يخلفوا كتب مشهورة في الموضوع... ولم يكونوا —

رغم شهرتهم — من أقطاب الفتوى في العالم الاسلامي.

الشرط الثاني أن تكون للمدينة خصوصية في الفقه كما كان الحال في المغرب بالنسبة لمدينة فاس، وعلى مستوى أقل بمدينة شفشاون (بل غمارة في فترة معينة من تاريخها)، وتلك ظاهرة قديمة في الفقه الاسلامي حيث أنه في الأساس كان الامام مالك بن أنس قد اتخذ الطريقة التي كان أهل المدينة يتصرفون بها لفهم الأحاديث وحل قضاياهم، واعتبرها الطريقة الأصل في مذهبه، فسميت هذه الطريقة بعمل المدينة المنورة، وكان الحنفية والحنابلة من جهتهم قد اتبعوا عمل العراق والشافعية عمل مكة.

ولما تمركز المذهب المالكي بعد ذلك في الأندلس بدأ قضاة وفقهاء الغرب الاسلامي يعتمدون «عمل الأندلس»، ثم في عهد الحفصيين بإفريقيا (تونس الحالية) وبالخصوص القيروان أصبح «عمل القيروان» مرجعا أساسيا بدوره حيث اعتبر مرحلة انتقالية بين عمل الأندلس الذي أخذ عن الموطن وفترة المعيار بالمغرب.

لكن المرحلة التي تحدث فيها العلماء عن العمل بالمغرب كانت خلال القرن الحادي عشر للهجرة، وكانت مدينة فاس قد وصلت الى قمته في العلم والمعرفة، وكان علماءها يلتزمون قبل ذلك بعمل الأندلس خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة لانحيازهم الى الأمويين بالأندلس ضد شيعة عبيد الله الفاطمي، ثم بعد ذلك وبعد الحركة الموحدية تقوى الحفصيون بالمغرب الأدنى فتبعهم المغرب في اجتهاداتهم...

ولما استقل المغرب بعد ذلك بدأ يكون لنفسه فقها خاصا به، سرعان ما دونه الفقهاء من أمثال الونشريسي (المعيار) وغيره. لكن قوة الفقه المغربي لم تظهر إلا مع حلول القرن الحادي عشر للهجرة حيث نشطت حركة الفتوى بفاس خصوصا، وكثرت مناقشة الفقهاء والعلماء حول قضايا العرف والعمل. وغصت كتب الفقه المغربية بقضايا ترتبط بهذا الموضوع حتى ظهر كتاب «العمل الفاسي» لأبي زيد عبد الرحمن الفاسي في شكل أرجوزة منظومة رتب فيها صاحبها «فهم أهل فاس للفقه المالكي».

وقد اشتهرت هذه المنظومة، فقام بشرحها صاحبها أولا، ثم تبعه في ذلك علماء آخرون من أمثال السلجماسي وغيره.

وكانت هناك كتب أخرى في نفس الفترة اعتبرت بمثابة «الأعمال» رغم أنها لم تكن تحمل هذا الاسم مثلا :

«الجواهر المختارة فيما لقيته من النوازل بجبال، غمارة» لعبد العزيز الزياتي، وقد جمع فيه أبو فارس كل ما أفتى به محمد العربي الفاسي هنا وهناك بغمارة والهبط وفاس ومكناس.

ومسائل ابن عرضون مثلا...

وكل هذه الكتب تختص في مشاكل المنطقة والعصر.

وكذلك نوازل ابن هلال وهي ما يمكن أن يعتبر بمثابة عمل أهل تافالالت، وليس هناك في علمي كتب مثل هذه تتعلق بعمل مكناس لأن المدينة كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بعمل مدينة فاس، ماعدا إذا اعتبرنا أن كتاب سيدي العربي بردلة عملا مكناسيا...

2 — فإذا كانت كتب النوازل الخاصة بمدينة مكناس نادرة بالنسبة للقرنين 16 و 17 الميلاديين فهل

يمكن العثور في كتب النوازل المعاصرة على أسئلة طرحت من طرف سكان مدينة مكناس ؟

أظن أن الجواب على مثل هذا السؤال صعب، خصوصا أن كتب النوازل عامة — كما يعرف الجميع — لا تكترث بذكر اسم صاحب السؤال ولا بمكان إلقاءه، لأن الأسئلة المطروحة على العلماء والمفتين هي أسئلة تعبر عن مشاكل مجتمع واسع بادية ومدينة... على أن التحديد يكون بنوعية القضايا المطروحة، مثلا إذا أخذنا كتاب المعيار وتصفحنا جزءا من أجزائه أو بابا من أبوابه، نلاحظ أنها تثير مسائل خاصة بوسط الغرب الاسلامي بما فيه من مشاكل :

— مسائل تتعلق بفهم الاسلام على حقه : القسم الخاص بالعبادات.

— مسائل تتعلق بمعرفة حكم الاسلام في عدد من القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية : القسم الخاص بالمعاملات.

ومن الملاحظ عند تصنيف المسائل التي ذكرها صاحب المعيار مثلا أن جلها يتعلق :

أولا : بقضايا الماء وتوزيعه (بالخصوص تنمية وادي مسمودة بفاس)

ثانيا : بقضايا اجتماعية : أسرية أو غيرها.

ثالثا : بقضايا الأولياء والمجاذيب وغيرهم

رابعا : بقضايا العصر المتمثلة في الجهاد والعلاقات مع المسيحيين واليهود وغيرها.

وكل هذه قضايا تهم مدينة مكناس كغيرها من مدن «مثلت المواجهة».

إذا رجعنا الى كتب الجواهر المختارة الذي جاء في ظروف تشبه الى حد كبير ظروف القرن الخامس عشر التي يصورها لنا المعيار، لاحظنا أنه يتحدث عن نفس القضايا مع التأكيد على الجهاد (74 صفحة من أصل 400 و 140 نازلة من أصل 500).

وإذا كان كتاب المعيار قد جمع هموم ومشاكل واهتمامات المغاربة عموما أو الغرب الاسلامي (وهو أوسع، فإن كتاب الجواهر جمع تلك المشاكل التي تهم النصف الشمالي من المغرب حيث توجد مدينة مكناس.

بل إن مدينة مكناس كانت توجد في مثلث جغرافي انذاك غني بالتحركات الفكرية وبالأحداث والمشاكل، وهذا المثلث الذي يمكن أن نطلق عليه «مثلث المواجهة» كان يضم غمارة والهبط في قمته وفاس ومكناس في قاعدته، بل إن هذه القاعدة يمكن توسيعها الى مدينة سلا بدون عناء.

وتتلخص مميزات هذه المنطقة في :

— قربها من الثغور التي يحتلها الأجانب:

— اكتظاظها بالعلماء ورجال الفكر عبر مراحل التاريخ.

— تعدد المشاكل الاجتماعية والاقتصادية المرتبطة بمخالطة الأجانب.

اجتماعية : كقضايا الأسرى والعبيد

وقضايا توزيع الغنائم

وقضايا تنظيم الجهاد
وقضايا التحول الى الاسلام والردة.

اقتصادية : كقضايا المجاعات الناتجة عن قلة الأمن وإحراق الغلات...

وقضايا العملات والنقود.
وقضايا البناء والضرر وغيرها.

بما يصور لنا مجتمع مدن شمال المغرب، ومن بينها مدينة مكناس، كمجتمع مضطرب مختلط...

ثالثا : وهذا يصل بنا الى السؤال الثالث الذي طرحناه في بداية هذا الحديث وهو المتعلق بالقضايا الاجتماعية التي وردت في كتب نوازل العصور والتي تمم مدينة مكناس.

تؤكد كتب نوازل العصر على مجموعة من المشاكل عرفتها المدينة المغربية عموما ومدينة مكناس خصوصا، وتتلخص تلك المشاكل في :

- قضايا تثيرها ظاهرة ترحال القبائل التي احتوت خلال هذا العصر، والهجرة والتنقل القبلي عموما. فمدينة مكناس كانت في طريق ترحال القبائل الآتية من الجنوب (المرتفعات) ومن الساحل هروبا من الأجنب، ثم إن مدينة مكناس كانت ولا تزال على مشارف سهل أزغار (أو الغرب كما يسمى اليوم). ونعرف أن هذه المنطقة كانت تسكنها قبائل عربية كثيرة الحركة وهي قبائل الخلط، وقد كثرت تحركات هذه القبائل خلال النصف الأول من القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر.

وكتب النوازل غنية بالقضايا التي كانت تطرحها مثل هذه التنقلات.

- وتعتبر القضايا التي ترتبط بالجهاد كذلك من أبرز المسائل التي عايشها سكان مدينة مكناس : وجوب الامام، تمويل الجهاد، الضرائب... وغير ذلك من القضايا المبدئية أو الطارئة التي تفيد في الوقوف على أوضاع المدينة وأوضاع المغرب عامة...

- قضايا الأولياء والمجاهدين الذين كثر عددهم وتزايد نفوذهم على المجتمع وعلى رجال السياسة : فابو الرواين مثلا من أولياء المدينة الذين كان لهم موقف من السعديين ومن دخولهم مكناس وفاس... والولي الصالح سيدي بنعيسى الفهدي من أولياء هذا العصر وكذلك سيدي عبد الرحمن المجدوب، وغيرهم كثير...

وإذ أكتفي بهذا القدر من الأمثلة أؤكد أن كتب النوازل من المصادر التي يمكن للباحث في تاريخ هذه المدينة أن يجد فيها ما يجعله يشيد بناءا تاريخيا مستوفيا لجميع شروط المعرفة...

ولم يكن الغرض وراء ذكر هذه القضايا وحدها دون غيرها سوى الرغبة في إثارة الانتباه الى مثل هذا النوع من المصادر لمن يريد الوصول الى معطيات أعمق من المعطيات التي تداولتها ولازال تتداولها كتب التاريخ التقليدية.

رفع الالتباس عن وضع الأسرى المسيحيين بمدينة مكناس (أواخر القرن 17 م وبداية القرن 18 م)

الأستاذ ادريس أبو ادريس
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
مكناس

إن الاشكالية التي نود معالجتها في هذه المداخلة تتعلق بوضع الأسرى المسيحيين بمدينة مكناس، وكان بالإمكان أن لانتلفت الى هذه القضية ولا أن نحاول رفع ما حام حولها من غموض والتباس، لولا عدم براءتها وأبعادها الأديولوجية المرتبطة بظروف وملابسات الفترة التاريخية المراد دراستها، مما أدى الى تشويه الكثير من الحقائق التاريخية المرتبطة بوضع الأسرى المسيحيين بمدينة مكناس، وبالتالي محاولة إظهار المغرب والمغاربة كبلاد تقطنها شعوب متوحشة لاعلاقة لها بالحضارة والتحضر، مما كان له انعكاس واضح على عقلية ونظرة الشعوب الأوروبية لبلاد المغرب. كما أنها حاولت وفي إطار حملة التعصب الديني التي بلغت أوجها في هذه الفترة، أن تظهر الدين الاسلامي كدين مرادف لاراقة الدماء والاستعباد وكرهية كل ما هو أجنبي ودخيل، محاولة بذلك تضليل الرأي العام المسيحي وإثارة الشفقة على الأسرى المسيحيين وذلك بابتزاز أكثر ما يمكن من الأموال متدربين بالعمل على اقتنائهم.

ويتضح لنا من خلال الكثير من النصوص الموضوعية مدى بطلان هذه الادعاءات والافتراضات المسرودة في روايات هي أقرب الى الخيال منها الى الحقيقة التاريخية. وقبل التطرق الى الأسرى ووضعيتهم بمدينة مكناس، لابد من إعطاء لمحة وجيزة عن الأسباب المؤدية الى انتشار ظاهرة الأسر وظرفه التاريخي، حتى أصبح الأسر والأسرى مؤسسة اجتماعية اقتصادية ساهمت في تدعيم اقتصاديات الدول وفتح باب التفاوض وإبرام معاهدات الصلح والاتجار فيما بينها.

فما هي الدوافع التي دفعت المغاربة الى ممارسة هذا النشاط ؟

يمكن حصرها في عاملين رئيسيين :

1) التفاوت الحضاري الناتج عن الاختلال في التوازن الاقتصادي بين أوروبا والعالم الاسلامي بصفة

عامة وانعدام أسطول تجاري، والحصار الأوربي على المغرب وكثير من الدول الأخرى في الاتجار مع الدول الأوربية.

(2) لقد تمخض عن هذا العامل حركة مرتبطة بالدفاع عن التراب المغربي وحماية الثغور وتحرير ما احتل منها. فكان بذلك الجهاد البحري مرتبط بالدفاع عن النفس من الخطر الخارجي والتهديد المستمر للبلاد والعباد.

ويمكن أن نضيف العامل النفسي الذي جعل المورسكيين يلعبون دورا طلائعيا في حركة الجهاد البحري كتعويض انتقامي عما أصابهم في محنة الطرد. والجهاد البحري في هذه الفترة لم يعد حرا وإنما احتضنته الدولة وأصبحت تجني فوائده ولو أن هذه الفوائد تناقصت بدرجة كبيرة ابتداء من القرن 18 كما تناقصت أعداد الممارسين لهذا النشاط، ولهذا لم يعد يهدد إلا السفن الصغيرة كما يقرر سانت أولون (St Olon) الذي يشير الى قتلها — 13 وحدة — وعدم تنظيمها نظرا لقلّة الأسلحة والتجهيزات (2) أضف الى ذلك احتكار الدولة لكل الفوائد. — يذكر بيلو Pellow أن القواد كانوا يعطون نصف قيمة الغنائم الى السلطان وكذلك كل الأسرى وكان يرد لهم جزءا من الغنائم على سبيل الاداء المقابل للأسرى الذين لا يدخلون ضمن الحصة الملكية (3).

وبالرغم من تناقص عمليات الجهاد البحري في نهاية القرن 17 إلا أنها لعبت دورا مهما في تعزيز خزينة الدولة خاصة أن المولى اسماعيل استطاع تحرير الكثير من الثغور المغربية المحتلة. مثلا غنيمة العرائش، يقول الأفرازي حولها: «كان عدد نصارى العرائش قبل الاستيلاء عليهم ثلاثة آلاف ومئتين وحيث ظفر المسلمون بهم أسروا منهم ألفين وقتلوا منهم اثني عشر مئة ووجدوا فيها من البارود والعدة مالا يحصى كثرة... (4).

ولقد حدث جدال فقهي حول غنيمة العرائش من الأسرى حتى ألف في ذلك قاضي حاضرة مكناسة الشيخ أبو مدين السوسي مؤلفا لخص فيه تحقيق المسألة وأمط عنها القناع وسماه «السهم الرائش في حكم غنيمة العرائش». وهؤلاء الأسرى كان افتدائهم صعبا فالمولى اسماعيل كما يقول ابن زيدان «لم تسمح نفسه بفداء أسير بمال قط أي وإنما كان يفدي ببعضهم من أسر من المسلمين» (5).

وهذا ما جعله يتصلب في قضية الأسرى، ففي سنة 1101 هـ (1689) جاء النصارى الى مولاي اسماعيل وطلبوا منه فداء مائة من العدة التي أسرت من العرائش فشرط عليهم السلطان خمسمائة أسير وخمسة آلاف كتاب ومالا كثيرا وبعث كتابه معهم ليختاروا الكتب والأسارى — حسب ما أكده القادري في حواريته (6).

وهذا التشدد كان له ما يبرره لما كان عليه الأسرى المسلمون لدى الدول الأوربية، أضف الى ذلك الاستفادة من خبراتهم فقد كان منهم «الرخامون والنقاشون والحجارون والحدادون والنجارون والزواقون والمهندسون والمنجمون والأطباء (7). فأصبح بذلك الأسرى كمؤسسة اقتصادية استفادت الدولة منها كثيرا خاصة من خبراتها في ميادين متعددة كالبحر والصناعة والأسلحة.

وهكذا نلاحظ في الأخير أن الجهاد البحري وما ارتبط به من تحرير لبعض الثغور المغربية أدى الى خلق روح جهادية لدى المغاربة تبلورت في الدفاع عن حوزة الوطن وخلق حمية دينية واجهت بصلابة كل الأطماع الأجنبية، كما أنه أدى الى الحصول على مكاسب مادية لعبت دورا مهما في تعزيز خزينة الدولة وأوجد أرضية اقتصادية مهمة من اليد العاملة والخبرات خاصة في الحاضرة مكناسة.

فما هي الوضعية التي كان عليها هؤلاء الأسرى المسيحيون بالحاضرة الاسماعيلية ؟

في الحديث عن الأسرى، أول شيء يثير انتباهنا هو ما أثار من ضجة كبيرة في وقته أو فيما بعد، وتأزمت من جزائه العلاقات بين المغرب وبعض الدول الأوربية، وألفت حوله الحكايات والأساطير مبالغاً في تصوير المغرب وسلطانه وكأن الأول مقبرة والثاني «سفاح» الأسرى المسيحيين.

ولهذا فالكتابات الأجنبية التي كتبها رجال دين زاروا المغرب، أو بعثات ديبلوماسية، أو أسرى ورحالة مزيفين كتبوا نقلاً عن كتب أخرى فزادوها تشويهاً وملاوها خرافات وأساطير، وكلهم كانوا يحاولون التأثير على الرأي العام الأوربي وإثارة الغرابة في كتاباتهم لتضخيم وضع الأسرى واستجلاب العطف والشفقة عليهم، وهناك من كتب انطلاقاً من التعصب الديني كالأب بوسنو Busnot وسانت أولون St.Olon.

وقبل أن نتطرق إلى الصور المزيفة عن وضع الأسرى المسيحيين بمكناس، نود الإشارة إلى قضية أثارت حولها الخلاف، وهي المتعلقة بعدد الأسرى في المصادر العربية التي أوصلت الرقم إلى 25 ألف أسير، ونفس الشيء بالنسبة لبعض المصادر الأجنبية. لكن هذا الرقم بعيد عن الواقع لا تؤيده أغلبية المصادر الأجنبية منها المكتوبة من طرف الأسرى أنفسهم، أو من تقارير البعثات الدبلوماسية، التي من خلال استقراءها نصل إلى عدد ينحصر من 700 إلى 2000 أسير أواخر القرن 17 (جوالي 1690).

ويذكر وندوس في كتابه «رحلة إلى مكناسة محل إقامة امبراطور فاس والمغرب بمناسبة سفارة ستيوارت لعداء الأسرى البريطانيين سنة 1721» (9) أن في هذه السنة كان عدد الأسرى الأوربيين بمدينة مكناس حوالي 1114 أسير، وهم على الشكل التالي :

- 400 اسباني
- 300 انجليزي (وقد أسلم منهم 19).
- 165 برتغاليا
- 152 فرنسا
- 69 هولنديا
- 25 جنويا
- 3 من اليونان
- المجموع : 1114.

وسنلاحظ أن هؤلاء الأسرى سيتناقص عددهم باستمرار ابتداء من بداية القرن 18 إلى أن يصل عددهم سنة 1740 ما بين 150 إلى 200 أسير.

هذا إضافة إلى عدد «المرتدين» الذين يتراوح عددهم حسب برايت ويت وبيلو ما بين 600 إلى 1500 مرتد (10)، والذين استطاعوا باعترافهم الإسلام الارتقاء في السلم الاجتماعي ولعبوا أدواراً مختلفة سواء في الميدان العسكري كجنود وضباط مثل بيلو أو مشرفين على صناعة وإصلاح الأسلحة، أو كأطباء، وفي الميدان التجاري، ولقد استطاع أحدهم أن يصبح عاملاً على سلا وآخر على فاس (11).

وهؤلاء «المرتدين» منهم من يعتنق الإسلام عن صدق وحسن نية، ومنهم من يعتنقه، وكما يذكر موييت

Mouette (12) «عندما يفقدون الأمل في شرائهم من طرف بني جلدتهم وإطلاق سراحهم وليغيروا القساوة التي يعاملون بها ولتتاح لهم فرصة الهروب الى دولة مسيحية» ؟
فماهي إذن حقيقة هذه القساوة التي ركز عليها الأوروبيون في معاملة الأسرى ؟

يقول سانت أولون St-Olon — (في كتابه : الحالة الراهنة لامبراطورية المغرب (13) ، إن الأسرى المسيحيين الذين يخدمون في كل وقت ودون انقطاع، ويجعلونهم عمالا وبنائين بقوة السياط والبؤس، مما يجعلهم يتساقطون بكل سهولة خاصة وأن معيشتهم اليومية لا تكون إلا من قطعة صغيرة من خبز الشعير شديد السواد والماء، ولا يسكنون إلا في المطامير أو في أماكن تحت الأرض، حيث لا سرير لهم إلا الأرض ولا يستنشقون غير هواء جد سيء ومتعفن».

وفي تقرير البعثة الدينية De la Merci (1706 — 1716) يلخصون الوضع بالقول : أن الأسرى عندما يستيقظون في الصباح لا يمكنهم القول بأنه سينامون المساء». (14) هذا إضافة الى الصور المثيرة للغربة التي نجدها عند الأب بوسنو⁽¹⁵⁾ الذي يصور لنا تقديم الأسرى المسيحيين للحيوانات المفترسة والتنزه عليهم أو قتلهم مباشرة، وهذا ما دفع الكثير من الروايات الى المبالغة في عدد القتلى من الأسرى، فمنهم ما رفع العدد الى 20 ألف أو 36 ألف، ومنهم من أوصل العدد الى 40 ألف !! وهذه الأرقام كلها افتراءات وبعيدة عن الحقيقة التاريخية، ففي سجل الوفيات المعد من طرف رهبان مدينة مكناس تجد عدد الوفيات ما بين 1684 — 1727 حوالي 127 أسيرا (16).

ويلاحظ كوهلر Kohler (17) أن عدد الوفيات وصلت الى 109 في ظرف أربعين سنة، مؤكدا على القتل المتعمد وليس الطبيعي.

وحتى هذه الأعداد الأخيرة يمكننا أن نتساءل حول الطريقة التي ماتوا بها، خاصة وأن الفترة كانت فترة أوبئة متتالية، مما جعل مدينة مكناس المزدهرة والمكتظة، حيث وصل عدد سكانها — سنة 1727 — حسب بريت ويت Braithwait الى 300 ألف سنة (18)، نرى أبا مدين الدرعي في رحلته (1739 هـ) يعطينا صورة قائمة عن الانبهار السريع الذي لحق بهذه الحاضرة، حيث يقول : «خرجنا نمشي في أزقة المدينة فالقيناها قرية من الخلا لانجلاء أهلها عنها من الفتن... وأكثر حوانيت أسواقها خالية فدخلنا جامعها العتيق الذي ببابها فالقينا أثر الخراب عليه يلوح والحمام بنواحيه تنوح ولم نر به سوى رجل واحد توضع في صحنه فتعجبنا من ذلك» (19).

والان نتساءل عن الوجه الثاني للعملة، وكيف يمكن تنفيذ الإراء السابقة، المنطلقة من أبعاد ايدولوجية واضحة ؟

نجد أمامنا شهادات مختلفة لكن هذه المرة ليست من رجال الدين أو مسيحيين متعصبين قدامى أو محدثين غدتهم النزعة الاستعمارية (كشارل أندري جوليان وتيراس، وإنما نتلقاها مما كتبه بعض الأسرى في مذكراتهم بعد عودتهم الى بلدانهم أو مما كتبه بعض القناصل والمرافقين للبعثات الديبلوماسية.

وهذا الأسير جوزي دوليون (Jose de leon) الأسير بمكناس (1708 — 1728) يصف لنا حالة الأسرى بمدينة مكناس، نستعرض البعض منها، يقول :

«إن الأسرى الذين كانوا يخدمون في البناء والحداة، كانوا يسكنون في مقر عملهم أما الآخرون

فيستكون في مكان وسط المدينة كان يسمى «القنوط»... كان بعضهم يحصل على ما يحتاج إليه بالعمل في أوقات الفراغ، والذين كانت سيرتهم حسنة، يعطى لهم تسريح يفتح حانة أو ممارسة حرفة أخرى في القنوط... الأسرى المهرة والمستقيمين والذين يتكلمون العربية كانوا يوظفون في معامل السلطان ومهمات أخرى تتطلب الثقة (الأمانة).. وكانت لهم حرية التجول داخل المدينة... ويحدث أن يقف السلطان بجانبهم في خصوصياتهم مع المسلمين... الموقى يدفنون نصف مرحلة خارج مكناس... القديس يقام كل يوم في الدير الفرنسيسكاني، المرضى الاسبان يتلقون العلاج في مستشفى الدير حيث صيدلية وجراح، والأجناس الأخرى كانت لهم مستشفيات خاصة...

في مكناس كان يوجد دير فرنسيسكاني يضم من 10 الى 12 قسا، وراهبان وعبادتان... وهناك أسرى اسبان يساعدون الآباء» (20).

وفي تقرير البعثة الدينية De la Merci نلاحظ التنظيم داخل جماعة الأسرى والتسيير الذاتي الذي كانوا يتمتعون والمساعدة المقدمة لهم :

«إن الأسرى كانت تعطى لهم كل سنة جلالية «Gerabi» وكان لهم الحق في الدفاع عن أنفسهم ضد كل من شتمهم على شرط أن يكونوا بالجلالية...

وكان مكان إقامتهم مسدود من كل الجوانب ولا يمكن الدخول إلا من باب كبير محروسا بشدة من طرف مغاربة... كل مجموعة جنسية كان عليها رئيسها الذي كان معنيا من الخدمة مثله مثل الذين يقبون في القنوط لتبهيء الطعام للأسرى عندما يعودون في المساء، وهذا الرئيس (المقدم) يغير كل سنة وكان ينتخب بأغلبية الأصوات، وكانت مهمته الأساسية أن يوزع على مواطنيه الصدقات المرسولة اليهم، وكان يحتفظ بجزء منها لمساعدة المرضى وله حق فرض العقوبات لمن يستحقها، ولكل أسير سكن صغير من الخشب حيث ينام على سرير من التبن» (21) وكانوا يسكنون في مكان يسمى القنوط كان قديما ملاحا ولكل مجموعة جنسية حياها، في الوسط مصلى صغيرة حيث أحد الآباء الفرنسيسكان يردد القديس كل يوم (22).

وهذا برت ويت Braithwait المصاحب لسفارة ديبلوماسية سنة 1727 — بعدما يؤكد ما سبق أن أكده الأسرى يضيف حول عملهم، بأنه «ليس قاسيا الى حد العمل العادي الذي نجد عليه عمالنا الياومين... وسكنهم ليس له الطابع المفزع لسجوننا... لكل جنسية سكنها الخاص وحانتها وسوق لبيع مختلف المواد الغذائية والفواكه... وفي كلمة واحدة لقد رأينا أعدادا تعيش في «البلاد البربرية» Barbarie في سعة كبيرة والتي لايمكن بتاتا أن ينتظرونها من وطنهم الأصلي... وأخيرا يمكن أن نؤكد بأن وضعية الأسرى أقل درجة من العبودية... وهناك عدد من هؤلاء المسيحيين أغنياء وكثير منهم ونحن شاهدون على ذلك حملوا مبالغ مهمة، وكثيرون لهم مبالغ وبعضهم له خدام... ويتساءل متعجبا ؟ «هذه هي التي يسمونها الأسر غير المحتمل، هذه هي المعاملات البربرية التي جعلت منها المذكرات ضجة ليجعلوا من كلمة تركي أو مغربي (Maure)، كلمة مكروهة في البلاد المسيحية، وليس هذا هو الموضوع المشوه بفرابة في مذكرات الرحالة» (23) ويضيف «وهذا ليس لمدح المغاربة، وليس لتضخيم الأفكار بأكثر مما تستحق حقيقة، ليس لي أي هدف سوى إعطاء الحقيقة عارية» (24).

لقد اقتضت على هذه النصوص لما فيها من موضوعية في السرد ودقة في الوصف، وهناك نصوص أخرى متعددة لايسمح الوقت باستعراضها.

ماذا يمكن أن نستنتج من كل هذا ؟

(1) إن وضع الأسرى بالعاصمة مكناسة لا يختلف كثيرا عن حالة السكان الأصليين أنفسهم، فقد كانوا يتمتعون بحقوقهم كاملة في التسيير الذاتي لجماعتهم وممارستهم لشعائهم الدينية بكل حرية واندماجهم في المجتمع المغربي، وهذا ما جعل العديد منهم «يرتد» عن دينه ويعتق الاسلام ويصل الى أعلى المراتب في السلم الاجتماعي، ولربما هذا الارتداد المتزايد هو الذي جعل البعثات الدينية تتوالى على مكناسة، لزرع الاطمئنان في نفوس الأسرى بفتح باب الأمل لافتدائهم. وحتى الذين تمكنوا من العودة الى بلدانهم نلاحظ في كلامهم نبرات الندم، باصطدام بحقيقة بعيدة كل البعد عن التي كانت مرسومة في أذهانهم فقد عاشوا مشردين غرباء في وطنهم (مثال بيلو الانجليزي).

(2) إن وضع الأسرى المسيحيين هذا كان أحسن حظا من إخوانهم المسلمين بالدو الأوربية (كفرنسا وألمانيا وإسبانيا والبرتغال)، والذين يعيشون في ظروف جد سيئة ومحرومين من أبسط حقوقهم بل ومن معاملتهم كبشر، ويؤدون أعمالهم الشاقة وهم مقيدون بالسلاسل أو مربوطين بها في إحدى دور أحد الأسياد (De la Merci) (25).

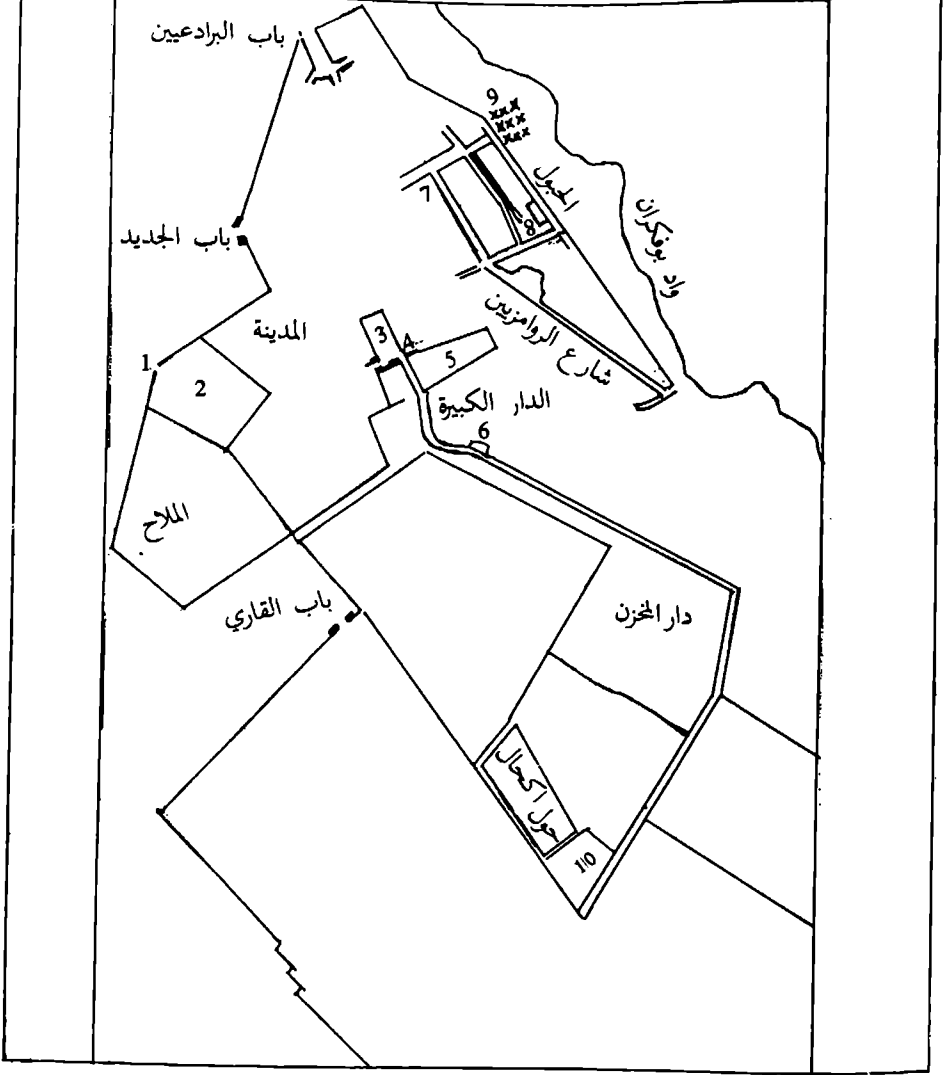
وربما أن وضعيتهم المزرية هذه وأعدادهم الكثيرة هي التي جعلت المولى اسماعيل يتشدد في اقتداء الأسرى المسيحيين، وأن يظهر بموقف متصلب أمام رغبته لويس 14 الذي كان يرمي في مفاوضاته مع السلطان الى تبادل الأسرى رأسا برأس، في الوقت الذي يطالب فيه السلطان 3 مغاربة مقابل فرنسي، ويفرض حتى المقابل المادي لاقتداء الأسرى (26).

(3) وأخيرا نلاحظ السكوت المقصود عن وضع الأسرى المسيحيين بمكناس من طرف المؤرخين المعاصرين خاصة الأوربيين — وتبينهم للأطروحات المشوهة لهذا الوضع وذات البعد الايديولوجي المعادي للاسلام — فأدخلوها هم الآخرون في إطار بعد ايديولوجي مغلف برسالة الحضارة والتمدن أمام الوحشية والتخلف ؟

أما حول الأسرى المسلمين فلا حديث عنهم إلا من مؤرخة معاصرة تتساءل بعطف وإشفاق قائلة : «لنفكر في المسلمين الذين كانوا محتجزين كأسرى دون أمل كبير في شرائهم قبل أن يصبحوا شيوخا أو مرضى. محرومين من ممارسة شعائهم الدينية، والسفراء المغاربة الذين يأتون الى فرنسا لا يستطيعون الاتصال بمواطنيهم المسجونين. إن هنا تاريخا قاسيا والذي يمكن أن يكتب يوما ما انطلاقا من سجلات البحرية (27).

نعم إن من اجبنا كمؤرخين البحث في هذه السجلات والوثائق، وإعادة كتابة تلك الصفحات المؤلة بموضوعية مظهرين لمن شوهوا تاريخنا ما كان لهذا البلد من تقاليد في التسامح، وعادات في الاندماج والتمازج والتفتح والانفتاح.

مكناس على عهد المولى اسماعيل



- 6 — قبر سيدي عبد الرحمن المجدوب الذي
بني بجواره ضريح المولى اسماعيل
7 — حارة المسيحيين
8 — الدير والمستشفى الفرنسي سكتي
9 — المقبرة المسيحية
10 — الاصطبلات الملكية

- 1 — باب بريمة
2 — الملاح القديم
3 — الهديم
4 — باب المنصور
5 — ساحة الالعودة

الهوامش

- (1) عنوان المداخلة التي تمت انمشاركة بها في ندوة «الحاضرة الاسماعيلية» أكتوبر 1986 — كلية الآداب والعلوم الانسانية مكناس.
- (2) St. Olon. Etat présent de l'Empire du Maroc. A Paris p. 14
- (3) T. Pellow. in M. Morsy — La relation de T. Pellow. Paris 1983. P. 133
- (4) الافراني — روضة التعريف — المطبعة الملكية — 1962 — ص 59
- (5) ابن زيدان — الاتحاف — ج 1 — ص 135.
- (6) القادري — الحوليات.
- (7) ابن زيدان — مصدر سابق — ص 135
- (8) انظر — الناصري — الامتصاء — ج 7 ص 103 — والاتحاف — مصدر سابق — ص 135.
- (9) انظر — محمد داود — تاريخ تطوان — ج 11 — ص 81.
- (10) Braithwait — Histoire des Révolutions de l'Empire de Maroc. Amsterdam p. 197.
- (11) T. Pellow — op. cit. p. 23 et p. 100.
- (12) G. Mouette — Description du Maroc. S.I. — D.F. T : II France 3ème livre p. 174.
- (13) St. Olon — op. cit. pp : 75 — 76.
- (14) Relation des voyages des redempteurs de la Merci en 1704 — 1708 et 171
S.I.H.M. — D.F. France. 2ème Série T. VI — P : 657.
D. Busnot — Histoire de Règne de My. Ismaïl — seconde Ed. Rouen. p 59-60-61.
- (16) M. Morsy — op. cit. p. 21.
- (17) P. Henry Kohler — quelques points d'histoire sur les captifs chrétiens de Meknès
1928. T : VIII — 2ème Ed. P : 184.
- (18) Braithwait — op. cit. p : 358.
- (19) رحلة أبي مدين الدرعي مخطوط خ. ع رقم ق 297 — ص : 253 — 254.
- (20) J. de Leon — in — chantal. de la veronne — Vie de My. Ismaïl, d'après J. de Léon
(1708 — 1728) Paris 21974 P : 69-70-71-72.
- (21) Relation de la Merci — op. cit pp 665 — 666.
- (22) Ibid — pp — 663 — 664.
- (23) Braithwait. op. cit. p : 439 — 440 — 441.
- (24) Ibid. pp : 441 — 442
- (25) Relation de la merci — op. cit. p : 66
- (26) Ibid. p : 661.
- (27) M. Morsey. op. cit. p : 21.



جانسب من معرض المخطوطات واللوحات الفنية...



عرض للكتب وبعض المصادر

... كيميائيا ثانياً ...
241 - 242 - 243 - 244 - 245 - 246 - 247 - 248 - 249 - 250 - 251 - 252 - 253 - 254 - 255 - 256 - 257 - 258 - 259 - 260 - 261 - 262 - 263 - 264 - 265 - 266 - 267 - 268 - 269 - 270 - 271 - 272 - 273 - 274 - 275 - 276 - 277 - 278 - 279 - 280 - 281 - 282 - 283 - 284 - 285 - 286 - 287 - 288 - 289 - 290 - 291 - 292 - 293 - 294 - 295 - 296 - 297 - 298 - 299 - 300 - 301 - 302 - 303 - 304 - 305 - 306 - 307 - 308 - 309 - 310 - 311 - 312 - 313 - 314 - 315 - 316 - 317 - 318 - 319 - 320 - 321 - 322 - 323 - 324 - 325 - 326 - 327 - 328 - 329 - 330 - 331 - 332 - 333 - 334 - 335 - 336 - 337 - 338 - 339 - 340 - 341 - 342 - 343 - 344 - 345 - 346 - 347 - 348 - 349 - 350 - 351 - 352 - 353 - 354 - 355 - 356 - 357 - 358 - 359 - 360 - 361 - 362 - 363 - 364 - 365 - 366 - 367 - 368 - 369 - 370 - 371 - 372 - 373 - 374 - 375 - 376 - 377 - 378 - 379 - 380 - 381 - 382 - 383 - 384 - 385 - 386 - 387 - 388 - 389 - 390 - 391 - 392 - 393 - 394 - 395 - 396 - 397 - 398 - 399 - 400 - 401 - 402 - 403 - 404 - 405 - 406 - 407 - 408 - 409 - 410 - 411 - 412 - 413 - 414 - 415 - 416 - 417 - 418 - 419 - 420 - 421 - 422 - 423 - 424 - 425 - 426 - 427 - 428 - 429 - 430 - 431 - 432 - 433 - 434 - 435 - 436 - 437 - 438 - 439 - 440 - 441 - 442 - 443 - 444 - 445 - 446 - 447 - 448 - 449 - 450 - 451 - 452 - 453 - 454 - 455 - 456 - 457 - 458 - 459 - 460 - 461 - 462 - 463 - 464 - 465 - 466 - 467 - 468 - 469 - 470 - 471 - 472 - 473 - 474 - 475 - 476 - 477 - 478 - 479 - 480 - 481 - 482 - 483 - 484 - 485 - 486 - 487 - 488 - 489 - 490 - 491 - 492 - 493 - 494 - 495 - 496 - 497 - 498 - 499 - 500 - 501 - 502 - 503 - 504 - 505 - 506 - 507 - 508 - 509 - 510 - 511 - 512 - 513 - 514 - 515 - 516 - 517 - 518 - 519 - 520 - 521 - 522 - 523 - 524 - 525 - 526 - 527 - 528 - 529 - 530 - 531 - 532 - 533 - 534 - 535 - 536 - 537 - 538 - 539 - 540 - 541 - 542 - 543 - 544 - 545 - 546 - 547 - 548 - 549 - 550 - 551 - 552 - 553 - 554 - 555 - 556 - 557 - 558 - 559 - 560 - 561 - 562 - 563 - 564 - 565 - 566 - 567 - 568 - 569 - 570 - 571 - 572 - 573 - 574 - 575 - 576 - 577 - 578 - 579 - 580 - 581 - 582 - 583 - 584 - 585 - 586 - 587 - 588 - 589 - 590 - 591 - 592 - 593 - 594 - 595 - 596 - 597 - 598 - 599 - 600 - 601 - 602 - 603 - 604 - 605 - 606 - 607 - 608 - 609 - 610 - 611 - 612 - 613 - 614 - 615 - 616 - 617 - 618 - 619 - 620 - 621 - 622 - 623 - 624 - 625 - 626 - 627 - 628 - 629 - 630 - 631 - 632 - 633 - 634 - 635 - 636 - 637 - 638 - 639 - 640 - 641 - 642 - 643 - 644 - 645 - 646 - 647 - 648 - 649 - 650 - 651 - 652 - 653 - 654 - 655 - 656 - 657 - 658 - 659 - 660 - 661 - 662 - 663 - 664 - 665 - 666 - 667 - 668 - 669 - 670 - 671 - 672 - 673 - 674 - 675 - 676 - 677 - 678 - 679 - 680 - 681 - 682 - 683 - 684 - 685 - 686 - 687 - 688 - 689 - 690 - 691 - 692 - 693 - 694 - 695 - 696 - 697 - 698 - 699 - 700 - 701 - 702 - 703 - 704 - 705 - 706 - 707 - 708 - 709 - 710 - 711 - 712 - 713 - 714 - 715 - 716 - 717 - 718 - 719 - 720 - 721 - 722 - 723 - 724 - 725 - 726 - 727 - 728 - 729 - 730 - 731 - 732 - 733 - 734 - 735 - 736 - 737 - 738 - 739 - 740 - 741 - 742 - 743 - 744 - 745 - 746 - 747 - 748 - 749 - 750 - 751 - 752 - 753 - 754 - 755 - 756 - 757 - 758 - 759 - 760 - 761 - 762 - 763 - 764 - 765 - 766 - 767 - 768 - 769 - 770 - 771 - 772 - 773 - 774 - 775 - 776 - 777 - 778 - 779 - 780 - 781 - 782 - 783 - 784 - 785 - 786 - 787 - 788 - 789 - 790 - 791 - 792 - 793 - 794 - 795 - 796 - 797 - 798 - 799 - 800 - 801 - 802 - 803 - 804 - 805 - 806 - 807 - 808 - 809 - 810 - 811 - 812 - 813 - 814 - 815 - 816 - 817 - 818 - 819 - 820 - 821 - 822 - 823 - 824 - 825 - 826 - 827 - 828 - 829 - 830 - 831 - 832 - 833 - 834 - 835 - 836 - 837 - 838 - 839 - 840 - 841 - 842 - 843 - 844 - 845 - 846 - 847 - 848 - 849 - 850 - 851 - 852 - 853 - 854 - 855 - 856 - 857 - 858 - 859 - 860 - 861 - 862 - 863 - 864 - 865 - 866 - 867 - 868 - 869 - 870 - 871 - 872 - 873 - 874 - 875 - 876 - 877 - 878 - 879 - 880 - 881 - 882 - 883 - 884 - 885 - 886 - 887 - 888 - 889 - 890 - 891 - 892 - 893 - 894 - 895 - 896 - 897 - 898 - 899 - 900 - 901 - 902 - 903 - 904 - 905 - 906 - 907 - 908 - 909 - 910 - 911 - 912 - 913 - 914 - 915 - 916 - 917 - 918 - 919 - 920 - 921 - 922 - 923 - 924 - 925 - 926 - 927 - 928 - 929 - 930 - 931 - 932 - 933 - 934 - 935 - 936 - 937 - 938 - 939 - 940 - 941 - 942 - 943 - 944 - 945 - 946 - 947 - 948 - 949 - 950 - 951 - 952 - 953 - 954 - 955 - 956 - 957 - 958 - 959 - 960 - 961 - 962 - 963 - 964 - 965 - 966 - 967 - 968 - 969 - 970 - 971 - 972 - 973 - 974 - 975 - 976 - 977 - 978 - 979 - 980 - 981 - 982 - 983 - 984 - 985 - 986 - 987 - 988 - 989 - 990 - 991 - 992 - 993 - 994 - 995 - 996 - 997 - 998 - 999 - 1000



وضع الحجر الأساس لتوسيع الكلية

في يوم الاثنين الموافق ١٤٠٤ هـ الموافق ١٩٨٣ م حضر في ساحة الحرم من
الشيخ في الوسائل والأمثلة
في يد المرحومة العسكرية - طيبها
في ذلك بين الأعيان العسكرية المتميزة بالتميز الفريد التابع لخدمة من الأهمية البالغة التي تفر
الخدمات إذ لا مجال للحديث مع أعمال المشيخة ولا حتى مع أعمال بعض الحكام
المراسم والوجوه والوجهين من قبله وما ومع ذلك تظهر منحوتات هذا القرن تالياً وضعت من حيث
من سببه فقليل من الزمن يستطيع المشيخ أن يلاحظ بأن ما أقر من ١٨٧٣، كان مرور الوسائل
بإقامة المدينة بأن ما عاد بعد هذه السنين أيام مولاي الحسن كان أضيق التكاليف وقدما أكثر من هذا
لكم العسكري
ثم ما تم قول سنة ١٨٧٣ أي تحت حكم السلطان المول عبد الرحمن (وه المولى محمد) أو
السلطان مولاي سليمان فلا يوجد ضمن الوثائق الرسمية أية إشارة عن أحفاده في هذا الفصل ومن المقرر

التدابير العسكرية بمدينة مكناس في القرن التاسع عشر : طبيعتها وأهدافها

محمد اللحية

كلية الآداب والعلوم الانسانية

جامعة القاضي عياض

أكادير

مقدمة :

يناقش الموضوع، جانبا من سياسة المخزن، في توفير الحماية للمراكز الحضرية، وتعزيز النفوذ بالنقط الرئيسية بالمغرب في القرن التاسع عشر، علما بأن الاهتمام بالتحصينات، والعتاد، والحاميات العسكرية، التي تمثل جميعها عناصر هذه السياسة، تعتبر بالنسبة لمدينة مكناس، ومن دون شك بالنسبة لمثيلاتها من المدن الاسلامية والمغربية، تقليدا رافق نموها في جل أطواره التاريخية، إن لم يكن ذلك كليا فجزئيا، وإن لم يكن بالتجديد فبالثقفد والاصلاح. على أنه إذا كانت دواعي تلك التدابير قبل القرن التاسع عشر محلية، بواعثها في الغالب، أهمية الوظيفة العسكرية التي كانت تسند الى المدينة تحت هذا الحكم أو ذاك، وبالقلق الناجم عن التحولات السياسية وتحركات القبائل العابرة لسهل سايس (القبائل العربية) أو المتطلعة الى النزول اليه (قبائل الأتلس المتوسط)، فإن إجراءات المخزن، في هذا المجال، مثل أي مجال آخر، قد وقعت خلال القرن المذكور، تحت تأثيرات الظرفية الأوربية، وبالتالي فإن معالجة الموضوع ستم على ضوء ما طرأ على سياسة المخزن من تغيير في الوسائل والأهداف.

1 — المنجزات العسكرية : طبيعتها

لم تكن الأعمال العسكرية المنجزة بالمدينة في القرن التاسع عشر، من الأهمية البالغة التي تثير الاهتمام، إذ لاجمال لمقارنتها مع أعمال السلطان مولاي اسماعيل الضخمة، ولا حتى مع أعمال بعض الحكام المرابطين والموحدين والمرينيين من قبله (1). ومع ذلك تظهر منجزات هذا القرن تفاوتات واضحة من حيث اهتمامها، فيقليل من التعمن، يستطيع المتتبع لها أن يلاحظ بأن ما أنجز قبل 1873، كان لتعزيز الوسائل الدفاعية للمدينة، وأن ما جاء بعد هذه السنة، أيام مولاي الحسن، كان لضبط القبائل وشدها أكثر الى هذا المركز العسكري.

لر ما تم قبل سنة 1873، أي تحت حكم السلطانين المولى عبد الرحمان وابنه المولى محمد، أما السلطان مولاي سليمان فلا ترد ضمن المؤلفات الرسمية أية إشارة عن أعماله في هذه القبيل، وعلى النقيض

من ذلك، فهي تبرز كيف أن نهاية دولته كانت مناسبة أخرى لتخريب ما سلم من البناءات والغراسات، في الأيام القائمة السابقة (2).

كانت مدينة مكناس إذن، لما قدمها المولى عبد الرحمان أول مرة سنة 1823، في حالة يرثى لها : قل ما تبقى من الجيش في حالة بؤس وفاقه، مفارس مجتثة أو محرقة، أسوار وأبراج متداعية للسقوط، ومدينة شبه فارغة إلا من قليل من السكان، لهذا بذل السلطان كثيرا من الجهد للتهوض بها، سيما وأنه كان كثير التردد عليها، فينبغي على الأقل أن تكون في مستوى الاستقبال وضامنة للاطمئنان. وطبيعي، أن يكون اهتمامه الأول بعد تخليه عن جيش لوداية بسبب ثورته سنة 1832، هو تحسين وضعية الجيش البخاري، الذي سيجد منذئذ مكانته الاجتماعية المفقودة (3). وما اتخذه السلطان بشأنه، بعد لم شتاته، تنظيمه وإجراء الراتب عليه (4)، ثم تطعيمه بعناصر جديدة من الخلط الذين أسكنهم غرب وشمال غرب مدينة مكناس، إما داخل الأسوار بقصبي تيزي وجناح الأمان، أو غير بعيد عن المدينة بقصبة أحرضان ووادي الشجرة (5). كما أن ابنه المولى محمد، وهو لا يزال وليا للعهد، وخليفة له على منطقة مكناس، قام بنقل أهل تولال من «دار الديبيغ» بنواحي فاس، وأنزلهم بضواحي مكناس حيث تم إلحاقهم بجيش البواخر (6).

تفقد السلطان بعد ذلك، مرعى أكدال، الذي كان جده المولى محمد بن عبد الله، سبق أن اتخذ منه مكانا لإنتاج الخيول والأفراس المخصصة لركوب قواد الجيش والركب السلطاني (7). فأظهر من أجل إعادة نشاطه، صرامة وتشددا كبيرين (8). وعلى أراضي حمرية والقصبة الاسماعيلية، التي كان جزء منها، يصلح لزراعة بعض المواد الصناعية أيام الرخاء الاقتصادي بالمدينة، أقام السلطان لخيوله بعض المزروعات العلفية كالفصة، والقصيل (9) (10).

كانت ضرورة إعادة النظر في تحصينات المدينة أكثر إلحاحا لعوامل أمنية ستوضح فيما يأتي. وقد انطلق السلطان بترميم أو إصلاح المتلاشي من القصبات والأسوار ذات الأهمية الحيوية، فوقع ترميم «برج الماء» المشرف على المرس وعلى نهر بوفكران سنة 1830/29/1245. وتم إصلاح سور قصبة سيدي سعيد، وتجديد سور مقبرة اليهود المتصقة بملاحهم حوالي 1275 هـ (11). وليأمن طرف المدينة الغربي والشمال الغربي من مضايقات القبائل، بنى السلطان باين خارجيتين : باب الملاح أو باب وجه عروس، والباب المسمى في الوثائق المخزنية بباب الشيخ الهادي بن عيسى (12)، والشائع عند الناس باسم «باب السبية»، وقد تم الربط بين البابين بسور وقائي خارجي كذلك، ومن دون شك فهذا الانجاز يعتبر آخر بناء مؤثر على الشكل العام للمدينة قبل الحماية، وأهم عمل في مجال التحصينات في القرن التاسع عشر، إذ بفضلها صارت جل الأسواق المرتبطة بالتجارة القروية، محتضنة داخل الأسوار، ومن جعلتها سوق الماشية الذي كان من قبل، في أوقات الشدة يعقد خارج باب جديد (13).

أما إنجازات السلطان المولى محمد بن عبد الرحمان، فنادرة جدا، وربما لارتباطه القوي بمراكش وانصراف الاهتمام إليها، لم يترك بالنسبة لمكناس سوى ترميمات بسيطة داخل القصبة المخزنية، وترميم جزء من سور جناح الأمان غرب المدينة أيضا (14).

فإذا ما انتقلنا إلى أعمال مولاي الحسن، ألفينا أشغالا من طبيعة أخرى. حقا لقد تابع السلطان بالرعاية بعض ما بدأ سابقا، كالاتناء بالجيش وتنظيمه، بل وبالإضافة إليه حوالي 630 من العسكر

النظامي (15)، وبالرفع كذلك من معنويته أكثر، لما صار ينتخب منه الموظفين، وينتقى منه الطلبة المبعوثين للخارج (16). إلا أن الشاغل الأساسي للسلطان ظل مشدودا الى ميداني صناعية البارود، وإقامة القصبات الخارجية.

بخصوص الميدان الأول، أفردت الدراسة المنجزة عن «الحياة الاقتصادية بمدينة مكناس في القرن التاسع عشر» حيزا كبيرا لصناعة البارود باعتبارها الوحيدة التي كان المخزن يحتكرها انتاجا واستغلالا، وباعتبار الاصلاح الذي شملها. فقبل سنة 1300 هـ/ 81 — 1882، كان النوع المصنوع بمكناس هو المسمى «بالبارود السباعي» الذي كان ينتج في ظروف سيئة، ثم انطلقا من هذه السنة ظهرت لدى السلطان رغبة أكيدة في تعويضه بنوع آخر أكثر جودة وفتكا هو المسمى بـ «البارود المزرج». لكن السلطان في بداية الأمر حار في الكيفية التي سيقوم عليها هذا «الاصلاح»، فهذا أحد الفاسيين، تسمية الوثائق بـ «صاحب الفيركة» يعرض عليه الانجاز بالكيفية العصرية، وهذا المحتسب أجانا المثبت بالتقاليد يدعو الى الالتزام بالأعراف المتبعة لدى «أشياخ» هذه الصناعة.

أخيرا مال السلطان الى التقليد، فأسند الى أجانا وضع ضابطه الذي عمل فيه على المراجعة بالاصلاح — وفق الأعراف والتقاليد — جميع مستلزمات هذه الصناعة، من تهيء موادها الأولية، إلى أساليب الانتاج ووسائله وظروفه، إلى طرق الصيانة وعمليات البيع (17). كما أظهر المخزن بواسطة الظهير الذي أصدره في هذا الشأن، تشددا كبيرا في محاربة تعاطي الصناعة بعيدا عن مراقبته المباشرة (18). وقد شمل الاجراء صناعات المناطق المجاورة أنفسهم، إذ نجد أجانا بعد تسلمه مسؤولية هذه الصناعة في رمضان 1305/ ماي 1888، يكتب الى قواد القبائل الواقعة تحت نفوذ مدينة مكناس والمشهورة بتعاطيها لصناعة البارود، وهي قبائل زرهون، وسوق الثلاثاء بمكس، وسوق الاثنين قرب دار القائد مبارك، وسوق خميس سيدي قاسم، والأحد بجروان، مؤكدا للجميع على صرامة الظهير السلطاني، ومفسرا لهم أن لاسيبل الى الاشتغال بهذه الصناعة، إلا بمدينة مكناس تحت المراقبة الرسمية للمحتسب (19).

هل لنا أن نجد تفسيراً لهذا الاجرائين : إصلاح الصناعة البارودية على أسس تقليدية، وإخضاعها للمراقبة الشديدة ؟

نعم، فقد يثير هذا «الاصلاح» في الوهلة الأولى، التساؤل والاستغراب، سيما إذا طرح على بساط المقارنة مع ما تم بمراكش وفاس من منجزات عصرية، على أن الأمر يصبح طبيعيا لما ينظر الى مكناس، أنها الى هذا العهد كانت دائما دون نسبة تجارها (20)، ومن ثم فإن حظوظ التغيير على أسس عصرية كانت ضئيلة جدا. ولتوضيح كيف كانت العقلية السائدة متشبثة بالتقاليد نافية من التجديد، والتي كان المحتسب أجانا أحسن نموذج لها، نورد فقرة له، يعارض فيها الفاسي «صاحب الفيركة»، حيث يقول للسلطان بشأنه «فلا يوافق، ولا يساعد ويذهب لحال سبيله، والبارود يخدم على العرف المغربي بشروط أشياخه الذي هو أحسن من الرومي والعرب بالباب، وإن شاء مولانا الكثرة من (البارود المزرج) ينفذ لنا عشرين من الوصفان من أجود ما يكون في الصحة، زيادة على المعلمين هنا (مكناس) يشرعون في خدمته، وحين يتعلمون يأتي بدلهم، ويكون ذلك مقرا (هكذا) في كافة الأذهان، كما كان عليه العمل حياة أسلاف مولانا الكرام...» (21).

وبالسهولة نفسها ندرك كنه الاجراء الثاني، فالتشدد الذي أحاط بصناعة البارود يقف وراءه عاملان

واضحان : اقتصادي، حيث كان ضابط أجانا يقتضي بأن يصنع المخزن مثلا قطارين من البارود : واحد من النوع المزرج كان يوجه للخزين، والآخر من النوع العادي كان يباع في السوق على يد المحتسب وتؤدى منه جميع المصاريف عن النوع المعد للمخزن (22)، وعامل سياسي/عسكري، إذ من تقاليد احزاب أن يحتكر هذه الصناعة ليتقوى بها جانبه، إلا أنه كثيرا ما كان يفقد زمام السيطرة على فرضها، كما حدث قبل عهد مولاي الحسن بشهادة انتشارها عند القبائل. ويدل على أهمية هذا الدور السياسي في فترة مولاي الحسن، أن الشروع في تطبيق سياسته المتشددة وقع قبيل الحركة على بني مكيلد وأثناءها خلال شهر رمضان 1305/يونيو 1888، مما يوضح أن جزءا منها كان يدخل في هذه الاستراتيجية الحربية (23).

أما بالنسبة لسياسة القصبات، فهي بخلاف صناعة البارود المتسمة بضيق مجال تطبيقها على مستوى مدينة مكناس، ظاهرة عمت جميع مناطق المغرب ذات المواقع الحيوية واستراتيجية، كالريف ونواحي وجدة وممر تازة والسهول الأطلسية وسوس وغيرها (24).

والذي يلاحظ بالنسبة للقصبات المنشأة بأحواز مكناس، أنها تتضمن من حيث طبيعتها القصبات المخزنية كقصبة تولال، والحاجب اللتان اعتمدت في بنائهما الى حد ما على طاقة القبائل الجروانية والمطيرية (25). كما تتضمن أيضا قصبات الموظفين والارستوقراطية المكناسية، منها قصبة أجانا بسيدي علي أولحاج بجروان، وقصبة رح ولد خابة الجرواني، غيز بعيد عنها. ومن المرجح جدا أن تكون ثمة قصبات أخرى (26)، لما عرف به السلطان من تشجيع لذلك. يقول مثلا في ظهيرة المؤرخ في رجب 1301/ماي 1883 وهو يأذن للقائد رح بانشاء قصبته ما يلي : «... أذنا لخدمنا القائد رح ولد خابة بأن يبنى في بلاده دورا وقصبات تكون في هاتيك الشوارع حصنا ومنعة من الآفات، فإن البناء هنالك من المصالح العامة العائدة بالخير على الخاصة والعامة» (27).

وبالنظر الى مواقع تلك القصبات بنوعها، فإنها إما عند نقط التماس بين الجبل والسهل كحالة قصبة الحاجب، أو أنها تتوسط مجال الاستغلال الزراعي الحضري ومحاور المرور الرئيسية نحو زمرور والغرب وزرهون، أي أنها تحتل نفس المواقع التي أنشأت بها القصبات الاسماعيلية أو غير بعيدة عنها، مما يعني من حيث الأهداف والاستراتيجية أن القصبات الجديدة أقيمت لتدعيم القصبات القديمة، كقصبات أحرضان وأكورا، وأزرو، ومن حيث الفكرة والتطبيق أن المولى الحسن لم يكن يقلد سوى ما سبقه اليه الأجداد، وأكثر من هذا فالمتسبب أجانا الذي نرجح أن يكون له دور في هذا الاختيار أيضا، أشار على السلطان، لما كان بصدد بناء قصبة تولال، بأن يستغل في بنائها أكواش الجير المتخلفة عن الفترة الاسماعيلية نفسها، بعد كس جوف تلك الأكواش المغمورة بالأترية (28). وبينما بدا في سياسة المخزن ميل الى تنظيم الجيش وفق الطرق العصرية، يلاحظ أن ديوان جيش البواخر بقي مفتوحا أمام المنخرطين الجدد، حيث ألحق السلطان به قرابة أربعين خيمة من قبائل آيت گدران المطيرية، لتقوم الى جانب فرقة من العسكر النظامي بحراسة قصبة الحاجب (29).

ماهو مدلول هذا التحول القائم على تجارب السالفين ؟

2 – المنجزات العسكرية : مدلول تطورها

يعني هذا التطور بكل اختصار، وقوع تطور مماثل في الوظيفة، لكي ندرك مضمونه لابد من توضيح

مسبق للمستويات الوظيفية الممكنة التي كانت تضطلع بها المدينة في تاريخها الطويل، مع مناقشة أوجه العلاقة بين الوظيفة والوسائل المهيأة لتحقيقها.

عن النقطة الأولى لابد من الإشارة الى أن المدينة، وإن كانت على امتداد مراحلها لم تفقد صبغتها العسكرية، فإن وظيفتها كانت تتسع وتضيق وفق مؤثرات سياسية، واجتماعية واقتصادية، بشكل يصعب معه وضع منحى ضابط لأهم التغيرات، إلا أنه يصح إجمالاً القول بثلاث مستويات رئيسية ندرجها من المستوى الأوسع الى الأكثر ضيقاً :

- مستوى وطني : أي الذي كانت أثناءه مدينة مكناس تؤدي دور القاعدة العسكرية الرئيسية بالمغرب، وهذه الحالة لا نجد لها مثيلاً إلا لما كانت المدينة عاصمة للدولة المركزية، تحتوي المقر الرئيسي لقواد الجيش، ومراكز التدريب، ومنطلق الحملات العسكرية المعدة سواء لاحتضار القبائل ومطاردة المناوئين، أو لتحرير الشواطئ من الاحتلال المسيحي.

- مستوى اقليمي، هو الذي كانت تبرز من خلاله أهمية المدينة كقاعدة أساسية في شمال المغرب. أما متى تكون لها هذه الأهمية، فأتثناء قيام الدول وحين تتمكن للحاجة الملحة الى دورها : ففي بداية نشوء الدولة، تتخذ المدينة نقطة الانطلاق نحو إخضاع مناطق أخرى وضمها مدينة فاس نفسها. لهذا قلما نجد دولة ناشئة لاتضع ضمن استراتيجيتها، الاستيلاء على مكناس كأول خطوة في عملياتها الحربية. أما في مرحلة تمكن الدولة، فكان يحتاج الى قاعدة مكناس في تعزيز مهمة الجهاز الجبائي، سيما وأن إيرادات المدينة وإقليمها كانت من بين أهم المداخل الرئيسية لبيت مال الدولة (30)، كما كان يحتاج أيضاً الى هذه القاعدة في ضبط الأمن الذي كانت تعكر صفاءه تحركات القبائل العربية والأطلسية (الأطلس المتوسط) : الأولى خلال عمليات عبورها لسهل سايس قبل القرن السابع عشر عموماً (31). والثانية أثناء عمليات نزولها اليه ما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (32).

- مستوى ضيق : كان دور المدينة ينحدر اليه، لما تفقد المدينة سيطرتها النسبية أو المطلقة على مراقبة القبائل الواقعة تحت نفوذها، وتصبح وظيفتها الأساسية هي الاكتفاء بالدفاع عن النفس. تلك هي مثلاً حالتها عند نهاية كل دولة، قبل المرحلة الاسماعيلية، وحالتها أيضاً على امتداد معظم ما بعد هذه المرحلة، حيث كانت في كثير من الأزمات الحادة، تقف عاجزة حتى عن رد الخطر عن نفسها، فتكون عرضة لاقتحام القبائل (33).

أما عن مدى العلاقة بين قمة المنشآت العسكرية، ومستوى الوظيفة فيصبح القول، كذلك، إنه باستثناء بعض الحالات المدودة، توجد علاقة تناسبية وطيدة بين الجانبين :

تبرز حالات الاستثناء في حالي الدولة المرابطية في نهاية حكمها، والدولة السعدية في أوج عظمتها، الأولى وهي تحتضر، تركت تحصينات عسكرية في غاية الأهمية، والثانية على عهد أكبر سلطانها، أحمد المنصور الذهبي، لم تنشأ بمكناس ولا أدنى ما يخلد ذكرها (34). ثم أننا نختار لمن نعطي الأولوية في تفسير ظاهرة ضعف التجهيزات تحت حكم السلطان العلوي المولى محمد بن عبد الله. إلا أن جده خلف بالمدينة هياكل صلبة أغنته عن التفكير في البناءات الجديدة، أم لميولاته الجنوبية اتجاه مراكش والصويرة مثلاً ؟ ما عدا هذه الأمثلة، فالقاعدة أن الأعمال العظيمة تتصل بالوظيفة الهامة، والعكس صحيح، فهذه

مكناس الاسماعيلية، عظيمة بأدوارها ضخمة بمنشآتها، وهذه مكناس المرابطية والموحدية والمرينية بقدر ما كان لها من دور عسكري بالغ، بقدر ما اعتنى بتجهيزها بالقصبات والأسوار والحاميات، التي إن لم تكن في مكانة نظيراتها الاسماعيلية، فهي لاتنزل عما كان ينجز بغيرها من المراكز (35). أخيراً، وكما كان دور المدينة يتقلص الى المستوى الضيق، كان الاهتمام يتراجع فيها الى مجرد المنشآت الضرورية.

بإمكاننا، الآن، أن ندرك أية وضعية كانت عليها مدينة مكناس في القرن التاسع عشر :

ففي مرحلة ما قبل 1873، لسنا سوى أمام امتداد الخط الطبيعي، الذي تحدد لها ابتداء من سنة 1727، بخصوصياته المتمثلة في ضيق المستوى الوظيفي، وانصباب الاهتمام في مجال التجهيزات العسكرية على ما يقوى دفاعها بالدرجة الأولى.

فينبغي أن لاتوهننا، لإجراءات المخزن من أجل تقوية جيش البواخر — على أهميتها في إعادة الاعتبار إليه، كما رأينا — بأن المدينة قد وجدت كامل امكانياتها الكفيلة باستعادة نفوذها الاقليمي. فبعض القبائل مثل بني مكغيلد وبعض زمور، ظلت منفصلة عن مراقبتها العسكرية والادارية منذ أزمة الحكم في أواخر الدولة السليمانية (36)، بينما بعض القبائل المحيطة بها عن قرب، كقبائل جروان وبني مطير، كانت لاتزال تملك جرأتها في شن هجماتها على أطرافها من حين لآخر. ويكفي دليلاً على عجز المدينة تجاه قبائلها، أن الأشغال التحصينية المتحدث عنها سابقاً، تتفق زمنياً واشتداد فترات الضغط القبلي، بشهادة مؤرخ مكناس نفسه، فهو يذكر أن تجديد سور الملاح حدث لما تكررت شكايات اليهود ضد أفراد بعض القبائل الذين كانوا يحدثون ثقباً في سور المقبرة الثلاثي ويتسربون منه إلى حاراتهم (37)، وأن بناء بابي وجه عروس، وباب الشيخ الكامل وسورهما، وقع على حد تعبيره، لما صارت «لصوص» القبائل «توالي النهب لكل ما وجدت إليه سيلاً، خارج بابي جديد وبرمة، وتفاحش الضرر بالأهالي سكان البلد وضاقوا ذرعاً» (38).

بقي أن نسجل أنه مهما كانت تعليقات هذا المؤرخ صائبة، في ربط منجزات المخزن الأمنية، بمصلحة السكان عموماً، فلا سبيل الى إغفال المنفعة المادية الخاصة للمخزن. نفسه، لما كان استئناف النشاط الاقتصادي، يقدمه من مداخل لبيت المال، بواسطة الضرائب والمكوس. وقد لاخطيء إذا ذهبنا الى أن الاضافات الجديدة في غرب المدينة، كانت من أجل ضبط مداخل المكوس التي تتحدث المصادر عن إحداثها ابتداء من هذه الفترة (39).

أما ما وقع من تطور في مجال السياسة العسكرية بالمدينة بعد 1873، فيعكس تطلعها للخروج من نطاق وظيفتها الضيقة الى الوظيفة الاقليمية، لعل أحسن معبر عن ذلك هو تكثيف الجهود لاختضاع قبائل بني مكغيلد سنة 1305 هـ/ 1888 (40). ومن دون أن نهم بما إذا كانت المدينة قد وجدت كامل أهميتها الاقليمية الكاملة، لغياب معطيات القياس والمقارنة مع الفترات السابقة، نركز على خلفيات هذا التحول مع حدود تطبيق إجراءاته زمنياً، فنقول :

إن الهم السياسي والاقتصادي، الذي كان دائماً أساس هذا التوجه بالعناية نحو البادية، أصبح في هذه المرحلة من القرن التاسع عشر، أكثر إلحاحاً من أي وقت مضى، فمن قبل مهما كانت متطلبات المخزن المادية من البوادي جسيمة، فهي لا تخرج عن نطاق مستلزمات: الخصوصية كمصاريفه اليومية، والعمومية كالنفقات على تجهيز العسكر، والمرافق الاجتماعية، ومهما كانت درجات انشغاله بضبط أمن البوادي، فهي

من أجل تسهيل الحركة التجارية، وإتاحة الظروف الملائمة لممارسة الأنشطة الزراعية، أما في المرحلة التي تعيننا، فمشاكل المخزن المادية والسياسية قد تصاعدت حدتها — كما هو معروف — تحت تأثير الضغوط الأجنبية : اقتصاديا كان المخزن مدعوا الى التنقير عن الأموال ليرىء التزاماته المالية مع الخارج، وسياسيا كان مضطرا الى العمل على إحباط مناورات الأجانب في المناطق الهامشية كالريف والصحراء وسوس (41)، ورعاية سلامتهم وسلامة المتعاملين معهم في المناطق الداخلية حتى يتجنب بقدر الامكان مطالباتهم بالتعويضات، لهذه الأسباب وتلك، بذل المخزن جهوده في كافة المناطق المغربية، الى شد البوادي — مصدر المداخيل المالية، ومصدر المشاكل السياسية في ذات الوقت — الى المراكز الحضرية والعسكرية الموجودة على مستوى كل إقليم، معتمدا كما رأينا بالنسبة لمكناس على مجموعة من التدابير : الجيش، البارود، القصبات.

ولما كانت هذ التدابير تتطلب إمكانيات مادية ليس في متناول المخزن تحملها، فقد رأينا يسخر لها كل مايوفر عليه مزارعهم، بالاعتماد بالنسبة لصناعة البارود على طاقة الصناع، وبالنسبة لقصباته على طاقة القبائل والاستعانة بالإضافة الى هذا بموظفيه في بناء القصبات الخصوصية. لكن بينما كان هؤلاء يقاسمونه المنفعة لكون قصباتهم تحرس مزارعهم، وتخدم مصالحهم التجارية، فإن سكان القبائل لم يكونوا ينظرون الى تلك الأعمال رغم تأكيد السلطان على منفعتها العامة في كل مرة، سوى وسيلة لتضييق الخناق، ومن هنا فما كان لتدابيره أن تنجح إلا ظرفيا، فكما انفض صناعو البارود من حول صناعتهم (42)، لم تلتزم لا قبائل جروان ولا قبائل بني مطير بما كان المخزن قد فرضه عليها في البداية، من كلف الدوم والحجر والجير، حتى أن قصبه الحاجب التي شرع مثلا في بنائها سنة 1881/1298 (43)، قد تعثرت أشغالها بسبب ذلك التقاعس، الى أواخر حياة السلطان المولى الحسن (44).

وبعد وفاته وقع التخلي عن كل شيء، وعاد سير المدينة — قبل أزمته المشهورة سنة 1911 (45) — الى خطه الطبيعي، أي الى مجرد تفقد وسائل الاحتواء الذاتية. لكن لفقدان السلطة المركزية زمام الأمور، لم تهتم المدينة سوى بإغلاق بعض منافدها الخارجية التي يخشى تسرب القبائل عبرها، ومنها باب مقبرة «سيدي الدراوي» نفسه (46). وفي هذا تعبير عن منتهى القلق الشديد الذي يمكن أن تشعر به المدينة تجاه قبائلها في مثل هذه الأوقات الحرجة.

الخلاصة، أنه الى جانب المعطيات التي يقدمها الموضوع حول طبيعة العلاقة بين البادية والمدينة، والتي تحتاج الى مناقشة خاصة، تبقى الفكرة الأساسية هي : أنه ليس حجم المنشآت العسكرية بمدينة مكناس في القرن التاسع عشر، وهو الجدير بالاهتمام، لكن عمق التحول في سياسة المخزن العسكرية. فعلى امتداد فترة طويلة تربو على القرن والنصف، لايرز دور المدينة في مستواه الاقليمي العسكري والاداري، إلا في فترة محدودة هي فترة مولاي الحسن، تحت تأثير ضغوط أجنبية، ووفق سياسة إصلاحية عامة للدولة، تبين لدى فحص وسائلها بالنسبة لمدينة مكناس أنها قامت على التقليد، وأن المخزن كان يعتمد في رسم خطوطها الرئيسية على موظفين محنكين، لكن حريصين أيضا على خدمة مصالحهم المادية. لذا فهذه السياسة المرتبطة بشخص السلطان وجهازه، والتي تعطي الأسبقية لخدمة مصالح فئة معينة، لم يكن لها لأن تستمر إلا ظرفيا.

الهوامش

الرموز :

و.م.أ. : وثائق المحتسب أجانا
و.خ.ح. : وثائق الخزانة الحسنية
ك.خ.ح. : كناش الخزانة الحسنية

- (1) لحية (محمد ال) : «الحياة الاقتصادية لمدينة مكناس في القرن التاسع عشر (1850 — 1912)». دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1984. ص ص : 15 — 22.
- (2) انظر : (ابن زيدان عبد الرحمان) : قطعة من مخطوط الاتحاف خ.ح. رقم 3986.
- (3) (Abdallah) LAROUÏ : « Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912) François maspéro/Texte à l'appui. Paris 1977. p a 85.
- (4) ناصري (أحمد بن خالد ال) : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى 9 أجزاء. الدار البيضاء 1955. ج. 9. ص : 9.
- (5) انظر : ابن زيدان (عبد الرحمان) : «اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس» 5 أجزاء. الرباط 1928 — 1932. ج. 1. ص 171.
- ك.خ.ح. : 658.
- (6) ابن زيدان : الاتحاف ج 2. ص : 217.
- (7) اللحية، الحياة الاقتصادية، ص 120.
- (8) ابن زيدان، الاتحاف، ج 5. ص : 234.
- (9) القضي : الزرع الذي كان يعتمد على السقي، ويحصد أكثر لاستعماله للعلف.
- (10) اللحية، الحياة الاقتصادية، ص 120.
- (11) ابن زيدان، الاتحاف ج 5 ص 233.
- (12) ك.خ.ح. 118، 326.
- (13) ابن زيدان، القطعة المخطوطة، غير مرقمة.
- (14) ك.خ.ح. رقم 28.
- (15) ك.خ.ح. 658 إحصاء العسكر السعيد بمكناس.
- (16) المنوني (محمد) : «مقيدة عن نشاط دراسة الرياضية والفلك بمكناس» مجلة المناهل — وزارة الشؤون الثقافية بالرباط. عدد 30 شوال 1404 يوليوز 1984. ص 9 — 32.
- (17) اللحية، الحياة الاقتصادية، ص 152 — 159.
- (18) انظر نص الظهير عند : ابن زيدان : العز والصولة في معالم نظم الدولة. جزآن، المطبعة الملكية الرباط 1961. ج. 2. ص 70.
- (19) و.م.أ. حيث يكتب المحتسب أجانا إلى خليفة القائد بن بوغزة لودي قائلا : «الحمد لله، خليفة القائد العربي بن بوغزة لودي، وبعد فإن مولانا أيده الله ولأنا على البارود وملحه والكبريت والخفيف يباعا وخدمة أسند لنا النظر في المعلمين الذين يخدمون البارود، بعد أن نحوز ماوجدناه منه مجاناً، وذلك بمكناس والزاوية ومداشرها وسوق الاثنين قرب دار القائد مبارك وسوق خميس سيدي قاسم والأحد كروان، وسوق الثلاثاء بمكناس عندكم، وقد كتبنا لقائد مولانا أعزه الله العربي بن بوغزة بذلك، ولما كتبنا له أجابنا أنه أعلمكم بمضمون الكتاب الشريف، وأمرك بالوقوف على ساق الجدد منه وعليه فما صاحبنا الحامل يرد عليك حتى يجوز ما يوجد هناك على يدك من بارود، وكبريت وغيرها وتعين أنت واحدا من أهل الحرفة البارودية يكون ثقة لبيع ذلك بالسوق المذكور، وكل ماوصل للسوق يحوزه ويجعله عنده، والحامل المذكور يكون يأتيك بالكل لتمهد ذلك بحول الله والحاصل قسم على ساق الجدد فإن ذلك من أهم المهمات عند المخزن وفره الله والسلام في 17 رمضان عام 1305».

- (20) اللحية، الحياة الاقتصادية، ص 131 وما بعدها.
- (21) م.أ.
- (22) اللحية؛ الحياة الاقتصادية. ص 158.
- (23) أنظر عن هذه القصبات : المشرفي، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية، مخطوط خ. ح. ص : 318، حيث يشير إلى تجديد قسبة العيون بنواحي وجدة، وإنشاء قلعة تاجانة بالحايانة، وتجديد قلعة القصابي.
- (24) حول قصبات الريف انظر :
- (P) CRESSIER : « Structures fortifiées et défensives du Rif les Qasba-s Ismailiennes » Bulletin d'Archéologie Marocaine T XIV 1981-1982 — Rabat — pp : 257-276.
- (25) انظر بالنسبة للكلف المفروضة على كروان : اللحية، الحياة الاقتصادية، ص 172، مع الهامش 93. وبالنسبة لقبائل بني مطير : كنينح (العربي) « آثار التدخل الأجنبي في المغرب » دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط 1984. ج 1. ص 81.
- (26) هذا ما يمكن افتراضه مثلا بالنسبة لآل سيدي بن موسى الدغوشي، حيث نجد المحتسب أجانا في إحدى وثائقه يتوسط فيها لدى المخزن بأن يسمح لهم بـ «التزول بخزوية بين دحسية، وبني مطير، بينون قسبة هناك وديارا لهم داخلها».
- (27) ك،خ،ح، 516 ص 4.
- (28) اللحية، الحياة الاقتصادية، ص 172 والهامش 92
- (29) كنينح، آثار التدخل الأجنبي في المغرب، ج 1، ص 81.
- (30) اللحية، الحياة الاقتصادية، ص 48. والهامش 159.
- (31) العلوي (التقي) «أصول المغاربة — القسم العربي : الهيلاليون بالمغربين الأدنى والأقصى».
- (32) مجلة البحث العلمي، المعهد الجامعي للبحث العلمي الرباط عدد 35، 1405 — 1985. ص ص 85 — 437.
- (33) (A Amine, B (Boutaleb) et autres : « Histoire du Maroc » Librairie Nationale. Casablanca p 260.
- (34) ابن زيدان، القطعة المخطوطة.
- (35) اللحية، الحياة الاقتصادية، ص 22.
- (36) نفسه، ص 16 وما بعدها.
- (37) ابن زيدان، الاتحاف ج 2 ص 149.
- (38) ابن زيدان الاتحاف ج 5 ص 233
- (39) نفسه، ج 1. ص : 211.
- (40) نفسه، ج 5. ص : 84.
- (41) نفسه، ج 2، ص : 149، اللحية، الحياة الاقتصادية، ص 157
- (42) انظر : MIEGE (J.L) : Le Maroc et l'Europe (1830-1894) Paris, Press. Universitaires de France 1962. T III p. 306.
- علي المحمدي : سياسة الإصلاح في القبائل الهامشية نموذج سوس الأقصى (1861 — 1884).
- ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر. منشورات كلية الآداب بالرباط، ص 249 وما بعدها.
- (43) اللحية، الحياة الاقتصادية. ص : 158.
- (44) كنينح، آثار التدخل الأجنبي، ص 81 ج 1.
- (45) نفس المرجع والصفحة.
- (46) ابن زيدان، الاتحاف ج 1. ص : 103

مقاومة مدينة مكناس وأحوازها للتدخل الفرنسي

الأستاذ محمد البكراوي

كلية الآداب والعلوم الانسانية

جامعة سيدي محمد بن عبد الله

فاس

مدخل عام

من المعلوم أن تاريخ المغرب لم يكتب بعد، وجوانب كثيرة منه لازال يخيم عليها ضباب كثيف، ومن أهمها المقاومة الشعبية في المغرب عموما وفي المنطقة الوسطى - الجنوبية خصوصا، التي لم تحظ بأية دراسة تاريخية جادة الى حد الآن رغم ما اتسمت به مقاومة هذه المنطقة من استمرارية امتدت لفترة زمنية طويلة حتى سنة 1934. وكفي أبناء هذه المنطقة فخرا أنهم كانوا من السابقين لمواجهة التوسع الاستعماري، وبذلك تحتفظ المنطقة بأسماء ذاعت شهرتها في مجال النضال الشعبي أمثال : موحى أو هو الزياتي، وبنعيسى بن عبد الكريم البخاري، وبلقاسم النكادي، وعسو باسلام... وغيرهم كثيرين.

وفي هذا النطاق سأحاول تسليط بعض الأضواء على جانب مغمور من المقاومة الشعبية بمكناس وأحوازها خلال سنة 1911، إذ اختار السكان مولاي الزين، أخ السلطان مولاي عبد الحفيظ، سلطانا للجهاد، وهي نفس التجربة التي عرفها المغرب سنة 1907 لما بايع المغاربة مولاي عبد الحفيظ سلطانا.

ماهي ظروف ودوافع هذه الحركة ؟ ومن هم أبطالها ؟ وماهي مطالبهم ؟ وما هو مدلولها الحقيقي ؟

I الوضع العام بالمغرب وبناحية مكناس سنة 1911 :

'كان المغرب سنة 1911 يمر بمرحلة من أخطر وأدق المراحل التي عرفها تاريخه المعاصر، إذ هي السنة التي سبقت بقليل سقوطه في أحضان الاستعمار. وتميزت بتفاقم الوضعية الداخلية وذلك نتيجة ثلاثة عوامل رئيسية :

1 - سياسة المخزن المالية :

كانت خزينة الدولة فارغة ومعظم موارد المخزن مرهونة بموجب قرضي 1902 و 1904 (1). وكان

الدائنون الأجانب يلحون على تسديد أموالهم، في وقت امتنعت فيه عدة قبائل عن دفع الضرائب، بالإضافة إلى الإصلاح العسكري الذي كان يتطلب توفر الأموال الباهظة. لذلك لم يعد أمام المولى عبد الحفيظ سوى اللجوء إلى الاقتراض بدوره. ففي سنة 1910 تلقى من فرنسا قرضا يبلغ 104 مليون فرنك (2) بهدف تغطية الديون السابقة وأداء تعويضات حوادث الدار البيضاء وذلك مقابل التخلي عن ما تبقى من مداخيل الجمارك.

ولتسديد هذا القرض الجديد أثقل المخزن كاهل الشعب بالضرائب، وقد فرضت هذه الضرائب حتى على القبائل التي كانت معفية منها من قبل كقبيلة الشاردة مثلا (3).

2 - سياسة الكلاوي التعسفية :

يقول محمد بن الحسن الحجوي عن المدني الكلاوي :

«... أصبح الحل والعقد في الدولة، وولى نفسه مباشرة حكم القبائل وعين أبناء عمه نوابا عنه، فأذقوا القبائل أنواعا من الظلم مما جعلها تتحد. وهي بني مطير، شرادة، حجاوة، بني حسن، زراهنه... ورفعوا شكواهم إلى الخليفة. وعندما لم يجدوا أذانا صاغية لشكواهم قرروا الثورة...» (4).

بعد الكلاوي من أكبر القواد في الجنوب، وهو رئيس الوزراء. فكان يعمل لتوسيع نفوذه وتنمية ثروته أكثر مما كان يعمل لصالح الدولة العام. وقد نهج في ذلك سياسة تعسفية إزاء القواد والقبائل ساهمت في إذكاء روح النقمة لديها ضده وضد المخزن وبصفة خاصة قبائل «الجيش» التي كانت غير راضية على الإصلاح العسكري وعلى إجبارها على دفع الضرائب، بالإضافة إلى القبائل المجاورة لمكناس، وخاصة منها بني مطير التي تجمعت حول أحد قوادها البارزين : عقا البويدماني. (5).

3 - سيطرة البعثة العسكرية الفرنسية على الجيش المغربي :

كانت هذه البعثة مكلفة بتدريب الجنود المغاربة، وكان يترأسها الضابط مانجان (Mangin) الذي وضع خطة لإصلاح كامل للجيش المغربي سنة 1910، (6) التي كانت تهدف في الواقع إلى السيطرة التدريجية على الجيش المغربي. وكان بعض أفراد البعثة يشتركون في كثير من الأحيان في الحملات التأديبية التي وجهها المخزن ضد القبائل المتمردة، مستعملين المدفعية المخزنية ضدها. (7) وبطبيعة الحال كان هؤلاء الضباط الأجانب يملكون في نظر القبائل نواة الاحتلال الأجنبي.

4 - الغزو العسكري الفرنسي والاسباني لعدة مناطق من البلاد :

استطاعت الجيوش الفرنسية والاسبانية تطويق المغرب من كل جهة :

- شرقا : واصل ليوطي زحفه نحو مشارف نهر ملوية

- وغربا : تابعت الجيوش الفرنسية توغلها داخل البلاد.

وستتوج زحفها هذا بدخولها إلى العاصمة فاس في 21 ماي 1911، مستغلة ذريعة حصار فاس من طرف بعض القبائل المجاورة. وذلك من أجل حماية الجالية الأوروبية، وبدعوى استغاثة المولى عبد الحفيظ بها من أجل فك الحصار المضروب على فاس.

والواقع أن المولى عبد الحفيظ لم يستغث أبداً بالجيش الفرنسية المرابطة في الشاوية، وتؤكد ذلك الوثائق الفرنسية نفسها، وأثبت ذلك أيضا جان كلود آلان J.C.Allain في أطروحته. (8).

— وهمالا : توغلت الجيوش الاسبانية داخل التراب الوطني فاحتلت الناصور والحسيمة ثم العرائش والقصر الكبير.

وأمام عجز المخزن عن صد العدوان الأجنبي عمت موجة واسعة من التدمير والاستياء في المدن والبوادي المغربية على حد سواء.

1 — تمثلت المعارضة الحضرية في العلماء ورجال الدين والتجار الذين تضرروا من المنافسة التجارية الأوربية.

2 — وفي البادية، وبناحية مكناس خاصة تكتلت القبائل لمواجهة الغزو الاستعماري. وترغم مقاومتها عقا البويدماني.

من هي هذه الشخصية ؟ وما هو الدور الذي قام به في هذه الأحداث ؟

II المقاومة بمكناس وأحوالها :

1 — قبيلة بني مطير والمخزن :

تحتل قبيلة بني مطير موقعا استراتيجيا ممتازا وسط البلاد في منطقة فلاحية خصبة جذبت الأطماع الاستعمارية مبكرا.

إن هذه القبيلة ظلت موالية للمخزن فترة زمنية طويلة، إذ ساعدت مولاي عبد الحفيظ على الانتقال من مراكش الى فاس عبر الأطلس المتوسط نهاية 1907. (9).

ولقد لعب عقا البويدماني دورا بارزا في إحباط ثورة الشريف محمد الكتاني وفي اعتقاله وتسليمه لمولاي عبد الحفيظ سنة 1909، وظل مخلصا للمخزن بالرغم من تمرد بعض أفخاذ بني مطير وساعده في قمع تمردهم. (10).

ولم يتغير هذا الموقف المساند إلا بعد سنة 1910 نتيجة معاملة الكلاوي التعسفية للقبيلة، ومن أهم مظاهر هذه المعاملة تأديبها بواسطة جيوش يترأسها ضباط فرنسيون، وكذلك فرض ضرائب ثقيلة عليها وفرض غرامة قدرها 100.000 ريال حسني، ومطالبتها بتزويد الجيش المخزني بـ 300 رجل (11).

وأكثر من هذا استدعى الكلاوي عقا البويدماني أواخر سنة 1910 الى فاس وألقاه في السجن دون مبرر ولم يطلق سراحه الى في يناير سنة 1911 بعد أن حصل على غرامة كبيرة. فصمم عقا على الانتقام.

وهكذا وفي 22 فبراير 1911 عقدت عدة قبائل : زمور، كروان، مجاط... بزعامة بني مطير اجتماعا بأغوراي جنوب مكناس، قررت خلاله تدمير خطة اختطاف الكلاوي بعد انتهاء الاحتفال بعيد المولد النبوي لكن هذه الخطة فشلت بسبب تمرد قبيلة الشراردة أواخر فبراير (12).

2 — موقف القبيلة ومكناس من التدخل الاستعماري :

تجلت مقاومة مكناس وأحوارها للأهداف التوسعية الفرنسية منذ سنة 1902 في تحطيم الأشغال الجارية من طرف الأجانب لمد سكة حديدية بين فاس ومكناس (13) والتي اعتبرها المغاربة بمثابة تدخل في شؤون البلاد.

وفي نفس الفترة ساند بنو مطير حركة الجيلالي الزرهوني (المدعو بو حمارة) في المغرب الشرقي ضد التدخل الفرنسي⁽¹⁴⁾.

ولقد تمثل انتقام عقا من الكلاوي ومن المخزن في إثارة ثورات القبائل ضد فاس ومكناس.

3 — تنصيب مولاي الزين :

وكتنتيجة لذلك نصب بنو مطير سلطانا جديدا بمكناس.

من هو هذا السلطان ؟ وما هو مشروعه ؟

يذكر ابن زيدان أن :

«سلطان مكناسة الزيتون أكره على تولي هذا المنصب لمدة تزيد عن شهر، وخطب باسمه أيام

الجمعة على منابر مساجد مكناس، كما شكل وزارة لتسيير شؤون دولته» (15).

لقد بايع بنو مطير وسكان المدينة مولاي الزين سلطانا للجهاد على المغرب في 19 أبريل 1911، بشروط مماثلة لتلك التي بويع بها مولاي حفيظ (19) من قبل عندما ثار ضد أخيه عبد العزيز. وقد استمر في الحكم مدة شهرين تقريبا. والواقع أن المولى الزين لم يكره على تولي هذا المنصب إنما اختارته القبائل وأغلبية أفراد مدينة مكناس عن اقتناع، إذ ورد في إحدى رسائله الموجهة الى القبائل ما يبرر هذا حيث رأى أن مبايعة بعض المدن والقبائل له كانت من أجل «إعطاء حيوية للخلافة وروح جديدة للامامة». (17) وذلك بعدما تبين لمن بايعوه عجز مولاي حفيظ في القيام بهذا الدور. ومولاي الزين هو شقيق مولاي احمد الابن الأكبر للحسن الأول الذي عزله الحاجب «با أحمد» عن الملك (18) والمعروف أن شخصية مولاي احمد هذا قد انتحلها الجيلالي الزرهوني المدعو «بوحمارة» (19) وقد شغل مولاي الزين منصب الخليفة السلطاني بتزنيته. (20).

4 — تشكيل الحكومة الجديدة ومطالبها :

إن هذه الحكومة كانت تتكون على الشكل التالي :

- 1 — الصدر الأعظم : الحاج عبد السلام لخلو
- 2 — وزير البحر : الحاج محمد مكوار
- 3 — الشكايات : الحاج السعيد بن الطيب غرّيط
- 4 — المالية : الحاج التهامي بناني
- 5 — الحربية : العربي بوعشرين
- 6 — أمانة الصاير : الحسن بناني
- 7 — الحاجب : حمان بن عبد العزيز

عامل مكناس : قاسم بن كروم البخاري الجبوري (21). والملاحظ أن أغلبية الوزراء يتمتعون الى البروجوازية الحضرية. أما المطالب فتتلخص في :

- 1 — عزل المدني الكلاوي
- 2 — منع أي دور للبعثة العسكرية الفرنسية وبالتالي دور الأجانب في شؤون المغرب وحكومته.
- 3 — حذف النظام العسكري الجديد الذي فرضته فرنسا سنة 1910.
- 4 — حرية اختيار القواد.
- 5 — فرض ضرائب عادلة.
- 6 — تسديد الأموال المنهوبة من طرف الكلاوي لأصحابها. ويرى الأستاذ العروي أنها نفس مطالب اتباع بوحمارة. (22).

III تصفية المقاومة من طرف الفرنسيين واحتلال مكناس والحاجب :

وفي هذه الأثناء عين المولى عبد الحفيظ بنعيسى بن عبد الكريم البخاري باشا على مكناس للقضاء على هذه الحركة، فتوجه الباشا صحبة الجنرال موانيه (Moinier) من فاس بنحو «ألف فارس» (23) وعلى طول الطريق دارت بين القوات الفرنسية وقبائل بني مطير، كروان، عرب سايس، المعززة ببعض المكناسيين معارك ضارية بوادي وسلان طيلة يوم الخميس 8 يونيو 1911.

ولم تتمكن الجيوش الفرنسية من اجتياز وادي وسلان إلا باستعمال المدفعية الثقيلة لتشتيت المجاهدين، (24) ولم تدخل المدينة إلا بعد قصف باب القصدير، مما خلف ضحايا كثيرة من الجانبين.

ويقول الحجوي في هذا الصدد :

«... لما وصل خبر احتلال مكناس وكذلك إلقاء القبض على مولاي الزين أمر مولاي عبد الحفيظ بإطلاق البارود، وتزيين مدينة فاس إعلانا عن الفرح وقد أتى اليه علماء فاس وأشرفها لتهنئته بهذا الفتح» (25).

وهكذا سقطت ثاني عاصمة بيد المستعمر بعد فاس.

وبعد احتلال مدينة مكناس من طرف الفرنسيين، سجن عقا البويدماني بالمدينة، ورغم ذلك فقد ظل على اتصال بالمجاهدين طيلة إقامته بالسجن. (26) وتركيز نفوذه أكثر بالمنطقة احتل الجيش الفرنسي قصبة الحاجب في نفس السنة (28 يونيو 1911).

وبعد أقل من سنة تم التوقيع على عقد الحماية الفرنسية على المغرب سنة 1912.

وأهم ما يمكن استخلاصه من هذا العرض هو :

(1) تنفيذ الأطروحة الاستعمارية التي اعتبرت مدينة مكناس والمدن المغربية بصفة عامة. مدنا هادئة لم تحرك أي ساكن طيلة سنوات ضد المستعمر وأن الانتفاضات اقتصر على القبائل فقط.

(2) إن هذا الحدث التاريخي يعتبر بدون شك نموذجا للاتحام بين المدينة وباديتها في مجال النضال الشعبي الوطني ضد الهجمات الاستعمارية.

(3) رغم المحلية التي تميزت بها هذه الحركة فإن لها دورها التاريخي البارز في إذكاء الشعور الوطني بالمنطقة خصوصا، هذا الشعور الذي سيدفع الى ظهور حركات أكثر شعبية وأقوى تنظيما بعد سنة 1912 ضد المستعمر.

الهوامش

- (1) انظر : Pierre Guillen : Les Emprunts marocaines de 1902 à 1904, Paris, 1972, pp. 52, 152.
- (2) انظر : J. Claude Allain : **Agadir, 1911, Une crise impérialiste en Europe pour la conquête du Maroc**, Paris, 1976, p. 41 et suivantes.
- (3) نفس المرجع السابق، ص 258 وكذلك : F. Weisgerber : Au Seuil du Maroc moderne, Rabat, 1947, p : 210.
- (4) مخطوط محمد الحجوي : الأحداث السياسية على عهد مولاي عبد العزيز والمولاي عبد الحفيظ، ص 46 الخزانة العامة قسم الوثائق بالرباط.
- (5) انظر : F. Weisgerber، المرجع السابق ص 210.
- (6) انظر : وثائق وزارة الحربية الفرنسية بفانسين، باريس : « Note sur l'histoire sommaire de la mission militaire au Maroc et de l'année chérifienne », Paris, le 7 Juin 1912.
- (7) A. Laroui : **Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912)**, Maspéro, Paris, 1977, p. 408.
- (8) المرجع السابق : ص 272 — 273.
- (9) محمد بن الحسن الحجوي : المصدر المذكور ص 45.
- (10) F. Weisgerber المرجع السابق ص 210 — 211.
- (11) ذ. عبد الله العروي : المرجع السابق ص 308، الهامش رقم 126.
- (12) F. Weisgerber المرجع السابق لا ص 211.
- (13) Afrique Française عدد سنة 1902، ص 363.
- (14) انظر : Mohamed BEKRAOUI : **La révolte de Bou Hmara**, contribution à l'histoire du Maroc précolonial, Thèse de 3ème cycle, Université de Poitiers 1980, p. 88 et S.
- (15) ابن زيدان : ملحق لإتحاف يوجد مخطوطا بالخزانة الحسينية رقمه : 11769، ص 37.
- (16) Bulletin du Comité de l'Afrique Française, mai 1911, p 186.
- (17) انظر ذ. عبد الله العروي : المرجع المذكور، ص 409.
- (18) ابن زيدان إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ج 2، الطبعة الأولى 1930، الرباط، ص 546.
- (19) انظر محمد البكراوي، المرجع المذكور، ص 56 وما بعدها.
- (20) انظر ابن زيدان إتحاف أعلام الناس، ج 2، ص 546.
- (21) ابن زيدان المخطوط الملحق لإتحاف، ص 37 وما بعدها.
- (22) ذ عبد الله العروي المرجع المذكور، ص 409.
- (23) الحجوي : المصدر المذكور ص 56.
- (24) انظر s. Jean Vial ; **le Maroc héroïque**, Hachette, Paris, 1938, p. 64 et s. Medecin Capitaine
- (25) الحجوي : المصدر المذكور ص 56.
- (26) انظر : Archives du ministère des Affaires Etrangères Paris, série Maroc — Tunisie, n° 492, Rapport. mensuel du Protectorat, mois de juillet 1917, p 6.

الانتفاضة الشعبية بمكناس نموذج إحداه بوفكران 1937

الأستاذ بوشتي بوعسرية
المركز التربوي الجهوي
مكناس

اتخذت سلطات الحماية الفرنسية من مدينة مكناس، عاصمة عسكرية وإستيطانية، نظراً لأهميتها الإستراتيجية وخصوبة تربتها ووفرة مياهها.

وقد عرفت هذه المدينة سنة 1937 انتفاضة شعبية كان السبب الرئيس وراء اندلاعها، هو مد المسؤولين الفرنسيين بمكناس اليد في جزء من مياه وادي بوفكران، ومنحه للمعمرين بأرض تانوت، وللمرافق المدنية والعسكرية بالمدينة الجديدة — حمرية — وذلك بعد قيام هؤلاء المسؤولين بعدة دراسات خاصة بمياه وادي بوفكران، وإصدار عدة ظهائر وقرارات لتنظيم واستغلال هذه المياه.

وتزامن هذا الحدث مع الوضعية الصعبة التي كان يعيش عليها المجتمع المكناسي والمتمثلة في الأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي مست بالخصوص الفئات الشعبية داخل هذا المجتمع، ومع بداية تبلور الوعي الوطني عند ثلثة من المكناسيين الذين كانوا على اتصال بإخوانهم الوطنيين في أهم المدن المغربية وخاصة في فاس.

كانت الأسباب السالفة الذكر كافية لاهاب حماس الجماهير المكناسية لمقاومة سياسة الادارة الفرنسية والاصطدام معها في بداية شهر شنتبر 1937، وأصبح يعرف هذا الاصطدام بأحداث بوفكران أو « كثيرة الماء لخلو».

الظروف العامة التي كانت عليها مدينة مكناس قبيل 1937 :

تمثل هذه الظروف في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المتردية، ذلك أن المجتمع المكناسي كان يعاني من أزمت متعددة الجوانب، شملت الجانب الاقتصادي، والحياة اليومية للسكان، والممارسات القمعية التي تمارس في حقهم، هذا فضلا عن الأمراض الاجتماعية الأخرى التي كانت منتشرة بين المكناسيين كالبعاء والخمر والطريقة...

الوضعية الاقتصادية : كانت الأوضاع الاقتصادية بإقليم مكناس قبيل أحداث بوفكران سنة 1937 متأزمة (1)، وسبب هذه الأزمة هو الجفاف الذي حل بالأقليم في السنوات السابقة لهذه السنة، واستحوذ المعمرين على أخصب الأراضي المجاورة للمدينة والتي كانت في الأصل تستغل إما بشكل جماعي أو

فردى أو يملكها المخزن والسلطات، ولم يعد المكناسيون يجدون ما يقتاتون به نظرا لقلّة المواد الغذائية الأساسية أو انعدامها، لكون «رحبة الزرع» أصبحت فارغة من الحبوب لعدة أسابيع، لأن اليهود المسيطرين على تجارة الحبوب بمكناس آنذاك، اغتنموا فرصة لادخار هذه المادة الحيوية، فارتفع ثمنها بشكل باهض، مما حال دون كيلها من قبل الفئات الفقيرة داخل مكناس، وأصبح السكان مهتدين بالجماعة، ونجد أن سنة 1937 عرفت بأنها سنة مجاعة بمكناس وإقليمها (2)، وتولد عن هذه المجاعة هجرة حشود من البدويين الى المدينة وانحسارهم في مدن الصفيح (3).

ومن بين القطاعات الاقتصادية المتضررة بمدينة مكناس قبيل 1937، الانتاج الحرفي الذي لحق بأصحابه الافلاس، نظرا للكساد الذي أصابه، أو تم القضاء على بعضه نهائيا، لكون الأهالي أقبلوا على استعمال البضائع الأجنبية : «... بل أصبحنا لا نكاد نرى في جميع بلاد المغرب وجميع أسواقه إلا البضائع الأجنبية لا فرق في ذلك بين بادية وحاضرة...» (4).

ولم تكن المنتجات المستوردة من الخارج السبب الوحيد في تدهور الانتاج الحرفي بمكناس، بل عانى هذا الانتاج من منافسة المصنوعات الأجنبية التي كانت تنتج في المغرب بمعمل لاسافت Lasaft — مثلا — بالرباط.

وأمام هذا الوضع، رفع الوطنيون بمكناس شعار مقاطعة البضائع الأوربية، والاقبال على استهلاك الانتاج المحلي : «... ارحموا المحترفين بالاقبال على مصنوعاتهم... ارحموا أرباب الحرف فلقد أصبحوا في شوارع المدن بسلاسل الفاقة يسبحون...» (5). لكن هذه الدعوة لم تؤد إلى نتائج ايجابية، نظرا لاستمرار المكناسيين في الاقبال على البضائع المستوردة، فازدادت الأزمة الاقتصادية استفحالا : «... وأصبح هذا الكساد أزمة خانقة ضاربة أطنابها في جميع الميادين» (6).

ومن بين الصناعات التي تدهورت في مكناس دباغة الجلود، فصار عدد كبير من الدباغين عاطلين. كانت السياسة الاقتصادية التي نهجتها حكومة الحماية الفرنسية في مدينة مكناس وإقليمها، سبب تحول غالبية الفلاحين والحرفيين والصناع والتجار الصغار الى الصف الوطني، فكُونوا القواعد المناضلة عمليا داخل الحركة الوطنية — بمكناس — لمقاومة السياسة العامة للمسؤولين الفرنسيين سنة 1937.

الوضعية الاجتماعية : تمثلت هذه الوضعية في غلاء المعيشة نتيجة لارتفاع الأسعار، والنقص في الأجور، والزيادة في الضرائب، يضاف الى ذلك كثرة البطالة نظرا لقلّة مرافق العمل. وقد انعكس هذا الوضع المتأزم مباشرة على «الطبقات» الدنيا التي كانت تكون قاعدة الهرم الاجتماعي بمكناس.

كانت الزيادة في أثمان المواد الغذائية الأساسية من أكبر المشاكل التي شهدتها مدينة مكناس سنة 1937، فمثلا الثمن العادي للمد من القمح كان قبل هذه السنة يعادل 21 فرنكا، فأصبح يتجاوز 45 فرنكا، أي بزيادة نسبة 114%، وثمن اللتر من الزيت يساوي 2,50 فرنكا فصار خلال هذه الأزمة 7,50 فرنكا، بزيادة نسبة 200%، بينما ارتفع ثمن القالب من السكر من 5 فرنكا الى 6,50 فرنك وذلك بنسبة قدرها 30% (7).

ولم يكن يوازي هذه الزيادة في الأسعار، زيادة في الأجور، بل تم النقص منها، زد على ذلك ضعف أرباح الصناع والحرفيين والتجار الصغار وغيرهم من الفئات الاجتماعية. وما زاد في تعميق المشاكل الاجتماعية كثرة الضرائب، وتشمل رسوم الكراء والمباني والأرباح، والتي

كانت تفرضها الادارة الفرنسية بمكناس : «... وفي هذه الأيام الأخيرة اشتد الحال كثيرا بمكناس من أجل الضرائب، حيث جمع رئيس البلدية مقدمي الحارات، وعانتهن عتابا شديدا، وسبهم سبا فاحشا لعدم قيامهم برفع كل من لم يؤد الى المحل المخصوص للأداء ليؤدي، أو يصار به الى السجن...» (8).

وكان جمع هذه الضرائب يتم بطريقة عشوائية لعدم وجود قانون تنظيمي لها، يراعي إمكانيات ومداخل السكان، لتحديد على أساسها قيمة الضريبة، وهذا ما اعترفت به السلطات الفرنسية نفسها : «... لذا يجب تنظيم هذه الضرائب... وهذا ما يؤخذ علينا في مكناس، فيجب وضع مشروع قانون، مع ترك متسع للسلطات المخزنية للتصرف في البنود المنظمة لجمع الضرائب...» (9).

وتجلى التعسف في جمع الضرائب في نموذج أحد الفحامين الذين طلبوا من رئيس المكتب الاقليمي وحاكم الناحية الجنرال كايو Caillaut أثناء جولته بالمدينة الأهلية يوم 5 شتنبر 1937، إعفاءه من الضريبة المفروضة عليه وقدرها 33 فرنك (10)، لأنه كان مضطرا لبيع سلهامه لأداء هذا القدر.

ولم تكن الأزمة الاقتصادية والاجتماعية وحدها التي عانت منها الطبقات الدنيا في المجتمع المكناسي، ولكن هناك مشاكل أخرى، تقتصر على ذكرها دون تفصيل تجنباً للاطالة، وهذه المشاكل يمكن حصرها في : ضعف التطبيب، والمعاملة السيئة التي كان يعامل بها المرضى، ضف الى ما سبق انتشار حرفة الغناء العلني والسري بين المسلمين، سواء القاطنات بمكناس أو الوافدات عليها، وما وجود «العرس» وكثرة الفنادق داخل الأحياء الشعبية إلا تجسيدا لهذه الظاهرة التي ما كان المكناسيون ليقبلوا بها، وحملوا مسؤولية انتشارها للادارة الفرنسية، ولم تكن هذه المشاكل وحدها تثير مشاعر السكان، ولكن هناك أمراض أخرى لاتقل خطورة عنها ابتلي بها أهل مكناس، مثل انتشار الخمر والخمارات، والطريقة العيساوية التي كانت تمثل قمة الهمجية في استغلال الدين الاسلامي لخدمة مصالح الاستعمار، هذا فضلا عما كان يلاقه المكناسيون من مضايقات يومية من قبل البوليس الفرنسي.

وإذا كانت المشاكل السالفة الذكر، المادية والمعنوية منها، عوامل أساسية في تحريك شعور المكناسيين لمقاومة سياسة إدارة الاستعمار الفرنسي بمكناس، فإن أخطر هذه المشاكل، كان سبب الاسراع بعجلة تاريخ الاصطدام الدموي مع هذه الادارة هو تحويل جزء من ماء بوفكران لصالح الأجانب.

المسألة المائية ودورها في أحداث بوفكران :

دراسة مبسطة ومركزة لوادي بوفكران : ينبع وادي بوفكران جنوب مكناس عند قدم حافة الأطلس المتوسط الهضبي، وقيل وصوله الى المدينة تغذية مجموعة من العيون المائية. وكانت مياه هذا الوادي تستعمل للشرب وللسقي معا، وتوزع جنوب سيدي بوزكري الى ثلاثة أقسام :

- يحول قسم من الماء الى حمرية بواسطة ساقية اصطناعية.
- ويحول القسم الثاني منه بعض العيون الى وادي بوعماير.
- ويغذي القسم الأكبر من هذه المياه، المدينة الأهلية، وقصر السلطان، وأراضي أهل الزيتون والمعمرين القريبة منه بالمنطقة المعروفة ب : تانوت.

كانت مياه بوفكران قبل 1912 مؤسسة حبسية تديرها إدارة الأوقاف، وتعمل على توزيعها بين المنتفعين بها : «... من وجهة النظر القانونية، تعتبر مياه بوفكران قبل تنظيم توزيعها مؤسسة حبسية... قبل تأسيس الحماية بالمغرب...» (11).

وتغيرت الوضعية بين 1912 لأن إدارة الحماية ضمت المياه للأملاك العامة ومنها ماء بوفكران، مما

أدى الى صراع بين الادارة الحسبية والسكان من جهة والادارات الاستعمارية من جهة ثانية استمر الى ما بعد 1937.

تنظيم الادارة الفرنسية لاستغلال مياه بوفكران :

أصدرت حكومة الحماية عدة قرارات وظهرت لتبرير جيلها القانونية للاستحواذ على مياه بوفكران، ولأجل تنفيذ هذا المشروع تم عقد عدة اجتماعات لدراسة هذه المسألة، كان أولها بتاريخ 25 ماي 1914 (12)، ضم هذا الاجتماع عدة شخصيات مخزنية وفرنسية عسكرية ومدنية، وكان موضوعه خاص بتوزيع مياه وادي بوفكران، ووضع نظام شامل لاستفادة الأفراد والجماعات من هذه المياه.

وأصدر ليوطي المقيم العام بالمغرب — 1912 — 1925 — قرار 28 أبريل 1914 الخاص بتخلي الأحياس عن إدارة المياه للبلديات، فأصبحت هذه الأخيرة مكلفة بمدّ قنوات الماء داخل المدن، لكن هذا القرار لم يحظ بموافقة نظارة أوقاف مكناس التي تشبّثت بحقها الكامل في تسيير مياه وادي بوفكران، لذلك راحت الادارة الفرنسية تبحث عن حيل أخرى تسيطر بها على هذه المياه التي أدخلتها ضمن الأملاك العامة للدولة، فأصدرت عدة ظهائر في هذا الصدد، كان أهمها الظهير الشريف المؤرخ يوم فاتح يوليوز 1914 (13)، وقد عدل هذا الظهير بظهائر أخرى كان أهمها ظهير فاتح غشت 1925 الذي جعل ضارطا للمياه التي أصبحت من الأملاك العامة، وأسندت إلى إدارة الأشغال العمومية بمكناس مهمة صيانة وتبئية مياه بوفكران، في حين تشترك إدارة الأحياس مع البلدية في الاشراف على هذه المياه داخل المدينة، لكن الأحياس لم يرضها هذا التسيير الثلاثي لمياه وادي بوفكران بعدما كانت وحدها المشرفة عليها دون مزاحم، فدخلت في صراعات مع الادارات الاستعمارية، مما أدى الى عقد عدة اجتماعات بينهما، كان أولها بتاريخ 20 غشت 1922 الذي خصص جدول أعماله لدراسة مصارف إصلاح قنوات المياه داخل مكناس، واتفق الحاضرون في هذا الاجتماع على ضرورة تزويد المدينة بالمياه العذبة الضرورية لسكانها، لأن مياه بوفكران أصبحت ملوثة. والملاحظ أن تلوث هذه المياه، كان سببه هو انتشار أراضي المعمرين على طول ضفتي الوادي، لأن هؤلاء الأجانب كانوا يملكون — إضافة الى الأراضي — المواشي ومنها الخنازير التي ترد من هذه المياه فتلوثها بعد دخولها إليها : «... فإنهم يطلقون الخنازير فيه ويتركونها تخوضه وتلوثه...» (14).

واجتمع الطرفان الحسبي والحكومي مرة أخرى يوم 22 مارس 1924، لدراسة مسألة تحويل مياه وادي بوفكران الى الأملاك العامة، لكن هذا الاجتماع لم يفسر عن نتائج إيجابية بين المعنيين بأمر مياه بوفكران. وهكذا لم ينته الصراع بين الأحياس والادارتين الاستعماريتين — الأشغال العمومية والبلدية — الى اتفاق عملي بينهما، خاصة وأن الأحياس كانت تعتبر أن هذه المياه محبسة، ولها أحقية التحكم فيها، في حين جعلتها الادارة الفرنسية من الأملاك العامة، وقد استطاع الجانب الفرنسي فرض الأمر الواقع، وأدخل مياه بوفكران ضمن أملاك الدولة الحامية بالمغرب، وبقيت الأحياس مرة بعد الأخرى تثير مسألة تحييس مياه بوفكران، دون الاستناد الى أية وثيقة مكتوبة حسب إدعاء الفرنسيين، لذلك بعد 1925 تكونت عدة لجن للبحث عن أصول ملكية مياه وادي بوفكران، وكانت أهم النتائج التي توصلت إليها هذه اللجن، وضع عدة مشاريع لتوزيع هذه المياه.

وطرحت مشكلة توزيع مياه بوفكران بمكناس بحدة سنة 1929، نظرا لتزايد عدد سكان المدينة، وانتشار الاستيطان بشكل واسع بضواحيها، وقلة التساقطات بالنظر الى المعتاد الذي كان يتعدى 500 ملم سنويا، ونظرا لهذه الأسباب وضعت إدارة الأشغال العمومية سنة 1932 مشروعا لتوزيع مياه بوفكران على

الشكل التالي (15).

جزء من ماء بوفكران لسقي المناطق الخاصة بإنتاج الخضر.
تحول المياه الباقية عند المكان المسمى قاضي حاجة بقرية مجاط عبر سرير اصطناعي الى معمل الكهرباء، ثم يجمع في حوض سيدي بوزكري ومنه يقسم الى ساقيتين :
الأولى موجهة الى المدينة الجديدة والثانية الى المدينة القديمة والى الزيتون. إلا أن هذا المشروع الذي وضعته الأشغال العمومية، لم ينل موافقة جميع الأطراف المتنازعة على مياه بوفكران، فوضعت نفس الإدارة مشاريع أخرى في نهاية سنة 1932 وفي سنة 1933، ووافقت إحدى اللجن المجتمعة بتاريخ 5 مارس 1934، على المشروع الأخير — 1933 — الذي لم ينه المسألة الخاصة بتوزيع مياه بوفكران لكونه أعطى للمصالح الفرنسية ما يزيد عن 100 ل/ث وهذا ما يعادل بالتقريب 5/1 صبيب الوادي (16).

وتوالى الاجتماعات سنوات 1934 و 1935 و 1936 و 1937، ولكنها جميعا لم تحل المسألة الخاصة بمياه وادي بوفكران، لأن أهداف الأطراف المجتمعة كانت متعارضة على الدوام، فإدارة الأحباس تريد أن تحتفظ بكل مياه بوفكران، في حين كانت إدارة الحماية الفرنسية تريد إشراك المعمرين خاصة المستقرين في نانوت (17) وباقي الأجناب القاطنين بحمرية في هذه المياه.

وآخر اجتماعين عقدا لدراسة مسألة توزيع مياه بوفكران كان — قبيل اندلاع أحداث صيف 1937 — الأول يوم 28 أبريل 1936 والثاني يوم 27 ماي 1936.

وقد توصل المجتمعون — بعد مناقشات مطولة — في اللقاء الأول الى النتائج التالية :

— تم الاعتراف للاحباس بـ : $\frac{210 \text{ ل/ث}}{450 \text{ ل/ث}}$ من صبيب مياه بوفكران داخل المدينة بما فيها $\frac{60 \text{ ل/ث}}{450 \text{ ل/ث}}$

الخاصة بقصر السلطان.

— وتم الاعتراف لإدارة الأشغال العمومية بـ : $\frac{120 \text{ ل/ث}}{450 \text{ ل/ث}}$ من صبيب نفس الوادي.

وكانت أهم ساقية يستفيد منها سكان الزيتون هي ساقية الجبارة الأم، التي تنفرغ منها عشر سواقي، ووصل صبيب كل منها 20 شكلا، أي ما مجموعه 200 شكلا، والشكل مقياس محلي يعادل 4 لترات في الدقيقة (4 ل/د) أي 0,06 ل/ث (4 ل/د) = $\frac{1 \text{ شكل} \times 4 \text{ ل/ث}}{60 \text{ ثانية}} = 0,06 \text{ ل/ث}$ أي أن صبيب مياه ساقية الجبارة من مياه بوفكران، كان هو : $\frac{200 \text{ شكل} \times 4 \text{ ل/د}}{60} = 13,3 \text{ ل/ث}$

(أي 15 ل/ث بالتقريب)، وهذا القدر يعادل صبيب قادوس فخدي .

ولكن هذا التوزيع الجديد لم يكن حاسما.

أما في الاجتماع الثاني، فقد خرج منه المجتمعون دون نتائج تذكره، كان هدف هذه الاجتماعات وما صاحبها من دراسات هو تبرير الترخيص للمعمرين بتانوت لأخذ 20 ل/ث لسقي الأراضي التي استولوا عليها ومساحتها 145 هكتارا، ويلاحظ أن هذه الاجتماعات تمت في غياب ممثلي عامة المكناسين، وحضور أعيان المدينة كان شكليا، لأنهم لم يطلعوا على جل القرارات المتخذة في شأن مياه بوفكران. كان أخطر القرارات الصادرة في شأن توزيع مياه بوفكران، هو قرار الصدر الأعظم محمد المقربي بتاريخ 16 نونبر 1936 (18)، لأن السلطات الفرنسية حاولت هذه السنة أن تنفاد أي اصطدام مع المكناسين خلال الظروف الصعبة

التي كانت عليها البلاد بصفة عامة، فأمرت المخزن بإصدار هذا القرار للتأثير على المكناسيين لقبوله، فصار أساسيا فيما يتعلق بتوزيع مياه بوفكران، لارتكازه على كل القرارات والظواهر والاجتماعات السابقة له : «وإنما على كل ما ذكر فإن حقوق الماء في وادي بوفكران المأخوذة من ساقية متفرعة أو من نفس الوادي تعين كما يلي... هذا ما جاء في نهاية الفصل الأول من هذا القرار، الذي استعرض أهم القرارات والظواهر التي ارتكز عليها، وجاء في الفصل الثاني منه ما يلي : «إن المدير العام لإدارة الأشغال العمومية هو المكلف بتنفيذ هذا القرار».

نقف من خلال توزيع مياه بوفكران الذي جاء في قرار الصدر الأعظم، سواء داخل المدينة أو خارجها، على نصيب أهل مكناس، والمعمرين، وسكان حميرية، وقصر السلطان، والأحباس، من الماء، وجاء هذا التوزيع مطابقا لرغبات وأهداف الأشغال العمومية، مما جعل السكان يعارضونه، فراجعت الإدارة الفرنسية على تطبيقه، وعرضته بتوزيع جديد يومي فاتح وثاني شتبر 1937، حيث قلصت من نسبة المياه التي أعطيت للمعمرين ولسكان حميرية، في حين ارتفع صبيب ساقية الجبارة والمدينة القديمة عما كان عليه.

وبالرغم من محاولة السلطات الفرنسية تسوية مسألة توزيع مياه وادي بوفكران، فإن ذلك لم يمنع من اصطدامها الدموي مع المكناسيين في بداية شهر شتبر 1937.

أحداث فاتح وثاني شتبر 1937 :

كان السبب الرئيسي الذي فجر أحداث بوفكران — كما أسلفنا — هو تحويل السلطات الفرنسية مكناس لجزء من ماء بوفكران لصالح المعمرين، مما ترتب عنه عيس الحداثق والأجنة والعرسات، واتلاف غلاتها من الفواكه والخضر والزيتاتين، هذا في الوقت الذي كان المعمرون فيه يتمتعون بالمياه الكافية، عند ذلك لم يسع أهل مكناس السكوت، ولم يستطيعوا مشاهدة حقولهم ومزروعاتهم تموت من قلة الماء (19). فقد المكناسيون كل أمل في أن تفهم السلطة مطالبهم، واشتد بأسهم في مطلع صيف 1937، فدفعهم هذا اليأس الى تغيير سياستهم السليمة لمواجهة السلطة، فقاموا يدافعون عن الاحتفاظ بكل مياه بوفكران لمدينتهم، إلا أن الإدارة الاستعمارية لم تعر المسألة العناية التي تستحقها، واعتبرتها مجرد أكاذيب روج لها أعضاء الحركة الوطنية، فظاهر السكان دفاعا عن مائهم، واشتبكوا مع القوات القمعية في معركة دموية.

مظاهرة فاتح شتبر السلمية :

لم تسفر الاتصالات التي أجراها ممثلو المكناسيين مع السلطات الفرنسية عن نتائج ايجابية، لأن هذه السلطات كانت تريد كسب الوقت لفرض الأمر الواقع عليهم، بتطبيق قراراتها الخاصة بإعطاء جزء من مياه وادي بوفكران للأجانب، دون أن تعير اهتماما للأضرار التي تلحق بالسكان وبذلك أصبحت سياسة اللجان أو الوفود غير مجدية، خاصة بعدما طرد رئيس البلدية للجنة التي فوضوا لها الدفاع عن حقوقهم في أحد الاجتماعات.

وفي غياب ممثلي الأمة المكناسية، كانت الفرصة مواتية للأجهزة المسؤولة لعقد اجتماع فاتح شتبر 1937، لتقرر ما تراه صالحا — في نظرنا — بالنسبة لتوزيع مياه بوفكران، فتوجه على الساعة 9،30 صباحا ما بين 400 الى 500 مكناسي الى مقر البلدية بحميرية، لما علموا بالخبر، للاحتجاج

على أي توزيع للماء لإشراك فيه ممثلوهم : «... عقدت بلدية مكناس مجلسا لتوزيع ماء بوفكران من غير أن تعلم نواب الأمة المكناسية الذين وضعت ثقتها فيهم للتكلم عليهم في الماء.. ولما تحقق المكناسيون مقصود الإدارة البلدية في توزيع ماء بوفكران على غير الوجه الشرعي اجتمعوا بحذاقهم وتوجهوا للإدارة البلدية محتجين على توزيع الماء من غير حضور نوابهم وكانت مظاهرتهم هذه مظاهرة سلمية منظمة أحسن تنظيم حتى شهد لهم بذلك المحافظون على الأمن.. ولما وصلوا البلدية.. خرج إليهم رئيسها - كذا - مع باشا البلد ولم يسمعوا منهم كلاما ولم تحصل مفاهمة بينهم فرجع المكناسيون.. وتفرقت الجلسة التي عقدت بالبلدية من غير طائل..» (20).

وأثناء المظاهرة التي انطلقت من جامع الزيتونة إلى البلدية، كان المتظاهرون يرددون شعارات تمكس مطالبهم، وأهمها : «لاقطرة ماء للمعمرين، كل مياه بوفكران ملك لنا». وبعد وصول السكان المشاركين في المظاهرة إلى مقر البلدية، وأغلبهم من الفلاحين والتجار الصغار، والصناع والحرفيين والعاطلين، نادى الباشا على أحد زعماء المتظاهرين واسمه محمد الطاهري، وطلب منه أن يبلغ للجمهور الحاضر، أن اللجنة المجتمعة وافقت على الاحتفاظ بماء بوفكران كله لسكان المدينة الأهلية، مقابل الحفاظ على الهدوء، والعودة إلى أعمالهم ومنازلهم، والواقع أن ذلك كان مجرد تمويه لاغير.

حملت السلطات الفرنسية بمكناس، أعضاء الحركة الوطنية بالمدينة مسؤولية تنظيم وقيادة المظاهرة بعد فشل المفاوضات مع الإدارات المعنية بمسألة توزيع مياه بوفكران في آخر اجتماع بتاريخ 31 غشت 1937 حسب ادعاء المسؤولين الفرنسيين، وقد تعرفت أجهزة المخابرات الفرنسية على بعض زعماء الحركة الوطنية الذين قادوا هذه الحركة، أمثال : أحمد بن شقرون، ومولاي ادريس المنوني، ومحمد بن عزو، ومحمد ولد مدان السلوي، وأمحمد الطاهري، ومحمد الأجاني وغيرهم، وكان من بين المتظاهرين أحد الفرنسيين اليساريين الذائع الصيت في الأوساط النقابية بمكناس واسمه ادmond بلان.

- Plain (Admond)

رجع المتظاهرون إلى حال سبيلهم، واتفقوا على عقد اجتماع بالمسجد الأعظم عند العصر من نفس اليوم، لانتظار أعضاء اللجنة التي انتدبوها للاجتماع مع الباشا زوال ذلك اليوم، لكن هذا اللقاء لم يؤد إلى نتائج ايجابية، فعاد ممثلو الأمة المكناسية حاملين معهم خيبة الاتصال، فزاد غضب المكناسيين. وحوالي الساعة الثامنة مساء، وبالاتفاق مع الإقامة العامة بالرباط، اتخذت السلطات الإقليمية بقيادة الجنرال كايو Caillault، القائد العسكري للإقليم والمراقب المدني روني برونيل Brunel (René)، والباشا أحمد السعيد، قرارا يقضي باعتقال زعماء المتظاهرين، وبعد مناقشات استمرت إلى منتصف الليل بمقر الناحية، اقترح رؤساء المصالح بمكناس لإلقاء القبض على ما يزيد عن ستين مكناسيا، لكن في نهاية الأمر تقرر اعتقال خمسة منهم وهم : أحمد بن شقرون، محمد بن عزو، وهما من زعماء الحزب الوطني بمكناس، ومحمد بن أحمد براءة وهو زعيم قومي بنفس المدينة، ومحمد ولد مدان السلوي وموي ادريس المنوني اللذين لم يكن لهما التزام سياسي واضح.

أعطى الجنرال كايو أوامره للباشا أحمد السعيد لإصدار حكمه عليهم بثلاثة أشهر سجننا صباح يوم الخميس 2 شتبر 1937، في الوقت نفسه تقرر توزيع القوات القمعية بالمدينة صباح ذلك اليوم، تحسبا لأي رد فعل يقوم به السكان، وقد عت هذه القوات في أهم المناطق الاستراتيجية بالمدينة ك :

باب بوعماير، وقنطرة البرتغال لمنع المكناسيين من التوجه الى حمرية، وبالسجن المدني ومحكمة الباشا ثم بالزيتون وسيدي بوزكري لتطويق المدينة وفصلها عن ضواحيها.
وأخذت هذه القوات الفرنسية المدججة بأحدث الأسلحة واقعها على الساعة 8,30 صباح يوم الخميس، طبقا لما جاء في الخطة التي رسمها الجنرال كايو، وقام بتنفيذها الجنرال بوثي Petit.

مظاهرة ثاني شتبر الدموية :

عند الفجر أخبر المقدمون «الزعماء» الخمسة المزمع اعتقالهم بأمر الحضور الى محكمة الباشا على الساعة الثامنة والنصف، وبعد حضور هؤلاء «الزعماء» «في الوقت المحدد، نطلق الباشا في حقهم بالحكم التالي : «راهم حكموا عليهم بثلاثة أشهر سجننا» وهو بذلك يشير الى الفرنسيين.
وبعد النطق بالحكم، نقل المحكوم عليهم إلى السجن المدني بسيدي سعيد لقضاء هذه المدة، وحرك المتهمون طبقا لظهير 29 يونيو 1935، الخاص بالمحافظة على النظام العام، وكل ما من شأنه تهديد أمن الدولة : «كل من يمرض بأي محل كان وبأية واسطة كانت على المقاومة الفعالة أو الهادئة... وكل من يحث على الاطلاق وتشويش البال أو على المظاهرات... يعاقب بالسجن من ثلاثة أشهر الى سنتين وبذعيرة قدرها 500 فرنك الى ألف فرنك أو بإحدى هاتين العقوبتين فقط...» (21).

والواقع أن المكناسيين «جميعا» كانوا مسؤولين عما حدث، وليس الزعماء الخمسة فقط : «... ولما سمع المكناسيون بهذا الحكم الجائر اجتمعوا رجالا ونساء وتوجهوا للمسجد الأعظم... وعينوا جماعة منهم للذهاب عند الباشا يسألونه — كذا — عن الجريمة التي استوجب بها الأشخاص الخمسة... السجن... إن كان من قام يطلب حقه يعد مجرما وبوضع في السجن فإن جميع سكان مكناس مجرمون... والسجن والموت أحب اليهم من أخذ مائهم...» (22).

كان رد فعل السكان سريعا بعد نقل «الزعماء» الى السجن، فاجتمعوا بالمسجد الأعظم لتحديد موقفهم، بحكم أن المسجد كان بمثابة مقر لتدارس المشاغل اليومية لأهل مكناس، وطلب أعضاء الحركة الوطنية من المجتمعين بالمسجد التوجه الى باب محكمة الباشا وإلى ساحة الهديم، في الوقت نفسه حاولت لجنة من الوطنيين الاتصال بالباشا لاستفساره عن سبب سجن إخوانهم فلم توفق : «... فوجدوا القوة العسكرية خيلا ورماتا — كذا — واقفة بسائر الطرق الموصلة لمحكمة الباشا فردوهم بكل قوة وعنف ومنعوهم من الوصول الى الباشا وضربوهم بسراير المكاجيل ضربا بليغا سالت منه الدماء... ولم يتحاشوا عن ضرب النساء — كذا — والصبيان...» (23). ولما رأَت الجماهير المحتشدة أمام محكمة الباشا ما لقيه ممثلوهم، اندفعت في اتجاه القوات الفرنسية غير عابئة بما يصيبها من مكروه، وكأن عدد هذه الجماهير ما بين 3000 و4000 شخص حسب الرواية الرسمية، وأزيد من 15.000 متظاهر حسب التقديرات المغربية، خاصة إذا علمنا أن يوم المعركة صادف عقد السوق الأسبوعي بالمدينة، وتوافد العديد من «السواق» من الضواحي الذين انضموا الى السكان الحضريين، أدرنا كثرة عدد المشاركين في هذه المظاهرة الدموية.

حاولت القوات الفرنسية تفريق المتظاهرين الذين كانوا مسلحين بالهواوت والعصي والالآت الحديدية والفؤوس والحجارة، لكنها لو تستطع أمام هجومات وحماس المكناسيين الذين كانوا يرددون : «نريد اطلاق سراح إخواننا، الماء ماؤنا تفديه أرواحنا» فتراجعت هذه القوات الى باب منصور العليج والباب المؤدي الى السكاكين، بعدما أطلقت الجماهير عليها الرصاص حسب الزعم الفرنسي، مما اضطرها الى الرد بالمثل فنشبت معركة حقيقية بين الطرفين، استطاع خلالها الجانب الفرنسي تحقيق «الانتصار»، بعدما استفذ

الجانب الكناسي كل إمكانيات الاستمرار في المقاومة أمام القوات القمعية التي استعملت كل أسلحتها ضدهم، بدأ بالغاز المسيل للدموع وإنهاء بالطائرات.

ولم تحل الساعة 12،30 زوالا حتى كانت القوات الفرنسية تسيطر على الموقف، وانشغل المكناسيون زوال ومساء يوم المعركة بدفن موتاهم وأسعاف جرحاهم، وقد أفتى أحد «علماء» المدينة بإقبار الضحايا بلباسهم لأنهم شهداء لا يغسلون ولا يكفنون، وتمت قراءة القرآن وصلاة الجنائز عليهم، بعد نقلهم الى المسجد الأعظم مع عدد من الجرحى، وأثناء قراءة القرآن قدم رئيس البحث السياسي بمكناس المسمى صالح التونسي، واستدعى ثلاثة وطنيين لمقابلة الباشا ورئيس المصالح البلدية، اللذان طلبا منهم عدم إخراج حنازة سعيد الاسلامي — وهو أحد اليهود الذين أسلموا آنذاك — من المسجد علانية نظرا لقلّة الأمن، ولأن النفوس مازالت هائجة، كما أبلغا الوطنيين الثلاثة بحل مشكلة مياه بوفكران نهائيا لصالح السكان، ووعدوهم بإطلاق سراح «الزعماء» الخمسة، مقابل إلغاء قرار الاضراب الذي دعا اليه لمدة ثلاثة أيام. ويظهر من هذه الوعود الإيجابية أن الغاية منها كانت تكتيكية، لتهدئة الأوضاع لاغير.

كان يوم الخميس ثاني شتنبر 1937 يوما داميا لم تشهد المدينة مثيلا له في تاريخها الاستعماري قبل هذه السنة بشهادة المسؤولين الفرنسيين : «... وتسجل أنه لأول مرة حصلت في مكناس مظاهرة من هذا النوع...» (24).

وتكمن أهمية هذه المعركة — بغض النظر عن نتائجها — في تنظيمها السري المحكم، الذي غابت تفاصيله عن جهاز المخابرات الفرنسية على كثرتها : «... ويظهر أن تهيء هذه المظاهرات غاب عن السلطة لأنه كان في سرية تامة...» (25).

وكان وراء هذا التنظيم لهذه الأحداث مجموعة من الوطنيين الذين نظموا أنفسهم قبل هذا الوقت : «... وبأثر هذه المظاهرة المنظمة بايعاز من بعض العناصر التي تهدف إلى إثارة التهييج بين المسلمين على فرنسا...» (26).

كانت نتيجة هذه «المنجحة» مؤلة بالنسبة لبعض الفرنسيين الذين عاينوا الحدث : «إنها لنتيجة مؤسفة حقا، وكيف لا وقد تركت القتلى مجندلة في الشوارع منذ الساعة التاسعة صباحا ولم يسمح بأخذها حتى الساعة الثانية بعد الزوال... ولغاية الساعة الثالثة كان بعض الجرحى لا يزالون يلفظون النفس الأخير دون أن يقدم لهم أدنى إسعاف... (27) وقد صور أحد الشعراء المكناسيين وهو محمد بن عبود الذي كان شاهد عيان للأحداث نهاية المعركة بقوله :

منظر أرجواني وحمام تلك بطحاء الهديم سجل فيها
جثثا في الفؤاد منها كلام ترك المسلمون حول رباها
صوب النبل نحوهم السهام فإذا ما دنوا بعطف لحمل
انتهت هذه المعركة، فبقي نزيها الدموي يغذي المشاكل التي عرفها المجتمع المكناسي بعد 1937.

عواقب أحداث بوفكران :

أسفرت أحداث بوفكران عن مخلفات بشرية وعسكرية تمثلت في العديد من الجرحى في صفوف الطرفين المكناسي والاستعماري، وعدد من القتلى من بين المتظاهرين، كما فقدت القوات الفرنسية بعض أسلحتها.

الخسائر البشرية في صفوف أهل مكناس :

شملت هذه الخسائر أعدادا كبيرة من الجرحى ودونهم من القتلى، إذ لم تتفق المصادر على عدد موحد فيما بينها. كان أول المصابين أعضاء اللجنة الوطنية التي تكلفت بالاتصال بالباشا وبالمراقب المدني لاستفسارهما عن سبب اعتقال إخوانهم، فمنعتهم قوات القمع الفرنسية من الوصول الى المحكمة : «... ولم تردد هذه القوات في ضرب أعضاء هذه اللجنة بسرائر المكاحيل ضريا بليغا...» (28).

اختلفت المصادر في تقدير عدد الجرحى، فمنها ما أورد 19 جريحا وأخرى جعلتهم 40، وثالثة تحدثت عن مئات المصابين في صفوف المكناسيين، على هذا الأساس لم تضبط لوائحهم لأن العديد منهم لم يلتحق بالمستشفى قصد العلاج، لأن إحدى اللجن التي شكلها المكناسيون بعد انتهاء المعركة، كانت مهمتها الاعتناء بالمصابين الذين لم ينقلوا الى مستشفى سيدي سعيد، يضاف الى هؤلاء الجرحى، أن بعض المصابين غادروا مكناس للالتحاق بقراهم أو بمدنهم الأصلية دون أن يتم التعرف على هويتهم، وعلى هذا الأساس، تجاوز عدد الجرحى مائة من الأهالي، وهذا ما أجمعت على تأكيده الروايات الشفوية وبعض الوثائق غير الرسمية : «.. أما عدد الجرحى فيستحيل حصره أو ضبطه، ويتجاوز المائة من بينهم نساء كثيرات...» (29). ولقد دأبت الأوساط الرسمية على إخفاء حقيقة عدد الجرحى تحفيضا لولول الحادث، وهذا ما قامت به بالنسبة لعدد القتلى. إن اللائحة الرسمية الأولى للشهداء، كانت تضم ثلاثة عشر قتيلا دفنوا مساء يوم المعركة، والواقع أن عددهم تجاوز هذا الرقم، لأننا نعرف من خلال التقارير السرية، أنه لم يتعرف على أسماء بعض الجثث التي بقيت في الخندق الخاص بالأموات بالمستشفى، وحسب ما استطعنا استخراجها من أسماء من مختلف الوثائق، فإن عدد القتلى في صفوف الأهالي «بلغ 19 ضحية، وهذا ما اتفقت عليه جل المصادر المكتوب منها والمروي، ومع ذلك فإن هذا العدد بدوره لايعكس الواقع، إذا علمنا ضراوة المعركة من جهة، ومن جهة ثانية كثرة الأسلحة المتطورة التي استعملتها القوات الفرنسية في وجه الحشود الكثيرة من المتظاهرين، كما أن السلطات الفرنسية أذرت بالعقاب كل من أقام الجنازة علانية لدفن ضحايا الأحداث بعد المعركة، ونفس الكبت فرض على سكان البادية الذين أخذوا قتلهم تحت جناح الظلام سرا حتى لايعرف أحد بما حصل. وهكذا يبقى عدد القتلى دون الأرقام الواردة في التقارير الرسمية، كما جاء في بعض الشهادات المعاصرة : «... إن عدد القتلى الذي عد رسميا بعشرين، يتراوح حقيقة بين الأربعين والخمسين، ذلك أن عددا منهم أخذه أقاربهم ودفن خفية، خصوصا الأفاقيين، وليس هذا من الغرابة في شيء لأن الجنود أطلقوا أثناء الحادث ألفي رصاصة...» (30)، وإذا صحت هذه الشهادة — ونعتقد جازمين أنها صحيحة — فإن عدد القتلى كان مرتفعا كما هو مثبت في شهادة أخرى : «... وكل ما نعرفه أنه بعد الزوال جاءت شاحتان عسكريتان، جمعت من ساحة الهديم الجثث التي وجدت... ومنذ ذلك الوقت، والعديد من العائلات لم تر زوجا أو ابنا أو أختا...» (31).

والملاحظ أن الضحايا سواء من الجرحى أو الموقى كانوا ينتمون «طبقيا» للفتات الفقيرة كالحرفيين، والتجار الصغار، والفلاحين والعاطلين.

ومن النتائج المباشرة لأحداث بوفكران تعرض عدد كبير من الأهالي لعقوبات بالسجن أو الغرامة المالية، لمشاركتهم في هذه الأحداث، وتزاوجت هذه العقوبات ما بين شهر وخمس سنوات سجننا، أصدرها الباشا أو القاضي العسكري على هؤلاء الأهالي الذين وجهت اليهم تهمة «تشويش» أفكار السكان وتهديد أمن الدولة كما جاء في محاضر الجلسات والأحكام.

وإذا تعذر علينا ضبط عدد الضحايا في صفوف الأهالي، فإن الوثائق الرسمية تسعفنا في التعرف بدقة على الخسائر البشرية في جانب القوات الاستعمارية.

الخسائر البشرية والمادية في صفوف القوات الفرنسية :

تصنف هذه الخسائر الى صنفين :

« الجرحى من مختلف السريات والفرق العسكرية الفرنسية.

« الأسلحة التي فقدتها هذه القوات القمعية.

بالنسبة للجرحى، جاء في الوثائق الرسمية أن أحداث بوفكران أسفرت عن جرح 54 رجل من قوات حفظ النظام موزعين كما يلي :

46 من الجيش، و 4 من البوليس، و 4 من الدرك.

وكانت أغلب الاصابات في صفوف القوات الفرنسية بين الجنود المغاربة العاملين ضمنها. كما خلفت هذه الأحداث جريحا مدنيا واسمه إما فرانسوا (Francois) AMAT وقد نقل أغلب الجرحى من قوات القمع الى مستشفى لويس Louis العسكري بمكناس، وبعضهم الى مستشفى ماري فويي Marie-Feuillet بالرباط.

وأما فيما يتعلق بفقدان هذه القوات لبعض أسلحتها فالأمر يخص 250 قطعة حربية ثلاث فصائل فقط، ويضاف الى هذه الذخيرة البنادق والمسدسات والحرب والسيوف وأعمدها.

والواقع أن الذي أربك الأجهزة المسؤولة بمكناس بعد الاحداث، ليس هو كمية وعدد الأسلحة المفقودة، ولكن الخوف من احتفاظ الوطنيين بها وعرضها على السكان بالمسجد الأعظم، الأمر الذي كان من شأنه أن يزيد من حماسهم ويقوي لديهم روح الاستمرار في مقاومة السلطة بالمدينة.

وعموما كانت الخسائر البشرية والعسكرية ل : كيرة الماء لحلو، دون الحقيقة التي كتبها السلطة التي أرادت أن تخفف من قوة الحادث، وحصر تفاصيله بين أسوار مدينة مكناس دون انتشار صداه الى القبائل المجاورة لمكناس أو الى أهم المدن المغربية التي لم تدخر جهدا في التضامن مع المكناسيين، كما وصل هذا الصدى الى العواصم العالمية الكبرى آنذاك مثل باريس، لندن، روما، برلين، واشنطن، موسكو والى مقر عصبة الأمم بجنيف.

صدى أحداث بوفكران بالقبائل المجاورة لمكناس وبالمدن المغربية الكبرى :

انتشرت أخبار أحداث بوفكران بين القبائل المجاورة لمكناس، ولا سيما بهضبة سايس، وبجبال الأطلس المتوسط، وفي جل أنحاء المدن المغربية التي أعلنت قياداتها الوطنية عن تنظيم يوم وطني للتضامن مع المكناسيين، فكانت حركة تضامنية لم يشهد مثلها مغرب القرن العشرين قبل 1937.

صدى أحداث بوفكران بالقبائل المجاورة لمدينة مكناس :

وصلت أخبار هذه الأحداث الى هذه القبائل بواسطة «السواقة» الذين جادوا بصفة عادية لسوق الخميس الأسبوعي بمكناس، المنفذ التجاري المهم للقبائل المجاورة للمدينة، فبعد رجوع هؤلاء السواقة الى قراهم مساء يوم الأحداث أخبروا عائلاتهم بالمأساة التي عرفتها مكناس، فأصبح البدويون يتداولون أحداث بوفكران بنوع من المبالغة، ويضحون نتائجها ويشيرون أن أهل مكناس دخلوا في حرب مع الفرنسيين، وأن عدد الجرحى والقتلى يعد بالآلاف.

وكان المصدر الثاني الذي وصلت عن طريقه أخبار الأحداث الى قبائل الأطلس المتوسط، هو أعيان وتجار المنطقة الذين كانت تربطهم بسائقي الشاحنات التي كانت تنقل البضائع والخضر من مكناس الى قري ومدن الأطلس المتوسط، روابط تجارية وعلاقات وطيدة.

وهناك مصدر ثالث وهو وصول الجرائد الوطنية ك : عمل الشعب، والأطلس والمغرب... بطرق مختلفة الى سكان الأطلس، رغم الحصار الشديد التي كانت تضربه السلطات الفرنسية على تحرك الوطنيين، ومن بين الدعاة النشيطين المعروفين بنقل الأخبار الى سكان القبائل في مريوت : مولاي الطيب العلوي وعمه مولاي الشريف، و كان بعض التجار في أزرو يقومون بنفس المهمة، ونذكر منهم : سيدي علال، والحاج الجليلي، والحاج الحسين، ومولاي الكبير، والحاج لحسن وحميده الفيكيكي، يضاف الى هؤلاء المسمى بن داود وهو من قدماء المحاربين في صفوف القوات الفرنسية.

وكان الوطنيون بمكناس بعد أحداث بوفكران، قد وجهوا دعوة من منابر المساجد إلى إخوانهم بالوادي للقدوم الى المدينة للتضامن مع أهلها ضد الفرنسيين : «... تأكد انتشار دعاية وطنية بالمدينة وبالقبائل لاثارة السكان ضد الممارسات الفرنسية التي ذهب ضحيتها عدد من المسلمين...» (32).

ومن بين أهم القبائل المجاورة لمكناس التي وصلتها أخبار أحداث بوفكران، قبيلتنا بني مطير وزيان، فطالب الوطنيون من سكان هاتين القبيلتين التوجه يوم الجمعة 17 شتنبر 1937 الى مساجد مكناس للتعبير عن مساندتهم للأسر المنكوبة.

كان لانتشار أخبار أحداث بوفكران بالقبائل القريبة من مكناس صدى قويا، ومع ذلك فإن رد الفعل من قبلها سيطر عليه ما كان مفروضا عليها من ظروف العيش، ومن وسائل القمع الاستعماري، وبالرغم مما قيل عن حصول بعد أفراد القبائل على الأسلحة، فإن ذلك لم يؤد الى انتفاضة قبلية على السلطات الفرنسية، لأن قوات هذه الأخيرة كانت يقظة، وتسيطر على سكان البادية المغربية بعدما جردتهم من سلاحهم، وأمكنها بواسطة الطيران أن تمسح البادية مسحا تاما، وأصبح كل شيء في متناول مدافع الاستعمار، لذلك أحكمت هذه القوات قبضتها على قبائل الأطلس وبني مطير وجروان وغيرها.

صدي أحداث بوفكران بالمدن المغربية :

بادرت القيادات الوطنية في جل أنحاء المدن المغربية إلى تأييد سكان مكناس في حركتهم النضالية، وإدانة القوات الاستعمارية على ما ارتكبته من جرائم في حقهم، وهكذا اتصل الزعيمان — كل على حدة — علال الفاسي — الذي كان بالدار البيضاء أثناء الأحداث — ومحمد بن الحسن الوزاني — الذي كان موجودا بفاس — بالسلطات الفرنسية — وقدما لها احتجاجهما، كما عبرا عن هذا الاحتجاج أيضا في جرائدا هما الناطقة بلسان حزب كل منهما، فخصصت صفحات بكاملها من «العمل الشعبي» الناطقة باسم الحزب الوطني، وصدرت صفحتها الأولى بعنوانين بارزة مكتوبة باللون الأحمر، تحمل فيها القوات الفرنسية مسؤولية ما وقع في مكناس وتطالب بفتح تحقيق لمعاقبة الجناة الفرنسيين الذين كانوا السبب في اندلاع هذه الأحداث. (33).

وصدر نفس الاحتجاج في جريدة الدفاع الناطقة بلسان القوميين. (34) كما بعث علال الفاسي ومحمد اليزيدي برقية تضامن الى المكناسيين جاء فيها : «تضامن معكم في مقاومة الاستعمار... نعبير لكم عن شجبنا لما حدث للسكان الغزل في مكناس... نرجو أن تبلغ تعازينا لعائلات الضحايا وتضامننا مع جميع السكان بمكناس» (35).

وإضافة الى هذه البرقية أصدر الحزب الوطني بياناً مطولاً يتضامن فيه مع سكان مكناس، ومما جاء فيه :

«أيها المكناسيون، إننا إلى جانبكم.

الاستعمار النهم يثير مأساة دموية.

عشرات الموتى ومئات — كذا — الجرحى

... إننا متضامنون معكم والمصيبة التي نزلت بكم حلت بساحة سائر — كذا — مواطنيكم،

فلنثبت جميعاً في الكفاح لأن المستقبل لنا...» (36).

على إثر هذه الحركة الاحتجاجية التي قام بها الوطنيون في أغلب المدن المغربية تحرك سكان هذه الأخيرة في موجة عارمة التضامن مع أهل مكناس، لدرجة أن جماهير بعض المدن كانت على استعداد للتظاهر مساء الأحداث، فخرجت إلى الساحات العمومية في كل من مراكش، والدار البيضاء، وأزمور، ووزان، وبصفة خاصة في مدينة فاس، إلا أن قوات القمع الفرنسية أحكمت قبضتها على هذه المدن. وقد تقرر على الصعيد الوطني أن يكون يوم الاثنين 6 شتنبر 1937 «يوم التضامن مع مكناس»، وذلك بإقامة صلاة الغائب على أرواح شهداء أحداث بوفكران، وتنظيم مظاهرات سلمية تضامناً مع الشعب المكناسي، ففي فاس مثلاً تم إقفال المتاجر ذلك اليوم، وتوجه السكان إلى مسجد القرويين، فقرأوا القرآن. وأقاموا صلاة الغائب على ضحايا مكناس، ولم يتأخر الفاسيون في جمع المساعدات المالية وإرسالها إلى المكناسيين لاسعاف المتضررين منهم، كما أن الزعيمين علال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني وصلا معاً إلى مكناس للوقوف في عين المكان عن حقائق مجريات الأحداث.

ووقع بالرباط وسلا ما وقع بفاس زوال يوم الاثنين 6 شتنبر 1937، وخلدت الدار البيضاء هذا اليوم كما رسم له أعضاء الحركة الوطنية، ويؤكد هذا وصف أحد الوطنيين لتضامن البيضاويين كما يلي : «... وما وصلت الساعة الثانية عشر موعد الإغلاق (الاضراب) حتى كنت لا ترى إلا تضامناً تاماً بين سكان البيضاء... الكل يغلق بابه... وفي الساعة الثالثة اكتظمت مساجد البيضاء بالناس وبعد صلاة العصر أقيمت صلاة الغائب على أرواح شهداء مكناس...» (37).

وحاول الوطنيون تأطير السكان في كل من وجدة ومراكش لتنظيم مظاهرات في نفس التاريخ بعد إقامة الصلوات، لكنهم لم يتوقفوا نظراً ليقظة قوات القمع.

عبرت الحركة الوطنية — بهذا العمل التضامني — في جل المدن الغربية عن بداية نضجها، ومدى ما وصلت إليه من التنظيم السياسي، ذلك أن جل المدن لم تتخلف عن هذا التضامن : «واهتز المغرب من أقصاه إلى أقصاه... كان يوم التضامن 6 شتنبر هو اليوم الذي يعلن فيه المغرب بجميع طبقاته تضامنه مع مكناس... فقد مر يوم التضامن في كل البلاد من وجدة إلى مراكش على أحسن ما يرام... رغم هياج الجماهير البالغ الحد...» (38).

ووصل صدى تضام سكان المدن المغربية مع أهل مكناس إلى بعض عواصم العالم الكبرى وقتئذ، كباريس، وقد جاء في لوجور Le jour وهي إحدى الجرائد الصادرة في العاصمة الفرنسية بتاريخ 9 شتنبر ما يلي : «يمكن اعتبار هذه المظاهرات كأحداث جد خطيرة لأنه لأول مرة في المغرب يتم إقفال الدكاكين المغربية».

إن التأيد الذي عرفته القضية المكناسية لم يقتصر على سكان كبريات المدن المغربية، ولكن المغاربة

بالخارج في باريس ونيويورك أبرقوا إلى وزير العلاقات الخارجية الفرنسي عن طريق المقيم العام بالمغرب يحتجون على ما قامت به القوات الفرنسية من جرائم في حق المكناسيين، كما أن بعض الأحزاب العربية، كحزب الشعب الجزائري احتج بدوره، وتحلفت أحداث بوفكران ردود فعل مناوئة لحكومة الجهة الشعبية الفرنسية عند بعض الهيئات السياسية والحركات النقابية والمثقفين الفرنسيين داخل المغرب وفرنسا.

ومنذ هذه الأحداث ضاعفت حكومة الحماية من تشديد الحراسة على سكان المدن المغربية، خاصة بعد نجاح يوم التضامن مع مدينة مكناس، وبالرغم من هذه الحراسة والقمع المسلط على الوطنيين، فإن ذلك لم يمنع من حدوث اضطرابات خطيرة في جل أنحاء المدن المغربية، انتهت بفضيحة ركائز وأركان قادة الحماية، مما دفعهم إلى اعتقال ونفي زعماء الحركة الوطنية المغربية.

خلاصة واستنتاجات :

إن الأحداث التي شهدتها مدينة مكناس في بداية شهر شتنبر 1937، جاءت نتيجة للوضع العام الذي كان يعيش عليه المجتمع المكناسي، وكذا نتيجة للتحويل الاقتصادي والاجتماعي الذي كان عليه المغرب قبل سنة 1937، خاصة وأن جل السكان المجاورين لمكناس فقدوا أرضهم، فهاجروا إلى المدينة طلبا للرزق وفرارا من الاضطهاد بعد أن أخذت منهم أراضيهم، وكان في ذلك الاحتشاد سببا للبحث عن وسائل جديدة لمقاومة الاستعمار، وهو ما قامت به الحركة الوطنية الناشئة بمكناس التي قادت أحداث بوفكران، وهكذا أصبح ناقوس الخطر الذي هدد الوجود الفرنسي بالمغرب ينطلق من المدن التي ظلت هادئة قبل 1937، بل يمكن القول أنها انقادت للاستعمار (39)، في الوقت الذي كان فيه سكان البادية يقاومونه.

إن أحداث بوفكران تجاوزت مستوى الحدث التاريخي إلى العامل التاريخي الذي يؤثر في مجرى الأحداث، ويكون منعدجا خطيرا، بما تسبب فيه من تحويل في مجرى تاريخ المغرب في عهد الحماية، حيث انتقلت المقاومة المغربية — نهائيا — للاستعمار الفرنسي في تجربة بوفكران من البوادي إلى المدن التي تسلم أهلها بسلاح الفكر والمقاومة السياسية والدينية التي لا قبل للمستعمر بها (40)، ولكأن مدينة مكناس أعطت الانطلاقة للمدن المغربية الأخرى، لتعب صراحة عن موقفها الراض للاستعمار، بالرغم من هزيمة المكناسيين في هذه المعركة التي تجاوز صداها المستوى الوطني إلى العواصم العالمية المعنية بأمر المستعمرات الفرنسية آنذاك.

الهوامش

- (1) للمزيد من التفاصيل عن هذه الأزمة انظر : Le Maghreb-Revue, 1ère année n° 3, septembre 1932 « La crise économique du Maroc » par Kaddour
- (2) انظر : الأطلس جريدة — السنة الأولى، العدد 11. التاريخ 30 — 4 — 1937.
- (3) نشأت مدن الصفيح بمكناس في مطلع الثلاثينات من هذا القرن بـ : برج مولاي عمر، والفخارين، وللمزيد من التوضيح في هذه النقطة أنظر : Franchi (Jean) : Urbanisation d'un bidonville, Bordj Moulay Omar. Rapport d'urbanisation dans B.E.S.M. n° 83, 3^e trimestre 1959 p. 255-91.
- (4) محمد برادة — أحد الزعماء الخمسة الذين اعتقلوا يوم الخميس 2 شتنبر 1937، بعث بمقال مطول إلى محمد الزبيدي — مدير جريدة الأطلس آنذاك — بتاريخ 29 ذي القعدة 1355 (1936) تحت عنوان : «إلى من يدهم الحل والعقد» تتوفر على نص هذا المقال بخط يد صاحبه.
- (5) المقال السابق
- (6) مقال لـ : عبد الهادي الشرايبي تحت عنوان : «الصناعة المغربية تتطلب تدابير حازمة وسريعة». تتوفر على نسخة مصورة من هذا المقال.
- (7) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس 1956 — 1912
- Archives du protectorat. Meknès 250 D.I — antique (1935-1945) Région de Meknès 1935 — 1946 Oued Boufekrane.
- Chemise : Archives. D.A.P. classement 44 Meknès Oued Boufekrane 1° K Emeutes Meknès, septembre 1937 M²/a Maroc.
- مراسلة سرية للمراقب المدني ورئيس المصالح البلدية بمكناس روني برونيل إلى الجنرال كايو بتاريخ 9.9.1937 تحت رقم R.B/4R154/C
- (8) مراسلة لـ : الطاهر البعاج إلى مدير جريدة الأطلس، بعنوان : «مكناس تحت الأهراب من أجل الضرائب» جمادى الأولى 1356».
- (9) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية — سابقا — المراسلة السرية السابقة.
- (10) المصدر السابق : تقرير إجمالي للجنرال كايو من فاتح إلى خامس شتنبر 1937، بتاريخ 7 شتنبر 1937 تحت رقم 247%2.
- (11) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس — سابقا — مراسلة الجنرال نويس إلى وزير الشؤون الخارجي الفرنسية بتاريخ 10.10.1937، تحت رقم 1936 تحت عنوان : أحداث بوفكران.
- (12) المصدر السابق : تقرير إجمالي في موضوع : مياه بوفكران وروافده للقبطان ماتيو Mathieu بتاريخ 6.6.1914.
- (13) الجريدة الرسمية رقم 89، السنة الثالثة 10 يوليوز 1914 ص 530.529 أهم بنود هذا الظهير : «يعتبر من الأملاك العامة بالمغرب... كل أنواع مجاري المياه، والمنابع التي تغذيها، الآبار، البحيرات...»
- (14) أرشيف إدارة الأحباس بمكناس. مراسلة ناظر الأحباس الكبرى إلى رئيس البلدية، كناش المكاتب الصادرة ص 55 نصر 377 مكرر.
- 11 صفر 1341 موافق 1922.10.2.
- (15) وثائق الأشغال العمومية دائرة مكناس، التوزيع الهيدروليكي رقم 463، البحث عن أصول ملكية مياه وادي بوفكران، تقرير التوزيع بتاريخ 2.6.1932.
- (16) المصدر السابق : للمزيد من التفاصيل انظر : محضر الاجتماع المفصل المؤرخ بـ 23 يونيو 1934 تحت رقم 1.
- (17) المعمرون المعينون بالأمر هم : فرانس فيكتور France (Victor) بيير بييري Perret (Pierre) دوسطادو De Stadieu و لويس لارتيك Lartigue (Louis) إضافة إلى معمرين آخرين قرب مكناس سواء بسيدي بوزكري مثل : بول بوتان Buttin (Paul) وفالون Viallon أو أكسبوزيطو Exposito بقصبة بوفكران وغيرهم.

- (18) الجريدة الرسمية رقم 1268 بتاريخ 12 يراير 1937 ص 205 إلى 207، تتوفر على النص الأصلي مكتوب باللغة العربية — لهذا القرار، مصور وقد حصلنا عليه من وزارة الخارجية الفرنسية باريس.
- (19) الاطللس — جريدة — السنة الأولى، العدد 8 بتاريخ 1937.6.24.
- (20) ابن زيدان (عبد الرحمان) : الوثيقتان اللتان كتبهما عن أحداث بوفكران تتوفر عليهما مصورتين.
- (21) للمزيد من التفاصيل عن هذا الظهير أنظر : الفكهاني (حسن) الموسوعة المغربية في التشريع والقضاء، المجلد الرابع — أمن 7 — قوانين مغربية — أ — إصدار الدار العربية للموسوعات بالقاهرة. القاهرة 1981.
- (22) ابن زيدان (عبد الرحمان) : الوثيقتان السابقتان.
- (23) المصدر السابق.
- (24) ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس — سابقا — مذكرة شتبر 1937 حول أحداث مكناس — مسألة مياه بوفكران.
- (25) المصدر السابق، مراسلة الجنرال كايو بتاريخ 1937..2 تحت رقم 226%.
- (26) السعادة — جريدة — العدد 4471 بتاريخ 1937.9.4.
- (27) الدفاع — جريدة — السنة الأولى العدد 4 بتاريخ 1937.9.21 نقلا عن *Depêche de Fès* الدييش الفاسية مقال للمدير هذه الأخيرة *Débare* ديبار، بعنوان : «أحرار الفرنسيين يتحدثون عن مأساة مكناس»
- (28) ابن زيدان (عبد الرحمان) : الوثيقتان السابقتان.
- (29) تقرير ل روبر لوزون *Louzon (Robert)* بعنوان : «ملحمة مكناس» نشر هذا التقرير في مجلة : «الثورة البروليتارية» بباريس بتاريخ 1937.10.10. وتوجد نسخة منه مقرونة بأرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس — سابقا — تحت رقم 253.
- (30) الدفاع — جريدة — سابقا، نقلا عن *Dépêche de Fès* بتاريخ 1937.9.11.
- (31) تقرير لروبير لوزون — سابقا —
- (32) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس — سابقا — تقرير سري للمساعد كلودون *Claudon* قائد الدرك بمكناس بتاريخ 1937.9.9 تحت رقم 197/4C
- (33) العمل الشعبي — جريدة — *L'action Populaire 1ère année n° 21 samedi 4 septembre 1937 « Des événements sanglants à Meknès, la troupe tire sur la foule, quels sont les responsables ? »*.
- (34) الدفاع — جريدة — السنة الأولى، العدد الثاني بتاريخ 1937.9.7 «فاجعة مكناس العظيم، الشعب المكناسي يناضل عن حقه في الحياة».
- (35) تتوفر على نص البرقية باللغة الفرنسية — مصورة — وقد وجهت إلى الجليلي المزوار، وهو أحد الاعضاء النشيطين في الحزب الوطني انذاك بمكناس.
- (36) تتوفر على النسخة الاصلية لهذا البيان.
- (37) وثيقة غير منشورة — بحد علمنا — تحمل عنوان : «يوم مكناس بالبيضاء» تتوفر على النسخة الاصلية لهذه الوثيقة.
- (38) الوداد — جريدة — السنة الأولى، العدد السابع. 16 شتبر 1937.
- (39) عياش (جرمان) : تبيير حول رسالة الأستاذ بوشتي بوعسرية، أحداث بوفكران بمكناس، فاتح وثاني شتبر 1937. «مجلة دار النيابة السنة الثالثة العدد الحادي عشر صيف 1986 ص 22.

محور الثقافة والفنون والآداب

الثقافة بمدينة مكناس في حاضرها وماضيها

الأستاذ محمد العراشي
محافظ خزنة الجامع الكبير
مكناس

يشتمل الموضوع على المحاور الآتية :

- 1) التعليم بمدينة مكناس خلال القرن العشرين.
- 2) المراكز التعليمية، الكتاب، المدرسة، المسجد
- 3) حلقات الدروس وشيوخها
- 4) الخزانات العامة والخاصة.
- 5) المجلات والجرائد
- 6) وأخيرا مقتطفات من ديوان الشعر المكناسي.

المحور الأول : التعليم بمدينة مكناس خلال القرن العشرين

نظرا لكون المصادر التاريخية التي يمكن أن تعتبر مرجعا في هذا المحور قليلة جدا، فإنني سأعتمد أولا على ذاكرتي.

وثانيا على ما تلقيته من شيوخ الأقدمين بمكناس، وما شاهدته من نهضة علمية بالمدينة، انطلاقا من سنة 1354 هـ/1935 أي منذ ابتلاء دراستي الأولية بحلقات الدروس التطوعية التي كان يقوم بها طائفة من علمائها بالمساجد الكبرى والصغرى.

ومهما يكن من أمر فإن التعلم بمكناس في هذه الفترة وبالأخص التعليم العربي، كان يؤدي مهمته على أكمل وجه بالمراكز التي سأحدث عنها في المحور الآتي :

المحور الثاني : المراكز التعليمية

أ- الكتاب : كان التعلم الأولي للطفل بمكناس كما يغيرها في جميع مدن المغرب وقراه يتبدى من الكتاب (الجامع أو المسجد) إذ فيه يتلقى الطفل مبادئ القراءة وقواعد الرسم، ثم لإيقاد الكتاب حتى يكون قد حفظ القرآن الكريم بأكمله حفظا مثقنا، بعد أن يستظهره أمام فقيه المكتب مرارا وتكرارا، وفي حالة عدم تمكنه من ذلك يخرج من الكتاب وقد حفظ جملة مهمة من سوره وبالأخص المفصل منه.

وقد بلغ عدد الكتاب في الفترة التي أتحدث عنها، وإلى كان يتولى التعليم بها فقهاء مشهورين بحفظ

القرآن وتجويده، بالإضافة إلى استقامتهم وحسن سلوكهم نحو أربعين كتاباً.

(1) مكتب شيخ القراء وفي وقته، العالم الصالح، الأستاذ المقرئ السيد العربي بن جـ فضول ابن شمسي المتوفى في ثاني ذي القعدة عام 1905/1322 (1) الواقع بمحومة التوتة المحمول على سقايتها، وهو المعروف في التاريخ، بمكتب مسجد ابن جابر، محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى ابن جابر الغساني المكناسي شيخ شيوخ ابن غازي المتوفى سنة (827 هـ) 1424 م. فهو من أقدم الكتاتيب بالمدينة، لأن تاريخه يرجع الى العهد المريني أما حومة التوتة فهي من الأحياء السكنية في العهد المرابطي.

(2) مكتب معلمي الأول شقيق والذي سيدي عبد السلام بن أحمد العرائشي المكناسي المتوفى سنة 1931/1349 (2) تعلمت في مبادئ القراءة والكتابة في سن مبكر، ولم أعادته حتى حفظت كتاب الله العزيز حفظاً متقناً على يد خلفه السيد محمد بن العلمي الأجرائي المتوفى سنة 1976/1396 م ويعرف هذا المكتب بمكتب قبة السوق، ويقع قرب أحد أبواب قيسارية الحرير قبالة باب الخضصر، أحد أبواب الجامع الكبير الأحد عشر. وقد سبق الى التعلم به الفقيه محمد بن العياشي المتوفى عام 1909/1326.

(3) مكتب السيد محمد بن محمد القباب المتوفى سنة (1946/1365) يقع بمحومة صدارته قرب الزاوية الكتبية. وبعد وفاته انتقل اليه تلميذه السيد محمد بن العلمي الأجرائي السابق الذكر. وقد سبق الى التعليم به الفقيهان ج محمد كعيوش ومولاي الكبير الساطة.

(4) مكتب السيد محمد بن فضول السقاط المتوفى سنة (1942/1361) الواقع بزقاق القبابين والمعروف بمكتب مسجد سيدي عبد الواحد الأشقر (3) وقد تولى التعليم به صديقنا الأستاذ جـ عبد الهادي السقاط بعد وفاة والده وجعله نواة لمدرسة حرة ابتدائية اسمها جوار المكتب، وأطلق عليها اسم (مدرسة محمد السقاط).

(5) مكتب السيد محمد بن الطاهر الزهراوي المتوفى سنة 1944/1364 الواقع بدرب سيدي زروق من حومة الأخوخ (4) وقد تولى التعليم به بعد وفاته، ولده السيد الزهراوي العلمي مدير مدرسة القاعدة الجوية الابتدائية حالاً بمكناس الذي طوره فيما بعد الى مدرسة حرة ابتدائية أطلق عليها اسم (مدرسة الزهراوي).

(6) مكتب ضريح مولاي أحمد الشيلي (5) كان يعلم به أولاً صديقنا السيد الجيلاني بن محمد المزوار مدير (المدرسة الاسماعيلية) فيما بعد.

(7) مكتب سيدي عبد الله القصري (6) كان يعلم به ناظر الضريح السيد أحمد حجاج المتوفى سنة (1965/1384) يقع فوق ساباط قرب ضريح السيد.

(8) مكتب الزاوية الصادقية بمحومة التوتة. علم به أولاً الأستاذ عبد الهادي شيخ المفتى السيد محمد الهلالي ثم السيد عبد الله الصحراوي ثم السيد قدور الصحراوي يدعى «كنبورة» الذي كان يعلم به آخر حياته.

(9) مكتب حومة مولاي أحمد الشيلي المحمول على الساباط هناك.

(10) مكتب مسجد سيدي موسى قرب حومة التوتة ويرجع تاريخها الى العهد المريني وصاحبه الذي

ينسب إليه، هو موسى بن معطي العدوسي أحد العلماء المشهورين في عصره توفي بمكناس سنة (776 هـ/1375) (7) كان يعلم به السيد العربي يدعى ولد الكلالية.

(11) مكتب جامعي الصاية الواقع بمجومة براكمة، المحمول على ساباط هناك. كان يعلم أولا الفقيه الفلوسي يدعى لغشيم، ثم السيد أحمد بن السعيد، ثم السيد البادي بن العباس السقاط مقدم ضريح سيدي محمد بنعيسى.

(12) مكتب زاوية سيدي الحارثي بمجومة براكمة تولى التعلم به بطريقة عصرية الصديق محمد بن العلمي ابن رحال مدير مدرسة (الرشاد) الابتدائية الحرة فيما بعد، ثم انتقل منه الى مكتب مسجد سيدي الزوار بمجومة مدرب السلوى محمول على ساباط الدرب.

(13) مكتب درب العباسية، المحمول على ساباط جوار درب الطباله مدخله بدرب العباسية تولى التعلم به السيد ادريس اليوسفي والد المرحوم السيد أحمد مدير مدرسة الفتح الحرة بالزيتون.

(14) مكتب الزاوية التهامية الواقع داخل الزاوية. كان يعلم به السيد المحجوب بن ادريس بن المرابط مقدم الطائفة الجزولية بمكناس المتوفى سنة (1948/1367).

(15) مكتب سيدي بوكتيب يعلم به الآن السيد نعتيقي محمد

(16) مكتب سيدي يحيى المحمول على ساباط سي عق قرب باب الجديد. وهو من المساجد القديمة، بناه أبو زكرياء يحيى المعروف بالمريني سنة 1119/821 (8) يتولى التعليم الآن السيد أحمد العياشي الصنهاجي.

(17) مكتب مسجد سيدي مغيث قرب باب البرادعيين وصاحبه كما في الاتحاف مغيث أبو الفضائل زغبوش المكناسي القرشي (9) كان يعلم به الأستاذ محمد بن البشير الساوري أحد أساتذة السبع بمكناس البالغ عددهم وقته نحو 15.

(18) مكتب سيدي أحمد بن خضرا المحمول على ساباط درب السيد، تعاطى التعليم به السيد التهامي صنفنضلة ثم أخوه من بعده السيد ادريس (10).

(19) مكتب درب الجنان قرب حومة الوسعة، كان يعلم به السيد محمد بن المهدي الفلالي المتوفى سنة 1962/1381.

(20) مكتب تيزيني الكبرى. كان يعلم به الحاج المختار المصوري، ثم السيد محمد بن المهدي المذكور قبله.

(21) مكتب سيدي الحريشي يعلم به الآن السيد أحمد الصنهاجي. ويقع هذا المكتب أسفل عقبة الزرقاء وسيدي الحريشي المضاف إليه المسجد، هو أبو القاسم بن حبيب الحريشي أحد العلماء الذين أدركهم ابن غازي بالسن (11).

(22) مكتب سيدي حماموش يقع قرب مستشفى القسطلبي. كان يعلم به السيد قاسم النشواني. وحماموش هو أبو الحسن علي توفي في العشرة الثالثة من القرن العاشر. (12)

(23) مكتب زقاق القرموني المحمول على سلباط هناك. كان يعلم به مولاي ادريس البوعناني.

- (24) مكتب سيدي النجار بزقاق القرموني. يعلم به في الوقت الحاضر ج محمد المودني.
- (25) مكتب للا عائشة العدوية المحمول على الدرب الذي يقع به مشهدها. كان يعلم به السيد ادريس اجانا يدعى «زنيير» المتوفى 1353/1935. ثم السيد محمد بن الخيلاني البخاري (ودينة) المتوفى سنة 1397/1977.
- (26) مكتب مسجد درب سيدي هدى بحومة رحبة الزرع. كان يعلم به السيد الهادي بنشمسي المتوفى سنة 1372/1953.
- (27) مكتب تيبيرارين. كان يعلم به السيد أحمد العظيبي عم السيد بوشتي الغرباوي.
- (28) مكتب للا الزهرا. كان يعلم به السيد أحمد العظيبي السابق الذكر.
- (29) مكتب سيدي سلامة. يقع بجواره ضريح سيدي سلامة. آخر من علم به، مولاي عبد الله الوغاري المتوفى سنة 1399/1979.
- (30) مكتب حومة سيدي قدور العلمي المحمول على سقاية هناك.. آخر من علم به السيد عمر لكرامي أمام الزاوية التجانية.
- (31) مكتب درب الادريسين بحومة قبة السوق، آخر من علم به العدل السيد عبد القادر الصبري.
- (32) مكتب تريعين بحومة جامع النجارين. كان يعلم به ابا سيدي الضرير وكان قبل ذلك يعلم بمقصورة باب بردعاين ثم بزواية احمداشة ثم بجامع سيدي يحيى وكان يلمي على تلاميذه متن ابن عاشر ويكتبونه في آخر اللوحة.
- (33) مكتب باب بريمة. كان يعلم به السيد عبد السلام بن الهاشمي الاجراوي أحد التلاميذ شيخ القراء بمكناس السيد العربي بنشمسي السابق الذكر. وكان قبل ذلك يعلم بجامع الحجاج، ثم بللا العلمية ثم بمسجد باب عيسى.
- (34) مكتب روى مزيل الواقع حذو مسجد الشافية. كان يعلم به أولا للسيد الهادي الودغيري ثم ولده السيد محمد ويعلم به الآن ولده الثاني السيد عبد السلام.
- (35) مكتب مسجد باب عيسى (جامع المعلقة) المحمول على الساباط حذو الفران. كان يعلم به بطريقة عصرية، صديقنا مولاي رشيد بن عبد الله المتوفى سنة 1400/1980 وهناك مكتب آخر، محمول على الساباط المقابلة لدرب حمام الجديد كان متهدما ثم أعيد إليه التعليم بعد إصلاحه. ويعلم به الآن السيد العياشي الرهوني.
- (36) مكتب مسجد سيدي عمر وبوعودة كان يعلم البشير المتوني، ثم السيد ادريس غازي، ويعلم به الآن السيد المفضل الحسين الجيلي ابتداء من 1976.
- (37) مكتب الشاوية قرب الستينية بساحة للا عودة، كان يعلم به الشريف سيدي محمد ولد النقيب مولاي عهد الرحمن بن زيدان، ثم السيد مامان العلوي يدعى «الشخيص» ثم السيد العربي بصري.
- (38) مكتب سيدي بصري الواقع بالمقبرة داخل — ب — درب سيدي بصري آخر من علم به السيد محمد بن ادريس بصري.
- (39) قصر المدرسة بدار المخزن. ورد في ج. 1 من كتاب (العز والصولة) للمولى عبد الرحمن ابن

يزدان ص. 79 أن آخر من كان يعلم البنات به : الأستاذة المختار الجرواي ومحمد بن المهدي المنوني، والعربي ابن صالح النجار الحلموني.

(40) قصر المنحشة بدار المخزن أيضا. ذكر في المصدر أعلاه أنه كان يعلم به شيخ جماعة المقرئين الأستاذ الزيد، وأبو محمد عبد السلام النسب، والأستاذ ادريس بن محمد آل زكرياء الصبان.

هذه مجموعة الكتابات القرآنية التي أمكنني أخطها، وهناك كتابات قرآنية أخرى تقع بالأحياء المجاورة للمدينة، كحي سيدي عمور وباب ابن القاري ابن محمد، وقصبة هدراش، وأكدال والزيتون ولكن جل تلاميذها كانوا يتوجهون إلى المدينة للأخذ عن شيوخها، وبالأخص الذين يريدون أخذ القرآن بالقراءة السبعية. وقد اشتهر من أساتذة القراء السبعية.

السيد محمد بن أحمد الحميدي المتوفى عام 1364/1945 صاحب الصوت الرخيم، شيخا الجماعة بمكناس، السيد العربي بنشمسي، والسيد محمد بن فضول السقاط، ومولاي محمد العلوي دعي الخبيزي والفقير المفتي السيد محمد الهلالي. والأستاذ ابراهيم النسب وفي هذا الأثناء، كان بعض معلمي تلك الكتابات الفقهاء، يكتبون للطلبة الذين يستأنسون منهم الاقبال على طلب العلم بعض أبيات من متني ابن عاشر، وألفية ابن مالك بآخر اللوحة، يستظهرونها كل يوم بعد انتظام القرآن، فلا يغادر الطالب المكتب حتى يكون قد حفظ جملة وافرة من المثنيين.

ولقد ظل التعليم بالكتابات القرآنية مقتصرًا على تحفيظ القرآن الكريم، إلى أن وفق الله بعض العلماء المصلحين من هذه البلاد، فأعز إلى بعض طلبة تلك الكتابات الذين تخرجوا منها، وتوجهوا لطلب العلم أن يقوموا بإعطاء بدروس دينية أثناء العطلة الأسبوعية، عشية الأبعاء ويوم الخميس لكبار تلاميذ الكتابات.

وأول عالم قام بهذا العمل الجليل، هو شيخ الجماعة بمدينة مكناس العلامة السيد محمد بن الحسين العرائشي المكناسي المتوفى سنة 1351/193 فقد وضع توييفا في مبادئ التوحيد والفقهاء (درة الولدان في معرفة ما يجب على الأعيان) وطبعه بعض المحسنين على نفقته، ووزعه مجانا على فقهاء الكتابات، وطلب منهم أن يوجهوا تلاميذهم زوال يومي الأربعاء والخميس إلى جامع الكبير ليتلقوا عنه دروس مؤلفه.

وقد أعطى عمله نتائج طيبة، حيث تضاعف إقبال المتخرجين من تلك الكتابات على طلب العلم بحلقات دروس مساجد مكناس وجامعة القرويين.

وفي حدود الثلاثينات، أوائل نشأة الحركة الوطنية، انتشرت فكرة إنشاء كتابات قرآنية منظمة، تضيف إلى تعليم القرآن الكريم تعليم مبادئ الدين والعربية والحساب وكان من أوائل القائمين بهذا المشروع الأستاذة محمد بن العلمي ابن رحال والجيلالي بن محمد الزوار، ورشيد بن عبد الله المنوني السابقوا الذكر.

وقد صادف عملهم سندا شعبيا. وكما يذكر التاريخ فقد كان من جملة برنامج جلالة المغفور له محمد الخامس عند زيارته لمدينة مكناس، زيارة مكتبي ابن رحال والمنوني وقد سر بالبرنامج الأدبي الذي أعده فقيه كل مكتب على حدة وشارك فيه الأطفال بكلمات ترحيبية وأناشيد حماسية، الشيء الذي قوى معنوية القائمين بالتعليم بها (13)، أما في وقتنا الحاضر، فقد تضخم عدد الكتابات، بعد ما أصبحت وزارة التربية الوطنية تشرف على سيرها وتراقبها من الناحيتين : التعليمية والتربوية، ووضعت لها منهاجا تعليميا، ورتبت لمراقبتها مرشدين تربويين وأصبح لايتولى التعليم بها إلا من امتحن في حفظ القرآن وتجويده من طرف القاضي

الشرعي، وعضو من أعضاء المجلس العلمي بمكناس. وحدد سن دخول الأطفال إليها في خمس سنوات والخروج منها إلى مدارس التعليم الرسمي في سبع سنين، وفرضت على المعلمين بها رسوم تتراوح ما بين 5 و10 دراهم. كأجرة لمعلم المكتب ومساعدته.

وبلغ عددها في الوقت الحاضر 644 مكتبا وعدد أطفالها بالأقليم 22164.

ب - المدرسة :

بعد احتلال فرنسا لمدينة مكناس (14) انشئت أول مدرسة حرة لتعليم العربية والفرنسية، بدار مولاي سرور برحبة الزرع خاصة بأبناء الأعيان بمقابل رمزي يؤديه التلاميذ وكان يعلم بها الفرنسية، معلمون فرنسيون، والعربية السيد الهادي بنشمسي السابق الذكر، والعدل مولاي اسماعيل بن سليمان العلوي المتوفى عام 1962/1381 تم العالم السيد بنعيسى بن بوسلهام الخلطي البوجونوني المتوفى سنة 1963/1382. وحصل أول فوج من هذه المدرسة على الشهادة الابتدائية سنة 1915 كان من بينهم محمد الحاج عبد الرحمن السرغيني والسيد محمد النسب والسيد محمد بن ج محمد الستيسي خليفة الباشا سابقا (15) ثم بعد ذلك انشئت مدارس ابتدائية وثانوية مزدوجة اللغة كان للغة الفرنسية فيها حصة الأسد.

بعد ذلك جاء دور تأسيس المدارس الحرة التي كانت اللبنة الأولى في محاربة الاستعمار الذي حاول القضاء على اللغة العربية بجميع ما يملك من وسائل، فأنشئت المدارس الحرة بجميع أنحاء المغرب، بمساعدة المغفور له جلالة محمد الخامس والمخلصين من أبناء هذا الوطن، ووضع لها برنامج باللغة العربية.

وكانت الوزارة التي تشرف عليها تابعة للقصر الملكي مباشرة، فكانت الرسائل تبعث إلى مديري تلك المدارس باسم «نيابة الصدارة العظمى في التعلم الاسلامي» وهي التي تنظم سير امتحانات المرور إلى ثانوي التعليم الأصلي، الحر والمعربين.

وتجد الآن من بين المتخرجين من تلك المدارس، علماء، وأطباء، ودكاترة، وأساتذة جامعيين وقضاة وعدولا الخ.

وتتبع تأسيس المدارس الحرة بمدينة مكناس، فبلغ عدد الأصل والفرع 12 مدرسة.

1) مدرسة النهضة الاسلامية الواقعة بباب الحجر قرب مشهد سيدي علي منون.

أسسها محمد الخامس من ماله الخاص به، وأوقف على سير التعليم بها بعض أملاكه وذلك سنة 1945/1364 وكان أول مدير لها هو الأستاذ مولاي مصطفى العلوي رئيس المجلس العلمي لاقليم مكناس حاليا، وقد كان التعليم بها أولا ابتدائيا ثم أضيفت إليه بعض الأقسام الثانوية تم انشاء لثانويها فرع بحج المرس. وفي عهد الاستقلال بنيت لها بناية خاصة بها بطريق الحاجب، واقتصر التعليم بها على الثانوي بعد أن أدمجت جميع أطرها بأسلاك وزارة التربية الوطنية.

2) المعهد المحمدي أسس في 18 صفر 2367 فاتح يناير 1948 وتولى إدارته كاتبه محمد بن عبد القادر العرائش. كان موقعه الأول يدرج سيدي زروق من حومة الأخوخ بدار الفقيه القاضي محمد بن ادريس العلوي وشقيقه مولاي عبد السلام باشا مدينة زرهون سابقا تم نقل إلى مدرسة السيد عبد السلام بوزويع. برحبة الزرع التي ضمت أخيرا إلى مدرسة درب السلوى من فاتح نونبر 1952 إلى ميم دجنبر 1953 من

أجل إجراء إصلاحات محلية بالمركز الأول.

وفي ربيع الثاني 1381 الموافق أكتوبر 1962 نقل الى روض مولاي اسماعيل بن العباس العلوي بساحة للاعودة.

وفي 15 رمضان 1394 الموافق فاتح أكتوبر 1975 توقفت الدراسة به، ونقل كاتبه للعمل مع وزارة الشؤون الثقافية. فعين أولاً رئيساً لقسم المخطوطات بجزارة الجامع الكبير بمكناس. ثم محافظاً للخزانة..

(3) فرع المعهد المحمدي خاص بالبنات أطلق عليه اسم مدرسة (الأميرة عائشة) اسس بحوار المعهد المحمدي 1951/1370.

(4) مدرسة محمد السقاط بحومة مولاي أحمد الشبلي.

أسست سنة 1946/1366 وتولى إدارتها السيد ج عبد الهادي بن محمد السقاط. وتوقفت الدراسة بها بعد أن نقل مديرها الى إدارة مدرسة رسمية ابتدائية بأثوراي ثم الى مدرسة ابن حزم بحي البرج الى أن أحيل على التقاعد سنة 1398 هـ/1979.

(5) المدرسة الاسماعيلية أسست أولاً بحومة تيربارين، وتولى ادارتها السيد الجيلالي بن محمد المزوار تم نقلت الى حومة سيدي قدور العلمي، تم الى مدرسة درب مولاي الطيب بحومة زقاق القرموني. وبعد بلوغ مديرها سن التقاعد تولى ادارتها السيد أحمد اليوسفي مدير مدرسة الفتح بالزيتون. وبعد انتقاله لإدارة مدرسة برج النعامة الرسمية بأكدال توقفت الدراسة بها.

(6) فرع المدرسة الاسماعيلية بدار المجدوبي بباب عيسى. كان يتولى النيابة فيها عن المدير القاضي حالياً الحاج العيسوي المسطاسي.

(7) مدرسة الرشاد بدرب السلوى حومة جامع الزيتونة. يتولى إدارتها يردد الفداس كل يوم ..

أسسها مديرها السيد أحمد بن العلمي ابن رحال وتعد أقدم مدرسة حرة بمكناس ولما بلغ مديرها لسن التقاعد بقي التعليم بها مقتصرًا على الأقسام التحضيرية الى غاية تاريخه.

(8) المدرسة الحسنية أسسها مديرها السيد محمد بن عبد الرحمن العلوي بمنزله أولاً بحومة صدارته تم نقلت الى طريق سيدي حماموش قرب الحبول، وبعد ما بلغ سن التقاعد سنة 1406 هـ/1985 م بقي التعليم بها مقتصرًا على الأقسام التحضيرية.

(9) مدرسة الزهراوي. أسسها مديرها السيد العلمي بن محمد الزهراوي بمقر مكتبته السابق الذكر. وبعد التحاقه بمدارس التعليم الرسمية توقف التعليم بها.

(10) المدرسة الادريسية أسسها مديرها السيد عبد القادر الصبري بحي بريمة. وبعد أن عين عدلا توقف التعليم بها.

(11) مدرسة الفتح بحي الجبابرة بالزيتون تولى إدارتها أولاً السيد أحمد بن ادريس اليوسفي المتوفى ليلة الاثنين 8 رمضان 1395/15 شتنبر 1975 ثم مديرها الحالي السيد البرزال عبد الله بعد أن انتقل مديرها الأول الى المدرسة الاسماعيلية كما سبقت الإشارة إليه.

12) مدرسة ابن خلدون أسست سنة 1947/1366 وتولى إدارتها السيد يوسف الغالي وبني سنة 1950 توقفت الدراسة بها. وكان موقعها بحي سيدي بوخيزة.

وقد نالت هذه المدارس حظها الأكبر، أيام الاستعمار من الحاربة والتصفيق، فكانت تراقب مراقبة صارمة من طرف السلطات الاستعمارية، وكان يستدعى مديروها بين الفينة والأخرى للتحقيق معهم كلما بلغهم من طرف جواسيسهم، إن المدارس الحرة مراكز للاجتماعات السياسية، فتهددهم بالسجن والنفي إن استمروا في اطلاق راحة الإدارة، ولكن ذلك التهديد كان ينفخ روحا جديدة في المسيرين لتلك المدارس ويقوى عزائمهم، ويكفى أن أقول إنه كان باب :

كناطح صخرة يوما ليوهيا : فلم يضرها وأوهي قرنه الوعل
وزيادة في سياسة القمع، فقد وجهت الإدارة الى مديري تلك المدارس رسائل عقب نفي جلاله المغفور له محمد الخامس مع أسرته، مؤرخة ب 26 شتنبر 1953 وموقعة من طرف مدير التعليم العمومي (طابو) تتضمن أن الحكومة كلفت ادارة التعليم العمومي بالقيام بمراقبة المدارس الخصوصية الاسلامية، والكتاتيب المجددة، بتوزيع الاعانات على المؤسسات التي تحتاج الى إعانة، وأنه يجب أن يلغى من التعليم جميع المسائل السياسية، كما هو الشأن في المدارس العمومية.

وكانت تتلقى التشجيعات المادية والأدبية من طرف المغفور له جلاله محمد الخامس فكان يدشن بعض المدارس عند افتتاحها إما بنفسه أو بواسطة ولي عهده مولاي الحسن (جلالة الحسن الثاني) وشقيقته الأميرة للأعائشة.

ففي مدينة مكناس، دشن ولي العهد مولاي الحسن (جلالة الحسن الثاني) مدرسة النهضة الاسلامية التي اشترها محمد الخامس من ماله الخاص به كما سبقت الاشارة إليه. وألقى بها خطبا رجعيا في يوم السبت 4 ذي الحجة 10/1364 نونبر 1945.

وفي سنة 1946 دشن كذلك ولي العهد مدرسة محمد السقاط وألقى بها خطابا هاما سلم لمديرها بعده منحة مالية ملكية.

وفي مدينة الدار البيضاء، دشن ولي العهد كذلك، القسم الداخلي للمدرسة الحسنية في 6 ذي القعدة 2/1365 أكتوبر 1946 وذلك بمناسبة زيارة محمد الخامس للبيضاء.

ومدينة فاس دشت الأميرة للأعائشة، مدرسة البنات الحاملة لاسمها، والتي كان يتولى ادارتها الأستاذ العالم محمد بن عبد الله الشاواني مدير مدرسة ابن غازي وذلك بتاريخ الأحد 10 ذي القعدة 1965 / 6 أكتوبر 1946. وألقت بالمناسبة خطابا سامية سلمت عقبه منحة مالية ملكية الى مدير المدرسة.

وباقى المعلومات عن هذا الموضوع يرجع فيها الأصل هذا الملخص.

نعم لقد أدت مدارس التعليم الحر مهمتها على أكمل وجه، في الوقت الذي كانت فيه المقاومة الغربية محتاجة الى سند قوي، لكن لما استقل المغرب، وأدخل إصلاح جذري على التعليم، وفتحت عدة مدارس في المدن والقرى، ضعف الاقبال على التعليم الحر المعرب واضطراب جل مدارس التعليم الحر بمكناس الى إغلاق

أبوابها، والتحق موظفوها إما بمدارس الرسمي، أو بأطر الدولة، التي طلبت الاستفادة من خبرتهم وكفاءتهم. وفي الستين الأخيرة، ظهر هذا النوع من التعليم في شكل جديد فأعطت وزارة التربية الوطنية عدة رخص لفتح مدارس حرة، ابتدائية وثانوية، وذلك للتخفيف من الضغط الواقع على مدارس التعليم الرسمي بسبب النمو الديموغرافي. وقد وقع تنافس كبير في هذا الميدان، ففتحت عدة مدارس، لأنها أصبحت تدر على أصحابها أرباحا مهمة، وبلغ عددها في الوقت الحاضر حسب الاحصاء المسجل بدليل المؤسسات التعليمية للسنة الدراسية 1986/85 الذي وضعته نيابة التعليم بمكناس.

الابتدائي : 27 مؤسسة عدد التلاميذ 1520

الثانوي : 9 ثانويات عدد التلاميذ 2905

وما دمت بصدد الكلام على الاحصائيات فإني أرى من المناسب تعميما للفائدة، أن يشمل هذا الاحصاء عدد ابتدائيات وثانويات التعليم الرسمي وعدد التلاميذ والطلبة بها بمكناس حسب الدليل المشار إليه :

الابتدائيات : 62 عدد التلاميذ : 76850

الثانويات : 8 عدد التلاميذ : 15195

الاعداديات : 20 عدد التلاميذ : 32884

أما رياض الأطفال ودور الحضانه، فيبلغ عددها 10 وعدد الأطفال بها : 2700 تقريبا والذي يتولى إعطاء الرخص لفتحها هي مندوبية الشبيبة والرياضة وأخيرا نالت مدينة مكناس حظها من التعليم الجامعي.

ففي 3 محرم 1403 الموافق 21 أكتوبر 1982 دشن وزير التعليم الدكتور عز الدين العراقي كليتان بمكناس كلية للآداب والعلوم الانسانية وكلية العلوم بباب القزدير (حي الزيتون) وهي الآن تؤديان مهمتهما على أكمل وجه.

ج - المسجد : كانت المساجد بالمغرب ولا تزال مراكز إشعاع لثقافة عامة شاملة وكان لمساجد مكناس دورها في هذا الميدان، فكانت أبوابها تظل مفتوحة في وجه الرواد من طلبة العلم. وكانت الأوقات التي تلقى فيها دورس المساجد، بعد صلاة الصبح وقراءة الحزب، ومن 8 الى 10 صباحا، وبين الظهرين والعشاءين، كل يوم عدى أيام العطلة الأسبوعية، الأربعاء والخميس، والجمعة، والأعياد الدينية، وأيام : 9 و 10 و 11 من شهر محرم، والنصف الأخير من شهر شعبان، كما تعطل الدروس ثلاثة أيام عند وفاة العالم. أما المساجد التي كانت تلقى فيها تلك الدروس فهي :

1) المسجد الأعظم (الجامع الكبير) 2) جامع الأنوار (سوق السباط) 3) المسجد العتيق (جامع التجارين) 4) جمع الزيتونة 5) الجامع التوتة 6) جامع الحجاج 7) مسجد سيدي قدرو العلمي 8) ضريح مولاي أحمد الشبلي 9) مسجد سيدي عبد الله القصري 10) جامع سيدي أحمد بن خضرا 11) مسجد باب ابن القاري 12) جامع للاخضرا بقصبة هدراش 13) مساجد المدارس الثلاثة البوعنانية، العدول، الفلالية

المحور الثالث : حلقات الدروس وشيوخها

مند أقدم العصور ومدينة مكناس تتوفر على علماء أكفاء طبقت شهرتهم الآفاق ساهموا في نشر

العلم على أوسع نطاق. ألفوا، درسوا، أفتوا، نسخوا نواذر الكتب بخط يدهم، تخرج على يدهم علماء، تربعوا على كراسي التدريس من بعدهم فأجادوا وأفادوا.

وكانت الدروس تلقى في المساجد على شكل حلقات تعقد لذلك، ويوكل اختيار دروس تلك الحلقات الى الطلبة، فهم عندما يشعرون باحتياجهم لقراءة فن من الفنون، يبحثون عن العالم الذي يحسنه، فيختارون من بينهم من يتوجه الى العالم ليطلب منه قراءته معهم، وبعد أن يتفق معهم على الكتاب، والزمان والمكان، يشرع في التدريس الى أن يأتي على نهاية الكتاب.

وزيادة في تمكن الرابطة بين العالم وطلبه، فقد كان بعض العلماء عندما يحتم الفن الذي يدرسه يقيم للطلبة بمنزله مأدبة غداء أو عشاء يستدعي لها بعض أصدقائه، تتلى عند نهايتها آيات من كتاب الله العزيز، وأمداح نبوية.

وقد برز من علماء تلك الحلقات في عصور مختلفة، علماء مشاركون في شتى الفنون ملئت بتراجمهم . التاريخ، وأكبر موسوعة تناولتهم هي كتاب «إتحاف إعلام الناس، بجمال حاضرة مكناس» للمؤرخ الشهير مولاي عبد الرحمن بن زيدان.

ومن بين الذين برزوا في علمي الأصول والفروع، الامام المحدث المطلع محمد بن القاضي محمد بن ورياش قال في درة الحجال: وكان يروي الحديث بها (مكناس) سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة في غالب ظني.

وفي علم الرياضيات، أبو سالم ابراهيم بن الأكلح السويدي المتوفى في ربيع الثاني سنة 1598/1006 حلاه ابن القاضي في درة الحجال، بالفقيه الفرضي الحيسوبي، وحيد عصره في علم الفلك والهيئة والتعديل.

وفي علم التاريخ: أبو المطرف أحمد بن عبد الله البلسني الشقوري. قال عنه في الاحاطة: كان نسيج وحده، إدراكا وتفنتا، بصيرا بالعلوم، محدثا مكثرا، راوية ثبنا، متبحرا في التاريخ والأخبار، توفي بتونس سنة 656 هـ/1258 م.

وفي علوم القراءات والتجويد: محمد بن عبد الرحمن بصري المتوفى سنة 1124 هـ/1712 م ورد اسر. به في الظهير الاسماعيلى المؤرخ بربيع النبوي عام 1112 حيث جاء فيه ومنهم (ذرية بصري) حامل راية الاقراء، وحقاقة الحفاظ والقراء، والفقيه الصدر، العالم العلامة الخ.

وقد بلغ عدد الذين كانوا يتقاضون مرتبات من الأعباس في القرنين 12 و 13 نحو السبعين ذكرهم بأسمائهم ابن زيدان في كتابه (العز والصولة)، في معالم نظم الدولة ج. 2 ص. 182 183 نجد من بينهم: أحمد العميري وأحمد ابن عزو، ومحمد البيجرى، ومحمد البوعصامي ومحمد ابن عزوز، ومحمد عثمان، والمفضل الفلوسي إلخ.

وفي القرن 14 بلغ عدد المرتبين من الأعباس عشرين، مصنفين الى ثلاث طبقات:

أولى وثانية، وثالثة. حسبها بالمصدر قبله، ص. 180 و 181.

فمن بين أهل الطبقة الأولى : القاضي أحمد الناصري، القاضي أحمد المدغري، القاضي احمد السوسي القاضي بسلا محمد بن ادريس العلوي، محمد بن ادريس الشيببي، عبد الرحمن ابن زيدان.

ومن الطبقة الثانية : محمد بن الطاهر بصري، العربي المنوني، وعبد المالك الشيببي.

ومن الطبقة الثالثة : محمد الحميدي، محمد ابن شمسي.

أما الفترة التي أشرت إليها في المحور الأول، ففيما يلي لائحة تتضمن أسماء بعض العلماء الذين كنت أحضر دروسهم، مع ذكر أسماء المساجد والفنون التي كانت تدرس بهما.

أ — الجامع الكبير — كان يعمر جميع أوقاته بالتدريس فيه شيخ الجماعة بمكناس محمد بن الحسين العراشي المكناسي المولود حوالي 1280 هـ/1864 م والمتوفى سنة 1351 هـ/1933 م أخذت عنه في سن مبكر، قواعد الاسلام بتويلفه (درة الولدان) الذي سبقت الاشارة اليه. وله تأليف أخرى نشر بعضها والبعض الآخر منها لازال لم ير النور. وكما كان يدرس بالمسجد الأعظم، كان يدرس بمستودع الموقت، وبمسجد سيدي قدور العلمي، ونسخ عدة كتب بخط يده.

ب — القاضي محمد بن أحمد السوسي المكناسي المولود عام 1869/1285 والمتوفى سنة 1950/1369 أخذت عنه أوائل ألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل وأجازني بسنده الى ابن مالك شعرا.

ج — القاضي محمد بن أحمد العلوي المولود بمدينة زرهون سنة 1871/1288 والمتوفى بمدينة مكناس سنة 1947/1367. حضرت بعض دروسه في شرح سورة البقرة بتفسير البيضاوي قبل وفاته بيسير وفي فترات أخرى من تاريخ توليته القضاء بمكناس، كان يدرس شمائل الترمذي والسيرة النبوية.

د — مولاي عبد الله بن الجيلاني العلمي دعي (جمعان) المتوفى سنة 1942/1361. كان يدرس به الفقه والنحو. وفيه أخذت عن أوائل مختصر خليل بشرح الدردير والنصف الأول من ألفية ابن مالك بشرح المكودي.

هـ — الحاج المختار بن محمد السنيني رئيس المجلس العلمي سابقا المتوفى سنة 1969/1389. كان يدرس به الفقه بتحفة ابن عاصم، ومختصر خليل بشرح الدردير والأصول بابن السبيكي والمنطق بشرح بناني والقويستي. وفيه أخذت عنه المنطق بالشرح الأخير، ومنظومة الاستعارة للشيخ الطيب ابن كبران.

و — السيد أحمد بن عبد السلام بن شقرون كاتب المجلس العلمي سابقا المتوفى سنة 1970/1390. كان يدرس له لأمية الزقاق في علم القضاء والعروض، وألفية ابن مالك بشرح الموضح. أخذت عنه فيه أوائل الفن الأخير بالشرح المذكور.

ز — الحاج الطاهر بن محمد بن الحسين العراشي السابق الذكر المتوفى سنة 1984/1404. درس به النحو بمقدمة ابن آجروم، والتوحيد والفقه بمجتبى ابن عاشر، وفيه أخذتها عنه.

(2) الجامع النجارين.

كان يدرس به نائب القاضي ومراقب الدروس بالمعهد المكناسي مولاي العربي بن محمد المنوني المولود أوائل عام 1895/1313 والمتوفى عام 1968/1388.

أخذت عنه ألفية ابن مالك بشرح المكودي من أولها الى باب العدد حيث توجهت الى جامعة القرويين لاتمام دراستي، والمقدمة السنوسية الصغرى في التوحيد بشرح البيجوري، وأخذ عنه فيه أكبر إخواني سيدي محمد أوائل تحفة ابن عاصم.

3) جامع سوق السباط

كان يدرس به عدة فنون الأستاذ محمد بن أحمد برادة المتوفى سنة 1959/1378. وأخذت عنه فيه اندو بمقدمة ابن آجروم في ختمتين متواليتين، وألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل والأربعين حديثا النووية بشرح ابن دقيق العيد، والمقامات الخمس الأول من مقامات الحريري وائل الكامل للمبرد.

4) مسجد سيدي قدور العلمي

كان يدرس به بين العشاءين شيخ الجماعة محمد بن الحسين العرائشي السابق الذكر، والمفتي السيد محمد ابن المبارك الهلالي المتوفى سنة 1953/1372 والحاج بنعيسى بن بوسلهام الخلطي المتوفى سنة 1963/1382 أخذت فيه عن الثاني بعض الدروس الفقهية برسالة ابن أبي زيد القيرواني وشرح أبي الحسين عليها وعلى الثالث أوائل كتاب الزكاة من مختصر خليل يشرح الدردير.

5) مساجد المدارس الثلاث : البوعنانية، والعدول، والفلالية.

فهي المدرسة الأولى : كان ملازما للتدريس بها وبالمسجد الأعظم سيدي محمد بن ادريس الشيببي المتوفى سنة 1943/1362 أخذت عنه بالمدرسة لأمية ابن مالك في التصريف بشرح بحرق، وطرفا من همزية البوصيري بشرح بنيس.

وفي المدرسة الثانية : أخذت عن الجيسوي مولاي عبد العزيز بن محمد الومغاري المتوفى سنة 1960/1380 علم الحساب بمؤلف القلصادي (علي بن محمد السطى الأندلسي) وعن أخي للابسيدي محمد علم النحو ببعض المؤلفات الحديثة، الدروس النحوية وقواعد اللغة العربية وسفينة النجاة.

وفي المدرسة الثالثة : أخذت مبادئ علم الحساب بطريقة حديثة، على الفقيه العدل محمد بن ادريس المنوني وجل الطلبة الذين كانوا ينتسبون الى هذه الحلقات، والذين يرغبون في إتمام دراستهم، كانوا يتوجهون الى جامعة القرويين، للأخذ عن علمائها، وكان العالم منهم لا يرجع الى مدينة مكناس، إلا إذا استأنس من نفسه أنه حصلت ملكة تؤهله لأن يصبح في صف العلماء، فيطلب من شيوخه أن يجيزوه، فيكتبون له إجازة يشهدون فيها بصحة معلوماته التي تلقاها عنهم، وإنه أصبح يتقلد صفة عالم (16).

وقد استمرت الدراسة بمساجد مكناس على الطريقة الموصوفة، منذ عصور طويلة، الى عصر النهضة الأخير، حيث أوعز بعض قادة الحركة الوطنية الى طلبة مكناس، أن يتقدموا الى جلالته المغفور له محمد الخامس بطلب إحداث أقسام ابتدائية منظمة، يرتب فيها علماء للتدريس على غرار النظام بالقرويين.

وعند زيارة جلالته الى مدينة مكناس سنة 1943/1362 تقدم وفد من الطلبة الى جلالته فحظي بالقبول وكان الوفد يتألف من :

شقيقي السيد أحمد المتوفى سنة 1950/1370 والسادة :

محمد العيسوي المسطاسي، محمد ابن عبود عبد الهادي المنسقاظ.

وبعد الموافقة على الطلب اشترط في حياة التدريس أن تكون محصلة على العالمية من جامعة القرويين، فأُسست ثلاث أقسام ابتدائية، أولى وثانية وثالثة، وأطلق على مكان الدراسة، الجامع الكبير اسم : (المعهد الديني) وتألقت الحياة الإدارية لتسيير المعهد من السادة :

الحاج المختار السننسي (رئيس) مولاي العربي المنوني (مراقب) الحاج أحمد بنشقرن (كاتب) وهياة التدريس من الأساتذة :

محمد بن عبد الهادي المنوني، أحمد بن الصديق الديغوسي، الطيب بن عبد القادر الحريف، العربي بن محمد الهلالي، محمد بن العربي الطاهري، عبد القادر بن سعيد العلوي.
وتأسس بعد ذلك تدريجيا القسم الثانوي بأقسامه الستة.

تم أحدثت للمعهد فروع، بمسجد للاعودة، وجامع الزيتونة، دار حميش بباب عيسى، ومحكمة الباشا بباب عيسى. وكان مقر إدارته بالمركز الحالي لخزانة الجامع الكبير، ثم نقل الى دار للأحباس بساباط الأسبوع ثم الى فوق محكمة الباشا بباب عيسى.

وأخيرا نقلت الادارة والدراسة الى ثكنة عسكرية بطريق الحاجب، بعد أن دخلت اللغة الأجنبية في برنامج التعليم الأصلي، وقسم الثانوي الى علمي وأدبي، وألغي الابتدائي من برنامج التعليم بالمعهد وغير اسم المعهد الديني بثانوية الامام مالك تم أحدثت ثانوية أخرى في بناية جديدة بحي سيدي بابا تابعة للأولى خصصت الدراسة بها لأقسام السلك الأول بينما خصصت الأولى للسلك الثاني.

المحور الرابع :

الخزانات العامة والخاصة : أربع خزانات عامة : (1) خزانة الجامع الكبير (2) خزانة باب منصورالعلج توجد بالمدينة (3) خزانة باب ترمي (4) خزانة البلدية.

(1) خزانة الجامعة الكبير : هي أقدم خزانة بمكناس، حيث أن تاريخ تأسيسها يرجع الى عهد الدولة المرينية الممتد من سنة 668 هـ/1270 الى 1465/869 م.

وقد كان موقعها الأول في الجهة الغربية للجامع الكبير، تم نقلت منه الى مجلس الأسبوع الواقع أعلا (سباط الأسبوع) أما مركزه الحالي، فيقع بشارع العدول حذو أحد أبواب الجامع الكبير الغربية المعروف قديما بباب الكتب نقلت اليه الخزانة أوائل الخمسينات.

وقد ورد ذكر هذه الخزانة عند ابن غازي في (الروض الممتون في أخبار مكناسة الزيتون) وذلك عند تعرضه لترجمة أحد علماء مكناس، ابن الفتوح محمد بن عمر التلمساني أصلا المكناسي مقرا ووفاة حيث قال : (أصابه الطاعون، وهو يقرأ البخارى بالجامع الأعظم من مكناسة، عند خزانة الكتب، عام 1162/818 م)

وقد كانت الخزانة قبل أن تنقل الى مركزها الحالي خاصة بالمخطوطات لايفيد منها إلا الخواص أمابعد نقلها فقد زودت بعدد وافر من المطبوعات، ولا زالت وزارة الشؤون الثقافية تزودها بكل ما جد في عالم المطبوعات، بفضل العناية السامية لجلالة الحسن الثاني، الساهر الأمين على تراثنا الأصيل.

ومن بين نوارد المخطوطات الموجودة بها :

- 1) تفسير غريب القرآن على حروف المعجم، لأبي بكر، محمد بن عزيز السجستاني.
- 2) اللباب في مشكلات الكتاب «لأبي عبد الله محمد الأندلسي الشهير بالحاج الشطبي»
- 3) نظم الدرر في تناسب الآي والسور «للبقاعي ابراهيم بن عمر الشافعي».
- 4) التكت في شرح البخاري لتقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي المتوفى سنة 656 هـ/1258 م.

- 5) مطالع الأنوار على صحيح الآثار، وفتح ما استغلق من كتاب الموطأ والبخاري ومسلم «لابن قرقول ابراهيم الحميري».
- 6) شرح قواعد القاضي عياض للقباب أحمد بن قاسم.
- 7) المسائل المستخرجة «للقاضي محمد بن رشد»
- 8) بشائر الفتوحات والسعود، في أحكام التعزيزات والحدود «لأبي زكرياء يحيى بن عبد الله بن أبي البركات».

وهناك : عدة مخطوطات محبسة على الخزانة، من طرف بعض الملوك السعديين والعلويين من بينها أجزاء ستة من فتح الباري. حبسها السلطان أحمد المنصور الذهبي السعدي.

الأجزاء 9 من صحيح البخاري، حبسها زيدان ابن أحمد المنصور، وكتب على أول ورقة منه : التحسيس مصادق عليه بامضاء زيدان السعدي ونص الامضاء : وكتبه بخط يده عبد الله ووليه : زيدان بن أحمد المنصور بن محمد الشيخ، خار الله سبحانه له.

ومنها ابن الناظم، على تحفة ابن عاصم. حبسه السلطان مولاي علي بن السلطان مولاي اسماعيل.

أما السلطان سيدي محمد بن عبد الله، فقد حبس على الخزانة عدة كتب، منها :

1) شفاء الغليل، في حل مقفل خليل، لابن غازي أوضح فيه هفوات صدرت من بهرام، ومواضع مشكلة من مختصر خليل.

2) الجزء العاشر من جمهرة اللغة لابن دريد (نسخة مقررة على المؤلف)

3) الجزء الأول من نقاش الأصول في شرح المحصول، لأحمد بن ادريس القرافي.

وحبس السلطان مولاي عبد الرحمان : نسخة من صحيح البخاري، تشتمل على 26 جزءا عام

1832/1247 بواسطة ناظر المسجد، السيد الطاهر بن عثمان.

1) ويحتوي قسم المخطوطات على ما يزيد على 500 مؤلف.

وتفتح في وجه العموم طيلة السنة الدراسية. وتستفيد منها جميع طبقات المثقفين.

ونظرا لضيق حجمها، فإنه قد يحدث في بعض الأحيان، تقنين في قبول المستفيدين : التلاميذ، بحيث لايسمح بالدخول لقاعة المطالعة إلا لتلاميذ أقسام السنة السادسة والسابعة من الثانوي. ويبلغ المعدل الشهري للمستفيدين 850 مستفيدا.

أما إعارة الكتب، فهي ممنوعة منعا كليا، سواء المخطوط منها أو المطبوع. ولا يسمح بتصوير أي

مخطوط إلا بإذن كتابي من وزير الشؤون الثقافية، بشرط أن يكون التصوير داخل الخزانة أما إذا كان خارج الخزانة، فإنه يكون تحت مراقبة مسؤول من الخزانة (17).

2) خزانة باب منصور : أسستها وزارة الشؤون الثقافية في السنة المنصرمة 1985.

3) خزانة باب تزيمي : أسستها وزارة الشؤون الثقافية في السنة الحالية 1986 ويعتبر رديفتين لخزانة الجامع الكبير.

ولعله كانت بالمدينة خزانات أخرى عبر خزانة الجامع الكبير. فقد ذكر ابن الخطيب في رحلته «نفاضة الجراب في من بقي من الأصحاب» لما عرف بمكناس أن بداخلها مدارس ثلاث لبث العلم، وخزائن الكتب، والجرابة الدارة على المعلمين والمتعلمين، ونقل ذلك عنه ابن غازي في «الروض المتون» ص. 70 ط. الملكية 1384/1964.

الخزانة البلدية :

أسست هذه الخزانة بمركزها الحالي قرب البلدية، سنة 1936 وأضيفت الي ممتلكات البلدية، سنة 1962.

وخصصت لها ميزانية سنوية من ميزانية البلدية العامة، ونظرا لأهمية الاعتماد المخصص لها سنويا. فإنها تزود بجميع ماجد في عالم الكتب والمجلات، بواسطة دور النشر العلمية، وتتوفر على معمل للتفسير، مجهز بأحدث أدوات التفسير ومواده، يعمل به صناع مهرة.

أما كتبها فمصنفة الى صنفين : عربي وفرنسي

يشتمل القسم العربي على ما يقارب 45 ألف مجلد

ويشتمل القسم الفرنسي على ما يقارب 20 ألف مجلد.

وقد ذكر لي السيد محافظ الخزانة الذي زودني بالمعلومات السابقة مشكورا، إن إعارة الكتب مباحة للجميع ومقننة، والقسم المدرسي بالخزانة، لا يستفيد منه إلا المعوزون من التلاميذ، وأقل المستوى المطلوب هو السبلك الثاني من الثانوي، وتظل مفتوحة في وجه العموم طيلة السنة الدراسية.

وأما الخزانات الخاصة :

فقد جرت العادة أن يكون لكل عالم داخل بيته خزانة خاصة، لا يستفيد منها إلا الخواص ولا تكاد خزانة من تلك الخزانات تخلو من نوادير المخطوطات، لكن جلها يتعرض للضياع بعد موت أصحابها وقد اشتهرت بمدينة مكناس خزانة خاصة، كانت شبه عمومية، يستفيد منها القاضي والداني، تقع داخل الروض الزيداني بالقصر السنيني، وتشتمل على نوادير المخطوطات، ونفائس المطبوعات، لمؤسسها وجامع نوادرها مؤرخ الدولة العلوية، ونقيب الشرفاء العلويين بمكناس وزرهون، مولاي عبد الرحمن بن زيدان المتوفى يوم السبت 21 ذي الحجة 1365/16 نونبر 1946 صاحب التأليف العديدة، والذي ينبغي للأسرة العلمية أن تحتفل بذكرى وفاته في شهر نونبر المقبل بإذن الله إذ بحلول يوم 16 منه يكون قد مر على وفاته أربعون سنة، وقد سبق أن دعا الى ذلك الأخ محمد المنوني في مهرجان تكريمه في دجنبر 1985. وقد صارت بعد وفاته في ملك صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني اشتراها من ماله الخاص، وأضافها الى مدخرات الخزانة الحسينية بالقصر الملكي بالرباط، بعدما أصبحت خزائنه العامرة، مفتوحة في وجه العموم بأمره السامي،

يستفيد منها الطالب والعالم والأستاذ بغية منه حفظه الله في تعميم نشر الثقافة. وقد أخبرني بعض الأصدقاء، أنه وقف على خزانة أخرى بهذه المدينة، تشتمل على عدة كتب ووثائق نادرة، كانت في ملك مولاي اسماعيل بن العباس العلوي بمقر سكنه بساحة للاعودة، وانتقلت بعد وفاته الى ملك ورثته.

وبالرغم عن ذلك فإنه لاتزال بيد الخواص مكتبات تتوفر على وثائق هامة ومخطوطات نادرة، وبالأخص أسر العلماء. والأمل معقود على أن لايبخل أصحابها على الأساتذة الباحثين من الاستفادة من تلك الوثائق، وبالأخص في عصر انتشرت فيه الثقافة على أوسع نطاق. وعليهم أن يختاروا الطريقة التي يفضلون التعامل بها مع المستفيد. أما بواسطة جائزة الحسن الثاني السنوية للمخطوطات، وإما بحصولهم على مكافأة مالية من المستفيد تفاوت وأهمية المخطوط. وأما على وجه التكرم والاحسان بغية نشر الثقافة وتلك نخوة عربية، وكرم حائمي وأريحية.

المحور الخامس

المجلات والجرائد : لعل أول محاولة لإصدار مجلة خلطية إخبارية بمدينة مكناس بل بالمغرب كانت من عالم عصره، وفريد دهره، محمد بن أحمد بن غازي العثاني المكناسي المولود بمكناس عام (858 هـ/1454 م) والمتوفى بفاس عام (919 هـ/1513 م).

فقد ورد في ج 4 من الاتحاف ص 4 نقلا عن كتاب (بذل المناصحة، في فعل المصافحة) (18)، أن ابن عازي كان متخددا من يبحث له عن الأخبار الرائجة ويأتيه بها مكتوبة في كرايس كل يوم أربعاء، فيتصفحها يوم الخميس، يوم تعطيل الدروس.

وفي ج.1 من التراتيب الادارية ص. 364 أن مؤلف كتاب المناصحة، قال : (أخبرني سيدي علي بن بنقاسم البطوي قال : بلغنا أن الشيخ ابن غازي قد عين بعض أصحابه أن يكتب له كل ما جرى في البلد، وما قال وقيل من حميس الى خميس، فيطالع ذلك، ويكون ذلك يوم الخميس، الذي يتفرغ فيه من التدريس، فحمل هذا من الشيخ ابن غازي على معرفة الزمان وأهله المأذون فيه أو المكلف به).

ثم ذكر أنه نقل عن المقرئ أنه كان يفعل ذلك أيضا عندما كان مقيما بمصر. وقال أخيرا صاحب التراتيب (قلت : لاشك أنه ابن غازي والمقرئ، لو ظهرت الجرائد في أيامهما لكانا أول المشتركين فيها).

2) مجلة اللواء الثقافي :

مجلة ثقافية دورية، كان يصدرها شباب (جمعية اللواء الثقافي) بمكناس ويطبعتها على الآلة الراقنة. صدر منها ثلاثة أعداد :

الأول في فاتح يناير 1957 والثاني في مارس 1957 والثالث ماي 1959.

ساهمت بالكتابة فيها بقصيدتين :

1) ذكرى عشرين غشت 1953 — 2) عيد الاستقلال. وبمقال موضوعه (مشكلة الأدب المغربي).

3) مجلة الواحة

أصدرت منها (جمعية البعث الثقافي) باشتراك مع بعض المثقفين بمكناس عدددين :

الأول بتاريخ يوليوز — غشت 1966 (مزدوج) والثاني في يناير 1967.

4) مجلة البعث الثقافي : أصدرت منها جماعة البعث الثقافي عدددين، العدد 2 صدر سنة 1980

تم توقفت عن الصدور.

أما الجرائد : فقد صدر منها جريدتان، كان يصدرهما بإمكانياته الخاصة السيد محمد بادو مدير

(دار الثقافة) حاليا.

الأولى: الرابطة (جريدة أسبوعية-جامعة، تصدر مؤقتا مرتين في الشهر) مديرها المسؤول ورئيس تحريرها : محمد بادو، ومدير التحرير : عبد الوهاب التازي. صدر منها عدد واحد فقط، بتاريخ الخميس 19 شوال الموافق 1382 الموافق 14 مارس 1963. والثانية، (مرآة مكناس) دورية جامعة مستقلة. مديرها المسؤول، محمد بادو، صدر منها 33 عددا ثم توقفت عن الصدور أول عدد صدر بتاريخ 11 يناير 1965. وآخر عدد في أكتوبر 1977.

وأخيرا قراءة في ديوان الشعر المكناسي

سأجعل ختام موضوعي هذا قراءة مقتطفات من ديوان الشعر المكناسي وقد فضلت أن تكون هذه القراءة من ديوان شاعرين مكناسيين، عاشا في عصر واحد، وقالا شعرا كثيرا في مختلف أغراض الشعر.

الأول والدي رحمه الله سيدي عبد القادر بن أحمد العرائشي المتوفى صباح يوم الجمعة 15 ذي الحجة 1350 الموافق 22 أبريل 1932.

والثاني المؤرخ الشهير مولاي عبد الرحمن بن زيدان السابق الذكر.

وجل شعرهما لايزال مخطوطا وموزعا بين الأصدقاء وفي المجماميع الخطية. وقد ذكرت نبذة من شعر والدي في مؤلفي.

«ترجمة الشاعر أبي محمد عبد القادر العرائشي المكناسي». الذي طبع سنة 1392 هـ-1972 م.

وأما شعر الثاني، فأتذكره يوجد ضمن بعض مؤلفاته التي لازالت لم تطبع. وقد نشر بعضه بالديوان المطبوع الخاص بالأشعار التي قبلت في السلطان المولى يوسف والذي سماه جامعه : ابن زيدان (البحر الوافر الوفي بامتداح الجناب المولي اليوسفي).

كما أن جل أشعاره التي قالها في تهنئة المغفور له محمد الخامس في شتى المناسبات، كانت تداع من محطة الاذاعة المغربية بالرباط. وتنتشر في جريدة السعادة.

وفيما يلي مقتطفات من شعرهما :

1 — فمن ديوان شعر الوالد :

أ — قصيدة في مدح الجناب النبوي الشريف يتعرض في ختامها لحالة المسلمين إبان الاحتلال

الأجنبي للمغرب ويتضرع الى الله تعالى أن ينقذهم من شر العدو المحتل. لأن استعباده خطر داهم، وكرب عظيم، أكبر من الأرض والسماء.

وشرفها، العلو والأرتقاء
وأعطاك المهيمن ما تشاء
علي القدر ليس له انتهاء
ونعم المجتبي الكافي الرجاء
إذا اشتدت وحل بنا الشقاء
وضاق بنا الفضاء ولا إحصاء
وملجأنا إذا وقع النداء
ببائك قد طرحته فالقضاء
ظلوما والظلم له اجترأ
مدبح والمدبح له جزء
وفيك الحلم طبعاً والحياء
ففيك القصد حقاً واكتفاء
فبحر عطاك ليس له انقضاء
عظيم ليس يحصره الثناء
إذا ما ضاق بالناس الفضاء
ففيه البؤس حل والاعتداء
فقد عز اللبيب ولا دواء
وكان بقباب قوسين اللقاء
تضيق لها الأراضي والسماء
به ندعو إذا عمّ البلاء
وصحب ما تلا صباح مساء
لقدر علاك فتحت السماء

لقدر علاك فتحت السماء (19)
سموت بذات المقام وحزرت فخرا
فجأهك عنده جاه عظيم
فأنت المصطفى نعم الرسول
نقول لذا الشدائد والهموم
رسول الله إننا قد دهشنا
رسول الله يا خير الأنام
رسول الله ما ذنبي عظيم
رجوتك من ذنوب صيرتني
وحاشا أن أرى ذلاً وإني
وحاشا أن تخيب من سماك
أيا سيدي شكوت اليك ضعفي
وعجل مطلبني وتول أمرني
وفضلك يا شافع الخلق طراً
فكن لي شافعاً وأبي وأمي
وأمن صبيتي من ذا الزمان
وأنتقد غربنا مما عراه
سألتك بالذي أسراك ليلاً
تقبل دعوتي وأزل كربنا
فجأهك عند ربك لا يباهي
عليك الأمننا صلي وآل
وما قد قال عبد ذو خطايا

ب - الانتصار التركي :

في الوقت الذي هنا فيه الشاعران الكبيران : أحمد شوقي ومعروف الرصافي الأتراك بانتصارهم على اليونان، وطرد المحتلين من غربى الأناضول وأزمير سنة 1923. الأول بقصيدته التي يقول في مطلعها. (20) :
الله أكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب
والثاني بقصيدته التي صدرها بقوله :

سمى المصطفى لأزلت تعلقوا الى أوج يطبأول كل أوج
هنا شاعرنا المغربي الأتراك بفوزهم في الحرب، وانتصارهم على اليونانيين بقيادة البطل الشهير مصطفى كمال أتاتورك بالقصيدة الآتية، معبراً فيها عن شعور المغاربة نحو هذا الانتصار :

الدهر جرد سيفه من غمده
 أو ما ترى الأيام كيف تبسمت
 أو ما ترى الأزهار كيف تلونت
 أو ما ترى الأغصان كيف تمايلت
 والطير راق فوقها ومغرد
 أو ما ترى الأنهار كيف تدفقت
 فكان ماء النهر يجري فضة
 وترا به مسك غدا متفتتا
 يا نائما قم من منامك وانظرن
 لاتعجبين مما تراه من ذا الاوا
 النصر حل بساحة الأتراك إذ
 وسطت بسيف العدل في يوم الوغى
 فالعز للأتراك قام مصاحبا
 والعز كان يخفن متدرعا
 الباسل القرم الهزير المصطفى
 يا مصطفى فيك انتصار قد غدا
 لا بالرماح وبالسيف وإنما
 يا لابس حلال الكمال ومائسا
 لازلت ذا نصر مكين دائم
 فلقد عزمت وعزم رأيك صارم
 هذا لعمرى طالع السعد الذي
 فالغرب الأقصى أشاد بنصركم
 واهتسز من طرب لما قد نلتم
 فلو أنه وجد السيل اليكم
 فلتنباؤا يا معشر الأتراك
 لازلتم متفوقين على العدا
 متعززين بنصر رب ناصر

ومن شعر الثاني :

فسطا على الانكاد والاحزان
 فرحا بنصر جاء في الابان
 من أخضر فاحسي وأحمر قاني
 وتعانقت كالعاشق السلوان
 أرى بنغمته على العيدان
 والزهر حق بها بكل مكان
 وحصاه من در ومن مرجان
 وخريره أغنى عن الأمان
 ما حل من فرح بذى الأزمان
 ن من الحبور وكثرة السلوان
 سلت صوارمها من الأجنان
 فغدت تقد جماجم اليونان
 والذل صار مصاحب الطغيان
 وبامرة الصنديد ذي العرفان
 الكامل المستكمل السلطان
 للترك عند توقد النيران
 (بالرأي قبل شجاعة الشجعان)
 في ذيلها في سائر الأحيان
 يافاقد الأمثال والأقربان
 يا دوحة المجد العظيم الشان
 به قد سما الاسلام في الأديان
 وبمجدكم في السر والاعلان
 من نصره بالقهر في الميدان
 لاني يؤدي شكركم بلسان
 بالنصر العظيم الثابت الأركان
 أعلى من اليرجيس والكيوان
 من قام ينصر دينه بأمان

أ — تحية السلطان المولى يوسف بمناسبة زيارته للمدرسة المولوية الحربية بمكناس :
 حياك بالاجلال والترحيب (21)
 سادوا وبالوجه الجميل تشرفوا
 تاهوا على من لا يرى ما قد رأوا
 نالوا برؤيتك البيهة كل ع
 وتأرجت من طيبك الأرجاء واز

ما ناله إلا أبو يعقوب
 قد حاز حسن الخلق والتأديب
 لغنيمة ومرام كل حبيب
 يا فوزنا قرنا بذنا المرغوب
 أفقت السما لاتوصفن بمغيب

ب - تهنئة السلطان مولاي يوسف عند حلوله بمدينة مكناس في زيارة رسمية :

بياب علي، يامولاي تفتخر
 فمن جميل سناها الشمس والقمر
 فخر تحر له من ألقها الزهر
 لطلعة منك غراء لها غرر
 اس فمنه فروع أنجم درر
 روابطك منك شتى ليس تنحصر
 أجمل بدولته قد راقها الوطر
 ورقة وضيا عال ومنشتر
 كل النشاء عليك شأنه القصر
 ذاك الطول فخارا نشره عطر
 بكل تكمة تسموا لها الفكر
 قصورها القصرات الطرف تنتظر
 الى لقائك وفي لقائك الظفر
 من هابه الأسد لما هالها الذعر
 بشارك بشارك نور النصر ينتصر
 أحياء ماهو منه قبل مندثر
 شبابه بازدهاء الحق ينفجر
 حتى يعود بفضل الله يفتخر
 قد عودوا فلهم لجاهك النظر
 وأوهم عطفك الذي له اتبدروا
 ومنك سابقة الخيرات تتكرر
 تنجاب عنابه في غربنا الغير
 زهو الى أن ترى الاكوان تزدهر
 يمينه الحسن والاحسان ينهمر
 عرف عبيق بطول الدهر منتشر
 الفتح والاقبال والبشر والظفر
 بيابه علي يامولاي يفتخر

واضاء نور جماله الأبى الذي
 ذاك المؤيد يوسف المنصور من
 يا حبذا هذى الزيارة إنها
 نادى بأفصح لفظة هذا الحمى
 لازلت يامولاي بدار ساطعا

الفتح والبشر والاقبال والظفر (22).
 هذى ثغور سعود منك باسمه
 يزهو بك الملك إعجابا وحق له
 وللمعالي مغالات بنسبتها
 أنت الهمام الذي في المجد أس له
 بك الكمال يسود حيث أن له
 أعظم برتبه وأكرم بسيرته
 فأى أرض حلت حلها شرف
 ترنو اليك القصور وهي قائلة
 فاليوم مكناسة الزيتون أكسبها
 في كل ناحية لسان تهنئة
 إنا فتحنا لك الفتح المين على
 مولاي مولاي كل القوم في شغف
 وجدك الملك الميمون طالعه
 لسان حاله نادا وهو في طرب
 مهنيا بك عرش الملك مرتجيا
 وراغبا أن يرى الاسلام في ظفر
 وأن يكون لاهليه ذرى شرف
 ومنك يأمل أن يحظى بنوه بما
 فكن أكلهم طرا كخير أب
 فانت مولنا الذي نفر له
 أبقيت للدين شهما سيدا بطلا
 والله سبحانه يديم عزكم في
 بجاه جدك خير الخلق أحمد من
 عليه من ربك أزكى صلاة لها
 والآل آل الوفي ما قال مرتجل
 وما ترنم ذو وجد يساجله

الهوامش

- (1) ترجمته في ج. 2 من معجم الشيوخ ص. 116.
- (2) ترجمته بفهرس شيوخه (مخطوطة).
- (3) مساجد مكناس والأقليم ص. 36 مرقون.
- (4) انظر المصدر قبله ص. 36
- (5) المصدر أيضا. ص. 37
- (6) ج. 4. بالتحاف. ص. 513
- (7) المصدر ما قبل الأخير ص. 49 نقلا عن الاتحاف
- (8) انظر ص. 21 من كتاب «مساجد مكناس والأقليم» وما عقب به مؤلفه على ما ذكر ابن زيدان في ج 1 من الاتحاف ص. 94 — 95 عن المسجد.
- (9) انظر ج. 4 اتحاف ص. 317.
- (10) ترجمة ابن خضر ا.ب.ج 1 اتحاف ص. 329.
- (11) ترجمة في ج. 5 من الاتحاف ص. 536.
- (12) مساجد مكناس والأقليم ص. 41.
- (13) تكلمت في الأصل على العوائد المتخصصة في دخول الطفل للمكتب، والحنمة، والتخریجة، وشعبانة، والميلودية، والعطل.
- (14) كان دخول الجيش الفرنسي لمكناس في 8 جمادى الثانية 1911/1328 كما ذكره في ج. 1 من الاتحاف ص. 230
- (15) مجلة السفير المكناسي العدد 4 أبريل ماي 86 ص. 41
- (16) كان ذلك قبل أن تنظم الدراسة بجامعة القرويين بمقتضى ظهير شريف مؤرخ ب 10 ذي الحجة 1351 هـ الموافق 31 مارس 1933 يحصل بمقتضاها الذي انهى دراسته بالجامعة بعد اختيار امتحانين كتابي وشفوي على شهادة العالمية. انظر نص الظهير بالدرر الفاخرة ص. 146 الى ص. 166 لابن زيدان.
- ورغم ذلك، فإن تلك الاجازة لم تفقد قيمتها، لأن الذي يرغب في الحصول عليها من بعض شيوخه تسلم اليه ليضيفها الى لائحة الشهادات التي حصل عليها.
- (17) لأخذ المعلومات عن هذه الخزانة يرجع الى ما كتبه في التعريف بها بالعدد : 234 لمجلة دعوة الحق ص. 107 والعدد : 7/6 مزدوج من مجلة السفير المكناسي — يونيو — يوليو — 1986.
- (18) مؤلف الكتاب هو أبو العباس أحمد بن علي اليوسعيدي.
- (19) ترجمة الشاعر ص. 26.
- (20) ص 34 من المصدر قبله.
- (21) ج 1 من اليمن الوافر الوفي في امتداح الجناب المولوي اليوسفي.
- (22) المصدر قبله ص. 272.

الحركة الثقافية في مكناس خلال القرن الثاني عشر الهجري، من خلال نماذج واعلام

الأستاذ علال معكول

كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
مكناس

مداخلة :

إن الحركة الثقافية في المغرب عموماً، وفي مكناس خصوصاً في القرن الثاني عشر الهجري تستدعي أكثر من بحث، وأكثر من جهد لبرازها، لضيق كثير من المصادر، من وجه ولكون الناجي منها ما زال مخطوطاً في الخزانات الخاصة والعامة من وجه آخر. وتتميز المرحلة كما هو معلوم بانهايار دولة السعديين ونشوء دولة الاشراف العلويين وما نشأ عن ذلك من اضطراب وفتن، قبل أن تستقر الدولة الجديدة. وما صاحب ذلك من ضياع أرواح وآثار...

ومن خلال تراجم العلماء الذين عاشوا في هذه الفترة ندرک تحركاتهم نحو هذه المدينة أو هذه الزاوية وتلك، راغبين في لقاء شيوخ العلم والتصوف، لأخذ مروياتهم، وإجازاتهم وسند طريقتهم...

وفي مقدمة هذه المراكز العلمية فاس، ومراكش وسجلماسة وتطوان، كما لعبت الزوايا في المدن الصغرى وفي البادية، دوراً مهماً في هذا النشاط العلمي، كالزاوية الناصرية بتمكروت، والزاوية العياشية في منطقة جبل درن على نهر زيز، والزاوية الوزانية وزاوية أبي المحاسن الفاسي بالقصر الكبير، وزاوية سيدي أحمد حجي بسلا، والزاوية الشراوية بأبي الجعد، وغيرها من المراكز العلمية التي لا يتسع المقام لتفصيل الحديث فيها وفي أعلامها، وما خلفوه من آثار...

أما الحاضرة الاسماعيلية مكناسة فمن الطبيعي أن تتجه أنظار العلماء والأدباء إليها، في هذا العصر نظراً للمآثر العمرانية، والمساجد، والمدارس التي شيّدت فيها، ولكونها أصبحت مركزاً للسلطة السياسية ومقرراً لوزراء الدولة وكتابها وأعيانها...

وقد وصف أبو القاسم بن أحمد الزياني (ت 1249 هـ/ 1833 م) العمران الذي شيّده في هذه المدينة المولى اسماعيل قائلاً في كتابه (الروضة السلیمانية : «وما يلحق ضخامة مبانيه ما بناه كسرى في المدائن، ولا ملوك الفراعنة بمصر، ولا ملوك الروم برومية والقسطنطينية... ولا ملوك الاسلام كبنی العباس

والعبيدين، والمرابطين، والموحدين وبنو مرين، والسعديين وما يديع المنصور بقصر من قصوره، ولا بستان المسرة بأحد بساتينه، فقد كان عنده بجنان حمرية مائة ألف شجرة من الزيتون حبسه على الحرمين الشريفين... الخ» (1).

ويجب الا ننسى المآثر العمرانية التي أقيمت في هذه المدينة في العهد الاسماعيلي لاشك أنها تضررت بفعل الزلزلة العظيمة التي «هدمت مكناسة وزرهون، ومات فيها خلف كثير» كما يقول الزياتي ع. 1167 هـ/ 1753 م. وما وقع فيها من حروب بعد وفاة السلطان المولى اسماعيل (2).

وقال محمد بن الطيب العلمي في وصف هذه المدينة (3) :

فإن بين اسماعيل في البيت كعبة يحج إليها الناس في موسم النحر
فقد شاذ في الدين المتين سميه لنا كعبة قامت على عمد الذكر

بل إننا نجد الوزير محمد بن ادريس العمراوي (4) (ت : 1264 هـ/ 1847 م) يفاخر بقصور مكناسة وعمرانها ايوان كسرى، واهرام الفراغة كقوله (5) :

قل للذين استعظموا من جهلهم ايوان كسرى أو بنا الاهرام
لم بين ملك قد تقدم ما بنى مولاي اسماعيل في الاسلام

وإذا كانت هذه المشاهد العمرانية البديعة التي تغنى بها الشعراء والأدباء سواء في عصر المولى اسماعيل أو بعده، فقد استخدم فيها السلطان المذكور أزيد من خمسة وعشرين ألف أسير من النصراري، منهم من كان نقاشا، وحجارا وحدادا ونجارا ومزخرفا ومهندسا ومنجما وطيبيا، كما أشار الى ذلك أبو القاسم الزياتي... فهل كانت حركة البناء الثقافي والفكري مواكبة لهذه الحركة العمرانية؟ وهل كانت المدينة الاسماعيلية تتوفر على الأطر العلمية الكافية لاقامة هذا النشاط الفكري والثقافي لتشيرف قاعدة الدولة الجديدة، وجلب الانتباه والوفود إليها...؟

فهناك عوامل متعددة ساهمت في تنشيط الحركة الثقافية في هذه المدينة منها :

1 — قربها من الحاضرة الأدرسية فاس، وسهولة تنقل العلماء منها وإليها.

2 — إن المولى اسماعيل كان يجلب إليها العلماء والفقهاء من الحواضر المغربية الأخرى، مثل الفقيه أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد العكاري الرباطي (6) (ت : 1092 هـ/ 1681 م) الذي كان يدرس بالمسجد الأعظم بسلا، ثم استدعاه مولاي عبد الواحد نجل السلطان المولى اسماعيل الى الرباط، وهناك تم التعرف على مكانته العلمية، فزاره السلطان في مجلس درسه عند زيارته للرباط حيث وجده يدرس صحيح الامام البخاري، فانتظره الى أن انتهى من درسه فسلم على الشيخ وطلب منه أن يصحبه الى سجلماسة ومنها الى مكناسة، ومما جاء في قوله : «يا شيخ تقدّم معنا الى سجلماسة لتصل الرحم، ويتبرك بك أنجلي، وتؤم بنا صلاة الخميس، وتحم معنا صحيح البخاري، فإن معنا الفقهاء من فاس، فإنهم أرادوا الاجتماع بك، والأخذ عنك، فقال الشيخ للسلطان : يذهب معنا خمسة من فقهاء سلا، ومثلهم من الرباط، فإنهم يليقون بنا وبك، ويكون الجمع مباركا سعيدا، فأجابه السلطان لذلك، ونفذ له وهم صلة لعيالهم، وصلة لمؤون سفرهم» (7) ومن وفد على الحاضرة الاسماعيلية مكناسة من علماء المشرق الشريف العالم مولاي محمد بن حسين

المقدسي وذلك سنة (1130 هـ/1717 م) فقال في ذلك أبو القاسم سعيد العميري الذي ستأتي الإشارة إليه وإلى آثاره : (وكان له في العلم مشاركة حسنة فما تكلمت مع في شيء إلا وجدت له به خبرة، وعنده من العلم بأحوال الناس ما لا مزيد عليه، وكنت أيام مقامه هنا أجالسه كثيرا، وربما أقطع معه الطائفة من النهار، ولا أمل مجالسته حتى حصل بيني وبينه ود وأخاء على أن قلت فيه :
تاقت لمراك منذ اليوم أشواق يا طلعة زانها بالغرب إشراق

فسر بها، وجزاني خيرا، وحضر معنا يوما مجالس التفسير على والذي رحمه الله... فقال لي ما رأيت في مجلس قراءة التفسير على هذه الصفة مثل والدك إلا شيخنا بمكة أو بالمدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام. فأني رأيته يقريه على هذا الخط بعلوم يأتي بكل منها على حدة... (8).

ومنهم الحسن بن رجال المعداني (9) التدلوي (ت : 1140 هـ/1727 م) الذي كانت له عارضة كبيرة في الفقه والنوازل والأحكام. والافتاء بالاضافة الى صبره الهائل في مجلس الاقراء، حيث كان يدرس بالمدرسة المتوكلية بطالعة فاس، من طلوع الشمس الى الزوال دون ملل، ثم عين قاضيا بمكناسة ومدرسا بها، وفي مرضه الذي مات منه كان الطلبة يدخلون بيته للمواصلة قراءة كتاب الشفا للقاضي عياض.

ومن انتقل الى مكناسة واستقر بها وأفاد طلبتها أحمد بن عبد القادر بن عبد الوهاب التشاوي (10) (ت : 1127 هـ/1715 م) الذي تتلمذ عليه الطيب عبد القادر بن العربي ابن شقرون الشكاسي وكانت بين التشاوي وبين الشيخ أحمد بن ناصر الدرعي مودة وصحبة باعتباره شيخا من أكابر شيوخ التصوف في عصره، صدرت عنه مؤلفات في هذا المجال منها : (ممتع الاسماع وشرحه) ونظم رجال التشوف وشرحه...

ومن شعره قصيدة دالية تبلغ حوالي ستائة بيت في مدح الرسول عليه السلام عارض بها دالية اليومي في مدح شيخه محمد بن ناصر الدرعي، مطلعها (11) :

عرج بأطلال الأجيال واقصد آثارهم يوما لعنك تهتد
وفيها يقول :

لولا النوى ما أقبلت من مغرب فوق المطايا عاشقون لأحمد
صلى عليه الله ماهبت صبا ويكى لرؤية وجهه ذو أكم

كما استخدم المولى اسماعيل شخصيات علمية من حاضرة فاس، لتقليدها خطة الوزارة والكتابة إليها من الوظائف، ومن هؤلاء الوزير محمد بن عبد الوهاب الغساني (12) (ت : 1119 هـ/1707 م) الذي ترأس الوفد المغربي لزيارة الجزائر للتفاوض مع الأتراك سنة 1103 هـ/1691 م كما بعثه الى الأندلس لتخليص المكتبة الاسلامية والمغربية من أيدي الاسبان، فألف في ذلك رحلته المشهورة ب (رحلة الوزير في افتكاك الأسير) (13). قال عنه صاحب الاتحاف : (انتهت اليه صنعة الترسيل، ولم يعزز في عصره بمثيل).

ومنهم الوزير أبو العباس محمد بن الحسن اليعمدي (14) صاحب الأديب على مصباح الزرولبي، قلده المولى اسماعيل خطة الوزارة بعد اختياره من طلبة فاس لعلمه وذكائه وجعله أمين سره وقيم خزانته. التي جمعت (من أنواع الدفاتر وأسماء التأليف ما لم تحوه خزانة بغداد) كما قال عبد الرحمان بن زيدان صاحب الاتحاف.

ومن قصائد علي مصباح صاحب الوزير اليعمدي قصيدة قالها حينما زار مكناسة سنة 1124

هـ/1711 م مدح بها السلطان المولى اسماعيل، والوزير اليعقوبي، وأهل الحاضرة الاسماعيلية فقال متخلصا الى المدح بعد مقدمة تحدث فيها عن تعب المطايا (15).

لن شفها الأعياء أو مسها الظما فمكناسة راحاتها وارتواؤها

وشبه المدينة وما يحيط بها من جنات وحقول بالزهراء إحدى مدن الأندلس تارة وبالزوراء وبيغداد تارة

أخرى، كما شبه مياهها بمياه دجلة وجعلها هي الدنيا كلها، فقال :

بلاد هي الدنيا بأجمعها التي أضاء على كل البلاد ضياؤها
فجناتها الزوراء، (16) والزهر أهلها وأربعها الزهراء، ودجلة ماؤها
إذا ما رأت أعلامها نفس مدنف معنى، تداعى للرحيل عناؤها

وفي مدح المولى اسماعيل قال :

إذا عصمة الدنيا ترع فإنما بارماح اسماعيل كان احتياؤها
فتى لاح في أفق الخلافة للورى كشمس الضحى، لاحان يوما خفاؤها

وقال عنها أيضا : (17).

ياحاديها هاج الهوى أنفاسه عرج على مصر العلامكناسة
أرض بها حط الجمال مطيه وأجال في عرساتها أفراسه
مافي القواهر مثلها فجلاها بالمجد قد رفع الاله أساسه
دار الأمارة والخلافة عززت خلفاؤها بسماحة وحماسه

وكان السلطان المولى اسماعيل يستحضر من حين لآخر الوراقين والنساخ من الحاضرة الادريسية، وخاصة حينما يكون الأمر فيه استعجال، قال محمد بن الطيب القادري في حوادث 1098 هـ/1686 م (وفي يوم الأربعاء ثالث ذي الحجة العام، بعث السلطان المولى اسماعيل لفاس بازعاج النساخين منها لحضرته بمكناسة الزيتون، فاشخصوا وهم نحو من أربعين رجلا بقصد نسخ أربعة وعشرين سفرا من العنترية والفداوية وما يتصل بها من أخبار الشجعان على ما قيل فيها... ومن لم يكتب المبسوط يميل على كتابه، ويصلح الأقالم والمداد، وغير ذلك، فانتسخ ذلك في أيام قلائل حتى أن بعضهم رجع لداره ليلة العيد(18).

3 — والعامل الثالث الذي شجع الحركة العلمية والثقافية في الحاضرة الاسماعيلية الأمير محمد العالم الذي كانت له شخصية فذة، ومهارة في النحو والبيان والمنطق والكلام والأصول، بالإضافة الى كونه شاعرا من فحول شعراء عصره، وكان كثير الدرس والمناظرة يجالس العلماء ويسامر الأدباء ويساجل الشعراء.

وهكذا شاركت هذه العوامل في بعث النهضة الثقافية في هذه المدينة، فازدهرت فيها العلوم النقلية والعقلية التي اضطلع بتدريسها بعض الاعلام، كمفتي حضرة مكناسة وقاضيا وخطيبها أبي مدين محمد بن الحسين السوسي (19) (1120 هـ/1708 م) أحد تلامذة أبي علي السوسي، الذي اهتم بالمنطق، ووضع شرحا عليه (20). ومن أعلامها الذين برزوا فيها كذلك في هذا العصر أحمد بن محمد الشهير بابن يعقوب الولالي (21) (ت : 1128 هـ/1715 م) كان من كبار المدرسين فيها، صدرت عنه مؤلفات في المنطق والبيان واللغة، كشرحه على السلم، وشرح منظومة الأضرى في البيان، وله قصيدة لامية في المنطق وشرحها، وشرح تلخيص المفتاح، وله مؤلف في التراجم سماه (مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار) (22) من معاصريه.

وتولى التدريس فيها قاضيها الفقيه سعيد بن أبي القاسم العميري (23) (ت : 1131 هـ/1718 م) الذي وصفه القادري بـ (العلامة المعقولي البياني)، وهذه المكانة العلمية كان يحظى بمشاورة السلطان المولى اسماعيل في أموره المهمة، وحين مرض سنة (1129 هـ/1716 م) قال فيه ولده سعيد أبياتا أنشدها عليه منها : (24).

حياتك متبى الآمال عندي فليت الموت يقبلني فداء
أبجمل أن أراك رهين حال وأمل، لأعدتكم، بقضاء
ولم أصبر وأنت اليوم حي فكيف إذا اتخذت ثوى ثراء
صغرت عن التحمل، إن مثلي، وحقك، لايطبق له عناء
وكيف ولي الأحيات، وقلبي تقسم فيك بينهم سواء

وقال :

وإني وإن بكيك ملء عيني فهل كان البكاء لنا غناء

وهؤلاء العلماء هم جل شيخ محمد بن الطيب العلمي في هذه المدينة كما جاء في قوله : (قرأت بكناسة على الشيخ الامام الصدر الأوحى المشارك المتبحر، شيخ الجماعة بالحاضرة السلطانية قاضي القضاة أبي عبد الله محمد أبي مدين، وعلى الفقيه الامام العلامة النحرير المتبحر المشارك المدرس المعقولي أبي عثمان الشيخ سعيد بن أبي القاسم العميري، ثم التادلي، وعلى الفقيه المعقولي الأصولي البحر الشيخ أبي العباس سيدي أحمد بن يعقوب.... (25).

وبالرغم من هذا الازدهار الثقافي الذي شهدته الحاضرة الاسماعيلية في هذا العصر، فإن التواصل العلمي ظل مستمرا بينها وبين الحاضرة الادريسية على أعلى المستويات، فقد كان السلطان المولى اسماعيل يكتب علماء فاس، ويراسلهم في أمور الدين والدنيا، ومنها مراسلاته شيخ الجماعة محمد بن عبد القادر الفاسي، طالبا منه أن يوضح بالأدلة والحجة قول والده الشيخ عبد القادر الفاسي : «من قلد عالما لقي الله سالما» (26) فأجاب بما يشفي الغليل، مؤكدا دور العلماء في الدين والدنيا، ومسؤولياتهم في تقدم المجتمع إن أخذت آراؤهم بعين الاعتبار، والعكس بالعكس، فقال : قال تعالى : «وما أتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا» (27) فتلقى ذلك العلم وأخذه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته الأكرمون، رضوان الله عليهم، ثم أخذه عنهم التابعون وأخذه عن التابعين تابع التابعين، ثم العلماء طائفة بعد أخرى، الى هلم جرا، فكان العلماء واسطة بين الله وبين خلقه، بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا سبيل لقطع الواسطة وإهمالها، فمن انقطع عنها، انقطع عن الله ورسوله...» (28).

كما نجد خاتمة القراء والحفاظ في الحاضرة الاسماعيلية، في زمانه محمد بن عبد الرحمان بن احمد بصري المكناسي (ت : 1124 هـ/1712 م) الذي أخذ القراءات السبع عن شيخ التجويد أبي زيد عبد الرحمان بن محمد بن عبد القادر الرايس، كما أخذ عن أبي عبد الله محمد بن أحمد القسطيني، وأبي عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي، وغيرهم، ولذلك خاطبهم بقصيدة يتحسر فيها على فراق شيوخ فاس عموما، قال فيها :

طعنت وفي نفسي من البين لوعة ونار اشتياقي في الضلوع كما هيا

وجئت بحجم فارغ من فؤاد
 لعمرى لقد خلفته رهن ما اشتبهى
 وددت، ولم أئس من إدراكي المنى
 فجاورتهم عمرى، ومتعت أعينى
 فيا أهل فاس خلصوا من نواكم
 أليس بعار أن ينيخ ببابكم
 وربى علم ين حل فؤاديا
 بأيدي أناس يحسنون التقاضيا
 لو أن اله العرش حل عقاليما
 بطلعتهم في غدوتي ومسائيا
 وأم حاكم مستهاما، وبأكيما
 بأشجانة عبد، ف يرجع نحاسيا

أما علم الطب فقد نبغ فيه طيب الحضرة الاسماعيلية مكناسة، الشيخ الأديب عبد القادر بن العربي ابن شقرون المكناسي (29) (ت : 1140 هـ/ 1727 م) الذي كان يدرس بمسجده بضريح أبي العباس سيدي أحمد بن الخضراء، كما أشار الى ذلك ابن الطيب العلمي (30)، عند زيارته لمكناسة وأخذه عن أشياخها، وكان الطيب ابن شقرون يركب الأدوية ويعالج المرضى... وقد اتصل بشيخ الزاوية الشرقاوية بأبي الجعد، أبي عبد الله الصالح الشرقي، الذي طلب منه أن ينظم أرجوزة في الطب يتناول فيها الأدوية والأغذية النافعة، وأنواع الثمار واللحوم والشباب والمساكل وأهوية الأماكن، وفائدة الأسفار، وما الى ذلك، فقال الصالح الشرقي (31) :

يامن غدت ككاسة (32) مكناسة
 قيد لنا في الطب ما الأغذية
 من نظمك العذب البليغ الأشهى
 بين به الثقيل والخفيفا
 أو الجسم في الفصول الأربعة
 الى أن قال :

وما يوافق انضاج منها
 وضدها كما نحمد عنها

فأجبه بقصيدته المسماة بالشقرونية، التي ماتزال مخطوطة ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1613 ك.

ويقول في مطلع القصيدة :

الحميد لله الحكيم المرشد
 المنزل الغيث من السماء

وفيها يقول (34) :

القول في المأكول من حبوب
 القمح في المزاج حار لين
 يلامم الطبع ويصلح الحجى

وفي الشعر قال :

وفي الشعر البرد وألبسوسه
 فيه رياح جمة محسوسه

وفي الأرز قال :

وفي الأرز الحر واللطافة
غذاؤه يخصب الأبدان
خذه مدى الأزمان لا يخافه
ويصلح الأحشاء والألوانا

وفي الفول قال :

والفول فيه البرد واليبوسة
يولد الرياح والبلاده
أمراضه مشهورة محسوسة
ويورث الأجسام سوء عادة

وفي الطيور : (35)

القول في المأكول من طيور
إن الدجاج خير طير يוכל
من سيء اللحم، ومن مشكور
للحمر واللين تراه يعدل

وكان ابن شقرون المكناسي الطبيب الأديب الشاعر محط عناية من معاصريه وحين عودته من الرحلة الدينية والعلمية الى المشرق هناك أبو عبد الله الصالح الشرقي، بقصيدة مدحه فيها كما مدح مكناسة الزيتون فقال : (36).

خليلي ونعم الخل حافظ عصره
فتى جاب أفق الشرق ولاقي رجاله
عنيت ابن شقرون البديع جماله
وجال فجلت واستنارت خصاله

الى أن قال :

لمكناسة الزيتون عز ورفعة
تبارك من أولاه وجهها مهللا
على غيرها إذ لاح منه هلاله
وكفا يكف البأس هام نواله
هنيئا له كل التهاني، وكيف لا
يهني، وفي الخيت أنفق ماله

وينبغي ألا ننسى علما بارزا من أعلام مكناسة، ساهم في النشاط العلمي والثقافي في هذا العصر بوضع مؤلف سماه (التبنيه والاعلام بفضل العلم والأعلام) (37)، ذلك العلم هو أبو القاسم ابن سعيد العميري التادلي المكناسي (38) (ت : 1178 هـ/ 1764 م).

تحدث في مقدمة الكتابة عن فائدة العقل ودوره، وعن اليوم الذي ولد فيه وهو يوم الخميس (1103 هـ/ 1691 م) فأشار الى فضائل أيام الأسبوع، ومن ولد فيها من الأنبياء، وما حدث فيها، وما قيل فيها من أشعار وأنظام، منتقدا تشاؤم الناس من بعض الأيام كيوم الأحد، فأشار الى قول الشاعر لبيد بن ربيعة :
لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى
ولا زاجرات الطير ما الله صانع

كما انتقد الاستخبار بالزجر، وفعل الشعوذة بقول أبي علي السوسي (أو أعلم أن هذه الأمور العادية يفعل فيها العامة والقاصرون والخاصة، أما العامة فإنهم إذا رأوا شيئا عند شيء نسبوه الى ذلك الشيء، وغفلوا عن الله تعالى، فوقعوا في الشرك) (39).

كما ترجم لنفسه ولأبيه في هذه المقدمة، ولبعض الاعلام الذين عاصروه من شيوخ وأصحاب منهم أحمد بن عبد القادر التاساوي، ومحمد المكي بن موسى الناصري والشيخ محمد العطار المراكشي، وعبد القادر بن شقرون المكناسي ومحمد بن أحمد المسناوي وغيرهم.

هذه نظرة موجزة عن الحركة الثقافية في مكناسة في القرن الثاني عشر الهجري ساهمت فيها عوامل متعددة تقدمت الإشارة إليها، ولم تستطع هذه العوامل أن تحول أنظار العلماء والطلبة عن فاس عاصمة العلم والعلماء ليس في المغرب وحده، بل في أقطار شمال إفريقيا وفي بعض أقطار المشرق كذلك، لما كان يمر به العالم الإسلامي آنذاك من اضطراب وتقهقر في مجالات مختلفة....

الهوامش

- (1) الروضة السليمانية مخطوط خ ع رقم 257 ك ورقة 152.
- (2) انظر الاستقصا 121/7، 133.
- (3) الأنيس المطرب ص. 4.
- (4) انظر فواصل الجمان لغريب ط 40 — 60، والاتحاف 189/4، والاعلام للزركلي 28.27/6.
- (5) الدر المنتخب المستحسن 6/ورقة 103، والمنزوع اللطيف ورقة 443. 444.
- (6) انذر الاتحاف 96/4. 98
- (7) الاتحاف 96/4 — 98
- (8) التنبيه والاعلام بفضل العلم والاعلام مخطوط خ ح رقم 560 ورقة 57 — 59.
- (9) انظر النشر 134/2 ط. حجرية، والتقاط الدرر 338 — 339 والاتحاف 7/3 — 9.
- (10) انظر : النشر 193/2 ط حجرية، والتقاط الدرر 310 — 311 — والاتحاف 329/1 — 334.
- (11) الانحاف 331/1.
- (12) انظر التقاط الدرر ص. 297 — 298، والاتحاف 6/4
- (13) طبعت بتطوان سنة 1940.
- (14) (ت : 132 هـ/ 1719 م انظر الأتحاف 106/4 والاعلام لابن ابراهيم 177/2 ج 28/5 والاعلام للزركلي. 91/6.
- (15) سنا المهندي ز. لوحة 191.
- (16) الزوراء : الجهة الشرقية من بغداد.
- (17) الديوان مخطوط خ ح ورقة 48.
- (18) نشر المثاني 340/2 ط. حجرية.
- (19) انظر التقاط الدور ص. 303، والاتحاف 85/4 — 88.
- (20) التقطا الدرر ص. 303
- (21) انظر التقاط الدور 311، والنشر 194/2 حجرية، والدر المنتخب 7 ورقة 387.
- (22) مخطوط خ ع رقم 2305 ك ضمن مجموع ابتداء من ورقة 79 — 213
- (23) انظر ترجمة ولده له في (التنبيه والاعلام بفضل العلم والاعلام مخطوط خ ع رقم 560 ورقة 44 — 49.
- (24) نفسه ورقة 49
- (25) الأنيس المطرب 293 ط. حجرية.
- (26) المنزوع اللطيف مخ خ ع رقم 595 ورقة 94.
- (27) الحشر 7
- (28) المنزوع اللطيف ورقة 95 والجواب ينتهي بورقة 99

- (29) انظر : الأنيس المطرب 193، والاتحاف 325/5 ويجب أن نفرق بينه وبين سمييه عبد القادر بن أحمد ابن شقرون الفاسي أحد أعلام عصر السلطان المولى سليمان الذي توفي سنة (1219 هـ/1804 م) انظر السلوة 95/1 — 97.
- (30) الأنيس المطرب 193 وما بعدها
- (31) الروض البائع الفائح في مناقب سيدنا ومولانا أبي عبد الله محمد الصالح 124/2 — 127 مخ ح م رقم 61.
- (32) لعله يقصد كناسة الكوفة، وهو موضع بها.
- (33) ورقة 4.
- (34) ورقة 5 — 6.
- (35) ورقة 13.
- (36) الروض البائع 121/2 — 122.
- (37) مخ ح م رقم 560.
- (38) ترجم له ولأبيه في كتابه المذكور من ورقة 44 — 100، والأعلام للزركلي 99/3 اسمه غير محدد. حتى عصره محمد المكي بن موسى الناصري حينما مدح فهرسته (التنبيه والأعلام) قال عنه... أبو القاسم بن الامام أبو عثمان سعيد العميري) ورقة 99
- (39) التنبيه والأعلام ورقة 24

فنان تشكيلي من مكناس قراءة في اعمال محمد القاسمي

الاستاذ مليم العروسي

ثانوية محمد الخامس

الدار البيضاء

ماذا يعني هذا العنوان؟ من الممكن أن يكون عنوانا لمعرض نقصد به أن جماعة من الفنانين، تنتمي الى أرضية ثقافية — حضارية أو مذهبية وموحدة ويشارك أفرادها في خصائص جعلتهم يتفوقون على مبادئ ويعرضون لبلورتها. لكن أن نأتي الى هذا الحفل الذي تحاول فيه مكناس أن تحتفل بنفسها وتكرم من طرف متفقيها ونقذف بهذا العنوان ما يحتاج الى تبرير.

محمد القاسمي من مواليد مكناس، تكونت بشرته من أديمها « وهديمها » انسب ماؤها في شريانه، رأته عيناه بياضها وسوادها، السؤال: هل توجد مكناس في أعمال محمد القاسمي؟ هذا السؤال يفرض علينا (قبل أن نطرح السؤال المنهجي الصعب: هل بالإمكان أن تتجلى مدينة ما في عمل فني ما) أن نحدد مكناس كموضوع، كنص أو كإداة حتى نستطيع التحقق من هويتها داخل العمل الفني. ليس القاسمي فنانا تشخيصيا أو انطباعيا حتى يسهل علينا تحديد المقاهي والمساجد والقلاع والحصون. يمكن أن يصنف في عشيرة ما يسمى بالفنانين التجريديين (وهذا تحديد اعتباري تنقصه الصرامة المنهجية وأتمنى أن أوضحه خلال المناقشة)

إذا كان القاسمي ينهل من مكناس — من المدينة (اذن من الطفولة والام والثقافة) — فانه لا محالة ينهل من العميق والحميم حتى يستطيع ان يجعل منه شيئا كونيا، كما يبدو من أعماله (لان أعماله تتوق الى أن تسجل في الفن الكوني انطلاقا من الخاص).

لا أعرف مكناس ولا أعرف نبضها اليومي، لكن وراء العابر والعرضي هناك لائحة خيط لطيف تندرج فيه كل المتناورات — ككل الحوافز العريقة —، وعندما يكون الفن عظيما فانه يتجه نحو القبض على هذا الخيط اللطيف.

سوف يكون البحث إذن عبارة عن لوحات أقوم بوصفها وأترك للمستمع حق المشاركة في التأويل بمعنى أول أي رده الى المنبع الأول.

في اللوحة الأولى وصف لعمل أنجزه القاسمي خلال السنتين الماضيتين ولا يريد ان يبيعه للخواص بل يأمل أن تشتريه مؤسسة عمومية حتى يبقى تحت الانظار أي تحت عناية المتلقي بوجه عام. عنوان العمل: ثلاثية الليل والنور.

يتعلق الامر بثلاث لوحات عظيمة من حيث الحجم ولا يمكن فصلها عن بعضها اطلاقا، هذه أولا رغبة الفنان وثانيا يقتضي منطق التلقي والتعامل مع العمل الفني أن تكون هذه اللوحات مجتمعة لان كل لوحة لا تمثل الا جزءا من العمل.

في مركز اللوحة المركزية تيزغ دائرة مضيئة تحترق (أو هكذا يبدو) الاسود وتضعف قوامته، كما توهمنا (الدائرة) ان الالبيض يختنق بسبب طغيان الاسود. من نفس الدائرة تظهر مربعات مسكونة برموز وأشكال منطفئة. تأتي بعدها ضربة فرشاة لتلامس المربع وتترك عليه بصمات حمراء تجاورها جنازتين. يلامس الازرق والالبيض والاحمر الدوائر السوداء التي تصبح هكذا وكأنها رؤوس مقطوعة ووجوه مشوهة قد اندمجت ملامحها نهائيا.

وهاهو البني يعود مع الازرق (لونين يمثلان مرحلتين مختلفتين عند الفنان). ماذا يعلمنا هذا العمل؟ أين يكمن الضوء (النور)؟ من الذي يضيء الآخر الالبيض أم الأسود؟ هل هذه إعادة نظر في المبدأ اللاهوتي القائل بأن السواد ظلام والبياض نور؟ ألا نرى السواد والبياض بسواد العين؟ ألا يشتعل نور العين عندما تكحل؟ ألا تصبح مجلب غواية؟ السواد نور: ألا نقول في لغتنا الشعبية عمن فقد بصره أنه دخل بيت الظلام ونؤكد أنه بصير؟ كيف يصبح بصيرا فقط عندما يدخل بيت الظلام؟ ما علاقة البصر بالبصرة والسواد؟

كل شيء يوحي بأن هناك معركة تجد فعلها في اللوحة. من أي أنواع المارك يا ترى؟ عالم مسكون بالعلامات يظهر وكأنه يحاول ان يشق طريقا له خلال ليل قد أرخى سدوله وكأنه يأبى الرحيل. من أين تسرب السواد للفنان واستقر كمسلك وحيد للتعبير عن معركة ما؟ ونكرر ما هي هذه المعركة؟

نرجع الى اللوحة الثانية: مكناس ربما أفادتنا بنور ما. تسند مكناس ظهرها لولليل الرومان وزرهون، وينساب سائل كروان في عروقها. تنخرط في الاطلس وما وراءه من حضارة افريقية وتنصت في هيبة وجلال خاصين للأندلس والمشرق عبر فاس، مكناس ملتقى اذن وهذا اللقاء الحضاري المركز لم يجعل من المجموعات الثقافية مجموعات تتساكن فقط بل تدخل في تطاحن (لا بمعنى الأخلاق) تطاحن لا يهدف الى محو الآخر أو السيطرة عليه بل يحاول تأكيد الأخلاق. فمكناس مدينة العلم والتقوى محروسة من طرف مولاي الكامل الذي تجحجح اليه سنويا مجموعات منتظمة في مسيرات قدسية تذكرونا، دون ان نجهد لا العقل ولا الذاكرة، بالمسيرات الباخوسية الاغريقية. من غريب الامور أن يحدث هذا بالقرب من وليلي.

هذا التطاحن أعطى لمكناس، في نظري، صبغة المدينة المقدسة بمعنى الغامضة والمهابة في نفس الوقت. أصبحت مكناس التي يرقبها ابن حمدوش كذلك ومن جهة خاصة، مدينة نكبتها ونكبت معها كل شعائرها السابقة على الاسلام، نكبت معها كل الآلهة التي اختزلناها في كلمة جن أو شياطين واحتفظنا بها في حقل الرمز تحتل في ذاكرتنا الجماعية مكانا خاصا لكننا نرتعش عندما يتعلق الأمر باقتحامها. كذا فعلت مكناس تكلست حطائها، فأصبحت المدينة الملتفة على نفسها.

هذا التطاحن وهذه القدسية والهيبة أو ما أسميه المعركة والتي تكونت عاطفة الفنان داخلها كفضاء رمزي (سواء في الحكاية أو الشكل والعلامة) هل تخلص منها واستبعدها أم حاول تلخيصها وتركيزها في العمل الفني؟ ان الوصف الذي سبق يظهر لنا أن المعركة موجودة على شكل تطاحن بين النور والظلمة.

ألا يحمل القاسمي إذن، على عاتقه مكناس السواد؟ لن أجزم سأترك لكم مهمة الجواب لكنني سوف أعطيكم اشارات، علاقة عيساوة بالسواد، مدينة البواخرة، السنين السوداء بعد موت المولى اسماعيل، مكناس منطقة ضليلة أي تعيش في الظل وتحت الظل، أي علاقة مكناس بالقنامة وكل ما هو في الظل يكون مصدر خوف ورعشة كما هي الأشياء المقدسة وفي الظل تنتشر الحميمة والعمق. هناك من سيغادرنى هنا لينطلق في التأويل أقول لمن بقي معي هذه اللوحة الثالثة:

كان النبي دائم الحضور في أعمال محمد القاسمي، ولقد كان يدهشني عندما يمازح بين النبي القاتم والاسود. كنت أحس حتى من خلال مناقشتنا أنه يجذب لو أنني أتكلم فقط عن هذه المساكنة. يتساكن النبي القاتم والاسود ويبقى النور مختالا على طول اللوحة، انه حقا انتصار تقني كبير بحيث لا يملك فنانون كثيرون قدرة وضع لونين قائمين دون ان ينطفيء ضوء اللوحة وإذا انطفأ النور فشل العمل الفني. لهذا أظن أنه بإمكانني أن أجازف بأطروحة أولى، أبدأ بتوضيحها ثم أبررها من بعد، تمثل مدينة مكناس، في اعمال محمد القاسمي، الصورة المتواترة تماما كما هي صورة الام، حيث تقبع وراء كل صورة، دون أن تكون محددة المعالم.

النبي حاضر أبدا، انه عنصر توازن للوحة، وكأن اللون يصبح هو السنن الذي بواسطته تتمكن من قراءة اللوحة. اذا غاب النبي نؤول غيابه وفي حضرته تتساءل عن مكانته في اللوحة وعلاقته بالالوان الأخرى.

ينذر اذن أن لا نجد في أعمال (القاسمي) ذلك النبي أو الكستنائي القاتم إلا أن اللون الذي لا يفارق أعماله هو النبي المتدرج من الاحمر او الاحمر ما بين النبي والقرمدي او الاحمر الطوبي (هو نوع من النبي) أو ما يشبه تراب الحمري (ما علاقة كل هذا بحميرية مكناس وما أكثر الاحمر بمكناس). لو أثبت لي ان حميرية كانت مقلع تراب وطوب لبناء مكناس لانهيت من هذه التساؤلات. على كل حال سواء تعلق الأمر بحميرية مكناس أو غيرها، فلقد وجدنا أنفسنا ونحن نربط القاسمي بالأرض. لست بالطبع أول قائل بهذا، لقد قاله هايدغر سنة 1936 عندما ألقى محاضرة «أصل العمل الفني». إن العمل الفني يفسح المجال للأرض لكي تحضر ويؤسس عليها العالم على شكل صراع. معركة ينخرط فيها الأموات والأحياء، والآلهة، الأرض والعالم. هذه هي حقيقة الفن.

قد يتساءل متسائل: ان الفنان قد عنى بالمحتوى اللوني للوحته شيئا آخر بالفعل، اذا كان الفنان يتحكم في كل شيء حتى فيما يعانیه فيامكانه ان يقول أنه يعني كذا، لكن الامر يتعلق بلغة بصرية لا يضبط نحوها بسهولة لا من طرف المتلقي ولا الفنان. ان الفنان يتعامل مع القواعد التي تسعفه مستعينا في ذلك بخبرته التقنية. لكن ما ان يضبط التقنية حتى تتسلل اللغة الاصلية من حيث لا يدري. واللغة اللونية التي تسعفه هي التي تكونت فيها عاطفته (اتكلم بالطبع عن الفن الصادق).

إن اللون في حد ذاته يستعمل كمعادلة. ليس اللون كما يفهم على أساس أنه يمثل الشعور كذا أو كذا وأعني المتقابلات التقليدية (أسود / كآبة — أبيض / سلم...) لن نفرط بالطبع في هذه التفسيرات

ولكن يجب ان لا ننسى أيضا ان لكل منا تجربة خاصة مع اللون من الممكن ان يستعمل الفنان الاسود للتعبير عن الفرحة أو النور لانه يتفاعل داخله كذلك ولان الفن ميدان الازداد تماما كالحب. ألا يعرض الهائم حبيبته رغم ولعه بها ورغم معرفته مسبقا أن هذا تصرف متوحش؟

يجب ان لا يفهم من هذا انني أدافع عن نسبية الالوان، لا أنفيها لكنني لا أدافع عنهما. يمكنني أن أدافع عن نسبية الالوان بالنسبة للفنان في اختياره لها، لكن يصعب علي ان ادافع عن نفس الفكرة عندما تتحول مادة الصباغة من مجرد سائل كيميائي أو غيره الى عمل فني. عندما تصبح الكلمة شعرا فإنها تأخذ مكانها في بناء تصبح معه حاملة لهيئة خاصة بها. ألا يحدث أن نقول : كنت لأحب الأحمر لكنني لما رأيته ملبوسا من طرف فلانة أصبحت أعشقه. هذا هو التجلي وهذا ليس محل الحديث عنه.

نعود لنضع أقدامنا على الأرض، يرتبط القاسمي بالأرض إذن بمكناس حسب قولنا. كيف يتم ذلك ؟ هل بتكرارها وتصويرها ؟ أي هل يعيد إنتاج ما رآه وما عاشه ؟

هنا نطرح سؤالاً صعباً، وكأنا نريد أن نتساءل من خلال تجربة محمد القاسمي عن ماهية الفن أي هل الفن تصوير أم تحوير أم غير ذلك ؟

لا داعي للإطالة في هذا الباب فلقد بدا واضحا أن مكناس ليست مستعادة بشكل خام. القاسمي يستعمل (وإن كنت لأحد هذه الكلمة لما فيها من تهجم على حياء وهمية فضاء مدينة عريقة بمعنى العروق الضاربة في الأرض والتاريخ) قلت يستعمل ولا تسعفه إلا القواعد والرموز التي نشأ بداخلها لكي يني أو يفسح المجال (عبر جسده بالطبع) لفن يمكن الان أن يصنف عالميا.

صورة مكناس في الأدب المغربي

الأستاذ. عباس الجرازي
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة محمد الخامس
الرباط

حضرات الاخوة

بإتجاه كبير وسعادة غامرة، أشرك في هذه الندوة التي تنظمها كلية الآداب بمكناس عن الحضرة الاسماعيلية الكبرى. والموضوع الذي سأحاول إشارته يتعلق بـ «صورة مكناس في الادب المغربي» وما سبقني اليه الزملاء الذين تحدثوا عن الثقافة في هذه المدينة سوف يعينني من تناول بعض الجوانب التي ربما كنت سأنتظر اليها ومن ثم سوف اعفي بدوري رئيس الجلسة الاستاذ الاخ علال الحجام من تيبه للوقت، لاني لاشك سأكون منضبطا مع ما هو محدد لي منه.

ما هي صورة مكناس في الأدب المغربي ؟

الحقيقة ان المكان — أي مكان — حين يوصف او يصور في التعبير الادبي يتحول من مجرد موقع ساكن ومن مجرد كتلة هامة الى مجال حيوي متحرك وفي هذا المجال المتسم بالحيوية والحركة، تعمل العملية الابداعية على خلق جو مفعم بالروح، مشع بالذاتية والشخصية.

هنا تتدخل الكيفية التي يذكر بها المكان وسياق الأوصاف — أي أوصافه — وارتباط ذلك كله بالمبدع واحساسه وانطباعه، مع ما تستدعي هذه العملية من انحاءات، مما يحول اللقطة المكانية في النهاية الى لحظة عشق، إنساني لها ومضات فنية في الزمان المحيط بهذا المكان، مهما تناءى أو تباعد. وهي لحظة يكشف عنها المبدع من خلال القصيدة — أو غير القصيدة من أنماط التعبير الادبي — لتعطي لللقطة أي للمكان، بعدا أو ابعادا تخرج به عن هذه الكونية المحدودة الجامدة وتجعله يشع بومضات تنبعث من ذات المبدع مشحونة بالقدرة على الانتقال الى ذات المتلقي في أي زمان ومكان.

والادب العربي كما نعرف جميعا غني بهذه الصور التي قدمها لنا المبدعون والتي نقلت عدة امكنة من المرحلة الكونية الجامدة الى مرحلة تتميز بالحيوية والايحاءات مع كل ما في ذلك من نبض وعشق وحب لهذه الامكنة ومع ما يتسنى بالتحول آخر الامر من خلود يكتب لها، ليس فقط من حيث أسماؤها ولكن كذلك باعتبارها شحنة ومضات.

ولكي ندرك عمق هذه الحقيقة الفنية الرائعة، يكفي ان نذكر دارة جلجل ودومة الجندل اللتين كانت لامرئ القيس فيهما مواقف تغني بها وتغنت معه الاجيال ولا تزال ومثلهما كثير من المدن والبقاع صورها الادباء على امتداد التاريخ فأتاحوا لها الانتقال من مرحلة السكون والجمود الى مرحلة الحيوية والتشخيص.

وإذا كان الأدب العربي — على امتداده منذ الجاهلية — قد أعطى لهذه الأبعاد كثيرا من الأمثلة، فإن الأدب الأندلسي أضاف لها المزيد، إذ اتيح له مبدعون كابين خفاجة الذي تفنن في وصف البلاد الأندلسية وسجل لطبيعتها لقطات نحالة.

إن الأديب حين يصور المكان، سواء صورته من الخارج أم من الداخل، وسواء أكان ذلك على امتداد فترة طويلة أم من خلال فترة سريعة فإنه يربطه بلحظة شعورية غالبا ما تكون عابرة، إلا أنها على محدوديتها تكون قادرة على أن تجعل المنظر يمتزج بكيانه ويعطيه من خلجاته ما يبعث فيه نبض الحياة، وما يمكنه من الطاقة التي تتيح له نقل هذا النبض، ومعه نقل حب المنظر والتعلق به والاحساس به والتجارب معه؛ لافرق في ذلك بين أن تكون اللحظة مفعمة بالسعادة والسرور، وبين أن تكون مغمورة بالأسى والحزن، وفي أدبنا العربي — والأندلسي خاصة — كثير من نصوص هذا التعبير وذاك، بدءا من وصف البساتين والقصور والمدن والاشادة بجمالها واتساعها وازدهار حركتها ومجالسها إلى رثاء ما يندثر منها أو يقع في يد الأعداء.

وفي أدب المغرب أنماط كثيرة من هذه الصور التي قدمها لنا الأدباء، والتي لا يمكن أن تطرح إلا في هذا السياق الذي يربط بين عملية الإبداع وعملية نقل المكان من المرحلة الجامدة الساكنة، كقطعة أرض أو كحجر هامد، إلى احساس ونبض وومضة أي إلى لحظة عشق — كما قلت — يمكن أن يتناقلها المبدعون والمتلقون في مختلف العصور وهذا هو الذي يعطي للمكان خلوده، ويمنحه تلك الاستمرارية التي تجعله دائما في الأذهان وفي النفوس والقلوب.

ثم إن هذه الظاهرة التي نصادفها كثيرا في الأدب المغربي والأدب العربي عامة، تدل على شيء آخر ربما يكون خارج العملية الإبداعية، هو مدى تعلق الأديب بالمكان الذي يعيش فيه أو يلقي حبه وهواه وإن بشكل عابر وسريع، أو يخترن ذهنه ذكريات عنه، مما يفضي إلى وعي وطني عند المبدع وإلى درجة عالية منه وقد أقول إنه وعي حضاري وثقافي يتبلور في حس وطني.

وإذا كان الموضوع — موضوع المكان أو الأمكنة — يشغل حيزا كبيرا في الأدب العربي، فإنه قد تحول — كما لا يخفى عليكم — في المرحلة الحديثة لا سيما على يد الأدباء الرومانسيين والمهجرين خاصة إلى صور مخالفة فأصبحنا نلاحظ نزعة أخرى تحث الأديب على أن يفر من المدينة إلى الغابة أو إلى البادية وما إليها مما يشكل أطارا يجيد في على النطاق الذي حددته للموضوع، وإن كان غيري قد يتعرض له إذا ما تحدث عن بعض شعرائنا المعاصرين وموقفهم من المدينة.

إذن، في ذلكم الأطار توضع الصورة التي نجدها في الأدب عن مدينة مكناس وهي صورة متعددة الملامح والسمات. لماذا هي متعددة؟ لأن هناك عوامل كثيرة تحركها هذه أهمها:

أولا: موقع مكناس في وسط سهل خصب غني جميل، بكل ما حباها الله في هذا الموقع من مميزات نعرفها وتنعنى بها، تتعلق بمائها العذب وهوائها العليل وطبيعتها الفتانة.

ثانيا: كون هذه المدينة أصبحت عاصمة الدولة في عهد المولى اسماعيل، مما جعلها ملتقى الوافدين وقبلة الأنظار.

ثالثا: وجود عدة مآثر تاريخية بها وقصور ومنتزهات وغيرها من المنشآت المهمة، وكذا وجود أضرحة لعدد من الأولياء والصلحاء المشهورين المقصودين للزيارة، سواء من المكناسيين والمغاربة عامة.

رابعاً: لهذه الاعتبارات وغيرها عرفت مكناس في فترات طويلة من التاريخ حركة ثقافية مزدهرة، ونبوغ كثير من العلماء فيها والادباء، مما اغنت به المدينة مختلف مجالات الثقافة المغربية.

خامساً: ثم ان مدينة مكناس — ودائماً لهذه الاعتبارات السابقة — أتيج لها ولإبنائها ان تكون لهم روابط ثقافية وفكرية، وأن يشهد اليهم الآخرين، ولاسيما من المدن الكبرى، انطلاقاً من جارتها فاس الى غيرها من الحواضر كمراكش والرباط.

ومن ثم، فان الادب الذي يصور حاضرة مكناس جاء يعكس كل هذه العوامل وينطلق من مختلف الدوافع التي حفزت التعبير، وجاء بالتالي يبرز السمات التي يمكن استخلاصها لتكميل صورة هذه المدينة. الا ان الالف شديد ان الوقت لن يتسع للتعرف الى مختلف ملامح هذه الصورة في الادب المغربي؛ والسبب أننا نجد صورة مكناس في فنون كثيرة وفي اشكال تعبيرية متعددة، في كتب التاريخ والرحلات، وفي فهارس العلماء وفي كتب الطبقات والتراجم، ثم تجدها في الشعر وبعض الفنون الثرية كالرسائل والمقامات. ونجدها بعد هذا في التراث الشعبي وفي الملحون منه بصفة خاصة. وهنا أود ان اعتذر، اذ لم اتمكن من حضور المائدة المستديرة التي عقدت أول أمس حول فن الملحون بمكناس، وكانت رغبتني في المساهمة بعرض فيها كبيرة.

إذن، لحاضرة مكناس صورة متعددة الملامح والقسمات، وسوف لا اتحدث عن هذه الجوانب كلها لاني لو حاولت لاحتجت الى ساعات طويلة، ولكن لا بأس ان أذكر بانه سبق لي في السنة الماضية، وفي نطاق ندوة عقدت هنا نظمتها جمعية قدماء تلاميذ مكناس، وان تحدثت بشيء من التفصيل عن صورة مكناس عند أدباء العدوتين الرباط وسلا، من خلال انماط تعبيرية كثيرة كالشعر والرحلة وكتب التاريخ.

ولعلي هنا ان اذكر بان الادب الذي صور معالم هذه المدينة ليس أدبا مجهولاً كما قد يظن، فما جمعه مؤرخ العاصمة الاسماعيلية العلامة المرحوم عبد الرحمن بن زيدان في الجزء الأول من كتابه «الاتحاف» يعتبر مادة غنية وغزيرة، اذ ساق العديد من القصائد والمقطوعات والايات التي قالها الشعراء، اولئك الذين عشقوا هذه المدينة ورسموا لها لوحة بل لوحات محددة الملامح والسمات، أمثال ابن عبدون وابي القاسم العميري ومحمد الغالي العمراني، واحمد بن علي مصباح، وادريس الوكيل، والتهامي بن الطيب امغار، ومحمد بوجندار، وابراهيم السلوي، ومحمد بن الحاج السلمي، وعبد القادر العلمي العرائشي، ومحمد البيضاوي الشنيطي، واحمد سكيرج، والشرقي الاسحاق وعبد الله القباچ، ومحمد بن العباس العلوي النجار، والحاج محمد بوعشرين، ومحمد بن المفضل غريط، والمدني ابن الحسين، واحمد الصبيحي، واحمد المامون البلغيثي، وعمر بري المدني، وعبد الملك البلغيثي، وعبد الرحمن بن زيدان نفسه؛ دون نسيان ما ساقه صاحب «الاتحاف» من اشعار منقوشة على بعض المباني التاريخية في المدينة.

من هنا اجدني في موقف صعب، لاني لا اريد ان اكرر ما هو متداول معروف، أو ما ورد عند الاخوان في العروض السابقة. لذا فسوف اكتفي بتقديم بعض النماذج، أقصر منها فقط على ما يتعلق بفن المقامات وبالشعر في شكله المعرب والملحون.

وكما سبق ان قلت فان هذه المقامات والاشعار وما اليها من الادب الذي صور مدينة مكناس، انما رسم لها لوحات من خلال المآثر والمزارات والمواقع المختلفة التي مرت الاشارة اليها وهي في النهاية لوحات متكاملة تقدم لنا صورة عن مكناس مشعة وجميلة تدل على المكانة المزدهرة التي عرفتها المدينة في مضمار الحضارة والثقافة.

من الشعراء الذين اريد التمثيل ببعض نماذجهم محمد بن ادريس العمرابي الذي عاش في عهد المولى عبد الرحمن، اذ توفي في سنة اربع وستين ومائتين وألف للهجرة الموافق عام سبعة وأربعين وثمانمائة وألف للميلاد. فقد كان من الادباء الذين واكبوا سير الدولة لانه كان مقربا الى سلاطينها وأمراءها. وفي النص الذي أود تقديمه، يتحدث على لسان السلطان المولى عبد الرحمن، متشوقا الى مدينة مكناس، ولعله أعرب له عن هذا الشوق، فقال قصيدته، وهي طويلة يصعب حتى ذكر أبيات منها معدودة، مما سيجعلني اكتفي ببعضها؛ ذلكم اننا في أمس الحاجة في مثل هذه الندوة، ليس فقط ان نتحدث في عروض نظرية تاريخية تحليلية، ولكن ان نطرح بعض النماذج التي من شأنها ان تبلور الكلام الذي يقال، وان توضح لنا ملامح الصورة التي نريد عرضها.

يقول ابن ادريس في أول هذه القصيدة:

تذكرت المعاهد والديار	وحسن الغانيات من العذاري
وأقمارا بمكنسة تجلت	وأياما بها سلفت قصارا
بلاد إن تذكرها مشقوق	يحن لحسن رؤيتها اضطرارا
وان تليت محاسنها يجمع	حسبت الناس من طرب سكارى
وان هب الصبا منها ذكرنا	بنفخته البنفسج والعرارا
وان شمنا البوارق أو شمنا	شد منها خلعا به العذارا
مساحتها وطيب الماء فيها	وحسن هوائها بالقلب طارا
سقى مكناسة الزيتون غيث	وصبو مدامعا فيها غزارا
وحيا معاهدا فيها وأحيى	حدائقها وألبسها اخضارا
منزهها لجسم الانس روح	بها الافراح قد رفعت منارا

بعد ذلك، أخذ الشاعر في استعراض ما في هذه المدينة من منازع وقصور ومن الملاحظ ان ابن ادريس العمرابي — ربما بحكم الإرتباط الذي كان له مع السلطان المولى عبد الرحمان — سوف يلح على المنشآت التي أقامتها الدولة ولا سيما في مجال تشييد القصور.

ومن ثم، نجده يقول قصيدة يمدح بها نفس السلطان وقد بنى قصرا قيل في مقدمة النص إنه اقامه امام قصر المحنشة في الدار العالية بمكناس. وهي قصيدة طويلة إن كنت لأستطيع قراءتها كلها فلا اقل من ان اتلو بعض ابياتها التي يصف فيها هذا القصر ويقارنه بقصر البديع الذي شيده المنصور السعدي في مراكش وقصري الخورنق والسدير الذين بناهما النعمان بظاهر الحيرة، وكذا قصر زهراء المنصور بن ابي عامر بالقرب من قرطبة وقصر غمدان بصنعاء اليمن، اذ يجعله يتفوق عليها جميعا ويحكي الفردوس.

والشاعر حين يجعل القصر يتفوق على غيره من القصور يربط ذلك بمدح السلطان. وبهنا هنا ما قاله عن هذه الدار بعد ان مدح المولى عبد الرحمن:

بدار الملك مكناس تسامت	شموس السعد واعتلت الدور
وعاودها من الاسعاد عيد	بقطب حوله العليا تدور
فشاد بها كلاه الله قصرا	تقاصر دون بهجته القصور
به اختصر الجمال فكان فردا	لجامع حسنة الابصار صور

فما قصر البديع بديع وصف
 ولا الزهراء زاهرة لديه
 حكى الفردوس لو للخلد يعزى
 سما وسط القصور الشم قدرا
 بدا في عقدها المنظوم وسطا
 مغايبه كناس ظباء أنس
 كأن قبابه الأبراج حلت
 برونق حسنة الابصار تعني
 به الاسعاد خيم والمعالي
 وما أولاه ان يسعى بقصر السور
 ففقد ثوى فيه السرور
 باسم الله يكلأ والمثاني
 لهن خليفة الرحمن مغنى

لديه ولا الخورنق والسدير
 ولا غمدان يشبه لويحور
 تنعم فيه ولدان وصور
 يلوح عليه للاحسان نور
 سما بجمال موضعه النحور
 وخيس حله ليث هصوز
 بها الشهبان والقمر المنير
 وتشرح عند رؤيتها الصدور
 به وردت وليس له صدور
 ورور فقد ثوى فيه السرور
 تحيط به للحفاظ سور
 به نور السعادة يستطيع

في هذا السياق أود ان أشير الى بعض الشعر الذي قيل في مكناس، والذي لم يلتفت اليه؛ وهو صادر عن علماء كانت لهم صلات أدبية باعلام المدينة إما بحكم توليهم منصب القضاء فيها أو بحكم حضورهم مجلسا علميا أو القائهم درسا بها أو بحكم تعلقهم ببعض صلحائها. يكفي أن أذكر من هؤلاء الفقيه الأديب مولاي احمد بن المامون البلغيثي المتوفى عام ثمانية وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة الموافق سنة تسع وعشرين وتسعمائة وألف للميلاد. وألفت الانتباه الى ان صاحب «الانحاف» أورد له بعض الشعر، الا أني سوف اكتفي بيئتين أسوقهما له يتحدث فيهما عن جانب جذب كثيرا من الادباء وأفرز غير قليل من الابداع الشعري، وهو المتعلق بأولياء المدينة، ويعتبر في الحقيقة حيزا مهما فيها شغل التاريخ والفكر والادب. يقول الشاعر في هذين البيتين:

الايأ رجال الله يأهل مكناس
 ومنوا بأمالي فاني ضيفكم

لجأت اليكم فاجيروا صدع افلاسي
 وضيف كرام الحمي يحظى بايناس

مثل هذا الشعر نجده كذلك عند الأديب الرباطي محمد بوجندار المتوفى سنة خمس وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة الموافق عام ستة وعشرين وتسعمائة وألف للميلاد وأسأوق مثالا منه وأن سبق ان قلت بانني لن اتحدث عن ادباء العدوتين لاني كنت ألفت عنهم محاضرة أثرت فيها ما قاله هذا الشاعر عن مكناس والجدير بالذكر ان له رحلة شعرية الى هذه المدينة ما زالت مخطوطة وكان قد زارها في اواخر ايامه وهو مريض مرضه الذي أقعده، مما يفسر كثرة توسله بأولياؤها على حد ما قال عند زيارة ضريح سيدي عبد القادر العلمي.

هذا المقام مقام العارف العلم
 غوث الورى غيهم هادي الهداة ومن
 نظ حمل الرجا ولد ساحتسه
 وعفر الوجوه والثم تربه وبه
 اضرع الى الله واسأله مثوبة
 كم حامل بالتنكير منخفضا

بحر الولاية عبد القادر العلمي
 اضحى كنار القرى ليلا على علم
 فانه حامل الرايات والعلم
 وما له من كرامات ومن كرم
 ولا تكن ما دار عن ورده الشيم
 فصار مرتفعا كالفرد العلم

فعاد مشتفيا من كل ما ألسم
يكد يقضي الاسى عليه بالعدم
يفتر في وجهه بثغر مبتم
من جوهر المدح منشور ومنظم
من دونها في البها الازهار في الاكم
قد ابدعتها يد الامثال والحكم
اجرى النها برهان الطرس والقلم
والحق يظهر من معنى ومن كلم
حتى تنكر فيكم بالضنا علم
ولا صبت بيجران بدي سلم
تمليني عطفة من جيرة العلم
قد طاب مفتحي وطاب مختمي

وكم عليل غدا يرجو الشفاء به
وكم عبوس من الخطوب منقبض
أضحى له الدهر رجب الصدر منشرحا
لما احتمى بالحمى الاحمى وطوقه
وحاك من صنعة القريض أربية
وزفها طرفة في الحسن رافلة
ثم انثنى محرزا فضل السباق وقد
يقول قول محققة في مقالته
ما مرت في الجديين الناس معرفة
وما تحرك قلبي حول ساكنه
حتى حلت بمكناس وقد طفقت
من جبرت بهم طاب الثناء كما

يكفيني هذا بالنسبة للشعر، وانتقل الى النثر وفن المقامة خاصة، اذ توجد بعض المقامات التي ارتبطت بمكناس كذلك التي تسمى «المقامة الفكرية في محاسن الزاوية البكرية»، وهي من انشاء محمد بن احمد السنوسي الدلائي المتوفى عام ستة وثلاثين ومائة والى للهجرة الموافق سنة أربع وعشرين وسبعمائة وألف للميلاد. وفيها يصف الرحلة من فاس الى مكناس ثم الى تادلا فمرابع الدلاء. ذلكم انه قصد الزاوية البكرية التي اشتاق إليها، الا انه يقف في مكناس ويلتقي ببعض أهلها، فيستفسره بعد ان يصفه ويتحدث إليه عن الطريق المؤدي إلى الزاوية ولكن في وسط ذلك من خلال هذه الوقفة يعطينا في سطور نظرة عن مكناس، فيقول من مقامته الواردة في كتاب «البدور الضاوية» المخطوط بمخزاة الرباط العامة وهو لسليمان الخوات :

«فما زلت اقطع المعامي والمجاهل، والزياري والمناهل، الى أن أشرفت على مكناسة الزيتون، ووافيت ماءها الجاري الهتوت فتحيرت بين ان أسير، أو أبيت فيها ليلي وأستشير. فما كان الا كارتداد طرف، أو كاختطاف حرف، حتى طلع علينا ظبي فارق كناعة، بل هلال قد أطلعته بروج مكناسة. فلما رأيته تفاءلت بحياه الحي، ومنظره الناظر البهي، وقلت: والله هذه العياقة والزجر، لاكن يتفائل بالغراب والنسر. فانتحاني وكأنه قضيب من البان، أو اليناع من أغصان الخيزران، فلما غشيني بظله، وقد فتنني بدلاله ودله قمت للتسليم عليه، وقبلت ما بين عينيه، فتهادينا نفحات السلام، وان كان لم يتقدم لنا قبل ذلك التمام. فقلت له وقد استجلمسته وانسني وأنسته: يايتيمة العقد المنظوم، وياربجانح المشموم، اني سمعت في الاخبار المشهورة والانباء الماثورة ان الوجوه الحسان مقصودة في امور الانسان. فقال لي: افصح عن حاجتك فقد فتنني بمناجاتك. فقلت له اني خرجت استقرىء البلدان واتبع منابت الازهار في هذه الاوطان، فان لي الى ذلك ولوعا وانصبابا، واشتياقا وانسيابا. فقال لي: لولا ان المستشار أمين وأن الحيانة ضلال ميين ما حثوت اذنك من كلامي باشارة، ولا نثرت در الفاطني لك فتلقطه السيارة، لكن سمعت الناس يتحدثون ان الزاوية البكرية والدار السنية العالية هي أجل الارضين أزهارا، وأكثرها نسرينا وعرازا. فما تمالكت ان نهضت طائشا ومن فراق جليسي داهشا، فاستلجمت فرسي وأسرجته، وعلوت صهوته ووجهته...»

كذلك اود الاشارة الى مقامة متأخرة في وصف مكناس لمحمد غريط المتوفى سنة أربع وستين وثلاثمائة وألف للهجرة الموافقة عام خمسة وأربعين وتسعمائة والى للميلاد، وتسمى «المقامة المكناسية» وتصور

خروج الراوي «المتجول ابن السائح» من فاس متوجها الى مكناس بهدف الترويج عن النفس. فبعد ان تحدث عن السفر وأسبابه، ذكر وصوله الى هذه المدينة وزيارته مآثرها كضريح المولى اسماعيل ومسجد القصبة، وباب منصور العليج، والمنتزه العمومي، وساحة ابي الحسن على منون، ثم ختم بالعودة الى فاس وقد اشتاق اليها وهي مقامة توجد نسخ لها مخطوطة وان سبق نشرها في مجلة «النبوغ»

بعد هذا، أشير الى النقط الثالث الذي أريد لفت الانتباه اليه وهو التراث الشعبي ولا سيما الملحون منه ذلك ان مدينة مكناس جذبت اليها كثيرا من اشياخ هذا الفن، خاصة وأنها كانت مند عهد بعيد ملتقى لشعرائه. ونحن نعرف من خلال التاريخ أنه في عهد المولى الرشيد والمولى اسماعيل كانت مكناس قبلة شعراء الملحون من المغرب والجزائر، وكان هؤلاء الشعراء يتنافسون على حد ما بينت في كتابي عن «الرجل في المغرب — القصيدة».

ومن المعروف كذلك أن بعض شعراء الملحون نبغوا في مدينة مكناس كالعيمري وسيدي قدور العلمي، وهذا بالذات إذ وجوده في هذه المدينة — وهو شيخ شعراء الملحون وحكيمهم على الاطلاق — جعل الكثير من أشياخ الفن تهفو نفوسهم الى مكناس لوصفها والتبرك بأوليائها وخاصة ضريح سيدي بنعيسى وضريح سيدي قدور نفسه إذ يعد في صلحائها المشهورين. وعندنا قصائد كثيرة قالها كبار شعراء الفن كالتهامي المدغري، وادريس بن علي السناني المعروف بـ «الحنش» وغيرها وهي في غالبيتها تدخل في نطاق الغرض الذي يسمى المراسلة أو الرحلة، ومنها قصائد يطلق عليها «الورشان» الذي يذهب بالمراسلة أو ينتقل بالشاعر من مكناس الى آخر، فيتجول ويصف ويعبر عن مشاعره. ويكفيني هنا أن أمثل بالورشان الذي بعثه ادريس بن علي السناني من فاس الى مكناس، وهذه حربته :

من أرض فاس سر أورشاني بالسلام

زر لهمام سيدي بنعيسى الوالي

ومثله ورشانه من مكناس الى فاس، وفي حربته يقول :

عول انرسلك من مكناس في احمارني ياورشاني

سلم على الفقرا في فاس

وفي القسم الأول من هذا الورشان يقول :

هذا وقت الخيرات اللي ادركت فيه اسروري وماني

قرت العين وزال الباس

زرت سيدي بنعيسى عزنا الشيخ القطب الرباني

بانن اسرارو دون اقياس

لاش ما تتمختر ونافي اضايفت هذا لنوراني

ولسياد أولادو لنفاس

كل واحد منهم بالعز ولقبوب ولفراج لقاني

لنهم ناس ونعم الناس

سر عازم ودي هاذ لخطاب قبل أوصولي لخواني

ياقطيب الدار ولغراس

وبعد، فهذه أيها الاخوة ملامح سريعة حاولت بنماذجها المحدودة أن أؤكد ذلكم السياق الذي بدأت بطرحه في المقدمة والذي أردت من خلاله عرض صورة مكناش في إطار يجعل المبدع ينقل المكان من مرحلة ساكنة جامدة كبناء أو حجر أو قطعة أرض الى لحظة عشق وتعلق، هي ومضة من الحب والمشاعر والأحاسيس الجميلة.

وأؤكد أن هذا موضوع متشعب ومتعدد الجوانب، ينبغي لتتبعه أن تخصص له ندوة كاملة لكي نعرف هذه الصورة وملامحها في مختلف أنواع الابداع وأنماطه، ويكفيني في هذا العرض المحدود أن أكون ألقيت الضوء على جانب معين في الصورة. ومعذرة إن كنت أخذت بعض الوقت الزائد، وشكرا لكم، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

مكناس في المتخيل الشعري

شعر عبد السلام الزيتوني وعلال الحجام كنموذج

الاستاذ بنعيسى بوحالة
المدرسة العليا للإساتذة
مكناس

لربما جاز القول إن تاريخ النص الشعري لا يعدو كونه تاريخيا للمكان، أي لفضاء تشتغل في نطاقه علامات معمارية وتاريخية واجتماعية وأخلاقية... ففي النص الشعري، الذي هو علامة استعارية كبرى وشائكة، يتوثق المكان المشعرون ويأخذ بأطراف تاريخه التخيلي، ويتمظهر بالتالي متواليه علاماته مندغمة بصلب هذا النص.

من هذا الضوء يصح أن نصوغ التساؤل الآتي: كيف تتمكن الكتابة الشعرية إذن من تطويق التاريخ المكاني، بل من اعتقاله وتسخيره لأوقافها؟ هل عبر استصدائه واستنساخ شعريته أم توسطها بتحويله والتلاعب بهويته؟ وبصيغة أخرى هل تتعلق المسألة، في أثناء شعرنة poétisation المكان، بإعادة إنتاج ميكانيكية لهذا المكان أم بتقطيع كليته ثم انتقاء بعض مفاصله لادراجها في آلية الكتابة الشعرية، مع ما يستتبعه هذا المسلك من تغييرات لا بد وأن تطال هذه الكلية وتلك المفاصل!؟

تساؤلات جمة قد تنطرح في هذا المضمار، ولا شك أن الازورار عنها قد لا يفيد في شيء سوى ما كان من تعميق الصدع، الوارد بدهاءة، بين شعريتين متناهذتين: احدهما تقوم على التخطط والنثار داخل المجال الطبيعي، بينما تركز الثانية على التكوم والتضام داخل المؤسسة النصية. إن علائقية المكاني والشعري ليست محل تساؤل إذن، لأن الذي يعيننا أساسا هو القبض على تشكل المكان، سواء كان كتلة واحدة أو بقعا مجترأة، داخل النص الشعري، بمعنى أن المطروح هو حصر الطريقة أو الطرائق التي تمد المكان بداليته الثانية المتولدة من تصيغه وفق ما تستلزمه مشترطات البناء الشعري. وبما أن توريد المكان الى حرم الكتابة الشعرية يشير، عمقيا، الى تقاطع حدين متباينين ففي مكتنتنا أن نأبه، بالاحرى، للوجهة التي يسلكها الجدل الحاصل بينهما باعتبار أن (الداخلي والبراني جدلا محيرا تغشاننا هندسته الجلية هاته بمجرد ما نباشر اللعب داخل المجالات الاستعارية) (1).

من خلال هذه التوطئة نعزم تأسيس مقرب لتصين شعريين (2) : أولهما للشاعر عبد السلام الزيتوني، أما الثاني للشاعر علال الحجام، وذلك بقصد نمذجة المنحى الاستعاري الذي اتخذته مكناس كمكان في كلا النصين، وبالتالي لدى حساسية شعرية تنتمي للستينات، وأخرى تنتمي للسبعينات، على أننا، على ما يظهر، لا نخرج تبريرا ما لاختيار هذين الشعريين، إذ يكفي الرجوع الى أعمالهما المنشورة

ليتين لنا النفوذ الذي تمارسه مكناس، كموضوعة مركزية على جل ما كتبه الى حد الآن.
العنوان كعلامة مفارقة في النصين:

فضلا عن كـ العنوان يمثل تقليدا معروفا في مختلف أنماط الكتابة الادبية، فانه يشكل، علاوة على هذا، قناة سيمبوتيقية تفضي الى الحقل الدلالي الذي ينتجه النص، ويتعبّر مواز إنه بمثابة مدخل شعري الى مختلف البرامج التعبيرية التي ينهض بها هذا النص، ومن هنا تأتي المواثيق الفارقة التي من المفروض، أن ينشئها بين تلك البرامج وبين القراءة كفعل تأويلي. وإذا ما أخذنا هذا المعطى بعين الاعتبار فسوف يتبدى لنا أن الصيغتين العنوانيتين للنصين معا لاتصبا في هذا الاتجاه، بالنظر الى أنهما لاتسعفان على الظفر بما أسميناه برامج تعبيرية تتصل بمكناس — المكان دوّما تعرج، فنص الزيتوني توجه صيغة عنوانية هي «الأسوار»، في حين تصدر نص الحجام صيغة عنوانية أخرى هي «مرايا السين». إن في جنوح الشعارين الى تقنية المبادعة في عنونة نصيهما لابد وأن يلقي على عاتق القراءة عبئا، ليس بالهين، في الرصد الوثائق لمثل المدينة نصيا، وكذلك في استخلاص علاماتها، فهذه التقنية لا يمكن أن تأخذ بيد القراءة الى موضوعة مكناس في تحلل من أي جهد يذكر، ليس بسبب من تعقيدها لانتظارية الاق الدلالي والتشويش عليه كما عند الزيتوني، وإنما بفعل طمسها لهذا الاق، ثم بلورتها لاقق دلالي مغاير مثلما هو الامر عند الحجام. ومادامت (العناوين تملك، هي أيضا، القدرة على أن تعمل كعلامات ثنائية، إذ تفتح القصيدة التي تتوجهها، وتحيل، في ذات الوقت على نص آخر) (3)، فإن هذه الوظيفة التراكمية هي ما تقوم به كلتا الصيغتين العنوانيتين، ومن ثم ارتأينا ضرورة الالفات لى تضمهما الاشاري المفارقة.

حقا إن الزيتوني في اختياره لعنوان ك «الاسوار» قد ساق صنفا من قرينة دالة لا تخلو من أهمية، نقصد أنه اقتطع من كيان المدينة أحد لوازمه الضاربة. مما يشرع الباب أمام احتمالات دلالية. من عيار «التلادة» و «الانغلاق» و «الاحتفاء»... لكن إذا صرفنا النظر عن توافق هذه الاحتمالات مع هيئة المدينة فاننا نستطيع أن نستحضر، في المقابل، فضاءات أخرى، مدنية ومسورة، تتوزعها مناطق مختلفة بالمغرب كالرباط ومراكش وفاس... وإذن تظل الاحالة فضفاضة، لانها قد تستثير تداعيات تأويلية، مصدرها قرينة الاسوار كما قلنا، تنصب على مكان محدد كمكناس، الا أنها سترغم، بالتأكيد، على استدعاء مجمل الفضاءات المدنية المعروفة بعناقتها التاريخية. هذا من زاوية ومن زاوية أخرى نشير الى أن نفس الوحدة المعجمية أي «الاسوار» ستوارد داخل النص لاكثر من مرة، وضمن سياقات متراوحة، إما بصيغة المفرد أو بصيغة الجمع، الا أنها تبقى، رغما من حضورها العودوي الملفت، غائمة على مستوى الرجاء المكاني، بحيث قد يكون هذا المرجع مكناس وقد يكون غيرها. وإذا ما استثنينا مصاحبتها السياقية لمرجعها المحدد في إطار جملتين شعريتين لا غير، فليس هناك من دعامات دلالية تشعب تمكنسها، وهاتان الجملتان هما:

(1) ومكناس ترفل بالعطر تزهو بأسوارها

(2) أمكناس نامي يلفحك السور تحرسك الساقية.

وإذا كان هذا حال المكون العنواني في نص الزيتوني، فان الحجام يركب هو الآخر مسلكا محتاتليا في تشييد عنوان نصه، إذ ينحو بالتأويل رأسا الى فضاء مغاير هو باريس بالتحديد. لكن يجب أن نسطر هنا ملحوظة أساسية وهي أن نص الحجام لا تؤممه موضوعة مكناس لوحدها، بل نجد الى جوارها موضوعتين أخريين على أقل تقدير. على أنه، وكذآبه في بعض نصوصه، نلقاه مصرا على التطويح بالمواثيق التي تبرمها

عناوين هذه النصوص مع احتمالات دلالية معينة، ذلك أنه غالباً ما يفسح حيزاً لفضاء مكناس، إن لم يكن بشكل استطرادي فبشكل فلاشي مكتنف، وهذا ما يجعل من التظاهر اللحوج للمدينة في شعره بنية دالة حقيقة بالمساءلة والتفكيك.

وهكذا فإن الصيغة العنوانية للنص الثاني تستبعد عنت التشتت الاحالي بين أمكنة متعددة بما أنها تقتضي منا الاستدعاء المبدئي للفضاء الباريسي ريثما تستقيم في طريق قراءتنا للنص مكناس، سواء كوحدة معجمية، أو كفضاء جغرافي وتاريخي وثقافي معلوم. من المحقق أن قرينة «السين» تحوز قابليتها الاحالية على باريس إن أردنا التدقيق، وعلى فرنسا ككل إن أردنا التوسع. غير أن هذه القرينة المفارقة، إحالياً، هي ما يسهم في عنونة نص متراكب موضوعاتياً سوف لن يبلور قرينة نهية ملازمة لمكناس كوادري بوفكران مثلاً، وإنما سنجد مبلوراً للموضوعة مكناس ككل، مكناس المشمولة بطوابعها المميزة لها، والمخلقة برمزياتها التي لا جدال فيها، ومن ثم فهي تنفي أي غما قد تؤسس أمكنة أخرى لانها، في نهاية التحليل، من صنف تلك (الاسماء العَلَمِيَّة التي لا تتطابق سوى مع كينونة متفردة) (4).

وإذا ما حاولنا إقامة نوع من المقارنة السيميائية بين «الأسوار» كدال مفرد صيغياً، وكمدلول لشيء مصطنع، طيني، حجري، متطاوّل عكودياً ومتمد أفقياً، كما أنه هجين لونيا، وبين «مرايا السين» كدال مركب صيغياً، وكمدلول منشطر يعني جزؤه الأول شيئاً مصطنعاً، زجاجياً، ضئيل الحجم، كما أنه أبيض لونيا، بينما يشير جزؤه الثاني الى شيء طبيعي، مائي، متمد أفقياً، كما أنه حريائي لونيا، من هذه المقارنة تظهر الفروق والتشاركات بين الصيغتين، هذا إذا ما قرأناهما قراءة أولى، أما إذا ما أردنا هذه القراءة بأخرى عميقة فسيترأى لنا أن الصيغة الأولى تنتج احتمالات دلالية كـ «التلادة» و «الانغلاق» و «الاحتماء»... في حين تنتج الصيغة الثانية احتمالات من بينها «العكس» و «التفتح» و «الجريان»... ألا يمكن أن نستغل هاتين القراءتين مثلاً في تحديد الدالية التي تعلن عنها المدينة انطلاقاً من العناوين في انتظار أن تتماسك هذه الدالية أكثر داخل النسيج النصي للقصيدتين؟ ألا يمكن الحديث عن حس انغلاقتي، تقويعي، تبادوي يمسك برؤية الزيتوني لمكناس؟ أي عن رغبة مكينة في اعتقال مكان لم يعد قادراً على تغذية وجدان الشاعر بمختلف الانفعالات الغبطوية والحبورية كما كان الشأن في الماضي؟ وبالموازاة ألا يحق الحديث عن حس انفتاحي، دينامي، راهني يكيف رؤية الحجاج لمكناس؟ أي عن منزع واقعي بمقتضاه يتم تهجير المكان، ملفوفاً بنوستالجيا قوية لمهاجر مغربي، إلى المرأة الباريسية حتى يتمرأ ليس كهيئة معمارية مسطحة، وإنما كذاكرة، وكهوية عربيتين.

المدينة كعلامة تخيلية في النصين:

لقد بينا، قبل قليل، أن مكناس، كدال مكاني، لا تلوح على امتداد قصيدة الزيتوني إلا مرتين، وفيما عدا لجوئه الى اختتام قصيدته، وبشكل تكرراري، بدال مكاني ملازم لمكناس ألا وهو «ساراڠ» فإننا نلمس خفوتاً جلياً للمنسوب الثولي، سواء لاسم المدينة، بما هو مشبع بكفائته المرجعية، أو للواحق ومصاحبات معلمية لصيقة بفضاء المدينة. لماذا تنصيبنا على هذا الخفوت؟ لأن معانيه مختلف العناصر الرمزية التي انتدبها الشاعر للتدليل على المدينة لا تستجيب للمقصدية التعبيرية الواردة في هذا الموقف الشعري فقط، بل إنها قد تربك حتى ذلك الحد الأدنى من الانفعال الواجب توافره حيال أية مدينة لا تحفظ في استيفائها لمستلزمات شخصيتها الحضرية.

وإذا تجاوزنا الصورة الباهتة التي رتبها الزيتوني لمكناس في قصيدته فإن ما يستقطب الانتباه هو الحضور الطاعني لأنا الشاعر الغنائية، ولعل في انتحاله لهذا الاختيار الضمائري يدل، في الجوهر، على تعالق ما بين هذه الأنا وبين المدينة، أي أن تشبته بالتذويت الكاسح لرقعة النص يدل على ما يمكن تسميته بأزمة ثقة بين الذات المبدعة وبين المكان. فمكناس التي تعترضنا في النص، من خلال تلوينات دلالية، تصبح مرمرى للذم وللعتاب، بل وللتقريف، إذن فالامر يتعلق بجفوة، بعدم تراض بين شاعر يريد أن تتأبد مكناس فضاء للألفة والود واللذة، تحوطه الأسوار وتمنع تلاشي نكهته هاته، وبين مكان غدا منفلتا، بعل سيرورة تحوله التاريخي، من المعزى الفردوسي الذي أراد له الشاعر، بحيث غدا مبعثا لمشاعر اسيانة لا تكدر على الزيتوني صفاء النفسي فقط، بل وتدفع به الى أن يعلن عن إحمال هذا المكان وتقوضه، بمعنى عن موته المجازي:

تُطَلِّينَ مَكْمُوفَةً فِي أُنْدِهَالٍ وَمَلْفُوفَةً فِي كَفَيِّنَ
 تَلْفَعُكَ هَوْدَجٌ مِنْ تَمَائِمِ لَأُورِقِ أَوْ قَنَ
 وَلَا مَنَزْلُ فِي عَدَنَ
 أَرَاهِنُ لَا أَحْتَفِي بِاتَّمَائِمِ غَلتْ
 وَلَا بِالْعَمَائِمِ وَكَلتْ
 وَلَا بِالْعَمَائِمِ تَتَّقِيكَ أَعَشَارَهَا
 عَجَافٌ يَسْتَوْنَ الْحَنَائِزِ عَانَقَهَا الْقَيْطُ رَاعِفَةً جَامِدَةً.

إن الوسائط الاستعارية المبدولة في هذه الأبيات تبرز مدى الياس الروحي الذي ألم بمدينة تعود الشاعر على أن يمارس تطهيره الانفعلي في فضائها الرعوي الطازج. فالمدينة ليست هنا أكثر من جسد معماري ضامر يناقض القوام المستحب الذي فصله هو للمدينة وأودعه في دواخله، وفي تساوق مع هذه النظرة يقول:

فها انت قد ذُبلَ الطَّرْفُ منك وَضَاعَتْ مَفَاتِنُكَ العُرُ
 عَاقَتِكَ كَلُّ الدُّرُوبِ
 تَلْفَعُكَ الأَصْرَحَةَ
 وَيظْفَرُ شعْرُكَ تَتَبَعُ خِيفَافِ عِجَافِ
 وَكُنْتَ عَمَلَى الأَرْضِ تَامِنَهُم

هكذا يتكسر المكان وتفتت كيانيته عندما يعصف الزيتوني بالمؤلفة التي كانت بين المدينة وبين عناصرها الرمزية، بينها، وهي تفقد ملامحها الفاتنة، وبين دروبها وأضرحتها، مما يوقعنا في انقسامية هي على الضد من حيويتها المتصرمة، ولكي يعمق المأل الاحتضاري لمكان كان يتدفق حياة وتوهجا في وقت ما يتعمد هذه المرة تكتيف خبيته وتكريس موت المدينة وذلك بالجوء الى استعارة دلالية الكهف كيما تأخذ حلقة المشهد الجنائزي لمكناس حجما مأساويا:

أَمَكَّنَاسَ نَامِي تَلْفَعُكَ السُّورُ تَحْرُسُكَ السَّاقِيَهُ
 وَلَا تَوْقِظِي الكَهْفَ مِنْ نَوْمِهِ مَرَّةً ثَانِيَهُ
 فَحَظِّي أَيْهِ كَمَا جِئْتُ فِي مَهْمَهُ
 وَسَارَاكُ، سَارَاكُ لَا يَنْتَهِي

فلمكناس أن تسير الى حفتها المجازي، وللشاعر أن يسير في شقاء وعيه الشعري بانمساخ المكان وتمنعه عن مذاقه الفائق. على أن الشاعر لا يتيه في المهمة الرمزي لسبارك فحسب، بل ويتيه في عتاقة اللغة والتراكيب والصور الشعرية، مستمدا من ذاكرته الجاهلية مرة ومن ذاكرته القرآنية مرة أخرى، منجزا بهذا تناسا تكتنفه باروديا لا مفر من توظيفها في التوكيد على الهزء، وعلى التسلي الفاجعي بموت المكان، وبالتالي على تقريع مدينة لم يتبق للشاعر إلا أن ييأس من استعادتها لشكلها الغبطوي والجبوري.

غير أن النص سوف لن يكتفي بتشكيل حقل دلالي واحد، إذ ان دلالة الاحمال أو الموت ستفسح المجال لتوليد دلالة مضادة هي دلالة إحياء المكان وتخصيبه، دلالة ابتعانة ثانية توسلا بموارد تخيلية تؤول الى استعارتين أساسيتين هما: استعارة اللذة واستعارة الماء. وتأسيسا على هذا سنرى الشاعر في البداية مسخرا لذاكرته الجاهلية في استجماع أطراف الصورة الرمزية لحيوية المكان وتوجهه، وبذلك يتم تعويض الموت المجازي لمكناس بتخيل مجال بديل يملأ الشعور النفسي الذي أخذ يحسه الشاعر. هذا المجال لن يكون سوى «دائرة جلجل» بمعنى أن الخيلة الشعرية هنا تمارس هجرة رمزية الى الجذر الصحراوي لهوية المكان، الى تلك النضارة التي استسعف بها النص الشعري الجاهلي في تركيب لحظة الشاعر الممتلئة ضدا على بياض وتصحر بله موت المكان وبيسه:

وَأَرْكَبُ نَاقَةَ شِعْرِي يَدَاهُمْنِي الرَّسْمُ بَاكِ بِأَطْلَاهَا
 وَمِكْنَأَسُ تَرْفُلُ بِالْعِطْرِ تَزْهَوُ بِأَسْوَارِهَا
 فَتَحْزِنُنِي قَهَقَهَاتُ السَّكَارَى
 وَتُوْخِزُنِي تَنْظَرَاتُ الْعِدَارَى

فالصورة الموضبة للمكان تقترص روحها من صميم الاخلاقية الجاهلية التي كانت تعمل على تحاشي البياض والترتب الصاعقين للحياة الصحراوية بالامتلاء اللحظي الداعر وبمساقاة الرغائب الحسية، ولا ريب أن الشاعر، وهو يعيي عناصر هذه الصورة، كان بأسورا الى ذات الخلفية الجاهلية التي تَحَلَّقُ في مناخها الهاجس الاستهتاري في معلقة امرئ القيس.

وعلى سعيد ثان سيتعين على الزيتوني، في إطار منزعه الاحيائي للمكان ان يجهد مخيلته في توفير صور شعرية أخرى بغاية حقن مكناس بكل ما يمددها بأسباب حيويتها وتماسكها. ولكن اقتناعه بموت المدينة ما انفك قائما فيها هو يدرج صوراً أكثر تمثيلا وأغنى دلالة ليقذف بها الى اصطرار مفتوح مع القرائن الراشحة بالموت، والتي سبق له أن وظفها:

(1) تحاصرك رَجْفَةٌ من تجليد
 تَبَيَّنَتْ قَاتِنِي فِي الْحِصُورِ
 (2) عَرَفْتُكَ أَنْقَى مِنَ الثَّلْجِ فِي نَدْفِهِ
 وَأَقْوَى مِنَ الْبَحْرِ فِي مَدَّهِ.

ومن بين ما نلاحظه أن هذين التمدجين الشعريين يرتكزان على آلية تخيلية مغايرة لما رأينا في النموذج السابق. فحضور نويات دلالية كالجليد والثلج والبحر تصب في بؤرة مرجعية هي الماء لا يمكن الا أن يدفعنا الى استثار داليتها على الحياة، إذ من الماء ينبثق التكوين، فأن يستعار الجليد لكي تنبلج من رحمة مكناس

فاتنة الشاعر، وأن يستنجد بالمفاضلة بين مكناس وبين الثلج والبحر لشحن فكرة النقاء والقوة فهذا ما يشير الى الجنوح بالمكان الى أقصى ما يتصور من تظاهرات استعارية، من خلالها تنتعش مفاصل هذا المكان ويتصالب كيانه.

الى هذا الحد يكون الشاعر قد جعل من المدينة فضاء مغلقا ومتكوما داخل أسوار ممتدة ومتطاولة، والى هذا الحد أيضا يكون قد استنفذ تعبيره عن خصائص نفسي أحدثه انفلات المكان من شكله العتاق ومن امتلائه الروحي، مثلما يكون قد شكل للمكان مواصفات حيويته. إذا كان قد فعل كل هذا فإنه سيجد نفسه مضطرا هذه المرة ليفتح لمكناس فجوة ضيقة في أحد اسوارها كيما تنسل من موتها المجازي وتنهض متوثبة غاضبة:

وما كنت أعلم أنك مثل القنابل لكالسنابل
صارخة راعدة.

أو لتنخرط في انتائها الوطني توارزها الانا الغنائية للشاعر، هذه الانا التي غدت مؤدجلة في نهاية المطاف، أي كونها غدت واعية بأن النضوب الذي أَلَمَّ بالمدينة ما هو الا جزء من نضوب تاريخي شامل ينتظم وطنا بكامله ومن هنا قوله:

أمامي يعكر عيني الوسن

ويجعل مني مشروع صاعقة في أكف الوطن.

أما بصدد نص الهجوم فلا مشاحة من التذكير بأن مكناس كمكان، وكموضوعة شعرية لا تتلامح في النص إلا بقدر محدود، وحتى في إطار مواظفتها النسقية فاننا لا نعرعر عليها سوى مرتين، الأولى عندما وردت في نهاية أحد الايات، والثانية عندما تصدرت بيتا آخر. وكما كان الشأن في نص الزيتوني فان الهجوم يقتصر هو بدوره على تعيين المدينة كمسمى لمرتين ولا يكلف نفسه عناء إشباع مؤشرية مكناس بعلامات معمارية وتاريخية وثقافية بمقدورها تنوير الموضوعات المقامية التي اختارها الشاعر للمدينة من الوجهة الاستعارية.

والغالب أن ما يشفع لهذا الحضور المحتشم لمكناس في النص هو أن الهجوم لجأ في تفضية Spacialisation مساحة نصه الى تفصيل مجال ثنائي يراكب حدين متقاطعين هما: باريس والوطن، وبين هذين الحدين تحضر مكناس فضاء مفصليا وظيفيا، أو بالأحرى علامة مؤدجلة. وعليه فإن التناوب الفاتر لاسم المدينة على بيتين شعريين لا غير لا ينتقص في شيء من اشتغالها الدلالي الذي امتد الى كافة أجزاء النص، اعتبارا الى أن ورودها الالماحي كاسم، وحيارة حقلها الدلالي لمقطع واحد من بين ثلاثة مقاطع لم يحولا دون ردها لرؤية الشاعر الادانية لافرازات تاريخ وطني شامل. وإذن يلزم أن ننظر الى مكناس، بناء على التفضية التي رتبها الهجوم، كمكون مكاني وعلاماتي مشروط بمكونين آخرين، أي كفضاء مفتوح على فضاءين اثنين، ومن ثم اختلاف هذه الهندسة عن تلك التي صدر عنها الزيتوني لما جعل من مكناس قصة قروسطية معزولة عن مجال مرجعي أوسع، اللهم ما كان من تلك الانفتاحة المحدودة التي أدجت عبرها المدينة في السياق الوطني الكلي.

وبخلاف السطوة التي كانت للأنا الغنائية في نص الزيتوني، فإن نص الهجوم يتوكأ، وتحميدا في المقطع الذي استقلت به مكناس مبدئيا، على تقنية المحاوره أو الصوت المثني، الشيء الذي أتاح تعريفها، سواء كوحدة إسمية أو كتوليدات دلالية، من خلل التجاذب الكلامي بين الشاعر وصوت قد يظهر غائما،

سديما في الأول لكنه سرعان ما يتخذ قسما ت إنسان أرغمته المدينة، بل الوطن ككل على الرحيل الإضطرابي إلى المهجر الفرنسي ليمارس استمرار ذاكرته، هويته في صفاء مرآة السين، ولكي يتملى انصعاقه التاريخي في عنف الآلة الاستغلالية والعنصرية في الغرب، وبهذا ترغم المدينة هي الأخرى على أن تهاجر، مؤلفة بين مذاقها العتامي — الفردوسي وبين تضمنها الأديولوجي، إلى فضاء رمزي مضاد، مورطة معها مرجعها المكاني الذي هو المغرب لينحشر الكل في معمعان تمرية عنيفة وقاسية :

كما الأرياح تحمل جرحها في قلبها وتطوف، تأتي من فجاج الجذب للأوصاب، ثم تعود للأوصاب تحصدها، فتعرف أن وجهك ليس منه على مرايا الماء من أثر، وتبحث في الدجي المسدود عن باب وعن طرق، ولست سوى هشيم خم تحت رطوبة الشجر!

وبدءا من هذا المدخل الشعري يمكننا الوقوف على التوضع الانفصامي الذي حازته المدينة في النص برمته. إنها في هذا المقام جذب ويباب قبل أن يكسوها الحلم، كما سيأتي، بهالة جنائية عمادها تناص مع نسق قرآني معين، غير ان هذا التوضع الانفصامي إن هو إلا جزء من انشطار أكبر يأخذ برقاب المجال الثنائي المومأ اليه سابقا، أي الوطن والمهجر الفرنسي. كذا يتمطى الشاعر تغرية هذا الصوت — الانسان ليكف على تعرية الواقعين الآلين الى هذا المجال الثنائي، تعرية واقع يدفع بالكثيرين الى الرحيل المض الى مختلف المهاجر الأروبية، وواقع تظهر انفصاميته العميقة في مراكبته لخطابه الحقوقي المثالي ولنوازعه في استغلال وتحقير الانسان المغاير، المحتاج، الذي يصبح ضحية حضوره المرغوب فيه اقتصاديا والمتحرز منه أخلاقيا:

متى يرتاح هذا المارد المضني Et interdit لكي تجتاح
موسمه السنابل عابقات ثمرا، يدخل مهرجان النور أسوار الدجي
aux arabes ومن نحن (سوى غرباء أفاقين)، من نحن!؟

وإذا كان التكثيف السردى هو ما طغى على النموذج الشعري الأول، فإننا نعاين في النموذج الراهن تَشْرُبهُ باللغة الفرنسية، وهو يشير إلى رغبة واعية في تهجين القول الشعري، وفي ضرب واحدته اللغوية، لأن هذا المسلك البنائي، جوهريا، هو نوع من الاستصداء الأسلوبى للوضع الهجين الذي انتهت إليه الذات المغتربة وذلك على جميع الأصعدة.

إن العنف الاقتصادي والأخلاقي الذي ووجهت به هذه الذات، هناك على ضفاف السين، هو الذي يفسر استدعاء مكنا س كخلفية مكانية أولى لذلك المصير الاعترابي ريثما يؤسس القول الشعري خلفية مكانية ثانية هي الوطن:

سألتك عن مروج التين والزيتون
قلت: أنا مروج التين والزيتون يا قلبي بلا ثمر
سألتك عن زقاق الشوق في مكنا س
قلت: مدينة وثنية تحتلها الأبنك والجردان.

وعلى خلو هذا النموذج من التداخل اللغوي الذي استبد بالنموذج السالف، والذي اعتبرناه تهجينا

دالا، فهو يضم، عبر جملة الشعرية الرابع، هجانة دلالية تماثل بنائيا التشكل الذي يفصل مكناس حالات أو مظهرات يولدها التذكر الطفولي، والحلم الواعي بوطأة التحولات التاريخية والاجتماعية التي طالت المدينة. فالشاعر وهو يرتن، وظيفيا، بطاقة الحنين الآخذة بشغاف وجدان مواطنه المهاجر، قد احتس في التعامل معها ككمون انفعالي معزول عن شرطه التاريخي والاجتماعي. وفي تنحيته لبراءة وتلقائية الحنين الى مكناس قضي بأن تنضاف الخبرة الطفولية بالمكان إلى الخبرة الاديولوجية به لتبلور المدينة مجالا هجيناً تتداخل صورته الطفولية (الفردوس) بصورته المؤدجلة (الابنك والجردان) بصورته المحلوم بها، موثلاً للألفة، وللتوحد بالهوية الحقيقية، أو مكاناً منسجماً مع الماضي الطفولي أولاً، ومنصفاً لأبنائه من عوامل انمحاقهم التاريخي والاجتماعي ثانياً.

بهذه الكيفية إذن تلقى مكناس في هذا النص، بحيث لا نلقاها فضاء أعزل بفضل أسواره، يتمرأى في ذاكرته التلاذبية، بل نلقاها فضاء مرجعياً للتمزق الهوياتي الذي حياه ذلك الصوت — الانسان بعيداً عن مدينته، وفي نفس الوقت نجدها فضاء مختزلاً لإواليات تاريخ وطني يستوعب مكناس ومدنا مغربية أخرى، وفي انفصامية هذا التاريخ تستقر انفصامية مكناس، كجسد معماري، وكذوات وحيوات وعلائق وتفاصيل. فالشرح ليس شرح مدينة لوحدها، وإنما هو شرح شمولي يتجاوز مكناس، باعتبارها مكاناً محدوداً، ليتصل باختيارات وتوجهات توؤل الى فضاء تاريخي وطني يَغْتَلِّقُ، استيعاباً، بالغرب وبهذا يستكشف الصوت — الانسان عن تلمس مأزقه المهجروي في فضاء مدينته ليولي وعيه شطر «هذا الفضاء التاريخي الوطني بالذات، حتى يللم شتات صورته الموصولة بانتزاعه القسري من مكانه الطفولي ويتسليعه استجاباً للعملة الصعبة:

تنأى المواطن النوري واقتربت صحاريه
وهو معانق ربحاً تسير على هيب الوهن والتهيه.
يسميه الضباب المر جرحاً نازفاً
بين انبثاق جداول الاضواء والرغبة
وفي باب الجمارك
في سجلات التصاميم الثلاثية الرباعية الخماسيه
تسميه المنايا عملة صعبه...!

ضمن نص الزيتوني كنا بإزاء مكناس مغلقة ومنساقه الى موت مجازي، كنا بإزاء مكان ينسحب من القبضة الوجدانية للشاعر ويتنكر، بفعل تحولاته، لطعمه الجبوري اللذوي، أما في نص الحجام فان الامر يتعلق بمكناس مشرعة ومقدوف بها الى جغرافيا مترامية، الى فكي كإشة تاريخية. في النص الأول يستعار المكان جسداً محتضراً، في حين يتماثل نفس المكان، في النص الثاني، افرازا لسيرورة متعجلة وضاغطة، أو لنقل ركنا علامايا لثلث علاماتي تحتضر بين أضلاعه الاجساد والنفسيات والقيم.

الهوامش

1. Gaston Bachelard: La poétique de l'espace. Ed. PUF, 1981. p.191
- 2) نشر ت قصيدة «الأسوار» بمجلة (البعث الثقافي) العدد الثاني، أكتوبر 1980، أما القصيدة «مرايا السين» فيتضمنها الملحق الثقافي لجريدة (الاتحاد الاشتراكي) ع 142، الأحد 10 غشت 1986.
3. Michael Riffaterre: Sémiotique de la poésie. Ed. du Seuil 1983, p.130.
4. Oswald Ducrot / Tzevetan Todorov; Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage. Ed. du Seuil 1972. p.321

Pierre Loti devant Meknès : Récit de voyage ou récit de rêves ?

Guy DUGAS

Faculté des Lettres — Meknès

Le voyage que l'écrivain français Pierre Loti (1850-1923) fit à Fès et Meknès, au printemps 1889, dans la suite du Consul Pâtrenôtre, passe souvent — du fait du prestige de cet écrivain, alors au sommet de son art, et du succès que connut la relation qu'il en rapporta (1) — pour la « première révélation véritable et authentique du Maroc en littérature et la représentation la plus parfaite de l'Empire chérifien d'avant la colonisation » (2).

En réalité, après des siècles de fermeture et d'isolement, le Maroc avait déjà attiré avant Loti plusieurs artistes et hommes de lettres occidentaux. Il semble même qu'inquiète des progrès des Allemands et des Anglais dans la découverte de ces terres, et désireuse de ne pas s'y laisser supplanter, la France ait entrepris dans le dernier quart du XIX^e siècle une vaste opération de sensibilisation dans le dernier quart du XIX^e siècle une vaste opération de sensibilisation et de promotion, en associant quasi-systématiquement aux ambassades et Missions diplomatiques au Maroc quelque observateur ou touriste civil — artiste, journaliste ou littérateur de préférence — qui en ramènera invariablement de nouvelles descriptions ou impressions propres à familiariser le commun des Français avec cet Empire, jusqu'alors jugé étrange et lointain.

On peut ainsi citer parmi les prédécesseurs de Loti le docteur Bleicher et le peintre Benjamin Constant, qui participèrent tous deux à la Mission du Ministre plénipotentiaire Tissot à Meknès (3), puis en 1885 le géographe Henri Duvoyrier et le journaliste Gabriel Charmes, qui prirent part à l'Ambassade du ministre Féraud à Fès (4).

L'image du Maroc donnée par de tels voyageurs est, à coup sûr, plus pittoresque, moins savante que celle qu'en avaient jusqu'alors donnée les spécialistes - donc plus « populaire ». En ce sens, elle joua un rôle, sinon dans la pénétration coloniale elle-même, du moins dans son acceptation par le peuple français.

I. Pierre Loti au Maroc

C'est par Tanger (comme la plupart des expéditions européennes dans l'Empire chérifien) que débute, le 26 mars 1889, le voyage de Pierre Loti au Maroc:

« Elle est tout près de notre Europe, cette première ville marocaine, posée comme en vedette sur la pointe nord de l'Afrique. » (5)

Tout près, en effet, et pas uniquement par la distance géographique, mais également par les modes de vie, les communautés qui y résident, les langues qu'on y parle, etc. C'est ici que résident les légats des principales puissances européennes, au milieu d'une population fort cosmopolite. Semblant très judi-

cieusement annoncer le futur statut international de cette vile, Loti ajoute:

«Elle est très banalisée aujourd'hui, et le Sultan a pris le parti d'en faire le demi-abandon aux visiteurs étrangers, d'en détourner ses regards comme d'une ville infidèle» (p. 1)

... Tanger ville infidèle, ville perdue, cité de la compromission... Tahar Ben Jelloun la traitera-t-il autrement dans Harrouda ?

Mais passons sur ce séjour à Tanger; passons sur le voyage de Tanger à Fès (2 au 14 avril): l'Ambassade est de quinze personnes, précise Loti, dont sept officiers. Et également «quelqu'un qui a vécu longtemps auprès de Sa Majesté», que Loti nommera ensuite constamment «Docteur L* *», et qui jouera un rôle important dans la suite du séjour à Fès (6).

Passons aussi rapidement sur le séjour dans cette ville (15-28 avril), non sans noter toutefois avec Abdeljelil Lahjomri combien il apparaît «dénué de toutes les préoccupations politiques qui ont guidé les prédécesseurs de Loti dans leurs découvertes» (7).

Et venons-en immédiatement à l'épisode meknassi (29-30 avril), puisque, pour rester fidèle au thème général de ce colloque, nous avons pris le parti de nous intéresser qu'à celui-là. Et soulignons avant tout la place non négligeable qu'il tient dans l'ensemble du récit: sur un séjour de plus d'un mois (26 mars — 4 mai) s'étalant sur 350 pages environ, cet épisode de moins de 48 heures en prend 45.

II/ Rêver Meknès

Au bout de dix jours à peine de séjour à Fès, Pierre Loti avoue sa lassitude. Il est de ceux que le banal et le déjà-vu ennui prodigieusement. Et les vieux quartiers fassis, visités et revisités, ont déjà perdu tout attrait à ses yeux:

«Je n'ai presque plus envie de rien écrire, trouvant de plus en plus ordinaires les choses qui m'entourent». (p.238)

L'écrivain se tourne alors vers la cité voisine de Meknès (lui écrit «Mékinez» à l'ancienne) — «L'autre ville sainte encore plus délabrée et plus morte».

Que l'on note l'image a priori, en forme de comparaison implicite, que Loti se fait de cette ville. Car, bien évidemment, il n'en connaît rien encore. Renseignement fourni par l'un des officiers de la Mission? Lecture de précédentes relations de voyages (8)? Ou, plus certainement, constant préjugé de la part de Loti?

«L'art arabe est tellement mêlé pour moi à des idées de poussière et de mort!» (p.245)

Et c'est vrai que bien avant son séjour au Maroc — hérité de ses précédentes œuvres, notamment **Aziyadé**, et sans doute aussi d'influences qu'il y aurait lieu d'interroger — Loti semble s'être construit une fois pour toutes ce qu'il nomme au cours de ce voyage «un décor idéalement arabe» (p.349) (19), qu'il plaquera presque systématiquement, selon une «mise en scène» assez identique, sur ses descriptions de cet univers. Il existe donc pour lui-antérieur au Meknès réel — un Meknès rêvé, fait de cendres et de sables, de mort et délabrement.

Le but de cette intervention consistera donc à montrer en quoi la description

«sur le terrain» oscillera constamment entre deux isotopies sémantiques, la chose vue venant s'opposer à un constant retour de ces images préétablies. Comment, en somme, l'épisode meknassi de Au Maroc balance en permanence entre le récit de voyage et le récit de rêve.

III. Approche de Meknès

Le dimanche 28 avril 1889, abandonnant l'ambassade du ministre Pâtre, nôtre aux «lenteurs politiques» et aux fastueuses réceptions de la Cour de Fès, Pierre Loti se met donc en route vers Meknès, «en petite caravane intime». Une journée de marche au milieu d'étendues désertes, dans des paysages d'une extrême sauvagerie, sans la moindre commodité pour circuler, car:

«Pas de route au Maroc, jamais, nulle part.» (p.16)

Et c'est déjà Meknès, d'abord entr'aperçue dans le lointain:

«Petite bande noirâtre, les murailles sans doute, au-dessus de laquelle se hérissent, à peine visibles, minces comme des fils, les tours des mosquées». (p.287)

Première vision à volonté objective, très peu «marquée», dont on appréciera le style absolument dénotatif, l'imagerie pratiquement «géométrique» («petites bandes», «minces comme des fils»...)

Ce n'est pourtant qu'après une extraordinaire déambulation au cœur d'un réseau de «murs croulants», un voyage initiatique au jardin de la Mort, que la ville impériale va se laisser approcher:

«C'est la banlieue. Par une brèche, nous franchissons ces enceintes; alors nous sommes dans une région d'oliviers, plantés régulièrement en quinconce, sur un de ces sols d'herbe très fine et de mousse comme on n'en rencontre que dans les lieux depuis longtemps tranquilles, non foulés par les hommes; ces oliviers, du reste, sont à bout de sève, mourants, couverts d'une espèce de moisissure, de maladie de vieillesse, qui rend leur feuillage tout noir, comme s'il était enfumé. Et les enceintes se succèdent, toujours en ruines, enfermant ces mêmes fantômes d'arbres alignés en tous sens à perte de vue.

On dirait des séries de parcs abandonnés depuis des siècles, des promenades pour des morts» (p.288)

Descripton ou récit de rêve, dans lequel dominerait l'isotopie «mort et délabrement», venant confirmer l'image préétablie de cette ville? La séquence tient en réalité de l'une et de l'autre, dans une synthèse qui, ici, ne manque pas d'harmonie. Ainsi l'intégration du sème «mort», tout à fait absent du début de la description, se fait-elle par le biais d'un parallèle extra-descriptif (que marquent bien le pronom personnel indéfini et le présent intemporel), dont la seule finalité est d'introduire le syntagme «les lieux depuis longtemps tranquilles», périphrase qui, nous le verrons, nous conduit progressivement à «promenades pour des morts» (on note, ici encore, l'effet de réel produit par le déterminant «des» à la place de «les»), puis à «cimetières». La mise en facteur commun du syntagme suivant tend à renforcer encore cette parfaite intégration du vécu et du fantasmé; «non foulés par les hommes» se rapporte-t-il en effet à ces «lieux», ou bien aux «sols d'herbe très fine», renvoie-t-il au rêve ou à la vision?

Dès lors, par le biais de reprises anaphoriques progressivement «marquées», rêve et description vont s'amalgamer progressivement:

«lieux depuis longtemps tranquilles» ————— «promenades pour des morts» ————— «cimetières».

«Oliviers plantés régulièrement» ——— «Oliviers à bout de sève» ————— «Fantômes d'arbres».

Surprise cependant: ce groupe d'«écoliers en burnous d'éclatantes couleurs» — on notera l'opposition des couleurs ici énumérées avec les tonalités grises du rêve — qui profite de ce jour de grande fête pour faire dans ces jardins de banlieue une partie de campagne...

Cette scène enfantine qui rompt l'amalgame et redonne de la vie, l'écrivain la qualifiera successivement de «charmante» (niveau d'immédiate vision), «imprévue» (niveau de confrontation au rêve) et «mélancolique» (niveau de synthèse des deux). Du moins, malgré le glissement isotopique, la cohérence du discours est-elle ici préservée par l'alinéa et le consécutif «aussi». Cette synthèse, Loti parviendra-t-il à la maintenir? Entre le rêve qu'il s'en était offert et la vision qu'il va avoir de cette ville, parviendra-t-il à choisir?

IV/ La ville

Au terme de cette déambulation apparaît Meknès. Et voici, de plus près, une seconde description de la cité:

«Très haut, sur le ciel jauni, se profilent les lignes de remparts superposés, les innombrables terrasses, les minarets, les tours des mosquées, les formidables casbahs crénelées, et, au-dessus de plusieurs enceintes de forteresse, le toit en faïence verte du palais du Sultan. C'est encore plus imposant que Fez, et plus solennel. Mais ce n'est qu'un grand fantôme de ville, un amas de ruines et de décombres, où habitent à peine cinq ou six mille âmes». (p.290)

Description à nouveau très réaliste dans sa première partie, avec peu de qualificatifs, encore moins d'appréciatifs — et qui reprend, pour les préciser, les divers éléments aperçus auparavant dans le lointain (les murailles, les tours des mosquées...) Série énumérative formant parfaitement tableau, aboutissant à cet «effet de liste» que Philippe Hamon considère comme «le trait fondamental du descriptif» (10).

Mais, en rupture complète avec l'isotopie réaliste ainsi mise en place, la dernière phrase nous renvoie au rêve préétabli.

Les deux isotopies sont ici construites de façon différente que dans la séquence précédente. Non plus en conjonction, mais au contraire sur une disjonction (on note l'opposition «C'est... mais ce n'est que...; le flou l'emportant à la fin sur le précis, le connotatif sur le dénotatif...) que rien n'annonce ni ne justifie. Aucun glissement harmonieux d'une isotopie à l'autre, mais un effet de rupture, de hiatus: paraphrasant Genette pour qui une anachronie narrative représente «toute forme de discordance entre les ordres temporels», j'aurais tendance à proposer ici le néologisme «anatopie» pour caractériser la discordance produite entre les deux ordres isotopiques.

V/ L'attente, le retard

De la vision fantasmatique à laquelle nous ramène ce passage, participe ensuite toute une mise en scène de l'attente et du retard, visant à maintenir dans le récit une part de rêve, confortant l'image préétablie de la « cité morte », et que celui-ci risquerait de perdre au contact de la réalité décrite. Cette mise en scène s'appuie sur deux procédés essentiels:

1) Le seuil.

Du Maroc d'une façon générale, Loti paraît toujours demeurer en dehors, « au seuil ». Significativement, son récit de voyage s'ouvre et se clôt sur deux affirmations de ce type:

« Je ne suis ici qu'au seuil, à l'entrée profanée » (p.9)
« ... le Maroc qui vient de se refermer ». (p.356)

Il en va de même pour Meknès. Je ne reviendrai pas ici sur la déambulation dans le labyrinthe des jardins, et sa fonction « retardatrice ». Mais je soulignerai en revanche combien Loti insiste bien davantage sur la clôture de la cité, et son enfermement (« enceintes » (2 Occ), « murailles » (4 Occ), murs (4 Occ), « remparts » (8 Occ), « forteresse »...), que sur son ouverture et son hospitalité: l'entrée se fait plus par des « brèches » ou des « ogives » que par des « portes ». D'ailleurs, la plupart du temps:

« ... Aucune route ne mène à cette porte, cela va sans dire; personne n'y entre, personne n'en sort ». (p.292)

« Bouchées en maçonnerie » ou au contraire « béantes sur la campagne noire » (p.292), ces entrées font peur plus qu'elles n'attirent (pp. 294 et 295).

2) Le récit d'attente.

Loti évoque ensuite l'installation du bivouac — « en dehors des murs, naturellement » — dans un terrain « nu et désert » qui, le soleil levé, s'avèrera être... un cimetière (retour à l'isotopie « mort et délabrement »). Là, les voyageurs doivent attendre, pour faire leur entrée dans la ville, une autorisation — précieux « sésame », dit Loti (p.302) — apportée de Fès par courrier spécial. Et cet émissaire est en retard...

Le récit ne se fait alors plus qu'attente, vide de toute description, a fortiori de toute action, et surchargé au contraire de ces points de suspension si habituels au récit lotiste: il existe indéniablement chez cet écrivain une tentation du vide, que l'on retrouverait par exemple dans ses « récits de mer », et dont la fonction est de concurrencer la volonté de description réaliste, afin de maintenir le récit quelque part du côté du rêve. Indicible par définition, cette sensation du vide conduit dans **Au Maroc** à toute une « rhétorique de l'incertain » dont nous aurons à reparler.

Et moi, lecteur, renvoyé dans cette attente (ce « suspense »?) au sein d'une « nuit doublement obscure », d'un Meknès bien vivant à un étrange cauchemar sur la rive d'un quelconque Achéron auquel ne manque aucun des éléments du sur-réel: ni la déambulation au cœur du marais, ni les bruits inexplicables, « petits appel (s) de la mort » (p.295), ni les chacals, chouettes — tous ces « habitants à voix lugubre des cavernes » (p.295). Et au-delà de l'immense ravin, cette farouche cité partant en poussière et où vivent (?) « cinq ou six mille âmes » (p.290).

VI/ La scène /le décor

Un relevé complet des sèmes «mort» et «délabrement» entre les pp.288 et 332 de **Au Maroc** (soit tout l'épisode meknassi) montrerait un très grand nombre d'occurrences jusqu'à la p.315, puis une brusque diminution.

A quel moment s'opère cette évolution sémantique? Au moment précis où, après avoir visité en compagnie du Pacha le Meknès de Moulay Ismaïl et son Aguedal, Loti et son compagnon de voyage décident de rendre au quartier juif une «visite promise» (12).

«Cela nous changera de toutes ces grandeurs mortes» (p.315)

Idée encore une fois toute faite, Loti ne connaissant rien du Mellah de Meknès au moment où il l'exprime. Une récente visite à celui de Fès (**Au Maroc**, pp. 266-268) aurait même dû le prémunir contre ce genre d'affirmation. Toujours est-il que tout au long de la dizaine de pages évoquant la visite du mellah, les deux sèmes précités disparaissent à peu près totalement.

Il me serait aisé de me lancer ici dans une explication de type idéologique, comme celle que Lahjomri avance dans sa thèse, et que je ne récuse d'ailleurs nullement (13). En la circonstance, il semble en effet évident que la communauté juive de Meknès est appréhendée par Loti avec plus de sympathie que les communautés musulmanes. Le jeune pacha, tout comme la ville arabe, n'a reçu ses visiteurs qu'au «seuil de sa porte» (p.301); les «amis juifs» viennent à leur rencontre et leur font les honneurs de leurs vastes demeures (pp.316-317). Et au moment du départ:

«Nous ne savons quels remerciements faire à ces aimables gens, que nous ne reverrons jamais nulle part et auxquels nous aimerions pourtant offrir à notre tour l'hospitalité, si par impossible ils venaient dans notre pays» (p.325).

Mais c'est au plan stylistique et sémiotique — donc intrinsèque au texte — que j'ai choisi d'analyser ce passage de **Au Maroc**. C'est donc sur ce plan-là que je demeurerai, pour avancer quelques hypothèses.

On a constaté combien la première impression morbide inspirée par Meknès disparaissait devant un tableau de jeunes filles en groupe. Quelques pages plus loin, une évocation du chant nocturne des sentinelles vient pareillement mettre fin au «rêve noir» né de l'emplacement du bivouac (pp.296-297). Idem, encore aux pp. 304-305, avec le retour dans un cadre différent de la troupe d'écoliers «qui continuent la fête d'hier». Et encore plus longuement, comme nous venons de le voir, entre les pages 315 et 324, qui concernent la visite du mellah, traitée plus comme une longue scène (repas de famille, déplacements sur les terrasses,...) que comme une description.

Ainsi, tout au long du séjour à Meknès, des scènes viennent-elles, par le rappel d'un vécu immédiat, reléguer au second plan le rêve préétabli. Non d'ailleurs sans contradictions (p.304, Loti affirme que le tableau des enfants «restera dans (ses yeux comme le plus oriental», alors que, de façon plus générique — nous l'avons vu — l'Orient ne cesse d'être pour lui symbole de mort!).

Sur un décorum préétabli qui convoque le rêve avant le réel, la scène vient quant à elle actualiser et animer, rétablir le singulier et le mouvement, et installer la figure à la place de l'anonymat des silhouettes. Il aurait été indéniablement difficile, et sans doute maladroit, de tenter de maintenir tout au long du récit une même isotopie. Scènes et décor se font respectivement valoir; car n'est en fin de

compte qu'à travers l'évocation d'instant de vie que la permanence de la mort se peut ressentir dans toute sa force.

VII/ Quelques procédés stylistiques

Ce passage d'une vision vécue à une vision rêvée, ou encore comme nous venons de le voir de la scène au décor ne peut s'effectuer qu'à l'aide d'un certain nombre de procédés rhétoriques et stylistiques (d'ailleurs familiers à Pierre Loti) qui maintiennent la cohérence et la «lisibilité» de l'ensemble:

1) Une rhétorique de l'incertain (14):

Soit les syntagmes suivants:

«... qui semblent enfermer d'immenses parcs» (p.288)

«On dirait des séries de parcs abandonnés, des promenades pour des morts» (id°).

L'emploi — courant dans les descriptions lotistes — de tels verbes modalisateurs a pour effet de remettre en cause «l'effet de réel» sitôt énoncé. Effet renforcé, dans le second syntagme ici analysé, par le jeu de la juxtaposition:

... des parcs abandonnés (...), des promenades pour des morts

où, si le groupe nominal A ne fait que reprendre, en la précisant, l'image précédente « d'immenses parcs», le groupe B nous ramène au connoté et nous plonge dans le rêve, par un effet de «petite musique».

2) La «petite musique» de la mort.

Le rêve, on le sait, se satisfait de ce flou, de cette incertitude. Il s'y installe délibérément, alors que le descriptif, lui, appellerait une tout autre rhétorique. Deux discours largement divergents vont donc se superposer. Et pendant qu'une image vécue va s'élaborer ici et là comme nous l'avons vu — cas des bribes de description réaliste ou des scènes — le rêve perdurera comme une «petite musique», parfois claironnante, sourde le plus souvent, mais toujours perceptible. Ainsi la périphrase: «... des lieux depuis longtemps tranquilles» (p.288) est-elle successivement reprise au fil du récit sous la forme «... des promenades pour des morts» et «allées funèbres», avant de se synthétiser sous le terme exact de «cimetière». Cet ensemble métaphorique, patiemment filé, et alimenté de sèmes voisins ou complémentaires («fantômes», «cadavres», «poussière»...) chante tout au long des pages consacrées à Meknès cette «petite musique» de mort. Comme autant de variations sur un motif unique, les scènes ne viennent ensuite que se surimposer à ce décor, par un jeu de conjonctions, disjonctions, amalgames non dénué de certaines maladresses, comme ici p.290 où, à mon avis, le rêve interfère trop brutalement avec la réalité vécue, créant l'anatopie analysée supra.

VIII/Conclusion

On ignore souvent que les récits de voyage de Pierre Loti (mais aussi la plupart de ses romans («exotiques»)) ont été tirés d'un journal intime encore largement inédit — et ce avec de plus ou moins grandes modifications selon le cas. Une intéressante recherche pourrait donc naître de l'analyse patiente des variantes entre le Journal et ce qu'Eric Marty appelle (à propos d'André Gide) «l'écriture du jour» et celle, recomposée, des récits. S'agissant de **Au Maroc**, le récit ne connut ainsi pas moins de trois états successifs, puisque, issu d'un

journal intime fragmentaire et rapidement abandonné, (dont il conserve la structure chronologique et diarique) il parut d'abord en plusieurs feuillets dans l'illustration (du 24 août au 29 octobre 1889), avant d'être édité par Calmann-Lévy, avec préface, en 1890.

Une telle étude montrerait sans doute combien toute la vision que Loti a eu du monde arabo-musulman fut influencée par sa première expérience, dont fut tiré *Aziyadé*. Expérience de l'amour impossible et du deuil, qui ira rejaillissant, dans un jeu constant d'amalgames et d'approximations, sur l'ensemble du monde musulman et ses valeurs civilisationnelles, jugés comme de fatalité et de mort.

NOTES

- (1) Pierre Loti : *Au Maroc* (Paris, Calmann-Lévy, 1890).
- (2) Joseph Caillié: *Pierre Loti au Maroc*, in *l'écho du Maroc*, 15 avril 1952.
- (3) Bleicher: *Un voyage au Maroc* (Paris, 1875) et Tissot: *Itinéraire de Tanger à Rabat* (Paris, Delagrave, 18767).
- (4) Duveyrier Henri: *Le chemin des Ambassades* (Paris, soc. de Géographie, 1886) et *Charmes Gabriel: Une Ambassade au Maroc* (Paris, Calmann-Lévy, 1887).
- (5) *Au Maroc*, p.1 Nous indiquerons désormais la page en fin de citation. Tous les termes soulignés le sont par nous.
- (6) Il s'agit du Docteur Fernand Linarès (1850-1937), arrivé au Maroc en 1878, un des premiers officiers de la Mission Militaire française auprès du Sultan Moulay Hassa, dont il devint en 1884 le Médecin personnel et qu'il accompagna ensuite dans toutes ses expéditions, dont celle du Tafilaït (1894). Quitta le Maroc en 1902. Cf. Deloncle Pierre: «Un pionnier bienfaisant de la France au Maroc», in *la Vigie marocaine*, 27 avril 1938.
- (7) Abdeljelil Lahjomri: «Le suaire de l'Islam. Pierre Loti: *Au Maroc*», in *l'image du Maroc dans la littérature Française (de Loti à Montherlant)* (Alger, S.N.E.D., coll «Etudes et Documents», 1973, pp.106-123).
- (8) Apprenons à nous garder de cette affirmation courante, entretenue à l'occasion par l'écrivain lui-même, selon laquelle Pierre Loti ne lisait rien. Au Maroc contient d'ailleurs plusieurs références de lectures, dont certaines fort savantes. Par ailleurs, il semblerait que l'écrivain soit entré en correspondance (mais avant ou après son voyage ?) avec plusieurs de ses prédécesseurs au Maroc.
- (9) «Arabe» ou «musulman»? Depuis *Aziyadé*, roman de la rupture et du deuil, inspiré d'une idylle en pays musulman, mais non arabe — la Turquie — cet amalgame apparaît constant chez Loti.
- (10) Philippe Hemon: Introduction à l'analyse du descriptif. (Paris, Hachette, 1981), p.66
- (11) Pierre Loti soulignera dans un article à la vie féminine (7 déc. 1917) le caractère de «très sinistre présage» que revêtent pour lui ces animaux et leurs manifestations.
- (12) Les voyageurs avaient été mis en relation avec les responsables de la Communauté juive de Meknès par «un de leurs coreligionnaires de Tanger, M. Benchimol» (p.294). Haïm Benchimol, banquier et philanthrope juif, directeur du Réveil du Maroc, très proche du Ministre Féraud, facilita également le périple marocain de Charles de Foucauld. Mort vers 1906.
- (13) A. Lahjomri, op.cit.
- (14) J'emprunte cette expression à l'article d'Henri Scepi: «Rhétorique de l'incertain dans *Pêcheur d'Islande*», in *Revue Pierre Loti*, VII^e année, n° 27, Juil-sept. 1986, pp.65-68.

المأثور الشعبي في كتب بن زيدان العز والصولة كنموذج

الأستاذ محمد بنعبد الجليل
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
مكناس

تحتوي المصادر التاريخية والأدبية والجغرافية وكتب الفقه على الكثير من المأثور الشعبي من عادات وتقاليد واعراف. (1).

على ان الكثير من هذه الكتب لم تفهرس بعد فهرسة عملية واذا حصل ذلك وقليل ما هو فان الفهرسة كثيرا ما تغض الطرف عن هذه الماثورات باعتبار ورودها في صلب قضية من القضايا. واذا كان الوقوف على مثل هذه الاعمال صعب فان ثمة صعوبة اخرى لا تقل اهمية عما سبق. ذلك ان الكثير من هذه الماثورات المتناثرة هنا وهناك الموزعة في بطون هته المظان يعوزه الوصف الدقيق ليبرز في ذهننا واضحا جليا.

واذا اضفنا الى ما تقدم اعتماد بعض المؤلفين على الشائع المتداول المحفوظ في الذاكرة والصدور — من هذا المأثور الشعبي — فيستكفون من تسجيله وتقيده فيضيع وتضيع معه مراسم مجتمع باكملة أو تكاذ. لهذا سارعت كثير من الدول الى جمع ما يمكن ان يجمع وتدوينه بمختلف الاساليب (2) لكن الخزانة المغربية وهي تظم مجموعات ضخمة من النوازل والاحكام والفتاوى اهللت أو كادت هذا الضرب من الثقافة وهو ضرب يسد ثغرة ان تضافت الجهود لذا اثرت ان تكون مداخلتني في ندوة الحاضرة الاسماعيلية الكبرى.

« المأثور الشعبي في كتب بن زيدان » العز والصولة كنموذج

خصوصا وقد وقع في يدي ايام الدرس والطلب على مجموعة من الكتب والبحوث القيمة تناولت المجتمع العربي العباسي وما فيه من نظم وقوانين ومراسم واعراف ابرزت المجتمع على صورة مغايرة تماما لما تقدمه لنا صورة الادب الرسمي.

ويومه عرفت قيمة هذا التراث واصبحت آمل ان يفتح امامنا مغلق الخزانات المغربية ودونه شك
القتاد.

وطبعي ان تكون كتب بن زيدان ولا زالت من هذا الدون وهو الذي توغلت نشاطاته في عدة فروع
لتشمل الفقه واللغة والتاريخ.

ولست بصدد تقديم عمل بيبليوغرافي لاعمال ابن زيدان ولقد سبقت الى ذلك من طرف اساتذة
اجلاء منهم من كتب بمناسبة الذكرى العشرينية لوفاته ومنهم من استلهم من انجافة الحركات الجيشية ومنهم
من اثار الى ما تزخر به خزائنه من وثائق بلغ عددها 20 000 وثيقة ترجع الى فترات ومواقع مختلفة
ومتنوعة (3).

لكنني اود ان اذكر ان ابن زيدان الفقيه اللغوي الشاعر كان كذلك جماعة وهذا ما لم لقف عنه في
حدود ما قرأت عن ابن زيدان فعدده من زمرة اصحاب الكشاكيل وعليه فكتبه عامة وخاصة كتاب العز
والصولة يمكن اعتباره اهم مصدر اهتم فيه المؤلف بالحياة المجتمعية فحق تصنيفه من حيث القيمة التراثية
التي يظلمها في الدرجة الاولى بل انه اهم كتب ابن زيدان بما في ذلك الاتحاف من هنا كان مصدرا لاغنى
عنه لدراسة الماثورات الشعبية التي توارت اليوم او كادت ومن هنا ايضا كانت مزية هذا المصدر الذي كاتبه
ينحدر من بيعة لم تعرف الفصل بين ما هو ارستقراطي صرف وبين ما هو شعبي مجتمعي خالص فامتجرت
التكهنات فصار الكتاب شاملا لكل غريب عجيب طريف وعبد الرحمن بن زيدان نفسه يشير الى هذا.
«فقد اخترته لغرابته وجدته وطرافته وجدارته بالبحث وهو موضوع مع شدة الحاجة اليه قد اغفله
المؤرخون والكتاب...» (4)

ورغم هته الميزة وميزات اخر لم تمتع بعض الدارسين من ابداء بعض الملاحظات التي اتجهت صوب
الشكل اكثر مما اتجهت صوب المضمون.

«وقد سلك المؤلف في ترتيب الكتابة طرقا ملتوية فلم يراع وحدة الموضوع ولا ما بين المواضيع من
تناسب وتجانس كما انه لم يفرق بين نظم الدولة العامة وعادات القصر الخاصة بينما نجده يتحدث عن نظام
البيعة واشغال السلطان ايام الاسبوع تجده يتحدث عن كيفية صناعة الخلل وتقطير الزهور والورود بدار
الحزن»

والتأمل الدارس بتوادة لمثل هته الملاحظات وجملة غيرها يدرك ان الاستاذ بلمنصور حين اثارها قد
سهى ولا شك عن مدرسة لها نفس المنحى الذي كان المرحوم عبد الرحمن ابن زيدان ينتمي اليه.
مدرسة اصحاب الكشاكيل وابن زيدان منهم وغايتهم خدمة هدف ثقافي عام تحتل فيه الرغبة في
الترفيه او الغرابة مكانة مرموقة.

من هناك كان اهتمام المرحوم عبد الرحمن فيما اظن بالموضوع دون الوحدة الموضوعية.
اضف الى ذلك الظروف التاريخية والثقافية التي كان المغرب آنذاك اي سنة 1933 يجاها
فالاستعمار واقتلامه كل يريد تشكيلك المغاربة في تراثهم.
وتراثهم كان وقد لا يزال بين قبري ثرى واهمال.

وقد راع ابن زيدان موقف بعض الاغمار والاعرار الذين توهموا انه لم تكن للمغرب اصالة وحضارة فكان همه البحث والتنقيب حتى جمع الشيء الكثير.. من وثائق الدولة وظهراتها ودفاتها. «إلى أن اتسعت لي آفاق البحث واستبحر موضوعه وتشعبت مسائله واتسعت فروعه وتعددت أمامي الأبواب بتوارد المسائل...» المقدمة ص 4.

فلم يكن هم ابن زيدان الاختيار والتنسيق والتنظيم وظم كل جنس إلى جنسه لأن الجنسية علة الضم وإنما كان إظهار ما خفى ولو تكرر هذا الظهور.

هذا بالإضافة الى انه كانت له قدرة على توجيه هذه الركامات المعرفية لخدمة اغراضه لذا فان القارئ الباحث لن يصعب عليه التماس خيط من التنسيق فمن خلال الفترة والفصل الواحد في الكتاب ليؤكد ان الدولة قد عرفت ماثورا وحضارة من اقدم عهدها.

وليست هذه هي الميزة الوحيدة للكتاب بل توجد ميزة اخرى شديدة الاتصال بالحقول اللغوية وهي يومئذ تعرف روجانا سيما في باب «اللهجات» لكن المؤسف ان بعض الذين درسوا اللهجة المكناسية قد أغفلوا هذا الحقل من مصادرهم تماما.

وختاما وان كان كتاب العز والصولة لم يسبق ابن زيدان الى موضوعه اذ هو كما نص على ذلك الاستاذ بلمنصور.

لا يطرق موضوعا من المواضيع التي طرقتها في كتبه الاخرى او التي الف الكتابة فيها علماء المغرب في القرون الاخيرة فهو لا يؤرخ لملك ولا دولة ولا يترجم لفرد ولا طبقة ولا اسرة ولا يعرف بناحية ولا قرية بل هو وصف الانظمة والاعراف التي كان معمولا بها. مقدمة الناشر ص 5.

واننا لا نعدم امثلة لذلك في مكتبتنا المغربية ككتاب التراتيب الادارية للشيخ عبد الحي فهو وان لم يكن قد تعرض لانظمة الدولة المغربية قد تعرض لتراتب الدولة الاسلامية حكومة الرسول.

ومع ذلك نجد نجات تذكرنا بالماثور المتداول حاليا في فاس مثلا غير ان الفرق بين الكتاين يتجلى: أ — في اللغة اذ كل المورث التي في كتاب التراتيب الادارية بلغة عربية صرفة ولا غرابة بينا نجد صورا لهذا الماثور نقلت بلهجة مغربية واحيانا محلية.

ب — كان صاحب التراتيب يبحث عن اصول التراث في السنة. ولم يكن كذلك صاحب العز والصولة الا لماما وبالمثال يتضح الحال. قال الشيخ عبد الحي في تراتبه ج II ص
ترجم في الاصابة لفارعة بنت أبي أمامة الأنصارية، أنه لما كانت الليلة التي زفت فيها قال لهم النبي (ص):

فحيوننا نحييكم

آتيناكم آتيناكم

وأخرج ابن الأثير عن عائشة قالت أهدينا يتيمة من الأنصار فلما رجعنا قال النبي (ص) :

سلمنا وانصرفنا

ما قلتكم قلنا

قال النبي أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل الا قلت يا عائشة :

آتيناكم آتيناكم
لولا الذهب الأحمر
فحيونا نحبيكم
ما حلت بواديكم

قال المرحوم بن زيدان في عزه ج. 1 ص. 167 عقب حديثه عن عيد الأضحى .

خرج السلطان لذبح نسكه بيده فيجد الجزارين واقفين في بزتهم الرسمية الافة للانظار ويبد قائدهم السكين والمنديل فيناول الأمر السكين ويقدم اليه الاضحية فيذبحها بيده اقتداء بخير الانام جده (ص) وتحمل حالا على دواب تكون مهياة لحملها من اسرع الدواب سعيا وراء وصولها قبل سكون جثتها وسكون حركتها والقصد بذلك والله اعلم ان يحصل للحريم نصيب من المشاهدة التي امر بها (ص) بعض امهات المومنين في قوله قومي اشهدى اضحيتك.

وثمة ملاحظة وهي ان الاستاذ بلمنصور قد الزم الامانة التامة عند نشره للكتاب وان كانت بعض الخواطر قد نازعتهم فهم يحذف بعض الفصول لتفاهتها كما بدت له اولاً (4).

ونحمد الله على انه لم يفعل فسلمت الفصول وسلم ماثور قد يستغربه كثير من شبابنا المعاصر التي لم يتمتع كما تمتع آباؤنا واجدادنا.

بيوم عنه بعد التقطير. او التصيين او التقطاع او غير ذلك مما ساضبض الحديث عنه بعد عرض نصوصه كما هي في كتاب العز والصولة.

نظام تقطير الزهر والورد

يقول المرحوم عبد الرحمن بن زيدان:

اذا كان زمن الربيع يوتى بما يكون بالجنات والرياض كل صباح ويدفع لعبيد الدار (الطواشين) فيسلمونه للعريفة.

فتجتمع عليه الاعيان من الاماء في محل خاص معد لذلك فيقطنه ويجعلنه في قواريره ثم يجعل على أفواه تلك القوارير اغطيتها وتشد شدا محكما وتجعل في صناديق من عود او خشب.

وفي حالة مباشرة التقطير يمنع دخول اي احد لحمل المباشرة الا لمن يباشر عادة وابتداء العمل معهن.

وتجعل القطرات خلف ستر مسدل من كتان ابيض ثم توجه العريفة لجلالة... باكورة مما قطنه.

العز ص 65

التعليق:

و ان المرحوم بن زيدان ان لم يكن ليعاين كثيرا من المراسم المتعلقة بالماثور الشعبي لذا فان بعض الذمات كانت مختصرة وكتابته عنها كان مما علقه عن طريق الرواية ووعاه... وهكذا يتجلى:

— انه اغفل مراسم القطف

— هل التقطير يكون مباشرة بعد تسليم العريفة للزهور للإماء؟ والعادة غير ذلك.

— لكن المهم في هته اللقطة (المحل الخاص) وحيدا لو سماه واغلب الظن انه كان يشغل جزء من

الدويرية.

- لم يحدثنا عن مراسم ما قبل التقطير من تنظيف القوارير وتطبيها (تبخيرها).
- لم يحدثنا عن نوعية القوارير فغالبا ما تكون من طين مجلوث او من زجاج داكن مطرب — قرعة —
- نلتبس عندرا لابن زيدان عن كل هذا ذلك أن المحل الذي يياشر فيه التقطير ممنوع من لوجه ومن لم يكن مشتغلا فيه مخافة العين فلا تنجم عملية التقطير (ما تصخرش).
- جعل القطارات وراء ستر أبيض مبالغة في النظافة والتستير وهي عادة انعدمت اليوم.
- متى تجعل القوارير في صندوق عود او خشب لكثافته لمنع تسرب الاشعة فلا تبخر الرائحة.
- متى يرسل باكورة التقطير بمجرد الانتهاء ينتظر الوقت والعادة جرت بعدم اخراجه من البيت طيلة 40 يوما تلى التقطير.
- ومع كل هته الملاحظات فان السبق يكون لابن زيدان في تسجيل عملية تقطير الورد.

نظام صنع الخل

يقول المرحوم بن زيدان:

كل عام كان يدخل للعريفة المكلفة بخزين ما يدخر من الاقوات عدد عديد من احمال العنب لصنع الخل فيصنع ويوضع بالخزين المعد. وكذلك زمن الزيتون والخلع ويوجه للجلالة من كل باكورة العام.

العز والصولة ص 66

ان الدارس لفقرات الماثور الشعبي في كتاب العز والصولة يذكر منذ الوهلة الأولى ان هته الفقرة من اصغر الفقرات حيزا قد اختصرت اختصارا مغللا ولعل هذا الاختصار كان الدواعي الأولى التي دفعت الأستاذ بلمنصور الى محاولة حذف هذا الفصل.

— ان ابن زيدان لم يحدثنا عن كيفية هاته الصناعة.

وعن أنواع الاعتاب التي تستخدم فيها (بريكش) عن الاواني التي كان يحفظ فيها وغالبا ما تكون من الطين (زير مزدج).

وقد كان بن زيدان اشد اختصارا عند الحديث عن «عولة» تخزين الزيتون والخلع.

فلم يشر الى نوعية المتداولين الكحل الحامض ويخزنان طيلة العام كما انه لم يشر الى الليمون بوضرة والرنج.

اما النوع الثالث وهو موسمي يعرف (بمسالة) — او المدقوق اما البرو قفل من يدخره انما يخلط مع الزيتون المعد لاستخراج الزيت.

وكذلك كان الامر عندما اشار الى الخلع.

فمن اي اللحوم كان يتخذ امن لحوم البقر او من لحوم الجمال.

ولا اي وقت من فصل الصيف كان يعتبر الوقت الحب لادخاره مع العلم ان اجود اوقاته ما كان

مشماشيا.

نظام التقطاع

يقول المرحوم ابن زيدان:

العادة المقررة انه اذا استهل شهر شعبان تعلم العريفة جميع الشريقات ونساء القصر بانها عزمت على صنع التقطاع وانها تستدعين لذلك فيتوجهن للحمام ويغتسلن ويلبسن انقى ثيابهن ويأتين للمحل المعد لذلك مشمرات حاسرات عن ادرعهن فيصطفن وتنشر الازر البيض من الكتان ويوزع عليهن العجين فيأخذين في التقطيع ويتادين على ذلك كل يوم من الصباح الى العشى بضعة ايام يوم يقطعن التقطاع ويوم يقطعن الشعرية ثم يبخر ما صنع ويشمس... العز ص 66

التعليق:

يعرف التقطاع عند بعض الاسر بالفطيل وكثيرا ما كانت الاسر تفتل: الكسكس — المحمصه — الشعرية — الفداوش والادوات المعدة لذلك اضافة المواد الخام من دقيق القمح والسמיד والسمن.
— مديونه اناء من دوم دائري الشكل صلب نوعا عمقه 5 ر 7 سنم له أذن يعلق منها.
بمقارنة نص التقطاع مع سابقه صناعة الخل يتضح ان ابن زيدان كان اكثر دقة في الوصف والحديث والسب واضح كما قد نلمس.
ذلك ان نظام العجين قد حضره بنفسه وشاهده فكملت الصورة اما صناعة الخل وخصوصا تقطير الورد فانه لم يحضره بل وصف له

نظام العقيقة وما يجري في بعض شهور الحمل

يقول المرحوم ابن زيدان:

اذا استهل الشهر 9 يفرش بيت الحامل الذي يعد لولادتها احسن فرش وتتحدد فيه السنور المزركة وتستعمل سائر الوسائل التي تقي من البرد وتجعل ما اعدته من العقاقير والادوية وجميع ما تحتاج اليه زمن النفاس حتى القصعة التي يغسل فيها المولود والسلة التي توضع فيها الخرق المحتاج اليها والفانوس والشمع والمونس كل ذلك عند مؤخر الفراش الذي تلد عليه وتلازم القابلة المبيت عندها من يوم استهلال الشهر الى ان تضع حملها فاذا احست بالقلق يحضر المسنات من النساء يؤنسها ويسلينها، فاذا اشتد بها الامر صرن يذكرن الله ويصلين على النبي (ص) ويدعين بادعية محفوظة لديهن.

فاذا وضعت الحمل ناولنها بعض المسخنات (5) والمقويات من مأكول ومشروب ويقلن الدقيق ويخلطنه بالسكر المنخول والسمن المداب ويوزعنه على سائر اقارب النفساء ومن اليها فاذا كان المولود ذكرا يذبح للنفساء مدة 40 يوما من يوم ولادتها او مدة اسبوع دجاجة او دجاجتان لتستعمل النفساء مرقها.
وان كان المولود انثى يذبح لها ديك او ذيكان... العز والصولة ص 67

التعليق:

— وفر النص في بابهِ معلومات لم توفرها النصوص السابقة في بابها.

— كنا نأمل من ابن زيدان ان يسجل تلك الادعية التي كانت المسنات من النساء ينشدنها لنقارن بها وبين ما هو موجود لحد الساعة عند بعض الاسر فمثلا عندما يشتد الخصاص ويعسر الخلاص يردن ميوت عال.

هادي ساعة من ساعات الله
يحضر فيها النبي رسول الله

وعندما يطول الامر كن يلجئن الى مسجد الحلي يستنجدن باطفاله ويزودونهم بازار ابيض وضعت
اخله بيضة نيئة ويبدأ الطواف

انفسه طال بها النفاس
يارب واعطها الخلاص
حرمة طه ويسن فرانسا عظيما

وكلما مر مركب الصبيان تساقط قطع النقود داخل الأزار ويظل صبيان الكتاب في التطواف حتى
صلون إلى ضريح ولي المدينة فيلجأ إلى صحنه مرددين ويطوفون بالصحن 7 مرات وقد يصب 7 قباب
لى الأزار.

وقد لا يعودون حتى تنكسر البيضة لانها اذا انكسرت يعني ان النفساء قد ولدت.

كنا نود ايضا ان يحدثنا عن بعض المسخنات التي كانت النفساء تحسبها مباشرة بعد الولادة.

وطبيعي ان تختلف هذه المسخنات من اسرة لاسرة ومن ناحية لآخرى ومن بيئة لبينة.
فمن حيث اختلاف الأسر:

هناك من يقدم للنفساء كاس حليب قد مزج بمح (فص البيض) وقد يضاف الى هذا المزج شيء
من حب الرشاد (الحرف) وبعد هذا بدقائق تقدم (المرق) التي كان اساسها الديك المذبوح ان كان المولود
نشي او دجاجة ان كان المولود ذكرا.

وقد يختلف الامر لدى اسرة وآخرى حيث يقدم للنفساء (رغيف من البيض) فتشترط فيه ان تكون
سبة الابازير مرتفعة.

وقد يعوض رغيف البيض ببيضتين تطبخان في زيت الزيتون.

وقد تقدم اسر آخرى (سويحيق) يعرف باسم الزميمة يهياً من دقيق، الشعير المقلي.

ويطبخ الكل في زيت الزيتون بعد ان تضاف اليها كمية من الصحتر والعسل وان لم يوجد العسل
ضيفت الرطب.

وقد يدخل في تهيء الزميمة الزبدة او السمن المدابة مع شيء من الكامون.

ويعتبر تقديم شيء من الزميمة للزائرات والوافدات من طلع اليمن وجلبا للفأل وأنقاء للعين بالنسبة للام
مولودها على السواء.

من حيث البيئة:

فبينما نجد ان اسر مكناس تعنى بالزمنية وقد نجد اسر فاس او الرباط مثلا تعني بالسفوف — او سلو.

وبياً من دقيق القمح المطبوخ بالسمن او الزبدة مع خلط من اللوز المسحوق وحبوب البسياس والنافع والجنجلان.

ومن العادة التي كانت حارية عند النفاء ان تعمل المضغة الاولى بعد عركها بالاسنان على بشرة الوجه اعتقادا منها ان ذلك يعيد لها حملها الذي انطفأ بالأم الحمل واتعابه.

ما كان يقال اثناء الوضغ اضافة الى ما تقدم:

احتفظ لنا Brumot في كتابه القم نصوص عربية من الرباط ص. 121

بنصوص من تلك الادعيث:

باسيدي بوضيخين
يا طير محني اليدين
فكها سيدي في الحين
يا سيدي بلعباس
يا لعسل في الكاس
فك لي بنت الناس
واعطيا الخلاص

احتفظ أيضا A.Chottin بنصوص قيمة نشرها ضمن بحثه الجيد فمجلة هسريس ج 4 سنة 1924

ص 225 بعنوان اهازيج شعبية جمعت بفاس

ضرب بجناحك يا ملاك الله
غيث النفيسة يا رسول الله
اسيدي بلعباس
يا محلل النفاس
يا ولي الله

يامولاي عبد القاذر
ضرب جناحك
ياملايكة الرحمان فكوا النفيسة
يارسول الله
يارب يا رسول الله
فك النفيسة يا رسول الله

ضرب بجناحك يا ملاك الله
فك النفيسة
يا رسول الله

نظام العقيقة

بعد ان حدثنا عن نظام العقيقة داخل القصر الملكي وكيفية الاستدعاء الى الوليمة والحفل الذي يكون ليلة العقيقة ختم فصله بفقرة لا تهم سكان القصر وحدهم بل هي عامة.

يقول المرحوم بن زيدان:

فان كان يوم الاربعين تقام بداخل القصر حفلات لاغتسال النساء وحلق راس المولود. وربما استدعى لذلك من استدعى لحضور العقيقة.
العز والصولة ص 68

التعليق:

نظام الختان

اذا بلغ الاطفال 6 - او 7 من عمرهم وقع الاحتفال بختانهم.
... فاذا كانت ليلة الختان اقيمت حفلة عظيمة لصبغ ايدي وارجل الصبيان الذين يراد اختنائهم بالحناء وفي الوقت المعين للشروع في الاختتان يحضر ذوو المهارة من الحجامين بباب القصر السعيد وقد احتف بهم الطبالون...

... ويؤتى بالاطفال محمولين على ظهور الاماء ويختار لذلك السود منهم ويقدم في الختان العبيد ثم الشرفاء...

ويحملون بعد الختان على ظهور الاماء وتكون ظهورهن عارية من الثياب حتى لا يمس الجرح ثيابهن في حال الحمل ... اما الذين لا ينامون في القصر فان امناء الصاير السلطاني يدفعون لاهليهم ما يحتاجون اليه من لحم ودقيق وصلة لاقامة الافراح لاولادهم.

... فان تم الامر في يوم واحد فذاك والا فان العمل يستأنف من الغد وهكذا الى ان يتم العدد الذي عين للختان.

وفي كل صباح ياتي الحجامون لاستعمال الدواء لكل مختن.

وياتي الطبالون واصحاب المزامير لمؤانستهم وتلتهيتهم كذلك وعلى هذا يجري العمل كل يوم الى ان يبرأ الجرح وعند حصول البرأ يغتسلون ويكون في سائر تلك الايام مهرجان وافراح متوالية وبالانحص يوم الاغتسال ويستدعى النساء... فاذا تمت ايام الاحتفال توزع الصلات ... والشان ان يكون ذلك كل عام ولا يكون في الغالب الا بعاصمة من العواصم اما بمراكش او بمكناس... العز والصولة ص 73

التعليق:

رصد ابن زيدان اهم مظاهر الاحتفال وان كان ركز على احتفالات القصر الملكي التي قد لا تختلف عن الاحتفالات التي تقام خارجة الا من حيث الابهة وما يناسب عظمة الملك الا ان هناك من الاسر من لا تنتظر بلوغ الطفل 6 — 7 من العمر بل يقع الختان دون ذلك.

تختلف عادة الاسر في مكان الختان فهناك من تفضل ان يظل الضي في البيت ويقع الختان على العتبة.

وهناك من تميم بتوجيهه الى الضريح الحامي للمدينة او ضريح صاحب الحرفة.

تختلف عادة الاسر ايضا في الاخبار بالختان فهناك من تكتم السر عن الوالدين مطلقا ولا يعلموا بذلك الا اذا كان امام الامر الواقع (السرقه)

وهناك من تكتم السر على واحد من الابوين فقط الاب في اغلب الاحيان ورغم كون الفصل امور معلومات عن سابقه وان هذه المعلومات اتكات على المشاهدة فان ابن زيدان قد اغفل — وله بعد هذا تليا في الكتاب — الحديث عن كيفية حلاقة المحتون — العرف أو التفرقة).

عن تخطيب الايدي والارجل بالحناء (بالزواق او المغاطس) وغالبا ما تكون المغاطس، اغفل كذلك الحديث عن الكموسة التي تشد كالحلخال في الرجل اليمنى وقد يكون بها شيئا من العشب والحرملة محفوفة في خرقة خضراء يانعة.

لم يسجل تلك الاهازيج التي كان تقال للمختون

نظام تعليم الانباء

لم يتطرق العلامة ابن زيدان في كتاب العز والصولة الى نماذج من الحفلات ولقد احوال على كتابيه النهضة العلمية.

لكنه اشار قريب الانتهاء من هذا الفصل اشارة فيها ملامح للماثور الشعبي اذ قال:

وقد فتحت القرآن الكريم ايام السلطان المقدس مولاي الحسن بذهيت لجلالته بلوحي اطلب من علاوة الختمة وكان الوحي مكتوبا بخط مؤدبي من جهته...» العز والصولة ص 75—76

التعليق:

لا تخلو هذه الاسطر من اشراقه ومتعة وفوائداؤها مدى اهتمام المغاربة بتحفيظ القرآن عملا بقوله (ص) «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وما حصل الختمة المشار اليه.

والختمة عبارة عن ختمات.

أ — ختمة السور القصار من الرحمن الى سورة الاخلاص ويطلق عليها اسم جايبوه.

لان اطفال الكتاب عندما يصل زميل لهم الى هذه الدرجة يحملونه ويقصدون به منزله وهم يترنمون

جايوه جايوه
يا سعد يماه وبوه
يا سعد الفقيه للقراه
يا سعد اللوحة المروقة
فاين نحضوه....

في حجر يماه وبوه

يا بركة النبي
يا بركة الرسول
علم هذا الصبي
علم هذا الرجل

وقد ختم الطفل لهذا الجزأ يصبح محضرا. ثم يكون جايوه الثاني عندما يصل الطفلا الى سورة .. قال الم أقل لكم. وعندما يستكمل الختمة وذلك يحفظ القرآن كله والصور الطوال وبالأخص البقرة يقام له حفل ضخم شيق يعرف بحبيينا (حفل التخرج)

ولهذا الحفل مراسيم متعددة. ينطلق زملاء الطفل من الكتاب حاملين لوح صديقهم يتقدمهم الفقيه وهم يترنمون اللهم صل على المصطفى حبيينا محمد عليه السلام

ولعل هذا هو سبب تسمية هذا الحفل باسم حبيينا. وعند وصولهم الى منزل صديقهم

حنا لله قاصدين
نمشو على القدم
وانتم يا اهل الوفا
بالجود والكرم
يا رب بالمصطفى بلغ مقاصدنا
واجعل منا جمعنا في الجنة النعم
يا رب لا تعذب حمالة القرآن
واجعلهم كالنجم يضيرو على العباد
وقد يحلو لهم اطراء الفقيه
سيد الفقيه
في الجنة
ووليداتو قدامو
الرواية التي اختبط بها

حبيبتنا حينا
النصر من الله
يا من فليه حاجة خير

مولاي محمد
والفرح من الله
تفضيها له يا الله

نظام الاعراس

يقول المرحوم ابن زيدان:

عندما يصل البنين والبنات موصل الرجال والنساء يقدم بذلك ديوان للملك الذي يكون قد عين
من قبل عدد الزيجات.

اذا هان الوقت الذي عين الملك للاحتفالات يأتي من يهيمهم الامر الى القصر.

— يدخل النساء القصر. والرجال يذهب به الى الاماكن المعدة.

— ايام الولاية لا تقا عن 7 ايام.

ليلة الزفاف يرق بالخمير المطهمة مسحة لكرب المحتفل بعرسهم.

تحض الموسى اصحاب المازم، والطما، وفسان الخيش والقبائل وغيرهم.

كل عروس بحمله وزيد المعين لمقاتلته على ظهره الى ان يصل به الفرس المعد لركوبه فيركبه غير
متنطق وملتفقا بازا، لاناسا عليه نساء ايضا او اخضر غالبا مسدولا على وجهه غطاء راسه من برنسه.

ياخذ بزمام فرس كل عروس من يعين لذلك من اصحاب الازوى واحد على اليمن وواحد على
الشمال يروحان ممتدبا اخضر غالبا.

يمرن على ساقية او مجرى ماء او زيارة ضريح من مشاهير اضرحة الصالحين.

ثم يقفون بالمشور والطبول تضرب والمزامير تنفخ فاذا كان الغروب رجعت تلك الهيئة المنظمة ابداع
نظام الى الخلل الذي خرج منه الاعراس. فاذا وصلوا اليه جاء لكل عروس وزيره وراكبه على ظهره واصله الى
محل جلوسه.

فاذا ملبت العشاء اتى بالعروس في موكب فاخر يعد لهم برحاب القصر ويجلسون على المنصة ويحضر
العمال والولاة والموظفون واعيان الجيوش وذوو الحيتيات والعسكر والموسيقى وتخرج اواني الخناء من القصور
فيجعل لكل عروس منها شيء في يده.

وتوضع مائدة من صفر غالبا توضع فيها الهدايا التي يتبرع بها العمال والموظفون.

فاذا تم الحفل يوقى بالعدول والقاضي والازواج والزوجات واوليائهن او وكلائهن من الحاجب او نائبه
فيقع العقد. يحضر امين الصائر المعين لصدقا كل ما تبرعت به الجلالة ثم يذهب بكل للمحل المعد لرفاهه.
يجلس العروس بالمحل فاذا بقي للصباح ساعة جاء المكلفون بالرجال والمكلفات بالنساء ليصحب كل
من كلف به للمحل المعد له.

وفي عصر كل يوم توضع كراسي للمتزوجات يجلس عليها في افخر زينة والمغنيات والمطربات بدفدن
ويغنين امامهن الى ان تصلى المغرب ويخرجن لازواجهن. وعلى هذا يستمر الحفل 7 ايام ربما امتد 40 يوما.

وفي اليوم 7 يتمنطق الرجال والنساء ويعقدون ازرار ملابسهم اذ العادة انهم لا يعقدونها من يوم الزفاف الى اليوم 7 ويسمى ذلك اليوم بيوم الحزام. العز والصولة ص 92
بتصف

التعليق:

الحديث عن بضع الصلوات التي تخص بعض الرعايا

يقول ابن زيدان:

وفي باقي الأيام كانت توزع على من بالباب العالي اقداح لحريرة صباحا والكسكس بعد الزوال من الكشينة المسماة باسيران ويزاد لكل شويديري من الشويدريات وهم اطفال الجيش الذين لم ينخرطوا في سلك الجندية لصغرهم خبزتان مياونة ويزاد في اربعين يوما من الليالي البيضاء الفول المطبوخ بغير قشرة (المهري) ويصب عليها شيء من الزيت والكمون ويفرق ذلك على من ذكر وغيرهم من يأتي فرق الجندي. ولم يزل العمل بذلك محكما من لدى عصر الدولة الرشيدية الى آخر الدولة العزيرية.
العز والصولة ص 49

الاحتفالات

أ — نزهة شعبانة (7)

لا تكون الا في العشر الاواخر من شعبان...
وجرت العادة المخزنية باصدار الأمر المولوي للصدر الاعظم باستدعاء الوزراء ... وغيرهم من العمال والباشوات.

الحاجب : يقوم باستدعاء الاسرة الملكية.

الباشا : الاعيان والكبراء

القاضي : العلماء والعدول والفقهاء

المتحسب : التجار والصناع واصحاب الحرف المختلفة.

التعليق:

من خلال هته اللقطة يتضح الضبط المحكم التي كانت عليه الدولة المغربية فكل جنس موكل الى جنسه والجنسية علة الضم كما يقال.

ويتوخى من هذا الضبط التحري اولا واشراك كافة الشعب على مختلف طبقاته وحيثياته في النزهة التي غالبا ما تقام في عرصات القصر او اجنته كما يتضح من نموذج من نماذج الاستدعاء.

وبعد فان سيدنا ايده الله قد انعم على عاداته الكريمة بجعل النزهة الشعبانية لمن عهد حضورها من اقارب سيدنا... جاعلا دام علاه ابتداءها من غد التاريخ الذي هو يوم الثلاثاء بجنان العافية.

وعليه فلتحضر بكرة عنده بالمحل المذكور بحيث يجذك الشروق تمة.

26 شعبان الابرك 1311

احمد بن موسى

مراسم الحفل:

تمد اسمطة الطعام الاتاي — انواع الحلويات التطيب ... التفكه بكل شيء الطرب والموسيقى.
يمتد الاحتفال 7 ايام يحتتم عند رؤية الهلال

التعليق:

لم يحدد انواع الطعام.

كما انه لم يحدد انواع الحلويات والفواكه.

ويحكى ان احد الظرفاء المكناسي من الموسيقيين حاول ان يطرب الناس عيشه فاختر بعض الطربوع من موسيقى الالة التي لا تنشد الا في الصباح فحجتها وانسجام موسيقاها وايقاعها وكلماتها مع الظرف الزمني ما وفق وضرب به المثلا.
القضية عكسية العشاق في العشية.

وان كان ابن زيدان قد اغفل الحديث عن التفكه «شعبانة» فان صاحب المحتصر في احوال الافاريد قد اتى بذلك اذ قال:

سن لمديني وان بسلف ورهن اواخر شعبان بصحو نزاها وهي الشعبانية وتحصل بخروجه جل النهار
ويجمع وطبخ وان بولعة اوعقيقة او ختمة او خروج دم والا فنزاهة فقط كفيل العشرين يعطى كل او بعض
ولا يكلف الام

وصدروا لجمعها الاكثر وانفة عارفا وعمل برأي الجل واسترى المحتاج اليه من الحلط كاحرة الالين
وخرجوا مستعدين وقدموا لاضيايف في الاكل وما فضل تخاصوه كأن بغتهم رمضان وندب اتصالها به ولياء
وتكثير لعب ومزاج يخلع العذار وحضره عشية كالكرة وتصدر عارف للطبخ وان يجعل.

واتخاذ قاض وخطيب ومدرس هدره وجاؤه غيره ان ابي كتشبه بدوى الحرف المنكرة ومع غير كتلت
وعدم البيان وخلط المدار واجرة لعداوا ومضحك بحرف الخنظرة... وطرد الزمار بلا شتم... وكل يخرج لما
اعتاده.

الاحتفال بقراءة صحيح البخاري

قال العلامة بن زيدان:

اذا استهل شهر رجب افتتحت قراءة وسرد صحيح البخاري بعد تعيين عليه العلماء وجهابذتهم.
وجرت العادة أن تكون رئاسة المجلس لقاضي مكناس.
ينقسم العلماء الذين تم استدعاءهم الى قسمين:

أ — قسم للسرد

ب — قسم للتقرير

وجرت العادة ان السلطان اذا شاء المذاكرة طوى الكتاب فيشرع شيخ المجلس في التقرير فان سلم
له عاد السلطان وفتح ما لديه وقمادى السرد على السرد والاناقشه غيره وابدى ما لديه وهكذا الى ان يتضح
الامر ويرتفع كل اشكال وربما ارجى تقرير المسألة ان تفرعت ذيوها الى الغد.

التعليق:

حجدا لو أستلت تلك المناظرات العلمية من بعض الكتب التي لا يلجأ إليها الا ذوي الاختصاص
وطبعت على حدة لنرى التموذج من التماذج الفكرية.

الاحتفال بعيد المولد

يقول ابن زيدان:

- جرت العادة ان تقام حفلات ليلة عيد المولد وستة ايام بعد.
- يستدعى عليه القوم من كل الاصقاع.
- اذا صليت العشاء يخرج خليفة قائد المشور واعوانه لاستقبال المدعوين.
- يجلس السلطان صدر المجلس يسار المحراب القضاة عن يمينه.
- ابناءه وعشرته الاقربين عن يساره.
- امامه المسمعون... وباقي المدعوين
- توضع امام الملك ثريا موقدة بالشمع المصفى من العسل
- بين يديه منجانه ياخذ سفرا مما يقرأ
- يشرع في تلاوة الامداح

تقرأ البردة والهمزية يبدأ بالبردة يتخللها الاخوان والتوديعات.

البخور الحاحب هو المكلف

اذا انتهى المتشدون الى قولهم.

الامان الامان الا فؤادي من ذنوب اليهين بهاء

يكرر 3 او 4 مرات

يخرج السلطان يستريح كل فريق من المدعوين

المكان الخاص لجنسه

قبل الفجر بساعة يعود كل الى مجلسه يستهل المسمعون ثم يختم بقصائد.

يصلي الفجر يفتتح السلطان قراءة الحزب يعود الى القصر يتبهيء لاستقبال الوفود ... يبدأ باعلام

شراكه.

بعد صلاة العيد يستقبل الوزراء وضباط الجيش عند القصر يوم العلماء والشرفاء والاعيان القصر

لتقديم التهئة... يوزع الهبات.

أكلة العيد:

يطبخ السميد يوضع عليه السمن والعسل.

التعليق:

أهمية هذا النص تكمن في وصف تنظيم الاحتفال وبروتوكولاته انطلاقا من المدعوين وجلسهم في

الاماكن المخصصة لهم الى جلوس السلطان صدر المجلس عن يسار المحراب يجب الانتباه الى قوله يسار ذلك

ان العادة ونظام الاحتفال بيوم 27 من رمضان يقتضي ان يغير نظام الجلوس ذلك ان السلطان يجلس عن يمين الخراب لم؟ ذلك ما اغفله ابن زيدان واغفلته المضان التي عدت اليها. لم يتعرض للاحتفالات التي تقيمها الطوائف اشار اشارة طفيفة الى اكلة العيد المشهورة بالعصيدة وقد حشا الاستاذ عبد الوهاب بلمنصور عن هذه الاكلة وخصها غيره بمدينة فاس متسائلا.

اهل فاس هم سادة الناس طرا وعيون الورى وبيت القصيدة
ليث شعري يا سيدي لم خصوا مولد المصطفى باكل العصيدة
وفي حين ان مولد المصطفى لم يخصص باكل العصيدة وحدها يلزم لغداء يوم العيد — الدجاج
بالمدريل وهو طعام لا يؤكل الا ذلك اليوم.

نظم خاصة:

نظم خروج الملك للصلاة

يقتضي خروج الملك للصلاة او لزيارة بعض اضرة الصالحين او للسفر نظما معينة تكون في مجموعها ماثورا رائعا:

خروج الملك للصلاة

يكون على صهوة فرسه يتقدمه اصحاب الورى وهم على نوعين شطايه وعوامون وكلهم ياترون بامر قائد الورى

ومعروف ان الورى قسمان

الورى صغار واشهرها روى مزيل ويبدو ان العامة قد استغلت هذا التركيب لتقله فقال رومزين بعد ان غيرت الام نونا وكثيرا ما يقع هذا في ادارة وهذا الحفل جديرا باصحاب اللسانيات ولا تربي في هذه الورى الا الخيول التي تهدي.

الورى كبار وفيها خيول الجيش...

ويقوم قائد الورى صحبة الوفود

ويامر بتيء 6 خيول تعرف بخيول القادة يسوقها العوامون يشترط فيها ان تكون معروفة الاصل.

ثم ياتي في الصف العبيد المعروفون بالمراريق فالموشوريه ولابد ان يمسك كل واحد منهم بيده اليمنى عصا.

ثم ياتي خلف الجلالة اصحاب المكاحل يكون الحاجب خلفهم راكبا فرسا او بغلة ان كان المسجد بعيدا.

فاصحاب الفراش والسجادة راجلين

فالعرية فالوزراء

أما اذا كان خروج الجلالة لزيارة الصالحين فيقتصر من (خيول القادة) على 3 فقط الا اذا كانت المزارات بعيدة كمولي ادريس زرهون. او ابو زكرياء الصبان فيزداد فرس 4.

العز والصولة بتصرف ص 49 وما بعدها

نظام العطل

العطل اسبوعية او موسمية

والموسمية مثل:

عطلة عيد الفطر	من 20 رمضان لنتهي 7 شوال
عطلة عيد الاضحى	فاتح ذي الحجة لنتهي 17 منه
عطلة عيد المولد	من فاتح ربيع الاول لنتهي 10 منه
عطلة شعبانة	في الثالثة الايام الاحيرة منه
عطلة عيد عاشوراء	من 10 الى 13

أما الاسبوعية:

فلقد قسمت ايام الاسبوع الى:

يوم السبت: يخصص للصيد والرياضة تحدد المنطقة بمحشد المصيد يحضر في الجهة المعينة الصيادون الماذون لهم مع كلاهم او البزاة.

يضرب خباء خاص للملك يعرف بالسوان لا يضرب في وقت غير هذا من لوازمه كرسي زربية اريكة كبيرة من الجلد.

يقف بجانبه اصحاب الوضوء والفراش مصفين عن يمين وشمال.

يوم الاحد والثلاثاء: لسماع المظالم تقدم جريدة باسماء اصحاب الشكايات فيطفون بنظام على مقتضى ترتبهم بالجريدة.

يوم الاثنين: التمرينات العسكرية

يوم الاربعاء: لاستعراض الجيش (قواد الرمي قائد الرمي 1 000 نسمة).

يوم الخميس: يخصص لترويج النفس في البساتين السلطانية يركب المريح الخيل والبغال وهي عادة مورثة من عهد الدولة الاسماعيلية الى الحفيظية.

اثناء النزهة نخمة الخميس يباشر ما لا بد منه لانكاد نجد بستانا من بساتين النزهة الا وفيه مسجد للصلاة وميقاتون حتى لا يفوت الامير اداء الفرائض.

العو والصولة ص 56

الهوامش

- (1) انظر على سبيل المثال لا الحصر وصف افريقيا لابن الوزان مختصر الافاريد مجهول.
- (2) انظر على سبيل المثال ما قامت به مجلة التراث الشعبي العراقية الماثور الشعبي عند ابن حيان الماثور الشعبي في كتب الحفاظ
- (3) ينظر عبد الرحمن بن زيدان مؤرخ مكناس للعلامة محمد المنوي دعوة الحق 66 عدد بمناسبة 20 سنة على وفاته.
- ينظر بحث في مسالة الوثائق المغربية حباس هسبريس بحث لاسناذ الساسي مجلة كلية الاداب الرباط.
- (4) لم يكن ابن المنصور هو الوحيد الذي خالجه فكرة الحذف والنشديت والتصرف فلقد فعل هذا بطبقات من الف ليلة وليلة حتى ابتسر وشوهت وحاول عداد محقق الديار التصرف لكنه انصرف عن الفكرة.
- (5) انظر بحثي المنشورين بمجلة هسبريس
الجزء الأول 1923 الفصل الثانية
الجزء الثاني 1924 الفصل الثانية ص 225
- (6) قارن بين ما نشره وبين ما نشره بن زيدان
- (7) قارن بين حديث بن زيدان المختصر عن نزهة شعبانة وحديث صاحب المختصر في احوال الافاريد وقد خص ذلك الرماد وكيفه صبحها في القرن 1هـ.
- (8) اختلاف بين ناشر الكتاب الاستاذ بلمنصور و
في تحديد المقدار التي يحتفل به ويقام له
جايوه.
- بينما حدد الاستاذ بلمنصور في السور القصار نرى ان
يحدده طبعاً لما لاحظته
1923—24 في سورتين من القرآن: — الاخلاص.

وصف مكناس في شعر الملحون

الأستاذ أمين العلوي الديبي
ثانوية النهضة
مكناس

شاد الكثير من الشعراء بحاضرة مكناس، فامتدحوها ووصفوها وصفا ينم عن تعلقهم واعجابهم بما تمتاز به عن غيرها من الحواضر، وقد خصص المؤرخ ابن زيدان في الجزء الأول من الاتحاف (1) حيزا للشعراء المعربة والنصوص الثنية التي قيلت فيها قديما وحديثا.

وسأتناول في هذا العرض وصف مكناس في شعر الملحون لما لهذه الحاضرة من أهمية استأثرت كذلك باهتمام العديد من شعراء هذا اللون من الأدب الشعبي انطلاقا من نماذج لمجموعة ممن وصفوا طبيعتها ومعالمها التاريخية والعمرانية مراعيًا في ذلك ترتيب القصائد التي وصلت إليها اليد حسب تاريخ نظمها منذ القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي الى الآن.

المهزج الأول:

لأبي عثمان سعيد بن عبد الله المنداسي التلمساني (2)، من شعراء الفصح والملاحون، الوافدين على مكناس، والذين مدحوا السلطان المولى اسماعيل، وقد توفي هذا الأديب بقصر الرتب باقليم الرشيدية.

وهو من قصيدة (3) مدح فيها مكناس ووصف مباني وحدائق القصبية الاسماعيلية عام 1089 هـ — 1678 م. فافتتن بمحذائق «وجه عروس» الواقعة خارج باب الخميس وبنضارة اخضرارها وبهجة أنوارها، واعجب برياض «المشتمى» المجاور للاصطبل (قصر الأروى) وهو بستان فيه من شجر الزيتون وأنواع الفواكه كل غريب عجيب ويعرف اليوم باسم: «الزيتون» صار هذا الاسم علما له بالغلبة (4)، وأحب مياه مكناس العذبة وانتعش بهوائها الطيب، فأنشد يقول:

تَحَلَّيْنِي أَفْرَنْبَا مَنَّ كُلِّ اعْرُوسٍ وَجْهَ اعْرُوسٍ اَزْكَى لَعْرَائِسَ وَاشْهَاهَا
وَأَتْرَكْنِي بِمَا اشْتَهَاتْ كُلِّ انْفُوسٍ الْعَيْنَ مَنَّ الْمُشْتَهَى الْحُسْنَ ادْعَاهَا
تَحْتَسِبُ الرَّاحَةَ اَعْلَى مَكْنَّاسِ اَحْبِيوسَ مَا يَنْزَلُ ضَيْقَ لِحَوَاصِرَ مَعْنَاهَا
اَحْكَمْتَهَا اَفْكُوْتَرْمَاهَا وَهَوَاهَا

وسنجد كل الشعراء الذين وصفوا مكناس في شعر الملحون بمدحون ماءها وهواءها، على غرار شعراء المغرب كقول ابن عبدون:

يَكْفِيكَ مِنْ مَكْنَسَةِ أَرْجَاؤِهَا وَالْأَطْيَانِ هَوَاؤُهَا وَالْمَسَاءِ
وذلك لاحتوائها على ماء وادي ابي فكران (الْمَا لَحَلُو) الذي يعرف بوادي فلقل أو ابي العمائر، وبأسامي متعددة بحسب الأمكنة المار فيها، منها بوفكران ومنها عين معروف ومنها دردورة (5).

ويذكر الضعيف في تاريخه (6) أنه في سنة 1150 هـ استولى الخراب على مدينة مكناسة وخرب منها وجه العروس بأسره، وكان به من المساجد خمسة وسبعين مسجداً — والبقاء لله وحده —

المهذج الثاني:

للامير الشاعر زيدان بن السلطان المولى اسماعيل، ترجم له حفيده المؤرخ ابن زيدان (7) وذكر بأنه استخلفه والده على مكناس وفاس وتارودانت المتوفى بها عام 1119 هـ ودفن بمكناس، ووقع في تاريخ وفاته اختلاف، وأقى المترجم ببعض من شعره المغرب دون الإشارة الى شعره الملحون ...

وهو من القصيدة (8) التي يتشوق فيها لمكناس عام 1104 هـ — 1692 — 1693 م، ويحن الى قصره الذي يحمل اسمه الى اليوم بدار الخلافة المعروفة بالدار الكبرى، وهي تتكون من عدة قصور في حي سيدي النجار، وما زالت تحمل اسماءها القديمة أمثال: زنقة قصر مولاي زيدان، وزنقة قصر الشعشاع، وزنقة قصر الكشاشين وزنقة قصر للاباني وغيرها (9).

ثم يشناق الى باب الرخام، أحد الابواب الداخلية للقصبة الاسماعيلية ولعله الباب المجاور لعرضة البحراوية والقريب من مسجد الرخام الواقع بين الداخل للضريح الاسماعيلي، ويشناق كذلك الى باب العلوج، الباب الرئيسي للقصبة والمعروف حالياً بباب الحجر أو باب سيدي علي منون (10) ثم يصف «المنزه» الجميل الباهي، الواقع بقصر المدرسة وهو أحد اجنحته (11) والمشور الكبير (ساحة للعودة) وكيف تأتيه كل يوم جميع الأجناس البشرية.

أَمِنْ أَدْرَا تَنْشُوفِ الدَّارِ وَبَابِ الرَّخَامِ
وَالْمَنْزَةِ كَفَرِيحِ الْبَاهِي تَعَمُّ الْمَقَامِ
وَبَابِ تَلْعُوجِ وَمَشُورِ أَيْفُوتِ
وَالْمَشُورِ الْكَبِيرِ السَّامِي الْمَنْعُوتِ
وَأَوْلَادِ حَامِ وَابْنِ يَأْفِثِ أَجْفُوتِ

ويحن الى «القبة الخضراء» التي كانت بقصبة هدراش، والتي يطلق عليها اسم «جامع للاخضراء» (12) ويشناق الى المشتى ومنزل راس التاج (بحزمة سيدي عمر والحصيني) الذي صار مشهده في وقتنا الحاضر يعرف بكتاب سيدي راس التاج، ويصف ضفتي أبي العمائر المزركشتين ببساط من الزهور والورود.

هَلْ تَيَا حَمْرًا نَنْظُرُ الْقَبَةَ الْخَضْرَا
وَنَشُوفُ الْمُشْتَى وَمَنْزِلَ رَاسِ التَّاجِ
يُظَهِّرُ لَكَ بُوَعْمَايَرَ اَمْلِيحَ النَّظْرَا
فَرَشَ بَنْوَاوَرَ اَبْسَاطَ مَنْ الدِّيَسَاجِ...

المهذج الثالث:

للفقيه العدل محمد بن قاسم العميري (13) المعروف بالفقيه العميري، كان ينظم في الجفريات التي تعتمد على الرمز والتلميح والإشارة، توفي في منتصف القرن الثالث عشر، ودفن بروضة ضريح سيدي

مغيث زغبوش القرشي قرب باب البرادعيين، على يمين الداخل للروضة (14).

وهو من قصيدة «زهرة»
اللازمة - الحربة:

أَنْتِ مَكْمُولَتِ الْحَاسِنِ زَهْرًا وَأَنْتِ أَرِيضٌ أَمْتَمَّحٌ بَنَوَارُ
وَأَنْتِ رَوْضٌ لَعَشِيْقٌ وَلَفِي لَغَزَالٍ أَزْهِيْرُ

وقد ادجج فيها بعض الأبيات الجفرية كعادته، زيادة على رموز معقدة. وفي القسمين الأخيرين يصف ويمدح محاسن زرهون ومكناس عام 1234 هـ. وهكذا يصف كتلة زرهون الجميلة التي تنتمي الى سلسلة مقدمة جبال الريف، والتي تقع بين سهول سايس بمكناس وهضاب زكوطة، وكذا المدينة التي أسست حول ضريح المولى ادريس فاتح المغرب (15)، ثم ينتقل الى عيون منطقة «بوجندير» الواقعة بين «برج القناجر» ووادي بوروح، فيذكر روافد وادي رضم (16) وهي: وادي بوروح ووادي الشجرة ووادي ويسلن الذي يفصل هضبة حمرية عن سهل سايس، ويختم هذا القسم بذكر «عقبة اشكر» التي تؤدي الى سيدي علي بن حمدوش و«عقبة العرايي» المؤدية الى مولاي ادريس زرهون :

زَهْرَوْنَ الشَّامِخَ لَكْوَاضِرَ
مَوْلَانِي إِدْرِيسَ بَالظَّوَاهِرَ
وَلَبَّوْا أَعْلَى فَاْسَ الْجَوَاهِرَ
وَبَنِي عَمَّازَ
وُسُكَّانُو أَيْحِيَارَ
يَسْقَدُ مَنْ لِيَهُ زَارَ
أَبْنَى قَاسَ لَقَرَارَ
كَانُوا مَنْ أَجْوَارَ أَنْصَارَ

الى أن يقول:

وَعْيُونَ النَّابِغَةِ وَيَدَانِ أَفْجُونْدِيْرُ
بُرُوحٌ وَوَيْسَلَنٌ وَوَادِ الشَّجَرَا
كَبُوْ قَرَضَمِ امْعِ الصَّفَاوَا تَسْمَعُ اتَهْتِيْرُ

القسم الأخير:

يمدح ويصف مكناس وعذوبة مائها وأنها مدينة الاسوار، ويصف كذلك حمرية وأبي العمائر بأنهما أرض الغراسات والاشجار ولذيد الثمار (17)، يسحران بجماهما الزوار، ثم ينتقل الى القباب الخضراء القصور والمساجد، والأضرحة، فيصف الجوامير النحاسية التي تكون بأعلى صواري المآذن وقباب الأضرحة. (18) واللمعان الذي ترسله كالذهب والذي لم يسبق للشاعر ان رأى مثله، ويصل به الوصف الى غراسات تاورا (19) ومياها المتدفقة التي تونع الاغصان ونجمها الطالع في فلك السعادة، وأخيرا يؤرخ قصيدته ويفخر بنفسه..

مَكْبَاسِ الطَّيِّبِ لَعَنَاصِرَ
دَارَ السُّلْطَانِ الْبَلْمَسَاطِرَ
وَحَمِيْرَتِهِ فَوُوعْمَايِرَ
أَمْدِيْنَةَ إِذْ جَبَّارَ
قَطْرَكَ بِيْنَهُ لَقَطَّارَ
أَرْضَ غَرِيْسَ لَشَجَّارَ

طَبَّتْ لَفْتَمَازُ فِيهَا الطَّالِبُ يُنْسَى اسْوَارُ
 وَاقْبَبَ فِيهَا تَبَانٌ حَضْرًا نَاصِرًا يُدَكَازُ
 وَيَبْرُزُ شَعِيلٌ فَجَوًّا مَرَمًا رَيْتَ أَنْظِرُو
 لَوْ كَانَ تُشَوِّفُ الْعُضُنَ اقْتَاوَرَا الدَّافَقَا يُخَضَّرَا
 وَالنَّجْمُ الشَّعِيدُ طَالَعَ لَهَا تَنْوِيرُو
 كَمَلَتْ اَوْصَافُ ذَلْقَيْدِ الْحَرَا مَاهَا وَهَوَاهَا يُشَكَّازُ
 اِرْحَمَ اللَّهُ مَنْ اصْنَعَ اَبْيَانًا بِخَيْرُو
 احْسَبْ تَارِيخَهَا فَمَيْدُ الْفَطْرَا عَامَ جَالِ اَرُوشِ بَمَنَارُ (20)
 اَبَا عُمَيْرٍ مَا اَخْفَى فَنُو سَوَّلَ غَيْرُو
 صَوْلُ اَحْفَاطِ صَوْلِ اَبْحَرَفِ السَّرَا دِينِ اَعْلَى الْجَحْوُودِ الَّتِي غَارُو
 مَا فَفَهُو غَازٌ مِّنْ اَمْرٍ اَلْوَكَاانُ اَبْطِرُو

التوفج الرابع:

للولي الصالح والقطب الواضح سيدي عبد القادر العلمي الشهير بسيدي قدور، المتبرك به حيا وميتا، من أكبر الزجالين وأشهرهم، ومن أولياء مدينة مكناس.

نظم في مختلف الموضوعات، وبرز في التوسل والحكمة والموعظة حتى غدا يعتبر فيلسوف الرجل بلا منازع (21)، توفي عام 1266 هـ ودفن بزوايته ذات البناء الحفيل بحومة سيدي أبي الطيب بمكناس.

وهو من قصيدة «ورزيفة» وورزيفة منطقة تقع شرق وادي ابي العمائر (22)، والسيد أي (سيدي قدور العلمي) يتحسر في هذه القصيدة على ما أصاب المنطقة غداة الفتن أيام السلطان المولى سليمان، قال الناصري: «ولما دخلت سنة 1235 هـ كثر عيث البربر وافسادهم السابلة، واستحوذوا على مزارع مكناسة ومسارحها...» (23)، فيصف كيف كانت المنتزهات والبساتين الغناء، وعيون المياه الجارية: عين الكبير ووادي ويسلن ورأس الوادي، والطيور المداحة على اختلاف أنواعها، والفواكه الطيبة «كالسطوني» وهو نوع من الاجاص شديد الحلاوة وعليه حمرة، قال الحميري: «مدينة ورزيفة كثيرة المياه والثمار وهي أهلة كثيرة الخيرات، تباع فيها ألف حبة إجماص بربع درهم» (24).

اللازمة - الحوية:

وَعَلَى وَرَزِيْفَةِ بَاقِيَةِ اَحْلَاوْتِهَا بَيْنَ اَضْرَابِي
 مَن لَّيْتِكِي اَعْلِيْكَ يَا وَرَزِيْفَةَ مَكْنَسَ

مطلع القسم الاول:

بَعْدَ اِرْحِيْقِ وَاَدِ رِيْسَلِنِ اِبْتَشَرْتُ مَن كَدْنَسَ
 رِيْنٌ عَيْنٌ لَكِيْبِرٍ يَا حَسْرًا لِّلْفَرَّاسِ
 اَقْرَاسُ الْوَادِ كَيْبَسِيْحِ رِيْمَامِ النَّاسِ
 وَالْحَرْبَلُ كَيْبَسِيْحِ اَلْيَسْرُوْكَ اَفْلَغْرَاسِ
 كَيْفَ اَبْلَصُ اَعْلِيْ اَفْتَاوَرَا تَنْجَلِيْ بَعْنَابِي
 فِيْنِ اَمْتَاذِهَا قَبَسَاتِنِ وَحَدَائِقِ لَعْرَابِي
 وَمَا غَدَرْنَا مَسْ اِرْحِيْقِ غَيْرِ اَنَا وَاَعْنَابِي
 وَيَنْشَطُ مَن طَبَعُوْ اَرْقِيْقِي فَلَجَلَسَاتِ وَلُوْتَابِي

وَيَكْفِيهِ السَّطَوْنِي أَبْحَدَ أَحْمَرَ عَن تَبْرَاسِي وَزَهْوُ الدَّنْيَا أَفْوَاخِدَ السَّاعَةَ كَيْمَسَاسَ
 ويصف في القسم الرابع من القصيدة لإحراق اشجار زيتون غابة حمرية، كما يصف الورد التي ذبلت
 بعد ان كانت مفتحة ومتنوعة الاشكال والألوان، كورد «السكلماسي»، ويتألم على الغراسات وأهلها...
 وعلى الزيتون الذي كان موردا للأحياس (25) ولم يبالغ في ذكر عدد أشجاره المائة ألف (26)، وأنه لا توجد
 غابة بالمغرب تشبه غابة حمرية:

وَالْحَيْتِيَّةُ وَبَدُورٌ شَارِقَةٌ قَطْلِيمُ الْهِنْدَاسِي
 وَحَرَقَتْ حَمْرِيَّةَ الصَّالِيلَةَ بِالْفَرْسِ الْهِنْدَاسِي
 بَرَزَابَهَا تَحْسَبُهَا مَنَ التَّسْبِيغِ سَكْلَمَاسِي
 يَتَكَبَّرُ وَيَقُولُ الْفَرْسُ جَاحٌ وَهَلُو سَكْنُو لَرَمَاسِي
 لِأَغَابَةِ تَشَبَّهَهَا أَفْعَرَبْنَا بِالْفَرْسِ الْمِيَّاسِي
 كُلُّ مَا كَانَ أَقْلَبًا عَادَ الْيَوْمَ أَعْكَاسَ
 سَأَلَ عَلَيْهَا هَلْ لَهْوَى فَعَشِيَّاتٌ لَنْفَاسَ
 وَالْيَوْمَ اللَّيْلِ إِيشُوقَهَا مَاَعْتَدُو لِحَسَاسَ
 كَانَتْ زَهْوَةُ لَلزَمَانِ وَعَوِينُ لَلْأَحْيَاسَ
 كَانَتْ فِيهَا أُمِّيَّاتُ أَلْفِ زَيْتُونَةٍ رَاسَ

وفي القسم الخامس، يصف كيف ينافس السلطان المولى اسماعيل حمرية بتاورا ويامر بتقويم جنات
 هذه الاحيرة وقطع اشجارها، ويطابق ذلك قول صاحب الدر المنتخب (27) : «وفي عام 1109 هـ أمر
 السلطان بتقويم جنات تاورا، فقومت وأخذها بالقيم من الملاك، وقطع أشجارها وجمع الحطبة في قصبة الاعواد
 (اقصيت لعواد) خارج المدينة وأدار عليها السور هناك وجاز السور تانوت بأسرها الى عين معزا وحمرية ووجه
 عروس».

وَبِضَادَ حَمْرِيَّةٍ أَتَاوَرَا الْهَمَامَ السِّيَّاسِي
 أَوْيَادَنَّ عَن أَشْجَارِهَا تَهْرَسَ تَهْرَاسَ
 مَوْلَايَ إِسْمَاعِيلَ الشَّرِيفَ فَاقَ الْمَلِكُ الْعَبَّاسِي
 رَ ابْنِي مَوْسَى رَضَعُوا فَالْقَرْطَاسَ

الفودج الخامس:

للشيخ حمود بن ادريس السومسي الحجامي، كان تلميذا للشيخ العربي الزهراني «البرادعي» (28)،
 نظم في الوطنية والغزل، وغاب حوالي 1969.

وهما قصيدة الخاتم وقصيدة المكنانة، من نوع التراجم (29) على غرار قصيدة «الدمليج — السوار»
 للعيساوي الفلوس (30)، حيث الشاعر حمود بن ادريس بحبب شوارع وأزقة وحوامات مدينة مكناس بحثا
 عن الخاتم في الأولى والمكنانة في الثانية الذين ضاعا منه بعدما قدمتهما له حبيباته كتذكارة..

وما يهنا من هذين القصيدتين هو احتفاظهما بأسماء الدروب وزقاقات المدينة القديمة وقصبة بني
 محمد وحي الزيتون وغيرها... ويطول بنا المجال في سردهما، واكتفي بذكر:

أ — لازمة — حربة الخاتم:

خَاتَمٌ مِّنْ نَّهْوَى اخْلِيلَتِي فِي صَبْعِي دَرْتُو أَوْطَاحَ لِي وَتَوَدَّرَ وَنَشَالَ
 عِيدُولِي يَأْكُلُ مِّنْ أَحْضَرَ مَا نَقُولُ إِلَى اتَسَالِ عَنَّا مَرِيَّةُ

ب) — لازمة — حربة المكنانة:

أَشْرَى مِّنْ لَّرَانِي كَنْجُولُ وَنَا حَيْرَانُ فَالْشَوَارِعَ وَهَلَانَ لِي عَصْرِيَّةُ كَنْسُولُ عَن مَّكَانَةِ امْشَاتُ

وهناك من شعراء الملحون من نظموا في الذكر العيساوي وهي قصائد تنشُد عند طائفة عيساوة، كقصيدة «الجمهور» (31) للشيخ بنعيسى العثماني المختاري «خلدا» (32) الذي ذكر فيها ما يزيد عن تسعين وليا من أولياء مكناس لم يفته أثناء نظمها أن يتطرق الى شخصيات غير الأولياء، كان لها نفوذ اجتماعي أو سياسي أمثال: الفقيه العميري والسلطان المولى اسماعيل وغيرهما.... وتشتمل على ثمانية أقسام. شخصيات غير الأولياء، كان لها نفوذ اجتماعي أو سياسي أمثال: الفقيه العميري والسلطان المولى اسماعيل وغيرهما... وتشتمل على ثمانية أقسام.

والغاية من هذا النوع القصائد هو التعرف من خلاله على ما تضمه هذه المدينة من رفات العارفين والأولياء والصالحين..

و«الجمهور» لبنعيسى الحداد على منوال «الجمهور» لسيدي قدور العلمي، ويمكن مقابتهما بمنظومة ابن ادريس العمراوي في صلحاء مكناس (33) ومنظومة عبد الوهاب أدراق (34). وقد احصيت عددا لا بأس به من هذه القصائد لختلف شعراء الملحون، واقتصر على ايراد:

أ- لازمة - حربة «الجمهور» لسيدي قدور العلمي:

يَا مَنْ يُشْفِي اضْرَارَ عَبْدُو بَعْدَ الشَّقَمِ
وَيُفَرِّجَ مَنْ أَقْوَاتِ فَالْقُدْرَ احْتِرَانُو

ب- لازمة - حربة «الجمهور» لبنعيسى الحداد:

أُضِيْفَ اللّٰهُ لِلّٰهِ يَا الشَّيْخَ الكَامِلَ بَحْرَ الكَمَالِ مَوْلَايَ الهَادِي
أبِييْدِي بِنَعِيْسِي اِخْتَابِي يَا هَيْبَةَ مَكْنَسَ

النموذج السادس والأخير:

للشريف الشيخ مولاي عبد العزيز العلوي العبدلاوي، ناسخ ورواية الشيخ بنعيسى الزرهوني «الدراز» (35)، من مواليد مكناس سنة 1931، أغلب قصائده في المديح النبوي والوطنية والغزل ووصف الطبيعة....

وهو قصيدة «المكناسية» المشتملة على ستة أقسام، والتي بإمكاننا مقارنتها بقصيدة مطولة من الشعر العربي وفي نفس الغرض للاديب سيدي التهامي بن الطيب أمغار الواردة في الجزء الاول من الاتحاف (36)؛ كأن الشيخ العبدلاوي حذا حذو الشاعر أمغار في وصف طبيعة مكناس ومدح محاسنها والاشادة برجالها (37):

القسم الاول

فَوْحَ اِبْطِيْلِكَ وَشَدَاكَ وَجَمَالَكَ
وَمَحَاسِنَ لَبَا وَأَنْسَابِهِمْ هُوَ الطَّيْبَةُ نَحْيِ رُوحِ الدَّاتِ
وَاطْلَعَمَ وَاشْقِي مَنْ زَايَرَ أَوْطَانِكَ.
وَأَهْدِي اَنْعَابِهِمِ اللّٰةَ وَالطَّيْبَةَ النَّاسِمَةَ فِيكَ اَجْمِيعَ اَلْكَاتِ

هوا وألما وأبطاخٍ اخصسارك
 وأشجار كهرائس ترقص بنسائم هوا ونود الجنوات
 من دُر انبيس اعماذل اترابك
 بالكثرة وذخاير والفلاحة افع لكسيبة نايل مولات
 وخدايق من نوره مهبسالك
 وجبال عالية رهوة للنظرة اجمالها بسهول ورتوات

حوية (38)

جول أمكناس ايمالك وجدارك
 وبطايح الربيع الخضر واغراسها اوحسن اشجار العلات

القسم الثاني

اشاك ناسو لفضال الودبات العفقال عن مولت بجمو مولت ارجالو
 من يهم هال ومسال واليسر حلت لجان لبطال اقوانس سره تيجالو
 حشو وعرسو بفضال راسو رتمو بكمال رسم العجيرة مع راة بتجالو

قالوا يا سائل شوف بعينالك
 بكلاذ كعروسه بوزت بدباجهها وتاج امكلك بتفات
 من ربع الاكال الزيد تنبالك
 بستواو عالية محجوبة وعلى اطرافها لبروج وقصبات
 وبساتين فيها ما اعلى بالك
 في تاورا امع ورزيفة شلا ايصيف واصف دهرى بتفات
 وتبي موسى (39) بالزين فقبالك
 وكذلك عين حركل (40) والردايا (41) اوزيد بويسحاق (42) فلنعات
 نانوت (43) اواب اكيش (44) فسمالك
 اوزيد عين معزة (45) راحرية امهجة بتحاف الحوجات

القسم الثالث

رسعين (46) اقلععال اليزيدية (47) فسفال جارت حويل (48) انصول بجمالو
 سور اعلى سور اقصان بوعمابير بالتمفصال ووزي مولاي الزين (49) سسالو
 كان الشم (50) اللصال ساحت هير (51) اكال فيها باب الكفور (52) بجمالو

المحسن النظرة وجمال بيتالك
 رسام راسمو فلسفي دهرى ايب ذوق ماهو بتفات

وَكَتَبْتَ تَارِيخَ اعْلِيَّةِ يُعْظَلُوكَ
 يَا فَاهِمَ اللُّغَا دَمَسْتُو فَايَجِدُ مَا اخْفَى لَدَهَاتِ الْقُرَاتِ
 الْفَرْوَمِيَا وَالزُّيْدِيَا يَا سَاَلَكُ
 نَهَجَ لِحَسَابِ رُبْعَيْنِ امْعِ الرِّبْعَةَ يَا شَ تَمَّ اَعْدَادُو فَنَعَاتُ .
 وَتَقَدَّمَ زَيْدُ امْتَرَحِ امْتَجَاكَ
 وَاَدْخَلَ بَابَ مَنْصُورٍ اَوْيِيْرُ اِنْرَا اَصْرِيْحِ سَلْطَانَ امْعِظَمَّ هَاتِ
 بَحْدُ وُزُرِي وَمَنَاسِكَ امْتَسَاَلَكُ
 لَعْلُوْمُ وَنِبَاهَةُ وَالشُّجَاعَةُ الْقَاهِرَةُ مَرَّ كَانُو طَغَاَتِ

القسم الرابع

اسْتَمُو عَلِيَّ لَمَسَاَلِ اسْمَاعِيْلَ الْخِصْمَانَ عَظِيْمَ لَكْرِيْمِ اللّٰهِ تَجَلَّوْ
 اَبْنِ عَلِيٍّ سَرَّ اسْحَالَ بِالسُّطُوَةِ اَعْلَى لِكَمَالِ تَارِيْحُو بَحْدُ اعْظِيْمَ نَهْدَالُو
 طَلُوْعَ وَاَعْرَا جَهَالَ وَاَقْطَعَ فَوَقَاتِ اَنْدَالَ وَاَرْفَعَ قَدْرًا الْمَغْرِبِ وَوَجَالُو

اخْضَعَ وَاَتَوَضَّعَ زَيْدُ تَسْتَاْرَكَ
 سَلْطَانَ غُرُبْنَا مَوْلَايِ اسْمَاعِيْلَ بِنِ مَحْلِي وَاَدْعِي بِالرِّبْحَاتِ
 لِيَهْ اَوْ لِكَمِيْعِ النَّاسِ تَرْكَامَكَ
 وَاَرْجَعْ بِسَلَامَةٍ وَاَخْرُجْ اَتَشْرُفْ مَا اَيْسَلِيَّ يَجْمَعُ الْفِكْرَاتِ
 وَتَبْقِظُ زَيْدُ اَوْحَضَّرْ اَذْهَانَكَ
 اَوْ شُرُفْ هَيْبَتِ لَقْصَرِ اَوْتَشْيَاوْ اَوْصُولُو فَرَمَانُو نَعَاتِ
 وَبَعْدَ ذَا تَسْفَاذُ بُوَصَاَلَكُ
 وَاَعْرِفْ بَيْنَ رَاكٍ اَفَاَرْضِ الْوَلِيَا الصَّالِحِيْنَ وَذُبَابِ اَوْسَادَاتِ
 مِنْهُمْ لِقَيْلَسُوْفِ مَرَّ نَابِكُ
 صُورِي اُوْدِيْبِ شَاعِرُو وُلِي مَعْرُوفِ مَا اخْفَى عَلَيَّيْ يَنْعَاتِ

القسم الخامس

نَعْلُو الْعَمُو جَوَانِ قَالَمَنْسِي بِنِيْهَالِ وَالْمُوَاعِيْظِ اَنْسَرَقِ تَقْرَالُو
 ذُوْقِي مَا هُوَ لَسَاوَالِ عَمْدِ الْقَادَرِ مَقْضَالِ الْعَلَمِي تَنْبِيْهِ فَقَوْلُو
 شِعْرُو سَلْبَا لِبَسَالِ بِاللِّي فِيْهِ مَنِ امْتَالِ نَقْصَارَتِ يَهْ النَّاسِ بِجَوَالُو
 اَعْلِيَّةِ اَرْحَمْتُ اللّٰهَ تَسْتَاْرَكَ

وَمَحْلِي لَشَيْخِ وَعَلِيَّ شَيْخُو لَقْفِيْهِ لَعِيْرِي فَذُ الدَّهَاتِ
 وَتَفَضَّلْ زَيْدُ اَنْفُوْرُ فَرَمَانِكَ
 بَعْرُوْسَتِ لِحَاسِنِ بَهْجَتِ مَكْنَاَسِ رَاخَتِ الرُّوْحِ اُمُّ التَّخْفَاتِ
 لَبَسَتْ حَلَّتْ لِحَمَالِ وَكَدَالِكُ
 الشَّرِّ وَالظَّرَافَةَ حَاَزَتْ عَدْرًا امْتَحَنَتُهُ سَلَابَةُ نَعَاتِ

مَلِكِيَّةٌ تَفْجِي لَكَ اَهْوَالَكَ
 بِأَخَذِ مَائِلَةٍ مَرَّ أَقْدِيمِ الْعَصْرِ يَا أَفْهِيمِ افْحَسِّنِ النَّبَاتِ
 بِهَيْجَةِ مَكْنَأَسِ اَوْقَوْلِ بَلَسَانِكَ
 اللَّيْثُ مَا اشْفَهَا نَحْكِيَّةٌ اَعْرَبَتْ فِي اَحْيَاتُو مَالُو جُيُولَاتِ

القسم السادس

مَكْنَأَسِ اَبِي لِحَسَالِ مَكْنَأَسِ اِوْطَرَ لَبْسَالِ مَكْنَأَسِ اَصِيلِ اَبْصُولَتِ اَفْحَالُو
 مَكْنَأَسِ اَوْعَا وَجَسَالِ مَكْنَأَسِ اِنْسَا وَرَجَالِ مَكْنَأَسِ اَبْصُولِ اَبِيَّتِ اَطَالُو
 مَكْنَأَسِ اَلْكَلِ اَحْفَالِ مَكْنَأَسِ اَلْكَلِ اَسَالِ مَكْنَأَسِ اِبْتَالِ كُلِّ مَرَّ جَالُو
 مَكْنَأَسِ اِيْوُوقِ اِبْمَالِكِ اَحْوَالِكِ

أَرْضُو امْتِهَجَةَ رُفِيَّةً وَمَعْدِيْتُو اَفْتَعَجِدُ مَوْعَرُ اَوْصُولَاتِ

مَكْنَأَسِ اِيْجَالُو بِحَذَا تَابِكِ

بِالْجُوْدِ اَوْ لِحَسَانِ اَنْذَكْرُو فِي كُلِّ جِيْلِ اَوْلَاذَالُو نَحْبَاتِ

وَدَبَاتِ اَذَهَاتِ الْفَخْرِ تَسْمَالِكِ

الدُّوْقِ وَفَيَاقَةَ وَاللَّبَاقَةَ اَمَعَ اَنْسَاقَةَ دُوَكْرَ وَأَنَاتِ

تَسَلَّمَ اَنْفُوْرُ بَامَالِكِ

الرَّبِيْعِ اَوْلَعْنَا فَالْتَسْلِيْمِ اَوْعَايْتِ النَّجَا فُهْنَا رُوْحِ الدَّلَاتِ

قُلْتُ اَمَكْنَأَسِ اِنْسَالِكِ وَرَجَالِكِ

هُنَا اَهْلُ كُرَامَةِ وَالشُّهَامَةِ اَمَعَ الرُّعَامَةِ فِي كُلِّ اَوْقَاتِ

نَحْمُ بِهِيْمِ نَطْجِي اَفْتَعَجَادِكِ

وَسَلَامٌ رَهْمًا لَلدُّوْبَاتِ الْعَاظِرُو تَهْمُجِ اَمَسَالِكِ لَيِيَاتِ

وَاسْمِي يَا حَفَاطَ الْمُنِّ سَالِكِ

عَقْدَ الْعَرِيْرِ قَوْلِ الْعَبْدِ الْاَوْيِ اَشْهِيْرِ فِي مَكْنَأَسِ اِبْتِيْبَاتِ

يَرْجَا كَرِيْمِ الدَّايِمِ الْمَالِكِ

رَبِّ لَوْجُوْدِ يَعْفَرُ ذَنْبُو فِي مَا اَمْضَى وَمَا بَقِيَ مَن لَحِيَاتِ

حربة:

صَوْلِ اَمَكْنَأَسِ اِبْمَالِكِ وَجَدَارِكِ

وَبَطَايِحِ الرُّبِيْعِ الْحَضْرَا وَعَرَّاسِهَا اَوْحَسِّنِ اشْجَارَ الْعَلَاكِ

وبعد، يستخلص من هذه النماذج الست أن قصيدة الملحون تتيح امكانية البحث والدراسة أدبيا، كما تتيح إمكانية التحقيق فيها تاريخيا وجغرافيا... وهذا ما لمسناه في وصف الحاضرة الاسماعيلية؛ حيث كان لموقعها الجغرافي المتميز وطبيعتها الخلابة وأراضيها الخصبة الى جانب طيب مائها وهوائها وجمال معالمها وشهرة أعلامها وقع محمود وأثر حسن في نفوس شعراء الادب الشعبي، الذين استهوتهم فانبثروا بمجدونها ويطرون عليها بقصائد فائقة راقية، كانت حاضرة مكناس أحق بها وأهلها.

الهوامش

- (1) المؤرخ مولاي عبد الرحمان بن زيدان
«إنحاف أعلام الناس بجمال أخياز حاضرة مكناس»
الجزء الأول — الطبعة الأولى 1929 الرباط ص — 231—261.
- (2) تحدث عنه — كثيرا — محمد العربي المشرقي في «الحسام المشرقي في الرد على اكنسوس المراكشي» خ ع ضمن مجموع
يحمل رقم ك 2276، حيث يذكر أن له ديوانا ضخما في الملحون من الشعر، وله ترجمة عند بروكلمان في «الملحق»
ج 2 ص 676. وتوجد طائفة من أشعاره الملحونة ضمن مجموع خ. ع ك 1644، ونشرت نبذة من شعره بتحقيق
وتقديم الاستاذ محمد بكوشة بمبادرة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع — الجزائر 1968. وله ترجمة عند الدكتور عباس بن
عبد الله الجزائري في كتابه: «الزجل في المغرب، القصيدة» الطبعة الأولى — مطبعة الامنية — الرباط 1970 ص
604—608.
- (3) وردت في نسختين:
— احدهما آخر مجموع خ. ع، ج 26
— والثانية في كناشة عبد الله الشرقى بالمكتبة الملكية الحسنية بالرباط رقم 5958.
وقد نقلت هذين القسمين من بحث الاستاذ محمد المنوني — دليل القصة الاسماعيلية بكناس، المنشور بمجلة
دعوة الحق، العدد 4 — السنة 10 — ذو القعدة 1386 مارس 1967 ص 107—120.
- (4) ابن زيدان — المصدر السابق ص 142
- (5) ابن زيدان — المصدر السابق ص 53.
وللمزيد، يستحسن الرجوع الى رسالة الاستاذ بوشتي بوعسرية «أحداث بوفكران بكناس، فاتح وثاني شتبر
1937».
- ديلم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر،
نسخة مرقونة في جزئين — كلية الآداب والعلوم الانسانية. الرباط 1986.
- (6) محمد لضعف الرباطي «تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعدية)» تحقيق وتعليق وتقديم الاستاذ احمد العناري،
نشر دار المؤلفات — الطبعة الأولى — الرباط 1986 ص 125.
- (7) ابن زيدان «الإنحاف» ج 3 ص 78—79.
- (8) وردت في كناشة عبد الله الشرقى الآفة الذكر.
- (9) محمد المنوني — المصدر السابق
- (10) محمد المنوني — التخطيط المعماري لمدينة مكناس عبر أربعة عصور، مجلة الثقافة المغربية — العدد 7 السنة 1972
ص 21—56.
- Marianne BARRUCAND «l'Architecture de la Qasba de Moulay Ismaïl à Meknès»:
(ETAM) — Etudes et Travaux d'Archéologie Marocaine — Volume VI 1976. pp.38 - 39.
- (11) نفس المصدر — الفرنسي الاخير، ص 86—88
- (12) وقع اختلاف في حقيقة موقع «القبية الخضراء» بين المؤرخين الجليلين المولى عبد الرحمان بن زيدان وسيدي محمد
المنوني، فقد نسبها الأول في (الإنحاف ج 1 ص 162) لجامع الانوار المخادي لباب منصور العليج، أما الثاني في (دليل
القصة الاسماعيلية بكناس) فقال: «والغالب أنه كان بهده الجهة — أي جهة قصر المنشة — القصر الذي يشتمل
على «القبية الخضراء» وقد كانت شهيرة الذكر في العصر الاسماعيلي، ولا يبعد ان يكون موضعها بنفس قصبة هدراش
التي يطلق على مسجدها اسم «جامع للاخضر». ويذكر المنوني قوله بما ورد عند: ويندوس (دجوهن) في كتابه «رحلة
الى مكناس، مقر الملك الحالي لفاس ومراكش» بمناسبة سفارة أمير البحر مستركومو دورستيوارت، والتي بعثها ملك
انكلترا: «جورج الأول»، لافتداء الاسرى الانجليز سنة 1721م — 1133هـ:» ومن هذا الهري ذهبنا محل آخر به

بناء عظيم واسع يحيط به مباح، وفي هذا الملح امرأتان من نساء السلطان وهما مالكتا القبة الخضراء». وقد تغنى بها — القبة الخضراء — شعراء الفصيح وكذا شعراء الملحون، كقول الشيخ الحاج بوكرين القصباوي:

لَلاَّ حَضْرًا مَذْكَارٌ وَعَلَيْكَ لَحْتُ الْعَسَا
فَالْحَيْنُ انْتَفِدِي عَارِي
طَالَبَ لَكَ زَوْزَةَ انْتَهَنَةَ يَا حَسْرَةَ أَبِكَ
يَا لَلاَّ حَضْرًا

وقول الشيخ مولاي عبد العزيز العلوي العبدلوي :

جِيَتْ الْحُرْمُكُ مَحْتَمَّازٌ قَبْلِي بَرُوصَاكُ أَلَّا امْرَارِي
أَنَا جِيَتْ لِيكَ أَلَّا حَضْرًا ابْتَفَيْتُ عَقْفَا وَهَمَارًا

- (13) ذ. عباس الجراري «القصيدة» ص. 627 — 628
ذ. محمد الفاسي/شعراء الملحون من أهل مكناس وزرهون، مجلة المناهل — العدد : 27 — السنة 10 — شوال 1403/يوليوز 1983 ص. 9 — 63.
- (14) اكتشف قبره الفقيه السي محمد بن البشير القندوسي الذي كان مدرسا بنفس الضريح، كما أخبرني بذلك الأستاذ الحاج أحمد بالفقيه الزرهوني.
- (15) ياقوت الحموي «معجم البلدان» ج. 4 ص. 388.
الصادق بن العربي «كتاب المغرب» ط. 2 — الرباط 1956 ص. 92 — 93.
مصطفى أعشي/حدود موريتانيا الطنجية في عهد الاحتلال الروماني، مجلة تاريخ المغرب — ع. 3 س 3 — يونيو 1983 ص 69 — 80.
- (16) وادي رضم : يقع بين كتلة زرهون ومرتفعات گروان الحالية، مصطفى أعشي — نفس المصدر — وقد كتب : وادي ردم.
- (17) حميرة كانت تعرف «بأبي حفص» وقد اشتراها السلطان المولى اسماعيل بالمعاوضة الشرعية، وناب عنه بظهير في عقد المعاوضة القائد الحاج علي بن يعقوب اليوسفي المكناسي.
انظر نص الظهير في الجزء الأول من الاتحاف ص. 172.
ونص المعاوضة بين الشريف السيد محمد دعي بسيدي حم بن ادريس بن وحود الحسنى المنوني والنائب المذكور. نفس المصدر، ص. 173.
وكان شراؤها عام 1681 م — انظر :
ابن زهدان : «الاتحاف» ج 1 ص. 144 — 145.
«المنزح اللطيف في التلميح لمفاخر مولانا اسماعيل بن الشريف»
الباب التاسع عشر فيما غرسه من الجنات والبساتين.
نقلا عن الأسير مويط (ج) الفرنسي في كتابه : «تاريخ غزوات المولى الرشيد المعروف بملك تافيلالت والمولى اسماعيل أخيه وخلفه الحاكم الآن على المغرب».
- «Histoire des conquêtes de Moulay Archy, connu sous le nom de roi de Tafilalet et de Moulay Ismaïl ou Smaïïn, son frère et successeur à présent régnant. Tous deux roix de .Fés du Marœ et de Tafilalet, de sous».
- (18) هي كرات نحاسية يكون في جوفها أحمال من الملح حتى لاقتلعها الرياح.
انظر : محمد الأمري المصمودي/جوانب غامضة من التراث المغربي، مجلة الثقافة المغربية — العدد الأول السنة الأولى. شوال — ذو القعدة 1389 — يناير — فبراير 1970 ص. 137 — 145.

- (19) تقع تاورا وتوايعها شرقا عن يمين الخارج من باب البرادعيين، الذاهب الى زرهون، والحوائر الأخرى عن يساره، ولم يبق اليوم معروفا باسمه القديم من حوائر تاورا إلا حارة بني موسى...
- (20) ابن غازي «الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون» المطبعة الملكية الرباط 1964 — ص. 11 وهامش 25. عام «جال أروش» بمنار
- (21) ج = 3، ل = 30، أ = 1، ر = 200، ش = 1000 شوال 1234 هـ. د. عباس الجراري «القصيدة» ص 629.
- (22) د. محمد الفاسي — شعراء الملحون من أهل مكناس وزرهون، مجلة المناهل — ع 27 — ص 10 ص 9 — 36 وقد حضى سيدي قدور العلمي باهتمام العديد من المؤرخين والكتاب وكتاب التراجم.
- (23) ابن غازي «الروض الهتون» ص 9
- (23) أحمد بن خالد الناصري «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» تحقيق وتعليق : جعفر الناصري وأحمد الناصري الجزء 8 — ص. 137 — 144، دار الكتاب الدار البيضاء 1956.
- (24) محمد بن عبد المنعم الحميري «كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار» (معجم جغرافي)، تحقق : د. إحسان عباس. مؤسسة ناصر للثقافة — الطبعة الثانية 1980 — ص. 608.
- (25) حول تجميع غابة زيتون حمرية بأمر السلطان المولى اسماعيل على الحرمين الشريفين — انظر : الاتحاف — ج. 1 ص. 174
- وقد أعاد غراستها حفيده السلطان سيدي محمد بن عبد الله وحبسها كما يلي :
- (أ) النصف حيسا للحرمين الشريفين (ثلثين للمدينة المنورة، وثلث لمكة المشرفة).
- (ب) النص الآخر : للمسجد الأعظم بكناس،
- وضيع المولى علي الشريف، والطلبة الذين يقرؤون الحزب ودلائل الخيرات والمؤذنين وقيم الروضة، وطعام ليلة المولد النبوي.
- والطلبة الموظفين لقراءة الحزب والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم على قبر والدة المحبس الثاني وأعمامه بروضة أبي زكرياء الصبان (سيدي بوزكري) مكناس،
- وضيع أبي يعزى،
- وضيع مولانا ادريس الأزهر باني فاس انظر :
- الاتحاف، ج. 1 ص. 174 وفي الجزء الثالث منه ص. 248 لضيع الامام ادريس الأكبر رضي الله عنه.
- (26) ذكر هذا العدد «مائة ألف شجرة من الزيتون» عند :
- أ — أبي القاسم الزباني «البيستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف» مخطوط الخزانة العامة — الرباط د. 1577.
- ب — محمد بن أحمد أكنسوس «الجيش العرمم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلمامي».
- طبع على الحجر في جزءين — فاس 1336 هـ 1918 م.
- ج — أحمد بن خالد الناصري «الاستقصا» ج. 7 ص. 102 دار الكتاب — الدار البيضاء 1956.
- د — ابن زيدان «الاتحاف» ج. 1 ص. 173 — 174.
- (27) أبو العباس أحمد بن محمد بن حمدون بن الحاج السلمي المرادسي «الدر المنتخب المستحسن، في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن» مخطوطة السفيير خير الدين الزركلي.
- نقلا عن دليل القصة للمنتوني.
- (28) توفي الشيخ العربي الاجراوي الزهراني «البرادعي» يوم الاثنين 16 رجب 1381. 1381. 25 دجنر 1961 (عن الأستاذ محمد العراشي محافظ خزانة الجامع الكبير بكناس).
- انظر : محمد الفاسي/شعراء الملحون من أهل مكناس وزرهون، نفس المصدر السابق.

- (29) «قصائد ترجمها الخيال أي أنشأها وحيكها دون أن يكون لها حدوث في الواقع مثل : الحجام والفسادة والحراز والقاضي والضيف والخلخال والدمليج والختام».
- عباس الجراي «معجم مصطلحات الملحون الفنية».
مطبعة فضالة - المغرب 1978 - ص 12
محمد الفاسي/عروض الملحون ومصطلحاته
مجلة الثقافة المغربية، ع. 1، يناير - فبراير 1970 ص. 7 - 29.
- (30) محمد المدغري المكنى العيساوي الفلوس، ترجم له :
عباس الجراي «القصيدة» ص. 671 - 673
- (31) «الجمهور أو جمهور الأولياء، مصطلح يطلق على بعض القصائد التي تمدح مجموعة من الأولياء والصالحين».
- عباس الجراي - المصدر السابق، ص. 17.
- محمد الفاسي - المصدر السابق، ص. 7 - 29.
- (32) توفي الشيخ بنعيسى العثماني المختار الحسناوي «الحداد» سنة 1936 مسنا،
- (33) هو محمد بن ادريس بن محمد العمراوي الفاسي، توفي سنة 1264 هـ/1847 م، له أرجوزة في صلحاء مكناس، الخزانة العامة - الرباط - رقم ك 3/1249
- (34) هو «الطيب عبد الوهاب بن أحمد أدراق الفاسي الذي مات بفاس سنة 1159 هـ/1746 م، له منظومة في صالحى مكناسة الزيتون، ومن الممكن أنها الآن في حكم المفقودات».
ليفي بروفاصل «مؤرخو الشرفاء».
- ترجمة عبد القادر الخلاوي - دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1997، ص. 221.
- (35) الشيخ بنعيسى الزرهوي «الدراز» توفي حوالي سنة 1972. ترجم له : عباس الجراي «القصيدة» ص. 673.
- (36) ابن زيدان «الاتحاف» ج 1 ص. 239 - 242.
- (37) كنت قد طرحت سؤالاً على الشيخ العبدلوي : هل تعرف قصيدة التهامي بن الطيب أمغار، الواردة في كتاب الاتحاف ؟ فأجابني : لا أعرف قصيدة ولا صاحبها ولا إتخاف. هذه القصيدة أشار علي بنظمها المرحوم المقدم الحاج أحمد أغربي، ففعلت.
- (38) تعاد اللازمة/الحربة عند آخر كل قسم من أقسام القصيدة.
- (39) حارة بني موسى من حوائر تاورا. انظر : هامش 19،
وكذا الاتحاف، ج 1 ص. 57 - 59 - 175.
- (40) عين حربل : هي عين حربل النابعة أسفل قصبة تولال خارج باب سيدي سعيد المشتراي، انظر :
الاتحاف، ج 1 ص. 58.
- (41) الردايا : توجد بتاورا، تخرقها مياه أبي الحيار وبها قنطرة شهيرة بناها السلطان المولى اسماعيل، قال فيها الفقيه العميري قصيدة جفرية تسمى اليائية الأولى : الشطران الأخران :

دَوَّرَهَا بِالْأَسْوَارِ وَعَظَرَ حَمْرِيَةَ أَسِيدِنَا وَبَنَى قَنْطَرَةَ الرَّدَايَا

- (42) بويسحاق : هو وادي أبي إسحاق، يقع بين سيدي سعيد وقصبة تولال.
- (43) تانوت : اسم بربري يعني البئر، خرب عام 1550 هـ.
انظر هامش 6
- (44) باب اكبيش : إحدى أبواب القصبة الاسماعيلية بمكناس.
- (45) عين معزة : تقع في طريق الحاجب، يوجد قربها «نزل زكي»
- (46) راس أغيل : أوراس أعين، اسم بربري وهي المنطقة التي تسمى اليوم بالمنظر الجميل والتي يوجد بها «فندق المحيط الأطلسي».

- (47) اليزيدية : هي الضفة اليمنى لوادي أبي العمائر وتعرف بالسلاوية بها أطلال رحى أولاد الديب، والمسبح البلدي ومسبح النادي المكناسي، انظر :
- Pierre Champion « les villes d'Art célèbres » : Tanger. Fés et Méknés» Paris 1924 .p.142.
- (48) يقع بستان الخيول شمال باب أبي العمائر الحد الفاصل بين المدينة القديمة والمدينة الجديدة (حمرية) وقد كان في العهد الاسماعيلي مريضاً لبقر أهل المدينة، ثم صار في عهد الاحتلال بستاناً عمومياً، ولا زال إلى غاية تاريخه يحمل نفس الاسم، يبلغ طوله نحو كيلومتر.
- الاتحاف ج 1 ص. 51 و 133.
- (49) كان به اصطبل صغير للسلطان المولى اسماعيل، يودع فيه ما يهدى له من الخيول وما إليها «العز والصولة» لابن زيدان، ج 1 ص 164 — 147، أما مزيل — باللام — المضاف له الأروى، فقد كان لقباً لعائلة فاسية من قدماء سكانها، ثم اختفى ذكرها بعد عام 1139 هـ، «زهرة الآس، في بيوتات أهل فاس» خ، ع، ك، 1281 — ج 1 ص. 121.
- ويوجد في قبيلة زيان فرقة تدعى ايت مزيل، وفي «اتحاف أعلام الناس» ج 1 ص 146 : أن مزيل هذا وصيف اسماعيلي كان قيماً على أروى خصوصية هناك. عن دليل القصة الاسماعيلية بمكناس لمحمد المنوني. ص. 107 — 120، هامش 2.
- حالياً من أهم الشوارع التجارية العصرية بالمدينة القديمة، أسس في عهد السلطان المولى يوسف رحمه الله.
- الاتحاف ج 1 ص 221 — 222.
- (50) يقع بين باب منصور العلم وروى مزيل.
- نفس المصدر والصفحة
- (51) ساحة تاريخية واسعة تفصل المدينة القديمة عن القصة الاسماعيلية وبها يوجد باب منصور.
- (52) يقع شرف المدينة القديمة ويعتبر من أعظم أبواب القصة الاسماعيلية أسسه السلطان المولى اسماعيل في أواخر القرن السابع عشر، ثم جده وزخرفه ابنه السلطان المولى عبد الله سنة 1144 هـ — 1732 م، وقد صمم هندسة الباب مهندس أوروبي أضيف لقبه «العلاج» إلى اسم الباب. أنظر : الاتحاف ج 1 ص. 190 — 191.

أعلام الموسيقى بمكناس

البوعصامي نموذجا

الأستاذ عبد العزيز بن عبد الجليل
رئيس المصلحة الثقافية الجهوية
بمكناس

برز في مجال الموسيقى بالمغرب اعلام كان لكثير منهم عبر التاريخ المغربي الطويل أثر بين وواضح في بناء الكيان الفني للموسيقى المغربية. وقد عرفت مكناس اكثر من مهم بهذا الفن ممن كان لهم دور كبير في الحفاظ على أصوله وتعبيد سبيل نشره وتطويره.

وزيد في البداية اللاحاح على ان الممارسة الموسيقية لم تكن ميدان تخصص لدى اغلب هؤلاء الاعلام — ان لم نقل لديهم جميعا — ولكنها كانت تأخذ من اهتمامهم مواقع تحتل الصدارة احيانا كثيرة.

لقد اسهمت عوامل عدة في بلورة الكيان الموسيقي بمكناس منذ العهد المرابطي كان في مقدمتها تساكُن العناصر البربرية والزنجية والاسبانية بالاحياء المحدثه، ما ادى الى تلاقح انماط غنائية متعددة المشارب، مكنت فيما بعد لنشو نماذج جديدة من التأليف وأساليب مبتكرة في الاداء.

وقد ظلت مدينة مكناس عبر العصور ملتقى لرجال الفكر والادب ممن كان لهم ولع بالموسيقى واهتمام بها، نذكر من هؤلاء الصوفي الزجال أبا الحسن الششتري المتوفى عام 668 الذي كان يتجول في اسواق المدينة وهو ينشد زجله الملحن:

شُوبِحٌ مِنْ أَرْضِ مَكْنَسَاسٍ وَتَطَّ الْأَسْوَاقُ يُغَنِّي
أَشْ عَلِيَّتَا أَمْنِ الثَّنَاسِ وَأَشْ أَعْلَى النَّاسِ مَنِّي

كما نذكر أبا الحسن الغماري الذي كان يعلم في آن واحد القراءات وصناعة الغناء في العهد المريني ومن جهة اخرى عرفت الأوساط الفنية والأدبية بالمدينة مجالس خاصة جمعت ابرع العازفين والمغنين. من ذلك المجلس الذي وصفه سليمان الحوات على العهد السليمانى، وكان يضم نخبة من الموسيقيين فيهم المغني ابو زيد عبد الرحمن المزداري وعازف العود ابن زكي.

وسوف يمتد بنا هذا العرض طويلا لوحاولنا تقصي أعلام الموسيقى بمكناس واستعراض منجزاتهم الفنية. لذا نقترح الوقوف عند واحد من أبرز هؤلاء واكثرهم عطاء في العصر العلوي وهو محمد البوعصامي.

مصادر البحث

يعتبر كتاب «الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب» لمحمد بن الطيب العلمي المتوفى عام 1133 — 1721 أقدم ما نتوفر عليه من مصادر تحدثت عن محمد البوعصامي، وهو يستوعب ترجمة مسهبة تصدر تفاصيلها عن شخص كان يعرف مترجمنا معرفة الرفيق المباشر، يجالسه مجالسة التلميذ لشيخه، وتجمع بينهما المساجلات الأدبية الخاصة.

ويتجدد ذكر محمد البوعصامي في مصادر أخرى نذكرها دونما مراعاة لترتيبها الكرونولوجي.

- كتاب بخط محمد بن قاسم ابن زاكور. يذكر صاحب دليل مؤرخ المغرب الأقصى (1) انه يوجد بجزالة المرحوم محمد داود.
- الروضة الغناء في أصول الغناء لمؤلف مجهول (2).
- تاريخ محمد بن عبد السلام الضعيف المتوفى عام 1233
- ديوان الامداح النبوية وذكر النعمات والطبوع وبيان تعلقها بالطبائع الأربعة لابي العباس احمد بن محمد بن العربي أحضري الذي كان حيا اواخر المائة الثانية عشرة (3).
- فتح الانوار في بيان ما يعين على مدح النبي المختار محمد بن العربي الدلائلي المتوفى عام 1285 — 1867 (4).
- الاعلام فيمن حل مراكش وأغمات من الاعلام لابراهيم السملالي المراكشي (5)
- كتاب الاتحاف لعبد الرحمن بن زيدان (6)

من هو البوعصامي:

بالاعتماد على هذه المصادر — وفي مقدمتها كتاب العلمي الذي يستأثر بسرد الجزء الاكبر من اخبار البوعصامي وكتاب ابن زيدان الذي انفرد بالترجمة لاشخاص آخرين يحملون نفس النسبة تدرك ان مدينة مكناس كانت تحتضن مجموعة من البوعصاميين لعلهم ان يكونوا ممن نزحوا اليها بعد احداث عام 1045 التي اودت بحصن تابوعصامت في سجلماسة على يد المولى محمد بن الشريف بعدما «اهلك من بقي منهم واستأصل شأنهم» (7).

ويتكرر اسم محمد البوعصامي مع خمسة اشخاص ممن ترجم لهم ابن زيدان في الجزء الرابع من اتحافه، وهم على التوالي:

الأول: محمد البوعصامي. وهو مترجمنا. لم تحدد المصادر تاريخ وفاته، غير أن العلمي يذكر انه كان يسكن بمكناس حيث لقيه مرارا بداره (8).

الثاني: محمد البوعصامي المتوفى عام 1195 (9)

الثالث: محمد بن عبد الرحمان الفيلاي البوعصامي المتوفى بمكناس عام 1126. وهو المدعو البهلول.

الرابع: محمد البوعصامي.

الخامس: محمد بن محمد البوعصامي.

وقد أورد ابن زيدان هذين الاخيرين (10) ضمن لائحة تتكون من خمسة عشر اسما لاشخاص

«كانوا من العلماء والمدرسين بالجامع الاعظم الذين يقبضون المرتب العلمي كما جاء ذلك بحسابات النظار المعاصرين لهم بتاريخ 1149 وفتح 1150 لغاية محرم الحرام فاتح 1151»، ثم عقب على هذا بقوله : «وربما كان ذكر بعضهم قد تقدم في التراجم السابقة».

وإذا صح ما تضمنته هذا التعقيب فمن المحتمل ان يكون مترجمنا هو احد هذين الشخصين الاخيرين. وبذلك فلن تتجاوز تسميته في احسن الحالات معرفة اسمه (محمد) واسم ابيه (محمد) ونسبه (البوعصامي) على انه لاسبيل الى وقوع أي التباس بين صاحبنا وبين سمية ومعاصره محمد بن عبد الرحمن البوعصامي دفين مكناس عام 1126، فان ترجمة هذا الاخير عارية عن اية اشارة الى ما يدل على الاهتمام بالموسيقى، كما انه لا سبيل الى الخلط بين صاحبنا وبين محمد البوعصامي دفين فاس 1195 فلقد كان هذا الأخير حامل الذكر ملازما العزلة عن الناس، وهما صفتان ابعد ما تكونان عن صاحبنا، فضلا عن الفارق الزمني بينهما اذ نستبعد ان يكون صاحبنا قد امتد به العمر الى نهاية القرن الثاني عشر.

وحيث ان المصادر المذكورة لاتسعفنا في تحديد تاريخ ولادة ووفاة محمد البوعصامي، فلن يسعنا سوى ركوب مسالك التقدير وضروب التخمين لمعرفة الفترة التي عاش فيها، وهي فترة نرجح انها تتراوح بين اواخر القرن الحادي عشر واواسط القرن الثاني عشر، فان الاشارات والمعلومات المتفرقة في المصادر التاريخية والفنية التي اهتمت باخبار البوعصامي تدل على انه عاصر السلطان المولى اسماعيل (1082—1139)، وخدم ابنه المولى عبد الله (1139—1171) حيث «كان من جملة شعرائه» بعد بيعته الأولى عام 1141 (11) وانه كان حيا ما بين 1149 و 1151 اذا صح انه هو نفسه كان من بين المستفيدين من المرتبات العلمية طبق ما ورد في القائمة الحسبية السالف ذكرها، كما تدل تلك المصادر على انه عاصر جملة من الاعلام المغاربة، كان فيهم الاديب محمد بن الطيب العلمي، والشاعر محمد بن زاكور المتوفى عام 1120 — 1708، والمؤرخ محمد الصغير الافرائي المتوفى عام 1151 — 1738.

وفي اطار البحث عن مصير أسرة البوعصاميين الذين توافروا بمكناس خلال القرن الثاني عشر، ينتهي بنا استفتاء كتب التراجم وكذا البحث الميداني الى النتيجة التاليتين :

1 — إن أفراد هذه الأسرة تحولوا تباعا الى مدينة فاس حيث استقروا نهائيا، وذلك ابتداء من اواسط القرن الثاني عشر. فقد سبقت الاشارة — نقلا عن الاتحاف — الى ان احد هؤلاء، وهو محمد البوعصامي المعروف بالفقير توفي بفاس عام 1195هـ، كما يشير الكتاب نفسه الى تحول ابي العباس احمد بن عبد المالك الى هذه المدينة أواخر عمره ومكوثه بها حتى وفاته عام 1209 هـ (12).

2— انه يوجد حاليا بمكناس اسرتان تنتميان الى تابوعصامت، احدهما أسرة السيد عبد الكريم البوعصامي الذي يجترف التجارة في معمل له بالقرب من قيسارية الذهب. وهو رجل مسن يناهز الثمانين عاما. والثانية أسرة الحاج محمد بن احمد بن سعيد البوعصامي الذي كان حتى عهد قريب يشتغل مقاولا في البناء. ومسكنه بالقرب من زاوية سيدي علي منون.

وفيما يحدد هذا الاخير قدمه من تابوعصامت الى مدينة مكناس في عام 1933، فان الاول يزعم ان جده كان اول من قدم الى هذه المدينة، وبذلك لا تتجاوز اقامة اسرته بمكناس في أقصى الحالات مائة وعشرين عاما (1286—1869).

ثقافة البوعصامي : يعتبر كتاب الانيس المطرب اهم مصدر يعتمد في الوقوف على ثقافة محمد البوعصامي. فهو «بليغ عصره، امام الادباء في مغربه ومصره، رحل الى المشرق وأخذ عن الائمة اعلام هذه الأمة، وقصد المشيخة، وبهر في علم النحو، وعارض المناطقة بالسنن إيجازه الناطقة، وخاض في الديدع بحرا، وصنع من البيان للعقول سحرا، ويسر من التفسير كل عويص وعسير، وعرف أخبار الدول، وفعل الزمان بالأمم الأول» وقد أهله تكوينه هذا ليعتلى كراسي التدريس بعد عودته إلى وطنه. وفي ذلك يقول العلمي أيضا « ثم رجع إلى المغرب بكل معنى يطرب وانتهى إلى فاس واستقر فمكث بها دهرا، ثم انتقل إلى مكناسة وحلها حلول الظبي كاسه، فتصدر للتدريس، وظهر ظهور ابن ادريس».

ومن هذه الترجمة التي ساقها ابن زيدان في آتحافه غير كاملة يتجلى ان البوعصامي في رحلته الى المشرق اخذ عن ائمة علوم اللغة والتفسير والمنطق والتاريخ، وانه بلغ في علم العربية درجة فاق بها معاصريه «ونودي باسمه فارتفع بالافراد والعلمية» على حد تعبير العلمي.

والى جانب أخذ البوعصامي بهذه الالوان المعرفية، فقد كشف صاحب «الروضة الغناء» عن مشاركته في ميدان نظم الشعر، وساق له موشحتين، مطلع الاولى:

ملك الحسن والجمال	ماش من غصن رطيب سَمَّر
قده اللّادن في اعتدال	بالغزالة والقضيب يُزْرِي
قلت والقلب في ارتعاج	للغزال وقد خطرُ أهلا
قد سللت من الذّعْجِاج	مرهف مهجتي تُبْر مهلا
صير القوم حين عجاج	فهم فاتك الحَوْر قُتْلا

ومطلع الثاني:

جد بالصدام	فالشمس حانت للمغيب
الشمس مالت للسرار	
أرخت سلولا من نضار	
تفت مسكا وعذار	

كما أورد ابن زيدان قصيدة له في التشوق الى الديار المقدسة يقول في مطلعها:

سيحي بدمع كالعقيق محاجري	شوقا لطيفة والعقيق وحاجر
تلك المعاهد حيث اظهر دينه	رب البرية بالرسول الظاهر
سر الوجود محمد خير الورى	والمنتقى من كل أصل طاهر

والقصيدة طويلة يتجاوز عدد ابياتها الثلاثين.

أما عن ثقافته الموسيقية — وهي بيت القصيد من هذا العرض — ففي وسعنا ان نقف على بعض من جوانبها بلم شتات ما تفرق في المصادر من أخبار:

وتطلق هذه الاخبار في البداية مع العلمي ليحمل الينا اصداء رحلة مترجمنا الى القاهرة فيقول «وأنى في الموسيقى بكل خارق، وانسى ذكر الموصلي ومخارق» ويقول ايضا: «وله في هذه الصنعة قدم راسخة، ومكانة مكيئة شامخة» ويقول في نهاية ترجمته له: «أخبرني انه أخذه (يعنى علم الموسيقى) قراءة وإجازة عن عدة أشياخ من علماء مصر القاهرة وشهدوا له فيه بالتقديم».

ثم ينتقل بنا العلمي الى دنيا المجالس الخاصة، فيروي في اسهاب مساجلة ادبية جرت بينه وبين صاحب له اسماء ابا العباس سيدي احمد الشريف، كان البوعصامي فيها بطل الميدان، عازفا ومغنيا، قد «مد يده الى العود، والعود بين الخفاض وصعود... فاستخير العشاق بتوشيته، ورفل في حلال الغناء وأرديته، وعام في خلجان الانتقان وأوديته».

وتتضمن هذه المساجلة جملة من الاشعار تكشف عن المستوى الرفيع الذي أدركه البوعصامي في العرف على آلة العود، فهو اذا جسده بأنامله أُنَى بشيء قل ان يجاربه أحد فيه:
يجس باطراف الأنامل عوده فيأتي بشيء ليس فيه يُجَارَى
وإذا سمع الناس نغمات عوده فعل فيهم ذلك فعل السحر:
وغنى بعود وهو سكران أعين فصير منه السامعين سكارى
وإذا وقع على اوثاره أزرى بعلي بن نافع وأنسى دارات معبد:
أمسى يجس العود جسا محكما فزرى بزرياب وأنسى الدارا (13)
وتتجلى اهمية كتاب العلمي مرة أخرى في عنايته بنقل جملة من الدروس التي كان البوعصامي يلقيها على تلامذته، وهي دروس تتعلق بمعرفة النغمات الثمان وطريقة استخراجها من أوتار العود، ومنهج تعليم موسيقى «الالة» وتسوية العود، والطبوع وعلاقتها بالطبائع الاربع، والالات الموسيقية، واثر الغناء في الحيوان، وغير ذلك.

ونقف عند منهج تعليم الموسيقى الاندلسية فنجده يقول: والعادة جارية بتقديم بحر الرمل في التعليم لقرب مأخذه وخفة مؤنثه. وهو البحر المركب من ستة أجزاء سباعية وهي:
فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن
دخل الحذف في عروضه وضربه، فتحول جزؤهما السباعي الذي هو «فاعلاتن» الى الخماسي الذي هو «فاعلن».

وقد استقصيت مطالع الميازين الخمسة والخمسين لضبط ما جاء منها على بحر الرمل فلم أجد غير واحد هو قدام رمل المائة ومطلعه:
احمد الهادي الرسول المجتبي دوحة المجد وينبوع الشرف

على حين ترد صنعات من هذا البحر في مواقع متباعدة من ميازين اخرى، وهي في مجملها لا تتجاوز العشرين، الامر الذي لا يفسر الا دخول تغييرات وتعديلات على ترتيب الصنعات في الميازين بالنسبة لما كانت عليه أوائل القرن الحادي عشر، وهو أمر يفسر تعقيب الفنان محمد بن محمد الرايس مصحح كتاب العلمي في حدود عام 1305 اتبته على هامش عبارة البوعصامي السابقة ونصه: بل العادة الجارية في ابتداء التعليم ببحر الجحش في نغمة قدام الرصد.

وعموما فقد كان البوعصامي مقتنعا بأهمية الموسيقى كعلم جليل القدر، وفي هذا نقل عنه العلمي قوله: ان علم الموسيقى كان في الصدر الاول عند من يعلم مقداره من أجل العلم، ولم يتناوله سوى اعيان العلماء وإشرافهم. وفي هذا القول ما يذكرنا بموقف ابن خلدون من الموسيقى عندما اعتبرها ثلاثة العلوم الناظرة في المقادير بعد علمي الهندسة والإرتماطيقي، وجعل الغناء من الصناعات الشريفة بالموضع والداعية الى مخالطة الملوك الاعاظم (14).

وينبغي ملاحظة أن البوعصامي برز في ظروف بلغ فيها الاهتمام الموجه الى تنظير علم الموسيقى المغربية وخاصة الموسيقى الاندلسية التي شكلت النموذج المثالي للابداع المغربي يومذاك — مكانة مرموقة: فقد سبقت اعماله محاولات رائدة أنجزتها فئة من حملة الثقافة المغربية بالمفهوم الشمولي للثقافة، كان فيهم عبد الواحد بن احمد الونشريسي المتوفى عام 955 هـ 1549 م، وعبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي المتوفى عام 1096، وهو صاحب كتاب الاقنوم في مبادئ العلوم الذي ضمنه منظومات رجزية تحدث فيها عن مائة وخمسين علما، كان من بينها علم الموسيقى وعلم طب الاخوان. وله ايضا «المجموع في علم الموسيقى والطبوع».

كما مهدت أعمال البوعصامي لنتجرات محمد بن الحسين الحايك واحمد أحضري التي نستطيع اعتبارها بحق خلاصة الجهود المبذولة في هذا المضمار.

ومن هنا يمكن ان نقول بكثير من الاطمئنان: ان اعمال البوعصامي جاءت لتشكل مرحلة هامة في التنظير العلمي للموسيقى الاندلسية المغربية على أساس قاعدة نظرية أكثر حداثة، وذلك في ظروف طبعها سيادة المنظومات والمجاميع المختصرة.

وقد كانت الموسيقى الاندلسية — بالرغم من السمات التقليدية التي تطبع مظهرها — أقدر سائر اصناف التراث الموسيقي المغربي على التعامل مع القاعدة النظرية، وذلك لطبيعة تكوينها القائمة على بنيات محددة، يفسرها قالب النوبة بما تحتضنه من ميازين تتوالى عبرها الصناعات الغنائية والمزوفات الالية في سياق منتظم، وتضبطها موازين معينة تحدد نظام تعاقب الحركات الايقاعية، وتتحكم في سلم انغامها شجرة متكاملة من الطبوع والمقامات، وتلك كلها مقومات فنية ما يزال النظر فيها يشكل مجالا خصبا لاجراء الدراسات المقارنة.

ففي اطار هذا التنظير العلمي أقبل البوعصامي على تلقين دروسه في النظرية الموسيقية، وهي دروس يمكننا الوقوف على بعض نصوصها ضمن الترجمة التي خصه بها محمد بن الطيب العلمي في أنيسه. وتتناول هذه الدروس المواضيع التالية:

- 1 — النغمات الثماني
- 2 — ترتيب النغمات الثماني
- 3 — الابعاد الموسيقية
- 4 — شجر الطبوع
- 5 — تسوية آلة العود

1 — في الدرس الاول يعرف البوعصامي بالنغمات الثماني التي عليها مدار الغناء والالخان، كما يعرف بطريقة استخراجها من اوتار العود الاربعة: الميم، والمثلث (15) والمثنى، والزير، وقد مهد لهذا الدرس بقوله: ان اول ما يجب الاعتناء به معرفة النغمات الثماني التي عليها مدار الغناء والالخان. وكيفية اخذها على سبيل الترتيب من الأوتار الاربعة أن تعرف انها متفاوتة في البعد.

2 — وفي الدرس الثاني يرتب المؤلف النغمات الثماني حسب تدرجها على أوتار العود الاربعة، وهو يسمي هذه النغمات بالحروف الابدجية الثمانية: أ ب ج د ه و ز ح، الالف لأولاهها، والباء لثانيتها، وهكذا. ثم يحدد مواقع عزفها على العود.

3 — وفي الدرس الثالث يعرف المؤلف بالابعاد الموسيقية، وهي المسافات الصوتية الفاصلة بين نغمة

واخرى.

ومن خلال هذه الدروس تبدو بجلاء رغبة البوعصامي في تطعيم النظرية التقليدية بمجملتها من المعطيات الجديدة، استقى مادتها من المعارف التي تلقاها بالشرق، وتتمثل هذه المعطيات فيما يلي:

- (1) المعجم الموسيقي: فقد دشّن اتجاهها جديدا نحو توظيف المصطلحات الشرقية واستعمالها مكان مرادفاتنا الغربية. ومن مستعملاته في هذا المجال:
- البعد الطني في الدلالة على البعد الفاصل بين درجة وأخرى مجاورة لها مثل أ — ب
 - بعد بالأربع في الدلالة على البعد بين درجة ورابعتها مثل أ — د.
 - البم والثلث والثنى والزرير لاسماء الأوتار بدل الدليل والمائة والرمل والحسين.
 - الدرس بالأصابع بدل العفق.

(2) المادة الموسيقية: يوافقنا أحضري في مجموعته الموما آفا بما يفيد أن البوعصامي أجرى جملة من التعديلات تتعلق بنسبة الطبوع الفرعية الى أصولها. من ذلك انه الحق المشرقي الصغير بالمزوم بدلًا من الذيل.

ومن جهة أخرى ينقل العلمي عن البوعصامي ترتيبه لطبوع الموسيقى الاندلسية على عهده فيجعلها اربعة وعشرين طبعا، خمسة منها أصول، وهي الذيل، والمائة، والزيدان، والمزوم، والغربية المحررة، والطبوع الباقية متفرعة عن الاصول الاربعة الأولى. وقد عزز شرحه للطبوع وفروعها برسم بياني على صورة شجرة «يظهر بذلك كل اصل وما تفرع منه عيانا». وهو رسم تناقله المنظرون فيما بعد واسموه شجرة الطبوع. على ان اهم ما ينبغي الوقوف عنده هنا هو اظهار البوعصامي لطبع الصيكة المشرقي وادراجه ضمن الطبوع المستعملة في الموسيقى الاندلسية، مبرزا بذلك تأثره بالمعارف الموسيقية المشرقية. واذ نجبرنا أحضري بذلك فهو يزيد قائلا: إنه اشاعه وركب له تواشيه واستنبط جيشه (16)

والصيكة في مفهومها الشرقي كلمة فارسية مركبة من لفظين هما: سي — ومعناها ثلاثة — وكاه — ومعناها المكان أو المحل. وتعني الدرجة الثالثة من سلم الرانست الذي هو السلم الموسيقي الاساسي العربي، وهي نغمة مي بالربع.

وينبغي ان نسجل في هذا الصدد افتتاح الفنون الموسيقية المغربية التراثية على المعارف الوافدة من الشرق العربي، غير ان الذي ظل يطبع هذا الانفتاح هو انصهار تلك المعارف في بوتقة الخصائص التي تسود أنماط وأساليب الممارسة الموسيقية المحلية. وهكذا فاذا كانت المقامات الشرقية قد شقت طريقها الى المغرب والاندلس مع الفتوحات العربية، ثم انفسح المجال باستمرار لاستقبالها فيما بعد، فان طبيعة اللحن المحلي أبت على تلك المقامات الا ان تتخلى عن مقوماتها الشرقية، وبذلك تبنى المغرب والاندلس المصطلحات الشرقية بألفاظها ولكنه لم يسعه ان يتبنى مدلولاتها.

وفي هذا المعنى أيضا يذكر الحايك في كناشه جملة من الطبوع الشرقية تسربت الى المغرب تحت تأثير النفوذ العثماني، غير أن أذواق العامة لفظتها لانها لم تناسب طبيعة النوبات الاندلسية.

ويبدو ان البوعصامي أضاف لطبع الصيكة الى لائحة الطبوع المستعملة في إنشاد المولدات والمدائح كالبردة والهمزية، فان رجال السماع اعتادوا ان يكونوا سباقين الى تبني الانماط الغنائية المشرقية، ينشدونها في محافلهم وزواياهم، وهذه ظاهرة يفسرها تسرب الموشحات الحلبية الى اوساطهم وشيوع الالحان والمواويل الشرقية بارباع نغماتها في مجالسهم، ولعل مما يؤكد سبق موسيقى الامداح الى تبني لطبع الصيكة الشرقي أن

النص الذي أورده العلمي في أنيسه حول الطبوع خال من ذكره، وإن احضري نفسه ذكره ضمن الطبوع الثلاثة عشر التي خصها بالمدايح، وإن ادراجه ضمن الطبوع المتداولة في انشاد ميازين الآلة لم يعتمد الا مع محمد بن الحسين الحايك في مجموعه الذي انتهى منه عام 1214، أي بعد أن تحلى عن خصوصيته المشرقية (مي بالربع وسي بالربع) لتصبح نغمته بمقتضى الاخلاق مولدة بالتلحين فيما بين طبعي المائة وغريبة الحسين.

3 — اعتماد آلة العود كأرضية لتطبيق النظرية الموسيقية، وهذه عادة متمكنة منذ القديم في البلاد المشرقية، انطلقت منذ عهد يعقوب الكندي المتوفى عام 260هـ 874م كما يتجلى من رسائله في الموسيقى، وظلت عبر الحقب تتجدد اصداؤها في مؤلفات المشاركة ككتاب الادوار لصفي الدين عبد المومن الاموي المتوفى عام 693هـ — 1294م، ومقاصد الالخان لعبد القادر بن غيبي المتوفى عام 838هـ — 1434م. وقد نتج عن ذلك ان اصبحت هذه الآلة محورا للنظرية الموسيقية وعمدة لمعرفة الأوتار وطرق تسويتها ومواقع عفق الأصابع عليها وموافقها للطبائع الأربع وما يلائمها من الطبوع الاصول والفروع.

وقد صار البوعصامي على هذا النهج، فعمد في تعريفه للنغمات الثماني الى تحديد مواقعها على دساتين العود، وكذلك فعل العلمي عندما نقل طريقه أستاذه في تسوية هذه الآلة.

4 — التدوين: نريد به كتاب النغمات الموسيقية بواسطة رموز وعلامات اصطلاح الغربيون تسميتهما بالنوتة. وقد لجأ البوعصامي في محاولته تدوين الالخان الى توظيف الحروف الهجائية فقابلها بالعلامات الموسيقية وحدد لكل منها درجة معينة. وهكذا جعل الالف لنغمة الذيل، والباء لنغمة المائة، والحاء لنغمة المائة مع الدس بالسبابة، والدال لنغمة المائة أيضا مع الدس بالبنصر، والهاء لنغمة الرمل، والواو لنغمة الحسين، والزاي لنغمة الحسين مع الدس بالسبابة، والحاء لنغمة الحسين أيضا مع الدس بالبنصر. والبوعصامي في هذه المرة ايضا يمتح من المصادر الشرقية، فينقل طريقة الكندي — ومن بعده مباشرة الفارابي — في تحليلهما لدرجات السلم الموسيقي العربي القديم كما أوضحها في مؤلفاتهما الموسيقية، ويقتبس طريقة الاموي في استدلاله على مخارج النغم من أجزاء الأوتار. بل لعله أن يكون خلال اقامته بالقاهرة قد أخذ عن بعض رجال هذا الفن مباشرة أو اطلع على ما كتبه في موضوع التدوين الموسيقي. فلقد تحدث احمد بن عبد الرحمن الموصل الشهير بالمسلم المتوفى عام 1150 — 1735 في كتاب «الدر النقي في فن الموسيقى» عما يوافق المقامات من الاحرف حالة القراءة (17) مما يدل على شيوع التدوين بالحروف يومئذ بالبلاد العربية.

والبوعصامي في توظيف للحروف الالبجدية رموزا لدرجات الديوان الموسيقي يعري تلك الحروف عن مدلولاتها الشرقية ويحضرها لمقتضيات سلم الطبع الاندلسي. وبذلك فهو يختلف عن الكندي (18) الذي جاءت رسالته لتعكس النظرية الفيتاغورية في تشخيصها للسلم الملون (الكروماتي) القائم على انصاف الأبعاد الطنينية، كما يختلف عن الاموي (19) الذي جاءت نظريته لتعكس طبيعة المقام العربي الاسلامي في القرن السابع والذي أصبح يحمل ملامح المقام لدى الشعوب التركية، حيث تتوالى أنصاف الطنين وأرباعه في سياقات معينة. وبذلك ايضا اصبحت الحروف الثمانية لدى البوعصامي ذات مفاهيم مغربية محلية تلائم نظام السلم الطبيعي الذي يسود الطبوع الاندلسية بالمغرب، على حين كان المقام العربي في القرنين الثالث والرابع يقوم على اثنتي عشرة درجة، ثم غدا على عهد الاموي وبحكم تأثر الموسيقى العربية بموسيقى الشعوب التركية والهندية يقوم على سبع عشرة درجة.

وفيما يلي جدول يساعد على تبيان الفرق بين مفاهيم الحروف الابدجية عند كل من الكندي والارموي والبوعصامي:

الحروف الأبدجية	ما يقابلها عند الكندي والفارابي	ما يقابلها عند الأرموي	ما يقابلها عند البوعصامي
أ	لا	لا	ضو (20)
ب	سي ط	سي ط	ري
ج	سي	سي ط	مي
د	ضو	سي	فا
و	ضو #	ضو	صول
هـ	ري	ضو كار #	لا
ز	مي ط	ضو #	سي
ح	مي	زي	ضو
ط	فا	مي ط	
ي	فا #	مي ة	
يا	ك صول	مي	
يب	ل لا ط	فا كار #	
يغ	الا	فا #	
يد		فا # (+)	
يه		صول	
يو		لايمول	
يز		لا ط	
يغ		لا	

ويسوق العلمي في كتابه نمودجا لصنيع أستاذه في مجال التدوين، فيقدم نسيجين لحنينين لبيتين من منظومة على بحر الرمل المحذوفة عروضه وضربة.

وفي هذا يقول:

أ ب ج د ج أ ب ج د ج أ ب ب أ ب ج د ج أ ب أ
هذا هو البيت الأول بتمامه. وفي البيت الثاني مخالفة في جزئه الأول والآخر.

وصورته أيضا هكذا:

هـ و هـ ج أ ب ج د ج أ ب ب أ ب ج د ج أ ب ج د ج أ ب ب
فروضه وضربه متفقان في الأخذ على هذا العمل، فقس (21)

وبعد تحليل هذين النسيجين يمكن أن نستنتج ما يلي:

أولاً: ان لحن البيت الأول يقيم جملة موسيقية كاملة تقوم على فقرتين لحنيتين، اولاهما تقف عند النغمة الثانية من سلم المقام، وهي لحن الصدر، والثانية تنزل بالجملة الى قرارها لتخلق لدى المستمع الاحساس بالنهاية، وهي لحن العجز.

ثانيا: ان لحن البيت الثاني متولد عن لحن البيت الأول، وهو بدوره يقيم جملة موسيقية تقوم على فقرتين. تفق كلاهما عند النغمة الثانية من سلم المقام وبذلك يظل السامع متطلعا الى نهاية اللحن، هذه النهاية التي لن توافيه الا باعادة لحن البيت الأول.

ثالثا: ان العودة الى انشاد لحن البيت الأول ضرورة تحتمها النهاية التي تفرض في سياق الغناء العربي والوقوف على قرار اللحن الموسيقي.

وإذا صحت هذه الاستنتاجات فسنذكر ان المقطوعة الشعرية خماسية الايات، وانها تقوم على لحنين موسيقيين، يشكل اولهما دخول الصنعة، وهو لحن البيت الأول والبيت الثاني والبيت الثالث والبيت الخامس، ويشكل ثانيهما تغطية الصنعة، وهي لحن البيت الرابع.

غير ان العناصر التي يطلعنا عليها العلمي لاعادة بناء هذه الصنعة لا تسعفنا في تحديد هيكل نسجها اللحني لخلوها من أي رمز يدل على المدة الزمنية التي يستغرقها كل حرف من الحروف، وذلك بالرغم من اشارة العلمي في نهاية النص السالف الى استخراج اللحن (كامل الوزن والنغمات) (22).

وهكذا ينقص عملية التدوين عنصر الايقاع، ويبقى امام الباحث احتمال أن يكون محمد بن الطيب العلمي قد اكتفى بايراد بعض دروس اساتذته دون البعض وأن يكون الدرس المتعلق بالايقاع مما زهد فيه أو غفل عن ذكره.

وقد يكون امساك البوعصامي عن ذكر المدة الزمنية للنغمات بسبب اعتماده لاجزاء تفعيلات البحر العروضي في تقطيع اللحن الموسيقي.

وإذا جازلنا ان نعيد تركيب لحن البيتين على اجزاء التفعيلات الستة لبحر الرمل الذي دخل الحذف عروضه وضربه، فلعلنا ان نقارب ما رسمه البوعصامي بالحروف الالبجدية.

وسوف لن نبتدع جديدا طالما ان هناك صناعات كثيرة يجري تقطيع الحانها على اجزاء التفعيلات وخاصة في قفلات الميازين كقفلة قدام الحجاز الكبير من بحر المتقارب والتي مطلعها.
رأيت الهلال ووجهه الحبيب فكانا هلالين عند النظر

5 — طريقته في التدريس:

تعلن دروس البوعصامي — كما وردت في كتاب الانيس المطرب — عن رغبته في تأسيس اسلوب جديد في التعليم الموسيقي بمغرب العهد الاسماعيلي، وهو اسلوب ينهض على طريقة خاصة تجمع الى حدائة المعارف التي يقدمها نهجا مبتكرا يعتمد على طرح القاعدة النظرية كأرضية ضرورية لتأطير العملية التعليمية وقبل الدخول في مرحلة التطبيق العملي.

ومن أجل إقرار هذا النهج، فانت تراه يستهل دروسه أو يحتمها بما يفيد ان المعرفة النظرية هي اساس تحصيل علم الموسيقى بمغرب العهد الاسماعيلي، وهو اسلوب ينهض على طريقة خاصة تجمع الى حدائة معرفة النغمات الثماني التي عليها مدار الغناء والالخان» وقوله في ختام درسه عن ترتيب النغمات الثماني «فاذا علمت مراتب هذه النغمات وصار استحضارها عندك ضروريا وجرت يدك فيها على الأوتار من غير توقف، سهل عليك اخذ ما تريد من الوتر باحرف ا ب ج د الثمانية»⁽²³⁾.

وعندما نتأمل اسلوب البوعصامي التعليمي هذا لنقارنه بما كانت عليه طرق التعليم بالمغرب والاندلس

عبر العصور، نكاد نصرح في شبه يقين انه شكل حلقة يتيمة في مسلسل عملية التعليم الموسيقي بهما، فلا هو يجد ما يربطه بطرق زرياب وابن باجه وابن جودي ومن تلاهم من رجال هذا الفن، ولا هو يأخذ بطريقة الترجيع والتوسيد التي يعتمدها ملقنو الموسيقى الاندلسية في وقتنا الحاضر كوسيلة لترسيخ اللحن والايفاع لدى المتعلمين، والتي لم تستطع حتى معاهد التعليم الفني ذاتها التخلص من قيودها.

خاتمة: هذه بعض وجوه التأثير التي حاول البوعصامي ان يطعم بها النظرية الموسيقية المغربية، ولعلنا ان نخلص بعض استعراضها الى اعتبار صنيعة في هذا المضمار محورا لتوثيق صلاة التعامل بين شقي التعامل بين شقي العالم العربي في مجال تبادل المعارف والخبرات الموسيقية وهو تبادل برز على الساحة الفنية في مغرب القرن الثامن عشر ليشهد على تفتح بعض ألوان الموسيقى المغربية في صورها المحافظة على معطيات مشرقية تحمل غير قليل من سمات التأثير العثماني، وذلك في ظروف ميكرة وسابقة بكثير لما عرفته مطالع القرن العشرين التي شهدت نشوء ما أسماه المنظرون اليوم بالموسيقى المغربية العصرية.

وما من شك في ان تيارات التأثير التي أعقبت قيام الامبراطورية العثمانية ومكنت بعض أنظمتها وطقوسها من التسرب الى المغرب منذ العهد السعدي، ساعدت هي ذاتها على تسرب بعض التقاليد والمعارف الموسيقية العثمانية الى بلادنا، فتبنى المغرب نظام الحوقة النحاسية لمرافقة المواكب الملكية، واستقبلت بعض اوساطنا الفنية طبوعا مشرقية جديدة لأمراء في نسبة بعضها الى الموسيقى التركية، وكانت مجالس اصحاب المديح النبوي في مقدمة هذه الاوساط. وتلك ظاهرة ليس لها من مبرر سوى مئانة الروابط التي ظلت — على بر العهود — قائمة بين اطراف العالم الاسلامي مهما شطت بينها المسافات، والتي اضطلعت فيها الزوايا والرباطات هنا وهناك بدور الريادة، فكانت بحق مراكز لترجييع نماذج موحدة من الافكار والاوراد، والتواشيج والماويل يتلقاها رجال الصوفية، ثم ينطلقون في كل صوب لينشروها ويعمموا تداولها.

وفيما كان فن السماع — ونعني به موسيقى المسمعين حسب المصطلح المغربي — متفتحا على مختلف التيارات الوافدة، تحت غطاء النزعة الوحدوية التي يحملها شعارا، كانت الموسيقى الاندلسية — او الآلة — خاصة تملك من الحصانة والمتانة ما ساعدها على رفض الخصائص التي حملتها الطبوع المشرقية الوافدة، ومن ثم لم يسع هذه الاخيرة ان تتخلى عن ملامحها تلك لتتصهر في بوتقة الطبوع المغربية كما ارتضتها أذواق الممارسين والهواة، ورفضت ما سواها.



الهوامش

- (1) ج 1 س 446 — 447.
- (2) الخزانة العامة عدد 192.
- (3) دليل مؤرخ المغرب الأقصى. رقم 2061.
- (4) مخطوطة بخزانة الأستاذ محمد المتوني.
- (5) عند ترجمته لأحمد أحضري.
- (6) ص 118.
- (7) الاستقصا. ج 7. س 13 — 15.
- (8) الأنيس المطرب ص 193.
- (9) الانحاف ج 4. ص 128.127.
- (10) نفس المرجع ص 303 — 304.
- (11) تاريخ الضعيف ص 112.
- (12) الجزء الخامس، س 345.
- (13) وقف معبد مرة يفاخر قتيبة بن مسلم والي خراسان وفتح المدائن الخمس فقال له «والله لقد صفت بعدك خمس أصوات انها لأكثر من خمس المدائن التي فتحت» وتسمى دارات معبد انصا بحصون معيد، والكلمة في البيت مرخصة تبعا للسياق المعنوي.
- (14) الفصل الثالث والعشرون في الإشارة إلى أمهات الصنائع.
- (15) المثلث على وزن مطلب، والمثنى على وزن المبنى مفاتيح العلوم للخوارزمي ص 137.
- (16) ص 205 من الباب الخامس والأخير.
- (17) الباب الثالث : تحقيق الشيخ جلال الحنفي. مطبعة الجمهورية بالعراق. 1964
- (18) مؤلفات الكندي الموسيقية الرسالة الأولى. ص 47 تحقيق زكرياء يوسف.
- (19) كتاب الأدوار، الفصل الثاني، ص 25 تحقيق الحاج هاشم الرجب.
- (20) عمدنا إلى تاويل الحروف بالمفهوم الحالي لاسماء الأوتار، فالذيل الذي جعلت له الآلة يقابل نغمة صوت.
- (21) الانيس المطرب ص 176.
- (22) نفس المرجع.
- (23) الانيس المطرب ص 174

Introduction à l'étude de la poésie berbère du Moyen-Atlas :

Les métaphores cosmiques et animales comme constantes du chant d'amour

Mohamed Taïfi
Faculté des Lettres – Fès

Vu le temps qui nous est imparti, il est pratiquement impossible de faire une approche approfondie du phénomène littéraire dans la région du Moyen-Atlas. Nous nous contenterons donc de saisir un des aspects particuliers de cette littérature, l'aspect même le plus important à notre sens puisqu'il est l'élément générateur de la création poétique. Le thème qui fera l'objet de notre brève analyse est la présence de la femme et des métaphores cosmiques et animales dans la poésie du Moyen-Atlas. On tentera si le temps nous le permet d'aborder la structure globale du poème ainsi que ses techniques de fonctionnement.

Disons pour commencer que ces dernières années, la littérature berbère connaît un regain d'actualité. Grâce à la radio, à la télévision et surtout à l'invasion de la mini-cassette, la chanson berbère est diffusée non seulement à travers les régions du Royaume, mais également au delà des frontières. On ne peut pas se ballader dans les quartiers populaires de Marseille ou de Paris sans entendre la voix suave des Cheikhates de l'Atlas. Ce regain d'actualité est favorisé en outre par l'intérêt que portent à la littérature berbère beaucoup de chercheurs et d'universitaires soucieux de sauvegarder ce patrimoine culturel en déperdition. Le nombre de thèses inscrites sur ce sujet est là pour porter témoignage. Retenons à titre d'exemple quelques chiffres significatifs. Sur 20 thèses répertoriées entre 1970 et 1983, 13 sont consacrées au Maroc (7 au Moyen-Atlas, 3 au domaine Chleuh et 2 au Rif). Précisons que dans cette communication, seule la littérature du Moyen-Atlas fera l'objet de notre analyse.

Situation de cette littérature

La littérature que nous nous proposons d'analyser sous un angle purement littéraire est exprimée essentiellement en Tamazight utilisée pratiquement dans le Maroc central.

Nous n'aborderons pas les chants des Aït Hdidou des Aït Marghad, des Aït Atta, des Aït Izdegu, même si la tamazight pratiquée par ces tribus est compréhensible aux berbères du Moyen-Atlas. Nous nous sommes intéressés uniquement à la littérature des autres tribus à savoir les Aït Mguild dont le territoire s'étend des régions de Midelt jusqu'au plateau d'Itto, des Aït Ndir se situant entre le plateau d'Itto et Meknès et entre Ifrane et Agourai, des Aït Younssi éparpillés à l'intérieur du triangle Ifrane-Sefrou-Fès, des Zayans qui s'étendent d'Oulmès à Khénifra et enfin des Igarounes allant d'Agourai à Khémisset. Nous constatons aisément que Meknès, ville historique, est le carrefour des tribus berbères qui descendent des montagnes; des tribus ayant les mêmes visions du monde, les mêmes occupations agraires ou pastorales, vivant les mêmes traditions ances-

trales, nourrissant les mêmes conceptions artistiques et esthétiques.

C'est donc un certain attachement à la vie simple, à la nature, un certain amour du terroir qui donne à la littérature berbère son cachet particulier. De nos jours encore, quoique subissant une légère transformation sous l'influence des langues policées et modernes, les dialectes berbères n'ont tout de même pas cédé le pas à d'autres, ils collaborent activement au contraire à l'enrichissement du patrimoine culturel du pays et à sa diversité. Il y a donc lieu de donner à cette littérature toute l'importance qui est la sienne et à la considérer comme l'expression d'une culture authentiquement marocaine, authentique mais vulnérable, car elle est transmise par la voie de l'oralité et les vieux qui possèdent le savoir sont en voie d'extinction. Retenons avant de clore cette introduction la fameuse phrase du sage africain Cheikh Hampaté BA: «Un vieillard qui meurt est une bibliothèque qui brûle».

Questions méthodologiques

Après cet aperçu bref où nous avons montré la nécessité d'analyser cette littérature orale du Moyen-Atlas, cet aperçu qui passe pour être un appel à la sauvegarde de ce patrimoine culturel national, nous soulevons naturellement un certain nombre de problèmes d'ordre méthodologique qui peuvent se poser à tous chercheurs dans ce domaine. En effet, il n'est pas facile de faire le tour de tous les genres littéraires existants; de la chanson accompagnée d'instruments musicaux et vulgarisée par les masses-médias aux autres genres plus hermétiques tels que « Tamadizth » accompagnée d'un violon, « lhallil » chantés sans accompagnement musical, les chants de laboureurs, des moissonneurs, des bergers, sans oublier toute une littérature gestuelle pratiquée ici et là à travers les territoires du Moyen-Atlas. La gamme est variée et les circonstances qui engendrent cette production littéraire sont également diverses. Il faudrait donc pour ce travail de longue haleine, faire des enquêtes sur le terrain, assister aux différentes cérémonies telles que les fêtes nationales, les fêtes rituelles, les «lama», les Mousems, assister aux mariages, aux circoncisions, bref fréquenter souvent les milieux producteurs de ces textes littéraires oraux.

Une fois le corpus rassemblé, on se heurte à un problème de taille à savoir la traduction. A ce propos, le chercheur se trouve indéniablement devant une alternative:

Ou bien faire une traduction littérale des mots et des phrases qui composent le chant et sacrifier le rythme et la musicalité des vers poétiques.

Ou bien s'intéresser à l'esthétique de la phrase en langue de traduction (Arabe ou Français) et déformer l'esprit même du poème. Il nous semble à nous plus fructueux de transmettre d'une manière plus ou moins parfaitement syntaxiquement, la beauté et la richesse de cette littérature. Dans tous les cas, toute traduction est loin d'être parfaite et traduire, c'est toujours et c'est nécessairement trahir un peu. Quelque soient les efforts entrepris dans ce domaine, bien des comparaisons, bien des symboles, bien des métaphores demeurent à jamais intraduisibles et le sens profond à jamais amputé, diminué.

Analyse du chant d'amour

Dans le cadre d'un colloque pluridisciplinaire comme celui-ci, nous ne pouvons faire une étude spécialisée de cette littérature dont on vient de souligner les

contours. Du projet initial nous retiendrons seulement les chansons accompagnées de Genbri ou de violon de bendir. Autrement dit les chansons les plus diffusées à l'échelle du territoire marocain.

Nous constatons en gros que le chant d'amour est structuré de la manière suivante:

Phase 1: L'éloignement entre les deux amants

Cet éloignement peut être d'ordre spatial, d'ordre social ou d'ordre racial. L'amant qui est loin de sa bien-aimée la chante. Dans cette phase, l'amour est rehaussé au dessus de toutes les autres valeurs et surtout il est au dessus de toutes richesses matérielles. En l'absence de l'être chéri, le monde est vide et les éléments qui le composent ne revêtent aucune signification.

Comme le dit si bien Amlal Kaddour:

*« A quoi servent les moutons
A quoi servent les vaches
Mon cœur brûle de feu (d'amour)
Que les souvenirs allument en moi
Même si je nage dans l'or
Quant mon amour est absent....»*

Dans ces vers, l'amour est mis au dessus de la matière considérée comme éphémère à côté de l'éternité de l'amour.

L'éloignement d'ordre spatial représente ici le stimulus poétique le plus important.

*Je t'aime et tu n'est pas ici
Il m'est impossible de te suivre...»*
Répète El Ghazi Benaceur, ou encore:
*«O ma mère,
Répétez lui, je vous en prie
Je suis un étranger, je suis un solitaire».*

Nous ne pouvons affirmer que cet espace qui sépare les deux amants soit un obstacle absolument infranchissable, il y a au moins le souhait de le dépasser, de l'abolir afin de permettre cette rencontre tant attendue.

*« Envoie-moi une lettre
Et je viendrai
Le désir de te voir
Se fait de plus en plus ardent».*
Et Rouicha de continuer:
*« Même si tu es de l'autre côté de la mer
Il y a des bateaux et je te rejoindrais».*

Dans ces premiers vers illustrant le désir de briser l'obstacle, il y a intégration d'un élément nouveau jusque là ignoré : la lettre. La lettre remplace de plus en plus le moyen traditionnel de transmission des sentiments à savoir le messenger (Amazan). On se passe de nos jours de cette tierce personne et on a tendance à garder le secret.

«Viens me voir toi-même

Je n'ai que faire des messagers». Dit encore la chanson. Malgré le rejet du

messager, les amants restent encore à la merci du scripteur.

La distance sociale comme la distance spatiale peut-être à l'origine de la création poétique. L'amour semble capable d'abolir les différences de classes et d'annuler les antagonismes sociaux. Par le biais du chant, le poète détruit les frontières et défie les obstacles géographiques et humains, puisque l'amant s'accapare en esprit de l'être aimé que les autres ont éloigné de lui. Pensée, image, mirage, souhait, montrent admirablement cette aspiration vers un être qu'on n'a plus.

Le portrait poétique de la femme naît de la séparation et de la nostalgie.

«J'ai passé la nuit dans la tristesse de ton absence» ou encore

Quand l'image de la femme aimée se présente à l'esprit du poète, il s'éveille et se lève».

La femme absente, rêvée est donc dans le chant berbère, source de création poétique.

Phase 2 : Rencontre et réalisation du rêve

Il arrive que l'amant devienne possesseur de son « Trésor », qu'il vive à ses côtés corps et âme, bref que l'amour idéal se réalise, que la consommation de l'acte charnel ait lieu, alors, tous les sentiments qui étaient à l'origine de la création poétique disparaissent. Le chant fait place à l'acte, le réel inonde l'imaginaire et l'étouffe. Pas de souffrances dûes à l'éloignement et à l'absence, pas de chant.

Contrairement aux états d'âme de la première phase où l'amant pleure de tristesse, de chagrin, de désespoir, ceux de la deuxième phase sont plus lucides, moins passionnels. Le discours poétiques change également. Il devient plus réaliste et la langue utilisée sort presque du registre de la poéticité pour entrer dans celui de la langue usuelle, c'est-à-dire de la langue de tous les jours.

*«Je te prendrai
Jusqu'au dessus de ma poitrine
C'est le cœur qui t'aime
Qu'il soit rassasié
De t'avoir trouvé»*
ou encore

*«Je suis tel un vautour
L'habitué du sang
Surveille les rochers»*

Les mots poitrine, rassasier, vautour et sang sont ou banals ou violents et partant, atténuent considérablement la portée poétique du chant.

Pour être plus concis, nous proposons de structurer le thème de l'Amour de la manière suivante:

Première phase

- 1°) Eloignement entre A et B (les deux amants)
 - Distance spatiale
 - Distance sociale

- Distance raciale
- Distance d'âge

2°) Obstacles divers empêchant A de contacter B

- D'ordre naturel: forêts, fleuves, chaleurs, froid etc..
- D'ordre social: famille, mari autoritaire, voisins curieux, gens en général.

*«Je me suis disputé avec mes parents
Ils m'ont traité de tous les noms...
Comme si mon père ignorait le Mal des filles».*

ou encore

*«Mon amour, tu es tel un pays objet de querelles
Que de fois je t'ai disputé
Que de sacrifices pour toi».*

- D'ordre culturel et religieux

3°) Contenu du discours poétique

A cherche B qui est insaisissable comme un poisson dans l'eau

A appelle B qui est sourd à ses appels et qui vole d'une fleur à l'autre
comme un papillon

A pleure B qui est gai et insouciant

A envoie des messagers à B qui les congédie

4°) Les Etats d'âme de A pendant cette phase:

Tristesse, chagrin, ennui, angoisse et désespoir.

A cherche un remède à son Mal que ni les médecins (inutilité de la science
devant la maladie d'amour), ni les sorciers, ni les Seïds ni les Fquihs, n'arrivent à
guérir.

**Seul l'amour guérit l'amour. La mort quant à elle représente souvent la
délivrance.**

*«Je vais très mal O mort
Venez emportez moi
Je préfère le cimetière au lieu où tu n'est pas»*

(en s'adressant à son bien-aimé)

Deuxième phase

1°) Caractéristiques de cette rencontre: Elle est brève et passagère quel-
ques jours et quelques nuits, un jour ou une nuit seulement.

2°) Discours poétique: Il est nettement appauvri. La réalité vient appauvrir
l'imaginaire et le fictif. En retrouvant B, A ne souffre plus et donc ne chante plus.
Seule d'idée d'une éventuelle séparation peut rendre cette phase fertile en créa-
tion poétique et Rouïcha de dire à ce propos:

*«Je t'en supplie, Amour de mon cœur
Quand on se séparera
Ne raconte mes misères à personne».*

Le portrait de la femme et les métaphores cosmiques et animales

Avant d'entamer les métaphores cosmiques et animales présentes dans le chant amoureux, relevons d'abord certains éléments érotiques exploités par les chanteurs berbères.

1°) Les cheveux semblent être pour le poète un élément privilégié. Tressés ou épars, ils sont toujours présents dans le poème.

*«Viens dormir auprès de moi
Et de tes cheveux épars
Protège moi du froid»
ou encore*

«O vous au longs cheveux retombants»

Le poète compare la femme à une pouliche dont les cheveux atteignent les fers et formule le souhait de la chevaucher:

*«Il sied à une pouliche
Que son dos soit gras lisse
Qu'elle dresse l'encolure».*

2°) A côté des cheveux, d'autres éléments du visage sont également présents. Citons les dents, les sourcils, les yeux et surtout l'œil fardé de Koheul. Il y a très souvent opposition entre les yeux noirs et les dents blanches. De même, le poète insiste sur l'écartement qui existe entre les dents.

«C'est l'écartement que tu as entre les dents que j'aime». Du côté de l'ornement nous ne pouvons que constater la négligence des poètes pour le vêtement et les bijoux, de même, ils ne font allusion qu'aux parfums naturels qui se dégagent du corps de la femme aimée. Ce qui frappe donc c'est le nombre très restreint des éléments corporels évoqués: cheveux, dents, bouche, sourcils, yeux. Visiblement le visage de la femme chantée apparaît comme le point de mire. Les régions érotiques dont on ne parle pas dans les poèmes, à savoir les hanches et les reins, c'est la danse qui permet de les mettre en relief. Ici, le geste prend le relai de la parole.

Les métaphores cosmiques et animales

Tout au long de cette approche de la littérature orale du Moyen-Atlas, nous avons constaté la présence manifeste des animaux et du cosmos. Que cela soit dans les chansons ou dans les contes, les animaux abondent et la nature dans toute sa diversité (rôchers, fôrets, fleuves, sources, montagnes et plaines) tous ces éléments interviennent soit pour être un refuge à l'amour, soit pour se dresser en obstacles infranchissables et freiner les désirs qui l'accompagnent.

Commençons par élucider les métaphores animales.

Toute la poésie orale est faite de comparaisons; on retrouve souvent des gazelles, des colombes, des pigeons mais également des animaux sauvages tels le lion, la panthère, le chacal et bien d'autres fauves effrayants et dévorateurs.

Très souvent, pour décrire sa bien-aimée, le poète la compare à une colombe trempant son bec dans l'eau claire d'une source. Il fait indéniablement allusion à sa féminité, à son innocence et à sa beauté qu'il oppose à la laideur du corbeau qui est par ailleurs, le symbole du malheur.

*«Est-ce que le corbeau
Peut espérer imiter
La démarche d'une colombe?»
disait Hammou ou Lyazid*

C'est ainsi que dans la chanson berbère, la colombe symbolise les sentiments nobles et incarne la beauté physique et morale. La fidélité de la colombe est de loin exemplaire.

Cheikh El Ghazi Bennacer insiste sur cette qualité rare :
*«Si tu m'apprivoisais comme on apprivoise un pigeon
Si j'avais une aile
Tu t'envoles, je m'envolerais avec toi».*

L'image de la femme, nous la retrouvons métaphoriquement aussi à travers la gazelle:

*«J'ai trouvé des gazelles au bord de mon chemin
Combien j'aurais voulu avoir un fusil»
clamait Moha ou Mouzoune*

A côté de la colombe et de la gazelle qui représentent la beauté fugitive de l'amour, les poètes berbères mettent en relief la noblesse du cheval ainsi que la grâce de sa stature plantureuse.

*«O jument noire aux flancs blancs
Combien j'aurais voulu te monter
O jument à la crinière dorée».*

Ces vers peuvent s'adresser dans un premier lieu au cheval lui même qui représente beaucoup de choses dans la culture et la littérature berbère, mais ils peuvent suggérer l'image de la femme brune aux flancs blancs dont la poète est épris.

*«Quand j'annonce à mon pied le départ vers l'aimée
Il marche au galop comme un cheval noir».*

La chanson comme d'ailleurs le conte populaire, mettent en scène des animaux qui ont chacun sa particularité; le lion pour sa puissance et sa majesté, le tigre pour sa férocité, le chacal pour sa ruse et sa malice, bref toute la faune est présente dans cette littérature orale. Pour mieux cerner la problématique, il nous semble plus fructueux de pousser l'analyse dans le sens de l'éthnobiologique et d'insister sur la manière dont les éleveurs de bétail et les paysans de l'atlas interprètent le monde végétal et animal qui les entoure. Autrement dit de dégager la signification culturelle de ces végétaux et de ces animaux, leur identification et leur rôle dans la vie matérielle et spirituelle des habitants de l'atlas. Si les poètes de l'atlas parlent des forêts, des ruisseaux, des arbres et d'autres éléments de la nature, c'est parce qu'ils les cotoient quotidiennement et les utilisent; l'arbre donne le bois, l'herbe sert à nourrir le bétail et l'eau des rivières à arroser les champs. D'où les nombreuses métaphores liées au terroir:

*Ne compare-t-on pas la jeune mariée à «la source
Que l'herbe entoure
Qu'elle soit tel un peuplier
Qui donne l'ombre aux passants».*

Nous comprenons donc après cette brève approche ethnobotanique et

éthnozoologique, que la flore et la faune occupent une place de choix dans la production littéraire orale du Moyen-Atlas.

Conclusion

Telle est donc la chanson berbère dans ce qu'elle a de plus classique et de plus beau, car on assiste malheureusement ces dernières années à une métamorphose de la chanson berbère. La production littéraire a pris de nouvelles orientations:

On va de plus en plus de la chanson longue à la chanson courte on va vers le rythme rapide, vers l'intégration d'un nouveau lexique enfin vers l'arabisation de la chanson. Le phénomène Rouisha est une preuve convaincante. Parmi les facteurs qui ont entraîné ces changements, on peut mentionner entre autres, le désir de commercialiser ce produit littéraire et d'acquérir une vaste clientèle s'exprimant majoritairement en arabe. Seuls les initiés s'attachent encore à la chanson traditionnelle.

Après avoir constaté que l'invasion du monde moderne a appauvri terriblement la littérature du Moyen-Atlas, nous nous permettrons de poser une série de questions:

La littérature berbère peut-elle encore subsister et à quel prix ?

Y-a-t-il inadéquation entre la culture véhiculée en langue berbère et la vie moderne et urbaine ?

Doit-on moderniser la langue pour qu'elle puisse rendre compte des réalités actuelles et des changements intervenus ?

Toutes ces questions restent ouvertes et je les soumets à votre appréciation.

La poésie orale du Moyen-Atlas fruste ou courtoise ?

PEYRON Michael
Faculté des Lettres-Rabat

On croit souvent que la production orale poétique du Moyen-Atlas se limite à quelques couplets aux assonances un peu faciles qu'échangent entre eux de rudes bergers réunis le soir autour du feu de camp. En attendant la prochaine fête, où, en compagnie des femmes, on rivalisera d'imagination, voire d'improvisation, tant du point de vue chant que du point de vue accompagnement musical: tambourin, violon ou flûte.

Vision un tant soit peu réductrice que ma communication se propose de modifier. S'il est exact que certains refrains et couplets courts semblent refléter que cette grivoiserie bruyante, voir bon enfant, que l'on associe communément aux fêtes campagnardes. La poésie orale s'octroie, par ailleurs, de véritables titres de noblesse.

L'existence même de cette poésie ne traduit pas forcément une licence de mœurs extravagante. Même si de petits centres bien connus comme Aïn Leuh, Bou mia et Tighessaline ont acquis une certaine notoriété, dont souffre la réputation du Moyen-Atlas dans son ensemble, cette production orale assure avant tout un rôle d'exécutoire. Les situations imaginaires évoquées ne doivent pas être prises comme étant le reflet fidèle d'un quotidien réel où liaisons et brouilles entre amants seraient monnaie courante. La morale communautaire trouverait d'ailleurs à y redire. D'autant plus qu'en dehors des périodes de fêtes, ce ne sont que les jeunes, garçons et filles, qui prononcent ces couplets, et encore se garde-t-on bien de le faire en présence des parents. Il est certain, en revanche, qu'entre eux ils se défoulent à l'occasion de nombreux petits récitaux impromptus.

Etant donné le peu de temps dont je dispose, je laisserai de côté les œuvres longues — chants religieux et chansons-gazette, ou timdyzin — pour ne me consacrer qu'aux couplets et strophes plus courts.

On en distingue essentiellement deux types: l'izli et la tamawayt. Le premier représente le couplet, on distigue, de base. Il est de longueur variable, chaque type comportant quelques refrains à la mode dont on ne saurait le dissocier. Ce sont d'ailleurs ces derniers que l'on entend le plus fréquemment, grâce à la radio. En voici deux exemples.

— *awiyat-i ger s amazir n-usmun-inu*
ad-ra3ax, ad-ra3ax is-as d-iusa !

Emmenez-moi vers le campement de mon ami
Que je voie, que je voie si celà lui convient!

— *asi rrrhil-ens, a wa, asix winu dar-as*
max is-du-bettun ayt-tidukkla, a wenna rix ?

Change donc de bivouac et je viendrai camper devant toi.
Pour quoi les amis vivraient-ils séparés, ô mon amour ?

Quant à la tamawayt, il s'agit d'une forme plus raffinée. Il s'agit d'une strophe modulable de longueur variable, obéissant à un agencement qui diffère selon le contexte, contenant des vers incisis, à caractère courtois ou didactique, exprimés dans un langage recherché où foisonnent les termes anciens. L'étude de la tamawayt, que j'ai entreprise ces dernières années dans les régions de Tounfit et de Mrirt, entreprise passionnante, débouche sur un paysage poétique idéalisé, sur une matière aux qualités sonores agréables, au symbolisme recherché, et où l'écart entre le signifiant et le signifié, perceptible aux seuls initiés, s'avère parfois sensible.

Un paysage poétique idéalisé

Pour bien comprendre la poésie orale chantée du Moyen-Atlas, il s'agit de cerner le paysage idéalisé qu'elle renferme. Il s'agit, bien entendu, d'une spatialité irréelle, hors du temps, mais présupposant, outre la bienaimée et son amant, un certain nombre de protagonistes, plus ou moins hostiles à cette union qui est d'ailleurs reconnue comme étant éphémère par excellence.

Ce sont d'abord les parents, représentés comme des personnes ne comprenant rien aux problèmes des jeunes, (c'est vraiment un archétype universel!) et apparemment insensibles à la notion du parfait amour. Deux distiques (izlan) illustreront notre propos:

*- a mais d ibbas, hiddat i wayd rix !
mgar turum nekk ay tt isegman*

*O la mère, ô le père, laissez donc ma bien-aimée,
Même si vous l'avez enfanté, c'est moi qui l'ai élevée.*

*— may rix lissi, a baba, ula sa n-teguri ?
rix tiqsmirin nna itgima wenna rix ?*

*A quoi bon le lycée, ô mon père, ou les études ?
Je n'aspire qu'aux petites roches où m'attends celui que j'aime!*

Deuxième personnage-clef, l'émissaire ou envoyé (amazan), qui, bien qu'étant sensé assurer l'intermédiaire entre les deux amoureux, est trop souvent à l'origine de malentendus pouvant aboutir à une brouille quand il ne reprend pas tout simplement l'idylle à son compte en courtisant lui-même la belle, par exemple. C'est dire qu'il a très mauvaise presse, ainsi que nous le rappelle ce refrain:

*— illan way nhubba i tmazirt nna ur-itekka udar
ula kkan imazan tama-ns !*

*Mon amoureux existe dans un pays que ne foule aucun pas
et où les envoyés ne passent point à ses côtés!*

Car l'amazan peut devenir jaloux, rejoignant alors une catégorie plus large, les im3idan (envieux ou médisants) qui, au courant de la liaison, ne connaîtront de repos que lorsqu'ils y auront mis fin. Ils sont souvent évoqués:

Voici deux strophes (timawayin):

*— iwa, ata yasmun nnan-i im3idan temmud
awix-ed elsettan, afex-s id ar-ttersaqd!*

*O toi, l'ami, les envieux m'ont annoncé ta mort
J'ai apporté le suaire, je t'ai trouvé menant joyeuse vie!*

— *a yasmun, l3ar-ens diyi, l3ar-inu afella-nes;
ran-ax im3idan bettu-nes !*

*O ami, prends soin de moi comme je prends soin de toi;
les envieux souhaitent notre séparation!*

Dernier protagoniste — le successeur auprès de l'amant ou de la belle. C'est une préoccupation moins pressante, mais qui exerce tout de même une certaine fascination.

Dans l'izli suivant, la belle souhaiterait que son ex-ami, pour lui faire honneur, ne s'affiche pas en compagnie d'une laideronne !

— *A yasmun nna yumenex, id imsis ayd wattex ?
a yas tzenzid-i gas ad-ur esserx-as taman!*

*O ami, en qui j'ai eu confiance, est-ce là ta considération ?
Tu m'as vendue, n'est-ce pas, alors ne me dévalorise pas !*

Un autre couplet trahit, par-delà la mort, une inquiétude peut-être plus profonde:

— *a wayd immuten yumayn i3yd idder
aha d'ikka ad-yannay ma d'itmun way nhubba ?
si je pouvais mourir deux jours et revenir à la vie
Puis passer voir en compagnie de qui se trouverait mon (amoureux)*

Les qualités sonores

Pour être appréciée une poésie se doit de présenter une sonorité agréable à l'oreille. C'est le cas de la production du Moyen-Atals. Si les rimes externes que l'on a coutume de trouver dans la poésie européenne sont relativement rares, par contre, les rimes internes à base d'assonance abondent, dont voici quelques exemples:

Une tamawayt

- *a yay d-izran izri-yi d usmun irzan
ammiy bnix agadir n-taddart itattil*

*O malheur de moi, mon amoureux m'a occasionné des déboires
Semblables à la chute d'un mur édifié de mes mains!*

Un izli

— *a was yurun a sa urba day semmasen tasa
adday da-iturar i-taddart, ammiy nemharas!*

*Si je t'avais enfanté, ô petit garçon, puis nommé cœur
En te voyant jouer à la maison cela m'eut rappelé l'étreinte (de mon amoureuse !)*

Un exemple, aussi, de rime externe, dans l'izli suivant :

— *kkix (d) tama-n3ari slix i sa da-ttrun,
tenna-yi tasa-nu, a yaytma, bar id asmun !*

*En passant auprès de la forêt j'ai entendu quelqu'un pleurer,
Mon cœur m'a dit, ô mes frères, peut-être est-ce mon amour !*

Le symbolisme

Les images sont parfois fort plaisantes, bien souvent recherchées, mais leur compréhension reste à la portée de tous, en général, comme dans les izlan suivants:

— *am udfel illan i l3 amud ayd yix,
ar iyi ssamum wenna rix am uzal !*

*Je suis pareil à la neige qui séjourne dans les ravins,
Telle la canicule, celle que j'aime me fait fondre !*

— *matta ibrossi tiyyid it, a wayd rix ?
ammiy menakar bu 3 ari d-unezdam !*

*Quel procès m'as-tu dressé là, mon amour ?
C'est comme la rencontre du forestier et du ramasseur de bois !*

— *yix sezert in uhhbib azdid,
adday iders gifi i3zib-i lhal !*

*Je sers de perchoir à mon oiseau d'amour;
Lorsqu'il se pose sur moi il me fait plaisir !*

Le signifiant et le signifié

J'ai choisi dans mon corpus une dizaine de strophes du type tamawayt que je me propose de présenter et interpréter. C'est sans conteste la forme la plus belle de toute la poésie orale du Moyen-Atlas. Déclamée tout en marchant à travers la campagne, ou exécutée sous forme de lwayt («appel») en tout début de soirée, par son côté impersonnel, indirect et dénué de toute grossièreté, elle permet au dialogue de s'établir tout à fait convenablement entre deux jeunes gens qui se courtisent. Il est possible d'affirmer que l'on se trouve en présence d'une véritable poésie courtoise berbère. La tamawayt suivante résume parfaitement cette notion, basée avant tout sur la finesse et la discrétion.

— *adday da-derx i-titt wenna g-illa (n) ul
k-ad-issin ma as ennix qebl ad-its nsiwll*

*Lorsque je baisse la paupière, celui au cœur sensible
Comprendra ce que je cherche à lui dire avant même que je ne parle !)*

Ainsi que nous le constaterons d'après les exemples ci-après, cette poésie fait appel à une certaine connaissance du support contextuel à défaut de quoi on risque de n'y rien comprendre.

— *nekkin d-aberrani gg wedex ad iyi ineg sa
xf uhezza n-titt; innin-as lhub axf immuten?*

Moi l'étranger, je crains que l'on me tue

Pour une œillade les gens diront: «C'est d'amour qu'il est mort !»

Un étranger traversant un village craint de lever les yeux sur les jolies femmes de peur qu'un mari jaloux ne le tue !

— *a yazimil, tiyyid-it, a tuga; mes eddix s-ameddakwl,
innix-as (en nhessa-d i-tfunast l*

*Quel plaisir m'as-tu fait, ô herbe, si je me rends chez
mon ami, je dis à mes parents que je fauche de l'herbe pour la vache!*

Cette tamawayt rappelle que pour bien les jeunes filles la corvée d'herbe est vue avant tout comme étant une bonne occasion de se rapprocher de la maison de l'être cher.

*a yirden n'-uzagar, ur id is ttxam
taggurt ur-guri allig ur kun silex !*

*O blé de la plaine, ce n'est pas que vous soyez mauvais,
Je ne dispose point de fonds pour vous acheter!*

Un montagnard indigent épouserait bien une jolie citadine de la plaine, mais sa bourse n'est pas assez garnie pour couvrir les frais du mariage.

*rix ak salex, sai (i) iselli nna d ikkan aksar
is da ittagul ad-iggaf i-asawn?*

*Je désire te questionner; demande à la pierre qui a roulé
sur la pente si elle cherche à revenir pour remonter?*

Le message est assez clair. Un amoureux éconduit cherche-t-il après coup à retrouver les faveurs de sa belle ? On admirera le vocabulaire, puisé parmi les termes ayant trait à la topographie montagnaise des locuteurs du Moyen-Atlas.

*— ikka-d guri 3ari, ikka-d assar,
ikka-d umariy igenna, iuzen-t-id usmun-inu !*

*L'amour m'est venu par la montagne, par la plaine,
Par le ciel, c'est mon amoureux qui me l'a envoyé !*

Même remarque pour cette tamawayt où l'amour prend une substance véritablement tri-dimensionnelle.

*ag-as zemert, ag-as rabuz, sud-as;
xar-as at-tgussed, han aberrad ur-s-iwalf !*

*Tiens, fait bouillir le thé, prends le soufflet, active-le;
Attention tu vas te brûler, la théière n'est pas habituée à toi*

Cela s'adresse à une jeune femme qui, désirant se marier, ne connaît que bien mal l'art de tenir une maison, de préparer le thé, service que son futur mari risque de lui réclamer en premier lieu.

Les rôles sont renversés dans la strophe suivante:

*ar-itrun na3na3 id enn ag ider ifassen
i wenna ur-as-ssinin, axxub ay tt enn yag !*

*La menthe va pleurer le jour où elle va tomber entre les mains
de celui qui ne sait pas s'en servir; le chagrin va la tuer!*

*La jolie femme un peu fragile, telle la menthe qui nécessite que l'on prenne
soin d'elle, va souffrir lorsqu'elle se trouvera mariée à un mufle.*

*— mims ittegga wul n-wedda iseksiwn
imetti n-tament ? idda umxxib ur-telligen !*

*Qu'a-t-il donc au cœur celui qui observe
le miel pur ? Le mufle s'en va sans goûter !*

Dans le cas présent, la jolie femme s'indigne de ce qu'un prétendant éventuel se soit présenté sans poursuivre plus avant sa court. imetti-n-tament, le miel à l'état pur, symbolise ici la beauté parfaite.

Une autre tamawayt cherche à établir un parallèle avec le monde des animaux:

— *May d'as t inix dgi yur guri gas aserm am wussen;
da-tegg wedx ad-emuttex qifs!*

*Que dois-je te dire à présent que je n'ai qu'un seul intestin
comme le chacal, je crains d'en mourir!*

C'est la fringale d'amour. L'homme en question est un perpétuel affamé, comme le chacal dont la morphologie stomacale l'oblige sans cesse à chercher une proie pour la dévorer !

Poussé jusqu'à son paroxysme, l'amour peut faire naître dans les esprits des idées de meurtre, comme en témoignent les deux strophes suivantes:

— *wenna iregwin aman igr-i d'usmun-inu
a wa kksa u rebbi, izguran i uskelu ens
Celui qui remue l'eau entre moi et on ami
Enlève lui, ô seigneur, les racines à son arbre !*

Ces paroles imagées sont à l'intention de quelque amzan qui a réussi à faire naître un malentendu entre la belle et son galant.

*-a wa g i3mmer attay s-tadunt n-ifiger
ad-diye3 awrag is-as i uhhbib-inu at-isew !
O si je pouvais préparer du thé avec de la graisse de vipère
Jusqu'à ce qu'elle tourne au jaune et le donner à boire à mon amoureux!*

Dans le cas présent, la femme éprouve pour son ami une telle passion, qu'elle envisagerait de l'empoisonner plutôt que de permettre à une rivale de le lui enlever !

Après ces nombreux exemples tirés de timawayin, je reviens à un izli que j'ai entendu tout dernièrement et qui traduit bien l'écart entre le signifiant et le signifié.

— *ssuf ay (d) hadig dra alliy iwezd ad-iwrig
gas yuk en yid ayd huwig izela3-t ubulxir
Regarde combien ai-je surveillé le maïs jusqu'à ce qu'il soit prêt à mûrir
Il a suffi d'une nuit d'inattention pour que le sanglier vienne tout ravager!*

Le message initial, facilement perceptible, reflète une vérité quotidienne qu'éprouve bien des imazigen: de nuit les sangliers ravagent leurs récoltes maïs, devant l'interdiction de chasse imposées par le Forestier, l'homme est réduit à camper sur place en allumant des feux, ou en faisant du bruit lorsque les bêtes noires sont annoncées. Dans notre couplet, en revanche, le champ de maïs est une jolie jeune fille que notre homme convoitait depuis belle lurette. Il lui a suffi d'une nuit d'inattention pour qu'un rival la lui ravisse !

Conclusion

Je pense qu'il faut à présent conclure. Par le biais des quelques exemples concrets que je viens de vous présenter, je pense avoir démontré que la poésie orale du Moyen-Atals est digne d'intérêt. La richesse de son symbolisme et de son vocabulaire, circontancié par excellence, allant de pair avec l'aspect indirect

de son énoncé, contribuent à lui donner une tournure indéniablement courtoise. Elle mérite d'autant de retenir l'intérêt du chercheur que ses origines remontent à un passé fort lointain. Elle a dû fleurir sous sa forme première à une époque contemporaine de celle des bardes celtiques. Elle, a assurément, devancé de quelques siècles les premiers troubadours aquitains. Qu'elle ait pu survivre, pratiquement inaltérée, jusqu'à nos jours est un gage, à la fois de son dynamisme, et du rôle culturel important qu'elle continue de jouer au sein de la communauté des amazigens au Maroc. J'irai jusqu'à dire que cette longévité est de bonne augure pour l'avenir. La poésie orale du pays amazig a encore de beaux jours devant elle.

التداخل اللهجي في مدينة مكناس

الاستاذ عبد العزيز العماري
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
مكناس

يتناول العرض الموجز الذي سأقدمه، كمساهمة متواضعة، في «ندوة المحاضرة الاسماعيلية الكبرى» موضوع «التداخل اللهجي في مدينة مكناس»، ويتضمن عدة تساؤلات سأحاول الاجابة عنها. إن مايمكن ملاحظته، بسهولة، هو أن سكان مدينة مكناس يتكونون، حاليا، من أصليين (ويشكلون، اليوم الأقلية) ومن وافدين من جهات مغربية مختلفة (ويشكلون، اليوم، الاغلبية). ولاشك في أن الوافدين حملوا معهم لهجاتهم وفي أن الأصليين متمسكون بلهجتهم غير أننا سوف نرى أن هذا التمسك لن يصمد طويلا لأسباب سنذكرها في موضع لاحق من هذا العرض. وعلى ضوء هذه المعطيات، هل يمكن الحديث عن لهجة مكناسية مشتركة ؟ لايمكن تأكيد ذلك أو نفيه إلا إذا قمنا بتفسيء المستعملين الذين نفترض أنهم مسؤولون عن وضع مثل هذه اللهجة. إن المستعمل لابد أن يكون إما :

- 1) من سكان مدينة مكناس الأصليين (ولد في مكناس من أبوين أصليين، مع مايكشف صفة «أصلي» من صعوبة على مستوى التعريف).
 - 2) أو من مواليد مكناس ومن أبوين وافدين (أو أحدهما أصلي والآخر وافد). هنا تعترضنا مشكلة تحديد معايير أقدمية الوفود.
 - 3) أو وافدا وله أقدمية كبيرة في مكناس
 - 4) أو وافدا وله أقدمية متوسطة أو قصيرة المدى.
 - 5) أو مسنا، أو شابا، أو طفلا، أو ذكرا، أو أنثى.
 - 6) أو مثقفا، أو غير مثقف.
- يمكن إضافة تقييغات أخرى، لكننا نميل إلى الاختصار لضيق المجال.

إذا تأملنا هذا التفييء (الذي لا أعتبره نهائيا)، فإننا نسمح لأنفسنا بالافتراضات التالية :

- 1) ان الشخص المسن الوافد إلى مكناس يبقى محتفظا بلهجته الأصلية، ولا يتأثر بالللهجات الأخرى.
- 2) أن الشباب والاطفال، الوافدين والأصليين، الذين لا حظ لهم من الثقافة يحتفظون، أيضا،

بلهجاتهم، لكن مع امكان أن يتأثروا بلهجات غيرهم بكيفية تدريجية وبطيئة.

3) أن الشباب والاطفال المثقفين (أي الذين لهم حظ من الثقافة بمعناها الواسع بفضل التمدرس مهيزون، أكثر من غيرهم، للتأثير والتأثر.

وقد أثبتت عدة بحوث ميدانية (هي عبارة عن استجابات في عدة اعداديات وثانويات، وفي بعض المحلات التجارية) بعض هذه الافتراضات.

قد يتبادر إلى الذهن التساؤل التالي : مامدى تأثير لهجة السكان الاصليين في لهجات الوافدين ؟ لكن، أليس من الضروري أن نعكس التساؤل ليكون كالتالي : مامدى تأثير اللهجات التي حملها الوافدون معهم في اللهجة الأصلية ؟

إن السؤالين، معا، مشروعان، وسنحاول الاجابة عنهما. لكن قبل ذلك، لأبد من تصحيح اعتقاد خاطيء ظل شائعا، ويتمثل في اعتبار اللهجة المكناسية لهجة «الرزأة» (نطق الجيم زابا) و«الجابأة» (نطق الزاي جيما)، و«السأسأة» (نطق الشين سينا) و«الشأسأة» (نطق السين شينا). لكن الواقع الحالي (لان مايهنا هنا، هو المنظور الساكروني لواقع لهجي موجود) يدعوننا إلى إعادة النظر في بعض الافكار المسبقة الناتجة عن ملاحظة غير موضوعية.

إن هذه الظواهر الصوتية كانت، فعلا، طاغية في الاستعمال عند بعض السكان الاصليين وعند بعض الوافدين ممن تأثروا بها. لكن هذه الظواهر في طريقها نحو الانقراض، حتى بات من الصعب العثور، في أحياء مختلفة من مكناس، على ناطقين بها. وقد تأكد ذلك عن طريق بحث ميداني أجريته في عدد من أماكن التجمعات (المقاهي — الشارع، المؤسسات التعليمية).

صحيح أن بعض الاحياء في مكناس مازالت تعرف هذه الظواهر الصوتية (أكدال، قاع وردة — الروامزين...)، ومع ذلك فإن استعمالها ليس عاما في هذه الاحياء.

أما في كثير من الاحياء الجديدة نسبيا، وعددها يفوق بكثير عدد الاحياء القديمة، فإن هذه الظواهر الصوتية قليلة الاستعمال.

هذا ماتأكد من خلال بحث ميداني، وإن كان محدود المجال فقد أكد لي عدد من الاساتذة في ثلاث اعداديات وثلاث ثانويات ان استعمال هذه الظواهر الصوتية ضئيل جدا، ولايتعدى تلميذا واحدا في القسم، بل إن من الاقسام مالا يوجد بها تلميذ يسأىء أو يجأجىء.

قد يتساءل البعض عن سر التخلي عن هذه الظواهر الصوتية أو عن سر انقراضها التدريجي. إن الاسباب متعددة نذكر منها :

1 — اقتناع المتكلم المكناسي المعاصر بأن هذا الاستعمال غير مرغوب فيه لانه يشوه الدلالات ويثير السخرية (وهذا تفسير سوسيو — لساني).

2 — سهولة تصحيح هذا الخطأ ذي الطبيعة الصوتية ولاسيما عند الشباب والاطفال المدرسين (هنا تجدر الإشارة إلى الدور الكبير الذي تلعبه المدرسة في هذا المجال).

3 — التأثير باللهجات المتواجدة في مدينة مكناس (ولنا عودة إلى هذه النقطة).

إذا سلمنا بهذه الملاحظات، سهل الاقتناع بأنه لم يبق للهجة المكناسية القديمة ميزة صوتية خاصة تؤثر بها في لهجات الوافدين، حيث أصبحت (أو هي في طريقها نحو ذلك) لهجة عادية قابلة لان تؤثر وتتأثر.

تدفعنا هذه الملاحظات إلى افتراض مايلي :

- 1) إن الحديث، اليوم، في ظل الوضعية الحالية، عن لهجة مكناسية مشتركة ناشئة عن التأثير المتبادل بين اللهجات المتواجدة أمر ممكن.
- 2) إن اللهجة المكناسية المفترضة ناتجة، أيضا، عن تأثير الجو الثقافي السائد (الراديو — التلفزة — الصحافة — المدرسة)، هذا النوع من التأثير ينطبق، أيضا، على كل اللهجات المغربية.
- 3) ان التأثير الثقافي ساعد على تهذيب اللهجات، مما جعل كل لهجة تقبل أن تعطي ماتحتاج إليه اللهجات الأخرى وأن تتخلى عن كل مالا ينسجم مع اللهجة المشتركة أو عن ما لا نفع فيه لها.
- 4) ليس معنى هذا أن الوافد أو الأصلي يشعر بعملية التأثير والتأثر، فكل عمل من هذا القبيل يتم لا شعوريا.
- 5) هذا التأثير والتأثر هو مانسميه بالتداخل اللهجي، وهو عبارة عن تفاعل بين اللهجات يكون من ثمراته انتاج لهجة مشتركة.

6) لا يهمننا أن تكون لهجة أكثر تأثرا من اللهجات الأخرى، أي أن تعطي أكثر مما تأخذ.

يمكن أن نتأكد من صحة هذه الافتراضات من خلال الملاحظات التالية :

إن المكناسيين لا يحسون، اليوم، في أماكن التجمع المختلفة : المقاهي، الشارع، المدرسة... إلخ، بأية صعوبة في التفاهم والتواصل فيما بينهم، بل إنه من الصعب على الباحث أن يكتشف، من خلال التخاطب التلقائي بين المكناسيين (المثقفين من الشباب والاطفال على الخصوص)، الجهة الجغرافية التي وفد منها المتكلم (إذا كان وافدا) أو اللهجة الأصلية التي ينتمي إليها. هذا ما أكدته بحوث ميدانية بالرغم من محدوديتها.

يمكن التأكد من هذا التداخل اللهجي على جميع المستويات : الصوتي والمعجمي والتركيب.

1 — المستوى الصوتي :

إذا سلمنا بفكرة أن الظواهر الصوتية الشاذة التي ذكرنا (الرزأة، السأسأة، الجأجأة والشأشأة) في طريق الانقراض، فإننا لن نحتاج إلى إدراجها في إطار التداخل الصوتي، فالمتكلم المكناسي ينطق، حاليا، بالفونيمات التالية : /Z/, /z/, /S/, /s/, (ز، ج، س، ش) نطقا عاديا.

هذا الحكم العام يفرضه الواقع اللهجي وعززه البحث الميداني، وهو حكم يتناقض مع ماتعود عليه الملاحظ العادي الذي لا يستطيع التجرد من فكرة لاصقة بذهنه.

إذا سلمنا بهذا الحكم، تمكنا من ملاحظة التداخل الصوتي على مستوى نطق الفونيمات المستعملة. وسنكتفي، لضيق الوقت ببعض الأمثلة التي اخترناها كنموذج :

أظهر بحث ميداني (معتمد فيه على استجواب أكثر من 1000 شخص من مختلف الفئات) أن اللهجة المكناسية استقرت، أخيرا، على استعمال /qaal/ (كّال) بدل /qaal/ (قال). معنى هذا أن الفصحى، هنا، لم تؤثر في اللهجة المكناسية. ومع ذلك، يوجد بعض الناطقين بالقاف (قال). ليس معنى هذا أن /q/ (ق) ينطق، دائما، /g/ (كّ)، فالمكناسي ينطق /qalb/ (قلب) لا /galb/ (كّلب) أن الفونيمين مستعملان معا في اللهجة المكناسية. لكن المعجم (Lexique)، الذي تم انتقاؤه من هذه اللهجة

أو تلك، هو الذي يحدد /q/ أو /g/، فاستعمال كلمة «قَلْب» تفرض النطق بـ /q/، وكذلك /qolla/ (قَلَهُ)، مع العلم أن الأصل عند بعض الوافدين هو نطقها بـ /g/ (كَمْ) — /galb/ و /golla/. وهذا تصرف ينسجم مع قانون التأثير والتأثر.

(2) المستوى المعجمي :

تتوفر اللهجة المكناسية الحالية على معجم مشترك بين الوافدين والأصليين. تنطبق هذه الملاحظة على الكلمات المتداولة في العمليات التواصلية، حيث يندر استعمال الكلمات المترادفة. يمكن أن نلاحظ، مثلا، وجود معجم موحد لأسماء المواد الاستهلاكية. فكلمة «لقامه» مستعملة أكثر من مرادفتها : «نعناع»، بالرغم من أن هذه الأخيرة تبدو أصلح للاستعمال لما لها من دلالة معجمية واضحة، بينما الأولى فرضت نفسها بالرغم من غموض مصدرها الدلالي والمعجمي، ويكثر استعمال كلمة «القنارية» وتأتي كلمة «الخرشف» في المرتبة الثانية من حيث الاستعمال. هذه الأمثلة لا تكفي لإصدار حكم قاطع، ولكنها ذات قيمة بالنسبة لما نحن بصدده...

(3) المستوى التركيبي :

على المستوى التركيبي عرفت اللهجات المختلفة تهذبا بفضل التفاعل بينها وبفضل تأثير الصحافة والأذاعة والمدرسة، فنتج عن ذلك توحيد للإطارات التركيبية.

ففي حالة النفي، مثلا، يعبر بطريقة واحدة :

— ماجاش — ماخرجش — ماعرفش

وفي حالة الحصر يعبر بطريقة واحدة كذلك :

— ماجا غير واحد — ماحضر غير محمد

ويعبر، في حالة الاستفهام، بطرق تختلف فيما بينها قليلا، لكن ذلك الاختلاف لا يعدو أن يكون نوعا مما يسمى بـ «المتغيرات» أو «البدائل» (variantes). وهكذا نلاحظ، مثلا، الاستعمالات التالية :

أ — أش بغيت ؟ — ب — آشنوبغيث ؟ — ج — آشنوبغيث ؟

وقد أكد بحث ميداني أن التعبير (ب) أكثر استعمالا من (أ) و(ج)، وأن التعبير (ج) يأتي في المرتبة الثانية من حيث الاستعمال.

هذه الأمثلة التي سقنا لا تكفي للخروج بنتائج احصائية دقيقة وشاملة تكون بمثابة قوانين نهائية، لأن العرض نفسه ماهو إلا مقارنة متواضعة لموضوع شائك تحتاج الاجابة عن التساؤلات التي يطرحها إلى بحث جاد ووقت طويل.

وإذا قورنت اللهجة المكناسية، اليوم بكثير من اللهجات في مختلف الحواضر المغربية، خصوصا إذا ألغينا من أذهاننا الظواهر الصوتية الشاذة، فإننا نجدها أكثر بساطة.

والبساطة تعني، هنا، سهولة تبنيها من طرف كل مستعمل مغربي، لأنها لا تشتمل على خصائص صوتية أو معجمية أو تركيبية معقدة أو شاذة. هذه النتيجة أكدها، أيضا، بحث ميداني.

التقرير الأدبي للندوة

الأستاذ علال الحجام
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
مكتاس

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله خاتم المرسلين
سيدي العميد
سيدي رئيس المجلس العلمي
زملائي الأساتذة
معشر الطلبة والطالبات
أيها السادة أيتها الأوانس والسيدات

نود الإشارة في البداية الى أن اللجنة التنظيمية بعد مناقشات طويلة ارتأت من الضرورة الاستغناء عن فكرة التقرير العام المفصل والاستعاضة عنه بتقرير الكشف والتسار، وذلك لأسباب منها :

- 1 — أن الندوة اتسمت بتعددية واسعة في اللغات والخطابات من الصعب على أي واحد أن يمتلكها ويحيط بها جميعا، فهي فسيفساء فكرية لا يمكن إدراكها بهذه السهولة.
- 2 — أن التقارير التي أعدها الأساتذة المقررون هي أيضا لاتشذ عن هذه التعددية، مما يجعلها لغات مختلفة، يتعين على قارئها الامساك بأسرار مرجعيتها لفهم مصطلحاتها وجوهرها.
- 3 — أن الاشكالية المنهجية في تمايز الحقول المعرفية المختلفة تفصح عن نفسها في هذه الندوة، لتؤكد بشكل لا يدع مجالا للسجال والجدال أن عمليات الاسقاط بشتى ألوانها لاتصح في غياب شروط وجود هذا المنهج أو ذلك.

تحكي الأسطورة أن بروكوست قاطع الطريق الشهير، كان يخضع أسراه لعملية تشويه بشعة، وذلك بتخصيص سريرين أحدهما طويل يضع عليه الأجسام القصيرة فيقوم بتمطيها، والثاني قصير يضع عليه الأجسام الطويلة التي ينقص من طولها حتى تساوي طول السرير، وفي كلتا الحالتين يبقى التشويه جوهرها بروكوستيا أساسيا.

من هذا المنطلق، نريد تجنب تقديم تقرير عن الندوة هو بمثابة تحصيل الحاصل، والحال أن التخليص تلخيص غير آمن، لأنه يخضع المادة المقدمة طيلة أربعة أيام، أي الجسم الطويل، الى اقتطاع على سرير بروكوست، لكي تدخلوا في الوهم وتطمئنوا وتدخل سكونيتنا فنخضع أنفسنا نحن أيضا الى سلطة بروكوست، وخوفا من عملية التشويه هذه، لا نسمح لأنفسنا إلا بالانطلاق من وصف سريع لأشغال

الندوة في أفق رصد معطياتها، لتأسيس تقاليد علمية ثقافية جديدة تضيء طريق النوايا الجميلة. وفيما يلي بعض المعطيات التي نسوقها لخلاصات تسائل هذه الندوة ونمارس عليها النقد الذاتي ربما. إن القضايا المطروحة جميعها، لتستدعي منها إعادة نظر عميقة في تحديد مفهوم العمل الثقافي المتميز بكونه مختلف الأنواع والأجناس، مما يفرض تحديد مفهوم للندوة نفسه.

1 — إن الندوة كما نعتقد في اللجنة التنظيمية هي قبل كل شيء، فرصة للقاء بين عدد من الكفايات العلمية لمطارحة موضوع واحد ومناقشته من طرف المشاركين والحاضرين، وهذا أمر يؤكد حوارا مفتوحا بين فعاليتين كل منهما تتكون من فاعلين اثنين: فالفعالية الأولى هي حوارية المشارك المتلقي كحوار مباشر أكثر اتساعا، والفعالية الثانية هي حوارية المشارك/المشارك، وهي قناة فتحت بين السادة الأساتذة المساهمين في الندوة في مختلف المحاور. إن هذه الديباجة إذن لتجعل ندوة مثل هذه ذات مذاق علمي خاص، يحم علينا محاولة إدراك الغاية: مكناس، دون أن نشرح بالضرورة جميع أفنان أشجارها واحد واحدا: أي التفاصيل ولعل هذا ما نجده في جميع العروض والمداخلات التي هدفت الى الاحاطة بالكل الشمولي، فذهب بها طموحها العلمي إلى تجاوز الوقت المحدد في بعض الأحيان ونحن واعون أن هذا لم يكن إلا نتيجة لطموح علمي نبيل من السادة الأساتذة المشاركين يحمدهم بينا كان المطلوب هو عرض الخلاصات ومناقشتها.

2 — تلاحظ اللجنة التنظيمية أن المشاركة كانت متنوعة، إن على مستوى الاهتمامات والمشارب، أو على مستوى الجامعات والكليات، ولذا فإن أغلب كليات الآداب بالمغرب والمعاهد العليا بمكناس كانت ممثلة في هذه الندوة، إذ ساهم فيها أساتذة باحثون من: الرباط، فاس، المحمدية، البيضاء، أكادير، مراكش، ومكناس، مما جعلها فرصة للحوار، وتبادل الخبرات بين المشاركين ومؤسساتهم العلمية، وهو أمر لا يتاح إلا قليلا في نظرنا. وسمحوا لنا أن نستطرد قليلا في هذا الباب لنشر قضية اختيار المداخلات التي قد تساءل عدد من الأساتذة عن معاييرها لنؤكد أننا توصلنا بعدد كبير من المداخلات العلمية القيمة يغطي بالتقريب ندوة لا يمكن أن تتم الا في حدود ستة أيام مما دفعنا الى تحديد شروط للاسبقيات تركز بالأساس على مدى ارتباط المداخلة بموضوع الندوة أولا وبالمحاور المتصلة به ثانيا. لذلك لم ندرج عددا من المداخلات العلمية الجادة من بينها مداخلات بعض أساتذة هذه الكلية نفسها علما بكون طلبة هذه الكلية والجمهور المثقف بالمدينة على اتصال مستمر بأساتذة الكلية بمكناس من خلال مساهمتهم في تنشيط الحركة الثقافية داخل المدينة، هذا فضلا عن كون الندوة كما أعلننا في الافتتاح تعتبر بداية وليست نهاية.

3 — ولقد سجلت ندوة الحاضرة الاسماعيلية كثيرا من الفضائل، منها مشاركة ذوي التجربة والكفاءة من المسؤولين عن المصالح الادارية والتقنية الجهوية إلى جانب زملائهم الجامعيين للحوار والمناقشة وهو أمر غالب ما يغيب في مثل هذه الندوات، مما يعمق نرجسية الواحدة والمونولوجية، ويلغى بغير مبرر مبدأ التعددية والحوارية.

4 — إن من بين ما عملت الندوة على تحقيقه هو ربط البحث العلمي بالتنمية الوطنية والجهوية، حتى لايبقى البحث العلمي غارقا في ملوكه الخاص، ولذا، فإننا نعتبر هذه التساؤلات المهمة التي أثيرت في تظاهراتنا الثقافية هذه مادة علمية ينتظر منها أن تساهم فعلا في تحديد الأسبقيات التنموية للمنطقة الوسطى الجنوبية.

5 — لشد ما كان يخيف أعضاء اللجنة التنظيمية، أن تتجاوز عدة حقول معرفية في ندوة واحدة، وقد كان أملنا هو أن تتكامل هذه الحقول فيما بينها، لاضاءة الموضوع — المحور «الحاضرة الاسماعيلية الكبرى» الذي يصعب علينا أن ندعي. الآن وبعد أربعة أيام من المناقشة الاحاطة به من جميع جوانبه.

وهكذا تتأكد صحة الرؤية السابقة، فتتكامل المحاور فيما بينها لأننا حاولنا التعرف على الحاضرة الاسماعيلية واكتشاف عواملها وعلاقتها في إطار تصور شمولي يبدأ من حفريات المدينة ومنطقها تاريخيا وثقافيا، ويصل إلى الراهن في إطار الابعاد السوسيو — ثقافية، والمعطيات الاقتصادية والتنموية المرتبطة بها جدليا. وهي رؤية ما كان لها أن تتضح لولا إلغاء التجزئية كهدف، وتشغيل شبكة من العلاقات تنسج الكُلِّي الشامل.

هكذا يمكن اعتبار هذه الندوة تظاهرة ناجحة، ليس بمعنى أنها أجابت عن كل التساؤلات التي يطرحها موضوع الحاضرة الاسماعيلية الكبرى، وإنما بمعنى المساهمة في توليد التساؤلات الجوهرية التي ينطلق منها كل بحث علمي جاد وهادف، يفتح الآفاق واسعة لمضاعفة الجهد، وتقديم المزيد من البذل والعطاء.

ختاما، لابد من الاعتراف بالجميل لكل من له فضل في إنجاح ندوة الحاضرة الاسماعيلية الكبرى، وما كان يكتب لها النجاح لولا تظافر جهودهم جميعا سواء أكانوا باحثين أو إداريين أو عمالا، ملقنين أو ملتقنين، ونخص بشكرنا السادة الأساتذة المشاركين، وعلى الأخص، أولئك الذين قطعوا المسافات الطويلة لكي يتيحوا لنا فرصة اللقاء والحوار والمطالبة، وليعتبروا جميعا أنهم انتسبوا إلينا كما انتسبنا إليهم ونحن نوطد روابط علمية بمناسبة هذه الندوة.

واسمحوا لنا أن نشكر أيضا رجلا ملكت هذه الندوة عليه تفكيره ووقته هو السيد عميد الكلية الأستاذ عبد الحميد لطفني الذي لم يأل جهدا في تيسير مهام اللجنة التنظيمية ومساعدتها بخبرته وتجربته على حسن الاعداد والتنظيم.

وشكرا لكل من تتبع أشغال هذه الندوة، لأن الحضور مشاركة بالفعل، وإلى اللقاء في تظاهرة أخرى بحول الله ومشيعته، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة الأستاذ مولاي مصطفى بن أحمد العلوي

رئيس المجلس العلمي

بمكناس

بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي الأمين وعلى آله وصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيها الاخوة الاعزاء السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته إنه لشرف عظيم أن يحضر الانسان هاته الندوة المباركة التي تسجل بها كلية الآداب والعلوم الانسانية هاته المكرمة التي تهديها لمدينةمكناس العزيزة والتي تمشح بها ما تراكم على تاريخ المدينة من غش وضياب كادت من كثافته تصبح نسبيا منسيا مع أن لها في ماضي تاريخنا البعيد والقريب ما تعتر به وترفع رأسها عاليا بين أخواتها من المدن المغربية العزيزة سواء في ميدان العلم والمعرفة أو في ميدان تخليد الحضارة بكل وجوهها وألوانها أو في ميدان الجهاد والكفاح من أجل الحفاظ على حرية المغرب ودوام استقلاله وفي فك أساره وانعتاقه. ولا أزيد على ما دججه الأساتذة الذكاترة فيما أتخفوا به الحضور في هذا المدرج العظيم والحمد لله على عظيم توفيقه فمنه التوفيق ومنه السداد.

وكلمة قصيرة أضيفها الى هذا وأعلن للملائكم عن عظيم سروري واغباطي بهاته الندوة المباركة التي سجلت في سجل التاريخ الذي لاينسى للمحسن إحسانه كما لا ينسى أن يسجل على المقصر تقصير.

وإذا أعلنت عن اغباطي وسروري بهذا الذي رأيت وسمعت فلأنتني حضرت ولله الحمد ميلاد هاته الكلية يوم ميلادها وكنت من الذين غمرهم عظيم السرور بتحقيق رغبة عريقة ترددت في نفوسنا منذ فجر الاستقلال وعندما رأينا جهات ومدنا من وطننا فازت بالسباق وأسست فيها كليات ثم جامعات وبقيت مدينتنا تنتظر حظها. كنا نتساءل ونتمنى وقد حقق الله الرجاء وها نحن نرى لا أقول كليتنا ولكن جامعتنا التي سيكتمل بحول الله جهازها بإنشاء كليات أخرى وأتمنى على الله أن تحقق الرغبة التي سبق أن تدارس المختصون أمرها ووضعها ملفا يحتوي على حجج ومؤيدات لتكون بحول الله الكلية الثالثة ألا وهي كلية الطب بإذن الله تعالى. تتبعها كليات الى جانب المعاهد التي أسست للتعليم الجامعي والتي يتكون فيها أساتذة ومهندسون وهذا ما يفرح له المؤمن ويدعو الله لمحقيقه بالتوفيق.

ولا بد أيها الاخوة أن أشير في الأخير الى أمر هام جدا ويجب أن يجعل في الحسبان ألا وهو أمر الثقافة الاسلامية التي هي رأس مال كل مغربي ويدونها لايمكنه أن يشعر بقوته المعنوية فنحن أمة مسلمة والمسلم لايمكن فصله عن عقيدته وعبادته وأخلاقه وسلوكه ولا يمكن أن يشعر بكرامته مالم يحافظ على هاته المقومات

ولا يدرك أهميتها في تكوينه ووجدانه إلا إذا كان على علم بها ومن هنا فإنه يجب على كل مثقف كيفما كان وفي أية شعبة اندمج أن يعلم بقواعد دينه وليس في ذلك ما يشغله عن تخصصه وتضلعه في نوع المعرفة التي يريد أن يمتاز فيها، وإنما هو الايمان الذي لايجوز أن يكون صحيحا إلا عن علم ولهذا والله أعلم أنشئ في كل كلية شعبة للدراسات الاسلامية لتكون هاته الدراسات وما يتعلق بها قريبة من طلاب التخصصات الأخرى وحتى لا تغيب عن الجميع وهي في حياتنا معشر المسلمين بمثابة الهواء للجسم ومعلوم أن الجسم لايعيش إلا في هواء نقي .

ومن التيسير على المتدجين في شعب المعرفة على اختلافها أن توجد دروس حرة تمكن المتجشعين إليها من قدر من المعرفة ضروري لحياة فكره الديني وروحه المومنة. وفي هذا الميدان أنشئت الكراسي العلمية في بعض المدن ومنها مدينتنا هاته وابتداء من غد الاثنين ستبتدىء الكراسي العلمية بالمسجد الأعظم بعد صلاة العصر وبين العشاءين وسيدرس فيها تفسير الكتاب العزيز القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف الى جانب الفقه المالكي وعلم الميراث والتوقيت والآداب العربي وعلوم البلاغة والنحو وأخيرا علوم القراءة فهي سبع كراسي سيتمكن الراغبون في الاستفادة منها من مشاهدة أزيد من عشرين درسا في مختلف هاته الفنون وسيكون مستوى الدروس رفيعا وفي مستوى جامعي وليس أسلوب الوعظ والارشاد.

كما يطيب لي أن أعلن ومعني رفيق وصديقي الأستاذ سيدي محمد العرائشي باب مكتبة الجامع الأعظم التي هو محافظها ومكتبة المجلس العلمي بالمدينة الجديدة مفتوحتان في وجه كل الطلاب والأساتذة للاستفادة بما فيهما من كتب في مختلف الفنون.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يرزقنا وإياكم التوفيق والسداد وأن يحفظنا في عقيدتنا وأخلاقنا وكل مقوماتنا الأخلاقية والأدبية والدينية وأن يلهم عاهلنا الحسن الثاني كل التوفيق حتى يسير بأمنته في طريق الخير والسمو والنجاح وأن يقر عينه بطاعة شعبه وولي عهده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة السيد عميد الكلية عند اختتام أعمال الندوة

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة العلامة مولاي مصطفى العلوي، رئيس المجلس العلمي
زملائي الاعزاء
سيداتي، سادتي

يسعدني ونحن على وشك اختتام هذه الندوة المباركة التي دامت أربعة أيام تخللتها عروض ومناقشات قيمة تشرف المشاركون وتشرف كلية الآداب والعلوم الانسانية بمكناس كما يسعدني أن أنوه بمجدية الأساتذة الباحثين ومختلف العاملين في قطاعات الادارة والانتاج وبالمستوى الرفيع للعروض القيمة التي قدموها وللنقاشات الرفيعة المستوى التي تلتها حرصا منهم جميعا على أن تبرز هذه التظاهرة العلمية كحدث علمي وثقافي متميز.

هذا ونعتز بالتفاعل الحاصل بين الكلية من جهة ورجالها من جهة أخرى، هذا التفاعل المثمر والخلاق الذي ساهم في خلقه السادة المتدخلون وعبر عنه حرص مدينة مكناس على تكريم العلم والعلماء اعترافا منها بالدور الفعال الذي يلعبه الباحث في الدفع بعجلة التنمية الى الأمام.

إن هذا التفاعل حصل كذلك داخل الكلية التي كونت لجنة تنظيمية نشيطة عملية دون كلل أو ملل في جو من الوثام والغبطة وسهرت على توفير الشروط الضرورية لانجاح هذه الندوة. ويسعدني بهذه المناسبة أن أقدم أصدق التهاني الى كل من ساهم في تنظيم هذه التظاهرة العلمية وأن أنوه بالدعم المادي والمعنوي الذي قدمته مدينة مكناس وعلى رأسها السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم مكناس كما أنوه بتشجيع علماء هذه المدينة وعلى رأسهم فضيلة العلامة مولاي مصطفى العلوي، رئيس المجلس العلمي. وتقديرا من هذه الكلية لمجهودات كل الجهات التي عملت على إنجاح هذه الندوة نؤكد لكم عزمنا على طبع أعمال هذه الندوة قبل نهاية السنة الجامعية الحالية لابراز حصيلة كل هذه المجهودات المظفرة. وقبل الاعلان عن نهاية أعمال هذه الندوة، يشرفني أن أقرأ على مسامعكم نص البرقية المرفوعة الى مقام حضرة صاحب الجلالة مولانا الحسن الثاني دام له النصر والتأييد.

مولاي صاحب الجلالة :

بمناسبة التظاهرة الثقافية الكبيرة التي عرفتها رحاب كلية الآداب والعلوم الانسانية بمكناس حول موضوع «الحاضرة الاسماعيلية الكبرى»، ابتداء من يوم الخميس 12 صفر الخير 1407 الموافق لـ 16 أكتوبر 1986 إلى غاية يوم الأحد 15 صفر الخير 1407 موافق 19 أكتوبر 86. تشرف خادم الاعتاب الشريفة — أصالة عن نفسه، ونيابة عن أساتذة الكلية والمشاركين أن يرفع إلى سدتكم العالية بالله آيات الولاء والاحلاص متشبهين بهجكم القويم، ومسترشدين بنصائحكم العالية، وتوجيهاتكم السامية التي ترفع من شأن الثقافة والمتقنين، وتفسح المجال لرجال التعليم للمساهمة في تنمية شمولية مرتبطة بأصالتنا، وتراثنا الزاخر، والغني بالامجاد والاعلام الذين صنعوا العبقريّة المغربية الاصلية.

لقد تناولت هذه التظاهرة — يامولاي — محاور تاريخية وجغرافية، واقتصادية وثقافية وفنية ساهمت كلها في إغناء البحث العلمي جهويا ووطنيا لإبراز حضور الحاضرة الاسماعيلية الكبرى في الشخصية المغربية.

أدام الله العز والنصر لمولانا أمير المؤمنين حامي حمى الملة والدين، وأطال عمر جلالة الملك الحسن الثاني المحفوظ بالسيح المثاني، وأقر عينه بولي عهده الأمير الخليل سيدي محمد، وصنوه مولاي رشيد وحفظه بما حفظ به الذكر الحكيم. في أسرته العلوية الشريفة. وأبقاه الله حصنا حصينا، ودرعا واقيا للبلاد والعباد حتى يحقق النصر، والرفعة والتقدم لامته انه سميع مجيب.

والسلام على المقام العالي بالله

خادم الاعتاب الشريفة

إمضاء : عبد الحميد لطفى

عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية

بمكناس

صدر ضمن منشورات الكلية

1 – مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية بمكناس

2 – مكناسة

3 – بييليوغرافية مكناس

4 – «دليل» الأيام التشكيلية الأولى

5 – Littérature maghrébine d'expression française de l'écrit à l'image

الفهرس

- 14 تقديم
- 16 كلمة السيد عميد الكلية
- 18 كلمة اللجنة المنظمة

المحور الطيمى والاقتصادى

- 27 مكناس فى بيئتها الطبيعية
- ادريس الفاسى
- 35 المنطقة الجنوبية الوسطى والتهيئة الزراعية فى بوادى الأطلس المتوسط
- الحسن الحنان وعمر إدهل
- 41 ملاحظات حول دور مدينة مكناس فى تنظيم الجهة الوسطى الجنوبية
- محمد جهير
- 47 السكن القروى فى سايس مكناس
- محمد مباشر يازفى
- 51 التطور الحديث لسكان مكناس وظهيرها
- عبد اللطيف فضل الله الجامعى
- 69 بناء حمرة وتكون المجتمع الأوربى
- رقية بلققدم
- 89 تنظيم المحال الصناعى بمكناس
- عبد السلام مشكورى
- 95 أشكال العمران الذاتى لمدينة مكناس
- مولاي الحسان والزويت
- 99 العلاقات بين القطاعات المنتجة بمكناس
- محمد بولسفان
- 103 إحصاء الحرف والحرفين بإقليم مكناس
- عبد الكريم نشيد
- 133 الصناعة التقليدية من الحرفية إلى التعاونية، مكناس نموذجاً (بالفرنسية)
- محمد عبده

- 145..... الحرف الصغيرة بمكناس : من أجل تعاونيات لليد العاملة (بالفرنسية)
محمد صلاح الدين

المحور التاريخي

- 149..... قبيلة المكنيتيين من خلال النقائش والنصوص الاغريقية واللاتينية
محمد مقدون
- 159..... علاقة وليلي بباديتها في العهد الروماني
علي واحدي
- 169..... الاتحاف كمصدر من مصادر الدراسة اركيولوجية وتاريخ الفن بمدينة مكناس
عبد العزيز توري
- 179..... مدائن مكناسة القديمة من العصر الادريسي إلى أواخر عصر الموحدين
محمد التونسي
- 201..... علاقة مكناس بالأندلس والأندلسيين حتى نهاية العصر المريني
محمد بنشريفة
- 207..... في التاريخ المونوغرافي، نموذج الروض المتون في أخبار مكناسة الزيتون
بنسالم حميش
- 213..... الوجود المغربي في المشرق من خلال تراجم أعلام مكناس في مصادر مشرقية
حسن الصادقي
- 247..... التواصل الثقافي بين الحاضرة الاسماعيلية والزواية الشراوية
أحمد بوكاري
- مساهمة علماء مكناس وفقهائها في حل مشاكل المجتمع المغربي عبر كتب
النوازل الفقهية خلال بداية العصر الحديث
- 253.....
محمد مزين
- 261..... رفع الالتباس عن وضع الأسرى المسيحيين بمدينة مكناس (أواخر القرن 17م وبداية القرن 18 م)
ادريس أبو ادريس
- 273..... التدابير العسكرية بمدينة مكناس في القرن التاسع عشر : طبيعتها وأهدافها
محمد اللحية
- 283..... مقاومة مدينة مكناس وأحوالها للتدخل الفرنسي
محمد البكراوي
- 289..... الانتفاضة الشعبية بمكناس، نموذج إحداث بوفكران 1937
بوشتي بوعسيرة

محور الثقافة والفنون والآداب

- 307..... الثقافة بمدينة مكناس في حاضرها وماضيها
محمد العراشي
- 329..... الحركة الثقافية في مكناس خلال القرن الثاني عشر الهجري من خلال نماذج واعلام
علال معكول

- 339..... • فنان تشكيلي من مكناس : قراءة في أعمال محمد القاسمي
مليم العروسي
- 343..... • صورة مكناس في الأدب المغربي
عباس الجراري
- 351..... • مكناس في التخيل الشعري : شعر عبد السلام الزيتوني وعلال الحجام كنموذج
بنعيسى بوجالة
- 367..... • على هامش كتاب «في المغرب» (بالفرنسية) بير لوتي (PIERRE LOTI)
كي دو كاس (GUY DUGAS)
- 369..... • المآثورات الشعبية في كتب بن زيدان العز والصلوة كنموذج
محمد بن عبد الجليل
- 387..... • وصف مكناس في شعر الملحنون
أمين العلوي الديبي
- 401..... • أعلام الموسيقى بمكناس (البوعصامي نموذجاً)
عبد العزيز بن عبد الجليل
- 419..... • شعر الأطلس المتوسط (بالفرنسية)
مايكل يرون
- 427..... • الشعر الأمازيغي في الأطلس المتوسط (بالفرنسية)
محمد الطايقي
- 429..... • التداخل اللهجي في مدينة مكناس
عبد العزيز العماري
- 433..... • التقرير الأدبي للندوة
علال الحجام
- 436..... • كلمة الأستاذ مولاي مصطفى بن أحمد العلوي
(رئيس المجلس العلمي بمكناس)
- 438..... • كلمة السيد عميد الكلية عند اختتام أعمال الندوة

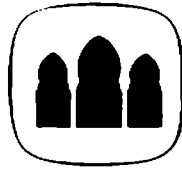
مطبعة المعارف الجديدة
الرباط 707-08.09.15.38



Directeur : Abdelhamid Lotfi
Doyen

Adresse : Faculté des Lettres et des
Sciences Humaines
B.P. 4009 Meknès/Maroc
Tél : (05) 249.29/245.83

I.S.S.N 0851 2086



Université Sidi Mohamed Ben Abdellah

**Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines
de Meknes**

actes
du
colloque

du
GRAND
meknès

1988



Université Sidi Mohamed Ben Abdellah

Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines
de Meknes

actes
du
colloque

du
GRAND
meknès

1988